# سور الحواميم

## دراسة بلاغية تحليلية

تأليف

الدكتور عبد القادر عبد الله فتحي علوش الحمداني

دار الكتب العلمية®
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

| | | | |
|---|---|---|---|
| Title | : VERSES OF ḤA-MĪM<br>RHETORICAL AND ANALYTICAL STUDY<br>Ṣuwar al-Ḥawāmīm | سور الحواميم<br>دراسة بلاغية تحليلية | : الكتاب |
| Classification | : Quranic sciences and Rhetoric | علوم قرآن وبلاغة | : التصنيف |
| Author | : ʿAbd al-Qādir al-Ḥamadānī | عبد القادر الحمداني | : المؤلف |
| Publisher | : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut | دار الكتب العلميـــة - بيـــروت | : الناشر |
| Pages | : 512 | 512 | : عدد الصفحات |
| Size | : 17*24 | 17*24 | : قياس الصفحات |
| Year | : 2011 | 2011 | : سنة الطباعة |
| Printed in | : Lebanon | لبنـــان | : بلد الطباعة |
| Edition | : 1st | الأولى | : الطبعة |



DKi
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



Exclusive rights by © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah** Beirut-Lebanon No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah** Beyrouth-Liban Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لـدار الـكتـب العلـميـة بيروت-لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.



ISBN 978-2-7451-7182-5
ISBN 2-7451-7182-8
9 782745 171825

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

الحمد لله على حِلمه بعد عِلمه، وعلى عَفوه بعد قُدرته، حمدا يوافي النِّعم، والصَّلاة والسَّلام على محمد سيد العرب والعجم، وعلى آله وأصحابه وأمَّته خير الأمم، وبعد:

فقد انفرد القرآن الكريم بأسلوبه المعجز ونظمه البديع في عرض موضوعاته المختلفة. ويتجلى التأكيد على سموِّ بيانه وذروة بلاغته من خلال متابعة الأسرار البلاغيَّة التي تحتشد بين ثنايا سوره الكريمة، والّتي تستحوذ على الأذهان وتأسر النُّفوس وتعمق الجوانب الإنسانيَّة في الذَّات ليتحقق الغرض الأسمى في ظلِّ التَّوجيهات العظيمة والعواقب المُنَوَّه عنها ويزداد أولو الألباب عبرة وبصيرة. ولعلَّ مِنْ أسمى أغراض النَّظم القرآني أنَّه يقوم على الغرض الدِّيني المحض الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تشوبه الأوهام، وهو يسلك سبيل الصَّواب ويرسخ في النَّفس دعامة الكيان الرُّوحي، ويؤصل في روعها التَّوجيهات الدِّينيَّة الرَّائدة، وكان ذلك مِنْ أبرز الخصائص الّتي ينفرد بها الأسلوب القرآنيُّ والذي يصبُّ في قوالب الإعجاز ويحاط بسياج من التَّراكيب العجيبة المحكمة والأساليب البلاغيّة العالية.

وبعد ثانية:

فهذه قطرة نغرفها مِنْ بحرٍ لا ينتهي عطاؤه ولا يبلغ مداه، وكيف ينتهي ذلك العطاء وهو من المعطي الأول والآخر (ﷻ)، وهو العطاء المتجدد والينبوع الصَّافي العذب الذي بهر العقول وأراح النُّفوس وطمأنَ القلوب. لذلك آثرت أنْ يكون القرآن الكريم ميدان بحثي إيمانا منِّي بأنَّ القرآن هو أساس كلِّ علم مِنْ علوم العربيَّة وآدابها، وانَّه لينبغي أنْ يكون المنطلق الأول للباحث ليكون بناؤه في قابل أيامه مرتكزا على أساس قويم، فكان عنوان البحث (سور الحواميم، دراسة بلاغيَّة تحليليَّة) لِمَا تميَّزت به هذه السُّور السَّبع مِنْ وحدة في الموضوعات الّتي تناولتها، ووحدة في مطالعها وتوافق

ترتيبها في المصحف مَعَ ترتيب نزولها، ووحدة في مكان نزولها فهي من السّور المكية، فضلا عمَّا جاء في ذكر فضائلها في الأثر. أمَّا أسلوب نظمها فهو جزء من الإعجاز البلاغيّ في القرآن الكريم.

ولمَّا كان الخط البياني للدراسات البلاغيّة التذوقية قد توقف بعد عبد القاهر الجرجاني، واقتصرت جهود البلاغيين على احتواء كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) واستنباط القواعد البلاغية منهما، فقد أخذ تيار التقعيد والتقنين يجرف الدرس البلاغي ويسدل السحب على معين الذوق فيه، لذا آثرت في هذه الأطروحة أنْ أصل ما انقطع وأنْ أعود إلى البحث البلاغي في منابعه الأولى لأعالج موضوعات البلاغة، فاعتمدت التخفف من التقسيمات الكثيرة والتفريعات المتنوعة التي ينسى آخرها أولها ويشعر القارئ الذي يحاول استيعابها بفراغ جعبته في النهاية مهما أجهد نفسه وأتعب ذاكرته. ولا شك في أنَّ الفنون البلاغية بأقسامها المعروفة وعلومها الموجودة ما هي إلاَّ تيسير على القارئ، وهي ليست غاية في حد ذاتها وإنَّما هي وسائل تعين على تبيان الجمال، وأدوات تساعد الباحث والقارئ على تذوق النص واستشفاف منابع الجمال فيه، لأنَّ معرفة المصطلح البلاغي حلقة أولى تؤدي إلى أخرى، وهي بعث للحركة النفسية واللذة والمتعة من خلال استخدام هذا التشكيل البلاغي دون غيره، وليس في كثرة المصطلحات والتقسيمات ما ينفع في إيضاح الصورة البلاغية، فضلا عن أنَّ وحدة علوم البلاغة هي الوسيلة إلى الإقناع البلاغي والذي هو غاية فن القول، والبلاغيون القدامى لم يقسموا البلاغة إلى ما يؤدي إلى تجزئتها ونضوبها بقدر ما هدفوا إلى درس تربوي يرمي إلى تيسير حفظها وتمثلها، أمَّا إذا أصبح هذا التقسيم من معاول هدمها، فالأولى أنْ ننظر إليها على أنّها وحدة واحدة، وغاية هذه النظرة هي الانتفاع بها على أكمل وجه بوصفها وسيلة من وسائل فهم الإعجاز القرآني وفن القول العربي.

ومِنْ أجل ذلك حاولنا في منهجنا في هذه الأطروحة الابتعاد عن الدّخول في القواعد والتقسيمات والتفرعات البلاغية الكثيرة، وجاء ذلك بعد اليقين مِنْ أنَّنا لَنْ نضيف شيئا في هذا الميدان لأنَّ العقول التي أبدعت في تحرير القواعد والمصطلحات والتّقسيمات قد أوفت بمَا يتطلبه ذلك وأوغلت فيه إلى الحد الذي وصلت إليه البلاغة، فضلا عن أنَّنا نريد أنْ نقترب من النص ونتخذ القيم البلاغية وسائل لبحثه وتحليله لأنَّه

هو الأصل الذي مِنْ أجله كانت الجهود البلاغيَّة، فتناول النَّص بالتّحليل البلاغيّ والكشف عَنْ فنية التّعبير وبلاغته والاستدلال إلى مَا وراءَه مِنَ الأهداف الدّينية والى مَا فيه متأثر نفسي في المتلقي هو الثمرة التي نسعى إليها وذلك أنفع وأجدى مِن الجري وراء مباحث كثيرة التقسيمات والتّشعبات، فبوساطة التّذوق البلاغي نستطيع أنْ نتبيَّن كلّ ذلك، مع إدراك أنَّ التذوق ليس هو الاستمتاع بجمال العبارة فحسب، وإنَّمَا هو مع ذلك وعي بما تحتويه العبارة من فكر وحس، وما ترمي إليه مِنْ مرام قريبة أو بعيدة. وهكذا جدت هذه الأطروحة في التّفسير والتّحليل وكانت ذات مَيل إلى ذلك تخوض فيه في كل مناسبة محاولة أنْ تتبيّن ما وراء الكلمة والصّورة مِنْ خطرات وهواجس وأهداف، متخذة مِنْ بعض الدّراسات السّابقة لها أنموذجا تحتذي به، منها (تفسير التّحرير والتّنوير) للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، و(الإعجاز البلاغيّ) للدكتور محمد أبو موسى، و(خطاب الأنبياء في القرآن الكريم) للدكتور عبد الصّمد عبد الله محمد، وغيرها مِن الدارسات التي انتهجت منهج التّحليل البلاغيّ دون الخوض في التّقسيمات البلاغيّة الكثيرة.

لقد جدّ البحث في الاستمداد مِن المدونات التّفسيرية والمنابع البلاغيّة واصطنع لنفسه منهجا تحليليا سعى من خلاله إلى توضيح المفردة على وفق لبوسها الجديد، وإلى عرض تجاوزها لحياة المعجم ومدى ارتباطها له فيما يخدم المعنى المراد، وبيان خصوصيّة دلالتها في القرآن وعرض علاقتها بالنظم مَعَ التأكيد على أهمية المفردة والنظم في بنية الآية، وبيان بلاغة التعبير بها في سياقها مِنْ خلال الموازنة مع السياقات المشابهة له في مواضع أخرى. فلا بد مِن البحث في جوهر الألفاظ وفي مقدار وحيها إلى الذوق ومبلغ تأثيرها في النّفس وإعرابها عن القصد وكفايتها في أداء الغرض، ذلك أنّ دراسة البلاغة العربية وقيمتها النّفسية تكون في تبيان صلة الأساليب البلاغية بتشكيلاتها ومصطلحاتها بالنفس الإنسانية وانعكاسها في فلكها الاجتماعي لتحقق هذه الأساليب ما يرمي إليه القرآن مِنْ أهداف دينية.

أمَّا خطة البحث فقد احتضنت موضوعات الحواميم في فصول سبعة سبقها تمهيد تضمن الحديث عِنْ سور الحواميم مِنْ حيثُ أسماؤها واشتراكها في الابتداء بالحرفين (حم)، ولم نعمد إلى عرض كلّ ما ذكره المفسرون عَنْ هذين الحرفين، فقد تناول هذه المسألة كثير مِن المفسرين والدّارسين وكثرت التّفسيرات والآراء حولها،

والتي أيقنت - بعد كل ما ذكر - إنّ الحروف المقطعة سرّ مِنْ أسرار القرآن المعجز، وتضمن التمهيد أيضا الحديث عَنْ اشتراك الحواميم في المطالع التي تذكر تنزيل الكتاب الكريم، كما تضمن مَا أُثر عَن الرّسول (ﷺ) والسّلف الصّالح مِنْ أحاديث وأقوال عن هذه السّور وفضائلها، وتضمن التّمهيد حديثا عن البلاغة المعجزة في هذه السّور وعن التّحليل البلاغيّ لآياتها. وقد عرض التّمهيد مَا تضمنته الحواميم مِنْ موضوعات مختلفة تكرر ذكرها في السّور السّبع مَع تفاوت المقادير في الطّول والقصر، واختلاف النَّظم القرآني في التّعبير عنها، وقد اعتمد البحث هذه الموضوعات أساسا بنيت عليه خطته، إذ توزعت هذه الموضوعات على فصوله السّبعة، فكانت الخطة وليدة من نتائج البحث. فالسّور السّبع متشاكلة بموضوعاتها مع اختلاف النّظم، ولم يعتمد البحث خطة توزيع الفصول على حسب شعب البلاغة الثّلاث (المعاني والبيان والبديع) خشية تكرار الكثير مِن الآيات في أكثر مِنْ موضع مِن البحث لتضمنها فنونا بلاغيّة تقع ضمن أكثر مِنْ شعبة مِنْ هذه الشّعب الثّلاث، فضلا عن أنّ الخطة البلاغيّة تجعلنا تجزيء الآيات إلى أجزاء وجمل صغيرة بحسب ما تتضمنه من فنون بلاغيّة، ولا شكَّ في أنّ التحليل إلى أجزاء يضيع دوما خواص التَّركيب. وغني عن القول إنّ اعتماد الخطة البلاغيّة ستقصر البحث على الالتزام بالفنون البلاغيّة الواردة في (المعاني والبيان والبديع) ولا سيّما المشهورة والمعروفة منها، ممّا يؤدي إلى إغفال أو تجاوز الكثير مِنْ فنون البلاغة التي تظهر مِنْ خلال المنهج التَّحليلي، فضلا عن أنّ هذا المنهج يظهر تواشج الفنون البلاغيّة وتلاحمها داخل نسيج النص فتظهر بلاغته المعجزة، وقد تركز المنهج التّحليلي على الجانب البلاغيّ مَع عدم إغفال أظهار ما في النظم القرآنيّ مِنْ تراسل المعاني مِنْ خلال تحليل السّياق الذي يرد فيه الفن البلاغيّ، وذلك ليميط اللّثام عن المعاني الثّواني في النص القرآنيّ، وليقدم ثمرة استشفاف وتذوق جوانب مِن الإعجاز البلاغيّ في القرآن.

ولم يعتمد البحث - في خطته - تناول كلّ سورة بمفردها بفصل خاص وذلك لإبراز الوحدة الموضوعية بين هذه السّور. وهكذا آثر البحث أنْ يكون الفصل الأوّل بعنوان (تنزيل القرآن الكريم وصفاته) وهو ما ابتدأت به السّور السّبع بعد الحروف المقطعة، فضلا عمّا تضمنته مِنْ زايات أخرى تعالج هذا الموضوع، وتوزع الفصل على ثلاثة مباحث، الأوّل: (تنزيل القرآن وصفاته باعتبار المرسل)، والثّاني:

(تنزيل القرآن وصفاته لذاته)، والثّالث: (تنزيل القرآن وصفاته باعتبار المخاطبين).

أمّا الفصل الثاني فقد كان بعنوان (النعم الإلهية) تناولنا فيه الآيات التي ذكرت نعم الله تعالى على عباده، وقد توزعت هذه الآيات على ثلاثة مباحث، الأوّل: (نعمة الخلق والإيجاد)، والثّاني: (نعمة التسخير)، والثّالث: (نعمة الهداية).

وجاء الفصل الثّالث بعنوان (قصص الأنبياء والأمم السّابقة) إذ رتبت الآيات فيه على وفق التّسلسل الزمني وتوزعت على مباحث أربعة، أوّلها: (الأنبياء والأمم السّابقة بشكل عام)، وثانيها (قوم عاد وثمود)، وثالثها: (قوم إبراهيم عليه السلام)، ورابعها: (قوم موسى وعيسى) عليهما السلام.

أمّا الفصل الرّابع فهو بعنوان (خطاب الرّسول ﷺ) وقد ضمّ مبحثين: الأوّل: (الخطاب الخاص) حيث تضمن ستة أقسام وهي: خطاب التّشريف، وخطاب التّحبيب، وخطاب التّشجيع، وخطاب التّنفير، وخطاب التّأنيس، وخطاب الاعتبار. والثّاني: (الخطاب العام) وهو ما خوطب به الرّسول (ﷺ) وأريد بالخطاب النّاس جميعا، وقد تضمن ثلاثة أقسام هي: خطاب التهديد أو الوعيد، وخطاب الحجّاج، وخطاب التّلطف.

وتناول الفصل الخامس موضوع (الإنسان، والإيمان والكفر) مِنْ خلال ثلاثة مباحث، الأوّل: (التّقابل بين ذكر المؤمنين والكافرين)، والثّاني: (الإنسان والإيمان)، والثّالث: (الإنسان والكفر) والذي أوثر فيه تقسيم صفات الكافرين إلى أربعة أقسام: الأوّل: (الجدل والتكذيب بالآيات)، والثّاني: (الاستكبار عن العبادة والإعراض عن الدعوة)، والثّالث: (الإشراك والبغي)، والرّابع: (إنكار البعث والحساب).

وعرض الفصل السّادس ما تضمنته الحواميم مِنْ (مشاهد القيامة) وعبر أربعة مباحث: الأوّل: (البرزخ وموقف الحساب)، والثّاني: (التقابل بين أصحاب الجنة وأصحاب النار)، والثّالث: (الجنة)، والرّابع: (النار).

أمّا الفصل السّابع فقد تضمن (قواعد إيمانية) وردت في السّور السّبع، وقد توزعت على ثلاثة مباحث، تناول الأوّل شيئا (مِن القواعد الدّنيوية) فيما ضمّ ثانيها جزءا (مِن القواعد الأخروية)، واتسع ثالثها لجانب (مِنَ القواعد المشتركة). ثم خلصنا إلى خاتمة أوجزنا فيها ما توصلنا إليه من نتائج.

أمّا مصادر البحث ومراجعه فقد تنوعت، إذ اعتمد البحث على كثير مِنَ

المدونات التّفسيرية، يأتي في مقدمتها (تفسير التّحرير والتّنوير) لابن عاشور، و(تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل)، و(روح المعاني) للآلوسي، و(التفسير الكبير) للرازي، وغير ذلك من التراث التفسيري. واعتمد البحث في مرجعيته النظرية على كتب اللغة والبلاغة التي أغنت البحث في الجانب التحليلي.

وختاما لا يسعني إلاَّ أنْ أقضم أعمق آيات الشّكر والعرفان إلى أستاذي المشرف الدكتور أحمد فتحي رمضان، الذي حظي البحث منه بقراءة علمية رصينة، وحظيت منه بالحوار البناء وأفدت مِنْ آرائه وتصوراته التي دفعت خطاي قدما، وأضافت إلى حصيلة معرفتي الكثير، فقد فجر بداخلي - من خلال آرائه وملاحظاته - نبعا صافيا مِنْ أشواق حبِّ البلاغة وتذوقها وحبِّ التأمل في النّص القرآني وإعجازه البلاغيّ، فجزاه الله عنّي خير الجزاء.

وانّي لأرجو أنْ أكون قد قدمت شيئا في هذا البحث ينال رضا القارئ أو يدفعه للاعتراض والمناقشة، ففي كلا الأمرين خيرٌ للبحث وصاحبه، أمّا في الأوّل فالأمر بيّن، وأمّا في الثّاني فإنَّ الرّأي الآخر كثيرا مَا يُثري الموضوع ويكشف عَنْ أبعاد أخرى له غابت عَن الباحث أو قَصُرت عنها رؤيته. فهذا جهد المقل، والله أسأل أنْ يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، خادما لقرآنه العظيم، ومضيئا لطلاب العلم بعض السبيل، إنَّه على كلّ شيء قدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

# التمهيد

الحواميم، أو آل حم، أو ذوات حم، هي سبع سور من القرآن الكريم أوّلها سورة غافر، ثمّ فصلت، ثمّ الشّورى، فالزّخرف، والدّخان، والجاثية، وآخرها الأحقاف، وتشترك هذه السّور بأنّها تبدأ بالحرف (حم) فيجمع على حواميم وحاميمات[1]، وقولهم: (الحواميم) جمع تكسير على زنة فعاليل لأنّ مفرده على وزن فاعيل وزنا عرض له من تركيب اسمي الحرفين: حا، ميم، فصار كالأوزان العجمية مثل (قابيل) و(راحيل) وما هو بعجمي، لأنّه وزن عارض لا يعتد به، وجمع التّكسير على فعاليل يطرد في مثله[2] وقد توالت هذه السّور بعد سورة الزّمر، وفي مصحف أُبي بن كعب أوّل الزّمر (حم)[3]، وسبب هذا التّرتيب والتّوالي هو الاشتراك في الافتتاح بـ (حم) وبذكر الكتاب وأنّها مكية، فضلا عن أنّها نزلت عقب الزّمر متتاليات كترتيبها في المصحف[4]، وثمّة لطيفة أخرى ذكرها السّيوطي وهي أنّه في كّل ربع من أرباع القرآن توالت سبع سور مفتتحة بالحروف المقطعة، فهذه السّبع مصدرة بـ (حم)[5]، وقد جعلوا لها اسم (آل حم) لتآخيها في الفواتح فكأنّها أسرة واحدة. وقد ثبت أنّهم جمعوا (حم) على حواميم في أخبار كثيرة، ومثله السّور المفتتحة بكلمة (طس) أو (طسم) جمعوها على طواسين بالنون تغليبا، فقد روي عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**إنّ الله أعطاني السّبع مكان التوراة، وأعطاني الرّاءات إلى الطواسين مكان الإنجيل، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزّبور**، وفضلني بالحواميم

---

(١) =: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، شهاب الدين محمود الالوسي: ٤٠/٢٤.

(٢) =: التّحرير والتّنوير، محمد الطاهر بن عاشور: ٧٧/٢٤.

(٣) =: تناسق الدرر في تناسب السور، جلال الدين السيوطي: ١٢٩.

(٤) =: روح المعاني: ٣٩/٢٤.

(٥) =: تناسق الدرر: ١٣٠.

**والمفصل، ما قرأهن نبي قبلي**»[١]، وأخرج البيهقي عن خليل بن مرة أنّ رسول الله (ﷺ) قال: «**الحواميم سبع وأبواب النّار سبع، يجيء كلّ حم منها يقف على باب من هذه الأبواب يقول: اللهم لا تدخل من هذا الباب مَن كان يؤمن بي ويقرؤني**»[٢]، وعن النّبي (ﷺ) أنه قال: «**إنّ لكلّ شيء ثمرة وثمرة القرآن ذوات حاميم، هي روضات محصنات متجاورات، فمَن أحب أنْ يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم**»[٣]، وروي عن أنس (ﷺ) عن النّبي (ﷺ) أنّه قال: «**الحواميم ديباج القرآن**»[٤]، وروي عن ابن مسعود أنّ النّبي (ﷺ) قال: «**مَن أراد أنْ يرتع في رياض مونقة من الجنة فليقرأ الحواميم**» وأنّه (ﷺ) قال: «**مثل الحواميم في القرآن مثل الحبرات في الثّياب**»[٥]، وعن ابن عباس (ﷺ) قوله: لكلّ شيء لباب، ولباب القرآن الحواميم[٦]، وفي حديث ابن مسعود: «إذا وقعت في آل حميم وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن»[٧].

وهكذا نجد أنّ لفظة الحواميم قد وردت في هذه الأحاديث والأخبار التي تبين فضيلة هذه السّور السّبع أيضا، وقد قيل: إنّ قول العامة (الحواميم) ليس من كلام العرب[٨]، وقد أكدت الأخبار أنّ السّور السّبع مكية، فعن ابن عباس (ﷺ) قال: «أنزلت الحواميم السّبع بمكة» وعن سمرة بن جندب (ﷺ) قال: «نزلت الحواميم جميعا بمكة»[٩]. ولا يخفى ما بين الحواميم من التّشاكل وهو أنّ كلّ سورة منها بدأت بـ (حم) ثمّ استفتحت بالكتاب أو وصفه، مع تفاوت المقادير في الطول والقصر وتشاكل الكلام في النّظام، وهو ما ذكره السّيوطي في (تناسق الدرر) نقلا عن الكرماني في

---

(١) الدّر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي: ٢٦٨/٧ و=: فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب صديق بن حسين القنوجي: ١٥٥/١٢.

(٢) الدر المنثور في التفسير المأثور: ٢٦٩/٧.

(٣) بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي: ٤١٢/١.

(٤) المستدرك على الصّحيحين، الحاكم النيسابوري: ٤٣٧/٢ والدر المنثور: ٢٦٩/٧.

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد بن عطية: ٢/١٣، والحبرات جمع حبرة وهي نوع من البرود اليمنية المخططة. =: لسان العرب، ابن منظور: ١٥٩/٤ مادة (حبر).

(٦) =: بصائر ذوي التمييز: ٤١٢/١.

(٧) البحر المحيط، لأبي حيان: ٤٤٧/٧. والدر المنثور: ٢٦٨/٧.

(٨) =: تفسير روح البيان، الشيخ إسماعيل حقي البروسوي: ٢٨٥/٨ والتحرير والتنوير: ٧٧/٢٤.

(٩) المحرر الوجيز: ١/١٣. والدر المنثور: ٢٦٨/٧.

(العجائب)[١]، وقد تضمنت الحواميم ذكر الكثير من النّعم الإلهية، وتوجهت في الكثير من آياتها إلى خطاب الرّسول (ﷺ)، وذكرت شيئا من قصص الأنبياء والأمم السّابقة، كما عرضت الكثير من مشاهد القيامة ترغيبا في الجنة وترهيبا من النّار، وكان لذكر المؤمنين وصفاتهم والكافرين ومواقفهم من القرآن العدد الأكبر من آيات الحواميم، وتخللت هذه الموضوعات بعض القواعد الإيمانية، فكانت الحواميم بهذا التّشاكل المتنوع روضات دمثات تتوق النّفوس للتفيؤ في ظلالها والاستزادة من منهلها العذب.

ولا يختلف القول في معنى (حم) عن القول في الحروف المقطعة في السّور الأخرى، وعلى الرّغم من كلّ ما ذكره المفسرون في ذلك تبقى هذه الحروف سرّا من أسرار القرآن الكريم، وتحديا للعرب على أنْ يأتوا بمثله وهو من جنس حروف لغتهم التي يتكلمون بها.

وأوّل سورة من الحواميم هي سورة (غافر)، بصيغة اسم الفاعل والتي تدل على إرادة الحدث، والمعنى أنّ عملية ستر الذّنوب جارية إلى يوم القيامة بشرط الاستغفار والإنابة، وقد سميت بذلك لتكون تعريضا للمجادلين في آيات الله ليشعرهم بأنّهم إذا ما استجابوا فإنّ الله يغفر لهم، وسمّيت بذلك أيضا لأنّ الله تعالى ذكر هذا الوصف الجليل في مطلع السّورة الكريمة ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾[٢] وكرر ذكر المغفرة في دعوة الرّجل المؤمن: ﴿ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾[٣]، وتسمى أيضا سورة المؤمن لذكر قصة مؤمن آل فرعون فيها وقد روى التّرمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ) «**مَن قرأ (حم المؤمن) إلى** ﴿ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ **وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما**»[٤]، وتسمى أيضا (سورة الطّول) لقوله تعالى في أولها ﴿ ذِي ٱلطَّوۡلِ ﴾[٥]، وتسمى (حم الأولى) لأنّها أولى ذوات حم[٦]. ومعظم مقصود السّورة:

---

(١) =: تناسق الدرر: ١٣٠، والإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السّيوطي: ١١٤/٢.
(٢) سورة غافر: من الآية ٣.
(٣) سورة غافر: من الآية ٤٢.
(٤) الدر المنثور: ٢٦٩/٧.
(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٧٥/٢٤.
(٦) =: بصائر ذوي التّمييز: ٤٠٩/١.

المنة على الخلق بالغفران، وقبول التّوبة وذكر وجوب التّوحيد، وعرض تقلب الكفار بالكسب والتّجارة، وبيان وظيفة حملة العرش، وتضرع الكفار في قعر الجحيم، وإظهار عدله تعالى في يوم الحساب، والتّذكير بهلاك القرون الماضية، وذكر جوانب كثيرة من قصة موسى وهارون مع فرعون، وقصة مؤمن آل فرعون، وذكر عرض أرواح الكافرين على العقوبة، والوعد بالنّصر للرّسل، وإقامة أنواع الحجة والبرهان على أهل الكفر والضّلال، مقابل وعد المؤمنين بإجابة الدّعاء، وذكر أنواع العجائب من صنع الله وعجز المشركين في العذاب، والتّذكير بأنّ الإيمان عند اليأس غير نافع، ثمّ الحكم بخسران الكافرين(١).

وتأتي سورة فصّلت بعد سورة غافر، وقد سمّيت (فصلت) بصيغة (فعل) التي تدل على التّكرير والتّكثير وعلى منتهى البيان والتّفصيل، لأنّ الله تعالى فصل فيها الآيات ووضح فيها الدّلائل على قدرته ووحدانيته، وأقام البراهين القاطعة على وجوده وعظمته وخلقه لهذا الكون البديع الذي ينطق بجلال الله وعظيم سلطانه(٢).

ولمّا كان الحديث عن القرآن الكريم هو المحور الرّئيس للسّورة فقد جاء العنوان وصفا لهذا الكتاب في قوله تعالى ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾(٣) وفي قوله تعالى ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ ﴾(٤)، وتسمى هذه السّورة أيضا بـ (حم السّجدة) لأنّها تميزت عن السّور المفتتحة بـ (حم) بأنّ فيها سجدة من سجود القرآن، ولذلك تسمى أيضا (سورة السّجدة) وهو اختصار للاسم السّابق. وتسمى بـ(سورة المصابيح) لقوله تعالى فيها ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾(٥)، وتسمى أيضا (سورة الأقوات) لقوله تعالى ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا ﴾(٦)، وتسمى (سجدة المؤمن) لتمييزها عن سورة (ألم السّجدة) فأضافوها إلى التي قبلها وهي سورة المؤمن(٧). ومعظم

---

(١) =: بصائر ذوي التّمييز: ٤١٠/١.
(٢) =: صفوة التّفاسير، محمد علي الصابوني: ١١٥/٣.
(٣) سورة فصّلت: من الآية ٣.
(٤) سورة فصّلت: من الآية ٤٤.
(٥) سورة فصّلت: من الآية ١٢.
(٦) سورة فصّلت: من الآية ١٠.
(٧) =: التّحرير والتّنوير: ٢٢٧/٢٤.

مقصود السّورة: بيان شرف القرآن، وإعراض الكفار عن قبوله، وذكر خلق الأرض والسّماء، والتّذكير بهلاك عاد وثمود، والتّرهيب من شهادة الجوارح على العاصين يوم القيامة، وعجز الكفار في جهنم، وبشارة المؤمنين بالخلود في الجنان، وتشريف الدّعوة والداعي إلى الله، والاحتراز من نزغات الشّيطان، وذكر الحجة والبرهان على وحدانية الله تعالى، وذكر أحوال الإنسان في النّفع والضّر والإساءة والإحسان، وجزع الكفار عن الابتلاء، وذكر دلائل القدرة الإلهية وإحاطة علم الله بكلّ شيء(١).

وتأتي بعدها سورة الشّورى، ويدل الجذر اللغوي لعنوانها على الإظهار والعرض والاستخراج(٢)، وقد ذكر اسم السّورة في أثناء حديثها عن صفات المؤمنين، وتتبين أهمية الشّورى من موقع ذكرها بين أمهات أركان الأمة الإسلامية وصفات المؤمنين، وجاء عنوان هذه التّسمية تنويها بمكانة الشّورى في الإسلام وتعليما للمسلمين أنْ يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل (منهج الشّورى) لما له من أثر عظيم في حياة الفرد والمجتمع. وقد زيد في افتتاحها بـ (حم) حروف أخرى هي (عسق)، ولذلك تسمى أيضا بـ (حم عسق) وتسمى (سورة عسق) لقصد الاختصار(٣)، وقد خصت بزيادة (عسق) على (حم) لما كان عليه الكفار من شدّة الطّعن في القرآن وقت نزول هذه السّورة فكان التّحدي لهم بالمعارضة أشد فزيد في تحديهم من حروف التهجي(٤). وتعرض سورة الشّورى بيان حجة التّوحيد، وتقرير نبوة الرّسول (ﷺ) وتأكيد شريعة الإسلام، والتّهديد بظهور آثار القيامة، وبيان ثواب العاملين في الدّنيا والآخرة، وذل الظّالمين في يوم الحساب، ووعد التّائبين بالقبول وبيان الحكمة في تقدير الأرزاق وقسمتها، والأخبار عن شؤم الآثام والذّنوب، والمدح والثّناء على العافين من النّاس ذنوب المجرمين، والتّذكير بالنّعم الإلهية وبيان أنّ مرجع الأمور كلّها إلى الله تعالى(٥).

ورابعة الحواميم هي سورة الزّخرف، وقد سميت بذلك لقوله تعالى فيها

---

(١) =: بصائر ذوي التّمييز: ٤١٣/١ - ٤١٤.

(٢) =: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: ٥١٩.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٣/٢٥.

(٤) =: م. ن: ٢٦/٢٥.

(٥) =: بصائر ذوي التّمييز: ٤١٨/١.

﴿ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[١] وسمّاها البخاري في صحيحه (سورة حم الزخرف)[٢]، ولم تقع لفظة (زخرفا) في غيرها من سور القرآن ولذلك كانت عنوانا لها. وتعرض هذه السّورة بيان إثبات القرآن في اللوح المحفوظ، وإثبات الحجة والبرهان على وجود الخالق لهذا الكون وما فيه، والرّد على عباد الأصنام الذين قالوا: الملائكة بنات الله، وذكر المنة على إبراهيم الخليل (ﷺ) بإبقاء كلمة التّوحيد في عقبه، وبيان قسمة الأرزاق، وذكر حسرة الكفار وندامتهم يوم القيامة، كما تذكر جانبا من مناظرة فرعون وموسى، ومجادلة المؤمنين مع ابن الزبعرى بحديث عيسى، وفيها بيان شرف الموحدين ومنزلتهم في يوم الحساب وذكر عجز الكافرين في جهنم، وعرض بعض دلائل القدرة، وأمر الرسول (ﷺ) بالإعراض عن الكافرين[٣].

وتأتي بعدها سورة الدّخان، وقد سميت بذلك لأنّ الله ذكر فيها علامة من علامات الساعة وهي الدخان، وذلك في قوله تعالى ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾[٤] مصداقا لقوله (ﷺ): «**لا تقوم السّاعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشّمس من مغربها والدّخان والدّابة والدّجال ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد النّاس إلى محشرهم**»[٥]. وقيل المراد بالدّخان آية من آيات الله أيد بها رسوله (ﷺ) فسميت السّورة به اهتماما بشأنه[٦]. وتتناول السّورة ذكر نزول القرآن في ليلة القدر، وآيات التّوحيد، وذكر إصرار الكفار على الضّلال، كما تعرض حديث موسى مع بني إسرائيل وفرعون، والرّد على منكري البعث، وفي مشاهد القيامة تعرض ذلّ الكافرين مقابل عز المؤمنين في الجنة، كما تذكر تيسير القرآن الكريم على لسان الرّسول (ﷺ) وأمته وفضل الله تعالى أنّه جاء على لسان العرب، كما تضمنت ذكر الأمم السّابقة وهلاك كفارها، وكذلك ذكر دلائل الوحدانية، وختمت بالشد على قلب

---

(١) سورة الزّخرف: من الآية ٣٥.

(٢) =: صحيح البخاري: ١٨٥/٣.

(٣) =: بصائر ذوي التّمييز: ٤٢١/١.

(٤) سورة الدّخان: الآية ١٠.

(٥) صحيح مسلم: ٥٥٨/٢.

(٦) =: التّحرير والتّنوير: ٢٧٥/٢٥.

الرّسول (ﷺ) بانتظار النّصر على الكافرين.

أمّا سورة الجاثية فقد سميت بذلك تنديدا بالمنكرين للبعث والحساب وتهديدا لهم بالخسران فيه، فضلا عن الإيحاء بدلالة القدرة العظيمة للخالق وتفرده بالرّبوبية والألوهية إذ تجثو الخلائق على الرّكب من شدّة ما يصيبهم من الذّهول والدّهشة والخوف الذّليل، وقد ورد لفظ الجاثية فيها في قوله تعالى ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾(١) وتسمى (سورة الشّريعة) لوقوع لفظ (شريعة) فيها ولم يقع في موضع آخر من القرآن، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾(٢)، وتسمى (سورة الدّهر) لقوله تعالى فيها على لسان المشركين ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾(٣) ولم يقع لفظ (الدّهر) في ذوات حم الأخر(٤). وتتناول السّورة بيان حجة التّوحيد، والتّعريض بالكفار المتكبرين، وبيان النّفع والضّر والإساءة والإحسان، وبيان شريعة الإسلام والإيمان، وتهديد العصاة والخائنين من أهل الإيمان وذمّ متابعي الهوى، وذكر ذلّ النّاس في المحشر، ونسخ كتب الاعتمال من اللوح المحفوظ، وتأبيد الكفار في النّار(٥).

وآخر الحواميم هي سورة الأحقاف، وسميت بذلك لورود لفظ (الأحقاف) فيها في قوله تعالى ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾(٦) وهي مساكن عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم وجبروتهم وكانت مساكنهم بالأحقاف من أرض اليمن(٧)، وتسمية السورة بها فيه تناسب مع الإنذار والتّهديد الذي تضمنته للكافرين من خلال الدلالة على صدق الوعد في قيام السّاعة. ولم يرد لفظ (الأحقاف) في غير هذه السّورة. وقد عرضت السّورة جانبا من قصة موسى، وتضمنت ذكر إلزام الحجة على عبادة الأصنام، وذكرت الوصية بالوالدين، فضلا عن تهديد المتنعمين المترفين من

---

(١) سورة الجاثية: من الآية ٢٨.

(٢) سورة الجاثية: من الآية ١٨.

(٣) سورة الجاثية: من الآية ٢٤.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٣٢٣/٢٥.

(٥) =: بصائر ذوي التّمييز: ٤٢٦/١.

(٦) سورة الأحقاف: من الآية ٢١.

(٧) =: صفوة التّفاسير: ١٩١/٣.

الكافرين، وأشارت إلى هلاك الأمم السّالفة، وعرضت الإشارة إلى الدّعوة وإسلام الجن، وقيام السّاعة بغتة، والتّزهيد في الدّنيا والدّعوة إلى قصر الأمل.

لقد امتازت لغة الحواميم - شأنها شأن السّور الأخرى - بأسلوب بلاغي معجز، وبوفرة الفنون البلاغية المختلفة في نظم آياتها. والدّراسة البلاغيّة لهذه السّور إنّما تهدف إلى ملاحظة احتضان الفنون البلاغيّة للأفكار والموضوعات المطروحة على نحو متناغم، وكيف تتجلى هذه الأفكار والموضوعات من خلال تلك الفنون ذات إيحاء وحيوية وقوة تأثير، فالبلاغة تعني الوفاء بالمعنى والإمتاع بالجمال، أي القدرة الفنية والجمالية في توصيل المعاني والأفكار إلى المتلقي، وقدرتها في التّأثير وتحقيق الاستجابة النّفسية فيه ولا سيّما أنّ هذه السّور قد نزلت والدّعوة في عهدها المكي.

وقد كان لا بدّ لنا من أنْ نوسع مدى الوقفات الوجدانية المتأنية في تحليل الآيات وفنونها البلاغية لكي نقتبس أبعادها الفكرية وتطلعاتها الرّوحية، معتمدين في ذلك على أقوال المفسرين وآراء البلاغيين، ولكي نصل إلى ثمرة علم البلاغة التي تتمثل في «فهم الإعجاز من القرآن لأنّ إعجازه في وفاء الدّلالة مِنه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام، مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها»[1]، ولن نستطيع قطف هذه الثّمرة بكثرة التّقسيمات والتّفرعات البلاغيّة الموروثة، وإنّما بأنْ تكون المصطلحات البلاغية أداة للوصول إلى هذه الثّمرة من خلال النّظر العميق والشّعور الرّقيق في فهم النّص وتحليله، فالتّصوير الفني في القرآن لا يجدي في تذوقه إلاّ الذّوق، وأنْ يتجاوز البحث تلك النّظرة السّطحية إلى النّص وعدم الاكتفاء بإطلاق المصطلحات البلاغيّة على الكلمات والتّراكيب، فلا بدّ لنا من البحث في الكلمة وما فيها من جمال وجرس موسيقي له أثره في التّعبير، والبحث في الجملة وما يحدث بين أجزائها من تغيير وتراسل، والبحث في صور التّعبير المختلفة، وأنْ يأتي كلّ ذلك موحدا دون تجزئة التّركيب إلى أقسام وتفرعات تتوزع على التّقسيمات البلاغيّة، فعلوم البلاغة يجب أنْ ننظر إليها كوحدة واحدة، والحديث عن أقسامها هو لتيسير فهمها والوقوف على أصولها ودقائقها، وعند التّذوق لا ينفصل بعضها عن البعض الآخر، ولا تؤتي البلاغة ثمارها المرجوة إلاّ

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ١٢٦٦/٤.

بالابتعاد عن الأساليب المنطقية والتّقسيمات العقيمة، وأنْ نتجه إلى النّص للكشف عن مواطن الجمال فيه والنّظر إليه بمنظار الذّوق. وإذا كان البعض قد نادى إلى ضرورة إعادة الصّلة بين علوم العربية واستعادة تفتح بعضها على بعض إحياء لها وإغناء لتراثها فمِن باب أولى أنْ تتوحد علوم البلاغة وفنونها في النّص الواحد وتحليله من أجل إظهار بلاغته، إذ ما من شكّ أنّ فصل الفنون البلاغيّة عن بعضها سيؤدي إلى فصل وتجزئة النّص الواحد، في حين أنّ الفنون البلاغيّة تتواشج داخله من أجل توصيل الأفكار والمعاني في أبهى صور البلاغة. وهكذا نتناول الحواميم بما فيها من الأساليب البلاغيّة بغية التّعرف على المعاني التي تحتويها الصّيغ والصّور، وإدراك دقائق الدّلالات واستنباط المعاني الثّواني التي تتضمنها الآيات، والوصول إلى غاية النّص القرآني وأهدافه وتأثيره في المخاطبين.

# الفصل الأوّل
# تنزيل القرآن وصفاته

## توطئة

تضمّن القرآن الكريم خلاصة الشّرائع الإلهية التي حوتها الكتب السّماوية الأخرى، مؤيدا للحق الذي جاء بها: من التّوحيد والإيمان والتّصديق وغير ذلك، فكانت شرائع القرآن وأحكامه كلمة الله الأخيرة لهداية البشر، خالدا على مر الزمان، مصانا مِنْ أنْ تمتد إليه يد التحريف أو التصحيف أو التغيير أو التبديل، ميسراً للذكر والحفظ والفهم، ومؤيدا لحقائق الكون بثبات لا يشوبه تعارض بينها وبينه، فالقرآن كلام الله، والكون عمله، وقد وصفه الله بأوصاف لا يساميه فيها أو يقاربه كتاب آخر، فكان خير الكتب وأفضلها، ومِنْ تلك الصفات ما حوته سور الحواميم التي دارت حول حقيقة الوحي والرّسالة، وتماثلت في المطالع بذكر تنزيله وصفاته، والتي يستند بعضها إلى المنزل (ﷻ)، وينفرد البعض الآخر بوصفه لذاته، ويستند بعضها إلى صفة المخاطبين وأحوالهم، وهكذا كانت مباحث هذا الفصل.

## المبحث الأوّل
## تنزيل القرآن وصفاته باعتبار المرسل

تتماثل مطالع الحواميم في ذكر تنزيل الكتاب وأوصافه مع اختلاف في النَّظم وعلى سبيل التفصيل والتعديد لتلك الأوصاف، وغالبا ما يقترن الوصف المستند إلى المرسل بذكر الصفات الإلهية ودلائل القدرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ ﴾[1]. فمطلع السّورة إشارة إلى تنزيل الكتاب، وهي الحقيقة التي

(١) سورة غافر: الآيتان ٢و٣.

نجدها في مطالع الحواميم لينتقل السياق منها - في هذه السورة - إلى التعريف ببعض صفات الله (ﷻ) الذي نزل هذا الكتاب، وليأخذ الكتاب صفته مِنْ صفات منزله، وتبتدئ الآية بلفظة (تنزيل) وهو المصدر المشتق مِنْ (نَزَلَ) الذي يفيد التّكثير والمبالغة غالبا، ومِنْ مقتضيات ذلك استغراق وقت أطول، وإنَّه يفيد تلبثا ومكثا[١]، ممَّا يلائم حقيقة هذا الحدث العظيم، فضلا عمَّا يفيده الفعل (نَزّل) مِنَ التّدرج والتكرار، فقد ذكر الغرناطي إنّ لفظ (نَزلَ) يفيد التّكرار لأجل التضعيف، ويشير إلى تفصيل المنزل وتنجيمه بحسب الدّواعي وإنَّه لم ينزل دفعة واحدة[٢]. وهكذا تجمع هذه الصيغة بين التّدرج والتّكثير، والمبالغة والاهتمام، فضلا عن التوكيد، لأنّ «ما استعمل فيه (نزل) يكون أهم وآكد ممّا استعمل فيه (أنزل)» [٣]، ولذلك استعمل المصدر (تنزيل)، في الحواميم لأنّها مكية، لتوكيد أنّه مِنْ عند الله ولأنّ المنكرين حينئذٍ كُثر. وممّا يوحي به التّعبير بالمصدر أيضا أنّ الله قد نزله منجما للرد على الكافرين الذين قالوا ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾[٤]، فكان الردّ بالمصدر المذكور على طعنهم ملجما لهم ومفحما[٥].

وقد قيل في الفرق بين الإنزال والتنزيل إنّ التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إلى إنزاله متفرقا، ومرة بعد أخرى، والإنزال عام[٦]، وهكذا تضاف للتعبير بالمصدر دلالة إيحائية أخرى وهي توكيد أنّ كل ما نَزل مِنه مرّة بعد مرّة هو مِنْ عند الله لا زيادة فيه مِن الرّسول (ﷺ) ولا افتراء كما كانوا يدّعون، ولا تتعارض دلالة التّكثير مع التّوجيه، والتّفريق مع الوحدة والشمول، «فالكتاب في وحدته وشموله يقترن بالتكثير (نزل) والفرقان في تكثيره وتفريقه يقترن بالتوجيه (أنزل)»[٧]، ومِن الدّلالات الأخرى للفظة (تنزيل) علوُّ المنزِل، فقد أخبر الله تعالى أنّ تنزيل الكتاب منه، «وهذا يدل على

(١) =: بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني، د. فاضل السامرائي: ٦٢
(٢) =: ملاك التّأويل، أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي: ١/ ١٤١ - ١٤٢.
(٣) بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني: ٦٦.
(٤) سورة الفرقان: من الآية: ٣٢.
(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤ / ٣١٤.
(٦) =: بصائر ذوي التّمييز: ٢/٤٩.
(٧) النّص القرآني من الجملة إلى العالم، وليد منير: ٨١.

شيئين: **أحدهما**: علوه تعالى على خلقه، **والثّاني**: أنّه هو المتكلم بالكتاب المنزّل مِنْ عنده لا غيره، فقد أخبر أنّه منه وهذا يقتضي أنْ يكون منه قولا كما أنّه منه تنزيلا»[1].

ومِن كلّ إيحاءات هذا المصدر تتشكل بلاغة الاستهلال وحسنه الذي يأخذ قوة أخرى مِنْ مجيئه بعد التنبيه بالأحرف المقطعة، أمّا تعريف (الكتاب) ففيه معنى الكمال.

ولمّا ذكر التعبير القرآني (تنزيل الكتاب) وجب بيان المُنَزِّل، مَنْ هُو؟ فقال: ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ﴾، ولم يقل: تنزيله، فتضمنت الآية إثبات علوه وكلامه وثبوت الرسالة، ثم بين أنّ الله تعالى موصوف بصفات الجلال وسمات العظمة، حثّاً منه للعباد على العمل عند الاستماع، وزجرا عن التهاون، فقال: ﴿ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ فهو العزيز الذي لا يغلب والعليم الذي لا يخفى عليه شيء[2].

ومِن أوجه البلاغة المعجزة في الآية الكريمة إيثار ثنائية (العزيز العليم)، وذلك أنّ «النّظر هنا من بين جميع الصّفات إلى العزة والعلم أكثر لأجل أنّ المقام لإثبات الصّدق وعدا ووعيدا»[3].

ومِن تلك الأوجه أيضاً التّناسب، فجوُّ السّورة العام من وعد ووعيد وإخبار بقصص وأحوال الأمم الماضية وما فيها من مشاهد القيامة، يحتاج إلى الاستهلال بهذين الاسمين العظيمين حيث الإيحاء إلى أنّ الفريق المنكر والمجادل مغلوب لا محالة، والفريق المؤمن منتصر، فهما «تهديد للمشركين وبشارة للمؤمنين»[4]، وهكذا يتناسب الوصفان مع مقام الوعد والوعيد في ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾، فقد جاءا مقدمة لبيان مصير المجادلين في آيات الله، فما دامت صفته (العزيز العليم) فمصير هؤلاء الهلاك والخسران، أمّا مصير المؤمنين فهو الفوز والظّفر.

ومِنْ أوجه البلاغة أيضاً إيثار وصف (العزيز) هنا، لِمَا يدل عليه جذره (عز) مِنْ

---

(١) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية: ١/١٩٣.

(٢) =: التّفسير الكبير، الفخر الرّازي: ٢٧/٢٦.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور، برهان الدين بن عمر البقاعي: ١٧/٣.

(٤) تفسير النسفي، عبد الله بن محمود النسفي: ٤/٦٩، و=: سورة المؤمن، دراسة لغوية تحليلية، فيصل مرعي حسن: ١٤ (رسالة ماجستير).

وجوه عديدة تتناسب وهذا المقام، منها أنّه (الغالب)، إذ (العزة) هي الغلبة، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١]، ومنها: الرّفيع الممتنع، فالعزة: الرّفعة والامتناع، قال تعالى: ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٢]، ومنها: القوي، قال تعالى: ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾[٣] أي: قوينا[٤]. ووصف الله بوصفي (العزيز العليم) هنا تعريض بأنّ منكري تنزيل الكتاب منه مغلوبون مقهورون، وبأنّ الله يعلم ما تكنه نفوسهم فهو محاسبهم على ذلك، فضلاً عن أنّ هذا الوصف هو رمز إلى أنّ القرآن كلام العزيز العليم فلا يقدر غير الله على مثله ولا يعلم غير الله أنْ يأتي بمثله[٥]، ولهذا الرمز أثره في النفس البشرية إذ إن «القرآن يتخذ الرمز وسيلة مهذبة مِنْ وسائل التّعبير الفني دون تجريح أو تقريع أو لوم أو تعنيف، بِما يؤثر شعورا غامضا بالنّفس أو أسىً داخليا في المشاعر والعواطف، وإنّما يمس النّفس مسًّا رفيقا ويداعب العواطف مداعبة هادفة»[٦].

ولمّا كان وصف (العزيز العليم) تعريض بالمنكرين، استدعى ذلك ترشيحا له، فجاء الترشيح في الصفات الأخرى (غافر الذنب وقابل التوب ...) فهو ترشيح لذلك التعريض كأنّه يقول: «إنْ كنتم أذنبتم بالكفر بالقرآن فإنّ تدارك ذنبكم في مكنتكم لأنّ الله مقرر اتصافه بقبول التوبة وبغفران الذنوب»[٧]، ولا يختص التعريض بالمنكرين أو الكافرين في زمن نزول الآية، وإنّما هو خطاب عام لكل نفس لها حظ من التقصير في حقوق الله، فالخطاب عام وعلى الدّوام والاستمرار كما أنّ المغفرة وقبول التّوبة عام وعلى الدّوام والاستمرار.

واستكمالا لإيثار وصفي (العزيز العليم) وتبعا لما في ذكرهما من التّهديد للمشركين، ابتدأ الله (ﷻ) الآية الأخرى بذكر صفتي عفوه وصفحه (غافر الذّنب وقابل التّوب) لكي لا يقنطوا مِنْ رحمته ولا ييأسوا مِنْ عفوه وليتجدد الأمل في الرّجوع إلى

---

(١) سورة المنافقون: من الآية ٨.

(٢) سورة المائدة: من الآية ٥٤.

(٣) سورة يس: من الآية ١٤.

(٤) =: اشتقاق أسماء الله، أبو القاسم بن إسحاق الزجاجي: ٤١٤.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/ ٢٩.

(٦) أصول البيان العربي، محمد حسين الصغير: ١٢١.

(٧) التّحرير والتّنوير: ٢٤/٧٩.

الحق، ففي هذه الصفات إيماء إلى تيسير إقلاعهم عن الكفر، وترهيب من العقاب على الإصرار، وذلك كلّه مِنْ بلاغة حسن الاستهلال[١].

ونلمح في قوله (العزيز العليم) إيماء إلى مَا في القرآن مِن الإعجاز وأنواع العلوم التي يضيق عن الإحاطة بها نطاق الافهام، فيختص بها العزيز العليم. وقد جاءت الآية خبرا مجردا عن المؤكدات، إخراج له على خلاف مقتضى الظّاهر حيث جعل المنكر كغير المنكر، لأنّه محاط بأدلة لو تأملها لارتدع عن إنكاره، وإخراج الخبر على هذا الشّكل يؤكد عمومية الخطاب، فلو كان خاصا لجعل للمنكرين فقط، وقد ثبت إنكارهم، ولكنّه خرج عن مقتضى الظّاهر لدلالة العموم، فضلاً عن دلالته المذكورة.

وقد منحت كلّ تلك الصّفات افتتاح السّورة إيقاعات ذات رنين خاص، «فكأنّما هي مطارق منتظمة الجرس ثابتة الوقع، مستقرة المقاطع، ومعانيها كذلك مساندة لإيقاعها الموسيقي»[٢]، مما يشكل ما يسمى بالاتّزان الإيقاعي وهو التّناسب بين فقرات النّص وأصواته في الارتفاع والانخفاض تناسبا موسيقيا يوحي بالانسجام والتّوافق الذي ترتضيه الأذن[٣].

وممّا يلحظ من وجوه البلاغة أيضاً تقديم (غافر) على (قابل) مع أنّه مرتب عليه في الحصول، للاهتمام بتعجيل الإعلام به لمَنْ استعد لتدارك أمره، فوصف (غافر الذّنب وقابل التّوب) تعريض بالتّرغيب، ووصف (شديد العقاب ذي الطّول) تعريض[٤] بالتّرهيب. وهكذا نجد أنّ «التّعريض في القرآن الكريم أسلوب مشرق مِن الأساليب البيانية يحتمه الأدب القرآني وتدعو إليه لغته المهذبة تقويما للخلق وصيانة للنفس الإنسانية مِن العبث والغيظ والإثارة المؤذية»[٥]. وفي تقدم المغفرة على التوبة زيادة فضل تدخل البشرى إلى النّفس التي عليها أنْ تسارع بالشّكر لهذا الفضل وتعجل بالتوبة دون تأثير أو تسويف «فتقديم (الغافر) على (القابل) مِنْ باب تقديم التّخلية على

---

(١) =: م. ن: ٢٤/٢٢٤ - ٢٢٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/٣٠٦٥.

(٣) =: التّنغيم اللغوي في القرآن الكريم، سمير إبراهيم العزاوي: ١٥٩.

(٤) التّعريض هنا: عرض الشيء للمخاطب بأسلوب غير مباشر أي دون استخدام لغة الخطاب بل بعرض الصفات التي ترغب بالتوبة وترهب من العقاب.

(٥) أصول البيان العربي: ١١٩.

التّحلية»[١]، وهكذا يكون للتقديم والتأخير أثره في النفس عندما ينسجم مع مقتضى الحال فضلاً عن أنّه يكسب الكلام جمالا وتأثيرا لأنّه سبيل إلى نقل المعاني في ألفاظها إلى المخاطبين كما هي مرتبة في أذهانهم تحقيقا لإشباع الرّغبة في نفوسهم[٢]، لأنّ مِنْ أسرار التّقديم والتّخير وأسبابه، الاهتمام عند المخاطب، وإذا كانت المغفرة زيادة فضل توجب الشّكر والإسراع في التوبة، فقبول التوبة هنا فضل آخر منه تعالى ورحمة، فقبولها «كناية عن أنّه تعالى يكتب تلك التوبة للتائب طاعة مِن الطاعات وإلاّ لما قبلها لأنّه لا يقبل إلاّ ما كان طاعة»[٣].

والتعريف في (غافر الذنب وقابل التوب) بالإضافة التي «تفيد تعظيم المضاف وتفخيمه»[٤] يدل على أنّه أريد بهما ثبوت ذلك ودوامه لا أنْ يراد بهما الحدوث الآن أو غدا[٥]، فضلاً عن أنّ التعريف أسلوب مِنْ أساليب التوكيد وحصر الفعل أو الصّفة في المعرف دون غيره[٦]، فلا غافر للذنب ولا قابل للتوب إلاّ الله.

واللّطيفة البلاغيّة الأخرى في نظم الآية هي الطّباق بين (الذّنب) و(التّوب)[٧] ويتناسب الطّباق مع هذا التّرتيب حيث تقدم (الذّنب) على (التّوب) نظما وواقع حال، ويتحقق بذلك جمال آخر للنظم، فجمال المطابقة هو في أنْ ترشح بلون آخر مِنْ ألوان البلاغة يشاركها في البهجة والرونق[٨]، أمّا الوصل بينهما بالواو «فلإفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أنْ يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات، وأنْ يجعلها محاءة للذنوب، كأنْ لم يذنب، كأنّه قال: جامع المغفرة والقبول»[٩]، وقد أوثر لفظ (قابل) دون غيره مِن الألفاظ لِمَا له مِنْ خصوصية في أداء المعنى كاملا، فالقبول

---

(١) روح المعاني: ٤٢/٢٤.
(٢) =: المعاني في ضوء أساليب القرآن، عبد الفتاح لاشين: ٢١٧.
(٣) تفسير روح البيان: ١٥١/٨.
(٤) بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منير سلطان: ٦٤.
(٥) =: الكشاف، جار الله محمود بن عمر الزّمخشري: ١٤٩/٤.
(٦) =: قضايا اللغة في كتب التفسير، الهادي الجطلاوي: ٥١٠.
(٧) =: صفوة التّفاسير: ١١٣/٣.
(٨) =: علم البديع، عبد العزيز عتيق: ٧٢.
(٩) الكشاف: ١٤٩/٤.

يقع حكمة ومصلحة ويكون للأعمال أمّا قولنا (أجاب واستجاب) فللأدعية[١]، وأوثر لفظ غافر دون غيره لأنّ الغفران يقتضي إسقاط العقاب ثم إيجاب الثواب، أمّا (العفو) مثلا فلا يقتضي إيجاب الثواب وهكذا (الستر)[٢].

أمّا إيثار الوصل بين الوصفين الأولين وحذفه بين الوصفين الآخرين فلكي لا يظن أنّ (غافر وقابل) يجريان مجرى الوصف الواحد لتلازمهما، فالعطف دلّ على أنّهما وصفان وفعلان متغايران ومفهومان مختلفان، ذلك أنّ عطف الشيء على نفسه محال[٣]، فالمغفرة تتعلق بالإساءة والإعراض، والقبول يتعلق بالإقبال على الله والرجوع إليه، فتقبل الحسنة وتغفر السّيئة، فهذا التغاير هو محسن العطف ههنا. وأمّا ترك العطف بين الوصفين الآخرين فللدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته تعالى، وهما مجتمعان له[٤]، فضلاً عن أنّ (شديد العقاب) يدل على القوة و(ذي الطول) المراد به ذاته فترك العطف لاتحاد المعنى، فإذا تكررت النعوت لواحد فتارة يترك العطف وتارة تشترك بالعطف، وهذا ما يسمى في البلاغة بـ (التّعديد)[٥].

أمّا صفة (شديد العقاب) فالتقدير: شديد عقابه، فالتنكير والإبهام هنا للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه لزيادة الإنذار[٦]، وقد وقع هذا الوصف بين صفتي رحمة قبله وصفة رحمة بعده، وفي هذا تصديق الحديث الشّريف وهو قوله (ﷺ) «**إنّ الله كتب كتابا فهو موضوع عنده فوق العرش إنّ رحمتي سبقت غضبي**»[٧]، ولفظة (شديد) صفة مشبهة مضافة لفاعلها وقد وقعت نعتا لاسم الجلالة اعتدادا بأنّ التّعريف الدّاخل على فاعل الصّفة يقوم مقام تعريف الصّفة، ومجيء الصّفة الأخرى (ذي الطّول) مع (شديد العقاب) في مقابلة (غافر الذّنب وقابل التّوب) فيه إيحاء إلى

---

(١) =: الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري: ٢١٧.

(٢) =: م. ن: ٢٣٠.

(٣) =: التّفسير الكبير: ٢٨/٢٧.

(٤) =: بدائع الفوائد: ٥٢/٣ - ٥٤ و١٩٢/١، و=: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، عبد الفتاح لاشين: ٦٢.

(٥) أي تعدد الصّفات والموصوف واحد. =: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزّركشي: ٤٤٦/٢ و٤٧٥/٣.

(٦) =: الكشاف: ١٤٩/٤.

(٧) صحيح البخاري: ٢٨٩/٤.

التخويف بعذاب الآخرة في قوله (شديد العقاب)، وبعذاب الدّنيا في قوله (ذي الطّول) إذ إنّ (الطّول) يطلق على سعة الفضل وسعة المال وعلى مطلق القدرة[١].

والاقتران بين هذه الصفات يماثل قوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠ ﴾[٢]، ليبقى العبد بين الرّجاء والخوف، وقوله (ذي الطّول) «معناه كونه ذا الفضل بسبب أنْ يترك العقاب الذي له أنْ يفعله لأنّه ذكر كونه ذا الطّول ولم يبين أنّه ذو الطول في ماذا فوجب صرفه إلى كونه ذا الطول في الأمر الذي سبق ذكره»[٣].

ومِنْ لطائف هذه المقابلة إيثار لفظ (الذّنب) فلم يقل (الذّنوب) لأنّه اربد به الفعل[٤]. وقد جاءت هذه الصفات لتتناسب مَع (تنزيل الكتاب) فقوله (غافر الذّنب وقابل التّوب) للترغيب، وقوله (شديد العقاب) للترهيب، والمجموع للحثّ على المقصود مِنْ (تنزيل الكتاب).

ويتناسب هذا المطلع مع آخر سورة الزّمر قبل سورة غافر، إذ ذكر هناك ما يؤول إليه حال الكافر وحال المؤمن، وذكر هنا أنّه تعالى (غافر الذّنب وقابل التّوب) ليكون ذلك استدعاء للكافر إلى الإيمان والإقلاع عمّا هو فيه، وهو مِن البلاغة بمكان، فإذا ختمت السّورة بشيء وافتتحت التي بعدها به فهو من التّناسب الذي يسمى بتشابه الأطراف[٥].

وقد حقق إيثار بعض الصّيغ اللفظية في الآية نظما معجزا وإيقاعا أخاذا يأسر القلوب، فقد أوثر (الذّنب) على (الذّنوب)، وأوثر (التّوب) على (التّوبة)، ثم قال: (ذي الطّول) لتتحقق المماثلة في الأبنية فيحسن بذلك النظم في جانبه الصوتي الإيقاعي[٦]، ويدعى ذلك في البلاغة العربية بـ (مراعاة النظير)[٧].

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٨١/٢٤.

(٢) سورة الحجر: الآية ٤٩ - ٥٠.

(٣) التفسير الكبير: ٢٨/٢٧.

(٤) =: جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: ٢٧/٢٤.

(٥) =: تناسق الدرر في تناسب السور: ٩٠.

(٦) =: من بديع لغة التّنزيل، إبراهيم السامرائي: ٢٧٥.

(٧) «هو عبارة عن جمع الأمور المتناسبة» نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الفخر الرازي: ١١٣، =

ثمّ يأتي الوصف الآخر في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ليكون بعد التّرغيب والتّرهيب إنذارا بالبعث والجزاء، وتقدم الجار والمجرور (إليه) للاهتمام ورعاية الفاصلة، فضلاً عَن إفادته قصر مصير الخلائق إليه وحده (ﷻ). وهكذا يتوالى السّبك القرآني على هذا النّمط المعجز في كلّ هذه الألوان البلاغيّة، فلكلّ كلمة دلالة خاصة، وإيحاء توحي به في النّظم لا نجده إذا تغير وجه التّعبير ونظام الصّياغة القرآنية.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ومِنْ أوصاف القرآن الكريم باعتبار المرسل، قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ﴾[1].

وأوّل ملامح البلاغة القرآنية في مطلع السّورة ذلك التّناسب بينه وبين ما ختمت به سورة غافر[2]، إذ إنها ختمت بذكر جدال الكفرة وفرحهم بما كان عندهم مِنْ علم، وانسلاخهم عنه عند البأس وعودتهم إلى دعوة الرّسل حين لا ينفعهم ذلك، فعلم إنّ كلّ علم لم ينفع عند الشّدة والبأس فليس بعلم، وكان ذكر ذلك شاقا على النّبي (ﷺ) خوفا على أمته منَ الإصرار على الكفر حتى مجيء البأس، ولذلك افتتح (ﷻ) سورة فصّلت ببيان أنّ القرآن رحمة لمَنْ كان له علم وله قوة توجب القيام فيما ينفعه[3]. وقد ذكرنا في تحليل الآية السابقة ما تمتاز به لفظة (تنزيل) من دلالات ووجوه عدة، نضيف إليها ما ذكره الرّازي مِنْ وجه تسمية القرآن (تنزيل) حيثُ قال: «لمَّا حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة نزول جبريل (عليه السلام) سمي لذلك تنزيلا»[4]، ولا شك في أنّ الوصف بالمصدر أكثر مبالغة مِن الوصف بالصّفة، لأنّ الوصف بالمصدر ينبئ عن الموصوف بأنّه مِن الفعل الذي وصف به، وأنّه معتاد فيه، ودائم لديه، ولا ينقطع مِنْه أبدا، بخلاف الوصف بالصفة الصريحة فإنّه يعرى مِنْ هذا المعنى ويتجرد[5]. ويستمد التّنزيل هنا

=

و =: معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب: ٢٤٣/٣.

(١) سورة فصّلت: الآية ٢.

(٢) الآيات: ٨٢ - ٨٥.

(٣) =: نظم الدرر: ١٣٥/١٧.

(٤) التفسير الكبير: ٢٧ / ٩٤.

(٥) =: فن البلاغة، عبد القادر حسين: ٩٧، وأثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين: ٧٩.

صفته مِنْ صفات المنزل، فكونه مِنَ الرّحمن الرّحيم يدل على أنّه نعمة عظيمة لأنّ الفعل المقرون بالصفة لا بدّ وأنْ يكون مناسبا لتلك الصفة، وكون المنزِّل يتصف بالرّحمة فالتّنزيل المضاف إلى الصّفتين لا بدّ وأنْ يكون دالا على أعظم وجوه النّعمة[١]، فهو رحمة للعباد ليخرجهم من الظلمات إلى النور، أمّا التنكير في لفظة (تنزيل) فهو للتعظيم، بمعنى أنّه أعظم مِنْ أنْ يعين ويعرف[٢]، والتّنوين هنا يظهر ما في التنزيل مِن الفخامة الذّاتية التي أكدت بالفخامة الإضافية المستوحاة مِنْ إضافته إلى صفتي (الرّحمن الرّحيم)، وإيثار هاتين الصّفتين للإيذان بأنّه مدار المصالح الدّينية والدّنيوية[٣]، فذكرهما بهذا الاقتران مع لفظة (تنزيل) يشير إلى الصّفة الغالبة في هذا التّزيل وهي صفة الرّحمة.

أمّا التّناسب الصوتي والإيقاعي الذي حققه إيثار صفتي (الرّحمن الرّحيم) فيتمثل في ظاهرة الوقف بالسّكون، وهي ظاهرة لم تكن أمرا عابرا أو عارضا بل كانت من الصفات التي جرت على ألسنة القبائل العربية ولم تكنْ أقل شيوعا مِنْ ظاهرة الوصل[٤]، وهي هنا تشكل تمهيدا لجوّ السّورة بشكل عام بتماثل الرّوي مع الحروف المقطعة (حا ميم. . الرّحيم) لتظهر جانبا مِن العلاقة الموسيقية بين حروف الافتتاح وبين فواصل الآيات التي تليها[٥].

ومِنْ دلالات التّناسب بين ذكر لفظة (تنزيل) وصفتي (الرّحمن الرّحيم) الردّ على المنكرين المجادلين، ذلك أنّ صيغة (رحمن) عدل بها عن (راحم) للمبالغة، ولا يجوز أنْ يوصف بها إلاّ الله (ﷻ) لأنّها تدل على معنى لا يكون إلاّ له وهو معنى وسعت رحمته كلّ شيء[٦]، فهو تأكيد على أنّ التنزيل منه (ﷻ) ولا أحد يمكن له ذلك لانتفاء اتصاف غيره بهذه الصفة، وأشار أبو البقاء إلى أنّ دلالة (فعلان) هي المبالغة في كثرة الشيء، ودلالة (فعيل) هي دوام الوصف فيكون من دلالة (الرّحمن الرّحيم) الكثير

---

(١) =: التّفسير الكبير، ٢٧/٩٤.

(٢) =: لغة القرآن الكريم، عبد الجليل عبد الرحيم: ٣٤١.

(٣) =: روح المعاني: ٢٤ / ٩٥.

(٤) =: من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس: ٢٢٤.

(٥) =: الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي: ٢٠٣.

(٦) =: النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: ١٠٤.

الرّحمة الدائمها[١].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وترد في سورة فصلت صفة أخرى للكتاب العزيز تستند إلى وصف المنزل (ﷻ)، وذلك في قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[٢]، فهو الكتاب المشتَمل على الحكمة، والمنزل من عند ذي الحكمة، الحميد المحمودِ على نعمه على العباد.

وفي تفسير الاقتران بين هاتين الصّفتين يقول أبو البقاء الكفوي: إنّ (الحميد) في ذاته بصفاته وأفعاله لا تستبعد منه الحكمة في تلك الأفعال، وما تقديم ذكر (الحكمة) في موضع هذا الاقتران على ذكر (الحمد) إلاّ مِنْ باب تقديم الخاص على العام[٣].

وهذا التّنزيل الذي اتصف بأنّه مِنْ حكيم حميد، نجد فيه الحكمة ظاهرة في بنائه، وفي توجيهه، وفي طريقة نزوله وفي علاجه للقلب البشري مِنْ أقصر طريق، فكيف لا يكون المنزل خليق بالحمد وفي القرآن ما يستجيش القلب لحمده الكثير.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

تبتدئ سورة الشورى بمثل ما ابتدأت به سورتا غافر وفصلت بذكر النّزول القرآني، وتطالعنا بصفة أخرى مِنْ صفات الكتاب العزيز تستند إلى المرسل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾[٤].

فقد وصف الكتاب بأنّه وحي يوحى إلى الرّسول (ﷺ) كما أوحي إلى الرّسل

---

(١) =: الكليات، أبو البقاء الكفوي: ٢/٣٧٢.

(٢) سورة فصّلت: الآية ٤٢.

(٣) =: الكليات: ٢/١٩٤ - ١٩٨، والاقتران الثنائي بين أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم، فخري أحمد سليمان: ٢٠٢، (رسالة ماجستير).

(٤) سورة الشّورى: الآيات ٣ - ٥.

مِنْ قبله، ويذكر هذا الإيحاء على سبيل التّشبيه، وقد تعددت الأقوال فيه بين أنْ يكون ما في هذه السّورة مِنَ المعاني هو المشبه به، أي مثل ما فيها يوحي الله إليك في سائر السور وإلى مَنْ قبلك مِن الرّسل، أو مثل إيحاء هذه السّورة يوحي الله إليك، ومدار المثلية هو الدّعوة إلى التوحيد أو كونه بواسطة الملك[١]، وحين يكون مضمون السّورة أو إيحاؤها مشبها به فإنّ ذلك يزيد مِنْ تفخيمها وعظمة أمرها.

ويرى الرّازي[٢] أنّ المشبه به هو الكتاب المسمى بـ (حم، عسق)، ويذهب أبو السعود إلى القول: «إن مضمون السّورة موافق لِمَا في تضاعيف سائر الكتب المنزلة على الرّسل المتقدمة .... أو إنّ إيحاءها مثل إيحائها بعد تنويهها بذكر اسمها والتّنبيه على فخامة شأنِها»[٣].

وذكر ابن عاشور أنّ في الآية إدماجا[٤]، والتشبيه على أصله، أي مثل وحيه إليك وحيه إلى الذين مِنْ قبلك، والغرض من التّشبيه إثبات التسوية[٥].

أمّا الإيجاز الذي جاء عليه نظم الآية الكريمة فإنّ دلالته الإيحائية تنبئ بتماثل إعراض أهل مكة عن الدعوة وإعراض الأقوام مِنَ الأمم السّابقة التي بعث إليها الرّسل كما تشابه الوحي بينه وبينهم، وفي ذلك تسلية له (ﷺ)، وهنا تظهر مزية الإيجاز في زيادة دلالة الكلام عن طريق الإيحاء ذلك أنّه يترك على أطراف المعاني ظلالا خفية يشتغل بها الذّهن، ويعمل فيها الخيال حتى تبرز وتتلون وتتسع وتتشعب إلى معان أخر يتحملها اللفظ، فالإيجاز قوة في التّعبير وامتلاء في اللفظ وشدة في التّماسك[٦].

وتتواشج الفنون البلاغية في الآية على نسق معجز، يبتدأ بالتّشبيه المتسق مع تقديم المجرور مِنْ قوله (كذلك) على (يوحي إليك)، وفائدة التّقديم هنا للاهتمام بالمشار إليه أوّلا، والتّشويق بتنبيه الأذهان إليه، وهكذا يحرص التّعبير القرآني على أنْ

---

(١) =: تفسير روح البيان: ٨/٢٨٦.

(٢) =: التفسير الكبير: ٢٧ / ١٤٢.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود العمادي: ٥/٢٨.

(٤) «هو أن يدمج المتكلم غرضا في ضمن معنى قد نحاه من جملة المعاني ليوهم السامع أنه لم يقصده وإنما عرض في كلامه لتتمة معناه الذي قصد إليه» تحرير التّحبير، ابن أبي الإصبع المصري: ٤٤٩، و =: معجم المصطلحات البلاغية: ١/٨٥.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٦.

(٦) =: فن الاستعارة، أحمد عبد السيد الصاوي: ٣٣٥.

يكون هذا التّقديم مشيراً إلى مغزى دالا على هدف حتى تصبح الآية بتعبيرها تابعة لمنهج نفسي يتقدم عندها فيها ما تجد النّفس تقديمه أفضل مِنَ التأخير، فالتّقديم والتّأخير هو إحدى وسائل التّأثير في النّفس[١]، فغاية التّقديم هنا التّشويق إلى ما بعده، وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل إلى جانب التشويق[٢]. وإذا عددنا الإشارة إلى متأخر لفظا وهو المصدر المأخوذ مِن الفعل يوحي فسيكون ذلك غاية في البلاغة وهو مِنْ مبتكرات القرآن[٣].

ويمكن أنْ نذهب في ذلك إلى باب التّناسب بين مطالع الحواميم التي تشترك في ذكر الكتاب الكريم، أو بين مطالع السّور وخواتيمها، فقد ختمت سورة فصلت بذكر الكتاب الكريم في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[٤]، فقد يكون ذلك سببا لعدم ذكر (تنزيل الكتاب) صراحة في بداية الشّورى، كمَا في السّور الأخرى، ولكنه ذكر بطريقة أخرى توحي بأنّ الكتاب وحي من الله وبأنّه قد ذكر سابقا بدليل الإشارة بلفظة (كذلك)، ويوحي اسم الإشارة المخصص للبعيد إلى علوّ منزلته وبعده عن كلّ مَا يتخرص به المنكرون، وقد يكون المراد ما ذكر في بداية سورتي غافر وفصلت مِنْ ذكر للكتاب، فجمع ذلك الذكر بأنّه وحي واكتفى بذكره هناك ليعلم أنه وحي للرسول (ﷺ) كمَا كان يوحى بالكتب إلى الأنبياء الآخرين قبله، والله أعلم.

ومِن اللّطائف البلاغيّة في نظم الآية الكريمة إيثار التّعبير عن الوحي بالفعل المضارع خلافا لمقتضى المقام، إذ إن الوحي إلى الرّسل السّابقين قد مضى، فلَم يقل أوحى إليك وإنّما (يوحي إليك) ليدل على أنّ إيحاء مثله صفته، فضلاً عن أنّ في العدول عن الماضي إلى المضارع دلالة على الاستمرار والتّجدد وأنّه لا ينقطع في مدة حياته الشّريفة لييأس المشركون من إقلاعه، ولا يتعارض هذا التّجدد مع ذكر الرّسل السّابقين، لأنّ المقصود به الرّسول (ﷺ)، أمّا قوله (إلى الذين من قبلك) فهو إدماج،

---

(١) =: من بلاغة القرآن، أحمد بدوي: ١١٢ - ١١٣.

(٢) =: محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي: ١٤/ ٥٢٢١.

(٣) =: التحرير والتنوير: ٢٥/٢٧.

(٤) سورة فصلت: من الآية ٥٣.

ويمكن أنْ يكون العدول إلى المضارع شامل للجميع ليدل على استحضار صورة الإيحاء إلى الرّسل حيث استبعد المشركون وقوعه فجعل كأنّه مشاهد(١). فالفعل المضارع يوضح الحال التي يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كأنّ السّامع يشاهدها، فالغاية هنا تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته ليكون السّامع كأنّه يشاهدها(٢)، فضلاً عن دلالة التّعبير بالفعل على التّجدد والحدوث «والمراد بالتّجدد في الماضي حصوله، وفي المضارع تكراره»(٣).

أمّا تقديم ذكر الإيحاء إليه (ﷺ) على ذكر الإيحاء إلى الرّسل السّابقين فيفيد تقديم الأليق بالسّياق(٤)، إذ الغاية هي التسلية والتثبيت، وفيه رد على المنكرين بإلجام مَا في نفوسهم مِنْ إنكار حقيقة الكتاب، فكأنّ التّقديم هنا أفاد التّخصيص أيضاً مراعاة لمقتضى الحال، فضلاً عمّا فيه مِنَ التّشريف له (ﷺ).

والكتاب العزيز الذي استمد صفته مِنَ المرسل - وهي صفة الوحي والإيحاء - يشترك فيها مع الكتب السّماوية الأخرى التي أوحى الله بها إلى رسله، وهكذا تتقرر وحدة الوحي ومصدره على تتابع الرّسل (صلوات الله وسلامه عليهم) وامتداد الزّمان، وفي ذلك إشعار للمؤمنين بأصالة ما هم عليه، فهو منهج إلهي واحد وثابت، أمّا المنكرون فقد تاهوا في سبل متفرقة، لا يعرف لها مصدر، وليس لها من الثّبات شيء، وتكون الآية تعريضا بهم، وبما هم عليه مِنَ الضّلال.

وبعد أنّ تأخر ذلك فاعل الإيحاء واشتاقت النّفوس إلى معرفته، يذكره التّعبير القرآني بقوله (الله العزيز الحكيم)، ويتناسب الفصل هنا مع التّشويق الذي حققه التّأخير، وكأن سائلا يسأل وقد امتلأ شوقا: من الموحي؟ فجاء الجواب على سبيل الفصل، وإنّما قدر ذلك ليدل على أنّ الإيحاء مسلم معلوم وأنّ الغرض مِنَ الإخبار إثبات أنّ الله تعالى هو الموحي إلى الرسول (ﷺ) وإلى الذين مِنْ قبله(٥).

ومِنَ التناسب أيضاً إيثار ثنائية (العزيز الحكيم) لمزيد الاختصاص فيهما

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٨/٢٥.

(٢) =: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية: ٣٣ - ٣٤.

(٣) من بلاغة القرآن: ١٠٧.

(٤) =: المعاني في ضوء أساليب القرآن: ٢١٩.

(٥) =: روح المعاني: ١١/٢٥.

بالغرض المقصود، فالعزيز: المتصرف بما يريد لا يصده أحد، والحكيم: يحمل كلامه معاني لا يبلغ إلى مثلها غيره، فهو الذي يصطفي مَنْ يشاء للرسالة، فضلاً عن تناسب هذا الاقتران مع ما يليه في الآية الأخرى، لأنّ مَنْ كان مَا في السّموات وما في الأرض ملكا له تتحقق له العزة لقوة ملكوته وتتحقق له الحكمة(١). وتقدم (العزيز) على (الحكيم) مِنْ باب التّقديم بالطبع لأنّه عزّ فلمّا عزّ حكم، وقد يكون مِنْ باب تقديم السّبب على المسبب(٢). وتأتي الآية الأخرى مقررة لوصفه (العزيز الحكيم) فهو المالك لمَا في السموات وما في الأرض لا شركة في ذلك لأحد سواه، وكثيرا ما يأتي لفظ (السّموات) جمعا ويقترن به لفظ (الأرض) مفردا، وسبب ذلك «أنّ الأرض هي دار الدنيا التي بالإضافة إلى الآخرة كما يدخل الإنسان إصبعه في اليمّ، والله تعالى لم يذكر الدنيا إلاّ مقللا لها ومحقرا لشأنها، وأمّا السّموات فهي مقر ملائكة الرب تعالى، ومحل دار جزائه، ومهبط ملائكته ووحيه»(٣)، ففي إفراد (الأرض) تعريض بمَنْ أخلد إليها واتّبع هواه وأعرض عن ذكر الله وطاعته، وفي جمع (السّموات) تعظيم لشأنها وبيان لقدرة الخالق العظيم، وتقدم ذكر السّموات على الأرض في الآية من باب تقديم الأعجب فالأعجب، ويتناسب مع السّياق الذي يعرض ذكر الإيحاء للرسل، كمَا يتناسب مع تقدم (العلي) على (العظيم).

وجاءت الآية الأخرى على سبيل الفصل بينها وبين ما قبلها لأنّها مستأنفة ومقررة لمعنى (وهو العلي العظيم)، ويتناسب وصف السّموات بالتفطر مَع وصف (العلي العظيم) فهي تتفطر مِنْ هذه العظمة التي تستشعرها لربها، ويتناسب مع هذه العظمة وصف الملائكة في حركة دائمة وهم يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لأهل الأرض، هكذا بصيغة الفعل المضارع الدال على الاستمرار والتجدد، فضلاً عمّا توحي به صيغة (التفعل) في (يتفطرن) مِنَ الشّدة والمبالغة. والتّخصيص في قوله (مِن فوقهنّ) يوحي أيضاً بعظمة الآيات وجلالها كالعرش والكرسي والملائكة، فضلاً عن الإيماء في

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥ / ٢٧ - ٢٨.

(٢) =: ابن القيم وحسه البلاغي: ١٠٠ - ١٠١، وأسرار التّقديم والتّأخير في لغة القرآن الكريم، محمود السيد شيخون: ٨١.

(٣) بدائع الفوائد: ١/١٣٨.

ذلك إلى التفطر مِنْ تحتهنّ بالطريق الأولى[١]. وفي هذه الصورة المتحركة تبرز ظاهرة التّشخيص بالاستعارة المكنية والتي وهبت (السّموات والأرض) صفة الحياة والعقل والوعي والإدراك، وفي المنظور العقدي حركة مجازية لأنّ الفاعل الحقيقي للتفطر هو الله[٢].

ولمّا تقدم ذكر السّموات على الأرض، ثُمَّ وصفت بهذا الحدث الكبير - وكلّ ذلك مِنْ دلائل قدرته وعظمته - ناسب ذلك ذكر الملائكة وطاعتهم الدّائمة لله العلي العظيم، وتقدم التّسبيح على الاستغفار ليفيد بأنّه الأهم، أو هو من تقديم السّبب على المسبب، وإضافة (الرّب) إلى ضمير الملائكة للتشريف.

ثُمَّ يأتي التّذييل المناسب لذلك متضمنا ثنائيّة (الغفور الرّحيم) ليتناسب مع استغفار الملائكة لمَنْ في الأرض، وقد جاء ذلك على سبيل الوصل بـ (إنَّ) «وهو وصل قائم على فصل أو بني معناه على قطع، وفائدته تنبيه السّامع أو القارئ أو المخاطب إلى علاقة وثيقة بين أجزاء الكلام لو جرى الوصل فيها بحرف العطف لمّا بلغ أثره مبلغ ما يكون في القطع الذي يتلوه حرف توكيد وتقوية وهو (إنّ)»[٣]، فضلاً عن (إلاّ) التي أفادت التّنبيه[٤] لكلّ مَنْ يسمع الآية أو يقرؤها.

ويجمع إلى العزة والحكمة، والعلو والعظمة، المغفرة والرّحمة، ويعرف العباد ربهم بشتى صفاته، ويعرفوا مِنْ خلال عظمته وجلاله، عظمة القرآن بصفاته المتعددة، وأنّه الحق فلا سبيل إلى النّجاة إلاّ به.

❖❖❖❖❖

في سورة الشّورى أيضاً يذكر الكتاب الكريم مرة أخرى بصفة تستند إلى المنزل العدل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾[٥].

(١) =: روح المعاني: ١٢/٢٥.
(٢) =: جماليات الحركة في القرآن الكريم، حكمت صالح جرجيس: ٥٨، (أطروحة دكتوراه).
(٣) نحو المعاني، أحمد عبد الستار الجواري: ١٠١.
(٤) =: الجنى الداني في حروف المعاني، بدر الدين حسن بن قاسم المرادي: ٣٧٠.
(٥) سورة الشّورى: الآية ١٧.

فبعد أنْ انتهى مِنْ ذكر المجادلين ووعيدهم بالعذاب الشّديد، عرض في هذه الآية صفته تعالى بإنزال الكتاب الهادي للنّاس، مقترنا بصفة تستند إلى المنزل (ﷻ) وترتبط بما تضمنه مِنَ الحق العدل، وقد جاءت الآية بمثابة الدليل للآية السابقة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾[1]، والدليل جزء مِنَ البيان بعد الإجمال، ولذلك جاءت على سبيل الفصل عمّا قبلها لشدة اتصال معناها بمعنى التي قبلها، وأوثر الفعل (أنزل) دون (نزل) للتناسب مع المقام الذي جاء بمثابة الدّليل بعد الوعيد المذكور في الآية السابقة، ولأنّ (أنزل) خال من دلالة التّدرج والتّكرار الذي لا يقتضيه المقام، فضلاً عن دلالة العموم التي تتناسب مع دلالة التّعريف في لفظة (الكتاب) فهو للجنس إذ يعمُّ جميع الكتب المنزلة[2].

وتأتي الاستعارة اللطيفة في لفظة (الميزان) للتعبير عن العدل أو الشّرع الذي أنزله الحق في الكتب الإلهية، وتتناسب هذه الاستعارة مع ما بعدها من ذكر السّعة وقرب موعدها، فيومئذ توزن الأعمال بميزان العدل للجزاء، فضلاً عن دلالة هذه الاستعارة على وحدة مضامين الكتب السّماوية وأنّ ما فيها ميزان لكلّ شيء توزن به الحقوق الواجبة الأداء سواء كان مِنْ حقوق الله أم مِنْ حقوق العباد، وتبرز مِنْ خلال هذه الاستعارة قيمتها الفنية والجمالية والتي تنبثق مِنْ نقل العدل وهو معنوي إلى الحس فيزداد جلاء ووضوحا[3]، ويجوز أنْ يكون التّعبير عن العدل بآلته (الميزان) مجازا مرسلا بعلاقة الآلية، وهي أنْ يذكر اسم الآلة ويراد الأثر النّاتج عنها[4].

وتختم الآية بالوعيد كما ختمت سابقتها، ولكنّه بنظم آخر على سبيل الخطاب الخاص الذي يراد به العموم، ومناسبة الانتقال مِنْ ذكر حقيقة الكتاب المنزل بالحق والعدل، إلى ذكر السّاعة هي أنّها موعد الحكم العدل والقول الفصل، والسّاعة غيب، والنّاس عنها غافلون، وهي منهم قريب، وعندها يكون الحساب القائم على

---

(١) سورة الشّورى: الآية ١٦.

(٢) =: المحرر الوجيز: ١٣/١٥٥.

(٣) =: البلاغة التطبيقية، محمد رمضان الجربي: ٢٢٣.

(٤) =: التعبير البياني، شفيع السيد: ١١٣.

الحق والعدل.

وكلمة (ما يدريك) تجري مجرى المثل فهي خطاب خاص يراد به العموم، والاستفهام مستعمل في التّنبيه والتّهيئة[١]، وفي ذلك حضّ على العمل بمَا في الكتاب العدل قبل أنْ توزن الأعمال في يوم الحساب.

ويأتي الإخبار عن الساعة بـ (قريب) بالتذكير مِنْ حيثُ إنّ تأنيث السّاعة غير حقيقي، وإذ هي بمعنى الوقت، والمعنى لعلّ البعث أو لعلّ مجيء السّاعة قريب[٢]، وفي ذلك وعيد للمشركين والغافلين عن العمل بمضمون الكتاب.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سورة الشّورى أيضاً تأتي صفة أخرى للكتاب تستند إلى المنزل (ﷻ)، ويشترك القرآن فيها مع غيره من الكتب السّماوية مِنْ حيثُ المصدر وطريقة الإنزال، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[٣].

وهنا يعود السّياق - والسّورة في خاتمتها - إلى الحقيقة التي ابتدأت بها السّورة ودارت عليها آياتها، وهي حقيقة الوحي والرّسالة، وقد كان التركيز هناك على مصدر الوحي، وذكر الصفات الإلهية ودلائل القدرة العظيمة، وتأتي في هذه الآية استكمالا لما ذكر، إذ تصف طبيعة هذا الاتصال بين الله ورسله لتؤكد للمنكرين حقيقة وقوعه، فضلاً عن أنّ الآية عودة إلى إبطال ذلك الإنكار الذي أومأت إليه بداية السورة، فكان العود إلى ذلك مِنْ قبيل ما يسمى في البلاغة العربية بـ (رد العجز على الصّدر). وقد بيّن الله (ﷻ) أنّ حقيقة الوحي والرّسالة لا تتعدى هذه الطّرق الثّلاثة، وقد جاء التّعبير عن ذلك بصيغة الحصر المفتتحة بأسلوب النفي لإفادة المبالغة في النّفي[٤]، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ ﴾.

وقد أوثرت صيغة القصر بالنّفي والاستثناء دون غيرها من طرق القصر

(١) =: التحرير والتنوير: ٦٨/٢٥.

(٢) =: الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: ١٦ / ١٥.

(٣) سورة الشّورى: الآية ٥١.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/ ١٤٠.

الأخرى لأنّ السّياق يقتضي التّأكيد على النفي أوّلا ليتناسب ذلك مع سبب نزول الآية وهو أنّ اليهود طلبوا من النّبي (ﷺ) أنْ يكلم الله أو ينظر إليه ليصدقوه كما فعل موسى[1]، فكان البدء بالنّفي ردا لهم وإلجاما، وإعلانا لحقيقة الوحي والرّسالة بشكل عام.

واللطيفة الأخرى في إيثار صيغة النّفي والاستثناء هو «أنّ الخبر بالنّفي والإثبات يكون ينكره المخَاطب ويشك فيه، فإذا قلت ما هو إلاّ مصيب أو ما هو إلاّ مخطئ، قلته لمن يدفع أنْ يكون الأمر على ما قلته»[2]، والاستثناء بـ (إلاّ) فيه قولان: **الأوّل**: إنّه منقطع، لأنّ الوحي ليس بكلام، فتكون (إلاّ) أداة استثناء، و(وحيا) مستثنى منقطع، وهو الرأي السائد، **والثّاني**: أنّه استثناء مفرغ مِنَ الأحوال باعتباره منفيا مع حذف المستثنى منه، فتكون (إلاّ) أداة حصر و(وحيا) حال[3].

ولا يخفى مَا في الآية مِنَ الإجمال ثُمَّ التّفصيل، وذلك في قوله (يكلّمه) ثم قوله ﴿ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ كما لا يخفى مَا في ذلك مِنَ التّخصيص، «فكأنّ الأسلوب في القصر تفصيل يعقبه التّخصيص والحصر»[4].

ومِنْ دقائق البلاغة في نظم الآية إيثار لفظة (البشر) ولم يقل (إنسان)، وذلك للتأكيد على بشرية الرّسل بشكل عام، فضلاً عمّا في اللفظ مِنَ الإيحاء بالتبشير بالخير وحسن الهيئة لأنّه مشتق مِنَ البشارة، كما لمْ يأت بلفظ (إنسان) تنزيها للرسل عن مجرد مخالفتهم البهيميّة وعن النّسيان أيضاً لأنّ الإنسان مِنَ النّسيان[5].

ويوحي هذا الإيثار إلى دلالة أخرى للفظ (البشر) وهي الظّهور فقد سموا بشرا لظهور شأنهم وهو ما يناسب ذكر الرّسل في هذا المقام ولذلك نجد أنّ القرآن الكريم قد خصَّ كلَّ موضع اعتبر مِنَ الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر[6].

ومِنْ لطائف نسيج الآية ترتيب ما دلّ على تكليم الله الرّسل بدلالات على

---

(١) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٥٣.
(٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني: ٣١٥.
(٣) =: الاستثناء في القرآن الكريم، حسن طه الحسن: ١١٧.
(٤) نحو المعاني: ١٣٥.
(٥) =: الفروق في اللغة: ٢٦٩ - ٢٧٠.
(٦) =: ظاهرة الترادف في ضوء التفسير البياني للقرآن، طالب محمد الزوبعي: ٣٣.

سبيل التّدلي[١]، بذكر الأعجب والأعظم مِنْ دلائل القدرة، ويتناسب ذلك مع مقام الرّد على المنكرين واليهود الذّين طلبوا مِنَ النّبي (ﷺ) تكليم الله أو النظر إليه، فجيء بالمصدر أوّلا (وحيا) وبمَا يشبه الجملة ثانيا (مِنْ وراء حجاب) وبالجملة الفعلية ثالثا (ويرسل رسولا) تلونا في التّعبير وتفننا.

وقد تضمن هذا النّظم المعجز لونا بديعا مِنْ ألوان البلاغة وهو الاحتباك، فقد ذكر الحجاب ثانيا دليلا على نفيه أوّلا، وذكر الوحي الدّال على الخفاء أوّلا دليلا على الجهر ثانيا[٢]، ذلك أنّ قوله: (وحيا) هو النّفث ينفث في القلب فيكون إلهاما ولا دليل في ذكر (الحجاب) ثانيا على الرؤية أوّلا كما ذهب إلى ذلك البقاعي[٣]. ثُمّ ختمت الآية بالاقتران الثّنائي بين وصفي (العلي الحكيم) تناسبا مع الغرض والسّياق، لأنّ العلوّ علوّ عظمة فائقة لا تناسبها النّفوس البشرية التي لمْ تحض بالتّصفية فاقتضى علوه أنْ يكون الخطاب إلى البشر بوسائط، وأمّا وصف (الحكيم) فلأنّ معناه المتقن للصنع بدقائقه، وما خطابه للبشر إلاّ لحكمة إصلاحهم ونظام عالمهم، ومَا الكيفيات الثّلاث إلاّ مِنْ أثر الحكمة لتيسير تلقي خطابه[٤].

وقد أوثر الوصف بـ (العلي الحكيم) في حين أوثر الوصف بـ (العلي العظيم) في بداية السّورة، قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾[٥]، ليتناسب كل وصف مع معنى السّياق الذي ورد فيه، فحقيقة الوحي والرّسالة تقتضي التّعبير بوصف الحكمة، وحقيقة ملك السّموات والأرض وما فيهما تقتضي التّعبير بوصف العظمة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

يستمد القرآن صفاته مِنَ المرسل (ﷻ) فيوصف في آية أخرى بأنّه (علي

---

(١) هو «أنْ يذكر الأعلى ثمّ الأدنى لنكتة»، معجم المصطلحات البلاغية: ١٢١/٢.

(٢) =: نظم الدرر: ١٧ / ٣٥٩.

(٣) =: م. ن: ١٧ / ٣٥٩.

(٤) =: التحرير والتنوير: ١٥٠/٢٥.

(٥) سورة الشورى: الآية ٤.

حكيم) وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾(١). فبعد أنْ تضمن مطلع سورة غافر بيان مصدر التّنزيل وصفات المنزل، ومطلع سورة فصلت بيان مصدر التّنزيل وصفات المنزل، ومطلع سورة الشّورى بيان الصّفة التي يشترك فيها المنزل مع الكتب السّماوية الأخرى وهي صفة الوحي، تضمن مطلع سورة الزّخرف القسم بالكتاب المنزل وبيان عظمة منزلته عند المنزل وقيمته في تقديره الأزلي، فابتداء التّعبير عن هذه المنزلة - في هذه الآية - بالتوكيد بـ (إنَّ) مراعاة لمقتضى الحال، إذ أفاد هذا التوكيد رد إنكار المخاطبين المنكرين حيث كذبوا أنْ يكون القرآن موحى به، فكان لا بدّ أنْ يأتي الخبر مؤكدا ليتحقق إلجام جدالهم ودحض حججهم الباطلة - إنْ كان لهم حجج - فضلاً عن أنَّ للتوكيد فائدة أخرى وهي «تقرير المؤكد في نفس المخاطب وتمكينه في قلبه وإزالة ما في نفسه مِن الشّك أو الشّبهة»(٢)، فضلاً عن التّوكيد الآخر في لفظة (لدينا) وما فيها مِنْ دلالة إيحائية.

ومِنْ لطائف البلاغة في نظم الآية التّعبير باللفظ الاستعاري (أمّ الكتاب) عن أصل الكتاب، فاستعير لفظ (إلام) للأصل لأنّ الأولاد تنشأ مِنَ الأم كما تنشأ الفروع مِنَ الأصول، وتكمن بلاغة الاستعارة فيما حققته مِنْ تمثيل ما ليس بمرئي حتى يصير مرئيا فينتقل السّمع مِنْ حدِّ السّماع إلى حدِّ العيان(٣)، وهو ما ذكره الشّيخ عبد القاهر الجرجاني حين تحدث عن خصائص الاستعارة بقوله: «إنّ شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي مِنْ خبايا العقل كأنّها قد جسمت حتى رأتها العيون»(٤)، والتّمثيل الذي حققته الاستعارة أسلوب شائع في القرآن الكريم ولا سيّما في تصوير المعنويات أو المغيبات التي لا علم للمخاطب بها، إذ يقرنها التّعبير القرآني بما هو مألوف ومعتاد ومستقر في الأفئدة ومختزن في النّفوس(٥)، ليكون له وقع فيها وتأثير. وقد عبر الشّيخ عبد القاهر الجرجاني عن ذلك بقوله: «إنّ أُنس النّفوس موقوف على أنْ تخرجها مِنْ خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني ... نحو أنْ تنقلها عن العقل إلى الإحساس،

---

(١) سورة الزّخرف: الآية ٤.

(٢) أساليب التّوكيد في القرآن الكريم، عبد الرحمن المطردي: ١٦٥.

(٣) =: البرهان في علوم القرآن: ٤٣٣/٣.

(٤) أسرار البلاغة: ٥٠.

(٥) =: فنون التّصوير البياني، توفيق الفيل: ١١٨.

وعمّا يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ...»[١]. وهكذا حققت الاستعارة فائدة أخرى تمثلت في (الظهور) «لأنّ الأم أظهر للحس مِن الأصل»[٢].

ونجد في الاستعارة ضمن هذا النّظم مراعاة لأحوال المخاطبين ويتحقق لدينا أنّ «الاستعارة في القرآن ليست مجرد توسع في اللغة وإنّما هي وفاء لحاجة المقام واقتضاء لأحوال المخاطبين»[٣]، ويحقق التّعبير الاستعاري جانبا آخر يتمثل في البعد النّفسي للفظ المستعار وتأثيره في المتلقي، ولا يتحقق ذلك التّأثير والتّفاعل إلاّ إذا حضر عنصر الملاءمة بين المستعار والمستعار له ولا سيّما مِنْ حيثُ الدلالة الإيحائية[٤]. ولذلك يمكن القول - وعلى وفق منظور الدلالة الإيحائية - إنّ في هذا التّعبير تشريفا للقرآن ورفعة، وقد زيد هذا التشريف في التوكيد المنبثق من لفظة (لدينا) فهي تؤدي زيادة تحقيق الخبر وتشريف المخبر عنه[٥]. ويأتي بعد ذلك مؤكد آخر وهو (اللّام) في قوله (لعلي حكيم) ليزيد المؤمنين إيمانا واستقرارا نفسيا تطمئن به قلوبهم، وليلجم المنكرين المجادلين، فهذا الكتاب أنزله العليُّ الحكيم معجزة تحتفظ بخصائصها وتتعاظم على مر الزمن، يؤمن به أفاضل النّاس وخيارهم، ولا يتلقاه بعدم المبالاة إلاّ الأراذل اللاهثون وراء الشّهوات والمطامع وهم يسيرون في ذلك إلى الحضيض في الدّنيا والآخرة[٦]، فصفة (العلي الحكيم) - بعد هذه المؤكدات - تشير من خلال الدلالة الإيحائية إلى تشريف المؤمنين وعلوّ شأنهم والتّعريض بالكافرين وذمهم، فـ (العليّ) أصله المرتفع، وهو مستعار لشرف الموصوف، وهي استعارة شائعة، و(الحكيم) باعتبار ما يحتوي مِنَ الحكمة وصلاح أحوال النّفوس، فهو في علوِّه وفي حكمته يشرف على البشرية ويهديها، وصفتا (العلي الحكيم) تضفيان على القرآن ظلَّ الحياة العاقلة، وإنّه لكذلك، فكأنّما فيه روح ذات سمات وخصائص تلامس الأرواح وتشفي ما في الصدور فتخشع النّفوس للعلي الحكيم مِنْ خلال القرآن الذي وصفت

(١) أسرار البلاغة: ١٣٧.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، محمود صافي: ٦٤/٢٥.

(٣) خطاب الأنبياء في القرآن الكريم، عبد الصمد عبد الله محمد: ٢٦١.

(٤) =: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، مجيد عبد الحميد ناجي: ٢٢٢.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ١٦٣/٢٥.

(٦) =: القرآن إعجاز يتعاظم، شاكر عبد الجبار: ٦٧.

منزلته عند الله بأنّه علي حكيم، ثم إنّ التركيب بمجمله كناية عن الحق الذي لا يقبل التّغيير لأنّ العرب إذا أرادوا تحقيق عهد لأمد بعيد كتبوه في صحيفة(١)، فضلاً عن دلالته بهذه المؤكدات إلى حفظ الله ورعايته للذكر الحكيم تثبيتا للنبي (ﷺ) وللمؤمنين وتيئيسا للكافرين، وهو القائل (ﷻ) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾(٢) بما بين الآيتين مِنْ تناسب في المؤكدات.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

يتوالى التّماثل في مطالع الحواميم، لنجد في بداية سورة الدّخان صفات أخرى للقرآن الكريم تستند إلى المرسل وتستمد الوصف منه، وتستكمل هذه الآية ما ذكر مِنْ معان تتعلق بتنزيل الكتاب وصفاته، فهنا يذكر زمن نزول القرآن وعلّة هذا الإنزال وصفة هذه الليلة التي شهدت نزوله، وتتراسل المعاني(٣) في هذا النظم المعجز لتحقق هدفها في التّأثير وإحداث الاستجابة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ ﴾(٤).

فبعد أنْ وصف القرآن في سورة الزّخرف بأنّه في (أمّ الكتاب)، يوصف هنا بأنّه أنزل في ليلة مباركة، فإذا كانت الليلة مباركة، فما بال الكتاب الذي أنزل فيها واستمدت بركتها مِنْ إنزاله، إنّه مبارك أيضاً، فضلاً عن إنّه وصفها بالبركة لما ينزل فيها مِنَ البركات والخيرات والثّواب، أمّا الصّفة الأخرى للكتاب في هذه الآيات فهي أنّه أنزل للإنذار (إنَّا كنَّا منذرين)، وجلي أنّه استمد هذه الصفة مِنْ صفة المرسل.

أمّا اللّطائف والألوان البلاغيّة التي تضمنها نسيج الآية فتتجلى في محسن

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/١٦٢.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

(٣) تراسل المعاني: أي (الأضواء والظلال التي تكتسبها الكلمات المتجاورة بالتأثير والتأثر فيما بينها).

(٤) سورة الدخان: الآيات ٣ – ٨.

اللّف والنّشر(١)، ففي قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ﴾ لفّ بين معنيين، **الأوّل**: تعيين إنزال القرآن، **والثّاني**: اختصاص تنزيله في ليلة مباركة، وجاءت جملة (إنَّا كنَّا منذرين) تعليلا للمعنى الأوّل، أي أنزلناه للإنذار، والإنذار شأننا، وهكذا يستمد الكتاب صفته مِنْ منزله، وفي الجملة إيجاز بديع من طرفين، **أحدهما**: إيجاز بحذف مفعول (منذرين) والمعنى: منذرين المخاطبين بالقرآن، وقد حقق هذا الحذف تماثلا في الفواصل، وتصفية العبارة وترويق الأسلوب لدلالة القرائن على المحذوف، ويعبر البلاغيون عن ذلك بالاختصار ويتبعونه بقولهم الاحتراز مِنَ العبث - تعالى الله وكتابه عنه - ذلك أنّ ذكر الكلمة التي يدل عليها السّياق ثقل وترهل في الأسلوب(٢)، وقد خلا التعبير القرآني عنه تماما. وثانيهما: إيجاز بالاكتفاء(٣)، حيث اقتصر على وصف (منذرين) مع أنّ القرآن فيه الإنذار والتّبشير، وغاية الاكتفاء الاهتمام بالإنذار تناسبا مع مقتضى حال النّاس، فضلاً عن أنّ الإنذار يقتضي التبشير لمَنْ انتذر، وجاءت جملة (فيها يفرق كلُّ أمرٍ حكيم) تعليلا للمعنى الثّاني وهو الاختصاص(٤).

وقد أوثر في ذكر تنزيل الكتاب هنا الفعل (أنزل) دون (نزّل) ليتناسب ذلك مع الحدث، فقد أنزل القرآن في هذه الليلة مِنْ (أمّ الكتاب) إلى بيت العزة في سماء الدّنيا جملة واحدة، فالفعل (أنزل) يتسق مع هذا الحدث لأنّ (الإنزال) عامٌّ، أمّا (نزّل) ففيه دلالة على التّدرج والتّكرار أو التّكثير(٥)، ولا يتلاءم مع وصف هذا الحدث في هذا المقام.

ومِنَ التناسب أيضاً ذكر حقيقة الإنزال ليلا مع صفة الإنذار، فالله تعالى يعلم غفلة هذا الإنسان ونسيانه ولا سيّما في اللّيل ويعلم حاجته إلى الإنذار والتّنبيه، وقد جاء ذكر وقت الإنزال على سبيل تنكير (ليلة) لإفادة تعظيم هذه اللّيلة(٦)، وزِيد هذا

---

(١) «هو أنْ تلف بين شيئين في الذكر ثمّ تتبعهما كلاما مشتملا على متعلق بواحد وبآخر من غير تعيين ثقة بأنّ السّامع يرد كلا منهما إلى ما هو له» مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي: ٢٠٠.

(٢) =: خصائص التراكيب، محمد أبو موسى: ١١٧.

(٣) «هو أنْ يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة» الإتقان في علوم القرآن: ٦١/٢، فهو حذف لبعض الكلام لدلالة الباقي عليه.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٧٩/٢٥.

(٥) =: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٦٢ - ٦٣.

(٦) =: التّحرير والتّنوير: ٢٧٧/٢٥، ولغة القرآن الكريم: ٣٤١.

التّعظيم بأنّ وصفت بأنّها مباركة، وفي ذلك تنويه بها وبما فيها من خير وبركة، وتشويق لمعرفتها والحث على العمل لنيل بركتها، ذلك أنّ الشيء «إذا كان مجهولا غير معروف لدى المتلقي فإنّ النّفس تذهب في تفسيره وتحديده كلّ مذهب، ويعطيه هذا التنكير أبعادا إيحائية أوسع ويترك النّفس تحتمل في حقه احتمالات متعددة»[١]، فالتّعبير القرآني يعمد في كثير مِنَ المواضع إلى التنكير لإثارة معاني التّعظيم والتّهويل في النّفس المتلقية، ولا شكّ في أنّ التّعظيم والتّهويل - في كثير مِنْ هذه المواضع - ينبثق مِنْصفة الإبهام التي يحققها التّنكير وما يترتب على ذلك مِنْ أثر نفسيّ، فإذا حددت للأشياء أحجامها وللأحوال مقاديرها فإنّ النفس ربّما استطاعت أنْ تتمثلها، أمّا التّنكير فأسلوب مِنَ التّعتيم يطلق العنان لخيال المتلقي ليذهب في الصّفة إلى ما لا حدّ بعده، كلّ بحسب رؤاه ورحابة خياله[٢].

ويصف التّعبير القرآني هذه اللّيلة بأنّ الله قد فرق فيها بهذا القرآن في كلّ أمر، وفصل فيها كلّ شأن، على سبيل العموم، وقد وصف الأمر بـ (الحكيم) والمعنى: ذو الحكمة، وذلك لأنّ تخصيص الله (ﷻ) كلّ أحد بحالة معينة مِنَ العمر والرّزق والأجل وغير ذلك يدل على حكمة بالغة، فلمّا كانت تلك الأفعال والقاضية دالة على حكمة فاعلها وصفت بأنّها حكيمة، وهذا مِنَ الإسناد المجازي (مجاز عقلي) لأنّ الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ووصف (الأمر) به مجاز[٣]. ولعلّ السّر في التّعبير عن الأمر بصفة الحكمة وإسناده إليه هو أنّ في «الإسناد إلى الفاعل المجازي تأكيد لصدور الفعل عن الفاعل الحقيقي، لأنّه إذا صح أنْ يقع الفعل مِنَ الفاعل المجازي وهو فرع فإنّ حدوثه مِنَ الأصل آكد»[٤]. ولا شكّ في أنّ المقام يقتضي شيئا مِنَ التّوكيد لإثبات حقيقة التّنزيل لهؤلاء المنكرين، وقد جاء قوله (فيها يفرق كلّ أمر حكيم) تفصيل بعد الإجمال الذي في قوله (إنّا أنزلناه في ليلة مباركة)، والبادي أنّ وصف الأمر بـ (الحكيم) هو وصف للقرآن أيضاً، فهو مِنْ أهم ما احتوته هذه اللّيلة المباركة، وهو مِنَ الأمور الدالة على الحكم

---

(١) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ١٢٤ - ١٢٥.

(٢) =: قضايا اللغة في كتب التفسير: ٥١٢.

(٣) =: التفسير الكبير: ٢٧/٢٤٠.

(٤) خصائص التراكيب: ١٠٧.

البالغة، فضلاً عن إنّه وصف قد خص به القرآن في آيات أخرى[١]. ومما يؤكد هذا الوصف مجيء لفظة (أمرا) في قوله تعالى: (امراً مِنْ عندنا) منكَّرة، وتنكيرها هنا يفيد التّفخيم أو التّعظيم «بمعنى أنّه أعظم مِنْ أنْ يعيَّن ويعرف»[٢]، وهي زيادة تفخيم للقرآن ولمَا تضمنته اللّيلة المباركة ممّا يشتمل عليه تنكير (الأمر) ولا سيّما بعد وصفه بالحكيم.

أمّا تكرار الضمير (إنّا) ثلاث مرّات فيتناسب ومقام الحديث عن تنزيل القرآن، إذ حال المخاطبين دوام الإنكار، والقرآن يراعي حال المخاطبين عقليا ونفسيا واجتماعيا[٣]، فكان التّكرار «لتأكيد أمر اقتضاه القصد فتساوقت الحروف المكررة في نطقها له مع الدلالة في التّعبير عنه»[٤]، وهذا الأمر هو إثبات حقيقة التّنزيل وتأييد الرّسول (ﷺ) وتقرير صدقه.

وبعد تقرير هذه الحقيقة بالتّكرار المبطل لعناد الكافرين وإنكارهم، يعمد التّعبير القرآني إلى المخالفة السّياقية، والتي تتمثل هنا بأسلوب الالتفات، فقد جرى الأسلوب مِنْ قبل على طريقة التّكلم (إنّا أنزلناه ... إنّا كنّا ... مِنْ عندنا) ثم انتقل إلى طريقة الخطاب فقال (رحمةً مِنْ ربّك) وكان مقتضى ظاهر السّياق أنْ يقول: رحمة منّا، ولكن المخالفة السّياقية جاءت إيصالا وتهيئة لخطاب الرسول (ﷺ) وهو المنزل عليه الكتاب، ولولا الالتفات لمَا تحقق ذلك. ويتسق الالتفات مع الخطاب العام في الآيات ليتشكل بذلك ما يسمى بـ (خطاب التّلون)[٥]، وأوثرت كلمة (ربِ) على غيرها في هذا المكان لاحتياج الموقف إلى الرّبوبيّة[٦]. وفي نسيج الآية تناسب بديع، فذكر (الرّحمة) قد ناسب ذكر (الرّب) لأنّه يشير إلى معنى التّربية والرّفق والعناية، وكذلك إيثار الإظهار في مقام الإضمار للفظة (الرّب) يشير إلى هذا المعنى ويؤكده، وإيثار الإظهار في مقام

---

(١) كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ سورة آل عمران: الآية ٥٨. وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ سورة يونس: الآية ١.

(٢) لغة القرآن الكريم: ٣٤١.

(٣) =: نظر الجاحظ في فهم وذوق النص القرآني والحديثي، مصطفى الصاوي الجويني (بحث منشور): ١٥٢، ومناهج وآراء في لغة القرآن، محمد بركات حمدي أبو علي: ١٥.

(٤) مقالات في الأسلوبية، منذر عياشي: ٨٢.

(٥) ذكر هذا النوع الفيروز آبادي في بصائر ذوي التّمييز: ١٠٨/١.

(٦) =: جماليات المفردة القرآنية في كتب الأعجاز والتّفسير: أحمد ياسوف: ٤٤.

الإضمار للفظة (الرّب) قد حقق الإشعار بأنّ معنى الربوبية يستدعي (الرّحمة) بالمربوبين، فضلاً عما في إضافة (ربّ) إلى ضمير الرّسول (ﷺ) مِنْ صرف للكلام عن مواجهة المشركين إلى مواجهة النبي (ﷺ) بالخطاب[١]، وفيه تشريف له (ﷺ). وفي هذا التّناسب بين (رحمة) بهذا التّنكير والتّنوين الدال على التّفخيم[٢]، وبين (ربّ) - زيادة عمّا ذكر - تخصيص للرحمة المذكورة للمؤمنين، وهذا جزء من المقابلة المعنوية بين قوله (منذرين) وبين (رحمة مِنْ ربّك) وهو شبيه بالاحتباك.

ومِنَ الإيثار أيضاً ذكر ثنائية (السّميع العليم)، وهما تعليلان لجملة (إنّا كنّا مرسلين) بطريق الكناية الرّمزية[٣]، والتّناسب ظاهر بين السّبب والمسبب «لأنّ المحتاجين إمّا أنْ يذكروا بألسنتهم حاجاتهم، وإمّا أنْ لا يذكروها، فإنْ ذكروها فهو تعالى يسمع كلامهم فيعرف حاجاتهم، وأنْ لم يذكروها فهو تعالى عالم بها»[٤]، وقد حقق ضمير الفصل (هو) الذي أفاد الحصر تعريضا بالمشركين وآلهتهم بصيغة قصر القلب، إذ إن المعنى: إنّه هو السّميع العليم لا أصنامكم التي تدعونها، فضلاً عمّا في ذكر (السّميع العليم) مِنَ التّعريض بالتّهديد[٥]، وقد تقدم ذكر (السّمع) على (العلم) وهو مِنْ باب التّقدم بالرّتبة ويتضمن التّخويف والتّهديد، فهو السّميع لمقالاتهم وإنكارهم ولغوهم، وهو العليم بما يخفون في صدورهم ضدّ المسلمين.

واستكمالا للحديث عن الرّبوبيّة، تذكر صفة التّكوين المختصة به تعالى وقد أقرّ بها المنكرون بقولهم ﴿ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٦] ليتحقق الاستدلال الكامل بأسلوب التّرقي حيث بدأ ذكر الرّبوبية في قوله (رحمةً مِنْ ربّك) إجمالا، ثم تفصيلا بذكر صفة عموم العلم، وصولا إلى صفة التكوين ليوضع المنكرون في دائرة لا مجال للشكّ فيها بأنّه تعالى هو الإله الحق، ولذلك جاء التّعقيب بقوله (إنْ كنتم موقنين) وفيه إثارة التّيقظ لعقولهم، للتدبر بهذه الصّفات الدّالة على ذلك.

---

(١) =: البرهان في علوم القرآن: ٣/٣٢٩، والتّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٨١.

(٢) =: روح المعاني: ٢٥/١٤.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٨٢.

(٤) التّفسير الكبير: ٢٧/٢٤١.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٨٢.

(٦) سورة الزّخرف: من الآية ٩.

وبعد وضعهم في دائرة الاستدلال التي لا يقاربها شكّ وجب قصر كلّ ما يدور في نفوسهم وعقولهم على حقيقة واحدة، وهي في قوله (ﷻ) ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فلا إله لكم أيّها المنكرون إلاّ الله الذي يحيي ويميت، والطّباق بين الحياة والموت دليل آخر يضاف إلى ما تقدم. وتتكون هذه الآية مِنْ جملتين: **الأولى:** نافية لما أثبتوه مِنَ الشّركة، **والثّانية:** (يحيي ويميت) مثبتة لمَا نفوه مِنَ البعث[١]، والمعنى لا إله إلاّ هو القادر على البعث، وهو يحيي ويميت بقدرته وحده دون شريك، وهذا قريب ممّا يسمى بالاحتباك.

ولمّا كانت حجتهم المذكورة في سورة الزّخرف ﴿ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾[٢] ذكر هنا مع سياق الاستدلال على ربوبيّته ونفيها عمّا كانوا يعبدون، وبأسلوب الخطاب، إنّه هو المستحق للألوهية الحقة، ولم يكن لهم ولا لآبائهم الأولين ربّ سواه، وأنّ ما هم عليه وهم وشرك وسبيل يوصلهم إلى العذاب في يوم الحساب.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

يتوالى ذكر الكتاب في مطالع الحواميم، ويستمد صفاته مِنَ المرسل، فقد ابتدأت سورتا (غافر وفصلت) ببيان مصدر التّنزيل، وابتدأت الشّورى بالرّمز إلى التّنزيل ووصفته بالوحي، وابتدأت سورتا (الزّخرف والدّخان) بالقسم بالكتاب، ثم جاءت سورتا (الجاثية الأحقاف) لتتماثل في المطالع فتبدأ بذكر مصدر التنزيل في قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾[٣].

وممّا يلحظ في باب التّناسب أو حسن الابتداء والانتهاء أو ما يسمى بـ (ردّ العجز على الصّدر) أنّ سورة الجاثية بدأت بذكر (العزيز الحكيم) وختمت بهما أيضاً، في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٧ ﴾[٤]، ثم

---

(١) =: نظم الدرر: ١١/١٨.
(٢) سورة الزّخرف: الآية ٢٣.
(٣) سورتا الجاثية والأحقاف: الآية ٢.
(٤) سورة الجاثية: الآية ٣٧.

تبتدئ سورة الأحقاف بعدها بذكرهما أيضاً، ممّا يؤكد الوحدة الموضوعية في سور الحواميم، تلك الوحدة التي تدور بشكل عام حول حقيقة الوحي والرّسالة، وهكذا كان القصد في الآيتين المذكورتين: إثبات أنّ القرآن وحي مِنَ الله أوحاه إلى الرّسول (ﷺ)، ولكنّ التّعبير القرآني آثر لفظة (تنزيل) فجاء الخبر خلافا لمقتضى الظّاهر لغرضين: **الأوّل**: التّشويق إلى تلقي الخبر لأنّهم إذا سمعوا الابتداء بتنزيل الكتاب استشرفوا إلى ما سيخبر عنه. **والثّاني**: أنْ يدعى أنّ كون القرآن تنزيلا أمر لا يختلف فيه، فالذين خالفوا فيه كأنّهم خالفوا في كونه منزلا مِنْ عند الله[1].

أمّا إيثار ثنائيّة (العزيز الحكيم) بالذّكر دون غيرها فلتحقيق التّناسب بين المقال والمقام إذ يشترك المنزل والمنزل في صفة (العزيز) وهو الغالب لمعانديه لأنّه أعجزهم عن معارضته، كمَا يدل وصف (الحكيم) على اشتماله على دلائل اليقين التي لا ينكرها إلاّ مَنْ كان في ضلال مبين.

وهكذا استمد القرآن الكريم بعض صفاته مِنَ الله الذي أنزله على النّبيّ المختار فكان مِنْ بين هذه الصّفات ما يقترن بذكر الصّفات الإلهية حين يوضح مصدر التنزيل في تناسب معجز، فهو مِنَ الله (العزيز العليم) (الرّحمن الرّحيم) (الحكيم الحميد) (العزيز الحكيم) (العليّ العظيم) (الغفور الرّحيم) (العلي الحكيم) (السّميع العليم)، وهذه الصّفات حين تقرن بالنّزول القرآني تمنحه التّفخيم والتّعظيم والقدسية التي تزيد المؤمنين إيمانا وتلجم الكافرين وترد كيدهم وإنكارهم، وهو بهذه الصّفات جدير بالاتباع، خليق بالاسترشاد والاقتداء، فضلاً عمّا في بلاغته ونظمه ممّا يحرك النّفوس إلى الاستماع إليه وتدبّر آياته والإنصات إلى عظاته.

## المبحث الثّاني

## تنزيل القرآن وصفاته لذاته

يوصف القرآن الكريم في بعض الآيات بصفات يتفرد فيها دون الاستناد في التزامها إلى المخاطب أو المخاطبين، على الرّغم مِنْ أنّ الكثير مِنْ هذه الصّفات يستمد مِنْ كثير مِنَ الصّفات الإلهية، مِنْ ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٣٢٥/٢٥.

مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾[١].

وقد جاءت هذه الصّفات في تناسب بديع مع سياق الآيات الذي يتحدث عن الملحدين في آيات الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ ﴾ ولذلك نجد أنّ الخبر قد أكد بـ (إنّ) و(اللام) في قوله (وإنّه لكتاب عزيز) لأنّ هذا الخبر داخل في صفة الذّكر المكذب به، فضلاً عن أنّ التّعبير بهذا النّظم «أشد إظهارا لمذمة الكفار به»[٢]، وفيه تعجيب لإلحادهم في آيات الله وكفرهم بالذكر وهو الكتاب العزيز.

ولا شكّ في أنّ أسلوب التّوكيد فيه تقوية للمعاني وتقرير لها ولا سيّما أنّ الخبر هنا قد جاء على سبيل الإجمال الذي أعقبه التّفصيل في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾ بمَا بين الإجمال والتّفصيل مِنْ تناسب، وفي هذا البيان تنشيط النّفس وإيقاظها بعد أنْ تتلقى الإجمال فتشتاق إلى التّفصيل والبيان، فإذا جاء البيان صادف نفسا يقظة متطلعة فيتمكن منها[٣].

أمّا (العزيز) فتوحي بأنّ الله قد أعزه فلا يتطرق إليه الباطل، وقيل: ينبغي أنْ يعز ويجل وألاّ يلغى فيه[٤]. وذكر أبو هلال العسكري «أنّ العزيز هو الممتنع الذي لا ينال بالأذى»[٥]، وفي هذا المعنى يتحقق التّناسب بين وصفه بـ (العزيز) وبين الآية التي بعده وهو ما يسمى بالتّناسب المعنوي[٦].

أمّا قوله تعالى: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾ فهو تفصيل للإجمال الذي في (عزيز) جاء على سبيل التّمثيل وكأنّه شبه بشخص حميّ مِنْ جميع جهاته، فلا يمكن لهؤلاء الكافرين أنْ يصلوا إليه بالأذى، وفي ذلك تثبيت للنبي (ﷺ) وللمؤمنين، وتقوية عزمهم على مواصلة الدّعوة، فضلاً عمّا فيه مِنْ خذلان المشركين

---

(١) سورة فصّلت: من الآيتين ٤١ و٤٢.

(٢) المحرر الوجيز: ١٢٣/١٣.

(٣) =: دلالات التراكيب، محمد أبو موسى: ٣٢٢.

(٤) =: الجامع لأحكام القرآن: ٣٦٧/١٥.

(٥) الفروق في اللغة: ١٠٣.

(٦) «هو الاتساق في المعنى والصّورة في التركيب الواحد وبينه وبين سائر التراكيب، والسّورة الواحدة والسّور الأخرى» الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، نذير حمدان: ١٥٣.

وإدخال الأسى في قلوبهم المريضة، فهو العزيز الذي لا يأتيه الباطل، وقوله (مِنْ بين يديه ولا مِنْ خلفه) كناية عن جميع الجهات. وهكذا يحقق الأسلوب الكنائيّ نوعا مِنَ الإيجاز[١]، إذ دلّ على جميع الجهات بتعبير موجز يتناسب مع أسلوب التّمثيل الذي جاءت عليه الآية، وقد حقق التّمثيل أثرا في النفس مِنْ خلال احتوائه للمعنى وإبرازه بهذه الصّورة، وفيه يقول عبد القاهر الجرجاني: «إنّ التّمثيل إذا جاء في إعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصيلة إلى صورته، كساها أبهة وكسبها منقبة، ورفع مِنْ أقدارها وشبّ مِنْ نارها وضاعف قواها في تحريك النّفوس لها»[٢].

وهكذا بدت صفة الكتاب، عزيزا مِنْ عزيز، فأنّى للباطل أنْ يدخل إليه، وهو صادر مِنَ الحق ويصدع بالحق؟ وأنّى يأتيه الباطل وقد حفظه الله وتكفل به فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[٣]، فما كان إنكار الملحدين وعناد المشركين فيه إلاّ حماقة وسفه، فظلّوا يتخبطون في الضّلال لا يصلون بشيء مِنْ أوهامهم الخبيثة إلى الكتاب، فهو في حفظ أبدي.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

في آية أخرى يوصف القرآن الكريم بأنّه (الحق)، وذلك في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[٤]، تأتي هذه الآية في نهاية السّورة ليتناسب مع مطلعها تناسبا معنويا يتضمن وصف القرآن، وذكر الكافرين وإعراضهم عنه، وهو ما يسمى بـ(ردّ العجز على الصّدر) أو تناسب الإطراف، فضلاً عن التّناسب بين هذه الآية في ختام سورة فصلت وبين مطلع سورة الشّورى بعدها، فكأنّما المعنى إنّ هذا القرآن هو الحق و﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ﴾ أي ومثل ذلك الحق، ممّا يؤكد الوحدة الموضوعية بين الحواميم والتي

(١) =: فن الاستعارة: ٢٣٤.

(٢) أسرار البلاغة: ١٢٩.

(٣) سورة الحجر: الآية ٩.

(٤) سورة فصلت: من الآية ٥٣.

تمثل جزءا مِنَ الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم والتي «لا تظهر إلاّ بعد الولوج إلى المفردة والآية، وهذا سرّ اهتمام الدّارسين بالآية، وقبل ذلك بالمفردة»(١).

وقد جاءت الآية في سياق الحجاج الذي أمر الرّسول (ﷺ) بالقول فيه ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾(٢)، والحديث هنا عن القرآن، فكان لا بدّ مِنْ تثبيت له (ﷺ) وهو في معرض الحجاج ضد هؤلاء الكافرين، فجاء الوعد والوعيد في هذه الآية، ففيها تسلية وبشارة للنبي (ﷺ) وللمؤمنين بأن الله سيظهر مِن الآيات ما يتبيّن به الكافرون أنّ القرآن حق مِنْ عند الله، ويقابل هذه البشارة والوعد، وعيد وتبكيت بالمشركين وتسفيه احتلامهم المريضة فلا بدّ للحق أنْ ينتصر ويظهر، وقد جاء كلّ ذلك في إيجاز بديع تضمن هذه المقابلة المعنوية، وفي الوعد تعريض بهم وإحالة لهم على التّشكيك في موقفهم مِنَ القرآن، فضلاً عمّا في الآية مِنَ الإعجاز بالإخبار عن الغيب، وها قد كشف الله عن آيات كثيرة في الآفاق خلال القرون الماضية التي تلت هذا الوعد، كمَا كشف عن آيات كثيرة في الأنفس، واتضح للكافرين في كلّ زمان ومكان أنّ القرآن حق.

وتبتدئ الآية بقوله (سنريهم) بهذه السّين الدّاخلة على المضارع والتي تسمى بـ(سين التّنفيس) حيث تخلص المضارع للاستقبال(٣).

وقد تقدم قوله (في الآفاق) على (في أنفسهم) على سبيل تقديم العام على الخاص وهو ما يفيده العطف أيضا، وفيه تناسب مع فعل الرّؤية، إذ إنّ الإنسان يفكر فيما حوله ويتدبر ويعجب من خلقه وينسى ما في نفسه مِنْ دلائل القدرة الإلهية، وفي خلق النّفس البشرية ما يحتم عليه التّصديق والشّكر بعد الإيمان بالحق.

وممّا يتناسب ومقام الوعد والتّبشير للمؤمنين، والوعيد والتّعريض بالكافرين، استخدام أسلوب القصر في صفة القرآن الكريم وذلك قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ «فالقصر المستفاد مِنْ تعريف المسند حقيقي ادعائي»(٤)، فالضمير في قوله (أنّه)

(١) مناهج وآراء في لغة القرآن: ١٣.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٢.

(٣) =: الجنى الداني في حروف المعاني: ١١٩، والزمن في القرآن الكريم، بكري عبد الكريم: ٣١٤.

(٤) تفسير روح البيان: ٢٨٣/٨.

عائد على القرآن، والقصر الحقيقي هو «أنْ يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع بألاّ يتعداه إلى غيره أصلا»(١)، وهو ما يتناسب ومقام الوعد والوعيد إذ حقق هذا القصر توكيدا لتحققه وإشعارا بحقيقة الصفة التي وصف بها القرآن الكريم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

يمضي بنا التّعبير القرآني في الحديث عن صفات القرآن لذاته، فبعد أنْ وصف بأنّه (الكتاب العزيز) الذي لا يأتيه الباطل مِنْ بين يديه ولا مِنْ خلفه، وبأنّه الحق، يوصف في آيات أخرى بأنّه الكتاب المبين، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ ﴾(٢)، وكأنّ هذه الصفة تظهر ما احتوته الصّفتان السّابقتان ضمنا مِنَ الظّهور والإبانة، فالعزيز الممتنع الذي لا يأتيه الباطل مِنْ أيّة جهة، لا بدّ أنْ يكون في أعلى درجات الإبانة والوضوح والظّهور، وهكذا وصفه بالحق لا بدّ فيه الظّهور والبيان.

وقد جاء وصف الكتاب بالمبين متضمنا معنى التّأكيد على هذه الصّفة مِنْ خلال أسلوب القسم، وعن هذا الوصف يقول الرّازي «المبين هو الذي أبان طريق الهدى مِنْ طريق الضّلالة وأبان كلّ باب عمّا سواه وجعلها مفصلة ملخصة»(٣).

وفائدة القسم بالقرآن هي التّنويه بشأنه وهو توكيد لمَا تضمنه جواب القسم وقد جعل المقسم به هو المقسم عليه، وهذا يوميء إلى أنّ المقسم على شأنه بلغ غاية الشّرف فإذا أراد المقسم أنْ يقسم على ثبوت شرف له لم يجد ما هو أولى بالقسم به للتناسب بين القسم والمقسم عليه(٤)، وهذا مِنْ مبتكرات القرآن.

ولأسلوب القسم هنا فائدة أخرى تتمثل في ما يحدثه مِنْ أثر نفسيّ لدى المخاطبين، ويتفاوت الاستعداد النّفسي عند المخاطبين في تقبل الحق والانقياد لنوره، فالنّفس الصّافية التي لم تتدنس فطرتها تستجيب للهدى، وتفتح قلبها لإشعاعه، ويكفيها في الانصياع إليه اللمحة والإشارة، أمّا النّفس التي رانت عليها سحابة الجهل وغشيتها ظلمة الباطل فلا يهتزّ قلبها إلاّ بمطارق الزّجر وصيغ التّأكيد حتى يتزعزع نكيرها،

(١) علم المعاني، عبد العزيز عتيق: ١٦٦، و=: أسرار التّقديم والتّأخير: ٣٨.

(٢) سورتا الزخرف والدخان: الآية ٢.

(٣) التّفسير الكبير: ١٩٣/٢٧.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٥٩/٢٥.

«والقسم في الخطاب مِنْ أساليب التّأكيد التي يتخللها البرهان المفحم والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بمَا يجحد»[١].

وقد جاءت صيغة القسم مقترنة بإيثار الواو دون غيرها، ليتحقق لفت النّظر الذي أشرنا إليه، إذ «إنّ القسم بالواو - غالبا - لون مِنْ ألوان البيان الفنيّ للمعاني بالأشياء الحسية وما يلمح فيه مِنَ الإعظام إنّما يقصد به إلى قوة اللفت، واختيار المقسم به ترعى فيه الصّفة التي تناسب الموقف»[٢].

أمّا تعريف (الكتاب) فهو تعريف العهد والمراد به: القرآن، وجاءت صفة (المبين) على سبيل المجاز العقلي، لأنّ المبين هو الله، وسمي القرآن بذلك توسعا مِنْ حيث إنّه حصل البيان عنده وبسببه[٣]، ولا ينفي ذلك وصفه بأنّه (مبين) فهو الكتاب الخالد الذي تهتدي ببيانه النّفس البشرية التي تعقل هذا البيان المعجز إلى أنْ يرث الله الأرض وما عليها في يوم الحساب.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

# المبحث الثّالث

## تنزيل القرآن وصفاته باعتبار المخاطبين

تضمنت الحواميم الكثير مِنْ صفات القرآن التي تستند إلى المخاطبين، وتنبثق مِنْ اختلاف أحوالهم وتتناسب مع هدف القرآن وخطابه لهم على وفق مقتضى الحال الذي هم فيه أو ما يراد لهم أنْ يكونوا عليه، وأوّل تلك الصّفات ما جاء في قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾[٤].

وقد استمدت السّورة عنوانها مِنَ الوصف الذي تضمنته هذه الآيات، فهو الكتاب الذي (فصّلت آياته)، وقد قيل في معنى ذلك: «بيّنت آياته أي فسرت معانيه،

(١) التّعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين: ٢٣٧.

(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن: ٢٠.

(٣) =: التفسير الكبير: ١٩٣/٢٧.

(٤) سورة فصّلت: الآيتان ٣ و٤.

ففصل بين حلاله وحرامه، وزجره وأمره، ووعده ووعيده، وقيل فصّلت في التّنزيل أي نزل نجوما ولم ينزل مرّة واحدة، وقيل فصّلت المواقف وأنواع أواخر الآي»[١]، وفي كلّ ذلك ردّ على الكافرين وعنادهم وهم الذين قالوا ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ﴾[٢]، ففي الخبر إلجام لصوت الباطل الذي نطقوا به، وهم الذين قالوا أيضاً ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾[٣]. ويدل وصف الكتاب بـ (فصّلت آياته) على التّبيين والخلوّ مِنَ الالتباس، لدلالة مادة (فصل) على تمييز الشّيء مِنَ الشّيء وإبانته عنه، فضلاً عن تناسب ذلك مع لفظة (قرآنا) وهو الكلام المقروء المتلو باللسان، وذلك أنّ: المفصل في اللغة يعني اللسان لأنّ به تفصل الأمور وتميّز[٤].

ويستكمل هذا الوصف بأنّ القرآن نزل بلسان عربيّ (قرآنا عربيّاً) فهو يستمد صفته مِنْ صفة المخاطبين، وفي ذلك نعمة عليهم وامتنان حيث سهولة قراءته وفهمه لنزوله بلسانهم، فضلاً عن التّشريف الذي ينبثق مِنْ اختصاصهم بهذه النّعمة ووصفهم بأنّهم (قوم يعلمون) وقد خصهم بالذّكر لأنّهم هم المنتفعون به[٥].

وفي نصب (قرآنا) على الحال توكيد لمعنى الجملة وفيه إعجاز لهم فهم يقرؤونه بلغتهم ويعجزون عن مثله مع وصفهم بأنّهم يعلمون.

ففي الآية ثلاثة أوصاف، **الأوّل** (فصّلت آياته) **والثّاني** (قرآنا عربيّا) **والثّالث** (لقوم يعلمون) وتستند جميعها إلى المخاطبين.

وتأتي بعد ذلك صفات أخرى تنبثق مِنْ حال المخاطبين وموقفهم منه وتتعلق بحاله أو حال هدفه في التعامل معهم، وذلك في قوله (ﷻ) (بشيرا ونذيرا) وفي ذلك تشبيه للقرآن بالبشير والنذير وهو تشبيه بليغ[٦]، فبعد أن وصف بالصّفات السّابقة لم يبق لهم أي عذر، فإمّا البشارة أو الإنذار. وقد جاء هذا التشبيه البليغ جامعا بين هاتين الصّفتين على سبيل الطّباق الذي حقق إيجازا لحال الفريقين في الدّنيا والآخرة، وقد

---

(١) المحرر الوجيز: ١٣/٧٧.

(٢) سورة فصلت: من الآية ٤٤.

(٣) سورة الفرقان: من الآية ٣٢.

(٤) =: معجم مقاييس اللغة: ٨١٨، مادة (فصل).

(٥) =: روح المعاني: ٢٤/٩٥.

(٦) =: التحرير والتنوير: ٢٤/٢٣٢.

جاء الطّباق بين الصّفتين على سبيل الوصل بينهما بالواو للتنبيه على اختلاف موقع كلّ مِنَ الحالين فهو بشير لقوم ونذير لآخرين، وليس هو جامعا بين البشارة والنذارة لطائفة واحدة[١]، فحسن العطف لوجود المغايرة.

أمّا الإخبار عن موقف أكثرهم بالإعراض عنه ووصفهم بعدم السّماع ففيه توبيخ لهم إذ رفضوا فائدة الاستماع لكلام الله، وعطلوا الانتفاع بما وهبهم مِنْ نعمة السّمع والقدرة على استيعاب المعاني[٢]، فاستحقوا التّوبيخ لهذه النّفوس التي لم تهتد ولم تكترث بالبشارة، وأعرضت عنها إلى الضّلال ولم تحذر الإنذار، واستحقت الوصف بعدم السّماع والذي جاء بتقديم المسند إليه على المسند الفعلي (فهم لا يسمعون) ليفيد تقوية الحكم وتأكيده.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

اتساقا مع مطلع سورة فصلت في قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾[٣] واستكمالا لصفات القرآن باعتبار المخاطبين وأحوالهم وهدف القرآن في تغيير ظاهر ما هم عليه ودواخل نفوسهم يأتي قوله تعالى في السّورة ذاتها: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٤٤ ﴾[٤]. فهي النّعمة التي خصّ الله بها العرب أنْ جعل القرآن عربيّا قد فصّلت آياته وتضمن البشارة والإنذار، ولكنّهم أعرض أكثرهم واستندوا إلى حجج واهنة وعطلوا ما حباهم الله من نعمة السّمع والبصر والعقل فلم يهتدوا، فأبطلت حججهم كلّها، وجاءت هذه الآية أيضاً لتبطل ما كانوا يدعون فلو جعل الله تعالى القرآن أعجميا لاستمروا في ضلالهم وقالوا (لولا فصّلت آياته أأعجمي وعربيّ)، ووصفه بالأعجمي استعارة، تشبيها له بكلام مَنْ لا يفصح مِنْ حيث إنّ

---

(١) =: م. ن: ٢٤/٢٣٢.

(٢) =: القرآن إعجاز يتعاظم: ٦٩.

(٣) سورة فصّلت: الآية ٣.

(٤) سورة فصّلت: الآية ٤٤.

الأعجمي هو ما لا يفهم معناه[١]. فأمر الرّسول (ﷺ) أنْ يبين لهم مِنْ صفات القرآن ما يناسب هدفه ويلائم مقام الخطاب والدّعوة ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ هكذا بصيغة الاختصاص الذي أفاده تقديم ذكر المؤمنين على الكافرين، وبهذه (اللام) في لفظة (للذين) والتي توحي بهذا التّكريم والتّشريف بهذه النّعمة الكبيرة، ثمّ تأتي صفات القرآن باعتبار هؤلاء (الذين آمنوا) فهو (هدى وشفاء)، والتّقديم هنا مِنْ باب تقديم السّبب على المسبب، فالهدى سبب للشفاء، وحقيقة الشّفاء: زوال المرض وهو مستعار لإبصار الحقائق وانكشاف الالتباس مِن النّفس كما يزول المرض عند حصول الشّفاء[٢]، والاقتران بين (الهدى والشّفاء) هنا يوحي بصدق إيمان هؤلاء وصفاء نفوسهم، فأثره فيهم مِنَ الظّاهر والباطن، فالهدى ظاهر أفعالهم وطاعتهم والشّفاء لمَا في داخل نفوسهم لتصفيتها وإخلاصها للحق، فهو الكتاب الذي يحيي النّفوس ويصنع بها ومنها العظائم في ذاتها وفيما حولها، وذكر القرآن بأنّه (هدى وشفاء) تشبيه بليغ، إذ جعل القرآن الهدى نفسه والشّفاء نفسه يهديهم إلى سبل الرّشاد ويشفيهم مِنْ أوصاب الجنون[٣]، والأولى أنْ يكون مجازا مرسلا بعلاقة السّببية لكون القرآن به يحصل الهدى ويحصل الشّفاء.

ثمّ ينتقل التّعبير القرآني إلى صفات أخرى باعتبار غير المؤمنين وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ وقد حقق تقدم ذكر (الذين لا يؤمنون) تشويقا لمعرفة ما سيكونون عليه جزاء إعراضهم عن القرآن الكريم، فضلاً عمّا في النّظم التّشريف مِنْ طباق السّلب في قوله (الذين يؤمنون ... والذين لا يؤمنون) والذي سبقه طباق آخر في قوله (ءاعجمي وعربي)[٤].

ثمّ تأتي الصّفات التي تناسب ما هم عليه مِنْ إعراض على سبيل التّرقي في ذكرها فبدأ بقوله (في آذانهم وقر)، والوقر داء قد استقر في آذانهم وهو الصّمم، وهم

(١) =: تفسير روح البيان: ٢٧٢/٨.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٣١٥/٢٤.

(٣) =: الجدول في إعراب القرآن: ٣٢٠/٢٤.

(٤) =: صفوة التفاسير: ١٢٩/٣.

الذين قالوا عند إعراضهم عن الذكر ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ﴾[١]، ومقابلة (الوقر) بـ (الشّفاء) مِنْ حسن الطباق، ومجيء حرف الظرفية (في) يوحي بقوة امتناعهم عن سماع الذكر وإعراضهم عنه، ثم جاءت الصّفة الثّانية بقوله (وهو عليهم عمى) باستعارة العمى لضدّ الاهتداء، فمقابلته بـ (الهدى) من حسن الطّباق أيضاً، والإخبار عن القرآن بأنّه (وقر) و(عمى) تشبيه بليغ، ووجه الشّبه هو عدم الانتفاع به[٢].

ومِن بديع نسيج الآية مقابلة (الهدى والشّفاء) بـ (الوقر والعمى) ليدل أيضاً على ظاهر هؤلاء وباطنهم بدليل استخدام (اللام) في (للذين آمنوا) أوّلا، و(في) و(على) ثانيا للدلالة على استقرار الوقر في داخلهم، واستيلاء العمى عليهم، وفي ذلك توبيخ لهم وتقريع مرير. وهكذا نجد ما للاستعارة من دلالة إيحائية، «فالألفاظ فيها لا تقصد لذاتها وإنّما لمعان ودلالات نستشفها من وراء وجودها في السّياق مرتبطة بما تقضي أحكام النّظم والمعاني النّحوية»[٣]، وهكذا تتجلى إحدى خصائص الاستعارة وهي التّلاؤم بين اللفظ المستعار والنّظم فضلاً عن تصوير الحالة النّفسيّة بالطّريقة الحسيّة[٤].

وقد جاءت المقابلة على سبيل الاحتباك، إذ «ذكر الهدى والشفاء أوّلا دليلا على الضّلال والدّاء ثانيا، والوقر والعمى ثانيا دليلا على السّمع والبصائر أوّلا، وسرّ ذلك أنّه ذكر أمدح صفات المؤمنين وأذم صفات الكافرين لأنّه لا أحقر مِن أصم وأعمى»[٥].

ولا يخفى ما للصورة المجازية في (هدى وشفاء) و(وقر) و(عمى) من أثر نفسيّ في السّامعين لهذه الآيات في كلّ زمان ومكان لمَا لها من وقع جميل في النّظم، لأنّها تعطي الكلام قوة وتكسوه رونقا وحسنا، وفي الاستعارة تثار الأهواء

---

(١) سورة فصّلت: من الآية ٥.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٣١٥/٢٤ - ٣١٦.

(٣) فن الاستعارة: ١٣٢.

(٤) =: البلاغة فنونها وأفنانها، فضل حسن عباس: ٢٣٤، والاستعارة في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان: ٦٣ (رسالة ماجستير).

(٥) نظم الدرر: ٢٠٧/١٧.

والإحساسات وتتنفس المشاعر من مواطن الألم والأمل[١]، فيحقق القرآن هدفه لدى المتلقين، فإمّا الهداية للمهتدين وإمّا العمى والصمم للمعرضين.

ويمكن القول إنّ الألفاظ المستعارة أداة صادقة تجعل القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، وتصور المنظر للعين، وتنقل الصّوت للأذن وتجعل المعنوي ملموسا[٢]، فتهتزّ لها النّفوس وتخشع لمَا تحمله مِنَ المعاني فضلاً عمّا تحمله الصّورة الاستعمارية من دلالات باعتمادها على الإيحاء، ذلك أنّها مكونة مِنْ كلمات، فكلّما كان التّلاؤم قويّا بين أركان الصّورة الاستعارية من جهة وبينها وبين السّياق من جهة أخرى أعطتنا سيلا من المعاني التي تتسع مع التّأمل والتّدبر.

ثـمّ زيد التّقريع والتّوبيخ بذكر صفة أخرى على سبيل التّمثيل[٣] لحالهم، أو الاستعارة التّمثيلية[٤]، وذلك في قوله (ﷻ): ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ فالعرب تقول لمَن لا يفهم: أنت تنادي من مكان بعيد[٥]، فقد شبه حالهم في عدم قبول المواعظ وإعراضهم عن القرآن بحال مَن ينادي من مكان بعيد، فلا يسمع ولا يفهم ما ينادى به، ومِن التّناسب أنْ يؤثر اسم الإشارة (أولئك) في هذا المقام لمَا فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الشّر مع ما فيه من كمال المناسبة للنداء من بعيد[٦].

وقد قيل: إنّ الكلام على الحقيقة، وإنّ المعنى «أنّهم يوم القيامة ينادون بكفرهم وقبيح أفعالهم من بعد حتى يسمع ذلك أهل الموقف فتعظم السّمعة عليهم ويجل المصاب»[٧]، وعلى هذا يكون الكلام مناسبا لمقام التّوبيخ والتّقريع أيضاً فمَن عطّل أسباب السّمع والاهتداء وكان في الحياة الدّنيا كالأعمى بضلاله وكفره وإعراضه (فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) استحق من الجزاء أنْ يكون كذلك في الآخرة (ينادون من مكان بعيد) فقد أرادوا هذه الحال في الدّنيا، فكانت لهم في الآخرة أيضاً،

---

(١) =: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، فتحي أحمد عامر: ١٢٧.
(٢) =: من بلاغة القرآن: ٢١٧.
(٣) =: محاسن التأويل: ٥٢١٣/١٤.
(٤) =: فتح البيان في مقاصد القرآن: ٢٦١/١٢.
(٥) =: الجامع لأحكام القرآن: ٣٦٩/١٥.
(٦) =: روح المعاني: ١٣٠/٢٤.
(٧) المحرر الوجيز: ١٢٦/١٣.

ولا تعارض - هنا - بين القول بالتّمثيل أو أنّ الكلام على حقيقته إذ إنّ «مِن التّمثيل البياني في القرآن ما يقرب الحقائق إلى الأذهان، ويضفي عليها لونا من البيان فيجليها»(١).

وغنيّ عن القول إنّ القرآن الكريم كثيرا ما يربط بين السّمع والبصر، وقد أوثر وصف الكافرين بتعطيل السّمع والبصر مقابل (هدى) المؤمنين لأنّ وسائل تذوق الجمال هي السّمع والبصر، وهما منفذان إلى القلب، والجمال القرآني يثير مختلف الأحاسيس لأنّه فن قولي يعتمد الكلمة والنّسق الموسيقي وهذا ما يخصّ السّمع، ويعتمد التّصوير بالمشاهد المؤثرة في المشاعر وهذا ما يخصّ البصر، حتى أنّ سماع بعض كلماته يشبه الإدراك المرئي(٢)، فإذا تعطل السّمع والبصر لم يصل إلى النّفس أي أثر ممّا حولها.

❖❖❖❖❖

عاد التّعبير القرآني إلى الحقيقة التي عرضها مطلع سورة الشّورى فجاءت صفة أخرى للكتاب الكريم، وهي عربيّة القرآن، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾(٣).

ولا شكّ في أنّ العودة إلى ذكر الوحي والرّسالة بنظم يماثل المطلع هي تقرير لذلك المعنى، وكان لا بدّ لهذا التقرير - والدّعوة في عهدها المكي - من العدول عن ضمير الخطاب إلى ضمير العظمة في (أوحينا) وهو ما يسمى بالالتفات، حيث تحقق هذه المخالفة السّياقية تثبيتا للسامع وتنبيها يستشرف من خلاله ما سيكون بعدها.

أما عربيّة القرآن التي أكدتها آيات كثيرة فقد جاءت هنا على سبيل التّناسب بين هذا الوصف وبين حال المنذرين به وهم العرب من أهل مكّة ومَن حولها لأنّهم المخاطبون بالدّين ابتداء، وفي ذلك تشريف لهذه الأمة لتكون أوّل مَن يتلقى الإسلام

---

(١) سيكولوجية القصة في القرآن، التهامي نقرة: ٢٤٦.

(٢) =: جماليات المفردة القرآنية: ٧ و١٤ و١٨.

(٣) سورة الشورى: الآية ٧.

وينشره بين الأمم فضلاً عن التّشريف بعربية القرآن.

ثـمّ تأتـي صفة الإنـذار علـى سـبيل التّعـليل، والمعنـى: (أوحيـنا إلـيك لتـنذر)، وصفة الإنذار تناسب السّياق السّابق واللاحق لهذه الآية إذ الحديث فيه عن المشركين، والاقتصار على الإنـذار هنا دون التّبشير كمَا في (بشيرا ونذيرا) فيه تناسب أيضاً، لأنّهم مَن قصدوا بالرّد عليهم لإنكارهم الرّسالة.

ومِن دقائق البلاغة ولطائفها في نظم الآية التّعبير عن مكّة بـ (أمّ القرى) وإيقاع الإنذار عليها بحذف المضاف (أهل) على سبيل المجاز المرسل بعلاقة المحلية[١]، حيث «عبّر بلفظ المحل عن الحال فيه إيجازا واختصارا ولأنّه أخف وأبلغ»[٢]، كمَا في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾[٣]، وغرض الحذف هنا الاتساع وتنشيط الخيال وإثارة الانتباه فضلاً عمّا فيه من التّهويل على النّفوس[٤]. والدّليل على أنّ المحذوف (أهل) هو مجيء (مَن) بعده على سبيل الوصل بالواو، و(مَن) في الأغلب لمَن يعقل[٥].

وثمّة لطيفة أخرى وهي تكرار فعل الإنذار لتحقيق المزيد من التّهويل، ويتسق هذا التّكرار مع إسناد الفعل أو إضافته إلى (يوم الجمع) ليوحي «بالاهتمام بترك المخالفات ترهيبا من عقابها»[٦]، فضلاً عمّا في (يوم الجمع) من التّناسب مع ذكر الوحي له (ﷺ) وللرسل الآخرين في مطلع السّورة فهم جميعا من ضمن الجمع، والتّناسب أيضاً مع قوله تعالى قبل ذلك ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾[٧] فالمشركون وآلهتهم أيضاً من ضمن الجمع.

وفي الآيـة نكـتة بلاغـيّة لطيفة تتمثـل فـي حـذف ثانـي مفعولـي (تـنذر) الأوّل، وحـذف أوّل مفعولـي (تـنذر) الثّانـي ممّـا أدى إلـى تـشكيل الاحتـباك فـي أبلـغ صـور

---

(١) وهي أنْ يطلق اسم المكان على من يحل فيه كما في إطلاق النادي على المجتمعين فيه، كما في قوله تعالى ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ سورة العلق: الآية ١٧. =: التعبير البياني: ١١٣.

(٢) أساليب المجاز في القرآن الكريم، أحمد حمد محسن الجبوري: ٣٦٥، (أطروحة دكتوراه).

(٣) سورة يوسف: من الآية ٨٢.

(٤) =: خصائص التراكيب: ١١٧، وظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، طاهر سليمان حمودة: ١٠٥.

(٥) =: المحرر الوجيز: ١٤٤/١٣.

(٦) محاسن التأويل: ٢٥٧/١.

(٧) سورة الشورى: من الآية ٦.

التّناسب، فقد «ذكر المنذرين أوّلا دلالة على إرادتهم ثانيا، وذكر المنذر به وهو يوم الجمع ثانيا دلالة على المنذر به من عذاب الأمم أوّلا، ليذهب به الوهم في المحذوف كلّ مذهب فيكون أهول، وذكر هذا المذكور أفخم وأوجل»[١]، والتقدير (لتنذر أمّ القرى العذاب وتنذر النّاس يوم الجمع)، ولا يخفى ما في تقدير المحذوف من تقييد للفكر وحصر قوة فعل الإنذار وتهويله على المذكور فضلاً عن أنّ «تقدير المحذوف يفسد جمال العبارة، وهو عبث بالنّص وخروج على المعنى الذي أريد به، وهو بعد ذلك كله تضييع لفنية الأسلوب»[٢]، ويمكن أنْ نربط بين الغموض بوصفه بعدا جماليا للحذف وبين أثره في النّفس، فالحذف يطلق للنفس العنان فتذهب في الحدس كلّ مذهب وترتاد آفاق المعاني التي يحتملها التّعبير، وللغموض الفنيّ آثاره النّفسية ولا سيّما في المعاني غير المحدودة ممّا يجللها بشيء من الرّهبة والجلال[٣]، وهكذا يكون لإيجاز الحذف بعد نفسيّ يتمثل في التّوسع بالدلالة الإيحائية ممّا يفتح المجال واسعا أمام الذهن في التّصور. وفيه لطيفة أخرى تتمثل في تقديم إنذار (أمّ القرى) على إنذار (يوم الجمع) وهو من ذكر الخاص بعد العام[٤]، لأنّ قوله (تنذر أمّ القرى) عام بأمور الدّنيا والآخرة، و(تنذر يوم الجمع) خاص بالآخرة.

وتأتي الجملة الأخرى بعد ذكر (يوم الجمع) لتنقل المتلقي من هول هذا الإنذار وتزاحم الصّور الذّهنية في فكره نتيجة ذلك الحذف، إلى نتيجة أحداث يوم الجمع ومواقفه ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾، هكذا بأسلوب الفصل عن الجملة السابقة، وكأنّ الجملتين جواب لسؤال سائل عن شأن هذا الجمع ونتيجته ومآل النّاس فيه، فجاء الجواب على سبيل المقابلة بين (فريق في الجنة) و(فريق في السّعير) بما في المقابلة من الطّباق بين (الجنة) و(السّعير).

وهكذا تتواشج الفنون البلاغيّة في النّظم القرآني لتصف القرآن بعربيّته، وبأنّه وسيلة الرّسول (ﷺ) للإنذار، ولتنقل المخاطبين من هول إلى هول، وتدخل في قلوبهم الرّعب، وتستحضر لهم نتيجة الحساب العدل بأبهى صور المقابلة، ولتختار النّفس

(١) نظم الدرر: ١٧/٢٥٠، وإرشاد العقل السليم: ٥/٢٩، وصفوة التفاسير: ٣/١٤٧.
(٢) نحو القرآن، أحمد عبد الستار الجواري: ٢٦.
(٣) =: أثر القرآن في تطور النقد العربي، محمد زغلول سلام: ١١٩.
(٤) =: روح المعاني: ٢٥/١٣.

البشرية فريقها الذي تريد، وتعمل جاهدة لتنال ذلك الانتماء.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

يوصف القرآن مرّة أخرى بعربيّته في مطلع سورة الزّخرف، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[١].

ولعلّ مجيء الخبر بعد القسم بالكتاب يوحي بصفة أخرى تكمن في لفظة (قرآنا) ليحصل بذلك أنّ هذا الكتاب جامع لوصفين: كونه كتابا، وكونه مقروءا على السنة الأمة، وتأتي الصفة الأخرى (عربيّا) لتحقق غرضين: **الأوّل**: التّنويه بالقرآن ومدحه بأنّه جاء على أفصح لغة، **والثّاني**: التّعريض بالمعاندين من العرب وذمهم حين لم يتأثروا بمعانيه وكأنّهم يسمعون كلاما بغير لغتهم[٢]، فضلاً عمّا في هذا الوصف من التّحدي وإثبات عجزهم عن الإتيان بمثله وهو منسوج على منوال لغتهم.

أما قوله (لعلكم تعقلون) ففيه استعارة وتعريض وكناية، فالحرف (لعلّ) مستعار لمعنى الإرادة، ولمعنى (كي) وهو التّعليل وسببية ما قبلها لمَا بعدها لكون حقيقة التّرجي ممتنعة في حقه تعالى[٣]، لا كما ذهب احد الباحثين[٤] - واهما - إلى القول بالتّرجي والأمل والتّوق إلى معنى (تعقلون).

وفي قوله (لعلكم تعقلون) تعريض بأنّهم أهملوا التّدبر في هذا الكتاب ولو تدبروه لعقلوه، فهذا الخبر مستعمل في التّعريض على طريقة الكناية[٥]. وهكذا كان وصف الكتاب بأنّه (قرآنا عربيّا) سببا للتفكر والتّدبر، فالغاية أنْ يعقلوه وهو بلسانهم، فضلاً عمّا في ذلك من التّشريف لهذه اللغة وأهلها.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

يستمد الكتاب العزيز صفة أخرى من حال المخاطبين بعد أنْ وصف بأنّه (قرآنا عربيّا) وأنّه (بشيرا ونذيرا) وأنّه (هدى وشفاء) للمؤمنين، و(وقر وعمى) على

---

(١) سورة الزّخرف: الآية ٣.
(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٦١/٢٥.
(٣) =: تفسير روح البيان ٣٤٩/٨، وتنوير الأذهان، للشيخ البروسوي: ٥/٤.
(٤) وليد منير، في كتابه: النص القرآني من الجملة إلى العالم: ٨٢.
(٥) =: التّحرير والتّنوير: ١٦٢/٢٥.

الكافرين، فيوصف في قوله تعالى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝ ﴾[١] بأنّه ذكر.

وفي هذا الوصف تناسب مع الآيات التي بعدها والتي تحتاج إلى تذكر مصير الأمم السّابقة من الكافرين وأخذ العظة والعبرة منه، فحال هؤلاء يماثل حال السّابقين من حيث الإعراض والإسراف وعدم الاستجابة للذكر.

ويأتي هذا الوصف في سياق يبتدأ بالاستفهام الإنكاري في قوله (أفنضرب)، والضّرب هنا «مستعار لمعنى القطع والصّرف أخذا من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض أي اطردها وصرفها ... فاستعاروا الضّرب للصرف والطّرد»[٢]. والتّعبير عن هذا المعنى بالاستفهام الإنكاري دون النّفي الصّريح أبلغ وأوقع في النّفس لمَا في الاستفهام الإنكاري من «تنبيه السّامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيا بالجواب، إمّا لأنّه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه فإذا ثبت على دعواه قيل له (فافعل) فيفضحه ذلك، وإمّا لأنّه هم بأنْ يفعل ما لا يستصوب فعله فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ، وإمّا لأنّه جوز وجود أمر فإذا أثبت على تجويزه وبخ على تعنته»[٣]. وهمزة الاستفهام هنا يمكن أنْ تجمع بين التقرير والإنكار التوبيخي من حيث «إنّ التقرير هو المعنى اللازم للهمزة في غالب مواضعها وإنّ غيره من المعاني ينجر مع التقرير»[٤].

أمّا (الذّكر) فهو التّذكير، وهو مجاز مرسل بعلاقة السّببية فهو سبب الذّكر، والمراد به القرآن. وتستكمل الصورة بلفظة (صفحا) وهو أشد الإعراض عن الكلام لأنّه يجمع ترك الاستماع وترك النّظر، فقد شبه حال الذكر وتنحيته بحال غرائب الإبل وذودها، ثم استعمل ما كان مستعملا في تلك القصة ههنا على سبيل الاستعارة التّمثيلية[٥]، وقيل في معنى (الذّكر) إنّه (العذاب) والمعنى: «أفنضرب عنكم العذاب

---

(١) سورة الزّخرف: الآية ٥.

(٢) التّحرير والتّنوير: ١٦٣/٢٥.

(٣) دلائل الإعجاز: ١٤٥.

(٤) موسوعة الحروف في اللغة العربية، أميل بديع يعقوب: ٣٦.

(٥) =: تفسير روح البيان: ٣٥١/٨.

فنترككم ونعرض عنكم لأنْ كنتم قوما مسرفين»[(١)] ولا خلاف بين المعنيين، فقد وصف القرآن بأنّه (نذير)، ووسيلة إنذار بيد الرّسول (ﷺ) لينذر به، والقرآن يتضمن الوعيد بالعذاب، فلفظ (الذّكر) في سياق ذكر المسرفين يوحي بما فيه من ذكر العذاب، فلا خلاف في ذلك، والله أعلم، وكلّ ذلك يوحي به السياق، إذ إنّ المعاني الأول تكون مثارا لدلالات ثانية مبعثها تآلف الكلمات في اتساق حسن وتأليف بديع، ويكون التّضمين التّركيبي أو السّياقي وجها من وجوه الإعجاز البلاغيّ يستند إلى الجمع بين المعاني الأولى والثّانية، فالمعاني الأولى هي مدلولات التّراكيب والألفاظ، والمعاني الثّانية هي الأغراض التي يساق إليها الكلام البليغ والتي لا تذكر بلفظ وإنّما تتعلق بالنّظم وإيحاءاته وترتبط بالسّياق الحالي ارتباطا وثيقا، فالمعاني الأولى طريق إلى المعاني الثّاني ووسيلة إليها.

ويأتي بعد ذلك بيان سبب هذا الاستفهام الإنكاري بقوله: ﴿ أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ فاستمرار إعراضهم لا يكون سببا في قطع الذكر عنهم، وقراءة فتح همزة (إن) على تقدير لام التعليل، أي لأجل إسرافكم، وقراءة كسر همزتها على الشرط، والغالب أنّها تقع في الشرط الذي ليس متوقعا وقوعه، فالإتيان بها هنا لقصد تنزيل المخاطبين المعلوم إسرافهم منزلة من يشك في إسرافه[(٢)]، والمغزى البلاغيّ من ذلك هو أنّ إسرافهم حقيقة متقررة ولكنّ المراد توبيخهم على هذا الإسراف وهو ما يناسب الاستفهام الإنكاري، فهؤلاء قد أحاطهم الله بكثير من الآيات البيّنات في الكون والنّفس والقرآن لو أحسنوا تدبرها لأقلعوا عن الإسراف في العناد والكفر[(٣)]، ولكنّ حالهم ومقامهم - وهم على هذا الإسراف - اقتضى التوبيخ بهذا الأسلوب.

وفي الإتيان بلفظة (قوما) قبل (مسرفين) دليل على أنّ هذا الإسراف صار طبعا لهم وبه قوامهم[(٤)]، وهو ما يناسب ثبات حقيقة الإسراف فيهم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن: ٣١/٢٥.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٦٤/٢٥.

(٣) =: خصائص التّراكيب: ٢٦٤.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٦٤/٢٥.

ومثلما ابتدأت سورة الدّخان بذكر الكتاب المبين وزمن إنزاله، ختمت بذلك أيضاً على سبيل رد العجز على الصّدر، ليوصف القرآن بصفة أخرى ترتبط بالمخاطبين وموقفهم من الـذّكر الـحكيم، فـفي قـوله تعـالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1] وصف القرآن باليسر، وقد جاء هذا الوصف بأسلوب القصر المستفاد من (إنّما) وهو رد على المشركين إذ قد سهل لهم طريق فهمه بفصاحته وبلاغته فقابلوه بالشّك والإعراض[2].

وقد أوثر القصر بـ (إنّما) لأنّها تختلف عن طرق القصر الأخرى فهي «تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لمَا ينزل هذه المنزلة»[3]، وهكذا آثرها التّعبير القرآني مراعاة لمقتضى الحال، ولا يخفى ما في وصف القرآن باليسر من النّعمة التي أنعمها الله على الرّسول (ﷺ) والمؤمنين وما يجب عليهم من التّذكر الدّائم لها والشّكر للمنعم المتفضل بها عليهم.

ويأتي التّشريف الآخر للغة العرب ووصفها بأنّها سبب اليسر الذي جعله الله في القرآن باستخدام (الباء) السّببيّة في قوله (بلسانك) فضلاً عمّا في إضافة اللسان إلى ضمير النّبي (ﷺ) من عناية وتعظيم له[4]، وإطلاق اللسان على اللغة مجاز مرسل بعلاقته الآلية.

ثمّ يأتي قوله تعالى: (لعلّهم يتذكرون) تعليلا للخبر، والمعنى لأجل أنْ يتذكروا به، وهكذا جاءت الآية إجمالا لمَا في السّورة بعد التّفصيل، فمدار السّورة حول تقرير حقيقة الوحي والرّسالة، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾[5].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

تبتدئ سورة الجاثية بذكر التنزيل ومصدر الوحي، ثم يعقب ذلك ذكر النّعم

---

(١) سورة الدّخان: الآية ٥٨.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٣٢١.

(٣) دلائل الإعجاز: ٣١٣.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٣٢١.

(٥) سورة القمر: الآية ١٧.

الإلهية، والجامع بين ذكر التنزيل وذكر النّعم هو أنّ القرآن الكريم نعمة عظيمة من نعم الله فلا بدّ أنْ تقابل بالإيمان والشّكر والطّاعة، وتناسبا مع مطلع السّورة، يوصف القــرآن فــي قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا هُدًىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[1] بأنّه (هدى)، ويوحي بهذا التناسب استخدام اسم الإشارة (هذا) فهو الحاضر المشاهد الذي سبق من أوصافه ما صيره متميزا شخصا بحسن الإشارة إليه[2]. فالإشارة هنا إشارة إلى معهود ذهني لتقدم وصفه قبل ذلك، فضلاً عمّا يؤديه التّعريف باسم الإشارة من التّقرير والتّأكيد، فالتّعريف به يرمز إلى تصوير المعاني حتى تكون كأنّها مرئية فيشير إليها، أمّا تنكير (هدى) فيفيد التّعظيم ولا سيّما لمن آمن واهتدى، ويفيد قلة الالتفات من هؤلاء الكافرين، أيْ إنّ المنكر أمر يغفل عنه هؤلاء ولا يلتفتون إليه[3]. ووصف القرآن بهذا الوصف على سبيل الوصف بالمصدر للمبالغة، وفيه تعريض بالكافرين الذين كفروا بالقرآن ولم يهتدوا واستحقوا أنْ يذكروا هنا بعنوان الكفر في قوله (والذين كفروا) الواقع موقع التّذييل لقوله السّابق ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ ﴾[4]، ولم يوصفوا بصفة الإصرار والاستكبار التي ذكرت في قوله (ثمّ يصرّ مستكبرا). فإيثار صفة الكفر غرضه النّعي عليهم إهمالهم الانتفاع بالقرآن وهو النّعمة العظمى ولكنّهم قابلوها بالكفر عوضا عن الشّكر[5]، في حين لم يذكر وصف المؤمنين لدلالة وصف القرآن بـ (الهدى) عليهم، وعلى المصير الذي سيوصلهم إليه طريق الهدى، أمّا مصير الكافرين فهو ألم العذاب، والذي يمثله توكيد معنى الشّدة والإيلام، فالرّجز هو العذاب الشّديد، والعذاب في هذا الوعيد هو عذاب من رجز أليم، تكرار بعد تكرار وتوكيد بعد توكيد يليق بمَن يكفر بالهدى ويعرض عنه. وغرض التّوكيد هنا - مع تغاير اللفظين - تحقيق وعد الله والتّرهيب من عذابه[6]، وفي إسناد الآيات إلى لفظة (ربّ) المسندة إلى ضمير الكافرين زيادة توبيخ لهم وتقريع لعدم اهتدائهم وإصرارهم على الكفر على

(١) سورة الجاثية: الآية ١١.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٣٣٤.

(٣) =: بلاغة الكلمة والجملة والجمل: ٦٣.

(٤) سورة الجاثية: الآية ٧.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٣٣٥.

(٦) =: أساليب التوكيد في القرآن الكريم: ١٦٦.

الرّغم من ظهور الآيات الدّالة على ربوبيته تعالى. وقد أفادت (اللام) في (لهم) مع التّقديم، معنى الاختصاص[١]، وكأنّ العذاب قد خصص لهم وفي ذلك مزيد من التّهويل والتّرهيب، ويزيد هذا التّرهيب تنكير (عذاب) للتكثير والتّنويع والتّعظيم، وتأتي (مِن) لتزيد من التّرهيب وتهويل أمر هذا العذاب سواء كانت للبيان أو للتبعيض بمنزلة (لهم حظ) لأنّ الرّجز هو أشد العذاب، فإذا كان بعضه أليما فما الحال والعذاب هو الرجز الأليم.

والنّكتة البلاغيّة الأخرى في نظم الآية تكمن في ما يسمى بالاحتباك، إذ «ذكر الهدى أوّلا دليلا على الضّلال ثانيا، والكفر والعذاب ثانيا دليلا على ضدهما أوّلا، وسرّه أنّه ذكر السّبب المسعد ترغيبا فيه، والمشقي ترهيبا منه»[٢]، وفي الحذف الذي يتضمنه الاحتباك أثر نفسي كبير يتمثل في بعث الفكر وتنشيط الخيال وإثارة الانتباه، ليقع السّامع على مراد الكلام ويستنبط معناه من القرائن والأحوال. وهكذا يكون للقرآن الكريم أثر في النّفس يثير الوجدان ويرهف الإحساس والمشاعر ويوقظ الإدراك والتّفكير، فإذا الإنسان جديد كأنّه خلق جديد[٣]. وتتمثل النّفس هول الخطب الذي سيحل بالكافرين مقابل فوز المؤمنين فتسعى إلى سبيل الهدى من قبل أنْ يأتي يوم يجمع فيه النّاس، فريق في الجنة وفريق في السّعير.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

يتكرر وصف القرآن بالهدى في آية أخرى وبنظم معجز حوى من فنون البلاغة - على أتم اتساق - ما يعجز الفكر عن وصفه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠ ﴾[٤] ليوصف القرآن بصفتين أخريين هما (بصائر) و(رحمة)، ويبتدئ النّظم بلفظة (هذا) لتشير إلى القرآن وهو الحاضر في الأذهان والذي سبق وصفه في السورة بأوصاف كثيرة، وفي إعادة الإشارة إليه وإعادة وصفه بالهدى تنويه بشأنه ومتبعيه، وتعريض بمَن أعرض عنه.

---

(١) =: الجنى الداني: ١٤٣.

(٢) نظم الدرر: ١٨/٧٤.

(٣) =: مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري، أحمد جمال العمري: ٢٦٢.

(٤) سورة الجاثية: الآية ٢٠.

ويتواشج التّشبيه البليغ مع المجاز العقلي في إظهار الصفة الأولى للقرآن في هذه الآية، فالإشارة إلى اتباع القرآن بوصفه بصائر تشبيه بليغ[١]، ووصفه بالبصائر مجاز عقلي بعلاقة السببية لأنّه سبب البصائر[٢]. وقد جاءت لفظة (بصائر) جمعا لاختلاف النّاس وتفاوتهم فيها فلكل بصيرته بخلاف كلمتي (هدى) و(رحمة) فهما على الإفراد لاختصاصهما بالمهتدين ولأنّهما معنيان كليان يصلحان للعدد الكثير. وتوحي لفظة (بصائر) بالتّذكير بنعمة الإبصار وبما حول الإنسان من آيات الكون وما سخره الله للإنسان وتوافقها مع آيات الكتاب، وفيها تعريض بمن عطل نعمة التّبصر في ذلك بالعين والقلب. وقد وصف القرآن بأنّه (بصائر) لكل النّاس على العموم، ويا لها من بصائر خالدة يستهدي بها الإنسان وينعم في ظلّها، فإن اهتدى فستكون له رحمة في الدّنيا وفي الآخرة. ووصف بأنّه (هدى) لأنّ اتباعه كالاهتداء للطريق الموصلة إلى الفوز، ووصف بأنّه رحمة لأنّ في اتباعه النّجاح في الدّنيا فهو مناط الأمن، ولأنّه سبب نوال درجات النّعيم في الآخرة، وكان (بصائر) لأنّه يبين للناس الخير والشّر[٣].

وممّا يلحظ في نظم الآية الدّقة في التّعبير، والتي أدت المغزى أداء أمينا يجمع شتات الفكرة ويصوغها في وحدة متكاملة، فالألفاظ (بصائر) و(هدى) و(رحمة) و(يوقنون) تشترك في ذلك بقوة ووضوح، فلفظة (بصائر) أفادت الوضوح والنّصاعة، وعبرت عن شمول القرآن لإبعاد البصائر بضيائها ونورها وهداها، وتشع لفظة (هدى) بالنّور والسّير في الطّريق الطبيعي للحياة، وتقدمت لفظة (بصائر) على (هدى) لأنّ الهدى لا بدّ أنْ يسبقه نور فهو من تقديم السّبب على المسبب أو من تقديم العام على الخاص، وتشع لفظة (رحمة) بالرّاحة والابتهاج والاستبشار النّفسيّ[٤].

وجاءت الأوصاف الثّلاثة على سبيل التّرقي: (بصائر) ثم (هدى) ثم (رحمة) وفي ذلك دقة في التّركيب وأداء المعنى على حسب التّسلسل المنطقي، فالقرآن نور، ويتلو النّور الهداية، ، وتتلو الهداية الرّحمة، ويقترن وصفا (الهدى والرّحمة) بلفظة (يوقنون) التي تشع باليقين والجزم وتتصل مباشرة بالقلب المؤمن الممتلئ بقوة الإيمان.

---

(١) =: روح المعاني: ١٤٩/٢٥.

(٢) =: التحرير والتنوير: ٣٥٠/٢٥.

(٣) =: م. ن: ٣٥٠/٢٥.

(٤) =: الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي: ١١٥.

أمّا ذكر لفظة (قوم) وتخصيص وصف الهدى والرّحمة لهم ففيه إيماء إلى أنّ الإيقان الذي وصفوا به متمكن في نفوسهم كأنّه من مقومات إنسانيتهم التي تميزهم عن أقوام آخرين[1]، فضلاً عمّا يوحيه هذا الوصف من الثّبات وعدم التّردد.

❖❖❖❖❖

وفي سياق يعرض حال الكافرين وموقفهم من القرآن الكريم ويذكرهم بموقف أمثالهم من الأمم السابقة إزاء كتاب موسى ودعوته يوصف القرآن بصفات أخرى - منها ما سبق ذكرها - بأنّه مصدق لمَا قبله من الكتب وإنّ اللغة التي نزل بها هي العربية وإنّه (ينذر) و(يبشر) مع اختلاف الصيغ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝١٢ ﴾[2].

نلحظ في مقالة الذين كفروا ذلك الاستكبار الذي ذكر في الآية السابقة والذي استحقوا أنْ يوصفوا من أجله بـ (الظّالمين) لكنه استكبار ينبئ بخواء نفوسهم وضعفها واعترافها بأنّها قد سبقت، ولم يبق لدى مَن سبق إلاّ الاعتراف بالهزيمة والبحث عن حجج وافتراءات يحاول بها بناء النّفس الضعيفة المنهزمة على الاستكبار الواهن، ولا سيّما أنّ مَن سبقهم لم يكن لديهم من متع الدّنيا ومكاناتها الزائلة من شيء ممّا يزيد الحسد والحقد في نفوس الكافرين، ولذلك آثر التّعبير القرآني تقديم الظرف في الكلام على عامله لبيان سبب مقالتهم، وأصل الكلام: وسيقولون هذا إفك قديم إذ لم يهتدوا به[3].

وهكذا لجأ هؤلاء إلى وصف القرآن بهذا الوصف، دلالة على ضعفهم بعد عدم الاهتداء، وبعد نفاد مقالاتهم في طعن القرآن، فقد قالوا من قبل إنّه ﴿ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[4]، وقالوا: ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾[5]، وقالوا: ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾[6]، ولم يبق لهم إلاّ أنْ

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٣٥١.
(٢) سورة الأحقاف: الآيتان ١١ و١٢.
(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٦/٢٣.
(٤) سورة الأحقاف: من الآية ٧.
(٥) سورة الأحقاف: من الآية ٨.
(٦) سورة الأحقاف: من الآية ١١.

يقولوا ﴿ هَـٰذَآ إِفۡكٌ قَدِيمٌ ﴾ [(١)] ومقالاتهم هذه تذكرنا بالمثل العربي «مَن جهل شيئا عاداه»[(٢)] ممّا يؤكد سبب معاداتهم وما بداخلهم من الحقد والحسد. والفعل المضارع (يقولون) يشعر بالاستمرار والتّجدد فضلاً عن دلالة السّين على الاستقبال.

ولتشابه مواقف الكافرين من الرّسل مع اتحاد دعوة الرّسل انتقل التّعبير القرآني ليذكرهم بحقيقة هذا الكتاب الذي وصفوه بالإفك وليذكرهم من خلال ذلك بصدق الكتب والرّسالات على اختلاف زمانها، ويعيد إلى أذهانهم مصير أمثالهم من الكافرين والمعرضين الذين ظلموا أنفسهم بعدم استجابتهم للدعوة، فضلا عمّا في ذلك من التّسلية والتّثبيت للرسول (ﷺ) فجاء كلّ ذلك على سبيل الوصل. أمّا تقديم (مِن قبله) فلارتباط الآية بما قبلها في إبطال مزاعمهم وللاهتمام بهذا الخبر لأنّه محلّ القصد من الجملة، وأوثر التّعبير عن التّوراة بـ (كتاب موسى) لمَا في ذلك من التّذكير بأنّه كتاب أنزل على بشر كمَا أنزل القرآن على محمد (ﷺ). ووصف (كتاب موسى) بالإمام والرحمة استعارة لأنّه يرشد إلى ما يجب عمله فهو كالمرشد، ولأنّه سبب في نفع المتبعين لمَا تضمنه من أسباب الخير في الدّنيا والآخرة، والتّعبير عن الكتاب بأنّه (رحمة) بصيغة المصدر مبالغة في الاستعارة[(٣)].

ثـمّ يشار إلى القرآن وأوصافه باسم الإشارة (هـذا) لأنّـه حاضر بالذّكر وفي الأذهان لسبق وصفه في آيات أخرى، والوصف الأوّل هنا (مصدق) وقد حذف مفعول اسم الفاعل ليشمل جميع الكتب السّماوية وفي ذلك تعظيم للقرآن وثناء عليه. وزيد ثناء بوصفه أنّه (لسانا عربيّا) على سبيل الإدماج للدلالة على أنّ المراد عربيّة ألفاظه وهو المعجز لكم وأنتم أصحاب هذه اللغة، فضلا عمّا في الإشارة إلى عربيّته من الامتنان على العرب وتذكيرهم بهذه النّعمة التي تتمثل باختيارهم للرسالة واختيار لغتهم للقرآن.

وتأتي أوصاف القرآن الأخرى من خلال بيان وظيفته في قوله تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ

(١) سورة الأحقاف: من الآية ١١.

(٢) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/١٩٠.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٦/٢٤و ٢٥.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وقد وصف في آيات سابقة بأنّه (نذير وبشير)، وإسناد الإنذار إليه هنا مجاز عقلي بعلاقة السّببية، وأوثر وصف الكافرين بـ (الذين ظلموا) ليناسب وصفهم في الآية السابقة بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وليشمل الذين ظلموا أنفسهم من المسلمين أيضاً ولذلك جاء الخبر على أسلوب المقابلة بينهم وبين المحسنين، متضمنا الطّباق بين (ينذر) و(بشرى) ليفيد تجدد الإنذار واستمراره بدوام الكفر والظّلم، ويفيد ثبوت البشرى وتحقق وقوعها للمحسنين «وهذا بمنزلة الاحتراس والتتميم»[1].

وفي الآية احتباك، والمعنى: لينذر الذين ظلموا ولم يحسنوا ويبشر المحسنين غير الظّالمين، وكذلك لينذر الظّالمين بالعذاب ويبشر الذين أحسنوا بالجنة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويعاد وصف القرآن بتصديق ما قبله من الكتب السّماوية وبهديه إلى الحق، ولكنّ الوصف هذه المرة يأتي على لسان الجن في اعترافهم بعظمة هذا الكتاب عندما سمعوه وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾[2].

وإذا كان صرف هؤلاء النّفر من الجن إلى الرّسول (ﷺ) ليستمعوا القرآن تدبير من الله (ﷻ) يومي به إسناد الفعل إلى ضمير العظمة، فإنّ في الخبر تأييدا للرسول (ﷺ) بتسخير الجن للإيمان به وبالقرآن، وفي جهته الأخرى توبيخ وتقريع للمشركين حيث أيقن هؤلاء النّفر بالقرآن وهم من عالم آخر، والمشركون لا يزالون في ريب منه وتكذيب وهم من عالم الإنس ونزل القرآن بلغتهم.

ويرسم النّص مشهد هذا النّفر من الجن وهم في حركة سريعة بعد صرفهم إلى الرّسول (ﷺ) ليبدأ مشهد آخر بعد (لمّا) التّعليقية التي تقتضي جملتين وجدت ثانيتهما

---

(١) التّحرير والتّنوير: ٢٦/٢٦.

الاحتراس: «هو أنْ يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه دخل فيقطن له فيأتي بما يخلصه من ذلك» تحرير التحبير: ٢٤٥ و=: معجم المصطلحات البلاغية: ١/٦٣.

(٢) سورة الأحقاف: الآيتان ٢٩ و٣٠.

عند وجود الأولى[1]، فيسود المكان سكون توحي به لفظة (أنصتوا) وفي هذا السّكون إصغاء باهتمام كبير لئلا يفوتهم منه شيء، وفي ذلك تأدب مع العلم وكيف يتعلم[2]. وتسلبهم عظمة القرآن قدرة الحركة والمغادرة، ولا تبدأ الحركة إلاّ بعد قضاء قراءته، ويصور لنا الفعل (ولوا) تلك الحركة وتأثير ما سمعوه فيهم من الرّهبة والخشوع، فلم يلبثوا أنْ سارعوا إلى قومهم ونفوسهم تحمل من المشاعر ما لا تطيق السّكوت عليه.

وتوضح الآية الأخرى مقالتهم على سبيل التّفصيل بعد الإجمال الذي في قوله (منذرين) فوصفوا ما سمعوه أنّه كتاب أنزل من بعد موسى، وفي ذلك إدراك لحقيقة وحدة مصدر الوحي والرّسالة، وتنكير (كتاب) يفيد تنبيه المخاطبين ليستشرفوا ما بعده، فضلا عن دلالة التّعظيم، ويأتي وصف القرآن على لسانهم بأنّه (مصدق لمَا بين يديه)، أيْ لمَ سبقه من الأديان والكتب السّماوية، ويأتي الوصف الآخر في قولهم (يهدي إلى الحق) على سبيل المجاز العقلي، فالهادي هو الله (ﷻ)، والكتاب وسيلة الهدي وسبب من أسبابه، وإعلانهم عن هذا الوصف فيه توبيخ للمشركين الذين لم يهتدوا به وهؤلاء قد عرفوا هذا الوصف بمجرد سماع آياته، ثم زيد هذا الوصف توكيدا وبيانا بقولهم (وإلى طريق مستقيم) على سبيل ذكر الخاص بعد العام ولذلك حسن التّكرار[3]، والتّعبير عنه ههنا بـ (الطّريق) فيه نكتة بديعة، فقد وصفوه أوّلا بأنّه (أنزل من بعد موسى) وأنّه (مصدق لمَا بين يديه) إذ سبقته كتب سماوية أخرى، وسبق الرّسول (ﷺ) بموسى وغيره من الرّسل، فهو يهدي إلى سبيل مطروق مرّت عليه الرسل والرسالات، فأوثر لفظ الطريق لأنّه (فعيل) بمعنى (مفعول) أي مطروق، فذكره أولى لأنّه أدخل في باب الدعوة والتنبيه على تعيين اتباعه[4]. وقد أوثرت - في وصف القرآن بالهدى - صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والتّجدد في كلّ زمان وكلّ مكان، وسيبقى القرآن يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) =: موسوعة الحروف في اللغة العربية: ٤٠٥.

(٢) =: روح المعاني: ٢٦/٣٠.

(٣) =: المحرر الوجيز: ١٣/٣٧٣.

(٤) =: بدائع الفوائد: ٢/١٧.

# الجدول البياني للفنون البلاغيّة الواردة في الفصل الأوّل

| ت | الفنّ البلاغيّ | رقم الصفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ١ | التّعريف والتّنكير | ٢٠ | ﴿تنزيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ | ٢ | غافر |
| ٢ | الإيثار والتّناسب | ٢٠ | ﴿تنزيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ | ٢ | غافر |
| ٣ | التّرشيح والاتزان الإيقاعي | ٢١ | ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ | ٣ | غافر |
| ٤ | التّقديم والتّعريف بالإضافة | ٢١ | ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ | ٣ | غافر |
| ٥ | التّعريض بالتّرغيب | ٢١ | ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ | ٣ | غافر |
| ٦ | التّعريض بالتّرهيب | ٢٢ | ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ | ٣ | غافر |
| ٧ | الطّباق والوصل والتّرتيب | ٢٣ | ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ | ٣ | غافر |
| ٨ | التّعديد | ٢٤ | ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إلا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ | ٣ | غافر |
| ٩ | مراعاة النّظير | ٢٥ | ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ | ٣ | غافر |
| ١٠ | القصر بالتّقديم | ٢٦ | ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ | ٣ | غافر |
| ١١ | الإيثار والتّناسب | ٢٧ | ﴿تنزيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ | ٢ | فصّلت |
| ١٢ | الإيثار والتّناسب | ٢٨ | ﴿تنزيلٌ مِنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ | ٤٢ | فصّلت |
| ١٣ | التّشبيه | ٢٩ | ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ | ٣ | الشّورى |
| ١٤ | الإدماج | ٢٩ | ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ | ٣ | الشّورى |
| ١٥ | التّقديم | ٣٠ | ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ | ٣ | الشّورى |
| ١٦ | العدول | ٣٠ | ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ | ٣ | الشّورى |
| ١٧ | الفصل والإيثار | ٣١ | ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ | ٣ | الشّورى |
| ١٨ | الفصل | ٣٢ | ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ | ٥ | الشّورى |
| ١٩ | الاستعارة المكنية | ٣٣ | ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ | ٥ | الشّورى |
| ٢٠ | التّذييل والقصر | ٣٣ | ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ | ٥ | الشّورى |

| ت | الفنّ البلاغيّ | رقم الصفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٢١ | الفصل والبيان بعد الإجمال | ٣٤ | ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ | ١٧ | الشّورى |
| ٢٢ | التّعريف | ٣٤ | ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ | ١٧ | الشّورى |
| ٢٣ | الاستعارة أو المجاز المرسل | ٣٤ | ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ | ١٧ | الشّورى |
| ٢٤ | خطاب الخصوص الذي يراد به العموم | ٣٥ | ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ | ١٧ | الشورى |
| ٢٥ | القصر | ٣٥ | ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ | ٥١ | الشّورى |
| ٢٦ | الإجمال ثمّ التّفصيل والتّرتيب | ٣٦ | ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ | ٥١ | الشّورى |
| ٢٧ | الاحتباك | ٣٧ | ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ | ٥١ | الشّورى |
| ٢٨ | الإيثار والتّناسب | ٣٧ | ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ | ٥١ | الشّورى |
| ٢٩ | الاستعارة | ٣٩ | ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ | ٤ | الزّخرف |
| ٣٠ | اللف والنشر | ٤١ | ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ | ٣ | الدخان |
| ٣١ | إيجاز الحذف والاكتفاء | ٤١ | ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ | ٣ | الدخان |
| ٣٢ | المجاز العقلي | ٤٢ | ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ | ٤ | الدّخان |
| ٣٣ | التّفصيل بعد الإجمال | ٤٣ | ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ(٣)فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ | ٣ - ٤ | الدّخان |
| ٣٤ | التّنكير | ٤٤ | ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ | ٦ | الدّخان |
| ٣٥ | الالتفات | ٤٤ | ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ | ٦ | الدّخان |
| ٣٦ | القصر | ٤٤ | ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ | ٦ | الدّخان |
| ٣٧ | القصر | ٤٤ | ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ | ٨ | الدخان |
| ٣٨ | الطّباق | ٤٥ | ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ | ٨ | الدّخان |
| ٣٩ | التّفصيل بعد الإجمال | ٤٧ | ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ(٤١)لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ | ٤١ - ٤٢ | فصّلت |
| ٤٠ | التّمثيل | ٤٧ | ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ | ٤٢ | فصّلت |

| ت | الفنّ البلاغيّ | رقم الصفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٤١ | الكناية | ٤٨ | ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ | ٤٢ | فصّلت |
| ٤٢ | القصر | ٤٩ | ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ | ٥٣ | فصّلت |
| ٤٣ | القسم والتّعريف | ٥٠ | ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ | ٢ | الزّخرف والدّخان |
| ٤٤ | التّشبيه البليغ | ٥٢ | ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ | ٤ | فصّلت |
| ٤٥ | الطّباق والوصل | ٥٢ | ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ | ٤ | فصلت |
| ٤٦ | الاستعارة | ٥٣ | ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ | ٤٤ | فصّلت |
| ٤٧ | المجاز المرسل | ٥٤ | ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ | ٤٤ | فصّلت |
| ٤٨ | الطّباق | ٥٤ | ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ | ٤٤ | فصّلت |
| ٤٩ | الطّباق | ٥٤ | ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ | ٤٤ | فصّلت |
| ٥٠ | الاستعارة | ٥٤ | ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ | ٤٤ | فصّلت |
| ٥١ | الاحتباك | ٥٥ | ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ | ٤٤ | فصّلت |
| ٥٢ | الاستعارة | ٥٦ | ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ | ٤٤ | فصّلت |
| ٥٣ | الالتفات | ٥٧ | ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ | ٧ | الشّورى |
| ٥٤ | المجاز المرسل | ٥٨ | ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ | ٧ | الشّورى |
| ٥٥ | الاحتباك | ٥٨ | ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ | ٧ | الشّورى |
| ٥٦ | المقابلة والطّباق | ٥٩ | ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ | ٧ | الشّورى |
| ٥٧ | الاستفهام الإنكاري | ٦١ | ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ | ٥ | الزّخرف |
| ٥٨ | الاستعارة | ٦١ | ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ | ٥ | الزّخرف |
| ٥٩ | المجاز المرسل | ٦١ | ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ | ٥ | الزّخرف |
| ٦٠ | القصر | ٦٣ | ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ | ٥٨ | الدّخان |
| ٦١ | المجاز المرسل | ٦٣ | ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ | ٥٨ | الدّخان |
| ٦٢ | التّنكير | ٦٤ | ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ | ١١ | الجاثية |
| ٦٣ | الاحتباك | ٦٥ | ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ | ١١ | الجاثية |

| ت | الفنّ البلاغيّ | رقم الصفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٦٤ | التّشبيه البليغ والتّرقي | ٦٦ | ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ | ٢٠ | الجاثية |
| ٦٥ | المجاز العقلي | ٦٦ | ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ | ٢٠ | الجاثية |
| ٦٦ | الاستعارة | ٦٨ | ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ | ١٢ | الأحقاف |
| ٦٧ | المجاز العقلي والطباق الاحتباك | ٦٩ | ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ | ١٢ | الأحقاف |
| ٦٨ | التّفصيل بعد الإجمال | ٧٠ | ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ(٢٩)قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا﴾ | ٣٠ | الأحقاف |
| ٦٩ | التّنكير | ٧٠ | ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا﴾ | ٣٠ | الأحقاف |
| ٧٠ | المجاز العقلي | ٧٠ | ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ | ٣٠ | الأحقاف |

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

# الفصل الثّاني
# النِّعم الإلهية
## توطئة

مِن بين ما عني به القرآن الكريم أكبر عناية، إبراز أنواع الإنعام من الله تعالى إلى عباده، فقد وجه أنظار الخلق إلى النِّعم التي لاتعدّ ولا تحصى، وهو في ذلك يدفعهم إلى التّفكير في مصدرها وعظمة الخالق المنعم، ويثير القرآن في أنفسهم شكرها وتقديس بارئها ولا سيّما أنّها - باعترافهم أنفسهم - من خلق العلي القدير. وهكذا كان الحديث القرآني عن النِّعم الإلهية أسلوبا آخر مِنْ أساليب الدّعوة، إذ إن التّذكير بهذه النّعم يثير في الإنسان عاطفة يمتزج فيها الإعجاب بالاعتراف بالجميل، تدفعه إلى حبِّ الله المنعم والإيمان به، فتكون عبادته منبعثة عن حبه وشكر أياديه.

ولمّا كانت الدعوة في عهدها المكي تحتاج من القرآن أنْ يذكرهم بالنّعم، ويظهر عظمة الخالق المنعم لتحقق الدّعوة هدفها، فقد تضمنت سور الحواميم ذكر الكثير من النّعم الإلهية، منها ما يتعلق بالخلق والإيجاد - وفي ذلك جانب من عظيم دلائل القدرة الإلهية - ومنها ما يخص نعمة التّسخير - وفيها إكرام للنّفس البشرية وبيان لفضل الخالق في ذلك - ومنها ما يتعلق بنعمة الهداية - وهي من أهم النّعم التي يمتزج فيها حبّ الخالق الكريم بالنّفس الإنسانية لتخرج من الظلمات إلى النّور - وهكذا توزعت هذه النّعم على مباحث الفصل الثّلاثة.

## المبحث الأوّل
## نعمة الخلق والإيجاد

أول آية تتحدث عن نعمة الخلق والإيجاد في الحواميم نجدها في سورة غافر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ

ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[1].

فهذه الآيات تؤكد أوّلا أنّ الله هو الخالق لكلّ شيء ولا شركة لأحد في ذلك، ثم تؤكد أنّه أنعم على الإنسان بأنْ جعل له الأرض قرارا والسّماء بناء. وينتقل التّعبير القرآني إلى إظهار نعمة الله في خلق الإنسان، فهو الذي صوّره بأحسن صورة ورزقه من الطّيبات، وفي ذكر هذه النّعم ترتيب على سبيل ذكر العام ثمّ الخاصّ أو ما يسمى بالتّدلي.

وقد جاءت الآية الأولى بعد ذكر الظاهرتين الكونيتين (اللّيل والنّهار) وتسخيرهما للإنسان ليسكن في الأوّل ويبتغي الرّزق في الثّاني، فتأتي هذه الآية لتؤكد أنّ الخالق لهما والمسخر هو الذي يكون إلها يستحق هذا الاسم العظيم.

وتبتدئ الآية باسم الإشارة الذي عدل إليه عن الضمير (هو) لإفادة أنّه تعالى معلوم متميز بأفعاله، المنفرد بها، ويوحي استخدام اسم الإشارة بالتّعريض بغباوة المخاطبين الذّين التبست عليهم حقيقة ألوهيته، وقد جاء نسيج الآية بترتيب الأخبار الأربعة على سبيل التّرقي، فقد ابتدأ بذكر الاسم الجامع للصفات الإلهية إجمالا (الله)، وأردف بـ (ربّكم) وهو الذي دبّر خلق النّاس وهيّأ لهم ما به قوام حياتهم، فهو صاحب نعمة الخلق والإيجاد ونعمة التّسخير ونعمة الهداية وغيرها، وأتي بـ (خالق كلّ شيء) لمَا في معنى الرّبوبية من معنى الخلق ثمّ أردف بنفي الألوهية عن غيره[2]. وذيلت الأخبار الأربعة بتفريع الاستفهام التّعجبي عليها لظهور الآيات ودلائل القدرة بشكل يجعل انصرافهم عن عبادته إلى جانب عبادة غيره أمرا يستحق هذا الاستفهام التّعجبي.

وممّا يلحظ أيضاً اختلاف نظم الآية عمّا ورد في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[3] وقال هنا ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا

---

(١) سورة غافر: الآيات ٦٢ - ٦٥.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٨٧/٢٤.

(٣) سورة الأنعام: من الآية ١٠٢.

هُوَ ﴾[١]، فالتّقديم والتّأخير في النّظم للتناسب، إذ لمّا كان السّياق حديثا عن إنكار الشّرك والدّعوة إلى التّوحيد الخالص ونفي الصّاحبة والولد قدم كلمة التّوحيد (لا إله إلاّ هو) ثمّ ذكر أنّه (خالق كلّ شيء) ولمّا كان السّياق في سورة غافر هو الحديث عن الخلق وتعداد النّعم، خرج الكلام على إثبات خلق النّاس لا على نفي الشريك، فتقدم قوله (خالق كلّ شيء) ثمّ قال (لا إله إلاّ هو)، فقدم في كلّ سورة ما يقتضيه التّناسب السّياقي[٢]، فضلاً عن أنّ المقصود هنا في سورة غافر الرّد على منكري البعث، فناسب تقديم ما يدل عليه وهو أنّه سبحانه مبدئ كلّ شيء فكذا إعادته[٣]. ثمّ شبه انصرافهم عن الإيمان مع وضوح الدّلائل بانصراف غيرهم ممّن كانوا يجحدون بآيات الله على الرغم من قيام الدّليل، وهذه هي سنّة الله في عباده في كلّ زمان ومكان.

وينتقل التّعبير القرآني إلى استكمال سياق النّعم الإلهية على سبيل الفصل في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ وفي ذكر هذه النّعم دليل آخر على انفراده تعالى بالتّصرف والإنعام عليهم.

ومِن أوجه البلاغة في نظم الآية تقديم لفظ الجلالة (الله) لقصر الألوهية عليه والتّفرد بها ونفيها عمّا سواه ممّا كانوا يعبدون، ويتناسب ذلك مع سياق نفي الشّرك والشّركاء، فضلاً عن دلالة التّقديم على التّعظيم.

وقد آثر التّعبير القرآني الفعل (جعل) للتّعبير عن الأحداث[٤]، وفي تقديم (لكم) مزيد اختصاص بهذه النّعم الإلهية ولإشعار المخاطبين بأهمية ما سيذكر بعدها فكأنّما ينبههم إلى نعمه التي يتوجب عليهم شكرها بعد الإيمان والطّاعة الكاملة.

وقدمت (الأرض) على (السّماء) استدلالا بالانتفاع ممّا هو محسوس وقريب، وذكرت السّماء بعدها كما يستحضر الشّيء بضده على سبيل المقابلة بين (الأرض قرارا) و(السّماء بناء)، وقد أوثر وصف الأرض بلفظة (قرارا) دون (مستقرا) لأنّ الحياة عليها ليست خالدة بل هي منتهية لا محالة، والمصدر الميمي (مستقرا) لا يمنح هذه

---

(١) سورة غافر: من الآية ٦٢.

(٢) =: أسرار التّكرار في القرآن، محمود بن حمزة الكرماني: ٧٣. والتّعبير القرآني، فاضل السامرائي: ٦٣.

(٣) =: روح المعاني: ٨٣/٢٤.

(٤) =: الفروق في اللغة: ١٢٨.

الدلالة لأنّه يدل على منتهى الاستقرار[١]، ولذلك لم يستخدم التّعبير القرآني لفظة (مستقرا) وصفا للأرض إلاّ بتقييده بزمن محدد[٢]، كمَا في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[٣]، وقد جاء وصف السّماء بالبناء على سبيل التّشبيه البليغ[٤]، وفي هذه المقابلة محسن الاحتباك، «فقد ذكر القرار أوّلا دليلا على الدّوران ثانيا، والبناء ثانيا دليلا على الفراش أوّلا»[٥]، وفي ذلك تناسب بديع مع سياق الحديث عن النّعم الإلهية.

وينتقل التّعبير القرآني من العموم إلى الخصوص، (مِن الآفاق إلى الأنفس) ليتحدث عن نعم الله في خلق الإنسان ويأخذ من هذه النّعم ظاهرها على سبيل الامتنان، فيعبر عن هذا الخلق بفعل (صوّركم) لأنّ التصوير خلق على صورة مرادة تشعر بالعناية، ولمّا كان المراد إظهار الإنعام عليهم بحسن تصويرهم عدل عن فعل (الجعل) إلى فعل التّصوير، وبهذه الفاء التّفسيرية ليكون المعنى (صوّركم أحسن تصوير)[٦]، وفي قوله (صوّركم فأحسن صوركم) محسن الجناس غير التّام. ويحسها بشكل دائم وهي التّنعم بالطّيبات من الرّزق، وكلّ ذلك من فضل الله وآلائه، وفي كلّ واحدة ممّا ذكر من النّعم، نعم كثيرة، تؤكد أنّ الله وحده هو الإله الحق وهو ربّ العالمين، ولذلك أعيد قوله تعالى بعد ذلك ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ليقف الكافرون على خطل رأيهم في عبادة غير الله، فيكون هذا تعريضا بهم، وفيه ثناء بعد ثناء على الخالق المنعم، فالإشارة إليه بأنّه (ربّكم) ثناء عليه وتعظيم، وإظهار اسم الجلالة بعد (تبارك) دون الإتيان بالضمير ثناء آخر عليه جلّ وعلا. ولمّا كان السّياق عن نعمة الخلق والإيجاد - في كلّ ما ذكر منها - ناسب أنْ يقول بعده ﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ مبتدأ

(١) =: معاني الأبنية في العربية، فاضل السامرائي: ٣٥.
(٢) =: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ٦٥١.
(٣) سورة البقرة: من الآية ٣٦.
(٤) =: محاسن التأويل: ٥٧٨/١٤.
(٥) نظم الدرر: ١٠٥/١٧.
(٦) =: روح المعاني: ٨٣/٢٤.

بالقصر الادعائي للإيحاء بأنّ حياة ما سواه عارضة ومعرضة للفناء والزّوال[١]، ثمّ ذكر كلمة التّوحيد وما يناسبها من إخلاص الدّين له، وتقديم (له) المتعلق بمخلصين على (الدّين) لأنّه الأهم في هذا المقام وللتعظيم أيضاً ويأتي قوله (الحمد لله ربّ العالمين) استكمالا للثّناء على الله تعالى على تقدير قول محذوف أي: قائلين الحمد لله ربّ العالمين، أو قولوا الحمد لله ربّ العالمين، وهذا التّفسير هو الأقرب لتناسبه مع فصل الجملة عن الكلام الذي قبلها، وكأنّ سياق الحديث عن النّعم الإلهية هنا انتهى بما يجب على الإنسان أنْ يفعله وهو الحمد والشكر للخالق المنعم بعد التّوحيد والطّاعة الكاملة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

بعد ذكر العديد من النعم الإلهية في الآفاق، ثمّ ذكر شيء منها يتعلق بظاهر الأنفس وهو جانب (التّصوير) في الآفاق السّابقة، يذكر التّعبير القرآني نعمة خلق الإنسان بكل مراحلها والتي كانت - عند نزول القرآن - غيبا مجهولا عن إدراكهم فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾[٢]، فهذه المراحل رحلة عجيبة يقف إمامها الإنسان متدبرا قدرة الخالق العظيم، فالإنسان هو الحقيقة الكبرى وآية الآيات، والحديث هنا عن هذه المراحل لا يختص بإنسان الجزيرة القرشي، ولكنّه الإنسان، وذلك هو الإعجاز كلّ الإعجاز[٣].

وقد آثر التّعبير القرآني هنا فعل (خلقكم) واستخدم من قبل (صوّركم) لأنّ الحديث هنا عن مراحل خلق النّفس الإنسانية بكلّ أجهزتها ومراحل نموها وليس ظاهرها فحسب، ولا شكّ في أنّ الحديث عن هذه المراحل فيه تشريف للإنسان لأنّها تدل على عناية الله تعالى به، ولأنّ الموجود شرف والمعدوم لا عناية به[٤]، فضلاً عن

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٩٣/٢٤.

(٢) سورة غافر: الآيتان ٦٧ - ٦٨.

(٣) =: دراسة أدبية لنصوص من القرآن، محمد المبارك: ٨٩.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٩٧/٢٤.

أنّ غاية الخبر هنا التّعظيم، وتكرار حرف العطف (ثمّ) المفيد للترتيب والتّراخي فيه تأكيد حاجة المخلوق في مدّة الحمل إلى عنايته - تعالى - إلى حين ساعة الوضع وهكذا في مراحل الحياة الأخرى، وكلّ ذلك يدل على قدرته العظيمة، وهذا التّكرار للحرف (ثمّ) ينبه القارئ أو السّامع إلى خطورة ما يلي (ثمّ) من المعاني، فالمعنى قبلها يبلغ الذّروة فيما بعدها، فتكون ضربا من ضروب التّوكيد لمَا بعدها، فضلاً عن أنّ التّراخي الزّماني في (ثمّ) هو شكل من أشكال الوقف أو الانقطاع في الكلام يزيد من ذلك التّنبيه، فالقرآن الكريم متى ما أراد الارتقاء في المعنى بأنْ يجعله أشدّ قوة أو أشدّ استغرابا عمد إلى الرّبط بـ (ثمّ)[1].

وآثر التّعبير القرآني كلمة (طفلا) كأثرها في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾[2] ذلك أنّ الآيتين تتحدثان عن خلق الإنسان من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة، فبنى الكلام على خلق الجنس وليس على خلق الأفراد، فلمْ يقل (نطف) و(علقات) و(مضغات)، بل بناه على المفرد الذي يفيد الجنس، والنّطفة والعلقة والمضغة تخرج طفلا لا أطفالا، فناسب ذلك التّعبير بالجنس، فضلاً عن أنّ كلمة (طفلا) تستعمل في كلام العرب للمفرد والجمع[3]، فكان ذلك غاية في التّناسب، في حين قال في آية أخرى ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ ﴾[4] على الجمع لا على الإفراد ولا على الجنس، وهي مبينة لعلاقات الإفراد في المجتمع، والسّياق يتحدث عن العلاقات الاجتماعية، وهذا يتطلب مجتمعا لا فردا فناسب الجمع أيضاً[5]. وهكذا أدّت كلّ كلمة في نظم الآية معناها أداء دقيقا وأوحت بمعان أخرى إيحاء، فلفظة (يخرجكم) توحي بأنّ ساعة الوضع لا يعلمها إلاّ الله تعالى بقدرته وعلمه، ولا تتم إلاّ بمشيئته، وتوحي بهذه العناية الإلهية للجنين وهو في بطن أمه ليتدبرها الخلق. ولفظة (لتبلغوا) التي أوثرت مع وصف وصول الإنسان إلى ذروته في القوة والعقل وكأنّ ما قبلها من مراحل كان وسيلة للوصول إلى هذه المرحلة، ولفظة (تكونوا) مع وصف مرحلة الشيخوخة توحي ببدء النّزول من قمة

---

(١) =: قضايا اللغة في كتب التّفسير: ٥٢٥.

(٢) سورة الحج: من الآية ٥.

(٣) =: بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني: ١٠٠.

(٤) سورة النور: من الآية ٥٩.

(٥) =: بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني: ١٠١.

النّمو الجسديّ والعقليّ، ثمّ قوله (مِن قبل) أي يتوفى من قبل أنْ يخرج أو يبلغ الأشد أو يكون شيخا، وكلّ هذه المراحل لم تكن اختيارية بل هي موقوتة في حكم قوله (ولتبلغوا أجلا مسمى)، فهذه الأصناف ميسرة ليبلغ كلّ واحد منها أجلا مسمى لا يتعداه ولا يتخطاه، ثمّ يختم ذلك بقوله (لعلكم تعقلون) لأنّ هذه المراحل وما تشير إليه من القدرة الإلهية العظيمة لا بدّ أنْ يكون للعقل فيها وفي تدبرها دور كبير.

وهكذا نجد أنّ الآية القرآنية بناء متكامل يأخذ بعضه بحجز بعض، ولكلّ كلمة مع صاحبتها موقف وكأنّما لم يكن لأداء تلك الدلالات غير هذه القوالب، على اتساع اللغة بألفاظها وأشكالها[1].

وقد ناسب ذكر هذه المراحل ضمن نعمة الخلق والإيجاد أنْ يذكر الخالق بأنّه هو وحده الذي (يحيي ويميت) على سبيل محسن الطّباق ليتذكر الإنسان أنّ نعمة الخلق والإيجاد عبر هذه المراحل ستؤول إلى الفناء، بقدرته أيضاً، وأنّ الخلق والإيجاد والإماتة ما هي إلاّ أمر يسير إذا أراده الله تعالى: (فإنّما)، هكذا بأسلوب القصر ليوحي بأنّ هذه الأمور التي ترونها عظيمة لا تحتاج غير قوله تعالى: (كن فيكون) بهذا الجناس الموحي بسرعة الاستجابة، فما على الإنسان إلاّ تدبر النّعم والعمل على الشّكر للمنعم دائما وإخلاص العبادة له (ﷻ).

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

نعمة أخرى من نعم الخلق والإيجاد حوتها سورة الشّورى، فبعد خلق السّموات والأرض واللّيل والنّهار وخلق الإنسان، وغير ذلكِ من النّعم، يستكمل التّعبير القرآني ذكرها بنعمة أخرى تتمثل بحاجة الإنسان إلى مَن يشاركه حياته في الدّنيا، فجاء قوله تعالى: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾[2] مذكرا بهذه النّعمة الكبيرة وما تبعها من بسط الرزق لمَن يشاء الله أنْ يرزقه ويقدر، وكلّ ذلكِ من دلائل قدرته. وقد جاء لفظ (الأرض) متأخرا عن (السّموات) ليحقق تناسبا في نظم الآية إذ

---

(١) =: فكرة النّظم بين وجوه الإعجاز، فتحي أحمد عامر: ١٤١.

(٢) سورة الشّورى: الآيتان ١١و ١٢.

ذكر بعده خلق الأزواج من النّاس والأنعام وهي صورة أرضية يتمثلها الإنسان بشكل محسوس ويتدبر فيها، فخلق الإنسان والأنعام من أعجب أحوال خلق الأرض. وتقدم قوله (لكم) على غيره من معمولات (جعل) ليعرف أنّه معمول لذلك الفعل فلا يتوهم أنّه صفة لـ (أزواجا)(١)، كما أنّه أفاد التّخصيص.

وقد تقدم ذكر الإنسان على الأنعام للتشريف ولأنّها مسخرة له، ولمّا كانت الزّوجية هي مناط الموقف لأنّ السّياق هو عن تعداد النّعم، وخلق الأزواج هنا حكمة وآية، فقد أوثرت لفظة (أزواجا) دون غيرها، فضلاً عن أنّ حكمة الزّوجية في الإنسان والحيوان هنا هي اتصال الحياة بالتوالد ولذلك أوثرت هذه الكلمة في هذا المقام(٢). وآثر التّعبير القرآني تغليب المخاطب على الغائب والعقلاء على غيرهم وذلك في قوله (يذرؤكم فيه) فهو خطاب للجميع، للنّاس المخاطبين وللأنعام المذكورة بلفظ الغيبة، ولتغليب العقلاء على غيرهم استخدم (لكم) المختص بالعقلاء(٣). وأوثرت صيغة المضارع (يذرؤكم) لإفادة التّجدد وهو ما يناسب سياق الامتنان، والمعنى يكثركم، وهو من (الذرء) أي البث، وفسر بـ (يخلقكم)، وضمير (فيه) للبطن أو الرّحم أو الجعل والتّدبير(٤)، ويوحي إيثار لفظة (ذرأ) على (خلق) بمعنى آخر وهو توالي الطبقات على مرّ الزّمان(٥)، فضلاً عن معنى الإظهار بالإيجاد بعد العدم(٦). واستعير الحرف (في) لمعنى السّببية تشبيها للسبب بالظرف في احتوائه على مسبباته كاحتواء المنبع على مائه(٧).

وبعد ذكر دلائل قدرته العظيمة في النّعم الإلهية ولا سيّما في خلق الإنسان والأنعام ذكرا وأنثى على سبيل التّواصل والاستمرار، ذكر قوله ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ نتيجة لهذه الدلائل، فلا شيء يماثله في تدبيره وإنعامه.

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٤٤/٢٥.
(٢) =: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، عائشة عبد الرحمن: ٢١٣.
(٣) =: البرهان في علوم القرآن: ٣٠٧/٣، وفن البلاغة: ١٩٢.
(٤) =: محاسن التّأويل: ٥٢٢٥/١٤.
(٥) =: المحرر الوجيز: ١٤٦/١٣.
(٦) =: الفروق في اللغة: ١٣١.
(٧) =: التّحرير والتّنوير: ٤٥/٢٥.

وقد أفادت الكاف تأكيدا لمعنى المثل، وهو من التّأكيد اللّفظي باللّفظ المرادف من غير جنسه وحسنه أنّ المؤكد اسم، والمراد ليس شبه ذاته شيئا، والتّعبير كناية عن نفي المماثل لذات الله تعالى، وقد شمل نفي المماثلة إبطال ما نسبوا لله من البنات وهو ما يناسب وقوعه عقب قوله ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾[1]. فالكناية هنا من باب «نفي الشّيء بنفي لازمه، لأنّ نفي اللاّزم يستلزم نفي الملزوم»[2]، وقد أفاد تنكير (شيء) في سياق النّفي تعميما وتوكيدا آخر للنفي، فلا شيء يكون مثلا لمثله، وقد ذكر صاحب البحر المحيط أنّ العرب تقول (مثلك لا يفعل كذا) يريدون به المخاطب، كأنّهم إذا نفوا الوصف عن مثل المخاطب كان نفيا عن المخاطب نفسه، وهو من باب المبالغة فجرت الآية في ذلك على نهج العرب من إطلاق المثل على الشّيء نفسه[3]. وقد تقدم نفي المثل على إثبات السّمع والبصر مراعاة لمقتضى حال المخاطبين في إشراكهم، ولمّا كانت الصّلة بينه تعالى وبين خلقه ليست منقطعة ناسب أنْ يختم الآية بقوله (وهو السّميع البصير). ولاستكمال ذكر تفرده تعالى بالرّزق، قال بعدها ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾، بتقديم المجرور لإفادة الاختصاص، وللإيحاء بأنّها ملك له لا لغيره.

ومِن المحسنات البديعية في نظم الآية الطّباق بين (يبسط . ويقدر)، وقد جاءت الجملة تعليل لمَا قبلها وتمهيد لمَا بعدها[4]. وأوثر لفظ (المقاليد) على سبيل الاستعارة المكنية للتعبير عن خيرات السّموات والأرض التي بيده، إذ شبهت الخيرات بالكنوز وأثبت ما هو ردف لها وهو المفاتيح، وفي ذلك دليل من دلائل القدرة العظيمة، فضلاً عن تناسبه مع ثنائية (السّميع البصير) في الآية السّابقة، ووصفه بأنّه (بكلّ شيء عليم) في هذه الآية، فلا يعلم تلك المقاليد وعظمتها إلاّ هو، وهو البصير بعباده (يبسط الرّزق لمَن يشاء ويقدر) وهذه الجملة بيان للإجمال الذي تضمنته الجملة الأولى، وبسط الرّزق على ما فيه من نعم كثيرة وعظيمة هو جزء يسير من مقاليد

(١) =: م. ن: ٤٦/٢٥ - ٤٧.

(٢) محاسن التأويل: ٥٢٢٥/١٤.

(٣) =: البحر المحيط: ٥١٠/٧.

(٤) =: روح المعاني: ٢٠/٢٥.

السّموات والأرض وما فيها مِنَ النّعم.

❖❖❖❖❖

يندرج رزق الله لعباده تحت ما وصفناه بنعمة الخلق والإيجاد، فهو الذي ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ وهو القائل ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾[١]، فرزق الإنسان يقدره الله له قبل ولادته، لذلك آثرنا أنْ يكون قوله (ﷻ) ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾[٢]، ضمن هذا المبحث.

وقد جاءت هذه الآية تمهيدا لمَا بعدها من ذكر آثار لطفه بعباده وما يسر الله من الرّزق للمؤمنين والكافرين في الدّنيا، ثمّ تخصيص رزق الآخرة للمؤمنين. وتبدأ الآية بلفظ الجلالة ثمّ صفة (لطيف) بالتّنكير الذي يفيد المبالغة والتّكثير والتّنويع، فلطف الله بعباده يضم الكثير من النّعم ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[٣]، وصيغة (فعيل) في هذا الوصف تدلّ على الثّبوت واللّزوم والمبالغة في الشّيء[٤]. وقد أوثر هذا الوصف في سياق الحديث عن نعمة الرّزق بشكل عام، لمَا لهذا الوصف من دلالات، ولمَا تؤديه هذه اللفظة بصيغتها من معان لا تؤديها غيرها، فاللّطف هو فعل تسهل به الطّاعة على العبد، ولا يكون لطفا إلاّ مع قصد فاعله وقوع ما هو لطف فيه من الخير خاصة، فاقتضى حال المخاطبين إيثار هذا الوصف في سياق النّعم وهو أسلوب من أساليب الدعوة القرآنية بالتّرغيب، فضلاً عن أنّ اللطف قد يتقدم الفعل بأوقات يسيرة يكون له معها تأثير في نفس الملطوف له، ممّا يساعد على تحقيق الهدف، ولهذا الوصف دلالة أخرى، فاللّطف يكون التّدبير الذي ينفذ في صغير الأمور وكبيرها، فالله تعالى (لطيف)، ومعناه أنّ تدبيره لا يخفى عن شيء ولا يكون ذلك إلاّ بإجرائه على حقه، ويسمى الله لطيفا لأنّه يواصل نعمه على العباد[٥]، أمّا دلالة التّنكير على التّنويع

---

(١) سورة الزّخرف: من الآية ٣٢.

(٢) سورة الشّورى: الآية ١٩.

(٣) سورة النحل: من الآية ١٨.

(٤) =: معاني الأبنية في العربية: ٩٨ و١١٧.

(٥) =: الفروق في اللغة: ٢١٢ - ٢١٣.

فتنبثق من تعدد الأقوال في تفسير هذه الكلمة[١]، وذكر العباد بعد وصف اللّطف تعميم أعقبه التّخصيص[٢] في قوله (يرزق مَن يشاء)، فاللّطف بالعباد عام يشمل المؤمن والكافر، وإضافة العباد إلى ضميره يفيد الشّمول والاستغراق[٣]. وهو بالنسبة للكافر إملاء واستدراج، وخصص الرّزق من اللّطف للمؤمنين بمشيئته تعالى، وصيغة المضارع (يرزق) توحي بالاستمرار والتّجدد حثا للمؤمنين على زيادة العمل في الطّاعات. ويوحي قوله (يرزق مَن يشاء) بأنّه يحرم مَن يشاء أيضاً، وفي تفضيل قوم بالرّزق والمال حكمة ليحتاج البعض إلى البعض كما قال تعالى ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾[٤] ويندرج ذلك تحت لطفه بالعباد أيضاً، وهكذا يكون الرّزق هنا نعمة من نعم الخلق والإيجاد على اختلاف أنواعها.

ومِن لطائف البلاغة القرآنية في هذه الآية الاحتراس، فقد عطف قوله ﴿ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ على ما قبله، وهو تمجيد لله تعالى بهاتين الصّفتين للاحتراس من توهم أنّ لطفه عن عجز أو مصانعة، أو عن توهم أنّ رزقه لمَن يشاء عن شحّ أو قلّة[٥]، ولذلك نفت هاتان الصّفتان كلّ ذلك التّوهم ولا سيّما أنّ الإخبار بهما عن اسم الجلالة بتعريفهما باللام قد أفاد قصر القوة والعزة عليه تعالى وهو قصر الجنس للمبالغة لكماله فيه حتى كأنّ قوة غيره وعزة غيره عدم[٦]، فضلاً عمّا يفيده هذا التّعريف من التّوكيد مراعاة لمقتضى حال المخاطبين.

ويتواشج هذا الاحتراس في ذكر الصّفتين مع فن بلاغي آخر هو التّذييل، فقوله (وهو القوي العزيز) تذييل للتعليل، كأنّه قيل: إنّما تلطف في حق عباده المؤمنين دون مَن غضب عليهم بمحض مشيئته لأنّه قوي قادر على تخصيص رحمته لمَن يشاء[٧]. وقد ناسب هذا التّذييل بالاسمين الجليلين القول بالعموم أيضاً، فهو لطيف

---

(١) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/١٦ - ١٧.
(٢) =: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين النيسابوري: ٣١/٢٥.
(٣) =: روح المعاني: ٢٧/٢٥.
(٤) سورة الزّخرف: من الآية ٣٢.
(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٧٣/٢٥.
(٦) =: م. ن: ٧٣/٢٥.
(٧) =: روح المعاني: ٢٧/٢٥.

بعباده عام الإحسان بهم لأنّه القوي الغالب الذي يرزق مَن يشاء ولأنّه العزيز الذي لا يغلب على ما يريد.

ومِنَ التّناسب الذي أوحى به التّذييل أيضاً إيثار ثنائية (القوي العزيز)، فمَن كان عزيزا لا بدّ أنْ يكون قويا فهو - سبحانه - الذي لا يعجزه شيء، وإذا بطش بشيء أهلكه[1]، فناسب ذلك مضمون الآية تماما إذ إن (القوي) هو الذي يقدر على الشّيء وعلى أكثر مِنه، و(العزيز) هو الممتنع الذي لا ينال بالأذى[2]، فهو القوي القادر على رزق عباده جميعا وهو العزيز الذي لا ينال بالأذى إذا ما حرم مَن يشاء من الرزق، فهو صاحب نعمة الخلق والإيجاد، يمنح ما يخلق من الرّزق وما يوجده لمَن يشاء من عباده.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

يتوالى ذكر النّعم الإلهية - التي وهبها الله لعباده على سبيل الخلق والإيجاد - في سور الحواميم، فبعد أنْ جعل الله الأرض قرارا والسّماء بناء وصوّر الإنسان بأحسن الصّور ورزقه مِنَ الطّيبات، وعرض عليه مراحل خلقه وحياته ودلائل القدرة الإلهية في ذلك، ثمّ وهبه زوجة تشاركه حياته، إذ خلقها من نفسه - وكذلك الأنعام من ذكر وأنثى - وذكره بأنّه هو وحده الذي يبسط الرّزق ويقدر، بعد كلّ ذلك يذكر في سورة الشّورى نعمة أخرى يستكمل الإنسان بها حياته وأسرته، وهي نعمة الذّرية، فهي مظهر من مظاهر النّعم، قريبة من نفس الإنسان، ظاهرة يحسها ويتعلق بها ويعمل لأجلها طوال حياته، وهي استكمال لبسط الرّزق وقبضه، فالذّرية رزق من عند الله كالمال وأنواع الرّزق الأخرى.

يقول الله (ﷻ):﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[3].

تأتي هذه الآية استئنافا بيانيا على سبيل الفصل عمّا قبلها، لأنّه تعالى ذكر إذاقة

(١) =: جامع البيان في تفسير القرآن: ١٣/٢٥.
(٢) =: الفروق في اللغة: ٩٩ و١٠٣.
(٣) سورة الشّورى: الآيتان ٤٩ - ٥٠.

الإنسان الرّحمة وإصابته بضدها في قوله (ﷻ): ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴾ (١)، وهو ما يثير في نفس السّامع سؤالا عن فطر الإنسان على هذين الخلقين اللذين يتلقى بهما نعمة ربه وبلائه، وكيف لم يفطر على الخلق الأكمل؟ وسؤالا عن سبب إذاقة الإنسان النّعمة مرّة والبؤس مرّة فيبطر ويكفر، فكانت الآية جوابا عن ذلك(٢)، فلله الملك يقسم النّعمة والبلاء كما يشاء بحكمته لا كما يشاء الإنسان بهواه، وهو المتصرف في السّموات والأرض يخلق فيهما ما يشاء وهو جواب إجمالي على سبيل تخصيص الملك لله، يشمل السّموات والأرض، وخلق كلّ ما يشاء بقدرته ومشيئته، ثمّ يأتي بعد ذلك تفصيل لشيء من هذا الإجمال يتعلق بنعمة الخلق والإيجاد، والتّذكير بها ردا على منكري البعث، وامتنانا على العباد لعلهم يشكرون. وتقديم (لله ملك السّموات والأرض) هو التّقديم المناسب لكلّ جزئية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام فضلاً عمّا يحققه هذا الإجمال مِنَ تشويق لمعرفة ما سيذكر بعده.

والتّفصيل بعد الإجمال إبدال وإدماج مثل جامع لصور إصابة المحبوب وإصابة المكروه(٣).

وناسب سياق الحديث عن نعمة الذرية إيثار الفعل (يهب) فهي نعمة خلق وإيجاد، هبة من الله، وإيثار الهبة دون غيرها يوحي بما تؤديه من معان ودلالات، فالهبة تقتضي التّمليك وهي بهذا تختلف عن الإعطاء، وتختلف الهبة عن الهدية بأنّ الهدية ما يتقرب به المهدي إلى المهتدى إليه وليس كذلك الهبة، والهبة عطية منفعة(٤)، وكلّ هذه الدلالات تتناسب وهذا المقام.

ومِن اللّطائف البلاغية في نسيج الآية تقديم ذكر الإناث بالتّنكير على ذكر الذّكور بالتّعريف على عكس العادة في تقديم الذّكور على الإناث حيثما ذكرا في

---

(١) سورة الشّورى: الآية ٤٨.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٣٦/٢٥ - ١٣٧.

(٣) =: م. ن: ١٣٨/٢٥.

(٤) =: الفروق في اللغة: ١٦١ - ١٦٢.

القرآن الكريم من مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾[١] وقوله ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾[٢]، ففي تقديم الإناث هنا تعريض بالكافرين وهم الذين قال عنهم (ﷻ):﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾[٣]، وفيه توبيخ مَن كان يئدهنّ[٤]. وقدمت الإناث لأنّها الأهم في تكثير النّسل، والأهم واجب التّقديم[٥]، ولأنّ مساق الآية للدلالة على أنّ الواقع الحاصل ما تتعلق به مشيئته تعالى لا ما تتعلق به مشيئة الإنسان، ويذكر ابن قيم الجوزية أنّ الله قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كأنّ الغرض بيان «أنّ هذا النّوع المؤخر الحقير عندكم مقدم عندي في الذّكر»[٦]، وقد يكون سبب التّقديم هو أنّ الكلام في البلاء، والعرب تعدهُنَّ أعظم البلايا، ويجوز أنْ يكون لتطييب قلوب آبائهن أو للمحافظة على الفواصل[٧]. وقد قال البقاعي في هذا التّقديم «قدم الإناث وعبر فيهن بلفظ الهبة لأنّ الأوهام العادية قد تكتنف العقل فتحجبه عن تأمل محاسن التّدبيرات الإلهية ... وتنبيها على أنّ الأنثى نعمة، وإنّ نعمتها لا تنقص عن نعمة الذّكر وربّما زادت»[٨]، وفي هذا التّقديم تشريف لهنّ وإيناس بهنّ ولذلك جعلن من مواهب الله، فضلاً عن أنّ في التّقديم حثّا على الإحسان إليهنّ[٩].

ويتواشج هذا التّقديم مع تنكير (إناثا) مقابل تأخير (الذّكور) بالتّعريف وجاءت لفظة (إناثا) نكرة لأنّ التّنكير هو الأصل في أسماء الأجناس، وتعريف الذّكور باللّام لأنهم الصّنف المعهود للمخاطبين، فاللام لتعريف الجنس، والمعنى: يهب ذلك

(١) سورة الحجرات: من الآية ١٣.
(٢) سورة القيامة: الآية ٣٩.
(٣) سورة النحل: الآية ٥٨.
(٤) =: تنوير الأذهان: ٤٩٥/٣.
(٥) =: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير: ٢٥٥/٢، وأسرار التّقديم والتّأخير: ٨٥.
(٦) التفسير القيم، ابن قيم الجوزيّة: ٤٣٢، ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن: ١٢٤.
(٧) =: إرشاد العقل السليم: ٣٨/٥.
(٨) نظم الدرر: ٣٥٤/١٧.
(٩) =: البرهان في علوم القرآن: ٢٦٥/٣، وفكرة النظم بين وجوه الإعجاز: ١٧٠.

الصّنف الذي تعهدونه وتتحدثون به وترغبون فيه[١].

وحين قابل التّعبير القرآني تنكير (إناثا) بتعريف الذّكور «جبر نقص الأنوثة بالتّقديم وجبر نقص التّأخير للذكور بالتّعريف كأنّه قال: ويهب لمَن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم»[٢].

ومِن دقائق البلاغة في نظم الآية ما يسمى بـ (صحّة التّقسيم)، إذ يبتدئ بالحرف (أو)، ويشمل كلّ ما ذكر من تفصيل للإجمال، «وهو استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو شارع فيه بحيث لا يغادر مِنه شيئا»[٣]، وقد جاءت صحة التّقسيم متسقة مع التّرقي من الأدنى إلى الأعلى فبدأ بهبة الإناث ثمّ هبة الذّكور ثمّ هبة الذّكور والإناث وجاءت كلّ أقسام العطية بلفظ الهبة، وأفرد معنى الحرمان بالتّأخر، لأنّ أفضاله على عباده أهم من حرمانه إياهم، وتقديم الأهم أولى، وقال في معنى الحرمان (يجعل) عادلا عن لفظ الهبة لتكون الألفاظ ملائمة للمعاني[٤]. وتأخير (العقم) لأنّه أمر عدمي إذ الأصل هو التّناسل والتّكاثر فضلاً عن أنّ معظم النّاس على التّكاثر، وحالات العقم قليلة بالنّسبة لذلك. وقد شكلت صحة التقسيم بهذا النّظم المعجز ما يسمى بالموسيقى الخارجية، وهي الموسيقى التي تتألف من ارتباط الألفاظ مع بعضها في البيان العربي، وتشكل الإيقاع العام للجملة[٥]، ممّا له أثر نفسي في القارئ أو السّامع لهذه الآيات.

والتّزويج قرن الشّيء بالشّيء فيصيران زوجا، والمراد: جعلهم زوجا في الهبة، أي يهب لهم ذكرانا مشفعين بإناث[٦]، على سبيل الطّباق بين (ذكرانا وإناثا) للإشعار بعظمة النعمة الإلهية وما يتوجب على الإنسان إزائها من الشكر والطاعة.

ومِن أوجه البلاغة أيضاً تناسب خاتمة الآية بقوله (إنّه عليم قدير) مع ما سبق ذكره، فخلقه ما يشاء كان عن حكمة لأنّه واسع العلم، وخلقه الأشياء يجري على وفق

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٣٨/٢٥.

(٢) التفسير القيم: ٤٣٣.

(٣) الجدول في إعراب القرآن: ٢٩/٢٥.

(٤) =: البديع في ضوء أساليب القرآن، عبد الفتاح لاشين: ٩٢ - ٩٣.

(٥) =: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٤١.

(٦) =: التّحرير والتّنوير: ١٣٨/٢٥.

علمه وحكمته، وهو (قدير) نافذ القدرة، فإذا علم الحكمة في خلق شيء أراده، جرى على قدرته، والجمع بين (العلم والقدرة) ينبئ بصفة الإرادة والحكمة[1]، فهو العليم بما يناسب الإنسان من نعمة الذّرية فيهبها له وهو على كلّ أحوال هبة هذه النّعمة قدير.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

واستكمالا لمَا تقدم من نعم الخلق والإيجاد، تذكر هذه النّعمة مرّة أخرى بصيغة الشّمول في قوله (ﷻ): ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾[2].

وقد جاءت الآية في سياق الحديث عن النّعم الإلهية بشكل عام، ومنها نعمة التّسخير بجعل الأرض مهادا، وذكر ما فيها من السّبل، وإنزال الماء من السّماء لإحياء الارض وإخراج النّبات، والاستدلال بذلك على البعث، وأعقبها ذكر الفلك والأنعام وما فيها من النّعم في السير والتّنقل على ظهورها، ثمّ إنكار إشراكهم الملائكة في عبادته بعد كلّ هذه النّعم، وفي ذلك توبيخ لهم وتعريض بجهلهم وغباوتهم في الإشراك والضّلال.

والابتداء بالتّعريف بالاسم الموصول ينبئ بالقصد من ذكر النّعم، فهو يشير إلى معروف لدى المخاطب وقد اعترفوا من قبل أنّه الخالق، فضلاً عن تناسب الابتداء به مع ما تقدم من الآيات.

والأزواج: الأصناف كلّها، وهي ما يتقلب فيه الإنسان من خير وشر، وإيمان وكفر، ونفع وضر، وفقر وغنى، وصحة وسقم[3].

وجاء التّعبير على سبيل التّغليب فقد غلب الزّوج على الذّكر وأنثاه من الحيوان وتوسع فيه فأطلق الزّوج على الصّنف[4]، وغلب الرّكوب على غيره من المنافع لاقتران ذكر الفلك مع الأنعام هنا، وتضمن ذكر الأنعام ما فيها من المنافع الأخرى، والتّوكيد المعنوي بـ (كلّها) يناسب التّعريض بالمشركين، وفي إيثار ذكر (الأزواج) تناسب أيضاً مع ما سبقها من ذكر (السّموات والأرض) و(الأرض والسّبل) و(السّماء والماء) و(الفلك والأنعام).

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٣٩/٢٥.

(٢) سورة الزّخرف: من الآية ١٢.

(٣) =: الجامع لأحكام القرآن: ٦٥/١٦.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٧٢/٢٥.

وهكذا كانت الزوجية قاعدة للحياة، فكلّ الأحياء أزواج، وهذا ظاهر لا خفاء فيه، والله هو الذي خلق هذه الأزواج كلّها من الإنسان وغير الإنسان، فما بال المخاطبين يشركون في عبادته بعد هذه الدّلائل، أفلا يكون المنعم المتفضل بكلّ هذه النّعم إلها حقا يتوجب عليهم عبادته وشكر نعمائه؟

❖❖❖❖❖

## المبحث الثّاني
## نعمة التّسخير

سخّر الله للإنسان الكون وما فيه، وأنعم عليه بخلقه وإيجاده، وخلق الأرض له وجعلها قرارا ومهدا، وخلق السّماء له بناء، وأحسن خلقه وصوّره، ورزقه من الطّيبات، ومنحه عجيب عنايته وفضله في مراحل خلقه جنينا وطفلا وشابا وشيخا إلى أجل مسمّى، وخلق له زوجة وذرية، وأكمل فضله عليه بنعمة التّسخير، فسخر له اللّيل ليسكن فيه بعد عناء العمل وجهده، وسخر له النّهار يبصر فيه ليطلب الرّزق والفضل من الله، وذلك قوله (ﷻ): ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[1].

ومجيء هذه الآيات التي تذكر نعم الله على النّاس بعد ذكر الذين يستكبرون عن عبادته، تعريض بهم وتوبيخ لهم، إذ كان حقا عليهم أنْ يشكروا الله على هذه النّعم التي توحي بعظمته تعالى ولكنّهم استكبروا عن عبادته وأعرضوا. وتلفت الآيات إلى آثار قدرة الله في الكون، فتذكر نعمته على العباد باللّيل الذي فيه يسكنون، وبالنّهار الذي فيه ينتشرون، وناسب مجيء هذه الآية ما كان قبلها فهي واقعة موقع التّعليل لمَا قبلها، والمعنى أنّهم تسببوا لأنفسهم بذلك العقاب لأنّهم كفروا نعمة الله إذ جعل لهم اللّيل والنّهار مسخرين. وفي تقديم الجار والمجرور (لكم) زيادة امتنان بتخصيص ما سخره لهم ومِن أجلهم، وابتدأ الاستدلال بدلائل الأكوان العلوية وآثارها الواصلة إلى الأكوان السّفلية وهي مظهر النّعمة باللّيل والنّهار[2].

---

(١) سورة غافر: الآية ٦١.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٨٤/٢٤.

ومِن اللّطائف البلاغية تقديم ذكر اللّيل على النّهار وذلك لأنّ «الظّلمة طبيعة عدمية والنّور طبيعة وجودية والعدم في المحدثات مقدم على الوجود»[١]، ولمّا خصص اللّيل بتقديم لفظة (لكم) عليه، زيد تخصيصا بقوله (لتسكنوا فيه)، ويكتنز هذا التّعبير دلالات بديعة، إذ إن سكون النّاس في اللّيل على أقسام «فأهل الغفلة يسكنون إلى استراحة النّفوس والأبدان، وأهل الشّهوة يسكنون إلى أمثالهم وإشكالهم من الرّجال والنّسوان، وأهل الطاعة يسكنون إلى حلاوة إعمالهم وقوة آمالهم، وأهل المحبة يسكنون إلى أنين النّفوس وحنين القلوب وضراعة الأسرار واشتعال الأرواح بالأشواق التي هي أحرّ من النّار»[٢]، فضلاً عمّا يوحيه هذا الوصف بهدأة اللّيل وسكونه، وما يبثه التّعبير من راحة نفسية تلقي عن النّفس جهدها الذي كان في النّهار، وكان اللّيل هو المسكن، وكأنّ الزّمان صار مكانا للسكن والرّاحة ولا سيّما مع استخدام حرف الظّرفية (فيه) والذي يوحي بهذه الظّلمة السّاكنة التي تحيط بهم من كلّ جانب ليعمّ المكان والزمان سكون من الظّاهر والباطن وكأنّ اللّيل قبة قد ضربت على ساكنيها وأحاطتهم بظلامه. وهكذا يتخير القرآن الألفاظ تخيرا يقوم على أساس من تحقيق الموسيقى المتسقة مع جوّ الآية، فالألفاظ ذات الجرس الموسيقي الرخي السّلس تكون في المواضع التي يشيع فيها جوّ من الحياة الهانئة الجميلة[٣].

ويأتي بعد ذلك قوله (والنّهار مبصرا)، وفيه نعمة أخرى، تتمثل في إبصار النّاس في الضياء، وكثرة الفوائد الحاصلة لهم من ذلك، ولولا النّهار وما فيه من نعمة الإبصار لتوقفت حياة الإنسان والحيوان والنّبات.

ومِن لطائف البلاغة ونكتها البديعة إسناد الإبصار إلى النّهار على طريقة المجاز العقلي لقوة الملابسة بين الأفعال وزمانها، «لأنّ النّهار لا يبصر وإنّما يبصر فيه، والمبصر على الحقيقة هو الإنسان، وعلى هذا فالإبصار أسند إلى غير ما هو له حقيقة لغرض الاختصار والإيجاز والبلاغة والتّفخيم»[٤]، وللمجاز العقلي بلاغته وأثره في

---

(١) التفسير الكبير: ٨٢/٢٧.

(٢) روح المعاني: ٩٤/٢٤.

(٣) =: الجرس والإيقاع في التعبير القرآني، قاصد ياسر الزّيدي، مجلة آداب الرافدين، ع ٩، سنة ١٩٧٨: ٣٣٥.

(٤) أساليب المجاز في القرآن: ١٦٢.

النّفس، فحين نتأمل صور هذا المجاز نجد كلّ واحدة منها تثير في النّفس خيالا طريفا من حيث نرى فيه الإحداث والأفعال مضافة إلى غير فاعليها المألوفين في الوجود، فضلاً عن أنّنا نجد الأسلوب معه أعذب لفظا وأحسن موقعا وأملأ بالفائدة[١]. وهكذا جاء إسناد الإبصار إلى النّهار لأنّه زمن الإبصار، فالعلاقة زمانية أو سببية.

ولأنّ الآية في معرض الامتنان فقد ذكر اللّيل والنّهار، ولم يذكر الشّمس، وفي ذلك تناسب معنوي، ومِن التّناسب أيضاً وصف اللّيل بأنّه (ليسكنوا فيه)، ووصف النّهار بالإبصار، وقد جاءت هذه المقابلة بينهما - وبضمنها الطّباق بين اللّيل والنّهار - متواشجة مع المجاز العقلي في وصف النّهار بالإبصار، وتعليل إيجاد اللّيل بعلة سكون النّاس فيه، وكانت نتيجة هذا الاتساق والتّواشج بين المقابلة والمجاز العقلي تشكيل ما يسمى بالاحتباك، إذ يفهم من كليهما أنّ اللّيل ساكن أيضاً، وأنّ النّهار خلق ليبصر النّاس فيه إذ المنة بهما سواء وهذا من بديع الإيجاز[٢].

ولا شكّ في أنّ العدول عن القول (لتبصروا فيه) إلى القول (مبصرا) كان بقصد المبالغة، ولم يسلك سبيل المبالغة في وصف اللّيل «لأنّ نعمة النّهار لشبهها بالحياة أتمّ وأولى من نعمة اللّيل التي تشبه الموت، فكانت أحق بالمبالغة إذ المقام مقام امتنان»[٣]، ولا يتنافى ذلك مع القول بالاحتباك، إذ إن التّعبير القرآني دلّ على فضل الأولى بالتّقديم، وعلى فضل الأخرى بالمبالغة. ومما يزيد الاحتباك جمالا أنّه جاء في أبهى صور التّناسب، فلمّا لم يكن الإبصار غاية في نفسه بل العلة ابتغاء الفضل بخلاف السّكون والدّعة في اللّيل، صرح بذلك في الأول ورمز في الثّاني[٤]، وفي ذلك إيحاء آخر نجده في ظلال هذه المعاني، وهو أنّ الإنسان مهما دأب على العمل الدّنيوي طوال نهار حياته، فإنّ مصيره السّكون كما يسكن كلّ ليلة، وذلك هو السّكون بعد الموت الذي لا ينفعه فيه مما قدم سوى الأعمال الصّالحة، ففيه حث على العمل بالطّاعات قبل أنْ تسكن النّفس ظلمة القبر بدلا من ظلمة اللّيل.

وفي الاحتباك وجه آخر من حيث بنية ما وصف به اللّيل والنّهار، فقد استعمل

---

(١) =: خصائص التراكيب: ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٨٥/٢٤.

(٣) تفسير روح البيان: ٢٠٣/٨.

(٤) =: روح المعاني: ٨٢/٢٤.

التّعبير القرآني مع اللّيل الفعل (لتسكنوا فيه) ومع النّهار الاسم (مبصرا) ولم يقل (ساكنا ومبصرا) ولا (لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه) ولا (ساكنا ولتبصروا فيه)، وذلك أنّه جمع الحقيقة والمجاز في تعبير واحد، ولولا كذلك لفاتت هذه المزية الفنية، فقد ذكر نعمة الله علينا في الليل بقوله (لتسكنوا فيه) ولو قال (ساكنا) لم يكن فيه دلالة نعمة على الخلق من ناحية، ولكانت (لكم) هنا زائدة، فقد جاء بـ (لكم) والصيغة الفعلية للدلالة على قصد نعمة التّسخير، ولو قال (ساكنا) لم يكن التّعبير مجازيا لأنّ اللّيل يصح أنْ يوصف بالسّكون وعندئذ يخلو التّعبير من هذه الفائدة.

ولمّا تقررت دلالة النّعمة في صدر الآية كان العدول إلى التّعبير المجازي كسبا فنيا، فعدل من الفعل إلى الاسم ومِن الحقيقة إلى المجاز العقلي (مبصرا) فجمع الحقيقة والمجاز، ودلّ على المقصد الأوّل (النّعمة) بطريق موجز، وقد أفاد هذا العدول معنيين:

**الأوّل**: إنّنا نبصر فيه كما قيل: ليل نائم، والمقصود: نائم أهله.

**الثّاني**: أنّه جعله مبصرا أيضاً، يبصر أعمالنا ويكون شاهدا علينا بالخير والشّر فكأن له عينين تبصران، فنحن نبصر فيه وهو يبصر أيضاً[(١)]، وكأنّ النّهار كائن حيّ يتمتع بصفة الإبصار، وهذا ما يفيده التّشخيص[(٢)]، فهو «طريقة من طرق التّصوير، ترد الصّورة حيّة وتمنح الجوامد والخواطر شخصية آدمية أوقع في الحس وأجمل في النّفس»[(٣)]، وللتشخيص في القرآن الكريم أثره في النّفس الإنسانية وهو ذو غاية واضحة تتمثل في تحقيق الهدف الدّيني بالدّرجة الأساس من خلال عقد الصّلة الرّوحية بين النّفس الإنسانية والموجودات المنظورة وغير المنظورة، وفي هذا تنمية للإحساس النّفسي والرّوحي عند الإنسان[(٤)]. وجمال صورة اللّيل الذي تسكن فيه الخلائق وما فيها من نعمة الرّاحة ليعود الجسد بعدها وقد استعاد القوة والنّشاط ليواصل العمل في النّهار الذي يبصر أعمالهم ويبصرون فيه ما يعملون، جمال هذه الصّورة ينبثق من غرضها

---

(١) =: التّعبير القرآني: ٢٩.

(٢) «هو إبراز الجماد أو المجرد من الحياة من خلال الصورة بشكل كائن متميز بالشعور والحركة والحياة» المعجم الأدبي، جبور عبد النور: ٦٧.

(٣) مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب: ١٧٧.

(٤) =: الاستعارة في القرآن الكريم: ١٤٦.

الفكري الذي تهدف إليه، فضلاً عمّا لنظمها وصياغتها من أثر في النّفس، فالصّورة البلاغية مهما كانت جميلة في ذاتها تغدو كجسد بلا روح إذا كانت خالية من غرض فكري[1]، ولا شكّ في أنّ تذييل الآية بنفي الشّكر قد أوحى بهذا الغرض الفكري والهدف البلاغي.

وبعد ذكر هذه النّعمة العظيمة مع تقديم مصدرها الخالق المنعم المتفضل وتخصيصها للمخاطبين في مقام الامتنان بـ (لكم) يأتي التّأكيد على مَن لم يشعر بعظمة هذه النّعم وفضل الله فيها على العباد، بتذييل يضم ما ذكر وما لم يذكر منها، بقوله (ﷻ): ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ هكذا بأسلوب الوصل القائم على الفصل، إذ إن الوصل «يكون أحيانا لا بحرف العطف كالواو والفاء وثُمّ ونحوها، وإنّما يكون بـ (إنْ) وهو وصل قائم على فصل أو بني معناه على قطع، وفائدته تنبيه السّامع أو القارئ أو المخاطب إلى علاقة وثيقة بين أجزاء الكلام لو جرى الوصل فيها بحرف العطف لمّا بلغ أثره مبلغ ما يكون في القطع الذي يتلوه حرف توكيد وتقوية وهو (إنْ)»[2]، وزيد هذا التّوكيد توكيدا آخر باللام في (لذو فضل)، وتنكير (فضل) للتّعظيم والتّكثير لأنّ نعم الله عظيمة كثيرة لا تعد ولا تحصى، كما أنه أفاد التّعميم والإطلاق. وفي مقام التّوكيد على ذكر الفضل والنّعم لا بدّ مِنَ التّعميم فقال: (على النّاس)، فليس من أحد إلاّ وله من فضل الله ونعمائه الكثير، ويكفي الإنسان أنْ تكون صورته كاملة الخلق كما أرادها الله دون نقص أو تشويه. ويأتي مقابل كلّ هذا الفضل والإنعام ذكر عدم الشّكر لصاحب هذه النّعم، الخالق الكريم (ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون)، هكذا على سبيل الإظهار في مقام الإضمار للتّسجيل على النّاس الكفران بوجه صريح دون إضمار وبقصد زيادة التّقرير، وفي ذلك تعريض وتوبيخ لمَن لم يشكر آلاء الله ونعمائه. في حين إنّ التّعبير القرآني آثر الإضمار في مثل هذه الآية عند قوله (ﷻ): ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[3]، وسبب الاختلاف بين الآيتين هو أنّ الإظهار في سورة غافر للمشاكلة والملاءمة مع ما قبلها من الآيات، إذ لم يضمر

(١) =: فصول في البلاغة، محمد بركات حمدي أبو علي: ٢١٣.

(٢) نحو المعاني: ١٠١.

(٣) سورة يونس: من الآية ٦٠.

فيها لفظ (النّاس) أمّا في سورة يونس فقد بني الكلام على الإضمار في الآية التي قبلها بقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[١] فناسب أنْ تكون الآية الأخرى على الإضمار[٢]، وهذا من التّناسب أيضاً.

وقد اختلفت خاتمة هذه الآية عمّا قبلها من الآيات المماثلة، فقد قال في الآية (٥٧) ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ وقال في الآية (٥٩) ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ وقال هنا ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾، وفي ذلك عظيم التّناسب، إذ اتبع كلّ غرض أريد إثباته بما يناسبه حال منكريه، «فمَن أقر بخلق السّموات والأرض وأنكر الإعادة والبعث ثمّ نبه على أنْ يعلم أنّ مَن قدر على الأكبر قادر على الأصغر، وهذا موضع يفتقر إلى العلم الذي نفاه عمّن لم يقربه فقال: (لا يعلمون)، ومَن أنكر البعث محتاج إلى الإيمان به بعد علمه بأنّ الخالق قادر على أنْ يخلق مثلهم قال: (لا يؤمنون)، ومَن كان له فضل عليه فهو محتاج إلى أنْ يؤدي حقه بالشّكر قال: (لا يشكرون) أيْ لا يقابلون نعمة الله عليهم بما يستديمها لهم من الشّكر»[٣]، وهكذا اقتضى كلّ مقام ما يناسبه من التّعبير، فحين كان المعنى يتعلق بالعقل آثر التّعبير (لا يعلمون) وهو غالبا ما يستعملها في الأمور التي ترجع إلى العقل[٤]، وحين تعلق المعنى بالقلب قال: (لا يؤمنون) وحين تعلق المعنى بالنّعمة قال (لا يشكرون)، ويتبع كلّ تعبير منها أثره النّفسي في هذا النّفي والإنكار بما يتضمنه من التّعريض، إذ إنّ البلاغة توجه إلى العقل أو إلى القلب أو إليهما معا تبعا لما تقتضيه حالات المخاطبين من مقاومة الجهل والرأي والهوى منفردة أو مجتمعة، فضلاً عن أنّ وظيفتها الأولى هي الإقناع من طريق التّأثير، ولذلك كان اتجاهها إلى تحريك النّفس أكثر، وعنايتها بتجويد الأسلوب أشد[٥]. وقد حقق التّنوع بين الفواصل ضربا من التّنويع الموسيقي المشوق لسماع

(١) سورة يونس: من الآية ٥٥.

(٢) =: درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، الخطيب الإسكافي: ٤١٣.

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل: ٤١٤.

(٤) =: مفهوم الإعجاز القرآني: ٢٩٥.

(٥) =: دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات: ٢٣و ٢٥.

الكلام[١]، ذلك أنّ الفاصلة القرآنية ترد وهي تحمل شحنتين في آن واحد، شحنة من الوقع الموسيقي، وشحنة من المعنى المتمم للآية[٢].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ومِن نعم الله التي سخرها لعباده، الأنعام وما فيها من منافع لا تنتهي مهما امتد الزّمان وتقدم الإنسان وتطور، وخلق هذه الأنعام وتكاثرها آية من آيات الله ودلائل قدرته، وتذليلها وتسخيرها للإنسان نعمة من نعمه الكبيرة، ولذلك ورد ذكرها في آيات كثيرة، من ذلك قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[٣].

ويلحظ أنّ التّعبير القرآني قد آثر الفعل (جعل) في الآيات التي تذكر فيها نعمة التّسخير، والجعل هو الوضع والتّمكين والتّهيئة، فيحمل في كلّ مقام على ما يناسبه، وفائدة الامتنان تقريب نفوسهم من التوحيد[٤]، وهي الغاية من ذكر النّعم وتعدادها. واللام في (لكم) للتعليل، والمعنى لأجلكم، وهو امتنان مجمل يشمل بالتأمل أنّ كلّ ما في الإنعام من منافع لهم. ودلالة تقديم (لكم) للاختصاص في سياق الامتنان، ولقصد الاهتمام بالمنعم عليه.

ولمّا جاء الخبر على سبيل الإجمال، أعقبه التّفصيل بذكر الأهم من منافع الأنعام وذلك في قوله: (لتركبوا منها ومنها تأكلون)، أي لتركبوا منها بعضا ومنها بعضها تأكلون فحذف استغناء بدلالة الكلام على ما حذف[٥]. فـ (منها) الأولى للتبعيض، لأنّ المذكور ليس كلّ الأنعام بل الإبل خاصة، و(منها) الثّانية لبيان الجنس لأنّ الجميع منها يؤكل[٦].

ويلحظ في نظم الآية تغير أسلوب التّعليل دفعا لتكرار حرف التّعليل وتنشيطا

(١) =: الجرس والإيقاع في التعبير القرآني: ٣٥٣.
(٢) =: التّعبير الفني في القرآن: ٢٠٣.
(٣) سورة غافر: الآيتان ٧٩ - ٨٠.
(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢١٤/٢٤.
(٥) =: الجامع لأحكام القرآن: ٥٧/٢٤.
(٦) =: المحرر الوجيز: ٧١/١٣.

للسّامع، فضلاً عمّا فيه من التّفنن في الكلام(١). وجاء اختلاف النّظم متسقا مع المعاني التي قصد التّعبير عنها، إذ إن المنفعة المشهورة للأنعام هي الرّكوب وبلوغ الحوائج عليها بوساطة الأسفار، ولذلك ذكرهما هنا مقرونين باللام الدّالة على التّعليل والغرض، إمّا الأكل وبقية المنافع فهي وإنْ كانت حاصلة منها فغير خاصة بها خصوص الرّكوب والحمل، فلذلك جرد هذه المنافع بالإخبار عن وجودها فيها غير مقرونة بما يدل على أنّها المقصود(٢).

وبعد أنْ خصص بعض ما في الأنعام من فوائد للرّكوب والأكل، ذكر المنافع بعدها على سبيل التّعميم بعد ذلك التّخصيص، ولمّا كانت هذه المنافع ليست منحصرة في أجزاء الأنعام جيء في متعلقها بحرف (في) دون (مِن) لأنّ (في) للظرفية المجازية بقرينة السّياق فتشمل كلّ ما يعد كالشيء المحوي في الأنعام من نِعم الله وفضله(٣).

أمّا تقديم (المجرورات) جميعاً، فلرعاية الفاصلة مع الاهتمام بما هو المقصود في السّياق، وقدم الرّكوب على الأكل لأنّ أكل لحوم الأنعام يأتي بالدّرجة الثّانية، وما دامت الآية تتحدث عن الإبل قدّم الجار والمجرور في (منها تأكلون) وهذا يوحي بأنّها نعمة من الله على عباده(٤).

والجمع بين السّفر بالإبل والسّفر بالفلك جمع لطيف، فالإبل سفائن البر، وقد قال: (وعلى الفلك) ولم يقل (وفي الفلك) للمزاوجة والمشاكلة مع (عليها) وأعيد حرف (على) في الفلك لأنّها هي المقصودة بالذّكر، وكان ذكر (عليها) كالتّوطئة لها(٥).

أمّا الحاجات التي في الصّدور والتي كانوا يبلغونها على الأنعام هي حاجات كبيرة في ذلك الزّمان، وهكذا كانت غاية الخبر التّذكير بالنّعم، والتّسخير هنا خصّ أهم ما في حياة المخاطبين وبإيجاز بديع، فإذا كان ظاهر النّظم يدل على نعمة الرّكوب والتّنقل على الأنعام وعلى الفلك، وكذلك على نعمة الأكل من الأنعام، فإنّه ضمّ ما في الأنعام من نعم أخرى في قوله (فيها منافع). وهكذا تساق هذه الآيات بما فيها من نعمة

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢١٥/٢٤.

(٢) =: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، ابن المنير الاسكندري: ١٨١/٤.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢١٦/٢٤.

(٤) =: الإعجاز الفني في القرآن: ١١٩.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٢١٧/٢٤.

التّسخير التي يحسونها في حياتهم اليومية لعلهم يرجعون عن إنكارهم لآيات الله ونعمه إلى الاعتراف والشّكر والطّاعة.

❖❖❖❖❖

بعد تسخير اللّيل لتسكن الخلائق فيه، وتسخير النّهار ليبصروا فيه ويطلبوا الرّزق، وتسخير الأنعام ليركبوا منها ويأكلون، وعليها وعلى الفلك يحملون، تأتي النّعمة الأخرى وفيها سرّ الحياة وديمومتها للخلائق، وهي تسخير الماء ليحيي الأرض والنّبات والحيوان والإنسان، يقول الله (ﷻ): ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾[1].

ففي الآية تذكير بجانب من فضل الله على العباد في كلّ زمان ومكان، فإذا أمسك الله عنهم الغيث أدركهم اليأس والقنوط، وهي صورة محسوسة على مدى الدّهر، وفيها دليل آخر من دلائل القدرة الإلهية ولا سيّما أنّ في السّامعين مشركين يظنون نزول الغيث من تصرف الكواكب، وفيهم المسلمون الغافلون، نزلوا منزلة مَن يظن نزول الغيث منوطا بالأسباب المعتادة لنزوله[2]، ولذلك بدأت الآية بصيغة قصر القلب وهي «تخصيص شيء بشيء آخر معين قصدا لردّ خطأ المخاطب في حكمه بعكس ما حكم به»[3].

وقد آثر التّعبير القرآني صيغة المضارع (ينزل) لإفادة التّكرار والتّجديد[4]، ويؤثر التّعبير القرآني لفظة (الغيث) لتؤدي معنى الرّحمة والخير والنّعمة، وتوحي بمعنى الغوث أي النّصرة، «فالغوث يقال في النّصرة، والغيث يقال في المطر، واستغثته طلبت الغوث أو الغيث - فأغاثني من الغوث، وغاثني من الغيث -»[5]. ويبدو أنّ الوشيجة بين الغيث والإغاثة التي هي النّجدة والعون وطيدة، ولذلك فإنّ ذكره في موطن النّعمة مناسب تماما[6]، فضلاً عن أنّ لفظ (الغيث) يلقي ظلّ الغوث والنّجدة، وتلبية المضطر

---

(١) سورة الشّورى: الآية ٢٨.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٩٥/٢٥.

(٣) أسرار التقديم والتأخير: ٣٩.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٩٥/٢٥، وبلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٦٣.

(٥) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ٣٦٨.

(٦) المشاهد في القرآن الكريم، حامد صادق قنيبي: ٣٩٢. وظاهرة الترادف في ضوء التفسير البياني: ١٩٥.

في الضّيق والكربة، ولا سيّما في هذا السّياق الذي يعرض ما هُم عليه من اليأس والقنوط، وتتجلى في إيثار لفظ (الغيث) دقة اختيار التّعبير القرآني للكلمة فهي خفيفة على السّمع، سهلة في النّطق، عذبة على الأسلات، تدلّ على المعنى المراد بيسر وسهولة، وهو حين يستعملها يقصد معنى فيها لا يوجد في سواها[١]. وللكلمة القرآنية في هذه الظّاهرة دور كبير في المعنى البلاغي يتمثل في أمرين: الوفاء بالمعنى والإمتاع بالجمال.

ولم يستخدم التّعبير القرآني (المطر) في سياق النّعمة، وهذا من مظاهر الدّقة في الأسلوب القرآني، حيث لم يأت ذكر المطر إلاّ في مواطن العذاب، وفي ذلك يقول الجاحظ: «وكذلك ذكر المطر، لأنّك لا تجد القرآن يلفظ به إلاّ في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث»[٢]، وإيثار لفظ (الغيث) على (المطر) فيه دلالة أخرى، فالغيث ما كان نافعا في وقته، أمّا المطر فقد يكون نافعا وضارا في وقته وغير وقته[٣]. ويتناسب ذكر (الغيث) مع (الرّحمة) لأنّ الخلائق تريد رحمته التي تتجلى في الماء الخفيف الكافي لديمومة الحياة ولذلك لم يذكر المطر الذي يغرق أو يؤذي حياتها[٤]، وفي ذلك تناسب مع الآية السابقة لها وهي قوله تعالى ﴿ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾[٥]، وتناسب مع الآية الأخرى في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾[٦].

ولم يترك التّعبير القرآني ذكر هذه النّعمة مطلقا، وإنّما آثر تقييده بقوله (مِن بعد ما قنطوا) وهو ما يناسب إيثار لفظ (الغيث) مع أنّ نزوله متحقق بلا قنوط أيضاً، وسرّ ذكر هذا القيد هو التّذكير بكمال النّعمة فهي حاصلة بقنوط أو بلا قنوط، وذكر القيد يناسب حال المخاطبين من المشركين لكي يعلموا أنّ الله وحده هو القادر على إغاثتهم بعد ما أصابهم من القنوط، فالصّورة القرآنية تعرض حال هؤلاء وقد أصابهم

---

(١) =: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن: ٧٨.

(٢) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ١/١٢.

(٣) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٢٩.

(٤) =: جماليات المفردة القرآنية: ٤٥.

(٥) سورة الشّورى: من الآية ٢٧.

(٦) سورة الزّخرف: من الآية ١١.

اليأس والقنوط وهم على إشراكهم فلا يغاثون من تلك الآلهة، فيقفون عاجزين أمام هذا البلاء، وإذا بالمنعم القادر ينزل عليهم ما يغيثهم ويمنحهم سرّ الحياة، ليستيقنوا أنّ الله هو الإله الحق وأنّ آلهتهم لا تضرّ ولا تنفع وهي لا تقدر على أنْ تغيث نفسها فكيف تغيث عابديها. وهكذا كان لهذه الصّورة القرآنية هدف يتمثل بتأثيرها في الوجدان والعواطف باعتبار أنّه نابع من جمال الصّورة ودقتها وإيحاءاتها وملاءمتها لمقتضى الحال، وكذلك من بيانها الذي لا تملك النّفس تجاهه سوى الإعجاب والانبهار، وتستكمل أثرها الجمالي فتتغلغل في مسارب الفكر والوجدان وتضفي عليهما لذة فنية رائعة[١].

ويستكمل هذا النّظم السّلس الهادئ بألفاظه ليرسم الصّورة القرآنية وهي تعرض إحياء الإنسان والحيوان والنّبات والأرض بنعمة الغيث، وهو الرّحمة الإلهية للخلائق، ولذلك قال: (وينشر رحمته) والنّشر هنا مستعار للتوسيع والامتداد[٢]، وهو ملائم لهذا السّياق إذ إن منافع الغيث كثيرة، فهي تنتشر على الخلائق من جماد ونبات وحيوان وإنسان، وقد فسرت الرّحمة بأنّها المطر، أو أنّها الشّمس بعد المطر[٣]، إلاّ أنّها رحمة عامة للخلائق، كلّ يصيبه منها قدر منفعته، كما أنّ قوله: (ينشر رحمته) فيه دلالة أخرى وهي أنّ هذه الرّحمة تنتشر على ما كان داخلا في القيد بقوله: (من بعد ما قنطوا) وعلى مَن لم يكن كذلك ولا سيّما المؤمنين، فضلاً عن دلالة (ينشر) على العموم، ولذلك آثر التّعبير القرآني هنا عطف العام على الخاص، فالغيث خاص والرّحمة عام[٤]، والتّعبير عن آثار الغيث بـ (ينشر رحمته) يوحي بظلال النداوة والخضرة والرّجاء والفرح، فتبتهج النّفس بتفتح النّبات في الأرض وارتقاب الثمار، فمشهد الغيث بعد الجفاف له أثر نفسي كبير، فهو مشهد يريح الحسّ والأعصاب، وينّدي القلب والمشاعر، وينفض هموم القلب وتعب النّفس[٥].

وفي الآية ما يسمى بـ (صحة التّفسير)، وهو «أنْ يأتي المتكلم في أول كلمة

---

(١) =: الظّاهرة الجمالية في القرآن: ١٢٣.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٩٦.

(٣) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٢٩.

(٤) =: صفوة التفاسير: ٣/١٤٨.

(٥) =: في ظلال القرآن: ٥/٣١٥٧.

بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه وهو إمّا أنْ يكون مجملا يحتاج إلى تفصيل، أو موجها يفتقر إلى توجيه، وقد جاءت صحة التّفسير في الآية مؤذنة بمجيء الرّجاء بعد اليأس، والفرج بعد الشّدة، والمسرة بعد الحزن»[١].

وتختم الآية بما يناسب سياق النّعمة والرّحمة، فيأتي قول: (وهو الولي الحميد) ليتناسب مع الإغاثة لأنّ الولي يحسن إلى مواليه، والحميد يعطي ما يحمد عليه[٢]، فهو الولي لعباده بالرّحمة والمغفرة، وقوله (الحميد) يحتمل أنْ يكون بمعنى حامد لعباده المطيعين أو بمعنى محمود في السّراء والضراء، وقد ذهب البعض[٣] إلى أنّ في هذا التّعبير محسن التّورية حيث تكون كلمة (الولي) من أسماء المطر وهو مطر الرّبيع، و(الحميد) أي المحمود، وعلى هذا فالضمير عائد على الغيث. إلاّ أنّ القول بالتّورية لا يتناسب مع القرآن الكريم فهو منزه عن مثل ذلك.

وهكذا يسخر الله تعالى الماء لعباده ليحيي الأرض ونباتها فيحيا بذلك الإنسان والحيوان وتتشكل العيون والينابيع والأنهار مسخرة بقدرته تعالى للإنسان، وفي ذلك فضل كبير ونعمة عظيمة تستحق الشّكر لله.

❖❖❖❖❖

وفي سياق تعداد النّعم الإلهية في سورة الشّورى يأتي ذكر نعمة أخرى سخرها الله للإنسان فضلاً منه ورحمة، ودليلا آخر من دلائل قدرته تعالى، فقال (ﷻ): ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾[٤].

ففي هذه الآية تسخير السّفن وتسخير البحر وتسخير الرّياح، وهي آيات من آيات الله ودلائل قدرته، ومشهد وصف هذه النّعم يتسم بالحركة، فيعدل التّعبير القرآني عن (الفلك) التي ذكرت في آيات سابقة إلى لفظ (الجواري)، وفي ذلك إيماء إلى محل

---

(١) الجدول في إعراب القرآن: ٤٢/٢٥.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٩٦/٢٥.

(٣) عبد القادر حسين في كتابه (فن البديع)، ص٦٨، وفتحي أحمد عامر في كتابه (المعاني الثانية في الأسلوب القرآني)، ص٣٣٤.

(٤) سورة الشّورى: الآيات ٣٢ - ٣٤.

العبرة، لأنّ العبرة في تسخير البحر لجريها وتفكير الإنسان في صنعها[١]، وسمّيت كذلك لأنّها تجري في الماء[٢]، ويوحي استخدام حرف الظرفية (في) بعظمة هذا الفعل وقدرته تعالى في هذا التّسخير ولا سيّما أنّه جاء مع وصفها بالجري في حين استخدم (على) في وصفها بالرّكود، فناسب كلّ حرف موضعه من النّظم، ويستكمل عرض هذه النّعمة بالصّورة التّشبيهية في قوله (كالأعلام) وهي الجبال، وهو تشبيه مرسل مجمل (وهو الذي تذكر فيه الأداة ولا يذكر وجه الشّبه). وقد أوثرت كلمة (الأعلام) في هذا الموضع، مع أنّ القرآن ذكر الجبال وشبه الموج بها في قوله تعالى ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾[٣]، وسرّ هذا الإيثار هو أنّ الكلمة المشتركة بين عدّة معان، تتداعى معه هذه المعاني عند ذكر هذه الكلمة، ولمّا كان من معاني العلم (الرّاية) التي تستخدم للزينة والتّجميل كان ذكر الإعلام محضرا إلى النّفس هذا المعنى إلى جانب إحضارها صورة الجبل، وكأنّ إثارة هذا الخاطر ملحوظا عند ذكر السّفن الجارية فوق البحر، تزين سطحه، فكأنّه أريد الإشارة إلى جلالها وجمالها معا، وفي كلمة الأعلام بتأدية هذا المعنى أدقّ وفاء[٤]. وتتجلى في هذه الصّورة إحدى خصائص التّشبيهات القرآنية وهي أنّه يتخذ الطّبيعة ميدانا يقتبس منها صور تشبيهاته، كما تتجلى فيه دقة اختيار الألفاظ المصورة الموحية[٥]. وفي هذه الصّورة التّشبيهية إطلاق للزمان والمكان، فلا تتقيد ببيئة معينة ولا تنحصر في عصر دون آخر فضلاً عن اتساقها مع الغرض الذي سيقت من أجله[٦]، وهو ذكر النّعم الإلهية ودلائل القدرة حثا للمخاطبين على الشّكر والطّاعة. وهكذا نجد أنّ التّشبيه في القرآن وسيلة لإيضاح طريق الهداية والإرشاد بإثارة المقارنة والحثّ على التّأمل لتقوم النّفوس الطّيعة النّقية بوعدها بالثواب، والعنيدة العصية بوعيدها بالعذاب والعقاب[٧].

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/١٠٥.

(٢) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٣٢.

(٣) سورة هود: من الآية ٤٢.

(٤) =: من بلاغة القرآن: ٢٠١، ومناهج وآراء في لغة القرآن: ٨٨، والظاهرة الجمالية في القرآن: ١٢٢ - ١٢٣.

(٥) =: من بلاغة القرآن: ١٩٧ و٢٠٠.

(٦) =: البلاغة فنونها وأفنانها: ٨٧ - ٨٨.

(٧) =: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة الأطرقجي: ١١ - ١٢.

وغالبا ما يعتمد القرآن الكريم في دعوته للبشرية إلى التّوحيد أسلوب التّصوير، ولا ريب في أنّ هناك فرقا بين أنْ تفيض الكلمات بالمعاني والمقاصد، وأنْ تفيض بها الأحداث والصّور، فالمعاني التي تفيض بها الأحداث والصّور أغزر وأبين وأمكن[١]. ولهذه التّشبيهات أثرها النّفسي الذي يحقق ما يهدف إليه التّعبير القرآني لأنّها جاءت في صورة تقع دلالتها في القلوب في سرعة وقوة، «فتشبيه السّفن بالجبال يبرز القوة المسيطرة والتي أودعت في الوجود أسراره وقوانينه، فغدا الماء وهو مثل في الليونة والسّيولة يحمل سفنا ضخمة كأنّها جبال»[٢].

ومثلما امتلأ المشهد السّابق بالحركة، يمتلئ المشهد الآخر بالسّكون في قوله ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾ بهذا الاتساق بين (يسكن) و(رواكد) للإيحاء بنعمة تسخير الرّياح وبيان قدرته على هذه النّعم، مع إيثار لفظ (الرّيح) والعدول عن (الرّياح) وهذه ظاهرة قرآنية أخرى «فحيث ذكرت الرّيح في سياق الرّحمة جاءت مجموعة، وحيث ذكرت في سياق العذاب أتت مفردة»[٣] إلاّ في سورة يونس، الآية الثّانية والعشرون، والسّياق هنا سياق ذكر النّعم الإلهية، ولكنّه مشوب بالتّهديد والوعيد بالعذاب بدليل قوله (بما كسبوا) وقوله ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[٤]، ولذلك أوثرت الرّيح على الرّياح.

ثمّ يأتي قوله: (فيظللن رواكد) بهذه الفاء التي توحي مباشرة الرّكود بعد سكون الرّيح لأنّها تفيد التّرتيب والتّعقيب بلا مهلة[٥]، والفعل المضارع (يظللن) لإفادة استمرار الرّكود باستمرار سكون الرّيح دليلا على قدرته وامتنانا بنعمته. فتركد هذه الجواري كما لو كانت قد فارقتها الحياة، ويناسب هذا السّكون قوله: (على ظهره) أي سطح مائه البادي للناظر، وهو استعارة شاعت حتى قاربت الحقيقة لأنّ الظهر هو الصّلب للإنسان والحيوان[٦]، وفي ذلك إيحاء بنعمة تسخير البحر لحمل هذه السّفن

---

(١) =: التصوير البياني، محمد أبو موسى: ٧.

(٢) م. ن: ١٥٥.

(٣) بدائع الفوائد: ١/١١٨، وابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن: ١٤٢.

(٤) سورة الشورى: الآية ٣٥.

(٥) =: الجنى الداني: ١٢١.

(٦) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/١٠٦.

الثّقيلة على ظهره. ثمّ تختم الآية بالغرض الذي سيقت من أجله بقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ مؤكدة بـ (أنّ) و(اللام) للإيحاء بأنّ هذه الآيات العظيمة الدّالة على قدرته تدعو إلى الخوف من عظمة الخالق وقدرته، والخوف يدعو إلى الصّبر، كما تدعو إلى أنْ يسارع الإنسان إلى النّجاة بشكر المنعم على هذه النّعم، وصيغة (فعال) تدل على الاستمرار والتّكرار وكأنّ الصّبر صار حرفة له وصناعة[١]، وتدلّ صيغة (فعول) على الدّوام والكثرة والمبالغة في الشّكر[٢]، واقتران الصّبر بالشّكر هنا يتناسب مع ذكر إجرائهن وركودهن، فهو صبر على الابتلاء، وشكر على النّعماء، وهما قوام النّفس المؤمنة في الضّراء والسّراء[٣].

ويعمد التّعبير إلى الإيجاز في الآية الأخرى، لتبدأ مباشرة بعرض حال السّفن عند العواصف، أي (وإنْ يشأ يجعل الرّياح عواصف فيوبقن السّفن) أي يغرقهن بذنوب أهلها[٤]، فالإيباق مستعار للإغراق لأنّ الإغراق إتلاف، وإيقاعه عليهنّ مع أنّه حال أهلهن للمبالغة والتّهويل[٥]، ولا يعرف من هذا الفعل في اللغة المعاصرة إلاّ الوصف وهو (الموبقات) وهي الإعمال الشّائنة[٦]، وكأنّ هذا الفعل جمع بدلالته على الإهلاك دلالة أخرى هي سبب هذا الهلاك وهو الأعمال الشّائنة، فكان بهذا الإيحاء توطئة لبيان سبب الإهلاك الظّاهر بقوله: (بما كسبوا).

وزيادة في الفضل والنّعم يقول (ﷻ): (ويعف عن كثير) من أهلها فلا يغرقهم معها أو يتجاوز عن كثير من الذّنوب فينجيهم من الهلاك[٧]، فلا يؤاخذ النّاس بكلّ ما صدر منهم من آثام بل يعفو ويتجاوز عن كثير.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ومِن الآيات التي تذكر نعمة التّسخير قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ

---

(١) =: معاني الأبنية في العربية: ١١٠.
(٢) =: م. ن: ١١٤ - ١١٥.
(٣) =: في ظلال القرآن: ٣١٥٩/٥.
(٤) =: الجامع لأحكام القرآن: ٣٣/١٦.
(٥) =: تفسير روح البيان: ٣٢٤/٨.
(٦) =: من بديع لغة التنزيل: ٢٧٧.
(٧) =: الجامع لأحكام القرآن: ٣٣/١٦.

﴿مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝﴾[١]. وقد وصفت الأرض في نعمة الخلق والإيجاد بأنّها قرار، وتوصف هنا بأنّها مهد، ويتناسب هذا الوصف مع التّسخير، فقد سخرها الله للإنسان بأنْ جعلها ممهدة للسير، والزّرع، والحياة.

وقد ابتدأت الآية بالاسم الموصول الذي حذف مبتدؤه والتّقدير (هو الذي جعل لكم) حيث تقدم الحديث عن الله تعالى قبل هذه الجملة، وتصدر الاسم الموصول لهذه الجملة لتخصيص انفراده بإسداء النّعم، وفيه إيحاء باستدعاء العباد وتحفيزهم[٢] على شكر نعمه. والتّعريف بالموصول يشير إلى معروف لدى المخاطب. وتقديم (لكم) للاختصاص، ولا سيّما في سياق الامتنان بهذه النّعمة التي وصفت الأرض فيها بالمهد على طريقة التّشبيه البليغ بحذف الأداة ووجه الشّبه، فهي كالمهد والفراش[٣]، وفي هذا الوصف إيحاء بقدرته تعالى، فالمهد ما يمهد ويوطأ ويسهل لما يحل فيه، وقد سخرها الله بهذا الانبساط لنفع البشر، ثمّ كرر الفعل (جعل) «لأنّ التّكرار من أقوى طرق الإقناع، وخير وسائل تركيز الرّأي والعقيدة في النّفس البشرية على هينة وفي هوادة دون استثارة لمخالفيها بالجدل أو المشادة في نظم البرهان والتّعرض البادي للاستدلال»[٤]، وهكذا تكرار الخطاب في (لكم) لتذكيرهم بما غمرهم الله من فضله وعمهم به من إحسانه، وهذا الأسلوب فيه تنبيه إلى أنّه ما كان ينبغي لِمَن كرمهم الله كلّ هذا التّكريم أنْ يلوثوا أنفسهم بالمعاصي، وهو أسلوب غاية في البيان وإلزام الحجة والبرهان وإثارة المشاعر والعواطف، إذ يشعر الإنسان المخاطب به بكرامته وعلوّ نفسه وكبر منزلته، لأنّ مَن يخاطبه هو ربّ العزة الخالق، ويعلم الإنسان عند ذلك أنّ عصيانه لخالقه ومكرمه وربّ نعمته هو امتهان للنّفس ونزول عن المكان اللائق بها وتعريضها لما يوردها موارد الهلاك العاجل والآجل[٥].

ومِن الإيثار أيضاً أنّه عمد إلى الفعل (جعل) في قوله: (وجعل لكم فيها سبلا)

---

(١) سورة الزّخرف: الآية ١٠.

(٢) =: البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، هنريش بليث، ترجمة: د. محمد العمري: ٢٧.

(٣) =: صفوة التفاسير: ٣/١٦٨.

(٤) البلاغة عرض وتوجيه وتفسير، محمد بركات حمدي أبو علي: ١٥٢ - ١٥٣.

(٥) =: خطاب الأنبياء في القرآن الكريم: ٢٦.

وقد قال: في موضع آخر ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾(١) فآثر في سورة الزّخرف الفعل (جعل) لأنّ هذا الفعل ورد فيها أكثر ممّا ورد في سورة طه فقد ورد في الزّخرف اثنتي عشرة مرّة وورد في سورة طه ثلاث مرّات(٢)، فاختار الجعل في الزّخرف والسّلوك في سورة طه(٣). فضلاً عن أنّ الفعل (جعل) يأتي - في الغالب - لما يتكرر ويتبدل(٤)، وهذه من صفة السّبل والأرض الممهدة إذ تتغير بفعل الإنسان.

والسّبل: جمع سبيل، وهو الطريق، ويطلق السّبيل على وسيلة الشّيء، كقوله تعالى ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾(٥)، ويصح إرادة المعنيين هنا، لأنّ الله جعل فيها سبلا وجعل بعضها جبالا لحكمة أخرى، كما أنّه جعل للناس معرفة السّير في الأرض واتباع بعضهم آثار بعض فيعلم السّائر أي تلك السّبل يوصله إلى مقصده(٦). وفي جعل الأرض ذات سبل تضمين لنعم كثيرة، حيث يسهل التّجمع والتّعارف والتّنقل واجتلاب المنافع والاستعانة على دفع الغوائل والأضرار.

ويتناسب تفسير (السّبل) بوسائل العيش مع واقع حياة الناس إذ تختلف وسائل عيش بعضهم عن بعض وتتنوع، ولا سيّما بعد أنْ جاءت الاستعارة التمثيلية التبعية في قوله: (لعلكم تهتدون) لترشيح المعنى، أي: تهتدون إلى وسيلة من وسائل العيش تعينكم على الحياة، كما تتناسب أيضاً مع المعنى الأول للسبر وهو الطرق، أي لتهتدون إلى ما تقصدونه من الأماكن، والمعنى الآخر هو الهداية، أي: كي يحصل علمكم بوحدانية الله وبما يجب له(٧)، فكل ما في الكون من نعم ونواميس متناسقة كفيل بهداية قلوبكم إلى خالق هذا الكون لتؤدون حقه من الشّكر والطّاعة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) سورة طه: من الآية ٥٣.

(٢) الآيات: ٢٩ و٥٣ و٥٨.

(٣) =: أسرار التكرار في القرآن: ١٣٩، والتعبير القرآني: ٢١٥.

(٤) =: أسرار التكرار في القرآن: ١٣٩.

(٥) سورة الشّورى: من الآية ٤٤.

(٦) =: التّحرير والتّنوير: ١٦٩/٢٥ - ١٧٠.

(٧) =: التّحرير والتّنوير: ١٧٠/٢٥.

وبنظم آخر يختلف عمّا جاء في سورة غافر[١]، تذكر نعمة تسخير الأنعام والفلك للإنسان، ليتنقل عليها برّا وبحرا. وإذا كان التّعبير القرآني في سورة غافر قد ذكر هذه النعمة، فإنّه في سورة الزّخرف يضيف إلى ذكرها ما يجب على الإنسان أنْ يقوله شاكرا المنعم على فضله ومتذكرا أنّ كلّ رحلة لا بدّ لها من عودة - بإذن الله ومشيئته - وما هذه الحياة الدّنيا إلاّ رحلة كذلك، يعود بعدها الإنسان إلى ربّه، فنجد كلّ ذلك في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[٢].

تبدأ الآية الأولى بقوله ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ وهي نعمة الخلق والإيجاد، ولا شكّ في أنّ المتبادر من ذكر الأزواج، الإنسان، ثمّ الإنعام، وأهمها عند المخاطبين، الرّواحل، ولذلك جاءت الآية على سبيل عطف الخاص على العام (الأنعام) على (الأزواج) وهي وسائل التّنقل برّا، وذكر معها وسائل التّنقل بحرا على سبيل الإدماج[٣]. وقد تقدم ذكر (الفلك) على (الأنعام) لأنّها ليست من الأزواج، فكان ذكرها ذكر نعمة أخرى، ولو ذكر الأنعام قبلها لكان ذكره عقب الأزواج إعادة[٤]، فالتّقديم للمغايرة، فضلاً عن أنّ «في الفلك أدلّ دليل على القدرة الباهرة والحكمة البالغة»[٥].

وقد أوثر قبل ذلك الفعل (جعل) وهو ما يتناسب مع تقديم الفلك لأنّها مصنوعة وليست مخلوقة، أمّا الأنعام فقد عرف أنّها مخلوقة في قوله ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ وفي ذلك زيادة فضل ونعمة، إذ خلق الله في الإنسان قوة التّفكير لصنع هذه الفلك واستخدامها.

ومن النّكت البديعة في الآية الكريمة، تغليب التّعدية المباشرة للفعل (تركبون)

(١) الآيتان: ٧٩ - ٨٠.

(٢) سورة الزّخرف: الآيات ١٢ - ١٤.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ١٧٢/٢٥.

(٤) =: م. ن: ١٧٣/٢٥.

(٥) تفسير روح البيان: ٣٥٥/٨.

على التّعدية بالواسطة، لظهور المراد لأنّ قوله: (من الفلك والأنعام) بيان لإبهام (ما) الموصولة، وكذلك التّغليب في لفظة (ظهوره) لأنّ الظّهر من علائق الأنعام لا من علائق الفلك، وتعديته بـ (على) بنيت على أنّ للسفينة ظهرا[1]. وفي تقديم (لكم) مزيد امتنان بتخصيص هذه النّعمة للمخاطبين وبيان لقدرته تعالى فيها، فلولا تسخيره لهذه النّعمة لما كنتم لها مقرنين. والحرف (مِن) للتبعيض[2].

وقد آثر التّعبير القرآني أسلوب الخطاب في نظم الآية لأنّ الأسلوب الخطابي هو خير أسلوب يتحقق به البيان القرآني ولا سيّما إذا كان الغرض من التّعبير يتحقق بإثارة المشاعر، وتهيج العواطف[3]، فضلاً عن أنّ الخطاب يضع في اعتباره الواقع والسّياق وحالة المخاطب، «ويؤسس الفعل بصورة مباشرة ويحدد أثره، ولذلك فهو يعبر المسميات والصفات ما أمكن مفجرا كوامنها السّاكنة في دلالات الأفعال، كأنّه يشق قناة التّوصيل السّمعية إلى بقية الحواس ليملأ المشهد الحركي بمضمونه»[4].

وقد جاء قوله (لتستووا على ظهوره) توطئة وتمهيدا للإشارة إلى ذكر نعمة الله في قوله: (ثمّ تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) أي: حينئذ، فإنّ ذكر النّعمة في حال التّلبس بمنافعها أوقع في النّفس وادعى للشّكر عليها، واللام في (لتستووا) بمعنى كي. فالذكر هنا هو التّذكر بالفكر لا الذّكر باللسان بدليل قوله (وتقولوا) أي بألسنتكم، فيكون الشّكر بالنّفس (أي بالتّذكر) وباللسان، أي لتشكروا الله في نفوسكم وتعلنوا الشّكر بألسنتكم[5].

ويلحظ أنّ التّعبير القرآني وحد الهاء في (ظهوره) وجاء بها على التّذكير، فالتّذكير يعود على (ما تركبون) وما هو مذكر، وقد تذكر الأنعام وتؤنث، وقيل: أضيفت الظّهور إلى الواحد لأنّه في معنى الجمع فردت الظّهور إلى المعنى، وقيل: إنّ (لتستووا على ظهوره) وصف للفلك ولكنّه وحد الهاء لأنّ الفلك بتأويل جمع فجمع الظّهور

(١) =: التحرير والتنوير: ١٧٣/٢٥ - ١٧٤.
(٢) =: المحرر الوجيز: ٢٠٣/١٣.
(٣) =: البيان القصصي في القرآن الكريم، إبراهيم عوضين: ١٠.
(٤) النص القرآني من الجملة إلى العالم: ١٨.
(٥) =: التحرير والتنوير: ١٧٤/٢٥.

ووحد الهاء، لأنّ أفعال كلّ واحد تأويله الجمع توحد وتجمع[١].

وقد تضمن قوله (ثُمّ تذكروا نعمة ربِّكم) تعريض بالمشركين إذ تقلبوا في نعم الله وشكروا غيره، وذكر النّعمة كناية عن شكرها لأنّ شكر المنعم لازم للإنعام عرفا فلا يصرف عنه إلاّ نسيانه فإذاً ذكره شكر النّعمة.

وبعد أنْ ذكر النّاس بنعمة تسخير الفلك والأنعام، وجههم إلى الأدب الواجب في شكرها، عند التّنعم بها: ﴿ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾، فكان هذا الأمر الذي يوحي به قوله (وتقولوا) قاعدة إيمانية ثابتة في شكر هذه النّعمة، إذ يفتتح هذا الشّكر بالتّسبيح لأنّه جامع للثناء، فالتّسبيح تنزيه الله عمّا لا يليق، وإثبات الكمال له «واستحضار الجلالة بطريق الموصولية لما يؤذن به الموصول من علّة التّسبيح حتى يصير الحمد الذي أفاده التّسبيح شكرا لتعليله بأنّه في مقابلة التّسخير لنا»[٢]، وقد جمع ذكر نعمة تسخير الفلك والأنعام في قوله (سخّر لنا هذا) بإيجاز بديع، فتسخير الدّواب: خلقها قابلة للترويض، وتسخير الفلك يتضمن خلق البحر صالحا لحملها وسيرها، وخلق الرّياح لدفعها وخلق حيلة الإنسان لصنعها.

ويضمن شكر النّعمة اعتراف الإنسان بضعفه وقلة حيلته لولا فضل الله عليه، وذلك في قوله تعالى (وما كنّا له مقرنين) فالمقرن هو الغالب الضّابط المستولي على الأمر المطيق له[٣]. وينبئ هذا الاعتراف بما في النّفس البشرية من ضعف أمام قدرة الخالق (ﷻ)، فهو الذي سخّر لنا هذا في حال ضعفنا، ولولا التّسخير المذكور ما كنّا له مطيقين، وما نحن بقادرين على مقابلة نعمته إلاّ بالشّكر والطّاعة.

ويختم هذا الشّكر والثناء باعتراف آخر، وهو الإيمان بالبعث والحساب بعد الموت، وهذا إدماج لتلقينهم الإقرار بالبعث ليتذكروا أنّهم عائدون بعد الخلافة في الأرض إلى ربّهم ليجزيهم عمّا فعلوا في هذه الخلافة التي زودهم فيها بأنعمه وسخّر لهم فيها الكثير.

وقد جاء هذا الاعتراف مؤكدا بـ (إنّ)، وتقديم (إلى ربّنا) للاهتمام بمصير هذا

---

(١) =: جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٥/٣٣.

(٢) التّحرير والتّنوير: ٢٥/١٧٤.

(٣) =: المحرر الوجيز: ١٣/٢٠٤.

الانقلاب، وكذلك إيثار الصّيغة الاسمية (منقلبون) ليتناسب هذا التّأكيد مع التّعريض بالكافرين الذين تنعموا بهذه النّعم وعلموا طريقة شكرها ولم يفعلوا، ولا شكّ في أنّ «لطرق التّوكيد دورها في تقوية المعاني ورعاية الانسجام مع المواقف التي تقتضي ذلك من الأسلوب القرآني، وجاءت في صور شتى مستهدفة الإقناع والبيان»[١]. ولم يؤكد هذا الخبر في سورة الشّعراء في قوله تعالى ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾[٢] وذلك لأنّ معنى الآية في سورة الزّخرف: لتذكروا إنعام الله عليكم وتشكروه وتخالفوا الكفار بأنْ تقروا بما أنكروه، وهذا خطاب عام إلى انقضاء الدّهر، فالتّوكيد لمثله لازم، وفي الكلام الذي للتأبيد واجب، أمّا آية سورة الشعراء فهي خبر عن السّحرة لمّا آمنوا ووصفوا حالهم واستهانتهم بما خوِّفوا أنْ ينالهم من عقوبة فرعون، إذ كان منقلبهم إلى ربّهم، وكانوا مجازين على إيمانهم وصدقهم وصبرهم، فلم يحتج من التّوكيد إلى ما احتاج إليه ما هو على التّأبيد[٣]. ويقول الكرماني في سبب اختلاف الآيتين من حيثُ التّوكيد «إنّ ما في سورة الزّخرف عام لمن ركب سفينة أو دابة، وقيل: معناه: إلى ربّنا لمنقلبون على مركب آخر وهو الجنازة، فحسن إدخال اللام على الخبر للعموم، وما في الشّعراء كلام السّحرة حين آمنوا ولم يكن فيه عموم»[٤].

وهكذا يكون الأدب الإسلامي وثيق الصّلة بتربية القلب وإحياء المشاعر، فليس ذكر هذه الآية مجرد عبارات يتلوها اللسان عند السّفر، وإنّما هو استحياء للمشاعر لتحس بعظمة الله وصلة العباد به وتشعر بنعمته في كلّ حين، ولا تملك أنْ تقابل إحسانه وفضله إلاّ بالشّكر والطاعة وإخلاص العبادة له تعالى، ثمّ لتبقى القلوب وجِلة من لقائه يوم الحساب، يقظة لا تغفل عن مراقبة الله، ولا يصيبها النّسيان.

❖❖❖❖❖

ذكرت نعمة تسخير البحر ضمنا في الآيات السّابقة وتذكر في سورة الجاثية بشكل صريح، ويزاد ذكرها بذكر ما في البحر من فضل الله من نعم أخرى، وذلك في

(١) أساليب التّوكيد في القرآن الكريم: ١٥.

(٢) سورة الشّعراء: من الآية ٥٠.

(٣) =: درة التنزيل وغرة التأويل: ٤٣٢.

(٤) أسرار التّكرار في القرآن: ١٩٢، و=: بصائر ذوي التمييز: ٤٢٣/١.

قوله تعالى ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣ ﴾(١).

فقد تضمنت الآية الثّانية ذكر نعمة التّسخير بشكل عام، وهو ما يناسب خاتمة هذا المبحث، وجاء ختام الآية بالتفكر، وكأنّه حَثّ على التّفكير بكلّ ما ذكره الله من نعم مسخرة في الآيات السّابقة.

تبتدئ الآيات بلفظ الجلالة وإسناد الموصول إليه على سبيل تعريف الجزءين لإفادة حصر التّسخير المذكور بقدرته تعالى، وهو قصر قلب مشوب بالتّعريض بالمشركين إذ يحسبون أنّ تسخير البحر وتسخير ما في السّموات والأرض إنعام من شركائهم فجاء هذا القصر إبطالا لهذا الزّعم الذي اقتضاه هذا التّنزيل(٢).

وفي قوله (لكم) إجمال تفصيله قوله (لتجري الفلك فيه)، وتعريف (الفلك) تعريف الجنس، وإيثار الفعل (تجري) مناسب لوصف الفلك في آية سورة الشّورى بالجواري، مع ذكر حرف الظرفية (فيه) لبيان القدرة العظيمة في تسخير هذه النّعمة، واستغنى عن الحرف (في) في قوله تعالى ﴿ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ (٣) لأنّ في سورة الرّوم لم يتقدم ذكر البحر بل ذكر الرّياح، وفي سورة الجاثية تقدم ذكر البحر في قوله ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ فكنى عنه بـ (فيه)(٤). أمّا قوله (بأمره) فقد «أناب القدرة والإذن مناب أنْ يأمر البحر والنّاس بذلك»(٥).

وإذا كان تسخير البحر نعمة عظيمة، ففي البحر من النّعم ما لا يعد ولا يحصى، ولذلك قال: (ولتبتغوا من فضله) بالتّجارة عن طريق هذه الفلك وجريانها في البحر أو التّنقل عليها للحج والجهاد أو غير ذلك من ابتغاء الفضل بالتّصيد واستخراج

(١) سورة الجاثية: الآيتان: ١٢ - ١٣.
(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٣٣٦/٢٥.
(٣) سورة الروم: من الآية ٤٦.
(٤) =: أسرار التكرار في القرآن الكريم: ١٦٩.
(٥) المحرر الوجيز: ٣٠٢/١٣.

ما في البحر من منافع وهو ابتغاء فضل أيضاً[١].

وختم الآية بقوله (لعلكم تشكرون)، وفي ذلك حثّ للعباد على شكر نعم الله (ﷻ)، وفيه تعريض بالكافرين، والمعنى لعلكم تشكرون فكفرتم. وتأتي الآية الأخرى على سبيل التّعميم بعد التّخصيص للاهتمام أوّلا ثُمّ التّعميم ثانيا، فلقد سخّر الله للإنسان الكثير ممّا في السّموات وما في الأرض، وإعادة قوله (سخّر لكم) إطناب بتكرار اللفظ لإظهار الامتنان[٢]، وهو ما يناسب سياق ذكر النّعم الإلهية وهذا التّسخير عام يشمل الشّمس والمطر، والكواكب والشّجر وغير ذلك ممّا يفيد النّاس، وأكّد الخبر بقوله (جميعا منه) لإنكار شركة غيره في ذلك، وفيه تعريض بالمشركين أيضاً.

وهذه النّعم التي ذكرتها الآيات وإنْ كانت مِننا يحق أنْ يشكرها النّاس فإنّها أيضاً دلائل إذا تفكر فيها المنعم عليهم اهتدوا بها، وأيقنوا أنّ الله متفرد بالألوهية، ولذلك خصّ المتفكرين بالذّكر، لأنّه لا ينتفع بهذه الآيات إلاّ مَن تفكر فيها، فإنّه ينتقل من التّفكير إلى الاستدلال بها على التّوحيد[٣]. وسيق الخبر مؤكدا أيضاً بـ (إنّ) واللام للتأكيد على أنّ كلّ هذه النّعم تستحق من الإنسان كلّ التّفكر، وإذا ما تفكر فإنه سيصل إلى أنّها آيات ودلائل تشير إلى قدرة الخالق الكريم المتفرد بالألوهية، ويثير هذا التّوكيد النّفس البشرية ويحثها على شكر المنعم بعد ظهور دلائل قدرته وعظيم نعمائه.

❖❖❖❖❖

## المبحث الثّالث

## نعمة الهداية

تأتي نعمة الهداية شاملة لكلّ آلاء الله وبديع صنعه في الخلق والإيجاد وفي التّسخير، فكل نعمه (ﷻ) دلائل وجوده وقدرته، وآيات الله ترى في كل شيء في هذا الكون، فهي المظاهر العظيمة التي تحيط بالنّاس ليعرفوا عظمة الخالق وقدرته، ويتفكروا فيما خلق، ثمّ ليهتدوا إلى ما شاء الله أنْ يهديهم إليه، وتكون الهداية نعمة من أجلِ النّعم، وهي نتيجة منبثقة من الإنعام على الإنسان بالآيات والإنعام عليه بالقدرة

---

(١) =: م. ن: ١٣/٣٠٢.

(٢) =: صفوة التفاسير: ٣/١٩٠.

(٣) =: فتح البيان في مقاصد القرآن: ١٢/٤٢٢.

على التّفكر فيها ليهتدي، وفي ذلك زيادة فضل بعد فضل ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[(١)].

يعرض التّعبير القرآني آيات كثيرة، تظهر نعمة الهداية، ويستشف منها إنعام الله وفضله، من ذلك قوله (ﷻ) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[(٢)].

تبدأ الآية بالتّناسب مع وصفي (العليّ الكبير) في الآية السّابقة لها، ويتناسب وصفا (العليِّ الكبير) مع قوله هنا (يريكم آياته وينزل لكم) وقد أفاد القصر بالضمير (هو) معنى التّخصيص، وأفاد التّعريف بالاسم الموصول معنى التّعظيم، والآيات هي دلائل وجوده ووحدانيته، وهو ما يناسب مقام الهداية، وقد أوثرت صيغة المضارع في (يريكم) و(ينزل) لتدل على إراءة متجددة وتنزيل متجدد، وقد جمع بين إظهار الآيات وإنزال الرّزق لأنّ بالآيات قوام الأديان وبالرّزق قوام الأبدان وفي هذا الجمع يحصل الإنعام[(٣)].

وتأتي هذه الآية تعريضا بالمشركين الذين خاطبهم في الآيات السّابقة لها وجعلهم كمن لا يعقل ولا يفقه لأنّهم لم ينتفعوا بالآيات، وجعلت إراءة الآيات وتنزيل الرّزق للمتلقين بأسلوب الخطاب مع تقديم (لكم) على خلاف مقتضى الظّاهر، لكمال الامتنان وللتشريف، إذ إنّ الله أراد إكرامهم ابتداء، وكأنّ انتفاع غيرهم بالرّزق انتفاع بالتبع لهم[(٤)].

ويأتي ذكر تنزيل الرّزق بعد اراءة الآيات على سبيل الخصوص بعد العموم لأنّه آية أيضاً، وإفراده بالذّكر من بين الآيات لعظم نفعه وتسبب حياة كلّ شيء عنه[(٥)]. وقد جاء هذا التّخصيص بأسلوب المجاز المرسل فقد أطلق الرّزق وأراد المطر، لأنّ الماء سبب في جميع الأرزاق، فهو من إطلاق المسبب وإرادة السّبب، فالعلاقة مسببية،

---

(١) سورة إبراهيم: من الآية ٣٤.

(٢) سورة غافر: الآية ١٣.

(٣) =: التفسير الكبير: ٤٢/٢٧.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٠٣/٢٤ - ١٠٤.

(٥) =: محاسن التأويل: ٥١٥٩/١٤.

والمعنى: مطر يسبب الرّزق[١]. وهكذا يقوم المجاز المرسل بعملية تصوير موحية، تنتقل بالذّهن إلى آفاق من المعرفة لا يحققها اللفظ على حقيقته[٢]، فتذهب النّفس إلى تدبر كلّ ما من شأنه أنْ يندرج تحت كلمة (الرّزق) ولا تتقيد مثلما يكون الحال لو قيل (المطر) أو (الماء)، ويدل (الرّزق) على تنوع ما يكون من الزّروع والثّمار واختلاف الطّعوم والرّوائح والأشكال مع أنّ الماء واحد[٣]، وفي ذلك دليل من دلائل القدرة في سياق نعمة الهداية، وتنكير لفظة (زرقا) يدل على التّكثير والتّعظيم والتّنوع ممّا يناسب مقام الامتنان، ولعل من هذا الرّزق تلك الرسالات المنزلة التي قادت البشرية وهدتها إلى مناهج الحياة الموصولة بالله[٤]، وإسناد تنزيل الرّزق من السّماء إليه تعالى مع إيثار أسلوب الخطاب فيه حثّ للعباد للمضي على طريقة الخير التي رسمها القرآن لهم، فمن أيقن أنّ الرّزق مصدره السّماء - بفضل الله وقدرته - لم تتبدد طاقاته في الإلحاح وراء المطامع وإنّما تتركز في العمل الصالح، ففي هذا تعميق للإيمان في قلب المسلم، وطرد لمشاعر الأثرة والأنانية من افقه، فضلا عمّا حققه المجاز المرسل من الإيجاز لأنّه يطوي السّبب ويكتفي بالمسبب، ويتضمن - مع ذلك - ناحية شكلية جمالية لا تخلو من متاع[٥]، تنبثق من هذا الخيال الذي وسع آفاق النّفس في التّدبر والتّأمل.

ويتواشج في خاتمة الآية - من الفنون البلاغية - التّذييل والقصر في قوله (وما يتذكر إلاّ مَن ينيب) أي مَن آمَن ونبذ الشّرك، وأوثر لفظ (الإنابة) لمناسبته هذا المقام، لأنّه من (النّوب) أي رجوع الشّيء مرة بعد أخرى، والإنابة إلى الله تعالى: الرجوع إليه بالتّوبة والخلاص العمل[٦]، فأصل الفعل يدل على تكرار الرّجوع فضلاً عن دلالة المضارع (ينيب) على التّجدد والاستمرار، وفي ذلك تناسب مع نعمة الهداية التي تحتاج من العبد تجدد التّذكر والإنابة، فالشّرك يصد أهله عن إعمال النّظر في الأدلة، ولذلك قصر التّذكر على الإنابة بصيغة المضارع للتجدد والتّكرار كما أنّه أفاد

(١) =: صفوة التفاسير: ١١٣/٣.

(٢) =: أصول البيان العربي: ٥٢.

(٣) =: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٧٢/٤.

(٤) =: في ظلال القرآن: ٣٠٧٢/٥.

(٥) =: التّصوير البياني، محمد أبو موسى: ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٦) =: المفردات في غريب القرآن: ٨٢٧.

التّوكيد، فهم قد رأوا الآيات وعرفوا قدر النّعمة وشكروها فكان بين التّذكر وبين الإنابة تلازم عادي ذيلت الآية به[١]، فقصر التّذكر على المنيبين إيحاء بنعمة أخرى هي أنّ الله قد هداهم للتذكر، وقد جعل من لا ينيب بمنزلة مَن لم يتذكر، لأنّ التّذكر هنا ما ينفع صاحبه، وفيه تشريف لهم وتكريم، وهو ما يناسب مقام الامتنان.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي آية أخرى تأتي نعمة الهداية بسوق دلائل القدرة، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[٢]، ففي الآية سوق دلائل نعمة الهداية على سبيل الإجمال بعد التّفصيل في الآيات السّابقة لها، وإنكار ضلال مَن لم يهتد بها، بطريقة الاستفهام الإنكاري المشوب بالتّوبيخ لهؤلاء.

وقد أوثر التّعبير عن دلائل القدرة والوحدانية في إراءة الآيات بصيغة المضارع (يريكم) للدلالة على التّجدد، فآيات الله متجددة ظاهرة في كلّ مكان وزمان، وفرع على ذلك الاستفهام الإنكاري، لأنّ ظهور الآيات ووضوح الدّلائل لا يبقي حجة لمنكر، والمعنى: إذا كنتم لا تنكرون أنّ هذه الأشياء من الله فلم تنكرون قدرته على البعث والنّشور[٣]. وإيثار (أي) مناسب لمقام الإنكار إذ لا شيء من آيات الله يمكن أنْ ينكر، فجميعها صالح للدلالة على وحدانيته وقدرته، ولا شكّ في أنّ الإنكار بالاستفهام أبلغ من النّهي الصّريح لما فيه من مزايا، وفي ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني «اعلم أنا وإنْ كنّا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإنّ الذي هو محض المعنى أنّه لتنبيه السّامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيا بالجواب، أمّا لأنّه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه فإذا ثبت على دعواه قيل له (فافعل) فيفضحه ذلك، وإمّا لأنّه همّ بأنْ يفعل ما لا يستصوب فعله فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ، وإمّا لأنّه جوز وجود أمر لا يوجد مثله فإذا ثبت على تجويزه وبخ على تعنته»[٤].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وإذا كانت الآيات السّابقة قد أشارت إلى مجمل آيات الله على سبيل التّعميم،

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٠٣/٢٤.

(٢) سورة غافر: الآية ٨١.

(٣) =: الجامع لأحكام القرآن: ٣٣٥/١٥.

(٤) دلائل الإعجاز: ١٤٥.

وذكرت نعمة إنزال الرّزق من السّماء على وجه الخصوص، فإنّ نعمة الهداية تظهر في آيات أخرى تذكر من آيات الله الكونية ما يدعو إلى التّوحيد وإخلاص العبادة له تعالى، ففيها دلائل قدرته العجيبة، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

وهنا يكتفي التّعبير القرآني بتوجيه القلب إلى هذه الآيات، وإيقاظه من غفلته عنها لينتفض - بعد جلائها - جديدا حيّا يقظا يتدبر هذا الكون ويهتدي بما فيه من دلائل القدرة إلى الخالق (ﷻ)، ويؤدي له حقه من العبادة.

وتتمثل الأوجه البلاغية في الآية الكريمة بالتّدلي والطّباق والحصر والتّقديم ومراعاة النّظير، فقد ابتدأت الآية ببعض الأحوال السّماوية وهي حال اللّيل والنّهار، وحال طلوع الشّمس وطلوع القمر، ثمّ جاء بعدها - في الآية الأخرى - بعض الأحوال الأرضية على سبيل التّدلي.

وابتدأ بذكر (اللّيل والنّهار) بأسلوب الطّباق الحقيقي وهو ما كان طرفاه بألفاظ الحقيقة[2]، وفي ذكرهما استدلال بالزّمان الكلي لإثبات الوحدانية وتنبيه على أنّ الدعوة إلى الله عبارة عن تقرير الدلائل على ذات الله وصفاته[3]، كما أنّ ذكرهما يتضمن ما فيهما من الطّول والقصر والتّداخل والاستواء وغير ذلك من العبر. ثمّ ذكر (الشّمس والقمر) لتكتمل المقابلة، لأنّ المشركين لم يعبدوا اللّيل والنّهار، ولكنّهم عبدوا الشّمس والقمر، فجاءت الآية ردا على إشراكهم، وللإيذان بكمال سقوط الشّمس والقمر عن رتبة السّجودية لهما، وذكر الشّمس والقمر يتضمن عجائبهما وحكمة الله تعالى فيهما ونفعه عباده بهما.

وقد تقدم ذكر (اللّيل) تنبيها على تقدمه مع كون الظلمة عدما، وناسب ذكر الشّمس بعد النّهار لأنّها آيته وسبب تنويره ولأنّها أصل لنور القمر[4]. وقد جاء هذا

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٧.

(٢) =: البديع في ضوء أساليب القرآن: ٢٥.

(٣) =: التفسير الكبير: ١٢٨/٢٧.

(٤) =: روح المعاني: ١٢٥/٢٤.

التّرتيب في النّظم على سبيل مراعاة النّظير.

ويعلن بعد ذلك غرض الآية وسبب تقديم ذكر هذه الآيات في أوّلها، ويتمثل هذا الغرض في قوله ﴿ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾، إذ ينهى الله عن السّجود لمخلوقاته، فلا سجود إلاّ للخالق العظيم، وقد جاء هذا النّهي على صيغة طباق السّلب (لا تسجدوا ... واسجدوا) والذي منح هذا النّظم إيقاعا يأسر القلوب فإذا هي تخشع لهذا الأمر الصادر من الخالق (ﷻ)، فلا تملك بعد ذلك إلاّ السّجود له إيمانا به وطاعة له واعترافا بفضله وعظمة قدرته. وقد أكد نفي السّجود بتكرار الحرف (لا)، وقوله (واسجدوا لله الذي خلقهن) بهذا الأمر المثبت بعد النّهي يفيد مفاد الحصر، لأنّ النّهي بمنزلة النّفي، ووقوع الإثبات بعده بمنزلة مقابلة النّفي بالإيجاب[١]. ثمّ قال: (الذي خلقهنّ) وهو جمع يشمل اللّيل والنّهار والشّمس والقمر، أو يشمل الشّمس والقمر فحسب لأنّ الاثنين جمع[٢]. وقد جاء هذا الجمع على التأنيث لأنّ ما لا يعقل حكمه حكم المؤنث في الضمير، وهي أيضاً آياته فقد قال: (ومِن آياته) ثمّ نظم الأربعة في سلك الآيات وصار كلّ واحد منها آية فعبر عنها بضمير الإناث، وفيه إشارة إلى تناهي سفولها عمّا أهلوها له وذمّ عابديها بالإفراط في الغباوة[٣]. كما أنّ فيه إيحاء بضعف هذه العبادة يستمد من ضعف الأنثى، وفيه ربط -عن طريق الدلالة الإيحائية- بين كراهتهم الإناث وادعاء البنات لله وبين اتخاذهم هذه التي جاء جمعها مؤنثا آلهة. ثمّ تختم الآية بتأخر الشّرط عن جوابه الذي تقدم في قوله (واسجدوا لله) تقديم تعظيم للأمر الصّادر من الخالق جلّ وعلا، وليكون الالتزام به والمباشرة بتنفيذه على سبيل الاستمرار والدّوام دليلا على العبادة، ويقابل هذا التّعظيم تقديم لفظة (إياه) على (تعبدون) للتّعظيم أيضاً ولتكون العبادة خالصة له دون إشراك، وقد جاء الأمر بالسّجود على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الجزئية وهي تسمية الشّيء باسم جزئه فقد أطلق السّجود وأراد التّوحيد والعبادة لما للسجود من أهمية خاصة فيها. وفي الشّرط المتأخر في قوله (إنْ كنتم إياه تعبدون) توبيخ للمشركين الذين عبدوا

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/٣٠٠.

(٢) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٣٦٤.

(٣) =: نظم الدرر: ١٧/١٩٣.

غيره وسجدوا لهم وفيه تحقير لما كانوا يعبدون فهم على حالتهم تلك نزلوا منزلة مَن لا عبادة له.

❖❖❖❖❖

بعد أنْ عرضت الآيات السّابقة بعض الأحوال السّماوية وهي حال اللّيل والنّهار والشّمس والقمر، ينتقل السّياق القرآني ليعرض بعض الأحوال الأرضية ويسوق الدّلائل على قدرته تعالى في البعث والنّشور وإحياء الموتى، ويأتي كلّ ذلك لينال الإنسان نعمة الهداية إذا ما تدبر في آيات الله وبدائع صنعه ودلائل قدرته.

يقول الله (ﷻ) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[1].

تبدأ الآية بتقديم الخبر (مِن آياته) على مبتدئه، وقد أفاد هذا التّقديم الاختصاص والتّوكيد، وهو ما يناسب مقام الحديث على الآيات الكونية ودلائل القدرة.

ويؤثر التّعبير القرآني أسلوب الخطاب، وهو خطاب عام، والمعنى: ومِن العلامات الواضحة والدّلالات القاطعة على وجوده، أو ومِن آياته الدّالة على أنّه يحيي الموتى[2]. وقد أكّد الخطاب بـ (أنّ) التي أفادت الوصل في هذا الموضع[3]، وأدخل المخاطب في جوّ الآية ليباشر رؤية هذا المشهد المليء بالحركة بعد السّكون، فإذا هو يرى في كلّ زمان ومكان على سبيل الاستمرار والتّجدد، يرى الأرض (خاشعة) هكذا على سبيل استعارة الخشوع - وهو (التّذلل) - لحال الأرض إذ كانت مقحطة لا نبات عليها، فهي كحال المتذلل[4]. وهذه الاستعارة تصور الأرض «كالذّليل الكاسف البال في الإطمار الرّثة»[5]، وتصورها كالنّاسك المتعبد الخاشع ممّا يعطيها صفة الخنوع والتّذلل، ويمتزج التّشخيص بهذه الاستعارة ليضفي عليها جمالا آخر، ولعلّ من جمالياته أنّه يلقي الطّمأنينة في نفس القارئ عندما يقدم له مثيله في رفع مستوى

---

(١) سورة فصّلت: الآية ٣٩.

(٢) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٣٦٥.

(٣) =: الفصل والوصل في القرآن الكريم، منير سلطان: ١٨٥.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/٣٠٢.

(٥) الكشاف: ٤/٢٠١.

الأشياء، ويجعل المعالم كائنات عاقلة أو أشخاصا فيشعر المرء بمشاركتها الوجدانية[١]. وتضع هذه الاستعارة الأرض بصورة مشخصة أمام العين الباصرة، وكأنّ الاستعارة تغيير لطبائع الأشياء وإدخال بعضها في بعض[٢]. وقد أوثرت هذه الاستعارة في هذه الآية، في حين وصفت الأرض في موضع آخر بأنّها هامدة، قال تعالى ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [٣] وهي صفات إنسانية أضفاها التّعبير القرآني على الأرض فأخرجها بهذه الصّورة الموحية المؤثرة، والصّفتان تعبران عن معنى واحد وهو ما يظهر على الأرض من آثار الجدب وفقدان معالم الحياة[٤].

وقد جاء كلّ وصف في سياقه المناسب، ممّا يجلي دقة القرآن في اختيار ألفاظه، فلفظة (خاشعة) وردت في سياق عبادة وخشوع يتسق مع معناها، ولفظة (هامدة) وردت في سياق بعث الموتى وإحيائهم وهو ما يتسق مع معناها[٥].

ويتناسب اختيار الصّفتين مع هدف الآيات في عرض قدرته تعالى على إحياء الأرض وهو إثبات البعث والنّشور وإحياء الموتى، فكما أنّ الأرض (خاشعة) و(هامدة) لا حياة فيها ولا روح قبل نزول الماء عليها، كذلك (الموتى) هامدون، وكما تستجيب الأرض الميتة وتهتزّ وتربو وتدب الحياة فيها بسبب الماء النّازل، كذلك فإنّ الله الذي أحياها لمحيي الموتى، فالآيتان ذات دلالة شاملة من خلال اقترانهما بالسّماء والأرض، وبذلك تحقق شمول العبرة لكلّ كائن على الأرض، وتتحقق نعمة الهداية، فضلاً عن أنّ حيوية الصّورة قائمة بتجددها واستمرارها لأنّ إنزال الماء على الأرض عملية مكررة مع الزّمان والمكان، فهي قائمة ما دامت السّموات والأرض، شاهدة على قدرته تعالى، يعتبر بها جيل بعد جيل، ولا بدّ من ملاحظة التّناسب والانسجام بين الفكرة المراد إثباتها وبين الاستعارتين، فهو تناسب وتأليف محكم[٦].

وينتقل المشهد من السكون إلى الحركة، بقوله (فإذا أنزلنا) بهذه الفاء التي

---

(١) =: جماليات المفردة القرآنية: ١٤١.

(٢) =: التّصوير البياني، محمد أبو موسى: ٢٠٧.

(٣) سورة الحج: من الآية ٥.

(٤) =: تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي: ٢٩٥.

(٥) =: التّصوير الفني في القرآن، سيد قطب: ٩٧، والتعبير القرآني: ١٦٣.

(٦) =: الاستعارة في القرآن الكريم: ١٤٢ و٢٢٣ - ٢٢٤.

أفادت الاتصال، و(إذا) التي خلصت الفعل للاستقبال[١]. وإيثار فعل (أنزل) دون (نزل) لأنّ الإنزال عامّ، فيوحي فعظيم قدرته على شمول هذا الإنزال لجميع الأرض بمشيئته. والالتفات من الغيبة إلى التكلم يتناسب مع مقام الامتنان وشمول هذه النّعمة، ويأتي جواب (إذا) ونتيجة هذا الإنزال، بقوله (اهتزت وربت)، والاهتزاز هو الحركة بعد السكون، وهو مستعار لربو وجه الأرض بالنّبات، إذ شبه حال إنباتها وارتفاعها بالماء والنّبات بالاهتزاز، و(رَبَت) أي انتفخت وعلت[٢]. ويشكل هذا التّركيب تمثيلا أو استعارة تمثيلية[٣]، إذ شبه حال محولة الأرض ثمّ إنزال الماء عليها وانقلابها من الجدوبة إلى الخصب والإنبات بحال شخص كان كاسف البال رثّ اللباس فأصابه شيء من الغنى، فلبس الزّينة واختال في مشيه زهوا، وهذا من أحسن التّمثيل وهو الذي يقبل تفريق أجزائه في أجزاء التّشبيه، فضلاً عن أنّه يضفي على المعاني التي تساق من خلاله نوعا من الجمال والخلابة يجعل النّفس تأنس بها وتهش إليها ويكون لها في تلك النّفوس وقع لا يكون لها إذا جاءت عارية عنه[٤].

وفي لفظتي (خاشعة) و(اهتزت) استعارة مكنية بأنْ شبهت الأرض بشخص كان ذليلا ثمّ صار مهتزا لعطفيه، ورمز إلى المشبه بهما بذكر رديفهما[٥]. فالاستعارة المكنية لا تقوم على مجرد التّشبيه، وإنّما تقوم على بثّ الحياة والحركة في المشبه لغرض المبالغة[٦]. والاستعارة في (اهتزت وربت) تظهر حركة الأرض بعد خشوعها، وهي المقصودة في سياق نعمة الهداية بإثبات دلائل القدرة، فكلّ ما في المشهد يتحرك حركة عبادة، فلم يكن من المناسب أنْ تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة، فاهتزت لتشارك العابدين، في سياق هذه الآيات، وفي ذلك دقة في تناسق الحركة لهذه الصورة القرآنية[٧].

---

(١) =: الجنى الداني: ١٢١ و٣٦٢.
(٢) =: التّحرير والتنوير: ٣٠٢/٢٤.
(٣) =: الجدول في إعراب القرآن: ٣١٥/٢٤.
(٤) =: فنون التّصوير البياني: ١١٨.
(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٣٠٢/٢٤.
(٦) =: فن الاستعارة: ١٢١.
(٧) =: في ظلال القرآن: ٣١٢٥/٥.

وفي كلّ ذلك يظهر ما يسمى بـ (الجدة) وهي خصيصة مِنْ خصائص الاستعارة القرآنية تتمثل في قدرتها على أنْ تظهر الصّورة جديدة في الأبصار والأذهان فيحدث بذلك أثرها في النّفس(١)، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى ذلك(٢)، فضلاً عن أنّها تمثل وسيلة من وسائل الرّبط بين الطّبيعة والفكر بدعوته إلى التّدبر في نظام الكون والقدرة المسيطرة عليه، من خلال التّصوير الحسي المدرك بحاسة البصر، والقريب المتكرر في كلّ حين.

وبعد أنْ ساق التّعبير القرآني، النموذج والدّليل لقدرة الله في الإحياء، يشير في نهاية الآية إلى قدرته على إحياء الموتى، وكثيرا ما يقترن ذكر إحياء الأرض بذكر إحياء الموتى، لأنّ مشهد الحياة في الأرض قريب من كلّ قلب، مرئي ومحسوس في كلّ حين. ولذلك نبه البلاغيون إلى أنّ صُور التّشبيه حين تستمد من عناصر مشتركة بين النّاس يكون هذا الاستمداد من هذه العناصر أحفظ لبقائها وحيويتها وتأثيرها في أجيال النّاس والأمم(٣). وكثيرا ما يؤثر التّعبير القرآني في سياق الاستدلال جانب التّصوير لأنّ «إدراك المعنى في الصورة المشاهدة يزيد النفس أنسا به وقبولا له»(٤)، فقوله هنا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ ﴾ إدماج لإثبات البعث في أثناء الاستدلال على تفرده تعالى بالخلق والتدبير، وقد جاء ذكر إحياء الأرض على طريقة الاستعارة التبعية، إذ شبه إمداد الأرض بالماء وانبثاق البذور في باطنها لتصير نباتا، بإحياء الميت، واتخذ هذا الإحياء دليلاً على إمكان إحياء الموتى وهو ما يسمى بقياس التمثيل(٥).

وهكذا نجد أنّ للتشبيه دورا مهما في نظم الآية وصياغة مشاهدها، فقد شبهت الأرض في خشوعها بشخص متعبد خاشع، وتضمنت الآية تشبيه صورة إحياء الموتى بصورة إحياء الأرض، ولهذه التّشبيهات أثرها الكبير في أعماق النّفس الإنسانية، وسبرها لمظاهر الكون والطبيعة، واستقطابها لملامح الحس والإدراك البصري والسّمعي، وسبك ذلك كله في صياغة موحدة تنظر إلى هداية الإنسان، وتهيئة ذهنه بما

---

(١) =: فن الاستعارة: ٣٢٨.

(٢) =: أسرار البلاغة: ٥٠.

(٣) =: التّصوير البياني، محمد أبو موسى: ١٥٧ - ١٥٨.

(٤) م. ن: ١٣١.

(٥) =: التّحرير والتنوير: ٣٠٣/٢٤.

يحس أمامه وبين يديه، وما يدركه واعيا في حياته العامة، وفي ضوء هذا نلمس التّشبيه القرآني ذا صورة دائبة بالحركة والاستثارة والتلوين، وهذه الصور قد هدفت - بضم بعضها إلى البعض الآخر - إلى تقريب الأشياء وإبراز الحقائق واستخلاص العظات والبيّنات[1].

وكلّ ما ذكر يوحي بالقدرة العظيمة للخالق في الإنشاء والإحياء، ويتمم معنى الآية بتوكيد إثبات قدرته على كلّ شيء على سبيل التّذييل بقوله (إنّه على كلّ شيء قدير)، وقد أفاد هذا التّذييل تعميما ولا سيّما مع تقديم (على كلّ شيء) على (قدير) وتحقيق مراعاة الفاصلة، فلا تقف قدرته تعالى أو تختص على إحياء الأرض وإحياء الموتى، وإنّما هو على كلّ شيء قدير.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

لم تكن النّعم الإلهية المتمثلة في الآيات الكونية وما سخره الله منها للإنسان هي الدّعوة الوحيدة لهدايته، فآيات الله التي جاء بها المرسلون هي نعمة أخرى تمثل سبيل الهداية الواضحة لمَنْ اجتباه الله ويسر له الإنابة إليه. وهذا ما نجده في قوله تعالى ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[2].

ففي الآية امتنان بالنعم الروحية بعد أنْ كان في الآيات السابقة لها امتنان بالنّعم الجثمانية. ويتسق فيها الكثير مِنَ الفنون البلاغية، إذ تبتدئ باستعارة (شرع) للتبيين، ويكتنز اللفظ المستعار بدلالات كثيرة تتناسب وسياق الآية، فالشّرع في اللغة هو شيء يفتح في امتداد يكون فيه، ومنه الشّريعة وهي مورد الشّاربة الماء، ويقال أشرعت طريقا إذا أنفذته وفتحته، وشرعت الإبل إذا أمكنتها من الشّريعة[3].

وهكذا أوثرت هذه الاستعارة لتوحي بما في هذا الشّرع من امتداد يشمل البشرية كلها، وللإيحاء بأنّ ما في هذا الشّرع هو مورد الشّاربة ومن صدّ عنه عاش

(١) =: أصول البيان العربي: ٨٠.
(٢) سورة الشّورى: الآية ١٣.
(٣) =: معجم مقاييس اللغة: ٥٣٣ - ٥٣٤.

ظمآنا خاسرا، وتوحي بانتصار هذا الشّرع وإنفاذه كما توحي بالنّعمة في تمكين النّاس من هذه الشّريعة لتحصل نعمة الهداية، وكلّ هذه المعاني جاءت في سياق الامتنان ولا سيّما بقوله: (لكم) الذي يفيد تشريف المخاطبين وإظهار عنايته بهم.

أمّا التّعريف في لفظة (الدين) فهو تعريف الجنس وهو يعم الرّسالات السّماوية السّابقة، وقد اقتصرت الآية على ذكر هؤلاء الأنبياء على هذا التّرتيب لأنّهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشّرائع العظيمة، ولاستمالة قلوب الكفرة لاتفاق الكلّ على نبوة بعضهم. وابتدأ بذكر نوح لأنّه أوّل رسول أرسله الله إلى النّاس، فرسالته هي أولى الرسالات، ولأنّ رسالة إبراهيم هي أصل الحنيفية وهي أشهر الرسالات بين العرب، ورسالة موسى هي أوسع الرّسالات السّابقة في تشريع الأحكام، ورسالة عيسى هي التي سبقت دين الإسلام ولم يكن بينهما رسالة أخرى، وذكر الإيحاء إلى الرّسول (ﷺ) بعد ذكر رسالة نوح، والمعنى: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث به نوحا من قبل وبعث به محمدا الآن، وبعث به من توسط بينهما[١].

وقد أوثر ذكر (ما) مع رسالة نوح ورسالة إبراهيم، و(الذي) مع دين محمد (ﷺ) وقد أدى ذلك تفننا في الأسلوب ودفعا للتّكرار، فضلاً عن أنّ لهذا الاختلاف غرض معنوي وهو أنّ (الذي) هو الأصل في الموصولات ويدل على معروف عند المخاطب بصلته، ويدل على التعظيم أيضاً. أمّا إيثار الحرف (ما) فلأنّها شرائع بعد العهد بها فلم تكن معهودة عند المخاطبين إلاّ إجمالا، فضلاً عن أنّ إيثار (الذي) مع ذكر الرسول (ﷺ) لتفخيم شأنه.

ومِن الإيثار أيضاً ذكر الفعل (وصّى) في جانب الشّرائع الأربع، وذكر فعل الإيحاء في جانب شريعة محمد (ﷺ) وذلك لأنّ الشرائع التي سبقت الإسلام كانت مؤقتة مقدرا ورود شريعة بعدها، فكان العمل بها كالعمل الذي يقوم به مؤتمن على شيء حتى يأتي صاحبه[٢].

وتتجلى دقة التّعبير القرآني في اختيار الكلمات المناسبة لأداء المعاني في إيثار التّوصية مع الرّسالات الأخرى، وإيثار الإيحاء مع دين محمد (ﷺ) وذلك للتّصريح

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٥١/٢٥.

(٢) =: م. ن: ٥٣/٢٥.

برسالته، القامع لإنكار الكفرة، فضلاً عن أنّ (الإيحاء) قد أوثر مراعاة لما وقع منه في آيات كثيرة[١]، وقد أضافه إليه بضمير العظمة تخصيصا له ولشريعته بالتشريف وكمال الاعتناء.

وقد عدل النظم من الغيبة إلى التكلم على سبيل الالتفات في قوله (والذي أوحينا إليك) بعد قوله (شرع لكم) وينبئ هذا الالتفات بكمال الاعتناء بالإيحاء إليه، ويشعر بتفخيم شأن الرّسول (ﷺ)[٢]، ولذلك قدم على ما بعده مع تقدمه عليه زمانا، أمّا تقديم توصية نوح فللمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم دينا قديما[٣]. وقد توجه النّظم إلى الرّسول (ﷺ) بخطاب التّلوين للتشريف والتّنبيه على أنّه تعالى شرعه لهم على لسانه (ﷺ)، وهو خطاب الخاص الذي يراد به العموم.

ثمّ يأتي بيان ما قد شرعه الله من الدّين على سبيل الإيجاز في قوله: (أنْ أقيموا الدين ولا تتفرقوا)، وإقامة الشّيء: جعله قائما فهي استعارة للحرص على العمل به[٤]، على سبيل الدّوام والاستمرار من غير خلاف فيه ولا اضطراب، إذ استعير (التّفرق) للتّعبير عن الاختلاف في الأحوال والآراء وأصله تباعد الذوات، أي اتساع المسافة بينها[٥].

وثمّة لطيفة بلاغية في هذا النّهي عن التّفرق، إذ قال هنا: (ولا تتفرقوا) وجاء في موضع آخر قوله ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[٦] بحذف إحدى التاءين، وذلك لأنّ آية آل عمران خطاب للأمة الإسلامية، وآية الشّورى تتحدث عن أمم مختلفة وشرائع متعددة، فلمّا كانت في أمم متطاولة على مدى التاريخ، جاء بالصّيغة التي هي أطول، ولمّا كانت آية آل عمران في أمّة واحدة وهي جزء مِنَ الأمم المذكورة في الشّورى جاء بجزء مِنَ الفعل ولم يأت به كلّه، والسّبب الآخر أنّه نهى الأمة الإسلامية عن أي شيء مِنَ التّفرق مهما كان قليلا أو جزئيا فاقتطع من الفعل

---

(١) =: روح المعاني: ٢٠/٢٥.
(٢) =: تفسير غرائب القرآن: ٢٨/٢٥.
(٣) =: فتح البيان في مقاصد القرآن: ٢٨٤/١٢.
(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٥٣/٢٥.
(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٥٣/٢٥.
(٦) سورة آل عمران: من الآية ١٠٣.

للدلالة على النّهي عن أي شيء مِنَ التّفرق مهما قلّ وضؤل، فضلاً عن أنّه جاء بـ (أنْ) التّفسيرية في آية الشّورى في حين نهاهم نهيا مباشرا في آل عمران، والكلام المباشر الصريح أهم وآكد من المفسر(١).

إنّ كلّ ما سبق يؤكد أنّ الإسلام دين مؤيد بما سبق من الشّرائع الإلهية، وهذا يثير سؤال مَنْ يتعجب مِنْ إعراض المشركين عنه، ولذلك أجيب إجمالا على سبيل الفصل بأنّه ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، باستعارة (كبر) للشّيء الذي لا تطمئن النّفس لقبوله، وهو في الأصل يدل على ضخامة الذّات لأنّ شأن الشّيء الضّخم أنْ يعسر حمله، فضلاً عمّا فيه من تضمين معنى (ثقل) ولذلك عدي بـ (على) وجيء بالمضارع (تدعوهم) للدلالة على تجدد الدّعوة واستمرارها(٢)، وفي ذلك توبيخ للمشركين، وتعظيم لشأن القرآن وتشريف للمسلمين بأنّهم استطاعوا حمل الرّسالة.

ثمّ يأتي قوله ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ على سبيل الفصل، فهو جواب عن سؤال مَن يسأل: كيف كبرت على المشركين دعوة الإسلام؟ فأجيب بأنّ الله يجتبي إليه مَنْ يشاء، فالمشركون غير مجتبين إلى الله إذ لم يشأ ذلك، أي لم يقدر لهم الاهتداء.

وقد ابتدأ الجواب بأسلوب القصر بتقدم المسند إليه (الله) على الخبر الفعلي ردا على المشركين الذي أكبروا أنْ يكون الضّعفة من المؤمنين خيرا منهم(٣)، والاجتباء مستعار للتقريب والاختيار، وهو الجمع على طريق الاصطفاء، فهو مأخوذ من الجباية وهي جلب الخراج وجمعه، لمناسبة النّهي عن التّفرق في الدّين(٤)، وإيثار هذه اللفظة يتناسب مع ذكر الأنبياء لأنّها بمعنى (الجمع) وهو ما يناسب النهي عن التّفرق في الدّين، فضلاً عن أنّها توحي بوحدة مصدر رسالة التّوحيد على الرّغم من تعدد الرّسل.

وهكذا تظهر نعمة الهداية باجتباء الله وهديه مَن يشاء إلى التّوبة، ليسعى العبد إلى نيل هذه النّعمة ويكافأ على التّنعم بها برضا الله وجنته، فهل من منعم يكافئ

(١) =: بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني: ١٥ - ١٦.
(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٥٤/٢٥.
(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٥٥/٢٥.
(٤) =: تفسير روح البيان: ٢٩٧/٨.

المنعم عليه بنعمة أخرى أكبر منها غير الله الكريم؟

❖❖❖❖❖

ومِن نعمة الهداية أيضاً قوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[١].

تبدأ الآية بتقديم الخبر (مِن آياته) على مبتدئه، لإفادة الاختصاص والتّوكيد لمناسبة ذكر دلائل القدرة في الآيات الكونية.

وتذكر هنا نعمة الخلق والإيجاد لإثبات القدرة الإلهية، والصنعة الدالة على الصانع وهي خلق السّموات والأرض، وقد تكرر ذلك في القرآن كثيرا، وزيد هنا دليل آخر من دلائل قدرته - على سبيل الخلق والإيجاد أيضاً - لتحصل بمجموع هذه الدلائل نعمة الهداية لِمَنْ تدبر في خلق الله وقدرته العظيمة، وهذا الدّليل هو في قوله تعالى ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ وفي ذلك نكتة لطيفة، إذ جمع النّظم بين التّعريف والتّنكير للإيحاء بدلالة واحدة، فالتّعريف بالصّلة (ما) يبرز بعض المعاني التي لا تبرز بغيره من أنواع التّعريف الأخرى، والمعنى الذي أفاده هنا التّعظيم والتّكثير، تعظيم فعل (البث) وتكثير ما وقع عليه هذا الفعل، وقد أفاد تنكير (دابة) دلالة التّكثير أيضاً، فاشترك التّعريف والتّنكير في الإيحاء بهذه الدلالة، فضلاً عن دلالة (مِن دابة) على التّعميم.

وقد أوثر الفعل (بث) على سبيل التناسب مع مقام إظهار دلائل القدرة لما يوحيه من دلائل القدرة لأنّه يشمل الشّيء المحسوس وغير المحسوس[٢]. وقوله (فيهما) يتخرج على وجوه، منها أنْ يريد احدهما فيذكر الاثنين، كما في قوله ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾[٣] وإنّما يخرج من الملح وحده، ومنها أنْ يكون قد خلق السّموات وبث دواب لا نعلمها نحن، وقيل المقصود النّاس والملائكة[٤]. وقد قال (ﷻ) في آية أخرى: ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾[٥] بإفراد (فيها) وزيادة (كلّ) إلى الآية، وذلك

---

(١) سورة الشّورى: الآية ٢٩.

(٢) =: تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري: ٢٧٣/١، مادة (بثث).

(٣) سورة الرحمن: الآية ٢٢.

(٤) =: المحرر الوجيز: ١٧٢/١٣.

(٥) سورة البقرة: من الآية ١٦٤.

لأنّ الآية في سورة البقرة تدل على اختصاص الدواب بالأرض لأنّ مقام الإطناب يقتضي ذكره، أي أنّ التفضيل اقتضى زيادة (كل)، إمّا في سورة الشّورى فقد جيء به مدمجا مختصرا لمّا تكرر في السّياق من ذكر كمال قدرته على كلّ ممكن، ففيها إجمال على سبيل الإيجاز.

ولمّا كان المقام مقام عرض دلائل القدرة لتحقيق الهداية أدمج إمكان البعث في الاستدلال على عظيم قدرة الله وعلى تفرده بالألوهية، وتقديم الضمير (هو) أفاد قصر هذا الفعل عليه وبمشيئته، وإيثار الحرف (على) للاستعلاء والتّمكن، ومِن التناسب أنْ يؤثر قوله (جمعهم) ليكتمل الطباق بينه وبين (بثّ). ويقابل التّعبير القرآني بين مشهد البثّ ومشهد الجمع ليشهد القلب هذين المشهدين الهائلين قبل أنْ ينتهي اللسان من آية واحدة قصيرة من القرآن[١].

وأدى الحرف (إذا) - والذي بمعنى (حين يشاء) - دلالة حصول المشيئة وتيقن تحقق الجمع وهو ما لا يفيده الحرف (أنْ)[٢]. وهذا الظرف إدماج ثان لإبطال استدلالهم بتأخر يوم البعث[٣]، ولا سيّما أنّ الآية جاءت في سياق عرض دلائل القدرة في سبيل حصول نعمة الهداية لمَن تفكر في بديع صنع الله وقدرته.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ومِن النّعم التي أنعم الله بها على البشر لتقوم بها الحجة على كل كافر مشرك بالله تعالى، ولتكون وسيلة لهداية مَنْ أراد الإنابة إلى الله بعد معرفة دلائل قدرته، نعمة إحياء الأرض بالمطر وإخراج النّبات به، واتخاذ هذه النّعمة المتكررة المستمرة دليلا على قدرته تعالى وتفرده بإحياء الموتى وتشبيه خروجهم من القبور بخروج النّبات من الأرض بفعل المطر، ويتجلى كلّ ذلك في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾[٤].

فنعمة إحياء الأرض وإنبات النّبات بالمطر يتكرر ذكرها في القرآن الكريم،

(١) =: في ظلال القرآن: ٥/٣١٥٨.
(٢) =: الجنى الداني: ٣٦٠.
(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٩٨.
(٤) سورة الزّخرف: الآية ١١.

وقد ذكرنا قبل ذلك قوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾[١]، وقد أفاد لفظ الغيث ما أفاده قوله في هذه الآية (بقدر) وكذلك كان قوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾[٢] فلفظة (رزقا) أفادت ذلك المعنى، وهو أنّ الله ينزل من السّماء ماء بقدر حاجة الأرض والإنسان للحياة، وهذا ما يناسب مقام ذكر النّعم الإلهية.

تبدأ الآية بالتّعريف في الاسم الموصول للدّلالة على التّعظيم، وتقديمه في صدر الآية يفيد القصر، إذ لا شريك له في الإنعام بهذه النّعم الجليلة، وإيثار الفعل (نزل) هنا مشابه لإيثاره في ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾[٣] وفي ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾[٤] في حين آثر (أنزل) في قوله ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾[٥]، وذلك لأنّ (نزل) يفيد التّدرج والتّكرار والتّكثير، وقد يكون للمبالغة والاهتمام، أمّا (الإنزال) فهو عام ولذلك أوثر مع ذكر العارض وإنزال الماء عليها، وفي إيثار صيغة (نزل) تناسب مع أسلوب الخطاب في الآيات المشار إليها لما فيه مِنَ التّضعيف الدّال على التّكرار، وهو ما يناسب مقام الامتنان.

ومِن أوجه البلاغة في الآية، تنكير لفظة (ماء) ليفيد معنى قلة الالتفات، أي أنّ المنكر أمر يغفل عنه النّاس ولا يلتفتون إليه[٦]، فالماء الذي ينزل مِنَ السّماء يعرفه كلّ إنسان ويراه، ولكنّ أكثر النّاس يمرون على هذا الحدث العجيب دون يقظة ودون تدبر، لطول الألفة والتّكرار، فالقرآن يذكر بهذه النّعمة العظيمة ويدعو النّفس البشرية إلى التّدبر فيها للوصول إلى حقيقة قدرته تعالى في إخراج النّاس من قبورهم يوم البعث، لعلها تنال نعمة الهداية.

وجاء تنكير (ماء) مقيدا بـ (قدر)، وهذا القيد يبعد دلالة التّنكير على التّكثير،

---

(١) سورة الشّورى: الآية ٢٨.

(٢) سورة غافر: من الآية ١٣.

(٣) سورة الشّورى: من الآية ٢٨.

(٤) سورة غافر: من الآية ١٣.

(٥) سورة فصّلت: من الآية ٣٩.

(٦) =: بلاغة الكلمة والجملة والجمل: ٧١.

فهو «بقدر في الكفاية للصلاح لا إكثار فيفسد، ولا قلة فيقصر»[١].

ويتواشج في نظم الآية فن الالتفات مع الاستعارة، وذلك في قوله (فانشرنا)، فالالتفات من الغيبة إلى التّكلم جاء لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء، والإشعار بعظمة المحيي[٢]، والاستعارة التّبعية فيه هي بتشبيه الأرض قبل نزول المطر بالإنسان الميت، ثمّ أنشرها الله، أي أحياها بالمطر[٣]. وفي إيثار هذه الاستعارة مع قوله بعدها (كذلك تخرجون) تناسب بديع يثبت «إنّ الفن الاستعاري ليس فنا تجريديا يراد لذاته، بل هو جزء من بناء إبداعي له أهدافه الفكرية والتّوجيهية ولا سيّما حين تكون الاستعارة في نصّ معجز يسعى إلى التّوجيه والتّسديد وبث أسمى الأفكار الإنسانية وأعلاها مرتبة»[٤].

وتتسق الاستعارة مع التّشبيه في قوله (كذلك تخرجون) إذ إن كلمة (أنشرنا) تفيد أنّ النّبات يظهر متفرقا في مساقط السحابة، وسمي البعث نشرا لأنّ النّاس يبعثون من قبورهم المتفرقة، وهذا وجه من وجوه الاتساق والملاءمة، ففي الآية تنبيه الإنسان إلى التّفكير في السّحاب وفعله في الأرض، واستشفاف دلائل القدرة، وهكذا تأتي هذه الاستعارة القرآنية لا لتصف هذه المشاهد فحسب وإنّما أيضاً لتوظفها توظيفا فكريا ووجدانيا راقيا[٥].

وقد وصفت البلدة وهي مؤنث، بالميت، وهو مذكر، لكونه على زنة الوصف الذي أصله مصدر، والتّأنيث فيها غير حقيقي وهي بمعنى البلد والمكان.

ثمّ يأتي موضع العبرة، والذي يكمن في التّشبيه (كذلك تخرجون)، أي مثل ذلك الانتشار تخرجون، ووجه الشّبه هو إحداث الحي بعد موته، والمقصود من التّشبيه إظهار إمكان المشبه[٦]، ولا شكّ في أنّ التّشبيه عندما يستمد عناصره من الطّبيعة يهدف إلى أنْ يكون مؤثرا في كلّ وجدان، مسيطرا على كلّ تفكير، بالغا بالإنسان أعمق مبلغ

---

(١) المحرر الوجيز: ٢٠٢/١٣.

(٢) =: إرشاد العقل السليم: ٤٠/٥.

(٣) =: صفوة التفاسير: ١٦٨/٣.

(٤) الاستعارة في القرآن الكريم: ١٩٧.

(٥) =: الإعجاز البلاغي، محمد أبو موسى: ١٣٨ - ١٣٩.

(٦) =: التّحرير والتّنوير: ١٧١/٢٥.

في الإقناع[١].

وفي التّعبير عن إخراج النّبات بالانشار الذي هو إحياء الموتى وعن إحيائهم بالإخراج، تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث، لتقويم سنن الاستدلال وتوضيح مناهج القياس[٢]، وهو شبيه بالاحتباك. وإيثار صيغة المبني للمجهول لتركيز الاهتمام على الحدث وحصر الوعي فيه فلا يتوزع في غيره[٣]. فضلاً عما في هذا الاستدلال من توبيخ لمنكري البعث.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

تتجلى نعمة الهداية في الآيات الكونية مرّة أخرى وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ ﴾[٤].

فقد ذكرت آيات الله ودلائل قدرته على سبيل الإجمال، ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ثم ذكرت بعض هذه الآيات مبتدأ بالأعجب والأقرب إلى المخاطبين وهي نعمة الخلق والإيجاد في ﴿ خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾، ثم ذكر بعض آياته العلوية في ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ ﴾، واستكمل ذلك بذكر ما يدل على قدرته في البعث والنّشور بقوله ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وهكذا جاءت الآيات مرتبة على سبيل التّرقي لتحصل نعمة الهداية لمَنْ تدبر فيها.

والإجمال الذي في بداية الآية يستشف من حذف لفظة (خلق) إذ قال في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [٥] ليكون ما هنا اشمل، أي: السّموات

---

(١) =: فكرة النظم بين وجوه الإعجاز: ٢٤٢.

(٢) =: إرشاد العقل السليم: ٥/٤٠.

(٣) =: التفسير البياني للقرآن الكريم: ٧٦.

(٤) سورة الجاثية: الآيات ٣ - ٥.

(٥) سورة البقرة: من الآية ١٦٤.

بذواتها وبمالها من الدّلالة على صانعها هي آيات للمؤمنين[١].

وفي الآية وما بعدها اجتباك، إذ «حذف أوّلا الخلق بما دلّ عليه ثانيا، وثانيا ذوات الأنفس بما دلّ عليه من ذوات السّموات أوّلا»[٢].

وممّا يناسب مقام نعمة الهداية قوله في الآية الأولى: (للمؤمنين) في حين قال في الآيتين الأخيرتين: (لقوم يوقنون) و(لقوم يعقلون)، وقد عبر بالماضي في (يبث) ليفيد تجدد البث وتكرره باعتبار أجناس الدّواب وأنواعها.

ومِن أوجه البلاغة في الآيات الكريمة إطلاق (الرّزق) على المطر على سبيل المجاز المرسل بعلاقة السّببية، وتنكير (آيات) في المواضع الثّلاثة للتفخيم كما وكيفا[٣]. واختلاف الفواصل من باب التّناسب ومراعاة النّظير، وجاء ترتيبها على سبيل التّدلي، فالفاصلة الأولى جاءت (للمؤمنين) لأنّه ذكر السّموات والأرض، فمعرفة ما فيها من الآيات الدّالة على الخالق العظيم هي فرع من التّصديق بوجود الخالق والاعتقاد به، لذا وافق ذلك أنْ تكون الفاصلة (للمؤمنين)، أمّا (يوقنون) فلأنّه ذكر خلق الإنسان والحيوان، فتفكر الإنسان في ذلك يزيده يقينا في معتقده، وقوله (يعقلون) لأنّ ما ذكر قبله من آيات القدرة يستلزم رجاحة العقل ورصانته ليتفكر في هذا الخلق وخالقه[٤].

وتختلف هذه الآيات عمّا جاء في سورة البقرة، الآية (١٦٤) في أنه ذكر هناك ثمانية أنواع من الدّلائل، وههنا ذكر ستة أنواع فترك منها الفلك والسّحاب، والسّبب إنّ مدار حركة الفلك والسّحاب على الرّياح المختلفة، فذكر الرّياح الذي هو كالسبب يغني عن ذكرهما، والفرق الآخر هو أنّه جمع الكلّ وذكر لها مقطعا واحدا، وههنا رتبها على ثلاثة مقاطع للتّنبيه على أنّه لا بدّ من إفراد كلّ واحد منها بنظر تام[٥]، لتحصل نعمة الهداية.

---

(١) =: نظم الدرر: ٦٠/١٨.

(٢) م. ن: ٦٥/١٨.

(٣) =: تنوير الأذهان: ٤٢/٤.

(٤) =: درة التّنزيل وغرة التأويل: ٤٣٧، وإعجاز القرآن البياني بين النّظرية والتّطبيق، حفني محمد شرف: ٢٢١.

(٥) =: التفسير الكبير: ٢٦٠/٢٧.

ويتكرر هنا الاستدلال على البعث بمشهد إحياء الأرض بالمطر بعد موتها، ففي ذلك تشبيه للرّطوبة الأرضية بالروح الحيواني في كونها مبدأ التّوليد والتّنمية، وتشبيه زوالها بزوال الرّوح وموت الجسد[1]، وكلّ ذلك من دلائل القدرة. وقد كان لتكرار العطف بحرف الواو مغزى بلاغي هو اللفت بإثارة بالغة إلى حسيات مدركة لا تحتمل أنْ تكون موضع جدل ومماراة، توطئة إيضاحية لبيان معنويات يمارى فيها أو تقرير غيبيات لا تقع في نطاق الحسيات والمدركات[2].

وقد اعتمد التّعبير القرآني في هذه الآيات التنقل من الأبعد إلى الأقرب لغرض التّنويع على سبيل التّدلي، لكي لا يبقى للمشركين المنكرين حجة، وليزيد المؤمنين ثباتا من خلال التذكير بآيات الله وبدائع صنعه، فنعمة الهداية فضل من الله يسبقه فضل هديه، ويليه فضل الثّواب، فما أجلّ النّعم وأعظمها، وما أشدّ التّقصير في شكرها وأداء حقّ المنعم بها من العبادة!.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) =: تنوير الأذهان: ٤/٤٢.

(٢) =: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: ٢٣٠.

# الجدول البياني للفنون البلاغيّة الواردة في الفصل الثّاني

| ت | الفن البلاغي | رقم الصفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٧١ | التدلي | ٧٦ | ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ... اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ | ٦٣ - ٦٤ | غافر |
| ٧٢ | التّرقي | ٧٦ | ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ | ٦٢ | غافر |
| ٧٣ | الاستفهام التّعجيبي | ٧٦ | ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ | ٦٢ | غافر |
| ٧٤ | الفصل | ٧٧ | ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ | ٦٤ | غافر |
| ٧٥ | القصر بالتّقديم | ٧٧ | ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ | ٦٤ | غافر |
| ٧٦ | المقابلة | ٧٧ | ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ | ٦٤ | غافر |
| ٧٧ | التشبيه البليغ | ٧٨ | ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ | ٦٤ | غافر |
| ٧٨ | الاحتباك | ٧٨ | ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ | ٦٤ | غافر |
| ٧٩ | الجناس | ٧٨ | ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ | ٦٤ | غافر |
| ٨٠ | الإظهار في مقام الإضمار | ٧٨ | ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ | ٦٤ | غافر |
| ٨١ | القصر | ٧٩ | ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ | ٦٥ | غافر |
| ٨٢ | التّقديم | ٧٩ | ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ | ٦٥ | غافر |
| ٨٣ | الطّباق | ٨١ | ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ | ٦٨ | غافر |
| ٨٤ | القصر | ٨١ | ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ | ٦٨ | غافر |
| ٨٥ | الجناس | ٨١ | ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ | ٦٨ | غافر |
| ٨٦ | التّقديم | ٨٢ | ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ | ١١ | الشّورى |
| ٨٧ | الكناية | ٨٢ | ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ | ١١ | الشّورى |
| ٨٨ | التّنكير | ٨٢ | ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ | ١١ | الشّورى |
| ٨٩ | التّقديم | ٨٢ | ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ | ١٢ | الشّورى |
| ٩٠ | الطّباق | ٨٣ | ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ | ١٢ | الشّورى |
| ٩١ | الاستعارة | ٨٣ | ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ | ١٢ | الشّورى |
| ٩٢ | التّنكير | ٨٤ | ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ | ١٩ | الشّورى |

| ت | الفن البلاغي | رقم الصفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٩٣ | الاحتراس | ٨٥ | ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ | ١٩ | الشّورى |
| ٩٤ | التّعريف | ٨٥ | ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ | ١٩ | الشورى |
| ٩٥ | التّذييل | ٨٥ | ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ | ١٩ | الشّورى |
| ٩٦ | الفصل | ٨٦ | ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ | ٤٩ | الشّورى |
| ٩٧ | التّنكير | ٨٧ | ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ | ٤٩ | الشّورى |
| ٩٨ | التّعريف | ٨٩ | ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ | ٤٩ | الشّورى |
| ٩٩ | صحة التّقسيم | ٨٩ | ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ | ٤٩ - ٥٠ | الشّورى |
| ١٠٠ | الطباق | ٨٩ | ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ | ٥٠ | الشّورى |
| ١٠١ | التقديم | ٩٢ | ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ | ٦١ | غافر |
| ١٠٢ | المجاز العقلي | ٩٢ | ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ | ٦١ | غافر |
| ١٠٣ | الطّباق | ٩٣ | ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ | ٦١ | غافر |
| ١٠٤ | الاحتباك | ٩٣ | ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ | ٦١ | غافر |
| ١٠٥ | التّذييل | ٩٦ | ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ | ٦١ | غافر |
| ١٠٦ | التّنكير | ٩٦ | ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ | ٦١ | غافر |
| ١٠٧ | الإظهار في مقام الإضمار | ٩٦ | ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ | ٦١ | غافر |
| ١٠٨ | التّقديم | ٩٦ | ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ | ٧٩ | غافر |
| ١٠٩ | القصر | ٩٩ | ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ | ٢٨ | الشّورى |
| ١١٠ | التّشبيه | ١٠٣ | ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ | ٣٢ | الشّورى |
| ١١١ | التّقديم | ١٠٦ | ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ | ١٠ | الزّخرف |
| ١١٢ | التّشبيه البليغ | ١٠٦ | ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ | ١٠ | الزّخرف |
| ١١٣ | الإدماج | ١٠٨ | ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ | ١٢ | الزّخرف |
| ١١٤ | التّقديم | ١٠٨ | ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ | ١٤ | الزّخرف |
| ١١٥ | القصر بالتّعريف | ١١٢ | ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ | ١٢ | الجاثية |
| ١١٦ | الإطناب | ١١٢ | ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ... وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ | ١٢ - ١٣ | الجاثية |
| ١١٧ | القصر | ١١٤ | ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ | ١٣ | غافر |
| ١١٨ | التّقديم | ١١٤ | ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ | ١٣ | غافر |
| ١١٩ | المجاز المرسل | ١١٤ | ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ | ١٣ | غافر |
| ١٢٠ | التنكير | ١١٤ | ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ | ١٣ | غافر |

| ت | الفن البلاغي | رقم الصفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ١٢١ | التّذييل | ١١٥ | ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلا مَنْ يُنِيبُ﴾ | ١٣ | غافر |
| ١٢٢ | القصر | ١١٥ | ﴿وَ مَا يَتَذَكَّرُ إِلا مَنْ يُنِيبُ﴾ | ١٣ | غافر |
| ١٢٣ | الإجمال بعد التفصيل | ١١٦ | ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ | ٨١ | غافر |
| ١٢٤ | الاستفهام الإنكاري | ١١٦ | ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ | ٨١ | غافر |
| ١٢٥ | الطّباق | ١١٧ | ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ | ٣٧ | فصّلت |
| ١٢٦ | مراعاة النّظير | ١١٧ | ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ | ٣٧ | فصّلت |
| ١٢٧ | الطّباق | ١١٧ | ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ | ٣٧ | فصّلت |
| ١٢٨ | المجاز المرسل | ١١٨ | ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ | ٣٧ | فصّلت |
| ١٢٩ | التّقديم | ١١٩ | ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ | ٣٩ | فصّلت |
| ١٣٠ | الاستعارة | ١٢١ | ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ | ٣٩ | فصّلت |
| ١٣١ | الالتفات | ١٢١ | ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ | ٣٩ | فصّلت |
| ١٣٢ | التّمثيل أو الاستعارة | ١٢١ | ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ | ٣٩ | فصّلت |
| ١٣٣ | الإدماج | ١٢٢ | ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ | ٣٩ | فصّلت |
| ١٣٤ | الاستعارة | ١٢٢ | ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ | ٣٩ | فصّلت |
| ١٣٥ | التّذييل | ١٢٣ | ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ | ٣٩ | فصّلت |
| ١٣٦ | الاستعارة | ١٢٣ | ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ | ١٣ | الشّورى |
| ١٣٧ | التّعريف | ١٢٤ | ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ | ١٣ | الشّورى |
| ١٣٨ | الالتفات | ١٢٥ | ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ | ١٣ | الشّورى |
| ١٣٩ | الاستعارة | ١٢٥ | ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا﴾ | ١٣ | الشّورى |
| ١٤٠ | الفصل | ١٢٦ | ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ | ١٣ | الشّورى |
| ١٤١ | الفصل | ١٢٦ | ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ | ١٣ | الشّورى |
| ١٤٢ | القصر بالتّقديم | ١٢٦ | ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ | ١٣ | الشّورى |
| ١٤٣ | الاستعارة | ١٢٦ | ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ | ١٣ | الشّورى |
| ١٤٤ | التّقديم | ١٢٧ | ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ | ٢٩ | الشّورى |
| ١٤٥ | التّنكير | ١٢٧ | ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ | ٢٩ | الشّورى |
| ١٤٦ | القصر بالتّقديم | ١٢٧ | ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ | ٢٩ | الشّورى |

| ت | الفن البلاغي | رقم الصفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ١٤٧ | الطّباق | ١٢٧ | ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ | ٢٩ | الشّورى |
| ١٤٨ | التّنكير | ١٢٧ | ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ | ١١ | الزّخرف |
| ١٤٩ | الالتفات والاستعارة | ١٢٩ | ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ | ١١ | الزّخرف |
| ١٥٠ | التّشبيه | ١٣٠ | ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ | ١١ | الزّخرف |
| ١٥١ | المجاز المرسل | ١٣١ | ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ | ٥ | الجاثية |
| ١٥٢ | التّنكير | ١٣٢ | ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ | ٥ | الجاثية |

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

# الفصل الثّالث

# قصص الأنبياء والأمم السّابقة

## توطئة

تتعدد أساليب الدّعوة القرآنية، وتتلون الفنون الأدبية والبلاغيّة الرّفيعة في نظمه، وتشكل القصة القرآنية أنموذجا مهماً من تلك الأساليب والفنون، تسهم في تحقيق ما يرمي إليه القرآن من الوعظ والنّصح والإرشاد، ففيها العبرة والموعظة التي أشار إليها قوله (ﷻ) ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1]، وفيها دعوة الرّسول (ﷺ) إلى الصّبر والتّثبت كما قال (ﷻ): ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[2]، كما أنّها تسلية له (ﷺ) حيث تذكر القصة على النّحو الذي يقع له مثله، فضلا عن أنّ القرآن يقص إخبار الماضين ليستخلص منها العظة الدينية، وليكون منها تذكرة نافعة، وهو في كل ذلك يختار من تلك الأخبار ما يوافق غايته الدّينية[3]، وقد جاءت القصة في القرآن - في كلّ موضع - ثابتة في مكانها متناسبة مع السّياق والنّظم الواردة فيه، مؤتلفةً مع الغرض الذي سيقت مِنْ أجله[4].

وقد كان للقصة القرآنية - بوصفها أسلوبا من أساليب الدّعوة القرآنية - أثر كبير في المخاطبين، فهي في نقلها الحقائق والوقائع عن الأمم السّالفة، تستحوذ على الأذهان وتأسر النّفوس وتعمق الجوانب الإنسانية ليتحقق الغرض الأسمى لهذه الدّعوة، ولم تكن تلك الأخبار مجرد عبارات تحكي تلك الأحداث، وإنّما جاء القصص القرآني في أبهى قوالب الإعجاز، وفي تراكيب عجيبة محكمة وأساليب

(١) سورة يوسف: من الآية ١١١.

(٢) سورة هود: من الآية ١٢٠.

(٣) =: النّظم الفني في القرآن، عبد المتعال الصعيدي: ٣٨.

(٤) =: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي: ٣٢٤.

بلاغية عالية تتفجر منها ينابيع الحكمة وفيوض الموعظة(١).

وقد تضمنت سور الحواميم - شأنها شأن السّور الأخرى - جانبا من القصص القرآني، فالكثير من الآيات تعرض لنا أخبار الأنبياء والأمم السّابقة على نحوٍ عام على سبيل الإجمال، ومنها ما تحدثت عن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) ودعوته بشكلٍ موجز، وذلك في سورة الزخرف، ومنها ما عرض لنا أخبار عادٍ وثمود ودعوة الرّسل لهم وموقفهم من الدّعوة، ثمّ إظهار ما أصابهم من العذاب جزاءً لإنكارهم ورفضهم الاستجابة للدعوة، ومنها ما أفاض في ذكر جوانب من قصة موسى (عليه السلام) مع فرعون والحديث عن مؤمن آل فرعون، وكذلك الحديث عن قصة موسى (عليه السلام) مع بني إسرائيل، وتضمنت بعض الآيات ذكر عيسى (عليه السلام) وجوانب من قصته، وعلى وفق ذلك جاءت مباحث هذا الفصل متسلسلة بحسب السبق الزمني - كما عرضت في السّور الكريمة - وأفرد الأوّل منها لذكر الأنبياء والأمم بشكل عام.

❖❖❖❖❖

# المبحث الأوّل

## الأنبياء والأمم السّابقة بشكل عامّ

مِن ذلك قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦ ﴾(٢).

تأتي هذه الآيات في سياق خطاب الرّسول (ﷺ) بعد قصر الجدل في آيات الله على الكافرين إذ يخاطبه الله (ﷻ) بالقول ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾(٣)، وتأتي هذه الآيات تسلية للرّسول (ﷺ) لتشابه حال المجادلين من قومه بحال أمثالهم من الأمم السّالفة، فمنهم مَن أراد قتل الرّسل وإهلاكهم وجادلوا لدحض الحق بالباطل، ولكنّ الله ناصر رسله في كلّ زمان ومكان، فما كان حال المكذبين إلاّ الهلاك وفي الآخرة

---

(١) =: روائع الإعجاز في القصص القرآني، محمود السيد حسن: ٦٢.

(٢) سورة غافر: الآيتان ٥ و٦.

(٣) سورة غافر: من الآية ٤.

مأواهم النّار.

وقد جاءت الآية الأولى بياناً لجملة (فلا يغررك تقلبهم) باعتبار التّفريع الواقع بعدها في قوله تعالى ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾، وتدل صيغة (فَعَّلَ) في قوله (كذَّبت) على التّكثير والإصرار على هذا الفعل، وجاءت على تأنيث الجماعة، أي: كذَّبت الرّسل[١]، وقيل: إنّ في التأنيث إشارة إلى ضعفهم عن المقاومة وتلاشيهم عند المصادمة[٢]، وقد بدأ بقوم نوح لأنّه أوّل رسول في الأرض أو لأنّهم أوّل قومٍ كذبوا رسولهم[٣]. و(الأحزاب): الأمم، فكلّ أمّة منهم حزب فيما اتفقت عليه، وقد جاء الخبر شاملاً لكثير من الأمم السّالفة وقد تحقق هذا الشمول مع وجود محسن الطّباق بين (قبلهم) و(بعدهم)[٤]، والهم: العزم على الفعل، والمعنى: الهم بأخذه، ويوحي قوله برسولهم - بعد لفظة أمّة - بأنّ مصدر الرّسالات جميعاً هو الخالق (ﷻ)، فقد أوحى جمع الأمم بهذا الضمير (هم) بالمعنى وكان المرسلين إليهم هو رسول واحد وذلك لأنّ الدعوة واحدة والهدف واحد والمرسل واحد. وفي قوله (ليأخذوه) إجمال لكلّ ما أرادوا فعله بالرّسل من تعذيب وقتل وحبس وغيره، فهم لم يقتصروا على التّكذيب بل تجاوزوه إلى غاية الأذى من الهمّ بالقتل، ويوحي هذا الفعل بالكناية عن التمكن من إيقاع ما يريدون بهم، ولكنّ الله ناصر رسله والمؤمنين، ولذلك جاء الجزاء من جنس العمل وعلى سبيل المشاكلة البديعية بين (ليأخذوه) و(أخذتهم) وفي ذلك إنذار للمشركين ووعيد بأنّ همهم بقتل الرّسول محمد (ﷺ) هو منتهى أمد الإمهال لهم، وهكذا اختار التّعبير من القصص القرآني ما يوافق غايته الدينية، وتذكر القصة على النّحو الذي يقع للرّسول (ﷺ) مثله، ففي ذلك كلّ العبرة والموعظة للمسلمين، وهو وعيد يقصم ظهور الكافرين.

وتتجلى دقة التّعبير القرآني في انتقاء الألفاظ وحسن اختيارها ووضعها في أنسب موضع وهو ما يسمى بـ (إصابة المعنى)[٥]، فكانت كلمة (ليأخذوه) مثالاً لما

---

(١) =: الجامع لأحكام القرآن: ٢٩٣/١٥.

(٢) =: نظم الدرر: ٨/١٧.

(٣) =: روح المعاني: ٤٣/٢٤.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٨٥/٢٤.

(٥) =: روائع الإعجاز في القصص القرآني: ٨٦.

يسمى بـ (الفرائد)[١]، وفيها يقول الباقلاني: «هل تقع في الحسن موقع قوله (ليأخذوه) كلمة؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة؟ وهل يسد مسدّه في الأصالة نكتة؟ لو وضع موضع ذلك (ليقتلوه) أو (ليرجموه) أو (لينفوه) أو (ليطردوه) أو (ليهلكوه) أو (ليذلوه) ونحو هذا، ما كان بديعاً ولا بارعاً ولا عجيباً ولا بالغاً. فانظر إلى ما قاله من رد عجز الخطاب إلى صدره بقوله: ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ ثمّ ذكر عقيبها العذاب بالآخرة، وأتلاها تلو العذاب في الدنيا على الأحكام الذي رأيت»[٢]، ففي اللفظة معنى أعم من كلّ هذه الألفاظ، ففيها معنى النفي، والطرد، والإهلاك، والإذلال، والقهر، والتّنكيل، وكلّ ما يرد على الخاطر[٣]، فهذا الفعل يدلّ على غاية العنف دون سائر أفعال الإجرام، ويدل على قوة الباطش وظلمه، وسهولة البطش، وكأنّما تصور هذه المفردة ضالة حجم الرسول، وضخامة حجومهم[٤]، ويرد ذلك الفعل بفعل أكبر وأعظم على سبيل المشاكلة في (فأخذتهم) ولا يوصف هذا الأخذ، بل يعقب بالاستفهام التّهويلي من حالة العقاب الذي حلّ بالكافرين من الأمم السّابقة، وذلك يقتضي أن المخاطب بالاستفهام قد شاهد ذلك الأخذ والعقاب وإنّما بني ذلك على مشاهدة آثار ذلك الأخذ، ويجوز أنْ يكون في الاستفهام معنى التّقرير المتضمن للتعريض بالمشركين وتنبيههم إلى عذاب أمثالهم من الأمم السّابقة[٥]. ومِن خلال إيثار كلمة (ليأخذوه) نجد أنّ هناك نوعاً من الألفاظ يرسم صورة الموضوع بظله الذي يلقيه في الخيال، لا بجرسه الذي يلقيه في الإذن، فللألفاظ كما للعبارات ظلال خاصة يلحظها الحسّ البصير حينما يوجه إليها انتباهه وحينما يستدعي صورة مدلولها الحسية[٦].

وفي هذا الخبر بهذا الإجمال تسلية له (ﷺ) ولم يؤكد الخبر لأنّ الرّسول (ﷺ)

---

(١) «وهو أنْ يأتي النّاظم أو الناثر بلفظة فصيحة من كلام العرب العرباء تنزل من الكلام منزلة الفرائد من العقد بحيث إنّها لو سقطت من الكلام لم يسد غيرها مسدها» معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة: ٢/٦٣٤.

(٢) إعجاز القرآن: ١٩٧ - ١٩٨.

(٣) =: الإعجاز البلاغي: ٢٤٢.

(٤) =: جماليات المفردة القرآنية: ٣٠٥.

(٥) =: الكشّاف: ٤/١٥١، والتّحرير والتّنوير: ٢٤/٨٧.

(٦) =: روائع الإعجاز في القصص القرآني: ٨٧.

والمؤمنين خلاة الأذهان عنه، ولأنّ الخطاب صادر من الله تعالى ولا يعتريهم شكّ فيه، فلم يأتِ بالمؤكدات.

ويستكمل التّعبير القرآني وصف إمعان الكافرين بالجور وارتكاب الإثم العظيم، فيأتي إجمال آخر لأفعالهم القبيحة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَـٰدَلُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ فكل ما من شانه أنْ يكون باطلاً اتخذوه سبيلاً لمحاربة الحق الذي جاء به الرّسل، ولم يتركوا وسيلةً في محاربتهم إلاّ هموا بفعلها فاستحقوا العذاب.

وفي مجيء كلمة (عقاب) بالاكتفاء بالكسرة فيها عن ياء الإضافة مزيد من التّهويل والتّعظيم لذلك الأخذ[١]، والعذاب الذي حلّ بهم.

وتأتي الآية الأخرى على سبيل التّشبيه، والمعنى: ومثل ذلك الحقّ حقت كلمة ربّك، فقد شبه وجوب وقوع عذابه على الذين كفروا من قوم محمد (ﷺ) بذلك العذاب الذي حلّ بالأمم التي كذبت رسلها، وقد أفاد أنّ المشبه بلغ الغاية في وجه الشّبه حتى لو أراد أحد أنْ يشبهه لم يشبهه إلاّ بنفسه، فهو قد بلغ الغاية في الظهور ولذلك جاء على سبيل التّعريف باسم الإشارة[٢]، وقد يكون المعنى (ومثل ذلك الأخذ)[٣] استكمالاً للتّهديد والوعيد.

وفي إضافة لفظة (ربّ) إلى النّبي (ﷺ) في قوله (ربّك) تشريف له وتثبيت، وقوله (على الذين كفروا) تعميم بعد تخصيص يشمل جميع الكافرين، وهو تذييل، لأنّ المراد بالأحزاب الأمم المعهودة التي ذكرت قصصها فيكون (الذين كفروا) أعمّ، فضلاً عن تناسب هذا التّعميم مع ذكر مصير الكافرين من السّابقين واللاحقين، فهم جميعاً من أصحاب النّار. وهكذا يجمل التعبير القرآني عذابهم الدنيوي المتشابه الأسباب، ويقرر عذابهم الأخروي تهديداً ووعيداً ليتحقق الهدف من القصص القرآني في العبرة والعظة، وهو أوّل أهداف القصة القرآنية يتحقق هنا من خلال بيان أسباب الهلاك التي يمكن أنْ تصيب الأمم والجماعات والأفراد[٤]، كما أصابت من قبلهم. ولا يتحدد

(١) =: م. ن: ٣١٣.

(٢) =: التّعريف والتّنكير في النّحو العربي، أحمد عفيفي: ٢٥.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٨٧/٢٤.

(٤) =: القصص القرآني، إيحاؤه ونفحاته، فضل حسن عباس: ١١.

هدف القصص القرآني باتجاهٍ واحد فحسب، فهو للرسول (ﷺ) تثبيت وتطمين، وهو للمؤمنين تذكير وعظة، وهو للغافلين تحذير ووعيد وإنذار(١)، وهكذا كان القصص القرآني وسيلة لتقرير جوهر العقيدة، وتوجيه النّفس إلى الله، وكان أداة لتربية النّفوس وغرس الشّعور بالسلطان الإلهي الأعلى، فالقصة القرآنية سلاح نفسي في الدّعوة إلى حقيقة التّوحيد، فهي تصور لنا لقطات حية من التّاريخ تشعرنا بما في النّفس البشرية من تجانس وتقابل عبر التّاريخ، فتخرجنا من حدود أنفسنا إلى جوّ أحداثها فنحكم عقولنا وعواطفنا فيما توحي به تلك الأحداث، فتحصل نعمة الهداية.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

بعد ذكر صفة الكافرين من الأمم السّابقة بكيدهم وهمهم بأخذ الرّسل وجدالهم بالباطل لدحض الحق به، وذكر عاقبتهم وهلاكهم، يعرض التّعبير القرآني صفةً أخرى لهؤلاء تقترن بذكر ما حل بهم من العذاب، وهدف كلّ ذلك العبرة والعظة من ذكر تماثل أسباب الهلاك بين الكافرين من المخاطبين في زمن نزول الآية وبين أمثالهم من الأمم السّابقة. يقول الله (ﷻ) ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾(٢).

يؤثر التّعبير القرآني هنا أسلوب الغيبة بدلاً من الخطاب، فيبدأ بالاستفهام التّقريري الذي يفيد التحذير من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السّالفة، وهو شائعٌ في مثل هذه المواضع، وهو الدّاخل على نفي في الماضي بحرف (لم) ويلحظ في الآية مجيء واو العطف بين الهمزة والنّفي ليكون مضمون النّفي معطوفاً على آية ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ ﴾(٣)، في حين جاءت الفاء بدلاً من الواو في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى

---

(١) =: البيان القصصي في القرآن الكريم: ١٠٥.

(٢) سورة غافر: الآيتان ٢١ و٢٢.

(٣) سورة غافر: من الآية ١٨.

ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[١]، وذلك لأنّ آيتها معطوفة بالفاء للتفريع لوقوعها بعد ما يصلح لأنْ يفرّع عنه إنكار عدم النّظر في عاقبة الذين من قبلهم[٢]. وممّا يلحظ أيضا بين الآيتين أنّه أظهر (كان) العامل في (مِن قبلهم) وزاد (هُم) لأنّ الآية في هذه السّورة وقعت في أوائل قصة نوح وهي تتم في ثلاثين آية فكان اللائق البسط، وفي الآية الثانية في آخر سورة غافر لم يبسط القول لأنّ أوّل السّورة يدل عليه[٣]، فضلاً عن تناسب خاتمة كلّ آية من الآيتين مع السّياق الذي وردت فيه، فقال في الآية الحادية والعشرين: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ وذلك لأنّ الآيات التي قبلها تحدثت عن يوم القيامة وجزاء كلّ نفس بما كسبت وذكر يوم الآزفة وحال النّاس في ذلك اليوم، وأنّ الظّالمين مالهم من حميم ولا شفيع يطاع، فختمت الآية بما يناسب هذا السياق. أمّا الآية الثّانية والثّمانين فختمت بقوله ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ وذلك لأنّ السّياق الذي وردت فيه سياق ذكر النّعم الإلهية، وما يمتلك الإنسان من الأنعام ومنافعها وما يكسبه من التّنقل على ظهورها وعلى الفلك، فكلّ هذا الكسب لا يغني عنهم شيئاً، لذلك ختمت الآية بما يناسب هذا السّياق، وقد ختمت الآية الثّانية والعشرون بما يناسب سياقها أيضا، فالخبر في قوله ﴿ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ يدلّ على قوةٍ ملازمة ودائمة وثابتة لا يشوبها ضعف أبدا، وقد جاء التّعبير عنها بالجملة الاسمية الدالة على الثّبوت ليتناسب مع دوام قوته تعالى. فضلاً عن اختلاف النّظم بين قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾[٤] وبين قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[٥]، فاختلفت الآيتان في (بأنّهم كانَت) و(بأنّه كانت) لأنّ هاء الكناية إنّما زيدت لامتناع (أنّ) عن الدخول على كان،

---

(١) سورة غافر: الآية ٨٢.

(٢) =: التّحرير والتنّوير: ١١٩/٢٤ - ١٢٠، وسورة المؤمن دراسة لغوية تحليلية: ١٢٢.

(٣) =: أسرار التّكرار في القرآن: ١٦٧.

(٤) سورة غافر: الآية ٢٢.

(٥) سورة غافر: الآية ٨٣.

فخصت هذه السّورة بكناية المتقدم ذكرهم موافقة لقوله ﴿ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾، وخصت سورة التّغابن بضمير الآمر والشّأن توصلاً إلى كان[1].

ونعود إلى الآية الأولى وإلى ما فيها من الدعوة إلى النّظر في عاقبة الكافرين من الأمم السّابقة، وقد جاءت هذه الدّعوة على سبيل الاقتران أو (تراسل الحواس) «وهو من قوانين التّداعي لوجود حالتين نفسيتين معاً في الشّعور تذكر إحداهما بالأخرى. . فالتّرابط هو الطّريقة الوحيدة لتذكر أي شيء مهما كان، والتّذكر سبيل لتحريك العقل، وإذا تحرك العقل بالنّظر أو القياس أو الاستقراء فقد يتحرك القلب بالإيمان، والوجدان باليقين.. ثمّ إنّ عقولنا تعتمد على الرّؤية كثيراً، لأنّ انطباعات النّظر تثبت، فنحن نستطيع في معظم الأحيان أنْ نتذكر وجه الشّخص عند عجزنا عن تذكر اسمه.. »[2]، فالنّظر في عاقبة الأقوام البائدة بالهلاك يورث التّفكر وأخذ العبرة وتغيير مسار الحياة، وقد جاء قوله ﴿ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ استئنافاً بيانياً بترك العطف لتفصيل الإجمال الذي في قوله ﴿ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، وقد تضمن توكيداً بالضمير (هم) للضمير المتصل قبله في (قبلهم)، ولم يبين كيف كانت تلك العاقبة أو ذلك العذاب، وإنّما أظهر ما يلائم حال المخاطبين مراعاةً لمقتضى الحال فجاءت العبرة بالتّفريع بقوله ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ فهو القادر عليكم أنتم الضعفاء مثلما كان قادراً على أولئك الذين كانوا أكثر منكم قوة. والتّعبير بـ (القوة) هنا كناية عن الإباء من الحق والنّفور من الدّعوة، وقد جاء الاستئناف البياني في قوله ﴿ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ على سبيل الفصل للتفسير وتفصيل الإجمال[3]. والأخذ: الاستئصال والإهلاك، وكني به عن العقاب أو استعمل الأخذ مجازاً في العقاب، وقدم الجار والمجرور (مِن الله) للاهتمام، و(مِن) الأولى للبدلية، و(مِن) الثّانية لتوكيد النّفي بحرف (ما)[4]، وهي التي تفيد التّنصيص على العموم[5]، وتقديم (لهم) وهي خبر كان على

(١) =: أسرار التّكرار في القرآن: ١٨٦.
(٢) سيكولوجية القصة في القرآن: ٤٦٧.
(٣) =: الفصل والوصل في القرآن الكريم: ٤١ و١٠٠.
(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/١٢٠ - ١٢١.
(٥) =: الجنى الداني: ٣٢٠.

الاسم المؤخر (واق) للاهتمام بنفي حصول أية وقاية من غيره تعالى لكلّ من يسرف في حقه من العباد فضلاً عن رعاية الفاصلة، وذكر سبب الأخذ على سبيل الإجمال في قوله (بذنوبهم) ليأتي تفصيله بعد ذلك بقوله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم ﴾ أي بسبب أنّهم كانت تأتيهم، وجمع الضمير في (تأتيهم) و(رسلهم) وجمع (الرسل) من مقابلة الجمع بالجمع، وتكرر قوله: (فأخذهم الله) على سبيل الإطناب لتقرير أخذ الله إياهم وتهويلاً على المنذرين بهم أنْ يماثلوهم في عاقبتهم كما ماثلوهم في أسبابها[1]. أمّا تكرار الفاء في (فكفروا) و(فأخذهم) فللإيحاء بالمباشرة بعذابهم - على الرّغم ممّا تمتعوا به من القوة والكثرة - وكأنّهم لم يمهلوا شيئاً من الزّمن، وقد ناسب ذلك، التّذييل بعدهُ والذي جاء على سبيل الفصل وهو قوله ﴿ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ ليتناسب مع وصفهم بالقوة وأنّ قوتهم تلك لم تكن شيئاً أمام قوة الخالق وقدرته، وقد زاد هذا الفصل الأسلوب القرآني هنا جزالةً وفخامة وأضفى عليه حسناً وقوة تأثير، فضلاً عن إفادته تثبيت المعنى وتوكيده[2].

وهكذا تكون القصة القرآنية وسيلة للإرشاد والإيمان والعظة، فهي إحدى وسائل القرآن إلى غايته، ويلحظ هنا أنّ القصة تعرض الأحداث دون التّركيز على الشّخصيات، فالتّعبير القرآني يختار منها ما يخدم الفكرة الرئيسة، ويختار الجو الملائم لتحقيق الهدف، وهذه الحوادث لا تؤثر في النّفس وتثير الانفعال لمجرد أنّها أحداث فخمة، فيها فعل الله وآثار قدرته، ولكنْ أيضا بتصويرها الفني الذي يبعد عنها الجمود، وباكتناز نظمها للكثير من الفنون البلاغية التي تسلك فيه على وفق الوجه الأكمل مِنَ التناسب.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وممّا يماثل الآية السّابقة قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٢٢/٢٤.

(٢) =: الفصل والوصل في القرآن الكريم: ٩١ و٩٢ و٩٧.

مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[١].

وللإيجاز، سنذكر في تحليل الآيات ما لم نذكره في سابقتها، فقد جاءت هذه الآيات بعد ذكر النّعم الإلهية، وناسب ذكر السّير الذي تحصل فيه آيات ودلائل على وجود الله ووحدانيته قوله قبل ذلك ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ وفي ذلك إيماء إلى حاجة الإنسان في كلّ زمانٍ ومكان إلى التّدبر فيما حوله من دلائل القدرة ليكون صدره عامراً باليقين الثّابت، ولذلك انتقل التّعبير القرآني من ذكر النِّعم والتّنقل على الأنعام والفلك إلى ذكر السّير في الأرض للنظر في دلائل القدرة والتي منها عاقبة الأمم السّابقة من الكافرين.

وقد تواشج الاعتراض مع التعريض في قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ ليفيد أنّ كثرتهم وقوتهم وحصونهم لم تغن عنهم من بأس الله شيئاً، وقد جاء هذا التّعريض ليحدث في نفوس المخاطبين من أمثال أولئك الغابرين توبيخاً وذلاً يقابله التّوبيخ الآخر الذي تضمنه التّعريض الثّاني في قوله ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم ﴾ فالفرح كناية عن آثاره وهي الازدهاء وهو ما يوحي به قوله (يستهزئون)، إذ إنّ عماد الكناية على المعنى الثّاني أو الدّلالة الحافة بحسب مفهوم البحث المعاصر، وأنّ هذا المعنى يفهمه المتلقي إيحاء وينبئ به المعنى الأول للألفاظ[٢].

وفي الآية فن الاحتباك، فقد أثبت الفرح أوّلا دليلاً على حذف ضدّه ثانيا، وأثبت الاستهزاء ثانياً دليلاً على حذف مثله أوّلا[٣].

وتأتي الاستعارة في قوله (وحاق بهم) للتّعبير عن الإحاطة من كلّ جانب، وهي الشّدة التي أحاطت بهم ولم تدع لهم مفرجاً، وهكذا كانت الاستعارة أداة للتّعبير عمّا لا يمكن التّعبير عنه إلاّ بها[٤]. وفي هذه الصورة الاستعارية تلميحٌ إلى شدّة العذاب والهلاك وبيان لأسبابه وهي استهزاؤهم بالرّسل والآيات البيّنات.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) سورة غافر: الآيتان: ٨٢ و٨٣.

(٢) =: الأسلوب في الإعجاز البلاغي، محمد كريم الكوّاز: ٣٠٠، (أطروحة دكتوراه).

(٣) =: نظم الدرر: ١٧/١٣٠.

(٤) =: الصّورة الشّعرية في الخطاب البلاغي والنّقدي، الولي محمد: ٢٥١.

يتوالى ذكر الغابرين من مشركي الأمم السّالفة وعذاب الله إياهم جزاءً بما كانوا به يشركون، لينتفع المخاطبون في زمن نزول الآيات ومن بعدهم، ويكون ما في القصص القرآني عبرةً لهم، وتعرض سورة غافر صفةً أخرى لأولئك، وهي صفة الاستسلام والقول بالإيمان عند معاينة العذاب حين لا ينفع ذلك. يقول الله (ﷻ): ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[١].

تشكل هذه الآيات قاعدةً ثابتة لمَن أراد أنْ يعتبر، فلا تسويف في التّوبة ولا تأجيل لأنّ ساعة الموت أمر غيبي تأتي بغتةً على الإنسان فتفوته الفرصة.

وحين حاق بالكافرين عذاب الله ورأوا بأسه، سقط عنهم القناع، وأدركوا مدى الغرور، واعترفوا بما كانوا ينكرون، وأقروا بوحدانية الله، وكفروا بشركائهم مِنْ دون الله، ولكنْ بعد فوات الواوان، ولذلك عدل عن أنْ يقال: (فلم ينفعهم) إلى: (فلم يكُ ينفعهم) «لدلالة فعل الكون على أنّ خبره مقرر الثّبوت لاسمه، فلمّا أريد نفي ثبوت النّفع إياهم بعد فوات وقته اجتلب لذلك نفي فعل الكون»[٢]، وفائدة دخول (يكُ) المبالغة في نفي الفعل الداخلة عليه بتعديد جهتي نفيه عموماً باعتبار الكون، وخصوصاً باعتباره في هذه الآية، فكأنّه نفي مرتين[٣].

وحذف نون (يكن) لكثرة الاستعمال[٤]، والتّخفيف، وليتناسب ذلك مع سرعة اعتراف هؤلاء بما كانوا ينكرون، وقد أظهر في موضع الإضمار زيادةً في التّرهيب فقال: (بأسنا) لأنّ الإيمان لا يتحقق ولا يتصور إلاّ مع الغيب، وأمّا عند الشّهادة فقد كشفت سريرته على أنّه قد فاتت حقيقته وصورته[٥].

ويوحي الطّباق بين (آمنا) وبين (كفرنا) بهذا الانقلاب السّريع المناسب للسّياق.

---

(١) سورة غافر: الآيتان ٨٤ و٨٥.

(٢) التّحرير والتّنوير: ٢٢٢/٢٤.

(٣) =: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال: ١٨٣/٤.

(٤) =: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي: ١٨٠.

(٥) =: نظم الدرر: ١٣٢/١٧.

ثمّ يستأنف الكلام على سبيل الفصل استئنافاً بيانياً جواباً لسؤال مَن يسأل، لماذا لم ينفعهم الإيمان وقد آمنوا؟ فأجيب بأنّ ذلك الذي هم فيه أو الذي فعلوا لا ينفعهم، فهي سنة الله التي فد خلت في عباده إذ لا ينفعهم الإيمان عند معاينة العذاب.

وزيادةً في خسرانهم الذي هم فيه وذلك في قوله: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ ﴾، ذكر خسرانهم عند رؤية بأس الله وعدم نفع إيمانهم حينئذٍ بقوله: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾، فاستعير اسم الإشارة (هنالك) للزمان، وعدل عن ضمير (الذين كانوا من قبلهم) إلى الاسم الظّاهر (الكافرون) إيماء إلى أنّ سبب خسرانهم هو الكفر، وهكذا سيكون هو السّبب في خُسران كلّ مَن لم يأخذ العبرة والعظة من قصص هؤلاء وعاقبتهم.

❖❖❖❖❖

يتواصل ذكر القصص القرآني تسليةً للرّسول (ﷺ) وتثبيتاً، ويذكر مشركو الأمم السّابقة بصفة أخرى هي التّفرق الحاصل بينهم لأجل العداوة وبسبب عدم المحافظة على وصايا الرّسل، وفي ذلك يقول الله (ﷻ): ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾[1]، فالضمير في (تفرقوا) عائد إلى أمم الرسل المذكورين قبل هذه الآية[2]، فهي إذا تقص علينا جانباً من موقف الكافرين من الرّسل ودعوتهم. وقد ابتدأت الآية بأسلوب القصر بالنّفي والاستثناء إذ قصر زمن التّفرق أو فعله على زمن مجيء العلم، ويتواشج القصر مع فن بلاغي آخر هو الاحتراس، وذلك في بيان سبب التّفرق بقوله: (بغياً بينهم) أي بغى بعضهم على بعض فأوصلهم ذلك إلى الاختلاف في الرأي، فقد تفرقوا تحت تأثير الأهواء والشّهوات وحبّ الدّنيا، فلم يكن تفرقهم لقصور في البيان والحجج، ولكنّ للبغي والظّلم والاشتغال بالدّنيا، وفي هذا الاحتراس تعريض بالمشركين في إعراضهم عن دعوة الإسلام لعداوتهم للمؤمنين، وقد أوثر إضمار ذكرهم والاكتفاء بالضمير في (تفرقوا)

---

(١) سورة الشّورى: الآية ١٤.

(٢) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٢/١٦.

على سبيل الغيبة تناسباً لما في الآية من تعريضٍ بهم. ويتسق القصر مع المجاز العقلي في (جاءهم العلم) وذلك بإسناد المجيء إلى العلم، والفاعل الحقيقي هو إمّا الرّسل أو الله تعالى.

أمّا تنكير (كلمة) الذي تواشج مع استعارتها للإرادة والتّقدير، فقد أفاد التّنويع، لأنّ لكلّ أمّة منهم كلمة من الله في تأجيلهم، فضلاً عن دلالة التّعظيم، ولولا ذلك لفصل بينهم في الدّنيا وغلب المحق على المبطل[١]. وجاء تنكير (أجل) للتنويع أيضا فلكلّ أمّة منهم أجل مسمى.

ويشير التّعبير القرآني إلى معاصري الرّسول (ﷺ) من اليهود والنّصارى في قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ باستعارة الإرث للخلفية في علم الكتاب الذي اختلف فيه سلفهم، والتّعريف في (الكتاب) للجنس ليشمل التّوراة والإنجيل، وقد جاء الخبر مؤكداً بـ (إنّ) و(اللام) للاهتمام، وهذا الاهتمام كناية عن الحث على الحذر من مكرهم، وعدم الرّكون إليهم[٢].

وقد آثر التّعبير القرآني كلمة (شكّ) على (ريب)، ذلك أنّ (الرّيب) قلق النّفس واضطرابها وانتفاء طمأنينتها، و(الشّكّ) لا يعني هذه الدلالة فهو اعتدال النّقيضين عند الإنسان[٣]، والشّاكّ يجوز كون ما شكّ فيه على إحدى الصّفتين لأنّه لا دليل هناك ولا إمارة[٤]، أي باعتبار ذواتهم واعتقادهم وإلاّ فهو حق مبين، فضلاً عن أنّ هذا الشّك وصف بأنّه (مريب) على سبيل المبالغة المتحققة من إحداث الرّيب من الشّك وهو مجاز عقلي بعلاقة السّببية.

وتأتي الصّورة الاستعارية من خلال الظّرفية المجازية في قوله (في شكٍّ) لتظهر تمكن الشّك من نفوسهم كما يحيط الظرف بالمظروف، ويسند ذلك باستعارةٍ تبعية في الحرف (مِن) الذي وقع موقع باء المصاحبة أو السّببية[٥]، والضمير في (منه) جاء على سبيل الإيجاز لكثير من المعاني، إذ يمكن أنْ يعود على محمد (ﷺ)، أو على (أجل

(١) =: المحرر الوجيز: ١٣/١٥١.
(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٥٨ - ٥٩.
(٣) =: ظاهرة التّرادف في ضوء التّفسير البياني للقرآن: ٩٩.
(٤) =: الفروق في اللغة: ٩١.
(٥) =: التّحرير والتنوير: ٢٥/٩٥.

مسمى) أي في شكّ من البعث، أو على القرآن[1].

وهكذا تصور الآيات نفوس هؤلاء التي يملؤها الشك على سبيل التّعريض بهم وبأسلافهم، وتوحي - مقابل ذلك - بثبات المؤمنين وعقيدتهم وهم يقفون بقدمٍ راسخةٍ ثابتة. ومن ظلال نظم الآية ومعانيها الثّواني الإشارة إلى حقيقة الرّسالة المحمدية وعظمة هديها إلى طريق الخير، فقد تفرق أتباع الرّسل - من بعد ما جاءهم العلم - والذين وارثوا الكتاب يملأ الشّك نفوسهم، وخلت البشرية من قيادة ترشدهم إلى الحق، فجاءت الرّسالة المحمدية تدعو النّاس إلى طريق الحق وتجدد الدّعوة إلى التّوحيد، وتذكر بمصير الكافرين من الأمم السّالفة، وتدعو بذلك إلى أخذ العبرة ممّا يذكره القرآن الكريم من قصصهم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

يتوالى ذكر صفات الكافرين من الأمم السّابقة وموقفهم من الرّسل على سبيل التّماثل مع موقف المشركين من دعوة النّبي (ﷺ)، ويختار التّعبير القرآني من تلك الصّفات والمواقف ما يناسب حال أمثالهم في زمن الرّسالة، وفي ذلك تسلية له (ﷺ) وتثبيت، وهو - في الوقت نفسه - وعيد للمشركين وتهديد بأنْ سيصيبهم ما أصاب أمثالهم من الكافرين في الأمم السالفة.

فبعد أنْ أسرف المشركون في عنادهم وكفرهم وإيذائهم للرّسول (ﷺ) والمؤمنين، أنكر القرآن ذلك عليهم بقوله ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ ﴾[2]، وذكرهم بأنّ أمثالهم من الأمم السّابقة كانوا أشدّ منهم بطشاً وإيذاء للرّسل فما كان مصيرهم إلاّ الهلاك، فحال النّبي (ﷺ) كحال الرسل مع أولئك الكافرين، وقد جاء كلّ ذلك في قوله تعالى ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ ﴾[3]. ولأن المقام مقام تسلية للنبي (ﷺ) فقد ابتدأت الآيات بـ (كم) الدّالة على

---

(١) =: الجامع لأحكام القرآن ١٦/١٢.
(٢) سورة الزّخرف: الآية ٥.
(٣) سورة الزّخرف: الآيات ٦ - ٨.

التّكثير، وقد نقلت من الاستفهام غالي الإخبار على سبيل الكناية، وقد أوثر التّعبير بها عن هذا المعنى هنا لكي يكون ذلك أدخل في زجرهم عن فعل أمثالهم، وأدخل في تسلية الرّسول (ﷺ)[١].

ويوحي إسناد الإرسال إلى الله (ﷻ) - بنون العظمة - إلى أنّ مصدر الرّسالات جميعاً هو الله تعالى، فالدّعوة واحدة، ومصدرها واحد، وفي ذلك تثبيت للنبي والمؤمنين، وإبطال الشّرك وإنكار ما في نفوس المشركين من شكّ في ذلك، ومِن لطائف البلاغة في نظم الآية إيثار أسلوب القصر في قوله: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وهو ما يناسب مقام التّذكير بصفات الكافرين وقد تماثلت أحوالهم في الاستهزاء بالرّسل. وقد أوثر هنا لفظ (نبي) وقال في سورة أخرى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[٢] وذلك أنه «لما تقدم في آية الزّخرف لفظ (كم) الخبرية وهي للتّكثير ناسب ذلك مَن يوحى إليه من نبي مرسل أو نبي غير مرسل، فورد هنا ما يعم الصّنفين (عليهم السلام)، أمّا آية الحجر فلم يرد فيها ولا قبلها ما يطلب التّكثير مع ما تضمنت من قصد تأنيسه (ﷺ) وتسليته فخصت بالتّعيين باسم الرسالة تسلية له عن قولهم (إنّك لمجنون) ... ومِن البين أنّ موقع (رسول) أمكن في تسليته (ﷺ) فجاء كلّ على ما يجب من المناسبة»[٣]، وفي الآية عموم أريدَ به الخصوص، فالأولون هم الأمم الماضية بشكل عام، وقوله (يستهزئون) خاص بمَن فعل ذلك، فقد كان في الأولين مَن لم يستهزئ. وتقديم الظرف (به) للإشارة إلى أنّ استهزاءهم به لشدة مبالغتهم فيه كأنّه مقصور عليهم[٤]، فالقصر قد صورهم وكأنّهم لم يكن لهم إزاء الرّسل إلاّ الاستهزاء بهم جميعاً، ولذلك استحقوا الهلاك الذي ذكر في الآية الأخرى بقوله ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم ﴾ والضمير هنا عائد إلى (قوم مسرفين) الذين تقدم خطابهم فعدل عن استرسال خطابهم - على سبيل الالتفات - إلى توجيهه إلى الرّسول (ﷺ) توافقاً مع الغرض الأهم وهو التّسلية والوعد بالنّصر، فضلاً عمّا في ذلك من التّعريض

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٦٥/٢٥.

(٢) سورة الحجر: الآية ١١.

(٣) ملاك التّأويل: ٥٨٤/٢ و=: التّعبير القرآني: ١٦٤.

(٤) =: نظم الدرر: ٣٨٦/١٧.

بالمكذبين من هؤلاء، ولا شكّ في أنّ النكتة التي تحصل من هذا الالتفات هي تجديد نشاط السّامع أيضا[١].

وقد جاء عرض مصير الكافرين وهلاكهم مع وصفهم بالقوة والشّدة في قوله: ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ على سبيل إيجاز القصر إذ طوي من الكلام ما تقديره: فلا نعجز عن إهلاك هؤلاء المسرفين وهم أقل بطشاً، والضمير في (منهم) يعود على المشركين المخاطبين بقوله ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ ﴾ فكنى عنهم بعد أنْ خاطبهم[٢]. وفي قوله ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ كناية عن استئصالهم لأنّ مضي الأحوال يكون بمضي أصحابها، وذكر (الأولين) إظهار في مقام الإضمار لكي يكون الإخبار عنهم صريحاً وجارياً مجرى المثل[٣]، فصاروا عبرة لكلّ معتبر.

❖❖❖❖❖

تتماثل حجج الكافرين وافتراءاتهم على مرّ العصور، فحين أصرّ المشركون على عنادهم ورفض الدّعوة إلى التّوحيد بدعوى أنّهم يسيرون على نهج الآباء والأجداد في العبادة، عرض التّعبير القرآني تماثل هذه الصّفة بينهم وبين أمثالهم من الأمم السّالفة، لتوبيخهم وتهديدهم بالهلاك الذي حلّ بأمثالهم جزاء إصرارهم على الشّرك، وكذلك تسليةً للرّسول (ﷺ) وتثبيتاً له وللمؤمنين من خلال عرض هلاك الكافرين ونصر المؤمنين، وقد جاء ذلك في قوله تعالى ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[٤].

فالآية الأولى جاءت توبيخاً لهم وذماً لما كانوا يقولونه في إصرارهم على الكفر

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٦٦/٢٥.

(٢) =: الجامع لأحكام القرآن: ٦٣/١٦.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ١٦٧/٢٥.

(٤) سورة الزخرف: الآيات ٢٢ - ٢٥.

إذ لم يقارنوا بين دعوة الرّسول (ﷺ) وبين ما ورثوه من آبائهم من فساد العبادة، وأبطلوا نعمة العقل ولم يميزوا بين الحق والباطل، وكانت الحجة القريبة منهم في الإصرار هي القول: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ أي على طريقة ومذهب أو ملّة ودين، فالآية توبيخ لهم على ما هم فيه من التّقليد الأعمى، وقرئت (أمّة) بكسر الهمزة وهي بمعنى النّعمة، والمعنى أنّهم يقولون: وجدنا آباءنا في نعمة من الله تعالى وهم يعبدون الأصنام فذلك دليل رضاه عنهم وكذلك اهتدينا نحن بذلك على آثارهم(١). ويتناسب هذا المعنى مع الآية الأخرى ولا سيّما كلمة (مترفوها) التي توحي بمعنى النّعمة والتّرف أيضا فيحصل التّماثل في الحال والمقال. ويوحي استخدام الحرف (على) في مقالتهم تلك بمزيدٍ من الإصرار والتّمكن، والذي يتواشج مع التّوكيد الحاصل بتكرار قولهم (إنّا)، ويستكمل هذا المعنى بجعلهم اتباع آبائهم اهتداءً، وفي ذلك إيحاءٌ بالغرور الذي أعمى بصائرهم ولم يتدبروا، فكانوا منغمسين في الضّلال الذي تصوروه اهتداء، وما هو إلاّ تقليد أعمى على تلك الآثار الضّالة. واختلاف الفاصلة بين (مهتدون) وبين (مقتدون) من باب التّناسب، فقد «خصّ الأوّل بالاهتداء لأنّه كلام العرب في محاجتهم رسول الله (ﷺ) وادعائهم أنّ آباءهم كانوا مهتدين فنحن مهتدون، ولهذا قال بعده ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ ﴾، والثّاني حكاية عمّن كان قبلهم من الكفار وادعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء، فاقتضت كلّ آية ما ختمت به»(٢)، فضلاً عن أنّ أقوال السّابقين كثيرة مختلفة يجمع مختلفها أنّها اقتداء بآبائهم فحكاية أقوالهم من قبيل حكاية القول بالمعنى وهي طريقة كثر ورودها في القرآن وكلام العرب(٣). وتنكير (أمّة) أفاد التّعظيم بحسب اعتقادهم، وتقديم (على آثارهم) على (مهتدون) و(مقتدون) أفاد التّخصيص فضلاً عن رعاية الفاصلة.

وبسبب تماثل أقوال الكافرين بدأ الإخبار عن أمثالهم من الأمم السّابقة بالتّشبيه: (وكذلك)، أي ومثل قولهم ذلك قال المترفون من الكافرين المرسل إليهم من قبلك، وقدم (كذلك) على متعلقه (قال مترفوها) لإظهار هذه المشابهة والتّشويق لما يرد

---

(١) =: المحرر الوجيز: ٢١٢/١٣.

(٢) بصائر ذوي التّمييز: ٤٢٢/١ - ٤٢٣.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ١٨٩/٢٥.

بعد اسم الإشارة، وهو ما يناسب الغرض من ذكر القصص القرآني، فضلاً عن أنّ قوله (وكذلك) تذييل، أي فذلك شأن الأمم مع الرّسل، وقوله: ﴿ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ جعل التذييل هنا من التّفسير[١].

وممّا يلحظ في هذه الآية والآيات التي عرضت لنا مواقف الكافرين من الرّسل في الأمم السّابقة استخدام أسلوب القصر ولا سيّما بالنّفي والاستثناء، فقال هنا: ﴿ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ ﴾ أي ما أرسلنا في حالٍ من أحوالهم إلاّ في حال قول قاله مترفوها: إنذا وجدنا آباءنا[٢]، وقد حقق القصر تخصيصاً بعد تعميم، فأهل القرى كان منهم مَن أمِن واتبع الرّسل، ولذلك خصص القول باتباع آثار الآباء بأنّه صادر من المترفين، وأنّ التّنعم وحبّ البطالة هو الذي صرفهم إلى التّقليد، وفي ذلك توبيخ لهم ولأمثالهم إذ لم يشكروا المنعم عليهم بل أصروا على الشّرك. وتقدم ذكر القبلية (مِن قبلك) اهتماماً بالتّسلية وتخليصاً لها من أنْ يتوهم أنّه يكون معه في زمانه أو بعده نذير[٣]. وقد أوثر التّعبير عن الرّسل (عليهم الصّلاة والسّلام) بـ (نذير) لأنّ السّياق ذكر النّعمة التي جعلوها سبباً في إصرارهم على الكفر وذلك في قوله (أمّةٍ) على قراءة كسر الهمزة، وكذلك في (مترفوها)، وذكر النّعمة والتّرف يناسبه ذكر الإنذار.

ويبرز في القصص القرآني هنا عنصر مهم وهو الحوار في (قال) و(قالوا)، وقد جاء الفعل (قال) العائد إلى النّذير مفصولاً غير معطوف لأنّه واقع في مجال المحاورة.

ويصور هذا الحوار الموجز خواطرهم النّفسية وآراءهم ومواقفهم بنقل أقوالهم نقلاً أمينا يصوغ القرآن معناه على ما يقتضيه أسلوب إعجازه وهو في ذلك يختار اللقطات الموحية والعناصر الحيّة التي تحقق الغرض[٤]. وهكذا كان للقرآن الكريم طريقته الخاصة في القصص إذ ينتقي أبرز حوادثها وأشدها صلةً بالعبرة المقصودة، ويطوي التّفاصيل والجزئيات التي لا فائدة منها، ويجعل الأفكار التي يريد تلقينها

(١) =: البرهان في علوم القرآن: ٦٩/٣.
(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٨٨/٢٥.
(٣) =: نظم الدرر: ٤١١/١٧.
(٤) =: سيكولوجية القصة في القرآن: ٤١١.

متضمنةً في ثنايا حوار أو جدل أو خطاب أو دعاء[١].

وأمّا مقولة النّذير فجاءت استفهاماً تقريريا مشوباً بالإنكار تصدرته الهمزة التي جاء بعدها (عطف التلقين) بالواو التي عطفت الكلام المأمور به على كلامهم، وغاية الاستفهام تقريرهم على ذلك، لاستدعائهم إلى النّظر فيما اتبعوا فيه آباءهم وفي ما دعاهم إليه الرّسول وهو (أهدى)، هكذا بصيغة اسم التفضيل من الهدي لأجل أنْ يتدبروا، فقد نزل ما كان عليه آباؤهم منزلة ما فيه شيء من الهدى ليتصدوا للنّظر فيه على سبيل المقارنة وهو ما يسمى في البلاغة بـ (إرخاء العنان)[٢]، أو ما يسمى أيضا بـ(فن الإلجاء)، وهو أنْ يبادر المتكلم الخصم بما يلجئه إلى الاعتراف بحقيقة نفسه ودخيلة قلبه، فالتّعبير بـ (أهدى) - والذي منح ما كان عليه آباؤهم شيئاً من الهدى - لم يكن إلاّ لإلجائهم إلى الاعتراف بحقيقة نياتهم التي يضمرونها، كأنّه يتنزل معهم إلى أبعد الحدود[٣].

ويستكمل الحوار بعرض مقالتهم بعد إرخاء العنان فيظهر إصرارهم على الكفر بقول المترفين ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ على سبيل التّهكم بالرسالة والمرسل أو على معنى (إنّا بما زعمتم إنّكم مرسلون به)، وتقديم (بما أرسلتم به) على (كافرون) أفاد تخصيص كفرهم - وإصرارهم عليه - برسالة التّوحيد التي بعث بها الرّسل.

ويصل التّعبير القرآني إلى موطن العبرة من القصص القرآني هنا وذلك بعرض عاقبة الكافرين ومصيرهم بقوله (فانتقمنا منهم) وفي ذلك تهديد ووعيد للكافرين في زمن الرّسول (ﷺ)، والانتقام هو المكافأة بالسّوء وهو من (نقم) الذي يدل على إنكار الشّيء فكأنّه أنكر عليهم ذلك فعاقبهم[٤].

وينبه التّعبير القرآني إلى النّظر في عاقبة أولئك المكذبين على سبيل استعارة النّظر للتفكر والتّأمل، لتتحقق العبرة والعظة من ذكر قصصهم وتبادر النفس الإنسانية بالإنابة، فلم يكن ذكر هذه الآيات يختص بمشركي قريش فحسب، وإنّما هي خطابٌ

(١) =: دراسة أدبية لنصوص من القرآن: ٩١.
(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٩٠/٢٥.
(٣) =: الجدول في إعراب القرآن: ٧٨/٢٥.
(٤) =: معجم مقاييس اللغة: ١٠٠٤.

عام للبشرية في كلّ زمان ومكان إلى يوم القيامة.

❖❖❖❖❖

وفي سورة الأحقاف تذكر عاقبة الشرك بنظمٍ يختلف عن الآيات السّابقة، إذ يبتدئ بذكر هلاك المشركين وقراهم بعد تبيين الآيات لهم لكي يرجعوا إلى الله، ثمّ يذكر التّعبير القرآني صفة الشّرك التي كانوا عليها والتي تماثل ما عليه المخاطبون من الإشراك، فابتدأ بذكر الإهلاك ثمّ ذكر سببه، في حين ذكر في الآيات السّابقة سبب الهلاك وصفة الهالكين ثمّ بيان مصيرهم وعذابهم. يقول الله (ﷻ) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٧ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ ۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٢٨ ﴾[١].

فقد ناسب البدء بذكر الهلاك أنْ يؤثر التّعبير القرآني أسلوب الخطاب المباشر. فأكّد الكلام باللام أوّلا، واستخدام حرف التحقيق (قد) أفاد توكيد ما سيذكر بعده ثانياً، فضلاً عمّا فيه من معنى (التّقريب)، إذ يقرب الماضي من الحال، ولا ينفك التّقريب عن (التّوقع) وهو المعنى الآخر الذي يؤديه هذا الحرف، وقيل: إنّه يفيد التّكثير أيضا[٢]. وهكذا حقق البدء بـ (قد) دلالات التّحقيق والتّقريب والتّوقع والتّكثير وكلّها تناسب سياق الآية ومعناها.

وفي إسناد الإهلاك إلى نون العظمة بيان للقدرة الإلهية في مقام التّهديد والوعيد، وفي إيقاع الإهلاك على القرى تهويلٌ على سبيل المبالغة في استئصالهم على طريقة المجاز المرسل، فإذا أهلكت القرى لم يبق احد من أهلها، وفي قوله: (ما حولكم) إيحاء بالدّعوة إلى النّظر والتّأمل في عاقبة أولئك المهلكين، فالقادر على إهلاك كلّ تلك القرى هو قادر على إهلاككم جزاء مماثلتكم لهم في سبب الهلاك.

ولأنّ الإهلاك هو العاقبة والنّهاية، فقد ذكر بعده ما يظهر الإمهال مع تصريف الآيات - على سبيل التّكثير الذي توحي به صيغة (صرفنا) - وتوضيحها، فتعداد أنواع الأدلة تزيد المقصود وضوحا، وكان القصد من تصريف الآيات لهم (لعلهم يرجعون) أي كي يرجعوا إلى الله ويقلعوا عمّا هم فيه من الشّرك والعناد.

---

(١) سورة الأحقاف: الآيتان ٢٧ و٢٨.

(٢) =: الجنى الداني: ٢٧٠ - ٢٧٢.

واتساقاً مع أسلوب الخطاب في الآية يأتي قوله: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ﴾ فـ (لولا) بمعنى (هلاّ) أي هلاّ نصرتهم آلهتهم التي تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم، ففي الآية إيحاء بإنكار نصر الآلهة لهم، وأنّ حالكم أيها المشركون يماثل حالهم في أنّ آلهتكم لن تنصركم. ويأتي الحرف (بل) للإضراب عمّا قبله على جهة إبطال زعمهم وتركه[١]، والانتقال إلى حقيقة ما أصبحوا عليه وتبين لهم أنّ قولهم إنّ الآلهة تقربهم إلى الله زلفى هو أفك وافتراء. أمّا أصل الضّلال - في قوله (ضلّوا عنهم) - فهو عدم الاهتداء للطريق، واستعير لعدم النّفع بالحضور استعارة تهكمية، والمعنى: غابوا عنهم وأتلفوا حتى لم يجدوهم في وقت الحاجة[٢].

والإشارة في قوله (ذلك أفكهم) هي إلى قولهم في الأصنام إنّها آلهة وإنّها تقربهم إلى الله زلفى، وأوثر لفظ (الإفك) على (الكذب) لأنّ الإفك هو الكذب الفاحش القبح، وهو ما كان كذباً على الله ورسوله أو على القرآن وغير ذلك ممّا يفحش قبحه، وأصله في العربية: الصّرف[٣]، وهو ما يناسب وصفهم به لأنّ زعمهم ذلك هو الذي صرفهم عن إبصار الحق واتباع طريقه، وفي الكلام متروك حذف استغناءً بدلالة الكلام عليه وهو: «فأبوا إلاّ الإقامة على كفرهم والتمادي في غيهم فأهلكناهم فلن ينصرهم منّا ناصر»[٤] وفي ذلك تأييد من الله لنبيه (ﷺ) وتهديد ووعيد للمشركين، فلن تغني عنهم آلهتهم كحال أمثالهم ممَّن سبق أنْ أهلكوا جزاء شركهم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## المبحث الثّاني
## قوم عاد وثمود

بعد أنْ يوجه الرّسول (ﷺ) بأنْ يقول للكافرين: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾[٥]، وما جاء بعدها من ذكر دلائل القدرة الإلهية، يأتي تهديد

(١) =: الجنى الداني: ٢٥٣.
(٢) =: المحرر الوجيز: ٣٦٦/١٣.
(٣) =: الفروق في اللغة: ٣٧.
(٤) جامع البيان في تفسير القرآن: ١٩/٢٦.
(٥) سورة فصّلت: من الآية ٩.

المشركين ووعيدهم بأنْ يصيبهم العذاب مثلما أصاب أمثالهم من قوم عادٍ وثمود إذا ما أعرضوا، فيجمل التعبير القرآني ذكر قوم عادٍ وثمود، ثمّ يفصل مواقفهم من الرّسل وما أصابهم من عذاب الدّنيا وما أعده الله لهم في الآخرة أيضا، وقد جاء كلّ ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

بدأت الآيات على سبيل إجمال ذكر قوم عادٍ وثمود، ويتواشج في وصف إرسال الرّسل إليهم أكثر من فنٍّ بلاغيّ، إذ يتسق التّمثيل مع الطّباق والاكتفاء، فقوله: (مِن بين أيديهم ومِن خلفهم) تمثيل لحرص رسول كلّ منهم على هداهم، فلا يترك وسيلة في دعوته لهم إلاّ توسل بها، فمثل ذلك بالمجيء إليهم من كلّ الجهات، وهو فعل الحريص على تحصيل الأمر[2]، واقتصر على ذكر الجهتين فقط على سبيل الطّباق بين (مِن بين أيديهم. ومِن خلفهم)[3]، وعلى سبيل الاكتفاء بهما عن سائرها وهو من باب الحذف[4]، كما يمكن أنْ تكون كناية عن الكثرة كقوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾[5]، فالمقصود هو تمثيل الحرص، وهو بذل الوسع في دعوته على طريق

(١) سورة فصّلت: الآيات ١٣ – ١٨.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥٣/٢٤.

(٣) =: صفوة التفاسير: ١٢٩/٣.

(٤) =: البرهان في علوم القرآن: ١٢٢/٣.

(٥) سورة النّحل: من الآية ١١٢.

الكناية عن جميع الجهات[١].

ولمّا تضمن مجيء الرّسل معنى الإبلاغ بقرينة كون فاعل المجيء متصفاً بأنّهم رسل، جاء بعده قوله: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ على سبيل الفصل تفسيراً لما قبله، ويتسق هذا الفصل مع حذف أسلوب المقاولة الذي أنابت عنه (أنْ) المفسرة المدغمة بـ (لا) النّاهية، كما أنّه يوحي بعظمة هذا الأمر وهو كلمة التّوحيد التي أظهرت في النّظم بأسلوب الحصر (بالنّهي والاستثناء) دون عطفها على شيء، فهي الحق الظّاهر الذي لا يحتاج إلى ما يستند إليه، فما كان جوابهم إلاّ القول الذي تحكيه الآية ﴿ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾ على سبيل حذف مفعول (شاء) الذي دلّ عليه السّياق، وقد حقق هذا الحذف إيجازا في النّظم يطول ذكر معناه[٢].

وقد آثر التّعبير القرآني هنا كلمة (ربّنا) في حين قال في موضع آخر: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً ﴾[٣] وذلك لأنّ في سورة المؤمنون تقدم ذكر الله وليس فيه ذكر الرّب، وفي سورة فصلت تقدم ذكر (ربّ العالمين) سابقاً على ذكر الله فناسب أنْ قالوا: (ربّنا) أمّا اعتقاداً أو استهزاءً فأضافوا الرّب إليهم[٤].

ويأتي التّفصيل في ذكر كلّ قومٍ وموقفهم وما أصابهم جزاء كفرهم، فيبدأ التّعبير القرآني بقوم عاد لأنّهم أقدم زماناً، ويذكر هنا من صفاتهم ماله مناسبة لما حلّ بهم من عذاب، فقوبل الاستكبار في الأرض بعذاب الخزي على سبيل التّناسب العكسي، وقد أوحت صيغة (استكبروا) بالمبالغة في الكبر واحتقار النّاس لأنّ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وإذا كان الكبر هو رفع النّفس فوق ما تستحق[٥]، فلا شكّ أنّهم بالغوا في ذلك حتى وصفوا بالاستكبار. وآثر التّعبير القرآني ذكر الاستكبار لأنّه هو الذي صرفهم عن اتّباع رسولهم. والتعريف في (الأرض) للعهد، أي أرضهم المعهودة، وعلى الرغم من أنّ كلمة (استكبروا) قد أوحت بأنّهم رفعوا أنفسهم فوق ما

---

(١) =: محاسن التّأويل: ٥١٩٣/١٤.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥٥/٢٤.

(٣) سورة المؤمنون: من الآية ٢٤.

(٤) = أسرار التّكرار في القرآن: ١٤٨.

(٥) =: الفروق في اللغة: ٢٤٢.

تستحق إلاّ أنّ التّعبير القرآني يزيد هذا المعنى توكيداً وإظهارا وذلك عن طريق الاحتراس في قوله (بغير الحق) ليزيد ذلك الاستكبار تشنيعاً، ثمّ يذكر قولهم الذي يزيد من معنى ذلك الاستكبار ويوضح ما هم عليه مِنَ الضّلال على سبيل الوصل بالواو، وقد أفاد الوصل استقلال هذا القول وأنّه موجب الإنكار عليهم وأنّه باعثهم على الاستكبار(١).

ويقابل هذا الاستكبار في القول بإبطال دامغ لمَا هم عليه من الباطل، تمثل بالاستفهام الإنكاري المشوب بالتّوبيخ في قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وقد اختار من دلائل القدرة خلق الإنسان ولم يقل خلق السّموات والأرض «لأنّ هذا أبلغ في تكذيبهم في ادعاء انفرادهم بالقوة فإنّهم حيث كانوا مخلوقين فبالضرورة أنّ خالقهم أشدّ قوة منهم»(٢). وقد تضمن هذا الإنكار فصلاً بالضّمير (هو) أفاد تقوية الحكم ووضوحه، لأنّ من شأن الأمر المحقق أنْ يكون عدم العلم بمقتضاه أشنع وعذرهم في جهله منتفياً(٣). ودلّ فعل (كانوا) على أنّ التّكذيب في الآيات متأصل فيهم. وآثر التّعبير القرآني وصفهم بـ (يجحدون) دون (ينكرون) أو (يكذبون)، ذلك أنّ الجحد أخص من الإنكار فهو إنكار الشيء الظّاهر وهو أيضا إنكار الشّيء مع العلم به(٤). وفي ذلك زيادة تشنيع لفعلهم، فضلاً عن دلالة صيغة المضارع على الجحد المتكرر فيهم.

ويأتي وصف عقابهم مناسباً لمَا ذكر لهم من صفات، فذلك الاستكبار والزّهو والافتخار بالقوة قوبل في وصف العقاب بما لا يؤبه به ولا يترقب الهلاك به وهو الرّيح، وفي ذلك دليل من دلائل القدرة العظيمة إذ يضع الله قوة في الشّيء الهين ليكون عذاباً وخزياً، وفي ذلك عظيم العظة والاعتبار، وقد وصفت الرّيح بأنّها (صرصراً) للمبالغة في شدتها. وجاء قوله (في أيام نحسات) على طريقة المجاز المرسل، والمعنى (مشؤومات) أو (باردات) «فالشّؤم صفة للنّاس الذين مرت بهم هذه الأيام وحلت فكان

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥٥/٢٤ - ٢٥٦.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن: ٢٣٦/١٢.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥٧/٢٤.

(٤) =: الفروق في اللغة: ٣٧.

حلولها فيها كما المحل يشتمل على مَن فيه، فوصفت الأيام بصفة مَن كان فيها مجازاً تعبيراً بالحال عن المحل لمَا بينهما من الملابسة، والتّجوز بوصف المحل بصفة الحال فيه أبين وأدلّ على المعنى وأوضح وأقوى، وكذلك وصف الأيام بالبرد هو مجاز أيضا لأنّ البرد صفة للريح الهابّة ويوصف بها اليوم مجازاً تعبيراً بالحال عن المحل، ويعني وصف المحل بصفة ما يحل فيه أو وصف الزّمان بصفة ما يشتمل عليه»[١].

ومِن الأوجه البلاغية في الآية الاستعارة المكنية في (لنذيقهم) فقد شبه العذاب بطعام هي لهم على وجه التّهكم، وتتواشج هذه الاستعارة مع المجاز العقلي في وصف العذاب بالخزي، وهو سببه، فأضيف الموصوف إلى الصّفة التي زيدت مبالغة أخرى بالوصف بالمصدر، والمبالغة الأولى قريبة من محسن التّجريد[٢].

وتوحي استعارة الإذاقة هنا بأنّ هذا العذاب المهلك هو كإذاقة الطعام فقط، من حيث قلته، قياساً إلى عذاب الآخرة الذي ذكر بعده.

ومِن لطائف البلاغة في نظم الآية الاحتراس في قوله: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ لكي لا يظن أنّ عذاب الإهلاك بالرّيح هو عقابهم فحسب، وقد جاء الاحتراس على سبيل الوصل بالواو، وأفادت صيغة التّفضيل العموم، فهو (أخزى) لهم ولكلّ أمثالهم، فضلاً عمّا بين (عذاب الخزي) وبين (أخزى) من المشاكلة في اللفظ والإسناد. وذيل الاحتراس بقوله: (وهم لا ينصرون) وفي ذلك زيادة نكاية بهم وبأمثالهم فهو عذاب الخلود ولا شفيع لهم فيه ولا ناصر.

وينتقل سياق القصص القرآني إلى قوم ثمود، وعلى الرغم من أنّ المقام مقام تفصيل بعد الإجمال الذي بدأت به الآيات على سبيل الجمع بين عادٍ وثمود، إلاّ أنّ هذا التّفصيل جاء في غاية الإيجاز، والذي تمثل بالاكتفاء، فلما كان حال الأمتين واحداً في رفض الدّعوة إلى الله كان الإخبار عن ثمود بأنّ الله هداهم مقتضياً أنّه هدى عاداً أيضا، وأنّ عاداً استحبوا العمى على الهدى مثلما استحبت ثمود، كما يعلم من قوله:

---

(١) أساليب المجاز في القرآن الكريم: ٣٧١.

(٢) «هو أنْ ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة مبالغةً في كمالها فيه»، حسن التّوسل إلى صناعة التّرسل، شهاب الدين الحلبي: ٢٨٥.

﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ أنّ لثمود عذاباً في الآخرة لتماثل الأمتين في الكفر[١]. ومثلما دلت صيغة (استكبروا) على المبالغة، فإنّ صيغة (استحبوا) أوحت بالمبالغة في حبهم للعمى، وهو هنا مستعارٌ للضلال استعارةً تصريحية، إذ شبه الكفر بالعمى لأنّ الكافر ضال عن الطريق الحق كالأعمى، وشبه الإيمان بالهدى لأنّ المؤمن مهتدٍ إلى سواء السّبيل ثمّ حذف المشبه في كليهما وأثبت المشبه به. وقوله: (استحبوا العمى) كناية عن الاختيار والتفضيل أو تضمين لهما، وناسب هذا (التّفضيل) التّعدية بحرف (على). ويأتلف الأحتباك مع هذه الاستعارة، فقد «ذكر الهداية أوّلا دليلا على حذف الضلال ثانياً، والعمى ثانيا دليلاً على حذف الأبصار أوّلا، وسره أنّه نسب إليه أشرف فعليه، وأسند إليهم ما لا يرضاه ذو روح»[٢].

وجاء العقاب في غاية التناسب مع وصف جرمهم وهو في قوله ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾، فهم قد استحبوا (العمى) وهو ما يتعلق ظاهر لفظه بالأبصار، فكان جزاؤهم بالصاعقة لأنّها تعمي الأبصار وتهلك أصحابها، وقد صورت هذه الصاعقة بالأخذ على سبيل الاستعارة للإصابة المهلكة، فهي صاعقة خارقة لمعتاد الصّواعق عرفت بالإضافة إلى (العذاب) فقد أفاد التّعريف بالإضافة اختصاص الصّاعقة بالعذاب المهلك، وحققت هذه الإضافة ووصف العذاب بالهون مبالغةً تصف ما حلّ بهم على سبيل التّهويل والتّرهيب، ممّا يملأ الشّعور بالرّهبة التي تقشعر منها الجلود وترتجف الفائدة عند سماع ذلك يروى بلسان الحق[٣]، فتسارع النّفس إلى التّوبة قبل فوات الأوان.

ولم يكتف التّعبير القرآني بذكر مصارع الغابرين من عادٍ وثمود، وإنّما ذكر ما آل إليه حال مَن آمن منهم واتبع الرّسل، فقال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾، فالمقابلة في الفواصل بين (يكسبون) و(يتقون) تثير في النّفس شعوراً بأنّ ما يكتسبه الإنسان في غير طاعة الله ورضاه يكون سبباً لهلاكه وعذابه وخسرانه، وأنّ ما

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/٢٦٢ - ٢٦٣.

(٢) نظم الدرر: ١٧/١٦٧.

(٣) =: نظرات في القرآن، محمد الغزالي السقا: ١٢٧.

يتقيه حبّاً في الله وطلباً لرضاه يكون سبباً للنّجاة في الدّنيا والآخرة، وقد أوثرت صيغة (نجينا) هنا، في حين قال في موضع آخر ﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾[1] وذلك لموافقة كلّ صيغة ما ورد في سورتها[2]، ففي سورة فصّلت جاء قوله (وزينا)[3] وقوله: (قيضنا لهم)[4]، في حين جاء في سورة النمل قوله: (فأنجيناه وأهله)[5] وقوله (فأمطرنا)[6] وقوله (أنزل) و(انبتنا)[7]، فكان ذلك غاية في التّناسب الإيقاعي، فضلاً عن أنّ الفعل (نجى) يستعمل للتلبث والتمهل في التنجية، والفعل (أنجى) للإسراع فيها، ولقد جاء الموقف في سورة النّمل أشدّ ممّا في سورة فصلت، فاستدعى ذلك الإسراع في إنجائهم وتدمير أهل الباطل لأنّ الوقت لم يعد يحتمل الإبطاء فاستعمل (أنجى) لذلك، وليس المقام كذلك في سورة فصلت، فإنّه لم يذكر سوى أنّه هداهم ولكنّهم استحبوا العمى على الهدى، ولذلك آثر الفعل (نجى)[8].

ومِن خلال كلّ هذه المشاهد يحقق القرآن غرضه في المخاطبين، وتتلون المشاهد بين التّرهيب والتّرغيب، فتثير صورة عذاب الغابرين ومصارعهم إنذارا وخوفاً يدفع النّفس إلى الإيمان واتقاء العذاب، وتثير صورة نجاة المؤمنين منهم رغبةً وحباً تندفع النّفس به إلى التّوبة والطّاعة الخالصة لله (ﷻ)، فيكون القصص القرآني لوناً من ألوان الهداية القرآنية الكريمة.

❖❖❖❖❖

ويعاد ذكر قصة قوم عاد في موضع آخر من الحواميم ولكنْ بنظم يختلف عمّا سبق ذكره في سورة فصّلت، وبتفصيل أجزاء من أحداثها لم تذكر في الآيات السّابقة، إذ يقول الله (ﷻ): ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ

(١) سورة النمل: الآية ٥٣.

(٢) =: أسرار التكرار في القرآن: ١٥٧.

(٣) سورة فصّلت: من الآية ١٢.

(٤) سورة فصّلت: من الآية ٢٥.

(٥) سورة النّمل: من الآية ٥٧.

(٦) سورة النّمل: من الآية ٥٨.

(٧) سورة النّمل: من الآية ٦٠.

(٨) =: بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني: ٧٠ - ٧٤.

يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

ولا يختلف الغرض الذي جاءت من أجله قصة هود وقومه هنا عن غرض القصص القرآني في السّور الأخرى وهو التّهديد للمشركين لتشابه أحوالهم إزاء دعوات الرّسل (صلوات الله وسلامه عليهم)، وتسلية الرّسول (ﷺ) إذ يؤمر النّبي (ﷺ) أنْ يذكر أخاه هوداً ليتأسى به ويتسلى بما أصابه من الضّيق والشّدة حتى نصره ربّه على قومه، فآية التّسلية نزلت لتحقيق غرضين: **الأوّل**: تسلية المصطفى (ﷺ) عمّا أصابه من الحزن والعنت من صدود قومه. **الثّاني**: قذف الرّعب في قلوب المشركين لمّا اتخذوا الأصنام آلهة وجعلوها أندادا لله[2]. فالمقابلة بين ما تقدمها من آيات وما ذكر في قصة هود يدلّ على ذلك، فقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[3] يقابله قول هود ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، وقوله ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[4] يقابله ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾.

وقد آثر التّعبير القرآني الابتداء بكلمة (اذكر) لأنّها تصلح لمعنيين: الذّكر اللساني، والتّذكر، فالأوّل أنْ يذكر ذلك لقومه، والثّاني أنْ يتذكر في نفسه ليكون ذلك

---

(١) سورة الأحقاف: الآيات ٢١ - ٢٦.
(٢) =: آيات التسلية في القرآن الكريم - دراسة بلاغية - أحمد بشير نذير: ٤٩ (رسالة ماجستير).
(٣) سورة الأحقاف: من الآية ٤.
(٤) سورة الأحقاف: من الآية ٩.

مسلاة له وأسوة.

ويتناسب إيثار التّعبير عن هود بقوله (أخا عاد) دون اسمه العلم مع مقتضى حال الرّسول (ﷺ) في دعوته لقريش فهم أمثال عاد في الإعراض عن دعوة رسول منهم فضلاً عن أنّ المراد بالذّكر هنا ذكر التّمثيل، كما أوثر ذكر صفة الإنذار دون الدّعوة أو الإرسال ليتناسب الحال مع حال قوم محمد (ﷺ)[1]. وقوله (مِن بين يديه ومِن خلفه) أي قريباً من زمانه وبعيداً عنه على سبيل التّمثيل. ثمّ تذكر حقيقة الدّعوة التي يدعو إليها الرّسل جميعاً وهي قوله: ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ في حين قال في سورة الأعراف: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[2] وقال في سورة هود: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴾[3]، ويلحظ أنّ دعوة هود (عليه السلام) في الأعراف وهود جاءت بصيغة الأمر الموصول بعلته ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ وجاءت آية الأحقاف بصيغة مختلفة وهي صيغة النّهي الموصول بالأمر عن طريق القصر ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ فالنّهي عن الشّيء إنذار عن مضرته، ولعلّ سرّ العدول عن صيغة الأمر إلى النّهي لتأكيد الإنذار الوارد في بداية الآية إذ إن النّهي بالإنذار أنسب وهو إنذار ثابت قديماً وحديثاً اتفقت عليه الرّسل[4]. واختلف التّعليل الوارد في سورة الأحقاف عن التّعليل الوارد في سورتي الأعراف وهود، فالتّعليل هنا ناسب مقام الإنذار وهو قوله: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ ﴾، فهو إنذار مستأنف جاء تعليلاً للأمر بعبادة الله وحده[5]، ويكتنف هذا الإنذار ترهيباً وتهويلاً إذ كشف عن المنذر به وهو العذاب وبيان هوله وشدته عن طريق الإسناد المجازي، فقد وصف اليوم بالعظم لنزول العذاب فيه، فما بالك بالعذاب نفسه[6]، فإسناد العذاب إلى اليوم مجاز عقلي، والحقيقة إنّ اليوم ظرف لوقوع العذاب فيه والأصل (عذاباً في يوم) وفي

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٦ / ٤٤.

(٢) سورة الأعراف: من الآية ٦٥.

(٣) سورة هود: من الآية ٥٠.

(٤) =: روح المعاني: ٢٦/٢٥.

(٥) =: الكشاف: ٢/٨٩.

(٦) =: إرشاد العقل السليم: ٢/٣٥٣.

المجاز العقلي هنا من التّهويل وتربية المهابة في النّفوس ما لا يخفى[١]. وقد جاء الخبر مؤكداً بـ (إنّ) لتوقع حدوث الإنكار فضلاً عن أنّ مقام الإشفاق عليهم من العذاب يحتاج إلى هذا التّوكيد[٢].

ويستأنف الحوار، فيسألون منكرين رسالة هودٍ ودعوته لهم: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾، والمجيء هنا مستعارٌ للقصد بطلب أمر عظيم، والإفك بمعنى الصّرف، وهم في إنكارهم بهذا الاستفهام وقولهم (لتأفكنا) يتهمونه بالكذب، ويسوقهم استكبارهم الذي ذكر في سورة فصّلت غالى القول هنا: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ على سبيل تفريع طلب العذاب على ذلك الإنكار، فهم يطلبون عذاب الدنيا ويتجاهلون مراد هود وهو عذاب الآخرة الذي أشار إليه قوله: ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وذلك لأنّهم لا يؤمنون بالبعث، وناسب مقام التّحدي في قولهم هذا وما هم عليه من الاستكبار أنْ يقولوا: ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ ولا يخفى ما في إيثار (إنْ) من التّعبير عما في نفوسهم من إنكار صدقه لأنّها تستخدم في الشرط غير المتوقع حصوله. وتعقيب طلب العذاب بالشّرط فيه استقصاءٌ لمقدرته قصداً منهم لإظهار عجزه عن الإتيان بالعذاب، وإسناد الإتيان بالعذاب إليه مجاز عقلي بوصفه سبباً في الإتيان به، والفاعل الحقيقي هو الله. ويجوز أنّهم قالوا ذلك تهكماً به إذ قال لهم: إنّه مرسل من الله، ولكنّه أجابهم بالحجة الدامغة وبيان حقيقة الرسالة، فلم يجبهم على أمر العذاب، وإنّما أجابهم بتعريف (العلم) للاستغراق العرفي وهو علم المغيبات، وقد قصر معرفة نزول العذاب على الله (ﷻ) بصيغة القصر بـ (إنّما) وهو قصر القلب، ولصيغة القصر هنا دلالة عظيمة، فلو قال: (العلم عند الله) لما صلح جواباً لأنّه يثبت العلم لله ولا ينفي العلم عن نفسه، وقصده أنْ يقول: إنّ هذا الوعيد علمه عند الله وليس عندي، وقد حققت (إنّما) هذا المعنى[٣]، وقد أوثر القصر بـ (إنّما) دون بقية طرق القصر الأخرى لأنّها تجيء لخبرٍ لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، كما أنّها تفيد في الكلام بعدها

(١) =: خطاب الأنبياء في القرآن الكريم: ٢٧١.

(٢) =: م. ن: ٢٤.

(٣) =: دلالات التّراكيب: ١٤٥.

إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره، فضلاً عن أنّها تفيد التّعريض أيضا[١]، وكلّ ذلك قد أدته في هذه الآية، وهو حين قصر هذا العلم على الله فقد كنى عن أنّه لا يقدر عليه ولا على تعجيله، وأكد أنّه يبلغ ما أرسل به - على سبيل الاستمرار والتجدد الذي توحي به صيغة المضارع (أبلغكم) - على الرّغم من أنّه يراهم بحالٍ قد تمكنت الجهالة منهم حتى صارت من مقومات شخصيتهم[٢].

ويسدل السّتار على مشهد الحوار بين هود وقومه، لتعرض الآيات مشهداً آخر، فها هو العذاب الذي طلبوه، يرونه بأعينهم، فتصوروه سحاباً يمطرهم وكان المطر قد أبطأ عنهم فاستبشروا به، وسمي (عارضاً) لأنّه يبدو في عرض السّماء[٣]، وأوثر ذكر لفظ (المطر) لأنّ السّياق سياق عذاب، وزيد العذاب هولاً بأنّه فاجأهم ولذلك استخدم التّعبير القرآني (بل) وإنّه ليس ما تتمناه نفوسكم، بل هو ما استعجلتم في طلبه بقولكم (فأتنا بما تعدنا)، والمفاجأة هنا هي أنّ الرّيح المتمثلة بـ (العارض) في الآية لم تكن تحمل خيراً وحياة كما توقعوا، بل هو العذاب، وهي الرّيح المدمرة المنذرة بالموت، وصفات الرّيح هذه تتناسب مع عتوّ عادٍ وجبروتهم[٤]، وقد حذف فعل القول لتمثيل قائل القول كالحاضر في ذلك الوقت. وجعل العذاب مظروفاً في الرّيح مبالغةً في التّسبب لأنّ الظّرفية أشدّ ملابسة بين الظرف والمظروف من ملابسة السبب والمسبب[٥].

ويأتي موطن العبرة من عذاب هؤلاء ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وقد هيأ التّشبيه الذي أشارت إليه لفظة (كذلك) إلى الانتقال إلى أسلوب الخطاب لتأكيد العبرة المستفادة من هلاك قوم عاد، فقد مكنهم الله في الأرض كثيراً، ومنحهم من نعمه الكثير، ذكر منها ما يتعلق بالغرض من خلق الإنسان وهو العبادة، ومنحهم هذه النعم ليهتدوا بها إلى الخالق (ﷻ)، ولكنّهم عطلوها ولم تغن عنهم شيئاً، والإطناب بتكرار ذكرها لزيادة التّقبيح والتشنيع عليهم، وقد بدأ بذكر (السّمع) ليتناسب وسياق الإنذار

---

(١) =: دلائل الإعجاز: ٣١٣ و٣٣١.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٤٧/٢٦ - ٤٨.

(٣) =: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠٥/١٦.

(٤) =: الاستعارة في القرآن الكريم: ٦٢.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٥٠/٢٦.

فهو أنفع وأوضح ووحده لقلة التفاوت فيه، وتقديم السمع هو تقديم أهمية وتكريم[١]. ثمّ ذكر (إبصارا) للتّنبيه على الآيات المرئيات وما فيها من المواعظ، وجمع لكثرة التّفاوت في أنوار الأبصار، وختم بـ (قلوباً) لأنّها الغاية التي ليس بعدها الإدراك بها منتهى ولا وراءها مرمى[٢].

وقد اختير ذكر هذا الجانب من القصة هنا ليعتبر بها أهل مكة فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدّنيا ويقبلوا على طلب الدّين.

وقد استعمل الظرف (إذ) لمعنى التّعليل، وآيات الله هي دلائل قدرته، وفي ذلك تماثل بين حالهم وبين حال المشركين، فأحاط بهم (العذاب) الذي عدل عن ذكر اسمه الصّريح إلى الموصول للتنبيه على ضلالهم وسوء نظرهم[٣].

وهكذا يسير القصص القرآني من مجالٍ غالى مجال، ومِن موقف إلى موقف، يرسم الحياة وما بعد الحياة، ويصور خطرات النفوس ونجوى الضمائر ويوضح ما كان وما سيكون تذكيراً وتوعيةً في آيات متناسقة تأخذ فيها الكلمات مكانها الفريد الذي تطمئن إليه، وتلقي ظلالاً من الإيحاء الحافل بجلائل المعاني لتثير في النفس انفعالات ومشاعر يتجاذبها الترغيب والترهيب ليتحقق الهدف الأسمى المتمثل بنعمة الهداية.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## المبحث الثّالث

## قوم إبراهيم (عليه السلام)

تضمنت سورة الزّخرف جانباً موجزاً من قصة إبراهيم (عليه السلام) جاء في سياق ذكر القصص القرآني لتسلية الرّسول (ﷺ) وتثبيته والمؤمنين وتهديد الكافرين ووعيدهم بالعذاب الذي حل بأمثالهم من الأمم السّابقة، وتتجلى في هذه الآيات التي عرضت جانباً من قصة إبراهيم (عليه السلام) سمة أخرى من سمات القصة القرآنية وهي أنّها غير مقصودة لذاتها، فهي جنس من أجناس البيان القرآني يختار بعناية الخالق في المكان المناسب وبالقدر المناسب، فتكون قصة تاريخية وأخلاقية واجتماعية ودينية، وهي في

---

(١) =: القرآن إعجاز يتعاظم: ١٤٩.

(٢) =: نظم الدرر: ١٨/١٧٣.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٦/٥٤.

قالبها البياني قصة أدبية فنية[١].

ولا تحرص القصة القرآنية أحيانا على تقديم الحدث بكلّ تفاصيله، وإنّما تتخير منه ما يحتاجه الموطن الذي تقدم فيه القصة، وهكذا جاء ذكر قصة إبراهيم (عليه السلام) في هذه الآيات موجزاً يحقق بهذا الإيجاز ما تهدف إليه القصة القرآنية من أهداف دينية. ولا شكّ في أنّ إعادة القصة القرآنية - بتنوع أحداثها وهي تتضمن مصير الكافرين من الأمم السّابقة - يفيد إثبات حقيقة إهلاك مَن كذبوا بالرّسل[٢]، لتتحقق العبرة من ذلك ببيان الحق وتعميق مجراه في القلوب، فضلاً عن أنّ تنوع طريقة عرض القصة القرآنية يسهم في تحقيق الغرض الديني لها[٣].

وهكذا جاءت المشاهد الموجزة من قصة إبراهيم (عليه السلام) في قوله تعالى. : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[٤].

وقد جاء ذكر إبراهيم وقومه إبطالا لقول المشركين: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[٥] ففي الآية إنكار لمقالتهم وتوبيخٌ لهم، إذ إن أولى الآباء بالاقتداء هو إبراهيم (عليه السلام)، وزيد هذا التّوبيخ والإنكار بتقديم ذكر أبي إبراهيم قبل ذكر قومه - وهو واحد منهم - على سبيل الاهتمام بذكره، حيث إنّ براءة إبراهيم ممّا يعبد أبوه أدل على تجنب عبادة الأصنام[٦]. وهكذا دلت الآية من وجهٍ آخر على فساد القول بالتّقليد، بعد إبطاله في الآيات السّابقة وذكر مصير هؤلاء، كما أنّها دعوة إلى أنْ يكون هذا التّقليد اتباعا لمنهج الآباء وعقيدتهم في التّوحيد وليس اتباعهم في الشرك.

وممّا يلحظ في هذه الآية أنّه قال: ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾، وقال في موضع

---

(١) =: البيان القصصي في القرآن الكريم: ١٠٣.

(٢) =: الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، محمود السيد حسن مصطفى: ١٢٨.

(٣) =: إعجاز القرآن البياني: ٣٠٧.

(٤) سورة الزّخرف: الآيات ٢٦ - ٢٩.

(٥) سورة الزّخرف: من الآية ٢٢.

(٦) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/١٩١ - ١٩٢.

سابق: ﴿ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾[١] فعدل عن (بريء) إلى (براء)، من الصّفة إلى المصدر، وذلك لأنّ النّبي إبراهيم (عليه السلام) في آية الأنعام في مقام الحيرة والبحث عن الحقيقة، لا يعرف ربه على وجه التّحقيق، يتقلب في ذلك بين (الكوكب) و(القمر) و(الشّمس)، ثمّ أعلن البراءة من كلّ ذلك، أمّا في آية الزّخرف فهو في مقام التّبليغ وقد أصبح نبياً مرسلاً أعلن حربه على الشّرك، وأعلن البراءة ممّا يعبد قومه، ولذا قال هنا (براء) لأنّها أقوى من (بريء) لأنّها بصيغة المصدر، وهو الحدث المجرد، فقولنا: (رجل عدل) أبلغ من (عادل) لأنّ معناه أنّه أصبح هو العدل نفسه، وناسب هذه القوة والشدة توكيد (إنني) بنون الوقاية ولم يأت بها في آية الأنعام[٢].

أمّا الاستثناء في الآية ففيه أقوال: إذ قيل إنه منقطع، باعتبار أنهم كانوا لا يعبدون الله مع أصنامهم، فهو سبحانه لا يدخل فيهم، فتكون (إلاّ) أداة استثناء، و(الذي) مستثنى منقطع. وقيل: هو استثناء متصل بتقدير: إنّني بريء ممّا تعبدونه باعتبار أنّهم كانوا يعبدون الله مع أصنامهم، وقيل (إلاّ) بمعنى (غير) أي أنّني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني[٣].

وقوله (فإنّه سيهدين) بتوكيد الخبر بـ (إنّ) مراعاة لمقتضى حال أبيه وقومه لأنّهم ينكرون أنّه الآن على هدى كما ينكرون أنّه سيكون على هدى في المستقبل، ولذلك جاءت (السّين) لتؤذن بأنّ هداية الله قد تمكنت وتستمر في المستقبل، ويفهم بفحوى الخطاب أنّها حاصلة الآن أيضا[٤]، فضلاً عن أنها أفادت التّوكيد أيضا، وصيغة المضارع في (يهدين) للدلالة على الاستمرار والتّجدد، وتأتي الآية الأخرى مبدوءة بإسناد الفعل (جعل) إلى إبراهيم (عليه السلام) على سبيل المجاز العقلي لتسببه إلى فعلها بإيصائه بها، والحقيقة أنّ جعل كلمة التوحيد وإبقاءها في أبنائه أمر يعود إلى الله تعالى، ولكنْ أسند الفعل إلى غير مَنْ هو له على الحقيقة لغرض الإيجاز والاختصار وكونه أبلغ وأفخم[٥]، والضمير في (جعلها) عائدٌ على الكلام المتقدم، وأنث الضّمير لتأويل

---

(١) سورة الأنعام: من الآية ٧٨.

(٢) =: التّعبير القرآني: ٣٨.

(٣) =: الاستثناء في القرآن الكريم: ١١٨.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/١٩٣.

(٥) أساليب المجاز في القرآن الكريم: ١٧٧.

الكلام بالكلمة ولأنّ مفعوله الثّاني لفظ (كلمة). وجاءت الآية الأخرى تتصدرها (بل) لتوحي بما حذف من الكلام والتّقدير: بل لم يرجع هؤلاء وآباؤهم الأولون عن عبادة الأصنام، وما بعد (بل) جاء استئنافاً بيانياً على سبيل الفصل وكأنّ سائلاً يسأل عمّا عاملهم الله به جزاء إصرارهم على الشّرك، فأجيب بأنّ الله متعهم بالبقاء غالى وقت مجيء الحق على يد الرسول، وبهذا الاستئناف حسن التخلص من ذكر قوم إبراهيم إلى ما بدا من المشركين بعد مجيء الرّسول (ﷺ)(١).

وتدل صيغة (فعل) في قوله (متعت) إلى كثرة ما أنعم الله عليهم وما متعهم فيه، وفي ذلك مزيد توبيخ لهم لأنّ زيادة النّعم والمتعة تستوجب شكر المنعم وطاعته، لكنّهم أشركوا به وجعلوا له أندادا، والإشارة بـ (هؤلاء) تفيد اتصال الكلام بما قبله لأنّه قال: (في عقبه) وقريش من عقبه(٢)، وفي هذه الإشارة توبيخ لهم أيضا، فقد بعد بهم العهد ومتعهم الله جيلاً بعد جيل، ولكنّهم نسوا ملّة إبراهيم، وأصبحت كلمة التّوحيد التي أوصى بها إبراهيم (عليه السلام) غريبة منكرة، وأنكروا صاحبها، واتهموه بشتى الاتهامات فاستحقوا العذاب على ذلك. وهكذا جاءت هذه الإشارة الموجزة إلى قصة إبراهيم (عليه السلام) متلائمة مع موضوع السّورة، داخلةً في أثنائها، فقد ضيقت السّورة على أولئك المشركين كل مسرب للجدل، وردت على شبهاتهم، وأبطلت ما ادعوه من تقليد الآباء، وجعل الملائكة بنات الله، وعبادتهم لها، ولا مستند لهم في ذلك ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾(٣) فهذا نفي للحجة العقلية، وانتفت الحجة النّقلية بقوله تعالى: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾(٤)، فلم يجدوا غير القول بالتقليد، فجاءت قصة إبراهيم (عليه السلام) لتبطل القول بالتّقليد وتظهر فساده، فلو كانوا صادقين في اتباع الآباء لاتبعوا أباهم الأوّل الذي يدعون الانتساب إليه، فقد أظهرت القصة حقيقة ما كان عليه إبراهيم (عليه السلام) من عقيدة التوحيد، وقد ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ لعلّ المعترضين يرجعون عن غيهم وشركهم، فما جاء في سورة الزّخرف من

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٩٦/٢٥.

(٢) =: المحرر الوجيز: ٢١٥/١٣.

(٣) سورة الزّخرف: من الآية ٢٠.

(٤) سورة الزّخرف: من الآية ٢١.

القصص يتلاءم مع جوها العام ويتطلبه موضوعها أيضا.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

# المبحث الرّابع
# قوم موسى وعيسى (عليهما السّلام)

## أوّلا: موسى (عليه السلام) وفرعون:

ضمت ثلاث سور من الحواميم جوانب من قصة موسى (عليه السلام) مع فرعون، ولا شكّ في أنّ إعادة القصة القرآنية في أكثر من موضع، وبنظمٍ مختلف وأحداث يكمل بعضها البعض، يحقق غرضين في آن واحد: **الأوّل**: فني يتمثل في تجدد الأسلوب، والتّفنن في العرض والتّنوع في الأداء، **والثّاني**: نفسي لأنّ المكرر ينطبع في النفس لمَا له من تأثير فيها[١]، وفي هذا التّكرار إثبات قدرته على تكرير ما يقول في قوالب منوعة ونسقٍ مختلف مع اتحاد المعنى ووقوع الإعجاز، وليقوم الدّليل على أنّ أسلوب القرآن لا يقف عند صورةٍ بعينها فلا يقال: إنّ سبب العجز هو وقوفهم أمام قالب جامد لا يتغير ولا يتبدل[٢]. وفي قصة موسى (عليه السلام) مع فرعون تتجلى أهم عناصر القصة القرآنية وهي الشّخصية، والحوار، والصّراع، والمفاجأة، والعبرة، والخاتمة أو النّهاية[٣].

وهكذا جاءت قصة موسى مع فرعون في سور غافر والزّخرف والدّخان، وسنقف عند هذه الآيات لنستشف ما جاءت عليه من فنون بلاغية، ونبدأ مع سورة غافر في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ

---

(١) =: سيكولوجية القصة في القرآن: ١١٦.

(٢) =: من الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، عبد العزيز سيد الأهل: ١٠.

(٣) =: التّعبير الفني في القرآن: ٢٢١ - ٢٢٧.

ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ
رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا
يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ
ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ
أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ
ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ
عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا
زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ
كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ
أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ
أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ
ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ
إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ
وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا
وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ

أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾[1].

ففي القصة التي تضمنتها هذه الآيات عبرتان، عبرة بكيد المكذبين وعنادهم ثمّ هلاكهم، وعبرةٌ بصبر المؤمنين وثباتهم ثمّ نصرهم، ففيهما وعيد ووعد.

وقد عمد التّعبير القرآني إلى عطف (سلطان مبين) على (الآيات) تفخيماً لشأنه، وجاءت جملة (فقالوا ساحر كذّاب) معترضة بين قوله: (ولقد أرسلنا) وبين (فلمّا جاءنا)، وتقديم ذكر (بآياتنا وسلطان مبين) على الآية التي بعدها للاهتمام والتّعظيم، والآيات هي التّسع المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾[2]، والسّلطان المبين أي: الحجة الواضحة البينة، وقيل: التّوراة، وتخصيص الإرسال إلى (فرعون وهامان وقارون) يفيد أنّ مدار التّدبير في عداوة موسى (عليه السلام) كان عليهم، ففرعون الملك، وهامان الوزير، وقارون صاحب الأموال، فجمعه الله معهما لأنّ عمله في الكفر والتّكذيب كأعمالهما[3]. ووجه تكرار المعنى في (أرسلنا) و(جاءهم) أنّ الأوّل للتنويه برسالة موسى وعظمة موقفه، والثّاني بيانٌ لدعوته وما نشأ عنها، وقد جاء ذلك على سبيل الإطناب للتنويه والتّشريف[4].

وبنظمٍ معجز يتواشج مع هذا الإطناب البديع إيجاز الحذف وذلك في قوله: ﴿ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ أي: هذا ساحر كذاب، وفي هذا الحذف إشارة إلى استخفافهم وقلة اعتدادهم[5]، وتنكير (ساحر) يوحي بهذا المعنى أيضا، كما توحي صيغة (فعّال) في (كذّاب) بالمبالغة والتّكثير وكان هذه حرفته، ممّا يظهر شدة إنكارهم ورفضهم لما جاء به. وفي الآية ما يسمى بـ (التّغليب) إذ إن «القائل فرعون وقومه، وأمّا قارون فلم يقل ذلك»[6]. ويوحي قولهم هذا بعجزهم عن مجادلة موسى (عليه السلام)

---

(١) سورة غافر: الآيات ٢٣ - ٤٥.

(٢) سورة الإسراء: من الآية ١٠١.

(٣) =: الجامع لأحكام القرآن: ٣٠٤/١٥.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٢٣/٢٤.

(٥) =: خصائص التّراكيب: ١٣٠.

(٦) فتح البيان في مقاصد القرآن: ١٧٨/١٢.

ومعجزاته، وقد ألجأهم هذا العجز إلى الرّكون إلى ما كان شائعاً عندهم وهو السّحر، ويتجلى هذا العجز أيضا في الآية الأخرى ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾ فمجيئه بالحق يعني إظهار الآيات الواضحة، ووصف (الحق) بقوله (مِن عندنا) لإفادة أنّه حق خارق للعادة، وقد جاءت هذه الآية توكيداً وتأييداً لسابقتها، ويلحظ ذلك من اتحاد مفاد قوله: (جاءهم) و(أرسلنا) ومفاد قوله: (بالحق) و: (بآياتنا وسلطان مبين)، فحين ظهر الحق على يدي موسى أدركوا بأنّ اتهامه بالسّحر والكذب لا يجدي فأمروا بالقتل، وفي ذكر هذا الجانب من الحوار تسلية للرسول (ﷺ) بأنّ ما يفعله كفار قريش قد سبق أنْ واجهه موسى (عليه السلام) ومَن آمن معه.

وسمّي هذا الرأي (كيداً) لأنّهم تشاوروا فيه ودبروه لموسى ومَن آمن معه، ولكن الله أفشل كيدهم وقصره على الضّلال، فلم يكن له أيّ أثر، ولذلك جاءت صيغة القصر بالنّفي والاستثناء لتعبر عن المعنى بقوله: ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾.

وتتجلى في الآية دقة اختيار التّعبير القرآني للألفاظ والتي أوحت بما تملك فرعون من الاضطراب والخوف والتّردد والضّعف، وهو ما يوحي به قوله (ذروني أقتل موسى) وقوله: (وليدع ربه) وقوله: (إنّي أخاف).

وننظر إلى هذه الصّورة النّفسية المضطربة التي يعانيها فرعون لنجد أنّ الأمر الذي نادى به في قوله (ذروني) جاء على سبيل التّسوية وعدم الاكتراث بالفرق الملكي بين فرعون وقومه، وكأنّهم قادرون على منعه من قتل موسى (عليه السلام) كما تتمثل التّسوية وعدم الاكتراث في (ليدع) وكأنّه يجيب على سؤال نفوسهم عن فعله بشأن رَبِّ موسى، فأجاب بأنّه لا يكترث إنْ دعاه أو لم يدعه[1]، فضلاً عمّا في قوله من «تمويهٍ لقومه وإيهاما أنّهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلاّ ما في نفسه من هول الفزع»[2].

وتستكمل تلك الصّورة المضطربة ألوانها فيعود إلى قومه يدريهم النّصيحة والحماية، ويبين لهم تعليل عزمه على قتل موسى (عليه السلام) بقوله: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٢٥/٢٤.
(٢) الكشاف: ٤٢٣/٣.

دِينَكُمْ ﴾ وقد جاء هذا القول على سبيل الفصل عمّا قبله لأنّه تعليل وإجابة عن سؤال تقديره: لم تقتله؟ وكأنّه بهذا الخطاب يشحذ الهمم ويحاول كسب التّأييد لمَا عزم عليه، فلم يقل: (أنْ يبدل عبادتكم لي إلى عبادة ربّه) لكي لا يشعروا بطغيانه وخوفه على ملكه، فأشعرهم بأنّ الأمر شديد الخطورة عليهم، وفي ذلك تعريض بأنّهم أولى بالذبّ عن الدّين. وزيد هذا التّعليل تعليلاً آخر على سبيل الوصل في قوله: ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ باستعارة الإظهار للفشو والانتشار[١]. ويوحي هذا التّعليل المعطوف على سابقه بما وصلت إليه نفس فرعون من الضّعف، وكأنّه اعتراف بالهزيمة أو بقوة موسى وصدق ما جاء به، إذ إن المعنى: أنّه لا بدّ من وقوع احد الأمرين أو وقوع الأمرين جميعاً[٢].

ويستكمل الحوار، فيلجأ موسى (عليه السلام) إلى ملاذ المستجيرين، ويقول كلمته مسلماً أمره إلى القاهر لكلّ متجبر مشيراً إلى وحدانية الله التي لم ينسها أمام هذا التّهديد والوعيد: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ فقد صدر كلامه بـ (إنّ) تاكيداً له وإظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه، وإيثار لفظ (الرّب) ينبئ بالحفظ والتّربية، وإضافته إليه وإليهم حثًّا لهم على موافقته، كما أنّ في قوله: (بربي) إشارة إلى الذي رباني، وقوله: (ربّكم) احتراز لكي لا يظن أنّه يريد فرعون لأنّه رباه في الصّغر. وفي قوله: (كلّ متكبر) إيثار لهذا الوصف وترك التّصريح بـ (فرعون) ليشمل هذا الوصف فرعون وغيره من الجبابرة على سبيل التّعميم، فتكون الاستعاذة عامة[٣]، وفي إيثار هذا الوصف إيحاء بحسن الأدب في عدم تعيينه لأنّه ربّاه في صغره. أمّا قوله: (لا يؤمن بيوم الحساب) ففيه إشعار بصفة قسوة القلب أوّلا، وعدم الاعتقاد بالجزاء ثانياً، وهذا هو الموجب لإيذاء النّاس، ولا ريب في أنّه إذا اجتمع الأمران كان الخطب أفضع[٤]، ففي الجمع بين التّكبر وعدم الإيمان بيوم الجزاء إيحاء بأنّ مَن كانت هذه صفته فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة على الله ولم يترك

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٢٥/٢٤.

(٢) =: فتح البيان في مقاصد القرآن: ١٨٠/١٢.

(٣) =: إرشاد العقل السليم: ٨/٥.

(٤) =: تفسير غرائب القرآن: ٤٢/٢٤.

عظيمة إلاّ ارتكبها، وفي هذا تعريضٌ بالمشركين، كما أنّ فيه تثبيتاً له (ﷺ) وتسلية.

وبعد أنْ ركن موسى إلى ربّه، ظهر رجل من آل فرعون، وقع الحق في قلبه، ولكنّه كتم إيمانه، فبدأ يدفع عن موسى، ويسلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾. وأوّل ما نلحظه في الآية تقديم الوصف بالمفرد على الوصف بالجملة للإيحاء بثبوت الإيمان في قلبه واستقراره. وتنكير (رجل) لتعظيم شأنه، أي رجل كامل في الرّجولية، وتقدم قوله: (مِن آل فرعون) على (يكتم إيمانه) احتراساً من التّوهم بأنّه يكتم إيمانه خوفاً من آل فرعون، وفي هذا إخلال بالمعنى المراد لأنّ الغرض بيان أنّه منهم لإفادة ذلك عناية الله بموسى إذ جَعل من آل فرعون مَن يدافع عنه[1]. وقد بدأ كلامه بالاستفهام الإنكاري المشوب بالتعجيب تعريضاً بما عزموا عليه من قتل موسى (ﷺ) وتوبيخاً لهم على ذلك فقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ وفي هذا استدراج لهم على سبيل ما يسمى بالكلام المنصف[2]. وتنكير (رجلاً) أفاد تقليل شأنه على سبيل مغالطتهم وخداعهم. وعرض سبب عزمهم على قتله بأسلوب يتلاءم مع إيحاء هذا التّنكير بقوله: (أنْ يقول ربّي الله) أي لأجل قوله ذلك وهو لم يجبركم على الإيمان ولكم الخيار في القبول أو الرّفض، وفي ذلك نكتة جليلة وهي أنّ مَن يقول ربّي الله لا يقتضى أنْ يقابل بالقتل كما لا تقابلون بالقتل إذا قلتم: ربّنا فرعون، فكيف وقد جعل ربّه مَن هو ربّكم، فكان عليكم أنْ تعزروه لا أنْ تقتلوه[3]. وقد آثر البدء بهذا الكلام ليستأنس في خطابهم، ولذلك جاء ما بعده على سبيل الارتقاء في الحجاج بقوله (وقد جاءكم بالبينات) وكأنّه يصرح هنا بتصديق موسى، فيصفه بأنّه قد جاءهم ببينات عدة لا بينة واحدة وأنها من عند مَن يوصف بالرّبوبية، والتّعريف في (البيّنات) أفاد التّعظيم والإظهار[4]، وأوثر الفعل (جاء) لأنّه يستعمل للأمور المادية المحسوسة بمعنى تحقق وحصل، بخلاف الفعل (أتى) الذي يشير إلى الأمور المعنوية[5]. وازداد الارتقاء في الحجاج عند تصريحه بأن (الله)

(١) =: المعاني في ضوء أساليب القرآن: ٢٣٤.

(٢) =: الجدول في إعراب القرآن: ٢٤٣/٢٤.

(٣) =: روح المعاني: ٦٤/٢٤.

(٤) =: محاسن التّأويل: ٥١٦٤/١٤.

(٥) =: ظاهرة التّرادف في ضوء التّفسير البياني للقرآن: ٥١ - ٥٣.

هو ربّ المخاطبين فقال (مَن ربّكم).

ثمّ يظهر التّعبير القرآني فطنة هذا الرّجل، فقد كان حاذقاً في أسلوبه، فبدأ بافتراض الكذب قبل الصدق، وجاء بذلك على سبيل التّقسيم فقال: ﴿ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمۡ ﴾ فقدم الكذب ليبعد ظنهم به الانتصار لموسى، وأراد أنْ يظهر بمظهر المهتم بأمر قومه ابتداء ولذلك تلطف في الاحتجاج فأظهر الإنصاف وعدم التّعصب ولذلك قدم احتمال الكذب. ولا يخفى ما بين (كاذباً) و(صادقاً) من الطباق. وقد اتبع مؤمن آل فرعون سبيل المبالغة في التّحذير، فقد حذرهم من إصابة البعض فأفاد أنّه مهلك مخوف فما بال الكل، وليريهم أنّ كلامه ليس بكلام مَن أعطاه حقه وأثنى عليه، وهذا على سبيل المظاهرة في الحجاج فكأنّه قال لهم: أقلّ ما يكون في صدقه أنْ يصيبكم بعض الذي يعدكم وفي ذلك البعض هلاككم[١]، مع أنّه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنّه صادق في جميع ما يعد.

ومراعاةً لمقتضى الحال الذي كان فيه مؤمن آل فرعون، وموسى (عليه السلام) وهو حال الشدة والضّيق والتّهديد بالقتل، جاء نظم الآية بألفاظ موجزةً تنبئ بلهفة مؤمن آل فرعون إلى الإسراع لرد عزمهم على قتل موسى (عليه السلام) ولذلك حذفت نون (يكن). ولم يقل: (أو صادقًا) بحذف (وإنْ يك) - وإنْ كان المقام يقتضي الإيجاز - لئلا يكون قد نقص الجانب المقصود بالذات حقه، فيكون قد أخلّ ببعض الأدب، فقال ذلك مظهراً لفعل الكون عادلاً عمّا له إلى ما عليهم[٢].

وفي الآية اجتباك، إذ «ذكر اختصاصه بضر الكذب أوّلا دليلاً على ضده وهو اختصاصه بنفع الصدق ثانياً، وإصابتهم ثانياً دليلاً على إصابتهم أوّلا، وسرّه أنّه ذكر الضّار في الموضعين لأنّه أنفع في الوعظ لأنّ من شأن النّفس الإسراع في الهرب منه»[٣].

وبعد أنْ أثبت مؤمن آل فرعون الصّدق لموسى (عليه السلام) بقوله: (صادقاً) ثمّ هضمه حقه في ظاهر الكلام مناصحةً لهم ومداراة وذلك بقوله (يصبكم بعض الذي يعدكم)

(١) =: فتح البيان في مقاصد القرآن: ١٢/١٨٤.

(٢) =: نظم الدرر: ١٧/٥٤.

(٣) م. ن: ١٧/٥٥.

عاد مرةً أخرى ليثبت الصّدق لموسى (عليه السلام) بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ بعد أنْ قال قبل ذلك: (فإنْ يك كاذباً)، هذا على التّفسير القائل: إنّ هذا التّذييل الذي جاء على سبيل الفصل والتوكيد بـ (إنّ) هو من كلام مؤمن آل فرعون، فيكون المعنى (مسرفاً على نفسه، كذّاب على ربّه) إشارة إلى موسى (عليه السلام)، فهو احتجاج آخر ذو وجهين، **أحدهما**: أنّه لو كان مسرفاً كذّاباً لمَا هداه الله تعالى، **وثانيهما**: إنْ كان كذلك خذله الله وأهلكه فلا حاجة إلى قتله، ولعله أراد به المعنى الأوّل وأوهمهم أنّه أراد الثّاني[1].

وقيل: إنّ هذا من قول الله (عز وجل)، والمعنى (مسرف في عناده كذّاب في ادعائه) إشارة إلى فرعون[2]، ويجوز أنْ يكون هذا الكلام من الله كناية عن تقوى هذا الرّجل المؤمن وصدقه لأنّه نطق عن هدى، والله لا يعطي الهدى من هو مسرف كذّاب[3]. والإسراف هنا يعم الشّرك وسفك الدّماء بغير الحق وقد اجتمع الأمران في فرعون[4]، والتّعبير بصيغة اسم الفاعل (مسرف) يدل على استمرار فاعله وثبوت فيه[5]. وصيغة (فعال) تدل على الاستمرار والتّجدد والتّكرار والمزاولة[6].

وبعد أنْ وصل بهم إلى فعل الله بمَن هو مسرف كذاب، وأدرك أنّ حجته قد داخلت نفوسهم انتهز فرصة انكسار قلوبهم، فأطلق نداءه محذراً إياهم من بأس الله وعقابه الذي لا ينجيهم منه ما هم فيه من ملكٍ وسلطان، ويسلك نفسه فيهم فيقول: ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ ليشعرهم أنّ أمرهم يهمه وأنّه ناصحٌ لهم مشفق عليهم، فخاطبهم بخطاب التّلطف (يا قوم) ليصغوا إلى نصحه. «وفي ندائهم بالياء المنادى بها البعيد إشعار إلى مباعدتهم فيما يقتضي غاية القرب»[7]. وتقديم (لكم) اقتضاه مقام نصحهم واستمالتهم، وفي الآية

---

(١) =: روح المعاني: ٦٥/٢٤.
(٢) =: الجامع لأحكام القرآن: ٣٠٨/١٥.
(٣) =: التّحرير والتّنوير: ١٣١/٢٤.
(٤) =: جامع البيان في تفسير القرآن: ٣٩/٢٤.
(٥) =: معاني الأبنية في العربية: ٥٢.
(٦) =: م. ن: ١١٠.
(٧) خطاب الأنبياء في القرآن الكريم: ٩٦.

تعريضٌ بفرعون وملكه، وقابل وصف ما هم فيه من الملك والترف بالاستفهام الإنكاري (مَن ينصرنا) أي لا نصر لنا من بأس الله، وقد أدرج نفسه فيهم عند ذكر الشّر بعد إفراده لهم بالملك إبعادا للتهمة وحثاً على قبول النّصيحة ليتأثروا بها[١].

ولمّا كان ذلك يقتضي زوال ملك فرعون وهيبته نجد التّعبير القرآني يعرض لنا مقالته وقد استكان وشعر بهذا الخطر من ملاينة الرّجل المؤمن، فعمد إلى أسلوب يماثله ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾، ويوحي فصل كلامه عمّا قبله بمقاطعته كلام المؤمن وإسراعه في نصح رعيته على سبيل التّكرار والقصر بالنّفي والاستثناء ليتناسب مع أسلوب التّلطف الذي أراد به التّأثير فيهم وقطع الطريق على مؤمن آل فرعون عن طريق التّعريض بقصر هدايته لهم على العمل الذي فيه الرّشاد، وتتسق استعارة السّبيل للعمل مع دواخل نفسه التي دفعته إلى القصر والتّعريض في آن واحد.

ويلتفت النّظم في الحوار إلى مؤمن آل فرعون ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ فقد أعاد نداء قومه تأكيداً لمَا قصده من النّداء الأوّل، وافتتح الخطاب بالنداء إيذانا بأهمية ما سيلقى عليهم عن طريق طلب الإقبال المعنوي توجيهاً لأذهانهم إلى فهم قوله، وإشعارا بأنّهم قد ابتعدوا عنه بكفرهم[٢]، وأفرد (يوم) للإيجاز، وللإيحاء بأنّ مصير الكافرين واحد، فضلاً عن أنّ جمع (الأحزاب) أغني عن جمعه[٣]، وغاية الخبر الاستعطاف واستمالة القلوب، فهو يدعوهم إلى التّوحيد، وينذرهم بأسلوب يمتلئ محبةً عبرت عنها إضافة القوم إليه (يا قوم) وتأكيد الخوف عليهم (إنّي أخاف عليكم) ويذكرهم مؤمن آل فرعون بمصير الأمم السّابقة لهم وعاقبة تكذيبها الرّسل، وفي ذلك زيادة تثبيت للرّسول (ﷺ) وللمؤمنين إذ تذكر القصة داخل القصة للعبرة والعظة، فيقول: ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾[٤] فتكون هذه الآية تفصيلٌ للإجمال

---

(١) =: نظم الدرر: ١٧/٥٨.

(٢) =: خطاب الأنبياء في القرآن الكريم: ٦.

(٣) =: فتح البيان في مقاصد القرآن: ١٢/١٨٥.

(٤) سورة غافر: الآية ٣١.

الذي في قوله (مثل يوم الأحزاب)، وقد جاء هذا التّفصيل أو التّفسير على سبيل التدلّي من الأبعد إلى الأقرب، وآثر أنْ يكون هذا التفصيل موجزاً مراعاةً لمقتضى الحال للإسراع في التّأثير فيهم، فلم يفصل في عذاب كلّ أمّةٍ من تلك الأمم وكيف كان، ولكنّه أوحى بهذا الإيجاز أنّ الهلاك سنة مستمرة لأهل التكذيب ولذلك أوثرت لفظة (دأب) التي تدل على الملازمة والدوام أو العادة والشّأن[١]. ثمّ ينفي إرادة الظّلم من الله (ﷻ)، وقد ذكر لفظ الجلالة (الله) قبل الخبر الفعلي، والمعنى أن الله لا يريد ظلماً للعباد بل غيره يريده لهم، وفي ذلك تعريض بفرعون ودعوته لهم إلى ما قاله كذباً بأنّه (سبيل الرشاد). وقد أفاد تنكير (ظلماً) التّعميم لكلّ أنواع الظّلم والتي استثني منها ظلم بعضهم لبعض عن طريق ذكر (الله) قبل الخبر الفعلي ويجوز أنْ يقال: إنّ التّنكير للتقليل أيضا. ونفي الفعل (يريد) بصيغة المضارع أفاد التّجدد والاستمرار، كما أفاد أنّ مَن كان عن إرادة الظّلم بعيدا كان عن الظّلم أبعد[٢].

ويختلف ذلك عن قوله تعالى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[٣] لأنّ نفي الإرادة آكد من نفي الوصف بالظلم، وناسب أنْ يكون ذلك تذييلا للآية للإيحاء بأنّ تدميرهم وهلاكهم كان عدلا وقسطا[٤]. ثمّ أعاد نداءهم بقوله: ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾[٥] إيقاظا لهم واهتماما بالمنادى له، فجمع بذلك التّذكير بمصير المكذبين في الدّنيا ومصيرهم في الآخرة، وأكّد لهم مرة أخرى خوفه وإشفاقه عليهم وآثر التّعبير عن يوم القيامة بـ (يوم التّناد) وهو ما يناسب مقام الجمع في التّذكير بالأمم السّابقة، ولأنّه ينادي فيه بعضهم بعضا للاستغاثة أو يتصايحون بالويل والثّبور أو يتنادى أصحاب الجنة وأصحاب النّار[٦]. وفي إيثار (يوم التّناد) تناسب مع مقامه بينهم ليذكرهم أنّه يناديهم بـ (يا قوم) ناصحا ومريدا خلاصهم من كلّ نداء مفزع وتأهيلهم

(١) =: معجم مقاييس اللغة: ٣٥٤.
(٢) =: الكشاف: ٤/١٦٥.
(٣) سورة فصّلت: من الآية ٤٦.
(٤) =: تفسير غرائب القرآن: ٢٤/٤٤.
(٥) سورة غافر: الآية ٣٢.
(٦) =: إرشاد العقل السليم: ٥/٩.

لكلّ نداء سار[1].

وحذفت ياء (التّنادي) رعاية للفواصل، وهو من المشاكلة والتناسب[2]، أمّا قراءة مَن قرأ (التناد) بتشديد الدّال فإنّه قد اعتمد فيها على صورة وثيقة بالبيئة العربية، وهي صورة الإبل التي تنفر من صاحبها وتهرب فيقال (ندت)[3]، فهو على سبيل تشبيه النّاس في ذلك اليوم بالإبل الهاربة فزعا وخوفا، ويؤكد هذا المعنى بقوله بعد ذلك ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾، واستعمال (التّناد) مطلقة دون تقييدها بالإبل أو بالقوم وصياحهم يزيد من هول الوصف للفزع في ذلك اليوم، وتجتمع كلّ المعاني التي تتداعى عند ذكر هذه الكلمة فهي ترسم في الذّهن شتى الصّور الزّاخرة بالحركة والانفعال[4]. ويتناسب تذكيرهم - بما سيكون في (يوم التّناد) من الهرب الذي لا يجدي نفعا فلا عاصم لهم من الله - مع قوله في بداية نصحه لهم ﴿ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾، وشتان ما بين الصّورتين، صورة التّمكن والظّهور في الأرض وصورة الإدبار والهرب دون نجاة، وقد جاء قوله (يوم تولون مدبرين) تفسير لشيء من الإجمال الذي في (يوم التّناد)، وعن مثل هذا التّفسير يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني: «وجملة الأمر أنّه ليس إعلامك الشيء بغتة مثل إعلامك له بعد التّنبيه عليه والتّقدمة له لأنّ ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التّأكيد والإحكام»[5]. وقوله: (مِن الله) أي عذابه وعقابه، و(من) الثّانية للتنصيص على العموم وهي الدّاخلة على نكرة بعد نفي وتفيد تأكيد النّفي. وتنكير (عاصِمَ) للتقليل بعد التّنصيص على العموم فانتفى بذلك وجود أي شيء يعصمهم من عذاب الله، وتناسب تقديم (مالكم) مع تقديم (لكم) في قوله: (لكم الملك اليوم).

ثمّ يأتي التّذييل بقوله: (ومَن يضلل الله فما له من هاد) وهو ما يناسب خاتمة النّصح والإرشاد لهم، فإن هداهم الله له عملوا به، وإنْ أعرضوا عنه فذلك لأنّ الله

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٣٦/٢٤.

(٢) =: من وحي القرآن، إبراهيم السامرائي: ١٣٥.

(٣) =: جامع البيان في تفسير القرآن: ٦١/٢٤.

(٤) =: التّعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة، ابتسام الصفار: ٣٩ - ٤٢.

(٥) دلائل الإعجاز: ١٥٣.

أضلهم (ومَن يضلل الله فما له من هاد) بصيغة التّنصيص على العموم أيضاً.

وآثر هذا القول على أنْ يقول لهم: (ومَن يهد الله فماله من مضل) لأنّه أحسّ منهم الإعراض ولم يتوسم فيهم الانتفاع بنصحه[١]، وحذف (ياء) (هادي) للمشاكلة في الفواصل.

وعلى سبيل التّرقي في موعظتهم، عمد إلى لومهم على ما مضى بتذكيرهم بأنّهم من ذرية قوم كذبوا بيوسف (عليه السلام) فبدأ بتأكيد الخبر بـ (قد) ولام القسم مراعاة لحال إنكارهم له لبعد عهدهم به، ولقطع الطّريق عليهم بهذا الحجاج، وتضمن (المجيء) معنى الحصول والظهور، واعتمد أسلوب الخطاب قصدا لحمل تبعة إسلافهم عليهم وإنّ التكذيب قد ورثوه وتقرر في نفوسهم. وقد ناسب وصفهم بالشّك فيما جاء به يوسف (عليه السلام) حالهم الحاضر، لأنّ الشّك نقيض اليقين وكأنّه حال من التّردد بعيد عن الاستقرار فهو يستعمل مع الأمر الذي فيه تردد وضعف وعدم يقين[٢]. وقوله: (ما زلتم) يدل على الاستمرار ومصاحبة الصّفة للموصوف منذ كان قابلا لها، فزمن (ما زال) في الآية هو المضي والاستقبال[٣].

ويأتي قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ اعتراض بين كلام المؤمن وكلام فرعون، قصد منه العبرة بحال المكذبين بموسى تعريضا بمشركي قريش، على سبيل تشبيه ضلال كلّ مسرف مرتاب بضلال قوم فرعون، واو ثرت - في إضافة الإضلال إلى الله - الصّورة الفعلية للدلالة على أنّ هذا أمر طارئ يفعله مع مَن يستحق، ولم يأت ذلك بالصورة الاسمية لأنّ هذا ليس من صفات الله ونعوته، في حين وصف الشّيطان بها في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾[٤]، فجعله وصفا ثابتا[٥].

ويستكمل الحوار، وقد أعيت الحيل فرعون ولم يستطع مقاومة موسى (عليه السلام)

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٣٨/٢٤.

(٢) =: من بديع لغة التّنزيل: ١١ - ١٢.

(٣) =: الزّمن في القرآن الكريم: ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٤) سورة القصص: من الآية ١٥.

(٥) =: التّعبير القرآني: ٣٢.

وبدا أنّ ما يدعو إليه موسى (عليه السلام) هو عبادة إله السّماء ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]، فقد عمد إلى الإجمال ثمّ التّفصيل للتشويق إلى المراد بالأسباب، تفخيما لشأنها وشأن عمله أيضا، والتعريف فيها للتعظيم، وزيد هذا التّعظيم والتفخيم بالتّعريف بالإضافة (أسباب السّموات) ودلّ التّكرار على ما في نفس فرعون من لهفة وتطلع على تلك العوالم[2]، فضلاً عن أنّ الشّيء إذا أبهم ثمّ فسّر كان أوقع في النّفوس وأفخم للشأن[3]. وإسناد البناء لهامان مجاز عقلي، علاقته السّببية لأنّ الذي يبني هم العمال وهو الأمر بالبناء لأنّه وزيره، وفي التّعبير المجازي إيحاء بالعناية التّامة ببناء الصّرح بناء محكما، فضلاً عمّا يحققه المجاز العقلي من الإيجاز والاختصار والمبالغة[4]. ويوحي الأمر ببناء الصّرح بالخدّاع والسّخرية فقد قال ذلك استهزاء منه بموسى وسخرية وتظاهرا خادعا بأنّه ينصفه بهذا المسعى إلى معرفة ربّه وهي مراوغة لأنّه يعلم أنّه لا سبيل إلى ذلك مهما فعل، وكأنّها خطة للتراجع أمام مطارق الرّجل المؤمن في حديثه[5]، ويدلنا على أنّ مقالته هذه هي استهتار وسخرية قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ فالكيد هو معالجة الشّيء، والعرب تسمي المكر كيدا[6]. ومما يؤيد هذا المعنى ويؤكده قراءة عاصم في رواية حفص بنصب (فاطّلع)[7]. وتكون (لعلّ) بمعنى (ليت) فيصير الرّجاء تمنيا يفيد أنّ إحساس فرعون باطلاعه على إله موسى أمر مستبعد، وهكذا يعتقد لأنّه لا يؤمن بأنّ لموسى إلها، ولمّا أحس بأنّه أقر بإله موسى، استدرك ذلك استدراكا على سبيل الاحتراس بقوله: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾،

---

(١) سورة غافر: الآيتان ٣٦ - ٣٧.

(٢) =: قضايا اللغة في كتب التّفسير: ٥٤٧.

(٣) =: فتح البيان في مقاصد القرآن: ١٢/١٩٠.

(٤) =: البلاغة التّطبيقية: ١٩٩ - ٢٠٢.

(٥) =: في ظلال القرآن: ٥/٣٠٨٢.

(٦) =: معجم مقاييس اللغة: ٨٨١، مادة (كيد).

(٧) =: المحرر الوجيز: ١٣/٤٤.

ولم يقل (كذّابا) لأنّ القائل هنا هو فرعون وحده. وجاء التّمني في عبارة الرّجاء التي تكون للأمر المتوقع إيهاما بأنّه جاد في التّعرف على حقيقة ما يدعو إليه موسى، وهو بذلك يحاول إبطال ما قد استقر في الأذهان من أنّ في الكون إلها غيره، وتوحي مقالة فرعون هذه بما في نفسه من ظمأ وآمال حبيسة ورغائب لا سبيل إلى تحقيقها مما يزيد نفسه تحرقا واستعارا[١]، ويدخل هذا في ما يسمى بالصّوتية التّعبيرية: وهي دراسة المتغيرات النّاتجة عن المزاج وعن السّلوك العفوي للمتكلم[٢]. والتّعليل بالتّرجي الذي لا يكون إلاّ في الممكن دليل على أنّه كان يلبس على قومه وهو يعرف الحق[٣]. وبين (إلى) و(اله) الجناس النّاقص بحرف.

ويختلف نظم الآية هنا عمّا جاء في سورة القصص، إذ قال هنا: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَـٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾ وقال هناك: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَـٰذِبِينَ ﴾[٤] فالزيادة التي في سورة غافر تتناسب وقوله: ﴿ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾[٥] لأنّه زعم أنّه إله الأرض فجاء في كلّ سورة ما اقتضاه ما قبله، والاختلاف في (كاذبا) و(مِن الكاذبين) لأنّ التقدير في سورة القصص: وإنّي لأظنّه كاذبا من الكاذبين، وذلك لمشاكلة رؤوس الآيات، وجاء في سورة غافر على الفاصل إذ لا موجب للتّغيير[٦]. وقد أكد كلامه المحكي لنا بالعربية القرآنية ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾ بـ (إنّ) و(اللام) وذلك لينفي عنه تهمة أنّ دعوة موسى أوهنته أو جعلته يقترب من التّصديق ولا سيّما بعد قوله: ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾.

ويستأنف الكلام على سبيل الوصل ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ لأنّ الجملة تستكمل أحوال فرعون

(١) =: دلالات التراكيب: ٢١٢.

(٢) =: الأسلوبية، بيير جارو، ترجمة د. منذر عياشي: ٦٠.

(٣) =: نظم الدرر: ٦٩/١٧.

(٤) سورة القصص: من الآية ٣٨.

(٥) سورة غافر: من الآية ٢٦.

(٦) =: أسرار التّكرار في القرآن: ١٦٠.

وأقواله المنبعثة عن الضلال، وإيثار الفعل المبني للمجهول (زين) «يدلّ على جماليات مغرية، ويفسح المجال لخيال المتلقي ليخرجه حسب اجتهاده، فمجهولية فاعل فعل الزّينة منحت الفعل صفة تعددية التّخريج، واقتران الفعل بـ (سوء عمله) يحيل الجمالية المتوهمة (بالمقياس الفرعوني) إلى قبح واقعي (بالمقياس القرآني)»[١] وقوله (صدّ عن السبيل) بتعريف السبيل للدلالة على الكمال في النّوع أي صد عن السّبيل الكامل الصالح وهو سبيل الرّشاد، والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى وبالتّوسط هو الشّيطان[٢]، ثمّ قصر كيد فرعون على الخسران والهلاك، وأظهر (فرعون) في موضع الإضمار بقصد الإهانة والتّحقير.

وردا على مقالة فرعون: ﴿ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ يواصل الرجل المؤمن نصحه لهم بقوله ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾، ولم يكتف بالإجمال في (سبيل الرّشاد) بل عمد إلى تفسيره بذمّ الدّنيا وتصغير شأنها، وتعظيم الآخرة وبيان حقيقتها وأنّها هي المستقر، فضلاً عن أنّ في ذلك تعريضا بأنّ ما يسلكه فرعون وقومه هو سبيل الغي والضّلال، وإسناد الإهداء إلى الرّجل المؤمن مجاز عقلي لكونه سببا والفاعل الحقيقي هو الله تعالى. وآثر أنْ يقول (اتبعون) ولم يقل (اتبعوا المرسلين) كما قال الرّجل الذي ذكر في سورة يس في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[٣] لأنّ مؤمن آل فرعون كان منهم، يعرفون سيرته، فنصحهم باتباع موسى وأنّه لو لم يكن خيرا لما اختاره لنفسه، فهي نصيحة خالصة، أمّا ذلك الرجل فقد نصحهم في أوّل مجيئه ولم يكن فيهم وما رأوا سيرته فلذلك قال: (اتبعوا المرسلين)[٤].

ولا شكّ في أنّ تكرار ندائهم بـ (يا قوم) «أي يا مَن لا قيام لي إلا بهم»[٥] ينبئ

---

(١) جماليات الحركة في القرآن الكريم: ٤٧.

(٢) =: إرشاد العقل السليم: ٩/٥.

(٣) سورة يس: الآية ٢٠.

(٤) =: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني: ٣١٠.

(٥) نظم الدرر: ٧١/١٧.

بصدق اللهفة إلى اتباعه والأخذ بنصيحته، فضلاً عن نفي التّهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول[١]، ويدخل هذا فيما يسمى بالصّوتية النّدائية: وهي دراسة المتغيرات الصّوتية التي تهدف إلى إحداث أثر على السّامع[٢]. فبدأ بعد إعادة النّداء بتفصيل الإجمال السّابق على سبيل قصر الموصوف على الصّفة ﴿ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ وهو قصر قلب لتنزيل قومه في تهالكهم على منافع الدّنيا منزلة من يحسبها منافع خالدة، واتبع ذلك بقصر آخر بضمير الفصل ﴿ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ فكان هذا مؤكدا للقصر الأوّل على سبيل المقابلة. وقد ترك العطف في هذا النداء لأنّه تفسير للإجمال السّابق. وفي الآية احتباك «إذ ذكر المتاع أوّلا دليلا على حذف التّوسع ثانيا، والقرار ثانيا دليلا على حذف الارتحال أوّلا»[٣] وغاية هذا الخبر الإرشاد وتحريك الهمة.

ويكرر نداءه لهم ويلون في أسلوم حديثه معهم، فيعمد إلى الاستفهام التعجبي بقوله: ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾ والذي جاء على سبيل المجاز المرسل بإطلاق المسبب على السّبب[٤]، وقد ساعد المجاز المرسل على الإجمال الذي أعقبه التّفصيل فيما بعده، فهم لم يدعوه إلى النّار وإنّما دعوه إلى الكفر بدليل قوله: (تدعونني لأكفر بالله) وهو سبب دخول النّار ولم يعطف على ما قبله لأنّه تفسير له[٥]. وفي الآية احتباك أيضاً إذ «ذكر النجاة الملازمة للإيمان أوّلا دليلا على حذف الهلاك الملازم للكفران ثانيا، والنّار ثانيا دليلا على حذف الجنة أوّلا، ومراده هزهم وإثارة عزائمهم إلى الحياء منه بتذكيرهم أنّ ما يفعلونه معه ليس من شيم أهل المروءة يجازونه على إحسانه إليهم بالإساءة»[٦]، وهكذا جاءت نصيحته لهم على سبيل التّرقي في استدراجهم إلى المقصود فأعلن هنا إنكاره عليهم قولهم هذا، ولكي يكون لهذا الإنكار أثره في المخاطبين فقد عمد إلى المقابلة بين (أدعوكم إلى النّجاة) وبين (تدعونني إلى النّار).

---

(١) =: البلاغة العربية، أحمد مطلوب، ١٥٦.

(٢) =: الأسلوبية: ٥٩.

(٣) نظم الدرر: ٧٣/١٧.

(٤) =: المجاز المرسل في القرآن الكريم، ياسر محمد أمين: ١١١ (رسالة ماجستير).

(٥) =: أنوار التّنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين بن محمد البيضاوي: ٦٢٤.

(٦) نظم الدرر: ٧٦/١٧.

وأوثر في الدعوة إلى الكفر (اللام) وفي الدعوة إلى النّار وإلى النّجاة (إلى) ذلك أنّ الكفر أمر معنوي، والنّار والنّجاة أمر محسوس فناسب كلّ حرف موضعه، وقوله: (ما ليس لي به علم) كناية عن كونه يعلم أنّها ليست آلهة بطريق الكناية بنفي اللازم عن نفي الملزوم[١]، والتّعبير بأداة ما لا يعقل (ما) للإشارة إلى حقارة المعبود من الأصنام. ومثلما كان قوله: (تدعونني لأكفر بالله) بيان لقوله: (تدعونني إلى النّار) فقد جاء قوله: (وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار) بيان لقوله: (أدعوكم إلى النّجاة) بإظهار ضمير المتكلم (وأنا) والعدول عن اسم الجلالة إلى (العزيز الغفار) للتناسب. فالعزيز لا تناله النّاس بخلاف أصنامهم فإنّها ذليلة، والغفار كثير المغفرة لعباده وفي ذلك ترغيب في الإقلاع عن الشّرك.

وقد آثر التّعبير عن دعوتهم بالجملة الفعلية (لأكفر) والتّعبير عن دعوته بالاسمية مشيراً بذلك إلى ثبوت دعوته وقوتها، وأنّ دعوتهم باطلة لا ثبوت لها، فضلاً عن أنّ (العزيز) يوحي بالتّرهيب و(الغفار) يوحي بالتّرغيب[٢]. وفي الآية احتباك: «ذكر أوّلا عدم العلم دليلا على العلم ثانيا، وثانيا العزة والمغفرة دليلا على حذفهما أوّلا»[٣].

وبعد أنْ عبر عن بطلان دعوتهم بالجملة الفعلية الدّالة على عدم الثّبوت، عمد إلى استكمال هذا المعنى بقوله: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ والتقدير: (لا شكّ أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة) أي ليس له نفع، ولما قد بين أنّ (الله) هو الذي له الدّعوة عطف عليه قوله: (وأنّ مردنا إلى الله). أمّا تعريف (المسرفين) فهو للجنس المفيد للاستغراق وفيه تعريض بالمخاطبين، وضمير الفصل (هم) أفاد قصرا ادعائيا لأنّهم المتناهون في صحبة النّار[٤].

ويخلص إلى خاتمة نصحه لهم وإرشاده، فيحادثهم على سبيل الاستعارة

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٥٣/٢٤.

(٢) =: نظم الدرر: ٧٧/١٧.

(٣) م. ن: ٧٧/١٧.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٥٥/٢٤ - ١٥٦.

المكنية إذ شبه إعراضهم بالنسيان، ورمز إليه بما هو من لوازمه وهو التّذكر، فقال كلمته وأراح ضميره مهددا إياهم بأنّهم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى[١]. وقد جرى التّسويف بالسّين إيماء إلى أنّ الموقف الذي سيذكرون فيه قوله آت قريب جدا، وقد جاء التّذييل (إنّ الله بصير بالعباد) على سبيل الفصل لتوكيد ما في الآية من التّرهيب والتّهديد والوعيد.

ويسدل السّتار على مشهد الحوار الذي بعث الحركة والحياة في النّص وحقق مغزاه التربوي، فقد كان حوارا جامعا لأطراف متعارضة متباينة، وهو حوار جامع للربوبية المزيفة والإيمان الراسخ في صراع بين الحق والباطل، والتّوحيد والشّرك، وهو حوار جامع لأنواع من التّرغيب والتّرهيب، وألوان من البراهين والتّأثيرات العقلية والعاطفية، وهو في كلّ هذا الجمع يؤثر في منطق العقل والوجدان[٢]، لتتحقق العبرة المتوخاة من القصص القرآني، والتي تتلخص في أنّ الحق لا بدّ أنْ يظهره الله مهما حاول الكافرون إخفاءه، وأنّ على مَن تبين له الحق وآمن به أنْ يبذل غاية وسعه في دعوة قومه إليه بعد أنْ يضحي بنفسه وراحته في سبيل إظهاره[٣].

ونصل إلى موطن العبرة والعظة من قصة مؤمن آل فرعون في قوله تعالى ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ وهكذا سيكون حال المخاطبين من مشركي قريش، فهو تهديد لهم وتعريض بما هم عليه، وهو في الوقت نفسه تسلية للنبي (ﷺ) وتثبيت إذ يتأسى بنجاة موسى ومَن آمن معه ويعلم أنّ مصير الكافرين الهلاك والخسران في الدّنيا والآخرة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سورة الزّخرف تأتي قصة موسى (عليه السلام) مع فرعون بنظم مختلف عمّا في سورة غافر، وبأحداث وحوار جديد، يظهر فيه استهزاء قوم فرعون برسالة موسى (عليه السلام) وتقلبهم بين الإيمان الزّائف عند معاينة العذاب ثمّ العودة إلى إظهار الكفر، ولجوء فرعون إلى حجج واهية أخرى يحاول بها استخفاف قومه وإثباتهم على الكفر، لتنتهي

---

(١) =: في ظلال القرآن: ٥/٣٠٨٣.

(٢) =: الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم: ١٠٢ - ١٠٣.

(٣) =: إلى القرآن الكريم: محمود شلتوت: ١٢١.

القصة بهلاكهم وجعلهم عبرة ومثلا للآخرين: يقول الله (ﷻ) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[(١)].

فهذه الآيات جاءت تسلية للرّسول (ﷺ) إذ اعترض المشركون من كبراء قومه على اختياره، واعتزّوا بالقيم الباطلة في الحياة الدّنيا كما اعتزّ فرعون بها وهم يقولون: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[(٢)] وهكذا اعتز فرعون أيضاً بكل فخره وخيلائه ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ فتتشابه مواقف الكفر بين الأمم، ويتشابه حال الرّسل (عليهم السّلام) إزاء هؤلاء في تبليغ الدّعوة.

وتبتدئ الآيات بالتوكيد بـ (اللام) و(قد) لأنّ المخاطبين منكرون للرّسالة، وأوثر لفظ (الإرسال) دون (البعث) لأنّ الإرسال لا يكون إلاّ برسالة وما يجري مجراها[(٣)]. وجاء قوله: (إلى فرعون وملئه) على سبيل الإجمال وقد قال قبل ذلك: (إلى فرعون وهامان وقارون) وأوثر (الملأ) هنا بمعنى عظماء قومه وذلك لتشابه حالهم بحال أبي جهل وإضرابه. ويلخص التّعبير القرآني حقيقة رسالة موسى بالقول: وهي ذات الحقيقة

(١) سورة الزّخرف: الآيات ٤٦ - ٥٦.

(٢) سورة الزّخرف: من الآية ٣١.

(٣) =: الفروق في اللغة: ٢٨٣.

التي جاء بها كلّ رسول. وقد قال في موضع آخر: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1] بإفراد الرّسالة وتثنية الضمير، وقال في موضع آخر: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾[2] بتثنية الضّمير والرّسالة، وذلك لأنّ في سورة الشّعراء ورد ذكر هارون مع موسى غير أنّ القصة مبنية على الوحدة لا على التثنية وهذا واضح من سياق الآية، في حين بني الكلام في سورة طه على التثنية ولذلك قال: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، ولمّا لم تكن أية إشارة إلى هارون في الزّخرف قال: ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ بإفراد الضّمير والرّسالة، فجاء كلّ تعبير في موضعه الذي هو أليق به[3].

وفي الآية الثّانية يؤكد المعنى ذاته بقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ ويبدأ بعرض موقفهم من الرّسالة، حيث مفاجأتهم له بالضّحك والسّخرية، وهي التي ينبئ بها حرف المفاجأة (إذا) والذي يدل على أنّ ما بعده حصل من غير ترقب، وزيادة في تشنيع أمرهم وموقفهم عمد النّظم القرآني إلى القصر بضمير الفصل (هم) وكأنّهم لا يضحكون إلاّ استهزاء به وبما جاء به، ولذلك قدم الجار والمجرور (منها) على الفعل المضارع الذي أوحى بضحكهم على سبيل الاستمرار والتّجدد، فضلاً عن أنّ هذا الضّحك هو كناية عن الاستخفاف بالآيات.

وتأتي الآية الأخرى تستكمل عظمة فعلتهم الشّنيعة وتؤكد التّعجيب الضّمني في الآية السّابقة، وذلك في قوله (ﷻ): ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ وينبثق التّعجيب من أنّ كلّ آية منها تستوجب الإذعان والطّاعة ولكنّهم أصروا على الكفر واستخفوا بها لمكابرتهم وعنادهم، وجاءت صيغة المضارع (نريهم) لاستحضار الحالة، ولأنّ الفعل المضارع يوضح الحال التي يقع فيها فيستحضر تلك الصّورة حتى كأنّ السّامع يشاهدها[4]. وأوثر أسلوب القصر بالنفي والاستثناء للتّعبير عن طغيانهم وعنادهم ونسيانهم للآيات المتتابعة، كما أفاد القصر التعبير عن شدة موقعها في

(١) سورة الشّعراء: من الآية ١٦.

(٢) سورة طه: من الآية ٤٧.

(٣) =: بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني: ٩٧ - ٩٩.

(٤) =: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ٣٣.

نفوسهم إذ إن كلّ آية تقع تعظم عندهم لحينها وتكبر لأنّهم كانوا قد انسوا التي قبلها بها[١]. ويتناسب الفصل بالضّمير (هي) مع صيغة المضارع (نريهم) وكأنّها حاضرة أمام السّامع، والتّعبير بصيغة التّفضيل (أكبر) كناية عن أنّها كلّها في نهاية العظمة أو أنّ بينها في الكبر عموما وخصوصا من وجه[٢]. والتّعبير بـ (أختها) استعارة للمماثلة في كونها آية. وأسلوب التّدرج في إقامة الحجج الذي تظهره الآيات يدلل على فعل ربوبي عظيم، يمتلك الإحاطة بما للناس من قابليات وتحديد الأسلوب النّافع للصلحاء والقاطع لحجة الطّالحين، ويومئ هذا الأسلوب إلى عظمة عنادهم وطغيانهم وطاعتهم العمياء لفرعون، فالعاقل يجد في الآيات الصغرى - وهي كبيرة عظيمة - كفايته للتسليم بالحق الإلهي، وتكون الآيات اللاحقة عوامل يستزيد بها هدى وبصيرة[٣]. ولم تكن هذه صفاتهم، فاتبعوا الهوى ولم يزدادوا إلاّ ضلالا وإمعانا في السوء.

وأجمل نزول الآيات المتتابعات في قوله بعد ذلك ﴿ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾، والتّعبير بالأخذ يوحي بالقوة والقدرة كما يوحي بالشّمول إذ إن أصله في العربية: الجمع[٤]. و(لعلّ) بمعنى (كي)، واستعير (الرّجوع) للاذعان والاعتراف، فكان العذاب بكلّ آية من تلك الآيات سبيل للرجوع عن الغي الذي هم فيه سادرون، فيهرعون إلى موسى (عليه السلام): ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ونداؤهم له بـ (يا أيها السّاحر) بأداة نداء البعيد فيه إشارة إلى بعده من قلوبهم، ولكنّهم لفرط حسرتهم ولشدة العذاب عليهم سبق لسانهم إلى ما تعودوا به[٥]. ووصفوه بالعلم والمهارة إذ لم يكن السحر صفة نقص عندهم فكان ذلك على سبيل التّعظيم[٦].

---

(١) =: المحرر الوجيز: ٢٣٣/١٣.
(٢) =: نظم الدرر: ٤٤٢/١٧ - ٤٤٣.
(٣) =: القرآن إعجاز يتعاظم: ١١٨.
(٤) =: الفروق في اللغة: ١٣١.
(٥) =: روح المعاني: ٨٨/٢٥.
(٦) =: الجامع لأحكام القرآن: ٩٧/١٦.

ويمكن القول أنْ هذا النداء يوحي بعزمهم على عدم الإيمان في قلوبهم ولذلك قالوا: ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ولو صدقوه الإيمان لقالوا (ربّنا)[1]. وقولهم ﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ كناية عن النّبوة، وقد سميت عهدا إمّا لأنّ الله عاهد نبيه (ﷺ) أنْ يكرمه بها، وعاهد النبي ربه على أنْ يستقل بأعبائها أو لما فيها من الكلفة بالقيام بأعبائها أو لأنّ لها حقوقا تحفظ كما يحفظ العهد[2]. ويتناسب إيثار ذكر (العهد) بما أكدوه بقولهم وهم يعاهدونه على الإيمان والهداية أنْ كشف عنهم العذاب فقالوا: ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ ويوحي هذا التّوكيد بـ (إنّ) و(اللام) والصّيغة الاسمية بما في نفوسهم من لهفة إلى الخلاص من العذاب، كما يوحي بمرارة هذا العذاب وإيلامه.

وتأتي الآية الأخرى على سبيل الإيجاز لتعلن حقيقتهم في نقض العهود، ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ فقد حذف ما تقديره: فدعانا بكشف العذاب فكشفنا فلما كشفناه عنهم[3]، وأصل (النّكث) نقض الحبل والغزل، فاستعير لنقض العهد، ويوحي استخدام (إذا) بمباشرتهم نقض العهد بعد كشف العذاب دون تأخير، ويوحي استخدام صيغة المضارع (ينكثون) بحقيقتهم تلك، فكلّما عاهدوا عهدا نقضوه على سبيل الاستمرار والتّجدد.

وتحدثنا الآيات بعد ذلك عن غرور فرعون واعتداده بنفسه وهو ينادي في قومه ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ وإسناد النّداء إليه مجاز عقلي فهو الآمر بالنّداء وإنّما يتولى النّداء منادون، وهكذا جملة (قال)[4].

ونداؤه لهم بـ (يا قوم) يوحي بلهفته إلى استمالتهم وصدهم عن دعوة موسى وكأنّه يقول (يا مَن لا قيام لي إلاّ بكم) ثمّ يعمد إلى الاستفهام والتّذكير بما له من الملك، فالاستفهام، الدّاخل على النّفي أفاد الإثبات مع الافتخار، ويصف ذلك كله

(١) =: القصص القرآني، إيحاؤه ونفحاته: ٢٦٦.

(٢) =: روح المعاني: ٢٥/٨٨.

(٣) =: روح المعاني: ٢٥/٨٩.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٢٩.

وهو يمتلئ غرورا واعتدادا بنفسه. وآثر تذكيرهم بذلك لأنّه يعلم أنّ القيم المادية الزّائفة تخدعهم وتخلب عقولهم بما فيها من الأبهة والزّخرفة. وناسب ذلك أنْ يختم الآية بالاستفهام التّقريري بقوله: (أفلا تبصرون)، وقوله: (مِن تحتي) كناية عن التّسخير أو استعارة للتمكن من تصاريف النّيل[١]، ويعرض التّعبير القرآني هذه الحلقة من قصة موسى (عليه السلام) هنا لتسلية الرّسول (ﷺ) حيث تتماثل مقاومة كبراء قومه واعتزازهم بالمظاهر المغرية مع مقاومة فرعون واعتزازه بتلك المظاهر. وفي الآية احتباك إذ «ذكر الأبصار أوّلا دليلا على حذف مثلها ثانيا، والخيرية ثانيا دليلا على حذف مثلها أوّلا، وحقر مَن عظمة الآتي له بتلك الآيات (عليه السلام) لئلا يسرع النّاس إلى اتباعه لأنّ آياته - لكونها من عند الله - كالشّمس بهجة وعلوا وشهرة، فقال (مَن هذا) فكنى بإشارة القريب عن تحقيره»[٢]، وتأتي بعد ذلك (أم) المعادلة والمعنى: (أفأنتم لا تبصرون أم تبصرون) فوضع موضع قوله: (أم تبصرون) الأمر الذي هو حقيق أنْ يبصر عنده وهو أنّه خير من موسى (عليه السلام)[٣] ولعلّ (أمْ) هنا بمعنى (بلْ) فهي منقطعة تفيد الإضراب، فهو يريد أنْ يقرر الخيرية وينسبها لنفسه مقابل موسى (عليه السلام)، فضلاً عن تحقيق المشاكلة بين الفواصل. والاستفهام اللازم تقديره بعدها تقريري لتصغير شأن موسى في نفوسهم، وقد عمد في وصف موسى (عليه السلام) إلى أسلوب التّرقي فبدأ بوصفه بأنّه (مهين) ثمّ (لا يكاد يبين) ثمّ (فلولا ألقي عليه أسورة) محاولة منه لإبطال وصفه بالرّسالة.

وتدل كلمة (يكاد) هنا على قرب وقوع الفعل في إطار زمني غير محدد[٤]. وهو في كلّ ذلك يشير إلى أنّ موسى ليس ملكا ولا أميرا أو لعله يشير إلى أنّه من ذلك الشّعب المستعبد المهين، فضلاً عن إشارته إلى ما كان معروفا عن موسى قبل خروجه من مصر من حبسة اللسان.

ويوغل الطاغية في غروره وتعاليه فيقول: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ كناية عن تمليكه، وفي ذلك يظهر التماثل الآخر بينه وبين كفار قريش إذ ظن مثلهم أنّ

---

(١) =: م. ن: ٢٥/٢٣٠.

(٢) نظم الدرر: ١٧/٤٤٨.

(٣) =: المحرر الوجيز: ١٣/٢٣٦.

(٤) =: الزّمن في القرآن الكريم: ١٨٦.

الرياسة من لوازم الرّسالة. ويقول بعد ذلك: ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ باستخدام (أو) للترديد بين إلقاء الأسورة ومجيء الملائكة، والاقتران هنا كناية عن الحماية والشّهادة وإقامة حجته.

ونصل إلى نتيجة أقوال فرعون المختلفة، إذ يعرضها التّعبير القرآني بنظم تتجلى فيه دقة اختيار الألفاظ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ فالخفة هنا مستعارة للانتقال من حالة التّأمل في طاعة فرعون والتّاقل في أتباعه إلى التّعجيل بالامتثال له كما يخف الشّيء بعد التّثاقل[1]، وإضافة السّين والتّاء للمبالغة في (أخف).

وتعلل طاعتهم له وسرعة استجابتهم لطلبه بقوله: (إنّهم كانوا قوما فاسقين) ذلك أنّ الكفر والفسوق كان من مقوماتهم ومتأصل فيهم، ولذلك استحقوا غضب الله وانتقامه ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ فها هي عاقبتهم لمَن أراد أنْ يعتبر، فهي نهاية كلّ مسرف متكبر أعرض عن الإيمان، وهكذا هو حالكم يا مشركي قريش، إنْ لم تعتبروا بغيركم من الأمم السالفة.

والتّعبير الموجز بقوله (اسفونا) استعير لمعنى عصونا، فعاملهم الله كما يعامل السّيد المأسوف عبدا آسفه فلم يترك لرحمة سيده مسلكا، أمّا الإيجاز فلأنّ كونهم مؤسفين لم يتقدم له ذكر وأنابت (لما) على أنّه قد حصل[2]. وقد حققت كلمة (اسفونا) إيجازا بديعا لكلّ فواحش هؤلاء القوم، فضلاً عن الجمال الموسيقي في خفة المفردة وحروفها وأصواتها، حيث خففت النّون بالمد، وخففت الفاء بالمد أيضاً، فضلاً عن حرف السّين الهامس، وقد أوثرت هذه اللفظة لما تؤديه من معان ودلالات، فجرس أصواتها يوحي بعظم جرم هؤلاء وأثره، وتكاد تجمع بين مشاعر نفسية هي مزيج بين متضادات لا تجمع إلاّ في هذه اللفظة فهي مثال آخر لما يسمى بـ (الفرائد)، وفي التّأمل في مثلها نجد أنّ لألفاظ القرآن ومعانيه تلاؤما أعلى وأبعد من كلّ ما يمكن الوصول إليه من قواعد وقوانين صوتية ودلالية. وقوله: (انتقمنا منهم) يبين أنّ العقاب كان جزاء

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٣٣.

(٢) =: م. ن: ٢٥/٢٣٤.

على ما فعلوه، وبينه بقوله (فأغرقناهم)، ويؤكد التّعبير القرآني أنّ هلاكهم جعله الله عبرة للآخرين ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ فكانت هذه الآية تذييلا للقصة بكاملها من حيث الغرض، فهي للعبرة والعظة والتّأمل والتّدبر، وما هي إلاّ مثل من تلك الأمثال الكثيرة إذ تركت الدّنيا وشدت الرّحال إلى الآخرة وكأنّها انتقلت من عذاب الدّنيا إلى عذاب الآخرة فليعتبر بذلك مَن له عقل فما الحياة الدّنيا إلاّ متاع، والآخرة هي دار الخلود.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سورة الدّخان تذكر حلقة أخرى من حلقات قصة موسى مع فرعون، بنظم وأحداث جديدة تختلف عمّا ذكر في سورتي غافر والزّخرف، ويتناسب ما فيها من أحداث ومواقف وحوار مع حال الرّسول (ﷺ) والمؤمنين وهم يواجهون مقاومة المشركين وإيذائهم، فجاءت القصة على سبيل تشبيه الحالة بالحالة، ولكنْ عدل عن صيغة التّشبيه والتّمثيل إلى صيغة الإخبار اهتماما بالقصة وإظهارا بأنّها تذكير مستقل وفيها العبرة والعظة للمشركين، والتّثبيت والتّسلية للرسول (ﷺ)، يقول الله (ﷻ): ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

وكما بدأت القصة في سورتي غافر والزّخرف بـ (لقد) تبتدئ بها هنا للتوكيد بـ(قد) و(اللام) لأنّ الخبر يساق للمنكرين من أجل تحقيق العبرة والعظة، وقوله: (فتنا) أي امتحنا واختبرنا، وهو من فتن الفضّة: عرضها على النّار، فهو استعارة[2]. والضّمير

(١) سورة الدّخان: الآيات ١٧ - ٢٩.

(٢) =: روح المعاني: ١٢٠/٢٥.

في (قبلهم) يعود على مشركي قريش، ويمكن أنْ يكون قوله: (فتنا) أي أوقعناهم في الفتنة بالإمهال وتوسيع الرّزق عليهم وهو ما يناسب التّذكير بما كانوا فيه من نعم كثيرة في قوله: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ عطف الخاص على العام أو المفصل على المجمل في (فتنا)، فهو طرف من الابتلاء، ينكشف به نوع استجابتهم للرّسول الكريم. وقوله: ﴿ أَنْ أَدُّوٓا إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ بحذف فعل القول جاء على طريقة الاستعارة المكنية، حيث جعل بني إسرائيل كالأمانة عند فرعون، وقد جاء الخطاب عاما لأنّه رأى من فرعون صلفا وتكبرا فخاطب أهل مشورته لعلهم يشيرون على فرعون بالحق. ونلمح في خطابه يقينا وتمكنا توحي به صيغة الأمر (أدوا)، ويوحي قوله: (عباد الله) بأنّه لا حكم له عليهم، كما أوحى بتذكير فرعون بموجب رفع الاستعباد عنهم فكان هذا الوصف كناية عن الحرية. وتقديم (لكم) على (رسول) يتناسب مع حال إنكارهم الرّسالة، فالتّقديم للاهتمام بتعلق الإرسال بأنّه لهم خاصة، وآثر التّعبير عن نفسه في هذا المقام بصفة (أمين) ليزيل عذرهم ويقيم الحجة عليهم، والمعنى أنّه بالغ الأمانة لأنّ الملك الدّيّان لا يرسل إلاّ مَن كان كذلك[(١)]، فضلاً عن التّناسب بين صفة (الأمين) وفعل (الأداء).

وتأتي الآية الأخرى على سبيل التّناسب المعنوي مع سابقتها، ومع حقيقة المخاطبين وواقع حالهم، وهي قوله ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ ﴾ فلمّا قال: ﴿ أَنْ أَدُّوٓا إِلَيَّ ﴾ توقع منهم التّكبر والعلوّ عن تنفيذ أمره ولذلك قال: ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ إشارة منه إلى أنّ ما أمرهم به هو أمر الله وليس اجتهادا منه، فضلاً عن أنّه يعلم حقيقتهم التي يتصفون بها وهي العلوّ والتّكبر، فجاء قوله: ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ احتراسا وإلجاما لفعل متوقع، لأنّهم استعبدوا عباد الله واستعلوا عليهم، وناسب ذلك المعنى أنْ يقول لهم بعد ذلك: ﴿ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ لما توحي به كلمة (السلطان) من العلو أيضاً، فضلاً عن وصفه بـ (مبين).

---

(١) =: نظم الدرر: ٢١/١٨.

ثمّ يكرر تأكيده لهم بـ (إنّ) في قوله ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾ بعد أنْ وجد أنّ لا أمل في تخليهم عن الإجرام، فلجأ إلى الله تعالى وآثر الوصف بـ(ربّي وربكم) إصرارا منه على قول الحق حتى في أحرج المواقف ولأنّ هذا الوصف أدخل في ارعوائهم، وقوله: (أنْ ترجمون) يشمل الرجم بالحجارة أو الرّجم بالقول من السباب[1]. وجيء بصيغة المضارع للاستغراق الزّمني وإفادة التّجدد والاستمرار.

ولأنّ الاستعاذة كانت عن قوة وزيادة تثبيت قال بعدها تأكيدا لذلك ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾ إذ يجمع قوله هذا بين الثّبات والقوة من جهة، وبين طلب الموادعة من جهة أخرى، واختيرت هذه المواقف وما جرى فيها من حوار لتماثلها مع حال الرّسول (ﷺ) مع قريش إذ طلب الموادعة وترك الأذية وأنْ يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة[2]، وقد جاء قوله هذا على سبيل الاكتفاء فاختار ما يناسب مقام طلب الموادعة، وترك ما تقديره: فإنْ أمنتم بذلك وسلمتم لي أفلحتم، وكذلك: وإنْ لم تعتزلوني هلكتم[3]. وهكذا جاء ترتيب فواصل هذه الآيات على سبيل التّرقي ليوحي بما بدا من فرعون وقومه تجاه الدّعوة. وكان قد بدأ بإبلاغ ما أرسل به إليهم فآنس منهم التّعجب والتّردد فقال: (إنّي رسول أمين)، وحين رأى منهم الصّلف والاستكبار قال ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾، وحين لم يرعووا قال ﴿ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾، وحين أحس منهم إضمار السّوء له قال ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾ فكان هذا التّرقي مغنيا عن ذكر جوابهم على سبيل الإيجاز[4]، ولكنّ الكفر قد ران على قلوبهم فلم يستجيبوا لطلبه، فلجأ إلى الله ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ وكأنّ الإجرام قد نشأ معهم وصار من مقوماتهم، وهو في وصفهم بـ (مجرمون) يطلب المجازاة على الإجرام، وقد جاء دعاؤه على سبيل الشّكاية من أعدائه.

وتأتي الاستجابة سريعة وهي الأمر الصّادر من ربّه ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم

---

(١) =: المحرر الوجيز: ١٣/٢٧١.

(٢) =: تفسير القرآن العظيم: ٤/٧٦.

(٣) =: نظم الدرر: ١٨/٢٣.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٩٨.

مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ بحذف (القول) بتقدير: فدعا فقلنا[١]، والتّعبير عن بني إسرائيل بـ (عبادي) فيه تشريف لمَن آمَن منهم بموسى (عليه السلام) واتبعه، والسّرى هو السّير ليلا، ولكنّ التّعبير القرآني ينصّ عليه ليوحي بجو الخفية، وفي ذلك زيادة اطمئنان لهم من بطش فرعون وأتباعه، ويتناسب ذلك مع قوله: (إنّكم متبعون) وكأنّه تعليل لذكر لفظة (ليلا)، وأكد ذلك لهم بـ (إنّ) والصّيغة الاسمية (متبعون) لينفذ الأمر كما جاء من عند الله، وأسند الاتباع إلى غير مذكور لأنّه من المعلوم أنّهم فرعون وجنوده، وكأنّ عدم التّصريح بهم يوحي باحتقارهم وبأنهم أصبحوا - في علم الله وأمره - لا وجود لهم.

ويستكمل الأمر - على سبيل الإيجاز في النّظم القرآني - بقوله تعالى ﴿ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ممّا يوحي بتنفيذ الأمر بالسّرى ليلا واجتياز البحر الذي ذكر في سور أخرى، فيصدر هذا الأمر بترك البحر على فجوته الواسعة التي اجتازوه منها، والتّعبير بـ (رهوا) تشبيه بليغ أي مثل رهو. ثمّ يصف هلاكهم بالغرق على سبيل الفصل فكان قوله ﴿ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴾ استئنافا بيانيا جوابا عن سؤال ناشئ عن الأمر بترك البحر رهوا[٢]. وقد جاء هلاك فرعون وقومه بالغرق جزاء من جنس العمل إذ كان فرعون يفتخر بالماء وجريان الأنهار من تحت قصره.

وبعد أنْ انتهت القصة، استكمل التّعبير القرآني ما يؤكد استخلاص العبرة والعظة منها وذلك في قوله تعالى ﴿ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾، ويوحي البدء بـ (كم) الخبرية بكثرة ما تركوه، ويستكمل معنى الكثرة في تنكير (جنات وعيون) فهو للتّكثير، وقد جاءت الآيات على سبيل إيجاز القصر بما تضمنته من بيان عجيب يوجب التّحذير من الاغترار بالإمهال، وهو جزء من العبرة. ووصف المقام بـ (كريم) مجاز عقلي بعلاقة المكانية وذلك بإسناد الكرم إلى المقام.

وآثر التّعبير القرآني مع ذكر (نعمة) ذكر حرف الظرفية (في) ليوحي بكثرتها وشمولها حتى كأنّها أصبحت ظرفا لهم، وقوله (فاكهين) أي ناعمين، وأوحى هذا

---

(١) =: م. ن: ٢٥/٢٩٩.

(٢) =: م. ن: ٢٥/٣٠١.

الوصف بأنّهم كانوا مستخفين بشكرها ومستهزئين لأنّ الفكه يستعمل كثيرا في المستخف المستهزئ[١].

وهكذا يرسم التّعبير القرآني صورة عامرة بالجمال الحسي المرتسم أمام العين، ويرافقه الإحساس بالجمال المعنوي المتمثل بـ (المقام الكريم)، وعرض هذه الصّورة الجمالية لهذه النّعم المختلفة وما آلت إليه بسبب الكفر تجسيد لقانون إلهي وسنة من سننه المطردة[٢]، وقد أوحت بهذا كلمة (كذلك) أي «نفعل فعلا كذلك بمَن نريد إهلاكه»[٣]، وقد كان للقرآن هدفه في عرض هذه الصّور حيث أوردها في معرض الاعتبار والعظة وبيان عواقب الظّلم والفساد والاسترسال في التّرف والنّعيم[٤]. وقوله ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ جاء على سبيل التّشبيه البليغ إذ وصل ذلك إلى مَن جاء بعدهم كوصول الميراث، وتنكير (قوما) جاء مناسبا للسياق إذ القصد أخذ العبرة، والتّفكر في أمر الدّنيا وما فيها من النّعم الزّائلة.

ونفيا لمَا قد تثيره الآيات السّابقة من الحسرة والأسى لدى المتلقين، جاء قوله بعد ذلك ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ «فإذا لم يبك السكن فما ظنك بالساكن الذي هو بعضه، وهو استعارة لعدم الاكتراث بهم لهوانهم»[٥].

وقد جاءت هذه الصّورة تعبيرا عن عدم الاكتراث بهم، وتحقيرا لأمرهم، فضلاً عن أنّ إسناد البكاء إلى السّماء والأرض ألصق في تصور الفجيعة، وأبلغ في تصوير النّازلة وذلك حينما أخذ هؤلاء على عجل دون أهبة أو استعداد[٦]. واعتمد في الصّورة أسلوب التشخيص، إذ بدت السّماء والأرض في صورة إنسان يبكي فحذف المشبه وذكر لازمه وهو البكاء على سبيل الاستعارة المكنية والتي أوحت بمقت الكافرين، وألقت ظلالا من الفرح والتّكريم تستشعره النّفس المؤمنة، وهو شبيه بالاحتباك، فإذا كانت السّماء لا تبكي على الكافرين فإنّها تبكي على المؤمنين حين موتهم، إذ روي

---

(١) =: المحرر الوجيز: ٢٧٥/١٣.

(٢) =: الاستعارة في القرآن الكريم: ٣٣٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٣٩/١٦.

(٤) =: دراسة أدبية لنصوص من القرآن: ٩٠ – ٩١.

(٥) نظم الدرر: ٢٩/١٨.

(٦) =: مجاز القرآن، محمد حسين الصغير: ١٢٧.

عن الرّسول (ﷺ) قوله: «**ما من مؤمن إلاّ وله في السّماء بابان، باب ينزل منه رزقه، وباب يدخل منه كلامه وعمله، فإذا مات فقداه فبكيا عليه، ثمّ تلا (فما بكت عليهم السّماء والأرض)، وقال علي وابن عباس (رضي الله عنهما): إنّه يبكي عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السّماء**»(١).

وقد ختم كلّ ذلك بقوله ﴿ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ على سبيل الإطناب بالتتميم(٢)، مبالغة في عدم الاكتراث بهم، وكأنّهم - على الرغم من كلّ ما تمتعوا به في الدّنيا - لم يمهلوا، وفي ذلك تحذير من الاغترار بالإمهال، فضلاً عن فائدة التتميم في مشاكلة الفواصل.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## ثانيا: موسى (عليه السلام) وبني إسرائيل:

تضمنت بعض الآيات في سور الحواميم ذكر جوانب من قصة موسى (عليه السلام) مع بني إسرائيل، وكان غرض القرآن في ذلك تأنيس الرّسول (ﷺ) وتسليته وتثبيته، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾(٣).

فبعد أنْ أكّد التّعبير القرآني نصرة الله لرسله ومَن آمَن معهم في الدّنيا والآخرة، وأظهر عدم نفع معذرة الظّالمين في الآخرة واستقرارهم في أسوأ دار، ذكر في هذه الآيات صورة من صور النّصر في قصة موسى تمثلت بإيتاء الكتاب والهدى ووراثته.

تبتدئ الآية الأولى بالفعل (آتينا) مسبوقا بـ (قد) المقرونة باللام الموطئة لجواب القسم والتي تفيد التّحقيق، وتتكرر هذه الصّيغة مع ذكر الرّسل في القرآن الكريم(٤)، وفي ذلك إيحاء برفيع مكانة هؤلاء الأنبياء والمرسلين ومالهم من قدر عظيم عند

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/١٤٠.

(٢) «هو أنْ يتم الكلام فيلحق به ما يكمله أمّا مبالغة أو احترازا أو احتياطا»، البرهان في علوم القرآن: ٣/٧٠.

(٣) سورة غافر: الآيتان ٥٣ و٥٤.

(٤) =: سورة البقرة: الآية ٨٧، وسورة هود: الآية ١١٠، وسورة الإسراء: الآية ١٠١، وسورة فصّلت: الآية ٤٥.

ربّهم[١].

وإطلاق الإيراث هنا استعارة حيث أخذوه في حياته وأبقاه لهم بعد وفاته، فكان الكتاب من جملة الهدى الذي اوتيه موسى، وتعريف (الهدى) و(الكتاب) أفاد التّعظيم، وآثر التّعبير القرآني هنا ذكر (الهدى) في حين لم يذكره في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾[٢] وذلك لأنّ آية سورة غافر تتناسب مع سياق تسلية النّبي (ﷺ) وتثبيته، وكأنّ ذكر إيراث الكتاب فيه إيحاء بإيراث القرآن وخلوده، وأنه هدى للنّاس أيضاً مثلما ذكر ذلك في آيات كثيرة، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أمّا آية سورة فصلت فتتناسب مع السّياق الذي جاءت فيه وهو تنزيل القرآن وصفاته وذكر حال الكافرين في الإعراض عنه والجدال فيه، ولذلك لم يذكر (الهدى) وذكر الاختلاف فيه.

وقد أعيد ذكر إيتاء الكتاب لموسى (عليه السلام) في سورة فصلت الآية (٤٥) لتسلية النّبي (ﷺ) وهو يواجه تكذيب المشركين وكفرهم بالقرآن، ويظهر أنّ فعل هؤلاء مثل فعل أولئك حين جاءهم موسى (عليه السلام) بمثل ما جئتهم به، ولذلك قال بعدها ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾[٣]. وذكر الاختلاف في كتاب موسى أوقع في التسلية لأنّ الله قد عصم القرآن عن مثل ذلك الاختلاف وتعدد جهاته، كما أنّ ذكر الاختلاف يوحي للرسول (ﷺ) أنّ ذلك عادة قديمة للأمم لا تختص بمشركي قريش، وتأتي الآية بنظم عجيب إذ يصح أنْ يكون حديثها عن بني إسرائيل، أو أنْ يكون عن مشركي قريش، فقوله ﴿ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي حتم الله تأخير عذابهم، وقوله: (لقضي بينهم) يمكن أنْ يكون لبني إسرائيل أو لمشركي قريش، والضّمير في قوله ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ يحتمل أنْ يعود على موسى أو على كتابه[٤]، ويحتمل أنْ يعود على القرآن فتشمل الآية مشركي قريش، ولا سيّما أنّه آثر التّعبير

(١) =: روائع الإعجاز في القصص القرآني: ٢٠٧.

(٢) سورة فصّلت: من الآية ٤٥.

(٣) سورة فصّلت: من الآية ٤٥.

(٤) =: المحرر الوجيز: ١٣/١٢٧.

بالضّمير في (أنّهم) في حين صرح في موضع آخر بمراده، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾[1] وفي الآية بهذا النّظم المعجز تهديد ووعيد لهؤلاء ولا سيّما أنّه أكده بـ (إنّ) و(اللام) في (لفي). ويظهر قوله (في شكّ) تمكن الشكّ من نفوسهم كما يتمكن الظرف من المظروف، وقد وصف الشكّ بمريب على سبيل المبالغة فيه فهو مجاز عقلي بعلاقة السّببية ليكون أشدّ في سياق التّهديد والوعيد ليتحقق هدف القصص القرآني في العبرة والعظة.

❖❖❖❖❖

بعد أنْ استكمل التّعبير القرآني قصة موسى (عليه السلام) مع فرعون في سورة الدخان، وذكر عقاب الله لقوم فرعون بالغرق ثمّ عقب على ذلك بما يوحي بعدم الاكتراث لما أصابهم، عمد إلى ذكر ما حل ببني إسرائيل بعد أنْ أمر موسى (عليه السلام) بترك البحر رهواً، فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[2].

وهكذا كانت آية البحر هلاكاً لقوم وإنجاءً لآخرين، وفي ذلك إشارة تبشر المؤمنين بالنّجاة من عذاب مشركي مكة وقد أكّد ذلك باللام والتّحقيق بـ(قد)، وأوثر الفعل (نجى) على (أنجى) لأنّه يستعمل للتلبث والتّمهل في التّنجية[3]، وهو ما يتناسب وموضع ذكر نجاتهم إذ جاء بعد ذكر هلاك فرعون وقومه، وذكر ما تركوه من نعم الدّنيا التي كانوا يتمتعون فيها، ثمّ التعقيب على ذلك بعدم الاكتراث لهلاكهم فلم تكن هناك سرعة في إنجاء بني إسرائيل إذ اجتازوا البحر وآمنوا من فرعون وجنوده، و(العذاب المهين) هو معاملة فرعون وقومه لهم من الاستعباد والمشقة في العمل، وفي جعل فرعون العذاب نفسه - على سبيل البدلية - تهويل لما كانوا يلاقونه مِنه، وزيد هذا التّهويل في وصف فرعون بأنّه ﴿ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾، أي متميزاً في العلو بغير

(١) سورة الشّورى: من الآية ١٤.

(٢) سورة الدّخان: الآيات ٣٠ - ٣٣.

(٣) =: بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني: ٧٠.

الحق ومجاوزاً الحدود في الإسراف فلم يقل مسرفاً لأنّ قوله (مِن المسرفين) أشد مبالغة في الوصف[١]. وتوحي هذه الصفات - من جانب آخر - بقدرة الله تعالى على إنجاء المؤمنين مهما تميزت فئة الشّر بالعلو والإسراف والقوة، وفي ذلك تهديد للمشركين، ووعدٌ للمؤمنين وبشارة.

ثمّ يذكر الله نعمةً أخرى أنعم بها على بني إسرائيل وذلك في قوله ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[٢] أي على عالمي زمانهم بدليل قوله لهذه الأمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[٣] وقال: (على علمٍ) أي على علم منا بهم لكثرة الأنبياء منهم[٤]. ولم يقل ذلك في قوله ﴿ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[٥] لأنّه مكرر في قوله تعالى ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾[٦][٧]. ثمّ أجمل معجزات موسى (عليه السلام) والآيات التّسع التي حلت بقوم فرعون وما أنعم على بني إسرائيل من تظليل الغمام والمن والسّلوى[٨] في قوله تعالى ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[٩] فقد كان ذلك اختبار منه تعالى وامتحان لهم، و(مبين) أي يتميز به المؤمن مِنَ الكافر[١٠]. وفي ذلك تذكير على سبيل التّعميم بأنّ ما جاء به الرّسول (ﷺ) وما أنعم الله به على أهل مكة وغيرهم هو امتحان واختبار، ومِن هنا تنبثق العبرة أيضا في ذكر هذا الجانب من قصة فرعون.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

بعد ذكر نجاة بني إسرائيل من فرعون، واختيارهم على عالمي زمانهم، يذكر التّعبير القرآني حلقةً أخرى من قصة موسى (عليه السلام) مع بني إسرائيل تتمثل في نعم أخرى

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٣٠٥/٢٥.
(٢) سورة الدّخان: الآية ٣٢.
(٣) سورة آل عمران: من الآية ١١٠.
(٤) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٤٢/١٦.
(٥) سورة الجاثية: من الآية ١٦.
(٦) سورة الجاثية: من الآية ٢٣.
(٧) =: أسرار التكرار في القرآن: ١٩٢.
(٨) =: المحرر الوجيز: ٢٨١/١٣.
(٩) سورة الدّخان: الآية ٣٣.
(١٠) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٤٣/١٦.

أنعمها الله عليهم، ولكنّهم اختلفوا فيما جاءتهم به الرّسل، وتهافتوا على الدّنيا وما فيها من متاع، ولم يذكر التّعبير القرآني هنا شيئاً من عقاب الله لهم - كما ذكر في سور أخرى - ولكنّه يظهر وعيدهم بما سيكون عليه حالهم يوم القيامة. وفي إخفاء ذلك والاكتفاء بذكر القضاء بينهم فيما اختلفوا فيه زيادة تهويل وترهيب. وكلّ ذلك في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[(١)].

وقد جاءت هذه الآيات دليلاً وحجة للرّسول (ﷺ) في الأمر الذي تضمنته الآيات التي بعدها من اتباع الشّريعة والعمل بها وعدم اتباع أهواء الكافرين لأنّهم لن يغنوا عنه شيئاً ولأنّ ولاء بعضهم لبعض لا يعادل شيئاً أمام ولاية الله للمتقين. وقد جاء ذكر اختلاف بني إسرائيل على سبيل الإدماج في ذكر نعم الله تعالى عليهم. وجاء ذكر أحوال بني إسرائيل على سبيل المقابلة مع ما ذكر من أحوال المشركين في الآيات السّابقة، فقوله هنا ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ يقابله هناك ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[(٢)]، وقوله هنا ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ يقابله هناك ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[(٣)] وقوله هنا ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ يقابله هناك ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ﴾[(٤)] وقوله هنا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يقابله هناك ﴿ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[(٥)] فضلاً عن مجيء الآيات هنا بنظمٍ يختلف عما ذكر في سورة يونس من قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم

---

(١) سورة الجاثية: الآيتان ١٦ و١٧.

(٢) سورة الجاثية: من الآية ٦.

(٣) سورة الجاثية: من الآية ١٣.

(٤) سورة الجاثية: من الآية ٨.

(٥) سورة الجاثية: من الآية ١٤.

مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[1]. وسبب الاختلاف في النّظم «إنّ سورة الجاثية لم يذكر فيها من قصة بني إسرائيل غير هاتين الآيتين، والتي في سورة يونس إنّما هي بعد سبع عشرة آية قصرت على ذكر موسى وما دار بينه وبين فرعون ... وكانت هذه السّبع عشرة آية قد اختصر فيها جميع ما بسط في الآيات الكثيرة من سورة طه والشّعراء، فكان الموضع موضع اختصار فاختصر قوله ﴿ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ ﴾ عمّا شرح في الآيتين في سورة الجاثية»[2].

وتقدم ذكر (الكتاب) وهو التّوراة، للتشريف، وتناسب ذكر (الحكم) بعده لتمكينهم من الحكم والقضاء بين النّاس بعد فهم الكتاب، كما تناسب ذكره مع ذكر نعمة الرّزق التي مكنتهم من (الحكم)، ثمّ ذكرت (النّبوة) ثالثاً مقابل قوله: (وفضلناهم على العالمين) أي على عالمي زمانهم، و(النّبوة) يعني الأنبياء من وقت يوسف (عليه السلام) إلى زمن عيسى (عليه السلام) فكان ذلك جزءٌ من تفضيلهم على العالمين.

وإعادة ذكر (آتينا) مناسب لمقام ذكر النّعم والامتنان بها، وفي ذلك تعريضٌ بأهل مكة من المشركين، وتماثل حالهم بحال أولئك، وقوله ﴿ بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ ﴾ دليل على وضوح الشّريعة التي لا تدع إلى الاختلاف كما فعلوا، إذ لا غموض فيها ولا لبس، ولذلك قال بعد ذكر اختلافهم (بغياً بينهم) تأكيداً لمَا في (بيّنات) من الوضوح والبيان، وقد زيد هذا المعنى في تعريف (الأمر) الذي أفاد التّعظيم أيضا، فضلاً عن دلالته على الشّمول، إذ لم يترك الأنبياء شيئاً من مصالح بني إسرائيل إلاّ وضحوه وبينوه.

وجاء قوله ﴿ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ ﴾ إدماجا على سبيل الإيجاز، والتّقدير: (فاختلفوا وما اختلفوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم)، ويوحي ذلك بالتعجيب من اختلافهم بعد ما جاءهم العلم، أي علم النّبوة ومعجزات الرّسل، وفي ذكر ذلك دعوة – على سبيل الكناية – إلى عدم التعجيب من اختلاف مشركي مكة مع

---

(١) سورة يونس: الآية ٩٣.

(٢) درة التّنزيل وغرة التأويل: ٤٣٨ – ٤٣٩.

المؤمنين، فالمشركون ليسوا على علمٍ ولا هدى، ليعلم الرّسول (ﷺ) أنّه ملطوفٌ به في رسالته[١].

ويأتي بعد ذلك الوعيد والتّهديد في ذكر الخبر المؤكد بـ (إنّ)، وتشريف الرّسول (ﷺ) بإضافة (ربّ) إلى الكاف على سبيل الخطاب، وتقديم (فيه) على (يختلفون) للاهتمام برعاية الفاصلة، ولتأكيد أهمية ما وقع فيه الاختلاف فهو - على الرّغم من وضوحه وبيانه - سيكون مقدماً في إظهاره بقضاء الله بينهم يوم القيامة. وجاء الخبر على سبيل التّعميم والشّمول، فقضاء الله تعالى في يوم القيامة يشمل المختلفين من بني إسرائيل، ويشمل المشركين والكافرين ممّن لم يتبعوا الرّسول (ﷺ)، ويشمل المؤمنين أيضا ليظهر ما كانوا عليه من الحق، وهو ما يتناسب مع قوله تعالى بعد ذلك ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٢] وفي ذلك ترهيب للكافرين، ووعد للمؤمنين وبشارة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## ثالثاً: قوم عيسى (عليه السلام):

في سياق القصص القرآني الذي تضمنته سورة الزّخرف يأتي ذكر جانب من قصة عيسى (عليه السلام) في قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾[٣].

نجد أنّ التّعبير القرآني كثيراً ما يؤثر التّعبير عمّا يأتي به الرّسل (صلوات الله وسلامه عليهم) بـ (البيّنات)، وفي ذلك تعريض بالكافرين، إذ الأمر بين لا يحتاج إلى الاختلاف فيه، ومِن هذه البيّنات معجزاته مثل إحياء الموتى وإبراء الإسقام وخلق الطّير والمائدة وغيرها. و(الحكمة) أي النّبوة أو الإنجيل أو علم ما يؤدي إلى الجميل وما

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٣٤٦/٢٥.

(٢) سورة الجاثية: من الآية ١٩.

(٣) سورة الزّخرف: الآيات ٦٣ - ٦٥.

يكف عن القبيح[١]. وفي ذكر (الحكمة) ترغيب لهم، في كلمة جامعة لكلّ ما فيه خير ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[٢]. ولم يترك العطف في قوله: (ولا بين لكم) اهتماماً بالعلّة، فجاءت بهذا الفصل كأنّها كلام برأسه[٣]. وقوله ﴿ بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ يعني أنّ الاختلاف بين النّاس يكون في أمور كثيرة، فكلّ نبي يبعث ليبين أمر الأديان والآخرة، فذلك بعض ما يختلف فيه[٤]. وقوله ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ شامل لكلّ تفاصيل الحكمة ولكلّ ما يختلفون فيه وكأنّه تعميم بعد التّخصيص الذي في (بعض) أو ذكر العام بعد الخاص، على تفسير الاختلاف في تبديل التّوراة[٥]. والتّقوى هي مخالفة الله. وطاعة الرّسول تشمل العمل بما يبين لهم. ثمّ يؤكد دعوته لهم إلى التّوحيد، فيأتي التّوكيد بـ (إنّ) وبضمير الفصل الذي أفاد قصر الربوبية على الله تعالى وإعلان وحدانيته وتفرده بها. ولم يذكر ضمير الفصل في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾[٦] وذلك لأنّ آية سورة الزّخرف ذكرت في سياق عبادة عيسى واتخاذه إلهاً فناسب ذلك تأكيد ربوبية الله له[٧]، ولذلك أثر تقديم نفسه على قومه في (ربي وربكم) لقصد سد ذرائع الغلو في تقديسه (عليه السلام). وفرع على إثبات التوحيد لله الأمر بعبادته بقوله (فاعبدوه) لأنّه إذا ثبت تفرده بالرّبوبية توجه الأمر بعبادته عن استحقاق وجدارة. ويأتي قوله ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ على سبيل الفصل لأنّه استئناف بياني مقرر لمضمون ما سبق. واستعارة (الصّراط) للدين يتجسد فيها المعنوي محسوساً فتصبح طريقاً لا التواء فيه، يجوزه الماشي دون أنْ يحيد، فهو مستقيم لا انحناء فيه، وتستمد الصّورة الاستعارية قوة تأثيرها من استدعائها للصّورة الضّد: صورة التّائه في

---

(١) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/١٠٨.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٢٦٩.

(٣) =: روح المعاني: ٢٥/٩٦.

(٤) =: المحرر الوجيز: ١٣/٢٤٦.

(٥) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/١٠٨.

(٦) سورة مريم: من الآية ٣٦، وسورة آل عمران: من الآية ٥١.

(٧) =: التّعبير القرآني: ١٣٤،

انعطافات طريق متعرج[١]. وإسناد الاستقامة إلى الصّراط مجاز عقلي بعلاقة المكانية.

وتبين الآية الأخرى، موقف القوم من دعوة عيسى (عليه السلام)، حيث أجمل ذكر اختلافهم الذي وقع تفصيله في آيات كثيرة[٢]. وفرع على ذكر الاختلاف تهديد على سبيل التّعميم، وهو تفريع التّذييل على المذيل، إذ يشمل قوله: (الذين ظلموا) جميع المشركين وذلك لقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٣] وفي ذكر هذا الوصف إيحاء بأنّ الاختلاف أفضى بهم إلى الإشراك وهو ما يوحي به ارتباط التّذييل بالمذيل[٤].

وقد آثر التّعبير القرآني هنا وصفهم بالظلم، في حين وصفهم بالكفر في قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[٥] وذلك لأنّ الكفر أبلغ من الظّلم، والقصة في سورة مريم مشروحة وفيها ذكر نسبتهم عيسى (عليه السلام) إلى الله تعالى، فذكروا بلفظ الكفر، والقصة في الزّخرف مجملة، فوصفهم بلفظٍ دونه وهو الظّلم[٦].

وهكذا يختم هذا الجانب من قصة عيسى (عليه السلام) بما فيه من العبرة والعظة، فضلاً عن شمول ما فيه من التّهديد والوعيد للمشركين في كلّ زمان ومكان.

ومِن خلال ما تقدم بدت لنا القصة القرآنية في سور الحواميم بتصويرها القرآني حيث الإعجاز في نقل حكاية الشّخصيات، ودقة التّعبير عن مشاعرها، وصدق التّرجمة عن خواطرها، وتنوعت طريقة العرض، فأخذ إحضار الأحداث وتقديمها مشاهد حية حيزاً كبيراً فيها، واختير في كلّ موضع ما يناسبه مراعاةً لمقتضى حال المخاطبين في زمن نزول الآيات. ومِن هذا التّنوع أنّها جاءت موجزة أحيانا، ومفصلة أحيانا أخرى، توافقاً مع السّياق والهدف الذي ترمي إلى تحقيقه. ومنه إعادة بعض أحداثها بنظم مختلف للتفنن في العرض وللتأثير في النّفوس. وكانت القصة من حيث الهدف تثبيتاً وتطميناً للرّسول (ﷺ) وتذكيراً وعظة للمؤمنين، وتحذيراً ووعيداً للكافرين.

---

(١) =: النّص القرآني من الجملة إلى العالم: ٩٧.
(٢) =: المحرر الوجيز: ١٣/٢٤٦.
(٣) سورة لقمان: من الآية ١٣.
(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٥٠.
(٥) سورة مريم: من الآية ٣٧.
(٦) =: أسرار التّكرار في القرآن: ١٣٧.

فكانت من أبرز طرق تقرير جوهر العقيدة وتوجيه النفس إلى الله، وكيف لا وهي جزء من السّلاح النّفسي في الدّعوة المحمدية لإقناع المخالفين بسمو هذه العقيدة ونبل أهدافها.

ومِن حيث البناء الفني فقد فاقت كلّ بناء، إذ استكملت عناصرها من شخصية وحوار وصراع ومفاجأة ونهاية، ويكتنز كلّ ذلك مواعظ وعبر وأحكام فضلاً عمّا فيها من تأثير في النّفوس إذ لا تكتفي بمخاطبة العقل وإنّما تخاطب الوجدان والمشاعر أيضا، وهكذا كانت إحدى طرق القرآن لتحقيق أهدافه في هداية النّاس إلى الصّراط المستقيم.

# الجدول البياني للفنون البلاغيّة الواردة في الفصل الثّالث

| ت | الفنّ البلاغي | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ١٥٣ | التّفريع | ١٤٠ | ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ | ٥ | غافر |
| ١٥٤ | الطّباق | ١٤٠ | ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ | ٥ | غافر |
| ١٥٥ | الكناية | ١٤٠ | ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ | ٥ | غافر |
| ١٥٦ | الجناس أو المشاكلة | ١٤٠ | ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ﴾ | ٥ | غافر |
| ١٥٧ | الفرائد | ١٤٠ | ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ | ٥ | غافر |
| ١٥٨ | التّشبيه | ١٤٢ | ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ | ٦ | غافر |
| ١٥٩ | التّذييل | ١٤٢ | ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ | ٦ | غافر |
| ١٦٠ | الاستفهام التقريري | ١٤٣ | ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ | ٢١ | غافر |
| ١٦١ | تراسل الحواس | ١٤٥ | ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ | ٢١ | غافر |
| ١٦٢ | الفصل | ١٤٥ | ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ | ٢١ | غافر |
| ١٦٣ | التّفصيل بعد الإجمال | ١٤٥ | ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ | ٢١ | غافر |
| ١٦٤ | القصر | ١٤٦ | ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ | ٢١ | غافر |
| ١٦٥ | التّفريع | ١٤٦ | ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ | ٢١ | غافر |
| ١٦٦ | الكناية | ١٤٦ | ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ | ٢١ | غافر |
| ١٦٧ | التّقديم | ١٤٦ | ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ | ٢١ | غافر |
| ١٦٨ | التّفصيل بعد الإجمال | ١٤٦ | ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا﴾ | ٢١ - ٢٢ | غافر |
| ١٦٩ | الإطناب | ١٤٦ | ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ... فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ | ٢١ - ٢٢ | غافر |
| ١٧٠ | الفصل والتّذييل | ١٤٦ | ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ | ٢٢ | غافر |
| ١٧١ | التّعريض | ١٤٦ | ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ | ٨٢ | غافر |
| ١٧٢ | التّعريض | ١٤٧ | ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ﴾ | ٨٣ | غافر |

| ت | الفنّ البلاغي | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ١٧٣ | الكناية | ١٤٩ | ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ﴾ | ٨٣ | غافر |
| ١٧٤ | الاحتباك | ١٤٩ | ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ | ٨٣ | غافر |
| ١٧٥ | الاستعارة | ١٤٩ | ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ | ٨٣ | غافر |
| ١٧٦ | إيجاز الحذف | ١٤٩ | ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ﴾ | ٨٥ | غافر |
| ١٧٧ | الإظهار في مقام الإضمار | ١٤٩ | ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا ... فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ | ٨٤ – ٨٥ | غافر |
| ١٧٨ | الطّباق | ١٤٩ | ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ | ٨٤ | غافر |
| ١٧٩ | الفصل | ١٥٠ | ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ | ٨٥ | غافر |
| ١٨٠ | القصر | ١٥٠ | ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ | ١٤ | الشّورى |
| ١٨١ | الاحتراس | ١٥٠ | ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ | ١٤ | الشّورى |
| ١٨٢ | المجاز العقلي | ١٥٠ | ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ | ١٤ | الشّورى |
| ١٨٣ | التذنكير | ١٥٠ | ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ | ١٤ | الشّورى |
| ١٨٤ | الاستعارة | ١٥٠ | ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ | ١٤ | الشّورى |
| ١٨٥ | الاستعارة | ١٥٠ | ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ | ١٤ | الشّورى |
| ١٨٦ | التّعريف | ١٥٠ | ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ | ١٤ | الشّورى |
| ١٨٧ | المجاز العقلي | ١٥٠ | ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ | ١٤ | الشّورى |
| ١٨٨ | الكناية | ١٥٢ | ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ | ٦ | الزّخرف |
| ١٨٩ | القصر | ١٥٢ | ﴿وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ | ٧ | الزّخرف |
| ١٩٠ | التّقديم | ١٥٢ | ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ | ٧ | الزّخرف |
| ١٩١ | إيجاز القصر | ١٥٣ | ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ | ٨ | الزّخرف |
| ١٩٢ | الكناية | ١٥٣ | ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ | ٨ | الزّخرف |
| ١٩٣ | الإظهار بدل الإضمار | ١٥٣ | ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ | ٨ | الزّخرف |
| ١٩٤ | التّنكير | ١٥٤ | ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ | ٢٢ | الزّخرف |
| ١٩٥ | التّقديم | ١٥٤ | ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ | ٢٢ | الزّخرف |
| ١٩٦ | التّشبيه | ١٥٤ | ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ | ٢٣ | الزّخرف |

| ت | الفنّ البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| | | | مُتْرَفُوهَا﴾ | | |
| ١٩٧ | القصر | ١٥٤ | ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ | ٢٣ | الزّخرف |
| ١٩٨ | التّقديم | ١٥٤ | ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ | ٢٣ | الزّخرف |
| ١٩٩ | الفصل | ١٥٥ | ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ | ٢٤ | الزّخرف |
| ٢٠٠ | الاستفهام التقريري | ١٥٥ | ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ | ٢٤ | الزّخرف |
| ٢٠١ | إرخاء العنان | ١٥٥ | ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ | ٢٤ | الزّخرف |
| ٢٠٢ | التّقديم | ١٥٦ | ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ | ٢٤ | الزّخرف |
| ٢٠٣ | تراسل الحواس | ١٥٦ | ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ | ٢٥ | الزّخرف |
| ٢٠٤ | المجاز المرسل | ١٥٧ | ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ | ٢٧ | الأحقاف |
| ٢٠٥ | الاستعارة | ١٥٧ | ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ | ٢٨ | الأحقاف |
| ٢٠٦ | الكناية | ١٥٧ | ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ | ١٤ | فصّلت |
| ٢٠٧ | الطّباق | ١٥٧ | ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ | ١٤ | فصّلت |
| ٢٠٨ | الفصل والقصر | ١٥٩ | ﴿أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ﴾ | ١٤ | فصّلت |
| ٢٠٩ | إيجاز الحذف | ١٦٠ | ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ | ١٤ | فصّلت |
| ٢١٠ | التّفصيل بعد الإجمال | ١٦٠ | ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ | ١٥ | فصّلت |
| ٢١١ | التّعريف | ١٦٠ | ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ | ١٥ | فصّلت |
| ٢١٢ | الاحتراس | ١٦١ | ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ | ١٥ | فصّلت |
| ٢١٣ | الوصل | ١٦١ | ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ | ١٥ | فصّلت |
| ٢١٤ | الاستفهام الإنكاري | ١٦١ | ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ | ١٥ | فصّلت |
| ٢١٥ | المجاز المرسل | ١٦١ | ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ | ١٦ | فصّلت |
| ٢١٦ | الاستعارة | ١٦٢ | ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ | ١٦ | فصّلت |
| ٢١٧ | المجاز العقلي | ١٦٢ | ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ | ١٦ | فصّلت |
| ٢١٨ | الوصل والاحتراس | ١٦٢ | ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾ | ١٦ | فصلت |
| ٢١٩ | الجناس | ١٦٣ | ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾ | ١٦ | فصّلت |
| ٢٢٠ | التّفصيل بعد | ١٦٣ | ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ | ١٧ | فصّلت |

| ت | الفنّ البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| | الإجمال | | | | |
| ٢٢١ | الاستعارة | ١٦٣ | ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ | ١٧ | فصّلت |
| ٢٢٢ | الكناية | ١٦٣ | ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ | ١٧ | فصّلت |
| ٢٢٣ | الاحتباك | ١٦٣ | ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ | ١٧ | فصّلت |
| ٢٢٤ | الاستعارة | ١٦٣ | ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ | ١٧ | فصّلت |
| ٢٢٥ | الكناية | ١٦٣ | ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ | ٢١ | الأحقاف |
| ٢٢٦ | القصر | ١٦٥ | ﴿أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ﴾ | ٢١ | الأحقاف |
| ٢٢٧ | المجاز العقلي | ١٦٦ | ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ | ٢١ | الأحقاف |
| ٢٢٨ | الاستعارة | ١٦٧ | ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ | ٢٢ | الأحقاف |
| ٢٢٩ | المجاز العقلي | ١٦٧ | ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ | ٢٢ | الأحقاف |
| ٢٣٠ | التّعريف | ١٦٧ | ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ | ٢٣ | الأحقاف |
| ٢٣١ | القصر | ١٦٧ | ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ | ٢٣ | الأحقاف |
| ٢٣٢ | التّشبيه | ١٦٨ | ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ | ٢٥ | الأحقاف |
| ٢٣٣ | التّنكير | ١٧٥ | ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ | ٢٤ | غافر |
| ٢٣٤ | التغليب | ١٧٥ | ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ | ٢٤ | غافر |
| ٢٣٥ | المجاز العقلي | ١٧٥ | ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ | ٢٨ | الزّخرف |
| ٢٣٦ | الفصل | ١٧٥ | ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ | ٢٩ | الزّخرف |
| ٢٣٧ | القصر | ١٧٦ | ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ﴾ | ٢٥ | غافر |
| ٢٣٨ | الفصل | ١٧٧ | ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ | ٢٦ | غافر |
| ٢٣٩ | الاستعارة | ١٧٧ | ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ | ٢٦ | غافر |
| ٢٤٠ | التنكير | ١٧٨ | ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ | ٢٨ | غافر |
| ٢٤١ | الكلام المنصف | ١٧٨ | ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ | ٢٨ | غافر |
| ٢٤٢ | التّعريف | ١٧٨ | ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ | ٢٨ | غافر |
| ٢٤٣ | التّقسيم | ١٧٩ | ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ | ٢٨ | غافر |
| ٢٤٤ | الطّباق | ١٧٩ | ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ | ٢٨ | غافر |
| ٢٤٥ | الاحتباك | ١٧٩ | ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ | ٢٨ | غافر |
| ٢٤٦ | الفصل والتّذييل | ١٨٠ | ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ | ٢٨ | غافر |
| ٢٤٧ | التّقديم | ١٨٠ | ﴿يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾ | ٢٩ | غافر |

| ت | الفنّ البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٢٤٨ | القصر | ١٨١ | ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ | ٢٩ | غافر |
| ٢٤٩ | الاستعارة | ١٨١ | ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ | ٢٩ | غافر |
| ٢٥٠ | التّفصيل بعد الإجمال والتّدلي | ١٨١ | ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ(٣٠)مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ | ٣٠ - ٣١ | غافر |
| ٢٥١ | التّنكير | ١٨٢ | ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ | ٣١ | غافر |
| ٢٥٢ | التّذييل | ١٨٢ | ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ | ٣١ | غافر |
| ٢٥٣ | التّفصيل بعد الإجمال | ١٨٢ | ﴿وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ(٣٢)يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ | ٣٢ - ٣٣ | غافر |
| ٢٥٤ | التّنكير | ١٨٣ | ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ | ٣٣ | غافر |
| ٢٥٥ | التّذييل | ١٨٣ | ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ | ٣٣ | غافر |
| ٢٥٦ | التّشبيه | ١٨٤ | ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ | ٣٤ | غافر |
| ٢٥٧ | التّفصيل بعد الإجمال | ١٨٥ | ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ(٣٦)أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ | ٣٦ - ٣٧ | غافر |
| ٢٥٨ | المجاز العقلي | ١٨٥ | ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ | ٣٦ | غافر |
| ٢٥٩ | الاحتراس | ١٨٥ | ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ | ٣٧ | غافر |
| ٢٦٠ | الوصل | ١٨٦ | ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ | ٣٧ | غافر |
| ٢٦١ | التّعريف | ١٨٧ | ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ | ٣٧ | غافر |
| ٢٦٢ | الإظهار في مقام الإضمار | ١٨٧ | ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلا فِي تَبَابٍ﴾ | ٣٧ | غافر |
| ٢٦٣ | المجاز العقلي | ١٨٧ | ﴿يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ | ٣٨ | غافر |
| ٢٦٤ | القصر | ١٨٨ | ﴿يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ | ٣٩ | غافر |
| ٢٦٥ | القصر | ١٨٨ | ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ | ٣٩ | غافر |
| ٢٦٦ | الاحتباك | ١٨٨ | ﴿يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ | ٣٩ | غافر |
| ٢٦٧ | الاستفهام التّعجيبي | ١٨٨ | ﴿وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ | ٤١ | غافر |
| ٢٦٨ | المجاز المرسل | ١٨٨ | ﴿وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ | ٤١ | غافر |
| ٢٦٩ | التّفصيل بعد الإجمال | ١٨٨ | ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ(٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ | ٤١ - ٤٢ | غافر |
| ٢٧٠ | الاحتباك | ١٨٨ | ﴿وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ | ٤١ | غافر |
| ٢٧١ | الكناية | ١٨٨ | ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ | ٤٢ | غافر |

| ت | الفنّ البلاغي | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٢٧٢ | الاحتباك | ١٨٨ | ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ | ٤٢ | غافر |
| ٢٧٣ | القصر | ١٨٨ | ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ | ٤٣ | غافر |
| ٢٧٤ | الاستعارة | ١٨٩ | ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ | ٤٤ | غافر |
| ٢٧٥ | التّذييل | ١٩٠ | ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ | ٤٤ | غافر |
| ٢٧٦ | القصر | ١٩٢ | ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ | ٤٧ | الزّخرف |
| ٢٧٧ | التّقديم | ١٩٢ | ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ | ٤٧ | الزّخرف |
| ٢٧٨ | القصر | ١٩٢ | ﴿وَ مَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ | ٤٨ | الزّخرف |
| ٢٧٩ | الاستعارة | ١٩٣ | ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ | ٤٨ | الزّخرف |
| ٢٨٠ | الكناية | ١٩٣ | ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ | ٤٩ | الزّخرف |
| ٢٨١ | الاستعارة | ١٩٤ | ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ | ٥٠ | الزخرف |
| ٢٨٢ | المجاز العقلي | ١٩٤ | ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ | ٥١ | الزّخرف |
| ٢٨٣ | الكناية | ١٩٥ | ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ | ٥١ | الزّخرف |
| ٢٨٤ | الاحتباك | ١٩٥ | ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ(٥١)أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ | ٥١ - ٥٢ | الزّخرف |
| ٢٨٥ | التّرقي | ١٩٦ | ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ(٥٢ )فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ | ٥٢ - ٥٣ | الزّخرف |
| ٢٨٦ | الكناية | ١٩٦ | ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ | ٥٣ | الزّخرف |
| ٢٨٧ | الاستعارة | ١٩٦ | ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ | ٥٥ | الزّخرف |
| ٢٨٨ | التّذييل | ١٩٧ | ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلا لِلآخِرِينَ﴾ | ٥٦ | الزّخرف |
| ٢٨٩ | الاستعارة | ١٩٧ | ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ | ١٧ | الدّخان |
| ٢٩٠ | الاستعارة | ١٩٨ | ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ | ١٨ | الدّخان |
| ٢٩١ | التّقديم | ١٩٨ | ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ | ١٨ | الدّخان |
| ٢٩٢ | الاحتراس | ١٩٨ | ﴿وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ | ١٩ | الدّخان |
| ٢٩٣ | الاكتفاء | ١٩٩ | ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ | ٢١ | الدّخان |
| ٢٩٤ | التّشبيه البليغ | ٢٠٠ | ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ | ٢٤ | الدّخان |
| ٢٩٥ | الفصل | ٢٠٠ | ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ | ٢٤ | الدّخان |
| ٢٩٦ | المجاز العقلي | ٢٠٠ | ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ | ٢٦ | الدّخان |
| ٢٩٧ | الاستعارة | ٢٠١ | ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ | ٢٨ | الدّخان |
| ٢٩٨ | الاستعارة | ٢٠١ | ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمِ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ | ٢٩ | الدّخان |
| ٢٩٩ | التّتميم | ٢٠١ | ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمِ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ | ٢٩ | الدّخان |
| ٣٠٠ | الاستعارة | ٢٠٢ | ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ | ٥٣ | غافر |

| ت | الفنّ البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٣٠١ | التّعريف | ٢٠٣ | ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ | ٥٣ | غافر |
| ٣٠٢ | الفصل | ٢٠٨ | ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ | ٦٤ | الزّخرف |
| ٣٠٣ | الاستعارة | ٢٠٩ | ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ | ٦٤ | الزّخرف |
| ٣٠٤ | المجاز العقلي | ٢٠٩ | ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ | ٦٤ | الزّخرف |
| ٣٠٥ | التّفريع والتّذييل | ٢٠٩ | ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ | ٦٥ | الزّخرف |

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

# الفصل الرّابع

# خطاب الرّسول ﷺ

## توطئة

نزل القرآن الكريم خطابا شاملا للبشرية بشكل عام، وكانت آيات الخطاب التي وردت في الحواميم قد خصص بعضها لخطاب الرّسول (ﷺ)، والبعض الآخر خوطب بها الرّسول وأريد بالخطاب النّاس جميعا، فهو خطاب الخاص الذي يراد به العموم. وهكذا توزع هذا الفصل على مبحثين، **الأوّل:** الخطاب الخاص، وقد تضمن ستة أقسام وهي: خطاب التّشريف، وخطاب التّحبيب، وخطاب التّشجيع، وخطاب التّنفير، وخطاب التّأنيس، وخطاب الاعتبار. **والثّاني:** الخطاب العام، أي خطاب النّاس عن طريق خطاب الرّسول (ﷺ) وقد تضمن ثلاثة أقسام وهي: خطاب التّهديد أو الوعيد، وخطاب الحجاج، وخطاب التّلطف.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## المبحث الأوّل

## الخطاب الخاص

### أوّلا: خطاب التّشريف:

خوطب الرّسول (ﷺ) في سور الحواميم خطاب تشريف، ولا سيّما أنّ هذه السّور مكية، فكان هذا النّوع من الخطاب تأييدا له وإظهارا لأمره وتثبيتا له فقد شرفه الله تعالى بالإسلام وحمل الرّسالة وتبليغها وقد هيأه لهذا الشّرف منذ صغره، فلم يعبد صنما ولم تكن حياته كما كانت حياة قومه من حيث التّهافت على الدّنيا وملذاتها، وكانت آيات الخطاب كثيرا ما يتصدرها لفظ (قُل): من ذلك قوله تعالى ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ

لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[1]، فالخطاب بلفظة (قُل) هو توجيه للرّسول (ﷺ) إلى ما ينبغي أنْ يقول، فهو لا ينطق عن الهوى، بل يتبع ما يوحى إليه، وليكون ذلك تأكيدا على أنّه لا دخل له في الوحي، فلا يصوغه بلفظه، وإنّما يلقى إليه الخطاب إلقاء، فهو مخاطب لا متكلم، حاك ما يسمعه لا معبر عن شيء يجول في نفسه[2].

وفي هذه الآية أمر النبي (ﷺ) أنْ يقول ﴿ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وفي ذلك دلالة كنائية لأنّ النّهي يستلزم التّحذير، ففي الآية إبطال لعبادة غير الله بالقول الدّال على التّخوين والتّحذير[3]. وتتواشج الكناية مع التّعريض المنبثق من إسناد أو إضافة النّهي إلى الرّسول (ﷺ) فهو تعريض بنهي المشركين، لأنّ الأمر بأنْ يقول ذلك غايته التّبليغ. فالتّعريض يشترك مع الكناية «في كون التّعبير لا يراد به معناه الذي يدل عليه ظاهره، وإنّما يراد به معنى آخر يرتبط به ويلازمه، إلاّ أنّ التّلازم بين المعنيين في الكناية أساسه العرف والعادة ولا يرتبط بموقف محدد أو سياق معين، على حين إنّ التلازم بين المعنيين في التّعريض ينبع من الموقف الخاص الذي يقال فيه الكلام»[4]، لذلك جمع التّعبير القرآني بينهما لتفي دلالتهما بغاية هذا النّظم، فضلاً عن أنّ إرادة لازم المعنى في الكناية أشبه ما يكون بإثبات الشّيء بالبينة، وذلك أقوى من التّعبير الصّريح المباشر، فإظهار نهيه (ﷺ) إثبات لما يدعو إليه بالبينة، فإذا كان هو قد نهي عن ذلك، فمِن الأولى بمَن يخاطبهم أنْ ينتهوا أيضاً، «فالأسلوب الكنائي ما هو إلاّ تغليف للمعنى المقصود بستار شفاف، ليكشف عنه الذّهن الواعي بفضل التّأمل لسرّ مِن الأسرار النّفسية التي ينبغي توضيحها عند الكشف عن جماله»[5]، فضلاً عمّا يؤديه من الإيجاز والاختصار.

وتأكيدا للدلالة الكنائية ومغزاها ذكر المسند إليه (إني) قبل الخبر الفعلي، وقد أفاد ذلك تقوية الحكم أيضاً، وأوثر التّعبير بالفعل (أعبد) لإفادة أنّ النّهي متجدد

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٦.

(٢) =: مباحث في علوم القرآن: ٣٠.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ١٩٥/٢٤.

(٤) التّعبير البياني: ١٥١.

(٥) فن الاستعارة: ٢٣٣.

ومستمر، كما أوثر القول ﴿ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ولم يقل: (آلهتكم) لتأكيد أنّه لا يعترف بكونها آلهة، كما أنّ في هذا التّعبير تأكيدا على أنّ العبادة الحقة لا تكون إلاّ لله وحده. وقد ناسب ذكر (البيّنات) التّعريض السّابق، إذ إنّ دلائل التّوحيد للإله الخالق الواحد دون غيره واضحة بينة، فلماذا تصرون على الكفر، فضلاً عن إيضاح أنّ هذه البيّنات هي من الله (ﷻ) (مِن ربّي) بإيثار لفظ (الرّب) المضاف إلى ياء المتكلم على سبيل الإظهار في مقام الإضمار على خلاف مقتضى الظّاهر لأجل تربية المهابة في نفوس المعرض بهم[1]. فالتّعبير القرآني يؤثر كلمة (ربّ) في مكان احتياج الموقف إلى الربوبية[2].

ويأتي بعد ذلك قوله ﴿ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ على سبيل المقابلة مع قوله السّابق ﴿ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ والمتضمنة للطباق بين (نهيت) وبين (أمرت).

وقد أوثر مع ذكر ما هم عليه لفظ (أعبد) وفي ذكر ما هو عليه (ﷺ) لفظ (أسلم) للإيحاء بأنّ ما يدعو إليه هو الإسلام الخالص لله (ﷻ) دون أي شرك أو أي شيء آخر يشوب عبادته ويكدر صفوها.

وقد جاء ذلك على سبيل ما يسمى بالسّلب والإيجاب[3]، فقد جاء مع الانتهاء عن عبادة غير الله - وهو سلب - الإسلام لربّ العالمين - وهو إيجاب - ومِن الشّقين تتكامل العقيدة[4].

وقد ختمت الآية - كما ختمت الآيتين قبلها - بـ (ربّ العالمين) لتأكيد ربوبية الله للعالمين على أسماع الكفار جميعا، وقد جاءت خواتيم الآيات الثّلاث - بالفاصلة الموحدة - على سبيل التّرقي، ففي الآية الأولى تتحقق معرفة القدرة الإلهية،

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٩٦/٢٤.

(٢) =: جماليات المفردة القرآنية: ٤٤.

(٣) «هو أنْ يوقع الكلام على إثبات شيء وينفيه في كلام واحد» الفوائد المشوق إلى علوم القرآن: ١٦١.

(٤) =: في ظلال القرآن: ٣٠٩٥/٥.

فناسب أنْ تختم بقوله ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[١] وفي الثّانية الحمد على نعم الله تعالى ومِن أجلها نعمة الهداية فختمت بـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾[٢] ثمّ الإسلام لربّ العالمين بعد النّهي عن عبادة غيره والأمر بعبادته ﴿ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٣] فضلاً عمّا يؤديه هذا التّكرار من تأكيد يقرر معاني هذه الصّفة في النّفس، لينبثق منها العمل الصّالح المبني على أساس من الإيمان المكين، فالتّكرار مصدر توطيد المعنى في النّفس. وهكذا كان خطاب الرّسول (ﷺ) في هذه الآية توجيها له وتعليما لما ينبغي قوله في دعوة الناس إلى دين الله، وإظهار ما قد شرفه الله به من النهي عن عبادة الأصنام، والأمر بالتّوحيد وفي ذلك تشريف عظيم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويأتي ذكر تشريف آخر في خطابه (ﷺ) وهو التّشريف بالوحي واختياره من دون البشر، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ﴾[٤].

نلمح في خطاب التشريف هنا عظمة صبر الرّسول (ﷺ)، إذ يتبرأ من كلّ حول وقوة أمام عناد الكافرين وطغيانهم ومعاداتهم له دون أنْ يستعجل بطلب ما يردعهم، فيتلقى التلقين من الله (ﷻ) بأنْ يجيب قول الكافرين ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ لا غير بشر ممّا لا يرى، فقولكم إنّه لا وصول لكم إلى رؤيتي ولا إدراك شيء ممّا أقول ممّا لا وجه له أصلا[٥]، وفي ذلك تعريض بهم وبحججهم الواهية.

وقد جاء قوله ذلك كناية عن تفويض الأمر في العمل بجزائهم إلى الله تعالى، وتتواشج الكناية هنا مع القصر بـ (إنّما) لتأكيد المعنى الثّاني للكناية، فتفويض الأمر في جزائهم إلى الله قد تأكد بقصر نفسه (ﷺ) على البشرية مثلهم وفي ذلك إبطال لأقوالهم تلك، والنّفي الذي يتضمنه القصر بـ (إنّما) هو نفي متضمن مخبوء وخافت، فضلاً عن

---

(١) سورة غافر: من الآية ٦٤.

(٢) سورة غافر: من الآية ٦٥.

(٣) سورة غافر: من الآية ٦٦.

(٤) سورة فصّلت: الآية ٦.

(٥) =: نظم الدرر: ١٧/١٤٤.

أنّ المعاني التي تدخل عليها (إنّما) هي معان مأنوسة قريبة من النّفوس، فهي أداة رقيقة هامسة لا تنزعج النفوس لما دخلت عليه ولا ترفض ما جاء في وعائها[١]، فناسب أنْ يؤثر القصر بها في هذا الموضع، كما أنّ القصر بها يناسب مقام التّعريض بالكافرين وأقوالهم وما هم عليه من الشّرك، فلم يرد الرّسول (ﷺ) إثبات كونه بشرا - وهو المعنى الوارد بعد (إنّما) - ولكنْ أراد التّعريض بأنّهم لا يرون الحق الذي جاء به ولا يدركون شيئا ممّا يقول، وهكذا تكون (إنّما) للتعريض[٢]، وقد أفادت قصرا إضافيا والمعنى: أنا مقصور على البشرية دون التّصرف في قلوب النّاس أو حسابهم، فضلاً عن أنّ الله قد علمه - في هذا الأمر - التّواضع[٣]. ولكي يبطل زعمهم المشهور المتوارث أنّ كونه بشرا مانع من إرساله عن الله تعالى جاء قوله (يوحى إليّ) على سبيل الاحتراس لكي لا يظنوا انتصار حجتهم تلك باعترافه هذا، وفي هذا الإيحاء تشريف له (ﷺ) وقد بيّن لهم ما يوحى إليه حرصا مِنه على إبلاغ الدّعوة فقال ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ على سبيل القصر أيضاً، وهو إدماج للدّعوة إلى الحق في خلال الجواب حرصا على الهدي[٤].

وقد أوثر بناء الفعل (يوحى) للمجهول ليفيد التّعظيم مراعاة لمقتضى حال المخاطبين المنكرين، وليتناسب ذلك مع ما تقدمه من القصر على البشرية مقابل إنكارهم أنْ يرسل الله بشرا. وقد جاءت لفظة (إلهكم) مسندة إلى المخاطبين تعريضا بهم وحثّا لهم على التّوحيد، ثمّ قال ﴿ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ ﴾ على سبيل تضمين (استقيموا) معنى توجهوا لأنّ التّوحيد توجه، أي صرف الوجه إلى الله دون غيره، ويجوز أنْ يكون تضمين لمعنى (أنيبوا) أي توبوا إليه، ويؤكد هذا المعنى ترتيب الاستغفار الذي جاء بعد الأمر بالاستقامة[٥].

ويعد التّضمين بلاغة لأنّ الكلمة التي يدخلها التّضمين لا تخرج عن معناها الرئيس الذي وضعت له، وإنّما تبقى دالة على معناها ولكنّها تضمن معنى آخر أفادته

---

(١) =: دلالات التّراكيب: ١٤٩ - ١٥٠.

(٢) =: دلائل الإعجاز: ٣٣١.

(٣) =: المحرر الوجيز: ٧٩/١٣.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٣٨/٢٤.

(٥) =: م. ن: ٢٣٨/٢٤.

التّعدية[١]. وختمت الآية بالتّرهيب ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ على سبيل وصف الويل بكونه ثابتا لهم إذا استمروا وثبتوا على الكفر.

❖❖❖❖❖

بعد أنْ خوطب النبي (ﷺ) خطاب تشريف بإعلان نهيه عن عبادة الأصنام وأمره بالتّسليم لربّ العالمين، ثمّ التّشريف باصطفائه من البشر لحمل الرّسالة والإيحاء إليه من الله (ﷻ)، يخاطب في سورة الشّورى خطاب تشريف بالدّعوة إلى كتاب الله والاستقامة كما أمر، والإيمان بالكتب السّماوية، وإقامة العدل، والتّشريف بأنّ الله هو ربّه وربّ العالمين وأنّه الذي يجمع بين الخلائق واليه المصير، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾[٢].

فالآية ترسم للرّسول (ﷺ) منهاجا للدعوة غاية في القوة، ليزيد المؤمنين إيمانا، ويزيد المعاندين رجسا على رجس، وقد تكون هذا المنهاج - في الآية - من عشر فقرات كانت عدته في الهجرة وفي الدّعوة وفي الوصول إلى الغاية[٣].

ويتواشج في بداية الآية التّقديم والإيثار، حيث قدم (لذلك) على متعلقه (ادع) للاهتمام بما احتوى عليه اسم الإشارة، ففيه أسباب الأمر بالدّوام على الدّعوة فهو للاهتمام بالدّين، واسم الإشارة ناظر إلى ذلك الدّين الذي شرعه الله للأنبياء ووصاهم به[٤]، وإيثار اسم الإشارة (ذلك) الذي يشار به إلى البعيد للتناسب مع علو منزلة المشار إليه واستعلائه على كلّ أنواع الباطل الذي توارثه الكافرون.

ويلحظ في الآيات التي جاء فيها خطاب الرّسول (ﷺ) إيثار صيغة الآمر كثيرا وهو ما يتناسب وغرض الخطاب القرآني، واللام في (فلذلك) بمعنى (إلى)،

---

(١) =: رسالة الرُّماني (النكت في إعجاز القرآن) تحليل ونقد، فضل حسن عباس، مجلة دراسات (الشّريعة والقانون)، ص١٤٢.

(٢) سورة الشّورى: الآية ١٥.

(٣) =: تفسير القرآن العظيم: ١٠٥/٤، ومدخل إلى القرآن الكريم: ١٣٤.

(٤) =: سورة الشّورى: الآية ١٣.

والاستقامة: الاعتدال، والسّين والتّاء فيها للمبالغة[١]. وقد أدت زيادة المبنى في هذه المفردة إلى زيادة المعنى وهو ما يسمى بالتّعبيرية الصّوتية[٢]. ولا شكّ في أنّ الحكم بزيادة حرف معين مشروط بأن يكون للكلمة معنى بدونه، وبشرط أنْ يكون المعنى بعد التّجريد ذا علاقة بالمعنى مع الزيادة، أمّا المعاني التي تتحقق بهذه الزّيادة فمنها التّكرير والتّكثير والتّضعيف والطلب بالهمزة والسّين والتّاء، والانفعال أو الافتعال بصيغتهما وللسياق دوره الأساسي في تحديد هذه المعاني أو غيرها. فللزيادة فائدة في توسيع الدّلالة، أو تخصيصها أو إحداث دلالة جديدة لم تعرفها اللغة من قبل[٣]. وخوطب النّبي (ﷺ) بأمر الاستقامة وقد كان مستقيما والمعنى: دم على استقامتك، وفي ذلك يقول النبي (ﷺ): «**شيبتني هود وأخواتها**» فقيل له لم ذلك؟ فقال: لأنّ فيها ﴿ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾[٤]، والكاف في (كما أمرت) لتشبيه معنى المماثلة، أي دعوة واستقامة مثل الذي أمرت به.

وقد أكد الأمر في (ادع واستقم) بالنّهي في (ولا تتبع أهواءهم) ليرجع النّهي إلى النّهي عن مخالفة الأمرين في (ادع واستقم)، وأوثر التّعبير عمّا هم عليه من الضلال بـ (أهواءهم) للتعريض بهم وبيان أنّ ما هم عليه لا أساس له من الثّبات وإنّما هو مجرد أهواء.

ثـمّ يخاطب الرّسول (ﷺ) بتشريف آخر وهو الأمر بإظهار الإيمان الكامل بما أنزل الله من الكتب على الأنبياء السّابقين، وقد أفاد تنكير (كتاب) هذا المعنى، أي بأيّ كتاب أنزله الله، ولا سيّما أنّ (ما) من أدوات العموم، وقد جاء ذلك تحقيقا للحق وبيانا لاتفاق الكتب[٥].

وينبثق التّشريف الآخر بتكليفه بإقامة العدل: ﴿ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ ﴾ وقد ناسب إظهار الأمر بالعدل أنْ يذكر بعده التّوحيد (الله ربّنا وربّكم) بتقديم ما أسند إلى

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٦١.

(٢) =: قضايا اللغة في كتب التّفسير: ٤٥٠.

(٣) =: المنهج الصوتي للبنية العربية، عبد الصبور شاهين: ٦١.

(٤) = المحرر الوجيز: ١٣/١٥٣.

(٥) =: روح المعاني: ٢٥/٢٤.

ضمير المؤمنين ليتناسب ومقام التّشريف، وليكونوا قدوة للآخرين في التّوحيد، وهكذا أيضاً قوله: (لنا أعمالنا ولكم وأعمالكم) ثمّ جاء نفي الحجة كناية عن نفي المجادلة التي من شأنها وقوع الاحتجاج، إذ إن الاستمرار على الاحتجاج عليهم بعدما أظهر لهم من الأدلة يكون من العبث، وهذا تعريض بأنّهم مكابرون، فضلاً عن التّعريض الآخر في قوله: (الله يجمع بيننا) فهو تعريض بأنّ القضاء سيكون له عليهم[(١)]. وقد أفاد ذكر المسند إليه (الله) قبل الخبر الفعلي (يجمع) تحقيق وقوع هذا الجمع وتوكيده، وزيد ذلك بتقديم (إليه) على (المصير) لذات الغرض، فضلاً عن رعاية الفواصل والتّخصيص، والتّعريف في (المصير) للاستغراق، أي مصير النّاس كلّهم، فكانت الجملة تذييلا بما فيه من العموم، أي مصيرنا ومصيركم ومصير الخلق كلّهم[(٢)].

وهكذا كان خطاب التّشريف في هذه الآية عاما شاملا لمنهج الدعوة المحمدية ليخرجهم من الظّلمات إلى النّور، إلى الإيمان بالله الواحد وكتبه ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ ثمّ الاستعلاء والهيمنة بالحق والعدل ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ وإعلان الرّبوبية الواحدة ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ وإعلان فردية التّبعة ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ وإنهاء الجدل بالقول الفصل ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ والتّوكل على الله صاحب الأمر الأخير ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فكانت الرّسالة ماضية في طريقها لا تتأثر بأهواء البشر، تحقق العدالة في الأرض وتوحد الطريق إلى الله كما هو على مدى الرسالات السابقة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ومثلما ابتدأت سورة الشّورى بخطاب النبي (ﷺ) في ذكر تنزيل الكتاب بصفة الإيحاء، تختم أيضاً بخطابه (ﷺ) خطاب تشريف بالوحي القرآني ووصفه بأنّه (روحا) و(نورا) وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٦٤/٢٥.

(٢) =: م. ن: ٦٤/٢٥.

صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾[1].

فختام هذه السّورة بهذه الآيات يتناسب مع افتتاحها بما يماثله، فكان ذلك من ردّ العجز على الصّدر، والإشارة التي ابتدأت بها الآية تعود إلى ما ذكر من قبل في قوله تعالى ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾[2] أي ومثل ذلك الإيحاء أوحينا إليك. وتتسق الاستعارة مع التّنكير في وصف القرآن بأنّه (روحا) إذ شبهت هداية عقولهم بعد الضّلالة بحلول الرّوح في الجسد فيصير حيا بعد أنْ كان جثة[3]، أمّا تنكير (روحا) فقد أفاد التّعظيم والإجلال والتّكريم للمستعار له، وزيد هذا التّعظيم بقوله: (مِن أمرنا) أي ممّا استأثرنا به فكان معجزة خالدة، فالأمر المضاف إلى الله بمعنى الشّأن العظيم، وفي وصف القرآن بهذا الوصف تعريض بالمشركين، فمن لم يمتثل لما يدعو إليه النّبي (ﷺ) ولما جاء في القرآن الكريم فكأنّه جثّة بلا روح، فحقيقة الحياة هي الهداية، وفي هذا الوصف أيضاً تشريف للرّسول (ﷺ) ولمعجزته التي تمثلت بالقرآن الكريم ثمّ زيد هذا التّشريف بقوله ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ لكي يعلم المشركون أنّ ما أوتيه الرّسول (ﷺ) من الشّريعة والآداب الخلقية هو من مواهب الله تعالى التي لم تسبق له مزاولتها، وفي ذلك تخصيص تشريف بنعم الله عليه وفضله. وانتفاء دراية الإيمان مثل انتفاء درايته بالكتاب، أي انتفاء العلم بحقائقه ولذلك قال: (ما كنت تدري) ولم يقل: ما كنت مؤمنا[4]. فلم يكن الرّسول (ﷺ) يدري ما القرآن قبل نزوله عليه. والإيمان: اسم يتناول أشياء بعضها الطريق إليه العقل، وبعضها الطريق إليه السّمع، فعنى به ما الطّريق إليه السّمع دون العقل، وذاك ما كان له به علم حتى كسبه بالوحي[5]. فالمقصود هو اشتمال القلب على هذه الحقيقة والشّعور بها والتأثر بوجودها في الضمير وهذا ما

---

(١) سورة الشّورى: الآيتان ٥٢ و٥٣.

(٢) سورة الشّورى: من الآية ٥١.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ١٥١/٢٥.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٥٢/٢٥.

(٥) =: الكشاف: ٢٣٥/٤.

لم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذي لابَس قلب الرّسول (ﷺ)[1].

ولكي ينبه على أنّ مضمون الجملة الأخرى عكس مضمون هذه الجملة جاء حرف الاستدراك (لكنّ) ثمّ قال: (جعلناه)، والضمير يعود إلى الكتاب، والمعنى: جعلنا الكتاب نورا، حيث شبه الكتاب بالنّور لمناسبة الهدي به لأنّ الإيمان والهدي والعلم تشبه بالنّور، والضّلال والجهل والكفر تشبه بالظّلمة[2]. فكانت استعارة (النّور) لما في الكتاب من الهدى، فالله سبحانه وتعالى «خلق الخلق في ظلمة، فمن أراد هدايته جعل له نورا وجوديا يحيي به قلبه وروحه، كما يحيي البدن بالروح التي نفخها فيه، فهما حياتان: حياة البدن بالروح، وحياة القلب والروح بالنور، ولهذا سمى الله الوحي روحا، لتوقف الحياة الحقيقية عليه، فجعل وحيه روحا ونورا، فمَن لم يحيه بهذا الرّوح فهو ميت، ومَن لم يجعل له نورا فهو في الظلمات ماله من نور»[3]. وتنكير (نورا) للتّعظيم أيضاً فهو النّور الذي يضيء النّفس الإنسانية ويبصرها طريقها كما يضيء ضياء الشّمس الآفاق. ثمّ أضاف وقوع الهداية به إلى مشيئته ﴿ نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ وفي ذلك نعمة أخرى على سبيل التّشريف، وصيغة المضارع (نهدي) للإيحاء باستمرار الهداية وتجددها بهذا القرآن، ومَن هداه الله فقد شرفه بأنْ يكون من (عبادنا) بهذا التّشريف المنبثق من إسناد الوصف إلى نون العظمة.

ثمّ يعمد التّعبير القرآني إلى التّوكيد بـ (إنّ) و(اللام) في قوله ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ حيث خوطب غير المنكر للخبر أو للحكم مخاطبة المنكر، فالمخاطب هو الرّسول (ﷺ) وهو غير منكر لذلك، ويعلم تماما أنّ الهداية من الله (ﷻ) وبإرادته سبحانه وتعالى[4]. فكان ذلك زيادة في تثبيت النبي (ﷺ) وفيه تعريض بالمشركين إذ لم يهتدوا به وكبر عليهم ما يدعوهم إليه مع أنّه يهديهم إلى صراط مستقيم، وفي توكيد الهدي وإسناده إلى الرّسول تشريف له في هذا الخطاب فضلاً عن

(١) =: في ظلال القرآن: ٥/٣١٧١.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/١٥٤.

(٣) أمثال القرآن وأمثال الحديث، ابن قيم الجوزية: ٦٤.

(٤) =: مقتضى الحال مفهومه وزواياه في ضوء أسلوب القرآن الكريم، سميرة عدلي محمد رزق، مجلة جامعة أم القرى (شبكة الانترنيت)، ص١١.

أنّه واسطة لتحقيق مشيئة الله، فهو لا ينشئ الهدى في القلوب ولكنْ يبلّغ الرّسالة فهو مجاز مرسل بعلاقة السّببية. وقد حذف مفعول (لتهدي) للعموم ليشمل جميع النّاس. وتنكير استعارة (صراط) للتّعظيم أيضاً وهو ما يناسب مقام التّعريض بالكافرين، ولا ريب في أنّ اقتران الصراط بالنّور ذو دلالة توحي على نحو عميق بأنّ الوصول إلى الغاية التي يهدف إليها القرآن تبدأ من هذا النّور (القرآن) فهو طريق مستقيم لا عوج فيه ولا تضليل لأنّ مصدره هو الله[1]. وهكذا نرى كيف يكون حال السّائر على طريق مستقيم ينيره نور يملأ القلب والنّظر. وقد أوثر أسلوب التّفصيل بعد الإجمال زيادة في تمكين المعنى المقصود من الإظهار والوضوح، لأنّ الشّيء إذا أبهم ثمّ فسر كان أوقع في النّفوس وأفخم للشأن[2].

ولذلك قال ﴿ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ فقد كرر ذكره لأنّه ذكر المكان المهيأ ولم يذكر المهيئ فأعاده مع ذكره فقال: (صراط الله) أي الذي هيأه للسّالكين[3]. ثمّ أجري وصف اسم الجلالة باسم الموصول وصلته ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ للإيحاء إلى أنّ سبب استقامة الصّراط الذي يهدي إليه النّبي (ﷺ) أنّه صراط الذي يملك ما في السموات وما في الأرض[4].

ثمّ جاء قوله تعالى ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ تذييلا على سبيل الفصل وختاما للسّورة بما احتوت عليه من المجادلة والاحتجاج، وفي هذا التّذييل وعيد للمعرضين وبشرى للمؤمنين، وافتتح التّذييل بحرف (إلاّ) للتنبيه، وتقدم الجار والمجرور (إلى الله) للاختصاص، أي أنه تعالى مختص بصيرورة الأمور إليه دون غيره[5]، أي إلى الله لا إلى غيره، وقد جاء ذلك على سبيل الفصل لأنّه معنى مغاير لما سبق، فهو حديث عن الصّيرورة والمآل، ولكنّه بمثابة العلة إلى الدّعوة إلى طريق الله وكأنّ المعنى: وإنّك لتهدي إلى صراط الله لأنّ مصير الأمور إليه فصراطه هو الأحق بالاتباع

(١) =: الاستعارة في القرآن الكريم: ٥٧.
(٢) =: فتح البيان في مقاصد القرآن: ١٩٠/١٢.
(٣) =: أسرار التّكرار في القرآن: ٢١.
(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٥٤/٢٥.
(٥) =: التّعبير القرآني: ٤٩.

ولذلك أوثر من صفات الحق قوله ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وذلك لأنّ ذكر ملكيته يقرب طرف الكلام الأوّل إلى الكلام الثّاني، فالذي يملك الكلّ لا يؤول الأمر إلاّ إليه[١].

وفي إنهاء السّورة بذلك محسن حسن الختام، إذ يتناسب التّذييل مع وصف (العزيز الحكيم) في بداية السّورة فقد رجع آخر السّورة على أوّلها زيادة في التّشريف الذي تضمنه هذا الخطاب.

❖❖❖❖❖

وفي سورة الزّخرف يأتي خطاب التّشريف للرّسول (ﷺ) بالقرآن، والأمر بالتّمسك به وبما فيه وتأكيد أنّه (ﷺ) على الصّراط المستقيم تثبيتا له وتأييدا، ويزيد التّشريف بوصف القرآن بأنّه ذكر له (ﷺ) ولقومه وأنّهم بعد هذا التّشريف سيسألون، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[٢] وقد جاءت هذه الآيات بعد وعد الله لرسوله بالنّصر على الكافرين، وأنّ مهمته التّبليغ، فجاء أمره له في هذه الآيات بالثّبات على دينه وكتابه تثبيتا له وتأييدا فقال: (فاستمسك) فقد أمره بشدة التّمسك، إذ إن السّين والتاء فيه للتأكيد والمبالغة في الأمر، وهما في صيغة (استفعل) تفيدان الطلب، وهذه الصّيغة تفيد القوة والثّبات[٣]. والأمر بذلك مستعمل في طلب الدوام لأنّ الرّسول (ﷺ) متلبس به، فلم يكن الأمر لطلب الفعل بل لطلب الثّبات عليه لما كان يلاقي (ﷺ) من المعاندة والأذى والإصرار على الكفر من قريش. والتّعبير عن القرآن ﴿ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ فيه تعظيم للقرآن الكريم وتأييد بأنّه من الله تعالى وليس من عند الرّسول (ﷺ) وهو ما يناسب حال المنكرين لذلك، وفي ذلك تشريف له (ﷺ) وزيد هذا التّشريف بقوله ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ والذي جاء على سبيل الفصل تأكيدا لما سبق

---

(١) =: الإعجاز البلاغي: ٢١١.

(٢) سورة الزّخرف: الآيتان ٤٣ و٤٤.

(٣) =: جماليات المفردة القرآنية: ٢٥٠.

وتقريراً، ولا سيّما أنّ المقام مقام تثبيت، فجاء الفصل لتثبيت المعنى وتوكيده[١]. ويوحي استخدام الحرف (على) بالاستعلاء بالحق والتّمكن مما هو عليه وهو الدّين الحق الذي عبر عنه باستعارة (صراط مستقيم) على سبيل التّنكير الذي أفاد التّعظيم، وفي ذلك إيحاء بثباته (ﷺ) في الاهتداء إلى مراد الله تعالى وأنّه متمكن في ذلك كما يتمكن السّائر من طريق مستقيم لا يشوبه في سيره تردد في سلوكه ولا خشية الضّلال فيه[٢]. وكأنّ ذلك كان علة للأمر بالثبات عليه.

ويتجلى في الآية الأخرى جزء من إعجاز القرآن البلاغي والذي يتمثل هنا بإيجاز القصر حيث اشتمل قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ على عشرة معان هي «ذكر حظ القرآن من المدح، والنّفع بقوله: (وإنّه لذكر)، وتشريفه به بقوله (لك) وأتبع بحظ التّابعين له ولكتابه من الاهتداء، والانتفاع، بقوله (ولقومك) ثمّ عرض بالمعرضين عنه والمجافين له بقوله (وسوف تسألون) مع التّوجيه في معنى كلمة ذكر من إرادة أنّ هذا الدين يكسبه ويكسب قومه حسن السّمعة في مَن اتبعه نال حظه من ذلك ومَن أعرض عنه عد في عداد الحمقى كما سيأتي، مع الإشارة إلى انتفاع المتبعين له في الآخرة، واستضرار المعرضين عنه فيها، وتحقيق ذلك بحرف الاستقبال»[٣]. فضلاً عمّا في الآية من التّوكيد بـ (إنّ) و(اللام)، وتقديم (لك) للتشريف، والكناية بالذّكر عن التّذكير أو رفع ذكره وقومه[٤]، وفي ذلك تشريف أيضاً، وفيه تعريض بالمشركين.

وجاء قوله ﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ عاما شاملا للجميع، وتحققت هذه الشمولية بحذف مفعول (تسألون)، إذ يسأل المؤمنون عن مقدار العمل بما كلفوا به، ويسأل المشركون على سبيل التّوبيخ عما كانوا عليه، فهو تهديد لهم، في حين هو حثّ للمؤمنين على زيادة العمل في سبيل طاعة الله ورضاه وهو ما يتناسب مع قوله (فاستمسك) في بداية الآيات. وأوثرت كلمة (سوف) دون السين لأن مدة الاستقبال

(١) =: الفصل والوصل في القرآن الكريم: ٩٧ - ٩٨.
(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٢٠.
(٣) م. ن: ٢٥/٢٢٠.
(٤) =: في ظلال القرآن: ٥/٣١٩١.

معها أوسع نظرا إلى كثرة حروفها التي تدل على كثرة المعنى[١]. ويتناسب ذلك مع المقام الذي وردت فيه.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## ثانيا: خطاب التّحبيب:

يحبب الله لرسوله (ﷺ) الكثير من الأعمال والصّفات التي لا بدّ للرسل والأنبياء أنْ يتصفوا بها في أثناء دعوتهم وتبليغ ما أرسلوا به، ليكونوا الأسوة الحسنة، والقدوة المتبعة، وغالبا ما يأتي خطاب التّحبيب بصيغة الأمر متضمنا التّسلية والتّثبيت، من ذلك قوله تعالى ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ ﴾[٢].

ففي هذا الخطاب يؤمر الرّسول (ﷺ) بالصّبر تثبيتا له ولمَن كان معه من المؤمنين في أيام الشّدة والمعاناة، وهذا الخطاب يشمل كلّ مَن يأتي بعدهم من أمة الإسلام، وحسب هذا الخطاب أنْ يكتفي بكلمة الأمر (فاصبر) دون تحديد ما يصبر عليه، فهو الصّبر على التكذيب، والأذى، وعلى كلّ ما من شأنه أنْ يتطلب صبرا، فهو خطاب يحبب الصّبر إلى النّفس في كلّ المواقف.

أمّا سياق الآية ونظمها فينبئ بأنّه الصّبر على النّصر، لقوله تعالى بعد الأمر بالصّبر ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ فهو سياق التّفريع على الوعد بالنّصر الذي في قوله تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾[٣] وقد ناسب سياق التّثبيت والوعد تأكيد الخبر بـ (إنّ) فالجملة الخبرية ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ جاءت لتعلل أمره (ﷺ) بالصّبر تثبيتا له، وقد حقق الفصل تثبيت المعنى وتوكيده. وغالبا ما يأتي الخبر في القرآن الكريم مؤكدا مهما كان متقبله، لأنّ الذي يخرج على النّاس بما لا عهد لهم به في حاجة إلى الإقناع بما يدعوهم إليه، ولا تقل حاجة المؤمنين إلى ذلك عن حاجة الكفار، فالإقناع إنْ كان يثني مشركا فإنّه يثبت قدم

---

(١) =: موسوعة الحروف في اللغة العربية: ٢٧٢.

(٢) سورة غافر: الآية ٥٥.

(٣) سورة غافر: الآية ٥١.

المؤمنين، ولذلك اكتسب تأكيد الخبر في النظم القرآني أهمية بالغة، وأضحى أسلوبا من أساليبه المطردة[١].

ويتناسب التّعبير بالجملة الاسمية التي تدل على الثّبوت مع ثبات وعده تعالى بنصرة رسله. وممّا يؤكد ذلك أنّ الأمر بالاستغفار والتّسبيح عطف على الأمر بالصّبر ممّا يؤكد تحقيق الوعد، لأنّه أمر عقبه بما هو من آثار الشّكر كناية عن كون نعمة النّصر حاصلة لا محالة، وهذه كناية رمزية[٢].

وإذا كان الخطاب خاصا للرّسول (ﷺ) بصيغته، فإنّه عام للأمة الإسلامية، فهو الأسوة الحسنة لنا جميعا، وأمره بالصّبر والاستغفار والحمد هو أمر لنا، ففي الآية تعريض بأنّ الأمة مطالبة بذلك أيضاً. فالتّعميم والتّخصيص ظاهرة - وإنْ تعلقت باللفظ المفرد - تركيبية، فلئن كانت الاستعارة مجازا قائما على التّشبيه، وكان المجاز المرسل مجازا قائما على المجاورة، فإنّ التّعميم والتّخصيص مجاز قائم على التّوسع والتّضييق في الدّلالة، وربّما يبدو التّعميم والتّخصيص شبيها بالبعضية حيث يدل البعض على الكلّ توسعا، والكلّ على الجزء تقليصا للمعنى[٣]. فضلاً عن أنّه (ﷺ) مأمور بالاستغفار تعبدا وتأدبا، فالاستغفار والتّسبيح هو الزّاد في طريق الصّبر الطّويل، واقتران الاستغفار بالتّسبيح مع الصّبر فيه نور أمل الإجابة، وهو في ذاته تربية للنفس وتطهير للقلب لتنتصر النّفس بذلك وتبصر طريقها نحو النّصر الحاسم[٤].

أمّا اختيار (العشي والأبكار) فهو كناية عن الوقت كله وهذان طرفاه، أو أنّهما آنان يصفو فيهما القلب ويتسع المجال للتدبر، والأولى الحمل على العموم وهو ما تفيده (ال) في (بالعشي والأبكار)[٥]، فالتعريف هنا أفاد العموم، وهذه الكناية كثيرا ما ترد في القرآن الكريم، مثال ذلك قوله تعالى ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾[٦]،

(١) =: قضايا اللغة في كتب التّفسير: ٥٥٧.
(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٧٠/٢٤.
(٣) =: قضايا اللغة في كتب التّفسير: ٣٧٣.
(٤) =: في ظلال القرآن: ٣٠٨٧/٥.
(٥) =: البحر المحيط: ٤٥٣/٢.
(٦) سورة غافر: من الآية ٤٦.

وقوله تعالى ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾[١] وهكذا يحبب الصّبر والاستغفار والتّسبيح للرّسول (ﷺ) وللمؤمنين، وهو المنهج الذي اختاره الله تعالى لتوفير عدة الطريق إلى النّصر على الكافرين فضلاً عمّا فيه من التّسلية والتّثبيت.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي آية أخرى من سورة غافر يتجدد الأمر بالصّبر والتّحبيب إليه، ولكنّه صبر جديد، ربّما كان أشق من الصّبر على الإيذاء والكبر والتّكذيب، وهو أمر شاق على النّفس البشرية، يحتاج إلى الصّبر على أشواق القلب البشري العنيفة، فاحتجاز النّفس البشرية عن الرّغبة في رؤية أخذ الله أعداءه وأعداء دعوته - وهي تتلقى العداء والخصومة - أمر شديد على النّفس، فيأتي الآمر بهذا النّوع من الصّبر إعدادا وتخليصا للنفس المختارة من كلّ شيء حتى الرغبة في الانتصار من أعداء الدّين وكلّ ذلك في قوله تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[٢].

تأتي هذه الآية بعد ذكر مشهد الذّل والمهانة لأعداء الله في نار جهنم، وقد أمر الرّسول (ﷺ) بالصّبر على تحقق النّصر في الآية السابقة مع اقتران الصّبر بالاستغفار والتّسبيح، وأمر هنا بالصّبر على تحقق وعد الله بالنصر سواء أراه الله بعض الذي يعدهم في حياته، أو قبضه إليه وتولى الأمر عنه، وما على الرّسول إلاّ البلاغ، وهو ما ذكر في نظم يماثل نظم هذه الآية وذلك في قوله تعالى ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾[٣]، وقد جاء نظم الآية على سبيل التّوكيد أيضاً في (نرينك) و(نتوفينك) و(إنّ) و(ما) الزائدة. وفي ذكر (بعض) تهديد لهم وتهويل لما أعده الله من عذاب الدّنيا فضلاً عن عذاب الآخرة، وفي إيثار الاراءة للتعبير عن النصر مزيد تسلية له (ﷺ) وتثبيت له وللمؤمنين أيضاً، والتّعبير عن العذاب بالاسم الموصول (الذي) أفاد تعظيم ما سيحل بهم من العذاب في الدّنيا سواء كان في حياة الرسول أم

(١) سورة مريم: من الآية ١١.

(٢) سورة غافر: من الآية ٧٧.

(٣) سورة الرّعد: من الآية ٤٠.

بعد وفاته. وناسب هذا التّهويل في تهديدهم وتعظيم العذاب أنْ يتقدم المجرور (فإلينا) على (يرجعون) وقد أفاد ذلك مشاكلة الفواصل، والاهتمام بذكر مصيرهم مهما طال أمد الإمهال، فرجوعهم مقصور على الله لا على غيره. وقد ناسب هذا التّقديم واقتران الجملة بالفاء بداية الآية بالوعد بالنّصر وهو هُمُ الرّسول والمؤمنين، وجيء بـ ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ ردا لشماتتهم بوعد الله نصر الرّسول، فأكّد أنّه منصور على كل حال، فضلاً عمّا في ذلك من إتمام التّسلية والتّثبيت، وكأنّ تحبيب الصّبر لنفس الرّسول والمؤمنين كان عدة لإنجاز النّصر في كلّ هذه الأحوال.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويتكرر تحبيب الصّبر إلى قلوب الفئة المؤمنة، ولكنّه أيضاً لون آخر من ألوان الصّبر، وبنظم جديد يختلف عن الآيات السّابقة. فحين يصل سياق سورة الجاثية إلى ذكر ما يصل قلب المؤمن بقلب الوجود الذي يعيش فيه، ويشعره بالقدرة الإلهية العظيمة، يدعو المؤمنين إلى التّرفع والاستعلاء ورحابة الصّدر في مواجهة الضّعفاء الذين لا تتصل قلوبهم بهذا الوجود وما فيه من دلائل القدرة، من الذين لا يتطلعون إلى أيام الله، وكلّ ذلك في قوله تعالى ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

ففي الآية دعوة وتوجيه إلى التّسامح والعفو وهو ما يحتاج إلى الصّبر، وقد جاء نظم الآية شبيها بالاحتباك، إذ ذكر (الذين آمنوا) أوّلا دليلا على الكفر ثانيا، وذكر (لا يرجون أيام الله) ثانيا دليلا على رجائها أوّلا، فكان ذلك غاية في الإيجاز والتّكثيف، وفي ذلك تعريض بأنّ الله ينصر المؤمنين، فهو يدعوهم إلى العفو والصّفح وعدم تكلف الانتصار لأنفسهم لأنّ الله ضمن لهم النّصر، وصيغة المضارع (يغفروا) تدل على استمرارية الأمر وتجدده، ووصف الكافرين بـ ﴿ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ يزيد من عظمة جرمهم إذ لا يتوقعون وقائعه تعالى بأعدائه، فالأيام يعبر بها عن الوقائع[2]، أو لا يرجون ثوابه، وكلا المعنيين جائز، كما أنّ (يرجون) تحتمل المعنيين: معنى الرّجاء وهو

---

(١) سورة الجاثية: الآية ١٤.

(٢) =: إرشاد العقل السليم: ٥/٥٩.

الأمل والطمع في الثّواب، ومعنى الخوف كما قال تعالى ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[1]، أي لا تخافون له عظمة، كما يمكن أنْ تكون بمعنى عدم المبالاة وعدم الاكتراث[2]، فكأنّ هذه الكلمة زادت من صفتهم القبيحة فالرّجاء والخوف متلازمان، فاستحقوا الجزاء على تركهم الرّجاء في رضا الله وطاعته، وعدم الخوف من عقابه، فلم يكترثوا بكلّ ذلك.

وفي الدّعوة إلى العفو دعوة ضمنية أخرى وهي أنْ يترك المؤمنون الأمر كلّه لله ليتولى جزاء المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته، وأكدت هذه الدّعوة بقوله: (ليجزي) فهو تعليل للأمر بالمغفرة، ومِن الأولى أنْ يرتبط الجزاء بفاعل الأمر (يغفروا) وهم المؤمنون الذين عبر عنهم هنا بكلمة (قوما) على سبيل التّنكير الذي أفاد التّعظيم لأنّهم معارف وقد عبر عنهم هنا بالتّنكير، فهو مدح لهم وثناء عليهم كأنّه قيل: ليجزي أيّما قوم وقوما مخصوصين، لصبرهم وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار[3]، ففي هذا التّنكير كمال التّعريف والتّنبيه على أنّهم لا يخفون نكروا أو عرفوا[4]، وقد جوز أنْ يراد بالقوم الكفرة، وبما كانوا يكسبون سيئاتهم التي من جملتها ما حكى من الكلمة الخبيثة، والتّنكير للتّحقير[5]، وأوثر ذكر سبب الجزاء على سبيل الإبهام في (ما) ليكون عاما شاملا فلا يتحدد الجزاء بما ذكر في هذه الآية.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي خطاب آخر يحبب إلى النّبي (ﷺ) الشّريعة التي بعثه الله لتبليغها، ويحبب إليه والمؤمنين اتباعها، ويقابل ذلك نهي عن اتباع أهواء الكافرين، وذلك في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[6].

تبتدئ الآية بـ (ثمّ) ليفيد هذا العطف أنّ مضمون الجملة المعطوفة أهم من مضمون الجملة المعطوف عليها، أهمية النّتيجة على الدّليل، وفي هذا التّراخي الذي

---

(١) سورة نوح: الآية ١٣.

(٢) =: معجم مقاييس اللغة: ٤٢٤، مادة (رجو).

(٣) =: الكشاف: ٤/٨٨.

(٤) =: روح المعاني: ٢٥/١٤٧.

(٥) =: إرشاد العقل السليم: ٥/٥٩.

(٦) سورة الجاثية: الآية ١٨.

تفيده (ثمّ) تنويه بهذا (الجعل)، وإشارة إلى أنّه أفضل من إيتاء بني إسرائيل الكتاب والحكم والنّبوة وهو المذكور في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾(١) فالتّراخي الزماني المستفاد من (ثمّ) هو شكل من أشكال الوقف أو الانقطاع في الكلام ينبه القارئ أو السّامع إلى خطورة ما يلي (ثمّ) من المعاني(٢).

وأوثر (الجعل) هنا لما لهذه المفردة من معان ودلالات تتمثل في (الأحداث) و(الاتصال) و(الحكم)(٣)، فمِن معانيها (الأحداث) وهو ما يتناسب مع موضع الكلمة في هذا السّياق، فهذه الشّريعة قد أحدثت أمّة جديدة خرجت من الظّلمات إلى النّور، والمعنى الآخر هو الاتصال فلم يكن جعل الرّسول (ﷺ) على هذه الشّريعة أمرا مؤقتا أو تجربة، وإنّما كان أمرا ثابتا ومستمرا باتصال دائم، ومتجددا إلى يوم القيامة، والجعل أيضاً بمعنى (الحكم) أي حكمنا لك بهذه الشّريعة لتجدد الدّعوة إلى التّوحيد، وحكم الله لا بدّ له من أنْ يظهر فهو الحق الذي يزيل الباطل ويدمغه، وفي ذلك تثبيت للنبي (ﷺ) وتأييد.

وأوثر الحرف (على) للاستعلاء المجازي، وقد أفاد التّمكن والثّبات(٤)، وهو ما يناسب مقام التّحبيب والتّثبيت، والشّريعة: الدّين والملة المتبعة، وهي مشتقة من الشّرع وهو جعل الطريق للسير، ومِنه شريعة الماء الذي يرده النّاس. ويوحي جذر هذه المادة اللّغوي بمعنى الامتداد(٥)، فهو إيحاء بأنّ هذا الدّين سيكون ممتدا ومنتشرا وهو ما يناسب مقام التّثبيت في ذلك الوقت، فاستعيرت (الشّريعة) للدّين أو الملة تشبيها بشريعة الماء، ووجه الشّبه ما في الماء من المنافع وهي الرّي والتّطهير، والتّنوين في (شريعة) للتعظيم أي شريعة عظيمة الشّأن(٦)، فهي التي يجب أنْ يردها النّاس لا غيرها، وجاء نظم الآية غاية في الإيجاز، إذ أفادت الآية أنّ شريعة الإسلام شريعة عظيمة، وأنّ

---

(١) سورة الجاثية: من الآية ١٦.

(٢) =: قضايا اللغة في كتب التّفسير: ٥٢٥.

(٣) =: الفروق في اللغة: ١٢٨ - ١٢٩.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٣٤٧/٢٥.

(٥) =: معجم مقاييس اللغة: ٥٣٣، مادة (شرع).

(٦) =: روح المعاني: ١٤٩/٢٥.

الرّسول (ﷺ) متمكن منها لا يصده شيء عن الدّأب في بيانها والدّعوة إليها[1]، ثمّ يؤمر النّبي (ﷺ) بالخطاب على سبيل الأمر باتباع هذه الشّريعة وينهى عن اتباع غيرها لأنّ ما عداها من النّحل ليس إلاّ (أهواء) وقد كان المشركون يدعونه إلى ترك ماهو عليه والعودة إلى دين الآباء والأجداد من عبادة الأصنام وغيرها، فوصفت الآيات كلّ ذلك أنّه (أهواء) فلا قرار لتلك العبادات الزّائفة ولا ثبات، بل هي (أهواء) جوفاء تتقلب كما تتقلب الرّيح فلا يستقر مَن عليها على حال، كما توحي هذه الكلمة بما في نفوس الكافرين من الفراغ والهوة الواسعة في داخلهم، وجاء قوله (فاتبع) و(لا تتبع) علي سبيل طباق السّلب.

وفي وصف ما كان يدعو إليه المشركون بأنّه (أهواء) توبيخ لهم، وزيد ذلك بالتّعبير عنهم باسم الموصول (الذين) لتعظيم توبيخهم ووصفهم بعدم العلم، ففي ذلك زيادة توبيخ لهم واهنة، فمَن لا يعلم سيكون جاهلا ومخطئا حتى في أهوائه فلا يستحق أنْ يسمع له رأي أو يتبع.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويمتزج خطاب التّحبيب بالتّسلية والتّثبيت في قوله تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾[2] وكأنّ ما ذكر من تحبيب النّصر في الآيات السابقة في سور الحواميم كان تأكيدا على أنّ طريق الصّبر هو الطريق الذي سار عليه الرّسل من قبل، فيحبب ذلك إلى نفس الرّسول (ﷺ) ويتخذ من صبر إخوته المرسلين مثالا لما عزم عليه من تبليغ الرّسالة، ويقترن الأمر بهذا الصّبر هنا بعدم الاستعجال في طلب العذاب أو غير ذلك بعد أنْ اقترن بالاستغفار والتّسبيح، واقترن بالوعد بالنّصر، والوعيد للكافرين بالعذاب في الآيات السابقة.

وقد جاءت هذه الآية بعد عرض مصير الكافرين في نار جهنم، فيوجه الرّسول (ﷺ) بأنْ يصبر ولا يستعجل لهم بالدّعاء عليهم أو إحلال العذاب بهم، فقد عرضت الآيات السّابقة ما ينتظرهم وهو منهم قريب. والخطاب بصيغة الأمر في تحبيب الصّبر هو تشجيع وتأسية بحال صبر الرّسل الآخرين، وتسلية ثمّ تطمين وقوله: (أولو العزم)

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٣٤٨/٢٥.

(٢) سورة الأحقاف: من الآية ٣٥.

يتضمن رسلا وغيرهم، فبين بعد ذلك جنس الرّسل خاصة، تعظيما لهم، ولتكون القدوة المضروبة لمحمد (ﷺ) أشرف[١].

ويقترن الأمر بالصّبر بالنهي عن الاستعجال لهم بالعذاب وهو في قوله: (ولا تستعجل لهم) وقد حذف مفعول الفعل إذ دلّ عليه المقام وتقديره: العذاب أو الهلاك، والكلام على حذف مضاف إذ التقدير: لا تستعجل لهلاكهم[٢].

وهكذا نجد أنّ تحبيب صفة أو عمل معين غالبا ما يقترن به نهي عن صفة أو عمل آخر يناقضه، لكي يكون خطاب التّحبيب ذا أثر بالغ في المخاطبين بشكل عام.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## ثالثا: خطاب التّشجيع:

كثيرا ما يخاطب النّبي (ﷺ) خطاب تشجيع وتثبيت وتسلية، وقد يكون ذلك عن طريق عرض القصص القرآني كما مرّ بنا في الفصل السّابق، وغالبا ما يأتي هذا اللون من الخطاب بعد عرض أحوال الكافرين وهلاكهم جزاء تكذيبهم الرّسل، من ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[٣].

بعد أنْ كانت نهاية حوار أهل النّار عذابا نفسيا وجسديا للكافرين، وتعريضا بأمثالهم من المشركين - وكان ذلك للعبرة والعظة - جاءت هذه الآية عودة إلى خطاب الرّسول (ﷺ) لأنّ ما ذكر قبلها كان للتثبيت والتسلية من خلال عرض حال الرّسل السّابقين وصبرهم، فالآية استخلاص للعبرة من القصص الماضية مسوقة لتسلية الرّسول (ﷺ) ووعده بحسن العاقبة، وتسلية المؤمنين ووعدهم بالنّصر وحسن العاقبة في الدّنيا والآخرة.

ولم يكن الرّسول (ﷺ) والمؤمنون يشكون في نصر الله، ولكنّ الخبر جاء مؤكدا بـ (إنّ) و(اللام) والصيغة الفعلية في المسند (ننصر) للتعريض بالمشركين لأنّهم كانوا يكذبون بذلك، فضلا عمّا في الخبر من الإيحاء بتهديد الكافرين بالهلاك في الدّنيا، والخسران في الآخرة، وفي توكيد الخبر وعد وبشرى للرّسول (ﷺ) والمؤمنين، وفي

---

(١) =: المحرر الوجيز: ١٣/٣٧٦.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٦/٦٧.

(٣) سورة غافر: الآية ٥١.

إضافة (الرسل) إلى نون العظمة تشريف لهم وزيادة توكيد على تحقق هذا الوعد. ونصر الرّسل هو نصر العقيدة مهما كان مآل حال الرّسل، فإبراهيم (عليه السلام) وهو يلقى في النّار ولا يرجع عن عقيدته ولا عن الدّعوة إليها كان في قمة النّصر كما أنّه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النّار[١]، فوعد الله قائم لرسله وللمؤمنين بشكل عام، ولا يقتصر تحقق هذا الوعد في الحياة الدنيا فحسب، ولكنّ النّصر العظيم هو في يوم القيامة ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ من الملائكة والأنبياء والمؤمنين والأجساد[٢]، فالأشهاد يحتمل أنْ يكون من الشّهادة، أو أنْ يكون من المشاهدة بمعنى المصدر[٣].

وفي ذكر نصرهم في يوم القيامة حثّ للمؤمنين على الثّبات ودوام العمل في طاعة الله، ولا بدّ من الإخلاص فيه لما في كلمة (الأشهاد) من التّهويل والتّحذير من الرّياء أو العمل من أجل حبّ الدّنيا وملذاتها. فكان الخطاب في هذه الآية تشجيعا للرّسول (ﷺ) وللمؤمنين، فوعد الله قائم لرسله وللمؤمنين الذين استقرت في قلوبهم حقيقة الإيمان فخوطبت بهذا الخطاب لتستبشر بالنّصر في الحياة الدّنيا وفي الآخرة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ومِن خطاب التّشجيع أيضا قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[٤] فقد جاءت الآية في سياق وعد الله لعباده أنْ يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون، ومِن خفايا أنفسهم وقد صدقهم الله وعده، وفي الخبر تثبيت له (ﷺ) وتشجيع على المضي في تبليغ الرّسالة، والمعنى: أولم يكف بربك يا محمد - (ﷺ) - أنه شاهد على كلّ شيء ممّا يفعله خلقه لا يعزب عنه علم شيء منه وهو مجازيهم على أعمالهم[٥]، وقد بدأت الآية بالاستفهام التّقريري تحقيقا لتيقن النّبي بكفالة ربّه بحيث كانت ممّا يقرر عليها كناية عن اليقين بها، ففي الاستفهام التّقريري يكون السّائل عالما بالجواب ولكنّه يريد من المخاطب أنْ يوافقه لغرض من الأغراض كالحكم عليه

(١) =: في ظلال القرآن: ٣٠٨٦/٥.

(٢) =: الجامع لأحكام القرآن: ٣٢٢/١٥.

(٣) =: المحرر الوجيز: ٥٤/١٣.

(٤) سورة فصلت: من الآية ٥٣.

(٥) =: جامع البيان في تفسير القرآن: ٥/٢٥.

بإقراره، وإظهار أمره إلى النّاس[١]. وقد يكون مساقها مساق تلقين النّبي (ﷺ) أنْ يستشهد بالله على أنّ القرآن من عند الله فيكون موقعها موقع القسم بإشهاد الله، وهو قسم عظيم فيه معنى نسبة المقسم عليه إلى أنّه ممّا يشهد الله به فيكون الاستفهام إنكاريا، إنكاراً لعدم الاكتفاء بالقسم بالله، وهو كناية عن القسم وعن عدم تصديقهم بالقسم[٢].

وأوثرت كلمة (ربّك) لتناسب مقام التّثبيت والتّشجيع، فالتّعبير القرآني يؤثر هذه الكلمة في مكان احتياج الموقف إلى الرّبوبية[٣]، وإسنادها هنا إلى الكاف فيه تشريف له (ﷺ)، ويوحي استخدام الحرف (على) بالاستعلاء والتّمكن المناسب لسياق الآية. وتنكير (شيء) أفاد العموم، وتقديم (على كلّ شيء) على (شهيد) للاهتمام وإفادة العموم أيضا، وتنكير (شهيد) للتعظيم. وهكذا كان الخطاب تشجيعا للرّسول (ﷺ) وتثبيتا.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## رابعا : خطاب التّنفير :

تتضمن بعض آيات الكتاب العزيز تنفيرا من صفات وأفعال لا يليق بفئة الإيمان أنْ يتصفوا بها، ولا سيّما تلك الصفات والأفعال التي اتصف بها الكافرون.

والرّسول (ﷺ) أسوة حسنة للمؤمنين فقد تأدب بالأدب الإلهي، فخوطب بخطاب التنفير مثلما خوطب بخطاب التحبيب والتأنيس، من ذلك قوله تعالى ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٤].

فقد جاءت الآية في سياق ذكر المجادلين في آيات الله بغير حجة وعلم، وما يدفعهم إلى ذلك إلاّ الكبر في صدورهم المليئة بالضلال، فهم يحاولون به الارتفاع والعلو على النّاس إذ ظنوا أنّ اتباع النّبي (ﷺ) يقلل ارتفاعهم الوهمي وينقص أحوالهم الدّنيوية الزّائفة، وظنوا أنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تبعا له (ﷺ)، فأعلم الله نبيه أنّهم لا

---

(١) =: أسرار التّقديم والتّأخير في القرآن الكريم: ١٥.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٠.

(٣) =: جماليات المفردة القرآنية: ٤٤.

(٤) سورة غافر: من الآية ٥٦.

يبلغون الارتفاع الذي يريدونه. وذكر سبب الجدال بقصره على الكبر يفيد تعظيم هذا الجرم وتشنيعه، لذلك جاء خطاب التّنفير بعده بهذه الفاء التي توحي بالمباشرة، وعلى سبيل صيغة الأمر (استعذ)، والاستعاذة بالله في مواجهة الكبر توحي باستبشاعه، فالإنسان إنّما يستعيذ من الشّيء الفظيع القبيح الذي يتوقع مِنه الشّر والأذى، وفي الكبر هذا كلّه، فهو يتعب صاحبه ويتعب النّاس من حوله ويؤذي صدره وصدور الآخرين(١)، لذلك أمر الرّسول (ﷺ) بالاستعاذة من مثل ما ابتلي به المجادلون من الكبر والكفر، وخطاب التّنفير هذا هو خطاب خاص أريد به العموم أيضا، فإذا كان الرّسول (ﷺ) يستعيذ من ذلك فمِن الأولى أنْ يستعيذ المؤمنون بالله من ذلك أيضا.

وفي الآية إيجاز حذف، إذ حذف متعلق (استعذ) لقصد تعميم الاستعاذة من كلّ ما يخاف مِنه، لذلك تعد الآية تذييلا لما قبلها، فالاستعاذة عامة من كلّ مستعاذ منه، ولا سبيل إلى تقدير ما حذف، لأنّ تقديره عبث بالنص وخروج على المعنى المراد، وهو بعد ذلك تضييع لفنية الأسلوب لا يغفره التّذرع بالتزام القاعدة(٢)، فقد حقق الحذف هنا توسعا وتعميما، فضلا عن أنّ عدم تقييد الاستعاذة بالكبر هو تشريف للرّسول (ﷺ) إذ لا يخاطب بالاستعاذة من شيء يظن أنّه اتصف به، وفي حذف الكبر في خطاب التّنفير تحقير لشأن المحذوف(٣). وقد أكد التّذييل بـ (إنّ) وأكد أيضا بالقصر بضمير الفصل (هو) تعريضا بالمتحدث عنهم وهم المجادلون في آيات الله بغير سلطان. وأوثرت ثنائية (السّميع البصير) للتناسب وسياق الآية في هذا الخطاب فالله هو الذي يسمع ويرى، والكبر الذّميم يتمثل في حركة ترى وفي كلام يسمع، فهو يكل أمره إلى السّميع البصير يتولاه بما يراه، ويوحي قوله: (السميع البصير) بأنّ مَن أمر بالاستعاذة ودعاك إلى أنْ تلوذ به يسمع ما تقول ويسمع أقوال هؤلاء المجادلين، وهو بصير بمقاصدهم ونياتهم ومجاز كلا بما استوجبه.

وهكذا يتمثل في خطاب التّنفير الأدب الإلهي للرّسول (ﷺ) والمؤمنين، وهو في الوقت نفسه تعريض بالكافرين إذ لا ملاذ ممّن يسمع ويبصر كلّ شيء إلاّ إليه، وأنّ الذي يسمع ويبصر كلّ شيء فهو عليم بما في صدورهم من الكبر فلا يدعهم يصلون

---

(١) =: في ظلال القرآن: ٥/٣٠٨٩.

(٢) =: نحو القرآن: ٢٦.

(٣) =: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي: ١٠٧.

إلى ما في صدورهم منه، فالخطاب تأييس للمشركين، وبشرى للمؤمنين فضلا عن كونه تنفيرا من صفات المجادلين الكافرين.

❖❖❖❖❖

بعد أنْ حبب الله لرسوله (ﷺ) اتباع ما أوحى إليه من الشّريعة، خاطبه خطاب تنفير من اتباع أهواء الكافرين وبين له أنّهم لا يغنوا عنه من الله شيئا وأنّ بعضهم أولياء بعض وكان الخطاب خاصا أريد به عموم المؤمنين لذلك ختم الآية بقوله ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وذلك في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[1].

فالآية الثانية تعليل للنهي عن اتباع أهواء الكافرين، وفي وصفهم بأنّهم ﴿ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ إيحاء بأنّ في مخالفة ما أمر الله من اتباع شريعته ما يوقع في غضب الله وعقابه. وقد جاء فعل الإغناء على سبيل التّضمين لمعنى الدّفع ولذلك عدي بـ (عن) والمعنى: لن يكون لهم عنك دفاع[2]. وتنكير (شيئا) يفيد التقليل، أي قليلا من الإغناء، ويتعالق التّنكير مع إيجاز الحذف، حيث حذف المضاف، وتقديره (مِن عذاب الله).

وعطف على هذا التّعليل تعليل آخر وهو قوله ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إذ تجمعهم صفة الظّلم التي يتساندون تحت لوائها ضد صاحب الشّريعة، ومَن كانوا هذه صفتهم فلا يجوز اتباعهم، وذيل ذلك بقوله ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ والرّسول (ﷺ) أوّل المتقين، فيختم خطاب التّنفير بهذه البشرى، بعد وصف ولاية الكافرين بأنّها محاطة بالظلم من كلّ جانب، وكيف يكون الولي وليا وهو ظالم! فشتان ما بين الولايتين.

وقد أثر التّعبير القرآني في هذه الآية التّحقير من شأن الكافرين بتعديد صفاتهم،

(١) سورة الجاثية: من الآية ١٨ و١٩.

(٢) =: المحرر الوجيز ٣٠٩/١٣.

حيث وصف ما هم عليه بأنّه (أهواء) ثمّ وصفهم بأنّهم (لا يعلمون) وأنّهم (لن يغنوا) ثمّ وصفهم بـ (الظّالمين)، في حين رفع شأن المؤمنين بولايته لهم، وفي ذلك إيحاء بخروج الكافرين من ولايته تعالى فهي مقصورة على المتقين.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## خامسا: خطاب التّأنيس:

واجه الرّسول (ﷺ) في تبليغ الدّعوة عنتا شديدا وإيذاء من المشركين، فكان القرآن الكريم يذكر قصص الأنبياء والرّسل تسلية له (ﷺ) وتثبيتا، وخوطب في آيات أخرى كثيرة خطاب تأنيس له على سبيل المماثلة بين ما كان يلاقيه من أذى المشركين، وما لاقاه الأنبياء والرّسل منهم من قبله، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾(1).

فما كان شأن الرّسول (ﷺ) إلاّ شأن الرّسل من قبله، لا يأتون بالآيات من تلقاء أنفسهم ولا استجابة لرغائب معانديهم ولكن الآيات من عند الله. فبداية الآية مقدمة للمقصود لتأكيد العموم لكلّ الأنبياء والرّسل فضلا عن رد مجادلة الكافرين بقولهم ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾(2) لذلك جاء قوله (رسلا) على سبيل التّنكير ليفيد مع العموم التّعظيم والتّكثير. وجاء قوله: (وما كان لرسول) على سبيل الوصل بالواو دون الفاء ليفيد استقلال هذه الجملة بنفسها لما فيها من معنى عظيم لا يكون تابعا لغيره.

وتضمن نظم الآية صيغة القصر بالنّفي والاستثناء، إذ قصر مجيء الرّسل بالآيات على إذن الله، وفي ذلك إبطال لكلّ مقالاتهم ومقترحاتهم.

وعدل التعبير القرآني عن (إذن الله) إلى (أمر الله) للتعريض بأنّ ما سيظهره من الإذن لمحمد (ﷺ) هي آيات عقاب لمعانديه.

وتتجلى دقة التّعبير القرآني في وضع كلّ لفظة في مكانها المناسب، فقد أثر التّعبير القرآني كلمة (يأتي) في قوله ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ ﴾ في حين آثر كلمة

---

(١) سورة غافر: الآية ٧٨.

(٢) سورة الأنعام: من الآية ٩١.

(جاء) في قوله ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ لأنّ (أتى) تقتضي المجيء بشيء فاستعملت مع مجيء الرّسل بالآيات، أمّا (جاء) فلا تحتاج إلى ذلك فاستعملت في مكانها المناسب[١]، فضلا عن أنّ صيغة المضارع (يأتي) تفيد التّجدد والاستمرار وهو ما يناسب مقام التّعميم في سياق الآية، وصيغة الماضي (جاء) تفيد تحقق وقوع الفعل وأنّه في حكم الواقع المنتهي، وناسب هذا المعنى إيثار الشّرط بـ (إذا) والتي تستخدم للشرط المتوقع حصوله دون ريب.

ومِن التّناسب أيضا إيثار (قضي بالحق) دون غيره من مثل (ظهر الحق) أو (تبين الصدق) وفي ذلك ترشيح لما في قوله: (أمر الله) من التّعريض بأنّه أمر انتصاف من المكذبين[٢]. وعلى الرّغم من أنّ قوله: (قضي بالحق) يفيد خسران الكافرين إلاّ أنّ التّعبير القرآني يؤكد ذلك بقوله تعالى ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ باستعارة الخسران لحصول الضّر لمن أراد النفع كخسارة التاجر الذي أراد الرّبح فذهب رأس ماله، كما استعير اسم الإشارة (هنالك) من المكان إلى الزّمان المعبر عنه بـ (إذا)، وفي ذلك إيماء إلى خسران المبطلين من قريش أيضا إذ ستأتيهم الآية بأمر الله على يد الرّسول (ﷺ)[٣]، وتحتمل الآية معنى آخر وهو أنْ يريد بـ (أمر الله) القيامة، فتكون الآية توعداً لهم[٤]، وفي وصفهم بـ (المبطلون) توبيخ لهم وتعريض بما هم عليه من اتباع الباطل ونصرته. وقد ختم هذه الآية بـ (المبطلون) وختمت في موضع آخر بقوله ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[٥] لأنّ الأوّل متصل بقوله (قضي بالحق) ونقيض الحق الباطل، والثّاني متصل بإيمان غير مجد ﴿ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ ﴾ ونقيض الإيمان الكفر[٦]، فناسبت كل كلمة سياقها الذي وردت فيه.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) =: الفروق في اللغة: ٣٠٥.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢١٣/٢٤.

(٣) =: م. ن: ٢١٣/٢٤.

(٤) =: المحرر الوجيز: ٧١/١٣.

(٥) سورة غافر: من الآية ٨٥.

(٦) =: بصائر ذوي التمييز: ٤١٢/١.

بعد أنْ بين الله لرسوله (ﷺ) أنّه أرسل من قبله رسلا وكانوا لا يأتون بآية إلاّ بإذن الله، فكان في ذلك تأنيس له (ﷺ). يخاطبه تأنيسا له أيضا بأن ما يقال له: قد سبق وأن قيل للرسل من قبله، وذلك في قوله تعالى ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾[١].

ينبثق التأنيس في هذا الخطاب من وحدة الوحي والرّسالة والعقيدة، وكذلك وحدة الاستقبال، ووحدة التّكذيب والاعتراض عند مَن لم يتبع الرّسل، فهو طريق واحد، سار عليه الرّسل من قبل: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، فيكون السّير على ذات الطريق فيه أنس وثبات.

وقد جاءت الآية استئنافا بيانيا على سبيل الفصل وكان سائلا يسأل: ما بال الكافرين طعنوا في القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ فأجيب بأنّ هذه سنة الأنبياء مع أممهم، فكان ذلك كناية عن تسلية النّبي (ﷺ) وأمرا له بالصّبر على عنادهم على سبيل التّعريض[٢].

وجاءت الآية بأسلوب القصر بالنّفي والاستثناء فقد قصر ما يقال للنبي (ﷺ) على ما قد قيل للرسل، وهو ما يناسب مقام التأنيس، وجاء قوله ﴿ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ ﴾ على سبيل التشبيه البليغ أي إلاّ مثل ما قد قيل للرسل[٣]. وإيثار صيغة المبني للمجهول (يقال) و(قيل) جعلت الكلام يحتمل معنيين: **الأول**: أنْ يكون تسلية للنبي (ﷺ) عن مقالات قومه، والمعنى: ما تلقى يا محمد من المكروه والقول المؤلم إلاّ ما قد قيل لمَن تقدمك من الرّسل، وفي ذلك تأنيس له. **الثّاني**: أنْ تكون الآية تلخيصا لمعاني الشّرع، والمعنى ما يقال لك من الوحي إلاّ ما قد قيل للرسل الآخرين[٤].

وصيغة المبني للمجهول تناسب المعنيين، فهي في المعنى الأول تفيد إنكار الفاعل وقوله وتجاهله. وحذف الفاعل - على حسب المعنى الثاني - للتعظيم، فالفاعل قد بلغ الغاية في أوصافه المحمودة فلم يذكر إيماء إلى أنّه لا يشاركه في هذا

---

(١) سورة فصلت: الآية ٤٣.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٣١٠/٢٤.

(٣) =: م. ن: ٣١٠/٢٤.

(٤) =: المحرر الوجيز: ١٢٣/١٣ - ١٢٤.

الأمر أحد[١].

أمّا صيغة المضارع في (ما يقال) فتفيد تجدد هذا القول منهم وكأنّهم توارثوه، وفي قوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ والذي جاء على سبيل الفصل، محسن الجمع والتّقسيم، فقوله: (ما يقال لك) يجمع قائلا ومقولا له، فكان الإيماء بوصف (ذو مغفرة) إلى المقول له وهو الرّسول (ﷺ) والمؤمنون، أي (إنّ ربّك لذو مغفرة) لك وللمؤمنين، ووصف (ذو عقاب أليم) إلى القائلين وهم الكافرون، فهو جار على طريقة اللف والنّشر المعكوس، وقرينة المقام ترد كلا إلى مناسبه[٢]، فضلاً عمّا في ذلك من التّوكيد بـ (إنّ) و(اللام) تلاؤما مع مقام التأنيس في هذا الخطاب، والذي يؤكده إسناد لفظة (الرّب) - بإيثارها على غيرها - إلى الكاف للتشريف. وكذلك الطباق بين (مغفرة) وبين (عقاب) بهذا التّنكير الذي يفيد التّكثير، لتضم هذه الكلمات بهذا النّظم جماع الزجر والنّهي والموعظة.

❖❖❖❖❖

وفي سورة الزّخرف يخاطب الرّسول (ﷺ) **خطاب** تأنيس يتعلق بإظهار وحدة الرّسالة التي بعث بها الرّسل جميعا وهي رسالة التّوحيد، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[٣].

إنّه التوحيد، أساس دين الله الواحد منذ أقدم الرّسل، فعلام يرتكن المشركون في عبادتهم؟ ولماذا القول: إنّ ما جاء به الرّسول (ﷺ) مخالف لما كان قبله؟ فالآية تثبت هذه الحقيقة التي لا تحتاج - عند الرّسول والمؤمنين - إلى تأكيد وتثبيت، ولكنّها ردّ على مقالات المشركين وإلجامهم بهذا النّظم المعجز الذي تتلاشى فيه أبعاد الزّمان والمكان والموت والحياة بين الرّسل (صلوات الله وسلامه عليهم)، فحقيقة رسالة التّوحيد كفيلة بأنْ تبرز وتثبت فوق هذه الأبعاد[٤]، فيخاطب الرّسول (ﷺ) **خطاب** تأنيس له، وإيحاء برد المشركين وإنكار ما هم عليه من الشّرك والضّلال. وقد ذكر المفسرون

---

(١) =: خطاب الأنبياء: ١٨١ - ١٨٢.

(٢) =: المحرر الوجيز: ١٢٤/١٣ والتحرير والتنوير: ٣١١/٢٤.

(٣) سورة الزّخرف: الآية ٤٥.

(٤) =: في ظلال القرآن: ٣١٩١/٥.

معاني عدة لهذه الآية ولا سيّما في سؤال النّبي (ﷺ) للرسل. فقيل: إنّ ذلك ما حدث في الإسراء والمعراج، ولم يسألهم لأنّه كان أعلم بالله منهم، وقيل: إنّ المعنى: واسأل أمم مَن قد أرسلنا من قبلك، وقيل: واسأل مؤمني أهل الكتابين التّوراة والإنجيل، وقيل: سَلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا من قبلك[1]. والأولى أنْ يكون (مَن أرسلنا) استفهاما أمره أنْ يسأل به «كأنّ سؤاله: يا ربّ مَن أرسلت قبلي من رسلك؟ أجعلت في رسالته الأمر بآلهة يعبدون؟ ثمّ ساق السّؤال المحكي المعنى فرد المخاطبة إلى النّبي (ﷺ) في قوله تعالى ﴿ مِن قَبۡلِكَ ﴾[2].

والأمر بالسؤال (واسأل) تمثيل لشهرة الخبر وتحققه، وهو ما يتناسب ومقام التأنيس والتّثبيت، وعلى ذلك يكون المعنى: استقر شرائع الرّسل وكتبهم وأخبارهم هل تجد فيها عبادة آلهة، وجاء هذا الخطاب على سبيل الاستفهام الإنكاري فهو ردّ على المشركين في قولهم ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾[3]، أي ليس آباؤكم بأهدى من الرّسل الأولين[4]، وقد يكون الأمر بسؤال الرّسل مجازا للتعبير عن النّظر في أديانهم والفحص عن مللهم هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء[5]. وبين (مَن أرسلنا) وبين (مَن رسلنا) جناس الاشتقاق لتغير الشّكل وبعض الحروف بينهما. وأوثر فعل (الجعل) ههنا لأنّ من معانيه الحكم[6]، كما في قوله تعالى ﴿ ۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ ﴾[7] أي (حكمتم)، والمعنى أحكمنا بالعبادة لآلهة من دون الرّحمن. وإيثار اسم (الرّحمن) دون غيره للتناسب مع مقام التأنيس في هذا الخطاب، وتنكير (آلهة) للتقليل أو التّحقير، ثمّ قال: (يعبدون) ولم يقل: (تعبد) ولا: (يعبُدنَ) فاخرج الخبر عنها مخرج الخبر عن ذكور بني آدم لأنّها كانت تعبد وتعظم تعظيم النّاس ملوكهم وسراتهم فأجرى الخبر عنها مجرى الخبر عن الملوك والأشراف من

---

(١) =: الجامع لأحكام القرآن: ٩٥/١٦.
(٢) المحرر الوجيز: ٢٣١/١٣.
(٣) سورة الزّخرف: من الآية ٢٢.
(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٢٢/٢٥.
(٥) =: الكشاف: ٤٩٠/٣.
(٦) =: الفروق في اللغة: ١٢٩.
(٧) سورة التّوبة: من الآية ١٩.

بني آدم[١]. وهو ما يناسب سياق الإنكار في الآية الكريمة.

❖❖❖❖❖

## سادسا: خطاب الاعتبار:

واجه الرّسول (ﷺ) في أثناء دعوته إعراضا من المشركين وصدودا، فضلاً عما لاقاه من الإيذاء له وللمؤمنين، فكان ذلك مدعاة إلى حزنه، ولذلك خاطبه الله (ﷻ) بخطاب يرد الاعتبار ويزيح الهم عن نفسه، من ذلك قوله تعالى ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾[٢]، فضلاً عمّا توحي به الآية من تعريض بالمشركين.

وقد جاءت هذه الآية بعد ذكر آيات الله الكونية ودلائل قدرته وبعد الأمر بالسجود لله الذي خلق كلّ شيء، ولكنّهم لم يأتمروا بهذا الأمر بدافع الاستكبار والإصرار على الكفر، وهم بصدهم عمّا يدعوهم إليه الرّسول (ﷺ) قد أضروا بأنفسهم وحددوا لها سوء العاقبة، فكان الرّسول (ﷺ) يهتم لذلك، فخوطب خطاب الاعتبار بهذه الآية والتي بدأت بوصف دافع إعراضهم وهو الاستكبار، أي قوة التّكبر، فالسّين والتّاء للمبالغة أي: عدوا أنفسهم ذوي كبر شديد من فرط تكبرهم[٣]، كما تدل هذه الصيغة على الافتعال إذ لم يكونوا هم من ذوي المكانة العالية والكبر الحق، وإنّما افتعلوا ذلك إعراضا عن الدّعوة. فخوطب الرّسول (ﷺ) بأنّهم إنْ فعلوا ذلك فالله غني عن عبادتهم ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ وهم الملائكة، والعندية في هذه الآية ليست بمكان وإنّما هي بمعنى المنزلة[٤]، والتّعبير عنهم بالموصول فيه تعظيم لهم مقابل حقارة أمر الكافرين، وزيد هذا التّشريف بذكر منزلتهم هذه. وقوله: (ربّك) فيه تشريف له وتأييد يناسب مقام التّأنيس. ثمّ وصف الملائكة بأنّهم (يسبحون) بصيغة المضارع الدّال على الاستمرار والتّجدد وزيد ذلك بذكر وقت التّسبيح الدّائم على سبيل الطباق بين (اللّيل) و(النّهار) بهذا التّعريف الذي يفيد العموم. ثمّ آثر التّعبير القرآني أسلوب الاحتراس فجاء قوله:

(١) =: جامع البيان في تفسير القرآن: ٤٧/٢٥.

(٢) سورة فصلت: من الآية ٣٨.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٣٠١/٢٤.

(٤) =: المحرر الوجيز: ١١٩/١٣.

(وهم لا يسئمون) احتراسا من أنْ يظن أنّ دوام التّسبيح في اللّيل والنّهار واستمراره يؤدي إلى الفتور والملل، لأنّ في السّآمة معنى الملل(١).

وأوحت الصّيغة الفعلية في (يُسبِّحون) و(لا يسأمون) أنّ التّسبيح كان قولا وعملا وليس مجرد اعتقاد. وقد أفاد ضمير الفصل (هم) قصر حالتهم تلك على عدم السّأم.

ومِن أوجه البلاغة في نظم الآية ذلك التّقابل المبني على التّخالف، فالسّياق الأوّل (فإنْ استكبروا) يتحدث عن صفة الكافرين الذين ابتعدوا عن الإيمان بالله فامتنعوا عن تسبيحه، في حين أنّ السّياق الثّاني (وهم لا يسأمون) يتحدث عن صفة الملائكة الذين يسبحون الله ولا يمتنعون عن ذكره، فالسّياقان يقيمان علاقة التّخالف في هذا التّقابل، وفي ذلك توضيح للصّفتين في السّياقين(٢)، فكان ذكر تسبيح الملائكة الدّائم بلا ملل ولا فتور مقابل استكبار الكافرين تأنيسا للرّسول (ﷺ) وهو يخاطب بهذا الخطاب من الله الذي أرسله ليبلغ هؤلاء دعوته.

وفي الآية وجه بلاغي آخر يتمثل بالاحتباك: إذ «ذكر الاستكبار أوّلا دليلا على حذفه ثانيا والتّسبيح ثانيا دليلا على حذفه أوّلا وسرّ ذلك أنّه ذكر أقبح ما لأعدائه وأحسن ما لأوليائه»(٣) وفي ذلك توبيخ لهم، وتشريف له (ﷺ).

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويتواشج التأنيس ورد الاعتبار في خطاب الرّسول (ﷺ)، فبعد أنْ خوطب في الآية السابقة بأنّ الله غني عن عباده الكافرين المستكبرين وأنّه تعالى يسبح له الملائكة باللّيل والنّهار دون سأم، يخاطب في سورة الشّورى بأنّ هؤلاء إنْ أعرضوا ولم يستجيبوا لأمر الله ودعوته - على الرّغم من التّرهيب والتّرغيب - فإنّ مهمة الرّسول (ﷺ) هي البلاغ وأنّه لم يرسل حفيظا عليهم، وفي ذلك اعتبار له (ﷺ) وتأنيس في مقام إعراض الكافرين، وكلّ ذلك في قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ

(١) =: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: ٣٨٥.
(٢) =: التّقابل والتّماثل في القرآن الكريم، فايز عارف القرعان: ١٠٣.
(٣) نظم الدّرر: ١٩٦/١٧.

حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾[١].

وقد جاءت الآية على سبيل التّناسب إذ ترتبط بقوله تعالى في بداية السّورة ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ ﴾[٢] وهذا الارتباط هو نكتة الالتفات من الخطاب في قوله ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم ﴾[٣] إلى الغيبة في قوله ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ ﴾ وإلاّ لقيل: فإنْ أعرضتم، والمعنى: فإنْ أعرضوا فلست مقصرا في دعوتهم ولا عليك تبعة صدهم إذ ما أرسلناك حفيظا عليهم بقرينة قوله ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾[٤]، وفي ذلك تأنيس له (ﷺ) ورد اعتبار بعد إعراضهم عنه وصدهم عن دعوته، وإيثار الحرف (عليهم) فيه استعلاء وتمكن وأن الله قادر على جعله حفيظا عليهم، وتدل صيغة (فعيل) في (حفيظا) على الثّبوت واللّزوم[٥] الذي نفي عنه (ﷺ) بقوله تعالى ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ والمعنى: حافظا لإعمالهم حتى تحاسبهم عليها. وأوثر وصف (الحفيظ) دون (الرّقيب) لأنّ الرّقيب فيه معنى التّفتيش، والحفيظ لا يتضمن معنى التّفتيش عن الأمور والبحث عنها[٦]، وهو ما يناسب مقام التّأنيس والاعتبار. ويختم الخطاب بما يقوي معنى الاعتبار على سبيل القصر بالنّفي والاستثناء، فتقصر مهمة الرّسول (ﷺ) على البلاغ فقط. والجمع بين (إنْ) الشّرطية و(إنْ) النّافية جناس تام. والتّعريف في (البلاغ) يفيد التّعظيم، فهو البلاغ الكامل الواضح العظيم، وهي مهمة عظيمة، لا يستطيع أداءها إلاّ مَن اختاره الله لها، وفي ذلك استكمال لما في هذا الخطاب من ردّ الاعتبار والتّأنيس.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) سورة الشّورى: من الآية ٤٨.

(٢) سورة الشّورى: الآية ٦.

(٣) سورة الشّورى: من الآية ٤٧.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٣٢/٢٥.

(٥) =: معاني الأبنية في العربية: ٩٨.

(٦) =: الفروق في اللغة: ٢٠٠.

# المبحث الثّاني
# الخطاب العام

وهو خطاب النّاس جميعا عن طريق الرّسول (ﷺ)، ويقسم هذا الخطاب على ثلاثة أقسام: **الأوّل**: خطاب التّهديد والوعيد، **الثّاني**: خطاب الحجاج، **الثّالث**: خطاب التّلطف.

## أوّلا: خطاب التّهديد والوعيد:

مِن ذلك قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾[1]. إذ جاءت الآية بعد الحديث عن خلق السّموات والأرض والنّجوم، وفي ذلك بيان لعظمة القدرة الإلهية والتي تذكر للتفكر والتّدبر فيها بقصد الهداية، ومَن لم يهتد بذلك يستحق العذاب مثلما استحق الكافرون من الأمم السّابقة العذاب فأهلكوا ومنهم قوم عاد وثمود.

ويخاطب الرّسول (ﷺ) بلفظ الآية، وحقيقة هذا الخطاب التّوجه إلى المشركين المعرضين عن الدعوة على الرّغم من وضوح دلائل القدرة الإلهية، ويؤمر الرّسول (ﷺ) بأنْ يقول لهم: (أنذرتكم)، بصيغة الماضي التي عدل إليها عن المضارع (أنذركم) للدلالة على تحقق الإنذار المنبئ عن تحقق المنذر به[2]، والتّعبير بالماضي عن المضارع أبلغ وآكد وأعظم موقعا وأفخم شأنا لأنّه يعطي من المعنى أنّه قد كان ووجد وحدث، وصار من الأمور المقطوع بكونها وحدوثها. وغالبا ما يؤثر ذلك إذا كان المضارع من الأشياء الهائلة التي لم توجد، والأمور المتعاظمة التي تحدث فيجعل عند ذلك ممّا قد كان ووجد ووقع الفراغ من كونه وحدوثه[3]. وشبهت وقعة العذاب بالصّاعقة لأنّ الصّاعقة هي الوقعة الشّديدة من صوت الرّعد[4]. وأضيفت (صاعقة) إلى عاد وثمود، وعاد لم تهلك بالصاعقة وإنّما بالرّيح، فالإضافة جاءت على سبيل التّعميم

---

(١) سورة فصلت: الآية ١٣.

(٢) =: الجدول في إعراب القرآن: ٢٩٦/٢٤.

(٣) =: الفوائد المشوق: ١٠٣.

(٤) =: المحرر الوجيز: ٨٩/١٣.

والتّغليب بقصد الإيجاز، وليقع الإجمال ثمّ التّفصيل في الآيات الأخرى.

ومِن أوجه البلاغة في نظم الآية الالتفات في (فإنْ أعرضوا) بعد قوله ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ﴾(١) من الخطاب إلى الغيبة، ويتناسب هذا الالتفات بالإعراض عن مخاطبتهم مع الحال التي كانوا عليها حيث أعرضوا عن الحق.

وقد خص التّعبير القرآني عاد وثمود بالذّكر لأنّ قريشا كانوا يمرون على بلادهم فكان ذلك أولى بالذّكر ليتناسب مع خطاب التّهديد والوعيد.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويخاطب المشركون خطاب تهديد ووعيد يفضح افتراءاتهم ويمحو الباطل الذي هم عليه، ويأتي الخطاب بشكل غير مباشر ليكون ذلك أكثر وقعا في نفوسهم، ويكون فيه تثبيت للرّسول (ﷺ) والمؤمنين على طريق الحق، وذلك في قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾(٢).

تبتدئ الآية بـ (أَمْ) المنقطعة للإضراب عن كلام متقدم وللتقرير على هذه المقالة منهم(٣)، والاستفهام فيها للتوبيخ الذي استحقوه لمقالتهم تلك، وآثر التّعبير القرآني صيغة المضارع في (يقولون) ليتوجه التّوبيخ لاستمرارهم على هذا القول الشّنيع، والشّرط في قوله: (فإنْ يشأ الله) كناية عن انتفاء الافتراء لأنّه تعالى لا يقر مَن يكذب عليه كلاما، وقد حققت هذه الكناية إيجازا بديعا، فضلاً عن أنّها كناية عن الإعراض عن قولهم: (افترى على الله كذبا)، فالله يخاطب رسوله بهذا تعريضا بالمشركين، وكأنّه يقول: إنّ افتراءه على الله لا يهمكم حتى تناصبوه العداء، فالله أولى منكم بأنْ يدفع عن انتهاك حرمة رسالته(٤). وقد حقق إيثار (إنْ) في موضع (لو) ما يسمى بإرخاء العنان، وفيه إيماء إلى البرهان على أنّه لا يتصور وصفه بما ذكروه، وهنا يكمن التّهديد والوعيد في الخطاب إذ إنهم اجترؤوا على هذا المحال لأنّهم مطبوعون

(١) سورة فصلت: من الآية ٩.

(٢) سورة الشّورى: الآية ٢٤.

(٣) =: المحرر الوجيز: ١٦٥/١٣.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٨٥/٢٥ - ٨٦.

على الضّلال[١]. ومجيء المشيئة بعد (لو) وبعد حروف الجزاء هكذا موقوفة غير معداة إلى شيء كثير شائع، فمتى كان مفعول المشيئة أمرا عظيما أو بديعا غريبا كان الأحسن أنْ يذكر ولا يضمر، وإذا لم يكن مما يكبره السّامع فالحذف[٢]، كما في هذه الآية. وقوله: (يختم على قلبك) أفاد المبالغة في استبعاد الافتراء عن مثله، والتّعريض بأنّ مَن ينسبه إلى الافتراء فهو مختوم على قلبه[٣]، وفي نسبتهم إلى الافتراء بهذا النّظم تسلية له (ﷺ) وتذكير لإحسانه إليه وإكرامه له (ﷺ) ليشكر ربّه[٤].

ويتواشج العدول مع الإظهار بدل الإضمار في قوله تعالى ﴿ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ ﴾ إذ عدل عن الجملة الاسمية فلم يقل: والله يمحو الباطل، «لأنّه أريد أنّ ما في إفادة المضارع من التّجدد والتّكرير إيماء إلى أنّ هذا شأن الله وعادته لا تتخلف ولم يقصد تحقيق ذلك وتثبيته لأنّ إفادة التّكرير تقتضي ذلك بطريق الكناية فحصل الغرضان»[٥].

وذكر لفظ الجلالة (الله) على سبيل الإظهار لتقوية تمكن المسند إليه من الذّهن ولإظهار عناية الله بمحو الباطل، فضلاً عن إشارة ذلك إلى عدم دخول الجملة في حكم الأولى على الرّغم من أنّ قوله: (ويمح الله الباطل) استئنافا مقررا لنفي الافتراء وأنّه لو كان مفترى لمحقه، فمِن سنته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه، وقد جاء ذلك على سبيل المقابلة بين (ويمحو الله الباطل) وبين (ويحق الحق بكلماته).

ولمّا كان السّياق حديثا عن الافتراء الذي غالبا ما يصاحبه إخفاء الحقائق في الصّدور، آثر التّعبير القرآني ختم الآية بتذييل مؤكد بـ (إنّ)، وآثر معه صفة (العليم) للتناسب مع معنى السّياق، وصيغ التّعبير عن الأسرار الخفية المصاحبة للصدور بقوله: (ذات الصدور) على سبيل الكناية، فكأنّها لازمة لها لا تبارحها[٦].

ومِن هذا التّذييل ينبثق التّهديد والوعيد للكافرين من خلال خطابهم غير

---

(١) =: محاسن التأويل: ١٤/٥٢٤٣.

(٢) =: دلائل الإعجاز: ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) =: تفسير غرائب القرآن: ٢٥/٤٠.

(٤) =: روح المعاني: ٢٥/٣٥.

(٥) التّحرير والتّنوير: ٢٥/٨٧ - ٨٨.

(٦) =: الكناية في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان: ١٣٤ (أطروحة دكتوراه).

المباشر بالإعراض عنهم وخطاب الرّسول (ﷺ) ليكون ذلك أكثر وقعا في نفوسهم وأكثر تهويلا وتخويفا.

❖❖❖❖❖

يمتزج خطاب تسلية النّبي (ﷺ) بخطاب تهديد الكافرين ووعيدهم في سورة الزّخرف، فلما ذكر الله تعالى حالة الكفار في الآخرة وما يقال لهم وهم في العذاب، اقتضى ذلك إشفاق النّفوس، وأنْ ينظر كلّ سامع لنفسه ويسعى في خلاصها، ولمّا كانت قريش - مع هذا الذي سمعت - لم تزل على عتوها وإعراضها عن أمر الله رجعت المخاطبة إلى النّبي (ﷺ) على جهة التّسلية له عنهم، وخوطب النّبي (ﷺ) بما يتضمن تهديدهم، فشبهوا بالصم والعمى إذ كانت حواسهم لا تفيدهم شيئا، وتوعدهم الله بالهلاك والانتقام في حياة النبي أو بعد وفاته، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾[(١)].

ولمّا كان الرّسول (ﷺ) يحرص على هدايتهم وإسماعهم صوت الحق وإراءتهم طريقه، عمد التّعبير القرآني إلى البدء بالاستفهام الإنكاري، لإنكار أنْ يكون هذا الحرص ناجعا فيهم، وقد كان حال الرّسول (ﷺ) في حرصه هذا كحال مَن يظن أنّه قادر على إيصال التّذكير إلى قلوبهم، لذلك نزل منزلة مَن يظن ذلك، فخوطب باستفهام الإنكار، فالكلام ليس على ظاهره وهو من أمثلة إنكار الحال على سبيل التّمثيل[(٢)]، فكثيرا ما يتطلب مقتضى الحال أنْ يتغاضى البليغ عن الحال الظاهرة ولا سيّما إذا خوطب غير المنكر للخبر أو الحكم مخاطبة المنكر، والمخاطب هنا هو الرّسول (ﷺ) وهو غير منكر لذلك ويعلم تماما أنّ الهداية من الله وحده وبإرادته ولكنْ لفرط حرصه (ﷺ) واهتمامه كان مشقا على نفسه في محاولة هداية الآخرين[(٣)]، ويستند هذا التمثيل إلى تشبيه النّبي (ﷺ) في محاولته هداية الكافرين الذين أصروا على كفرهم

---

(١) سورة الزّخرف: الآيات ٤٠ - ٤٢.

(٢) =: دراسات في البلاغة العربية، عبد العاطي غريب: ٥٩.

(٣) =: مقتضى الحال، مفهومه وزواياه في ضوء أسلوب القرآن الكريم: ١١.

بمَن يحاول إسماع الصّم وهداية العمي، ووجه الشبه أنّ كلا يطلب أمرا لا يحصل[1]. وفي الإنكار الذي يتضمنه الاستفهام، معنى النّفي الذي أصبح واضحا بهذا التّشبيه الحسي الذي يوحي بأنّ النبي (ﷺ) لا يستطيع حيالهم شيئا يرجعهم عن حالهم وكذلك لا يستطيع مع الضّالين المضلين[2]، ولا شكّ في أنّ الاستفهام الإنكاري أبلغ من النّفي الصّريح لأنّك عندما تخاطب المتلقي بالاستفهام الإنكاري فإنّك «لم تفده غرضك وهو تكذيبه أو توبيخه بادئ ذي بدء بل أوقعت في روعه أنّك تطلب منه جوابا فينبه ويرجع إلى نفسه»[3]، وقد سلط الاستفهام على ضمير المخاطب (أنت) فهو المسؤول عنه، والبدء به يفيد الشكّ في المقدم فقط، وقد أفاد تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي قصرا مؤكدا، والمعنى: أنت لا تسمعهم ولا تهديهم بل الله يسمعهم ويهديهم إنْ شاء[4]. كما يوحي هذا التّقديم بالتّخصيص، أي: أأنت بخاصة قد أوتيت قدرة إسماع الصّم وهداية العمي[5]. وقد أفاد أسلوب التّرقي الذي جاءت عليه الآية مع سابقتها في وصفهم بالعشاء ثمّ الصّمم ثمّ العمى أنّ التّمحل والإصرار على الضّلال ينقلب بصاحبه إلى أشدّ الضّلال. وقد جاء وصفهم هذا على سبيل الاستعارة التّمثيلية إذ شبهوا بالصّم والعمي[6]. ثم جاء قوله ﴿ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ تذييلا للآية لأنّه أعم من كلّ من الصّم والعمي، وعلى سبيل الوصل بعطفه بالواو على ما قبله «باعتبار تغاير الوصفين بحسب المفهوم وإنْ اتحدا مآلا، ومدار الإنكار هو التّمكن والاستقرار في الضّلال المفرط الذي لا يخفى»[7]، وقد حقق هذا الوصل تعريضا بمشركي قريش لذلك لم يقل: (أو مَن كان) بل جاء بالواو العاطفة كأنّه تعالى يقول (وهؤلاء) ويؤيد ذلك عود الضمير في قوله: (فأنا منهم) ولم يجر لهم ذكر إلاّ في قوله: (ومن كان)[8].

---

(١) =: أسرار التقديم والتأخير في القرآن الكريم: ٢٧.
(٢) =: أساليب النفي في القرآن الكريم، أحمد ماهر البقري: ٣٠٣.
(٣) دلائل الإعجاز: ١٤٥.
(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢١٦/٢٥.
(٥) =: دلائل الإعجاز: ١٤٦ ومن بلاغة القرآن: ١٦١.
(٦) =: صفوة التّفاسير: ١٦٨/٣.
(٧) روح المعاني: ٨٥/٢٥.
(٨) =: المحرر الوجيز: ٢٢٧/١٣.

والوصف بالكون في الضّلال المبين تنبيه على عموم الأحوال وهو مع ذلك ترشيح للاستعارة، لأن اجتماع الصّمم والعمى أبين ضلالا[١]، وإيثار الإخبار بـ (كان) عن صفة من صفات هؤلاء يفيد التّنبيه على أنّها فيهم غريزة وطبيعة مركبة في نفوسهم[٢]، وتنكير (ضلال) يفيد التّكثير، وإرادة النّوع ولا سيّما بعد وصفه بـ (مبين) بصيغة اسم الفاعل بدلا من (بين) فكأنّه يكشف عن نفسه ويظهر انحرافه لِمَن ينظره[٣]. ثمّ يأتي الخطاب المتضمن للتهديد والممتزج بتسلية النّبي (ﷺ) وتثبيته وذلك في قوله تعالى ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ باستعارة الذهاب للتوفي، وقد أكد الخبر بنون التوكيد و(إنّ) وتقديم (منهم) ليكون التّهديد أكثر تهويلا، فضلاً عن إيثار كلمة (منتقمون) بصيغة اسم الفاعل في الاستقبال للدلالة على ثبات الانتقام ودوامه، وحذف الجواب لقصد التهويل، والتّقدير: ترَ انتقاما لا يفلتون منه[٤]، وقدم (منهم) و(عليهم) للاهتمام بهم في التّمكن بالانتقام والاقتدار عليهم، فالتقديم هنا ملازم للتخصيص، وهو طريق من طرق القصر، وفائدته تكون في لفت النّظر، وتأكيد المعنى، والتّأثير في النّفس، فضلاً عن الجمال التّعبيري[٥]. وأوثر التّعبير عن هلاكهم بالوعد لا بالوعيد لأنّه ههنا في معناه، لأنّ الوعد إذا ذكر مفعوله انصرف إلى الخير والشّر وإذا لم يذكر انصرف للخير، كما أوثر أسلوب التّرديد بـ (أو) في هذا الشّرط ليفيد تعميم الحالين، حال حياة النّبي (ﷺ) وحال وفاته، وليؤكد تحقق ما يوعدون به، وفي ذلك إكرام للنبي في مقام التّسلية، وزيد هذا الإكرام بأنّ الله أوقع النّقمة عليهم بعد وفاته (ﷺ).

وهكذا نجد أنّ التّرديد الذي جاء عليه نظم الآية كان جزءا من التّرهيب القرآني إذ أكد تحقق وقوع الانتقام منهم وأخفى زمنه وأشار إلى قربه ليكون ذلك أكثر تهويلا في نفوس الكافرين.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويستكمل خطاب التّهديد في سورة الزّخرف، فبعد وعيدهم بالانتقام منهم في

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢١٧/٢٥.

(٢) =: البرهان في علوم القرآن: ١٢٣/٣ - ١٢٤.

(٣) =: خطاب الأنبياء في القرآن الكريم: ٥١.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢١٨/٢٥.

(٥) =: التّعبير الفني في القرآن: ٢٧٩.

حياة النبي أو بعد وفاته، خوطب النبي (ﷺ) بتركهم على ما هم عليه من الضّلال والغفلة والجدل إلى أنْ يحين اليوم الذي وعدهم الله العذاب به، وذلك في قوله تعالى ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[١].

تبتدئ الآية بفعل الأمر (ذرهم) ليفيد التّهديد، ووصف ما هم عليه من الباطل بـ (الخوض) على سبيل الاستعارة المكنية، فاصل الخوض الشّروع في الماء «وكلّ خوض ذمه الله تعالى في القرآن فلفظه مستعار من خوض الماء»[٢]، وقد أمر الرّسول (ﷺ) بالإعراض عنهم في حال خوضهم في الأحاديث ولعبهم في مواقف الجد حين يهزؤون بالإسلام[٣]. وقد حققت إضافة (يوم) إلى ضمير الكافرين على سبيل الغيبة تخصيص ما سيقع فيه لهم وقصره عليهم، ووصفه بالاسم الموصول (الذي) أفاد تعظيمه ليكون أدخل في تخويفهم وقد توعدهم الله بعذاب الدنيا والآخرة، فيجوز أنْ يكون المراد باليوم يوم القيامة، أو يوم بدر الذي نصر الله فيه المسلمين على الكافرين، فكانت الآية بهذا النّظم جزءا من خطاب التّهديد والوعيد، فضلاً عمّا فيها من إظهار صفة الكافرين وهي أنّهم لا تجدي معهم الحجة، والأولى تركهم بما هم فيه حتى يلاقوا العذاب.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي آية أخرى من سورة الزّخرف يخاطب النّبي (ﷺ) بمتاركتهم أيضاً والأعراض عنهم وتهديدهم بأنّهم سيعلمون حقيقة ما يدعو إليه ويعلمون صدق ما يعدهم الله به من العذاب، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[٤].

وأوّل ما يلحظ من فنون البلاغة في الآية الكريمة أنّها ابتدأت بالالتفات لأنّ الكلام كان جاريا على أسلوب الخطاب، ويحسن هذا الالتفات أنه حكاية لشيء في نفس الرّسول فجعل الرّسول (ﷺ) بمنزلة الغائب لإظهار أنّ الله لا يهمل نداءه وشكواه،

(١) سورة الزّخرف: الآية ٨٣.

(٢) النكت في إعجاز القرآن: ٩١.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٦٧.

(٤) سورة الزّخرف: الآيتان ٨٨ و٨٩.

فضلاً عن أنّ إضافة القيل إلى ضمير الرّسول (ﷺ) مشعرة بأنّه تكرر منه النّداء والقول وعرف به عند ربّه[١].

وابتدأت الآية بالواو التي يمكن أنْ تكون للعطف فيكون المعنى: وعنده علم السّاعة وعلم قيله[٢]، أو أنْ تكون للقسم وقوله: (إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون) جوابه، وفي الأقسام به رفع لشأن الرّسول (ﷺ) وتفخيم دعائه والتجائه إليه[٣]، وكأنْ قيل: أقسم بقيله يا ربّ، أو وقيله يا ربّ[٤]. وقد أكد الخبر بـ (إنّ) وزيد تأكيدا بذكر كلمة (قوم) للدلالة على أنّ عدم الإيمان والإصرار على الضّلال أصبح من مقومات قوميتهم، وصيغة المضارع (يؤمنون) تفيد استمرار نفي الإيمان عنهم وتجدد الضّلال في نفوسهم، والإشارة بـ (هؤلاء) تناسب مقام التّهديد، وتوحي بتحقير شأنهم.

وعلى كثرة ما نودي الرّب في القرآن الكريم إلاّ أنّه لم يعثر عليه مسبوقا بحرف النداء إلاّ في هذه الآية وخصوصية ذلك هي التّعبير عن حالة نفسية آلمت بالرسول (ﷺ) وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم فلم يزدهم ذلك إلاّ تماديا في الكفر، وكأنّما شعر عندها بتخلي الرّب عن نصرته وبعده عن مساعدته، فأتى بحرف النّداء للبعيد كأنّما يريد أنْ يرفع صوته زيادة في الضّراعة إلى الله واستجلاب رضاه[٥]. فيأتي الجواب، وهو الأمر بالصّفح عنهم وتركهم والإعراض عنهم، وأنْ يقول لهم: (سلام) لا تحية بل موادعة وتركا، وهو ما يناسب مقام التّهديد والآمر بالإعراض، وأوثر في وعيدهم (سوف) لأنّها أوسع زمانا من السّين نظرا إلى أنّ كثرة الحروف تدل على كثرة المعاني[٦]، فختمت الآية بهذا تهديدا لهم ووعيدا. ولا شكّ في أنّ ما في هذه الآية من الأمر بالإعراض والتّسليم في الجدال والوعيد ما يؤذن بانتهاء الكلام في هذه السّورة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٧٢.

(٢) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/١٢٣.

(٣) =: إرشاد العقل السليم: ٥/٥١.

(٤) =: الكشاف: ٤/٢٦٨.

(٥) =: من بلاغة القرآن: ١٦٩.

(٦) =: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، أبو محمد عبد الله بن هشام الأنصاري: ١/١٣٩.

ويخاطب الرّسول (ﷺ) خطابا آخر فيه تهديد للمشركين ووعيد لهم بالعذاب، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝ ﴾[١].

وهذا الخطاب الذي ابتدأ بالأمر (ارتقب) فيه تثبيت للنبي (ﷺ)، ويوحي هذا الأمر بأنّ إتيان السّماء بالدّخان لم يحصل بعد عند نزول هذه الآية، وهو كناية عن اقتراب وقوعه كما يرتقب القادم من مكان بعيد[٢]، ولا يخفى ما في الفعل (ارتقب) وحذف مفعوله من التهويل لذهاب الوهم في مفعوله كلّ مذهب، ولعلّ المراد ما يحصل من أسباب نصره (ﷺ) وموجبات خذلانهم[٣].

وإسناد إتيان الدّخان إلى السّماء مجاز عقلي لأنّها لا تأتي به بإرادتها وإنّما أضيف لها الفعل لتضخيم الحدث، وليتجه التّفكير نحوه، فالفاعل الحقيقي هو غير ما أسند إليه الفعل، وقد سخرها ربها لتلقي الحدث فهي صاحبته في مناخ قاهر لا عهد لها به، فتتطوع بهذه الأفعال بذاتيتها دون التّلويح إلى الفاعل الحقيقي[٤].

واختلف السّلف في تفسير آية الدّخان بين أنّه دخان يوم القيامة وأنّ التّهديد بارتقابه كالتّهديد المتكرر في القرآن وأنّه آت يرتقبونه ويترقبه الرّسول (ﷺ)، وبين أنّه قد وقع فعلا في الدّنيا كما توعدهم به ثمّ كشف عنهم بدعاء الرّسول (ﷺ)[٥] وقد سميت السّورة باسمه لدلالة آيته على أنّه جزاء غشيان أدخنة النّفوس الخبيثة بصائر قلوب أهلها وأرواحهم[٦].

وقد وصف هذا الدّخان بأنّه (يغشى النّاس) جميعا، يصيب المؤمن منه مثل الزكام وينضج رؤوس الكافرين[٧].

وجاء قوله ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ على سبيل الفصل إذ يقولون عن إتيانه جريا

(١) سورة الدّخان: الآيتان ١٠ و١١.
(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٨٥/٢٥.
(٣) =: نظم الدرر: ١٣/١٨.
(٤) =: مجاز القرآن: ٩٢.
(٥) =: في ظلال القرآن: ٣٢١٠/٥.
(٦) =: محاسن التأويل: ١٤/ ٥٢٩٢.
(٧) =: المحرر الوجيز: ١٣ / ٢٦٥.

على عادة جهلهم: ما هذا؟ فأجيبوا بقوله تعالى حكاية عن لسان الحال أو قول بعضهم أو بعض أولياء الله ﴿ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[١]. والإشارة في (هذا) إلى الدّخان، وقد عدل عن استحضاره بالضّمير (هو) إلى استحضاره بالإشارة لتنزيله منزلة المشاهد تهويلا لأمره[٢]، فضلا عمّا في الإشارة بـ(هذا) من الإيحاء بقرب وقوعه وتحققه.

❖❖❖❖❖

ويتكرر خطاب الرّسول (ﷺ) بالارتقاب، في سورة الدّخان أيضا، إذ تختم بما يلخص جوها العام ويتناسق مع بدئها وخط سيرها، فقد بدأت بذكر تنزيل الكتاب للإنذار والتّذكير، فجاء هذا الختام يذكرهم بنعمة الله في تيسير هذا القرآن، ويخوفهم العاقبة والمصير في تهديد موجز شديد، فكان ما يسمى برد العجز على الصّدر، وذلك قوله (ﷻ) ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩ ﴾[٣]، فأمره بأنْ يرتقب ما وعده من النّصر في حين هم ينتظرون العذاب، وقد أطلق التّعبير القرآني الارتقاب على حال المعاندين على سبيل الاستعارة التهكمية والمعنى أنّهم لاقون ذلك لا محالة، وقد حسن هذه الاستعارة ما تضمنه النّظم من المشاكلة بين (ارتقب) وبين (مرتقبون). ويوحي إيثار صيغة اسم الفاعل (مرتقبون) على الفعل (يرتقبون) بثبوت ما يرتقبونه من العذاب وتحقق وقوعه، فكان ذلك أدخل في تهديدهم ووعيدهم.

❖❖❖❖❖

بعد ذكر جوانب من قصة بني إسرائيل وما أتاهم الله من النّعم التي قابلوها بالاختلاف بينهم وبنكرانها ومخالفة الرّسل، خوطب الرّسول (ﷺ) على سبيل التّسلية والتّثبيت وذكر العظة والاعتبار لقومه إنّ الله سيقضي بينهم يوم القيامة ليظهر الحق وأهله ويخسر الكافرون، وذلك في قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[٤].

فقد جاءت الآية على سبيل الفصل استئنافا بيانيا لأنّ ذكر تلك الأحوال يثير

(١) =: نظم الدرر: ١٤/١٨.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٨٩/٢٥.

(٣) سورة الدّخان: الآية ٥٩.

(٤) سورة الجاثية: من الآية ١٧.

سؤالا في نفس السّامع عن جزاء الله إياهم على فعلهم، فجاءت الآية جوابا فيه إجمال لتهويل ما سيقضى به بينهم في الخير والشّر[١]، وقد أكد الخبر بـ(إنّ) لأنّ القصد فيه تهديد المشركين، وفي إضافة (ربّ) إلى ضمير الرّسول (ﷺ) تشريف له وإيحاء بتأييده وأنّه مثلما سيقضي بين بني إسرائيل يوم القيامة سيقضي بينك وبين قومك بإظهارك عليهم وبيان ضلالهم، وناسب إيثار (يقضي) دون (يحكم) سياق ذكر (يوم القيامة) الذي لا قضاء بعده ولا مقاضاة، ويوحي هذا الفعل بنهايتهم المحتومة التي سيقضى عليهم فيها بعد أنْ كانوا يتنعمون في الدنيا بنعم الله ولا يؤدون حقها من الشكر والطاعة للمنعم، وإيثار ذكر (كانوا) مع صفة الاختلاف يشير إلى أنها كانت غريزة فيهم وطبيعة مركبة في نفوسهم لكنها ستؤول إلى الزّوال والانتهاء والفصل في يوم القضاء.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويخاطب الرّسول (ﷺ) بالأمر بالصبر وعدم استعجال عذاب الكافرين، ويلي هذا الأمر تعليل للنهي عن هذا الاستعجال وقد جاء هذا التعليل تهديدا ووعيدا للكافرين، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٢].

إذ تصف هذه الآية حالهم يوم القيامة وتلخص لهم مسيرة حياتهم بما كان فيها من الملذات وإشباع الرّغبات عبر سنين طويلة، وكأنها عند رؤيتهم العذاب الذي أنكروه ولم يصدقوا مجيئه كأنّها (ساعة) بهذا التّنكير الذي يفيد التّقليل أو التّحقير، ووصفها بـ(مِن نهار) أفاد التّخصيص وزيادة قصر الوقت لأنّ ساعة النّهار تبدو للناس قصيرة لما لهم في النّهار من الشّواغل بخلاف ساعة اللّيل[٣]، وزيد هذا المعنى بإيثار أسلوب القصر بالنّفي والاستثناء ﴿ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً ﴾ وكأنّ حياتهم قد قصرت على ساعة واحدة من ساعات النّهار القصيرة.

وعدل عن ذكر العذاب إلى قوله ﴿ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ تعميما لكل ما وعدوا به من أنواع العذاب، فضلا عن دلالة المضارع على استمرار الرّسول (ﷺ) بوعيدهم

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥ / ٣٤٧.

(٢) سورة الأحقاف: من الآية ٣٥.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٦ / ٢٧.

وإنذارهم طوال حياتهم وهم على الكفر والضّلال ماكثون.

وقوله (بلاغ) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذا) بدليل ظهوره في قوله تعالى ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾[1] وقد يكون المعنى «لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار ذلك لبث بلاغ بمعنى ذلك بلاغ لهم في الدّنيا إلى أجلهم، ثمّ حذفت (ذلك لبث) وهي مرادة في الكلام اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليها»[2].

ويصوغ التّعبير القرآني تهديدهم الآخر بأسلوب الاستفهام الذي أفاد النّفي وهو وعيد وإنذار لهم، وقد حقق العدول عن أسلوب النّفي إلى أسلوب الاستفهام جمالا في النّظم لأنّ الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير، ولمّا كان المسؤول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنّفي كان في توجيه السّؤال إليه حملا له على الإقرار بهذا النّفي وهو أفضل من النّفي ابتداء[3]. والتّعبير بالمضارع في (يهلك) على هذا الوجه لتغليب إهلاك المشركين - الذي لمّا يقع - على إهلاك الأمم التي قبلهم. وتعريف (القوم) أفاد العموم، أي كل الفاسقين من الأمم السّابقة ومِن مشركي مكة وغيرهم، وقد يكون التعريف للعهد، أي القوم المتحدث عنهم في ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ﴾ فيكون قوله ﴿ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ إظهارا في مقام الإضمار للإيماء إلى سبب هلاكهم[4]، فضلا عما في ذكر هذه الصّفة من توبيخ لهم وتقريع وذم، ممّا يقوي جانب التّهديد والوعيد الذي جاءت من أجله الآية.

❖❖❖❖❖

## ثانياً: خطاب الحجاج:

واجه الرّسل (صلوات الله وسلامه عليهم) جميعا عنادا من الكافرين وجدلا كثيرا، على الرّغم من المعجزات الكثيرة التي أيدهم بها الله (ﷻ)، وفي مواقف الجدل التي يعرضها القرآن الكريم، نجد كثيرا من الآيات يخاطب بها الرّسول تلقينا له وتعليما لمواجهة الكافرين في الحجاج وكلّها أدلة دامغة وحجج واضحة، وتتنوع طريقة عرض

(١) سورة إبراهيم: من الآية ٥٢.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٦/٢٤.

(٣) =: المعاني في ضوء أساليب القرآن: ١٨٣.

(٤) =: التحرير والتنوير: ٢٦/٦٩.

القرآن لها حسب اختلاف الأحوال، من ذلك قوله تعالى ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾[١].

يخاطب الرّسول (ﷺ) بأنْ يحاجج الكافرون بإنكار كفرهم على طريقة الاستفهام المتضمن إرشادهم إلى الحق، وقد جاء في ذلك تذكيرهم بالأدلة الدّالة على وحدانية الله تعالى على سبيل الإدماج، وفي الاستفهام والإنكار توبيخ لهم على إشراكهم بالله مع وضوح دلائل تفرده بالخلق، وقد بدأت الآية بالتّوكيد بـ (إنّ) و(اللام) تشويقا لتلقي ما بعد ذلك وإيحاء بأنّ أمرا مهما سيلقى إليهم، فضلا عن أثر التّوكيد في التّوبيخ والإنكار. وصيغة المضارع في (تكفرون) لإفادة التّجدد والاستمرار على الرّغم من وضوح الدلائل وهو ما يناسب التّوبيخ الذي يقتضي الإقلاع عن الكفر[٢]، وإيثار الاسم الموصول (الذي) أفاد التّعظيم، وفي عرض دلائل القدرة يؤثر التّعبير القرآني أسلوب التّرقي، فيبدأ بذكر خلق الأرض لأن أثاره أظهر للعيان وهي في متناول الإنسان وهذا ممّا يعمق التّوبيخ وأثره فيهم، إذ يغفل الكافرون عن أقرب دلائل القدرة عليهم، في حين ذكر خلق السّماء قبل خلق الأرض في سورة النّازعات، الآيات (٢٧ - ٣٠) وقد ورد تفسير ذلك في إجابة ابن عباس عن سؤالات نافع ابن الأزرق[٣]. كما أوثر التّرقي في ذكر صفة الكافرين، إذ عمم الكفر أوّلا ثم خصص بنوع الشرك، فقال أوّلا: (لتكفرون) ثمّ جاء قوله ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ على سبيل الوصل تمييزا لكفرهم وزيادة في توبيخهم إذ اقتضى الوصل أنْ يكون مضمون هذه الجملة مستقلا بذاته، فالعلاقة بين الجملتين علاقة اشتراك في الحكم العام والصلة بينهما صلة تعاطف بين جزئي

---

(١) سورة فصلت: الآيات ٩ - ١٢.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤١/٢٤.

(٣) =: محاسن التأويل: ١٧٢/١ - ١٧٣.

المعنى، مع تميز كلّ جزء من الجزءين واستقلاله بموضعه من المعنى العام، ذلك أنّ الكفر بالخالق موصول باتخاذ الشّركاء واصطناع الأنداد، ولكنْ قد يكون أحد هذين الأمرين ولا يكون الآخر، ولو أسقط حرف الوصل لكان المعنى إنّ اتخاذ الأنداد والشّركاء تفسير وتبيين للكفر فلا يكون للجملة الثّانية كيان مستقل[١].

وقد أوثرت كلمة (أندادا) دون (أمثالا) أو(أشباها) لأنّ البيان القرآني لم يرد لما جعله المشركون أندادا لله أنْ يعطيها صفة المماثلة له سبحانه أو المشابهة[٢]، فضلا عن أنّ الندّ هو المثل المناد، من قولك ناد فلان فلانا إذا عاداه وباعده ولهذا سمي الضد نداً[٣]. ثم زيد التعظيم الذي أفاده (الذي) بتعظيم آخر إفادته الإشارة في قوله ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فاسم الإشارة يوحي ببعده عن إشراكهم وعلو منزلته وأنّ من كانت هذه دلائل قدرته هو المستحق للعبادة وهو ربّ العالمين، ولذلك أوثر أنْ تأتي هذه الجملة على سبيل الفصل لاستقلال حكمها وظهوره على ما بعده وما قبله ظهور المشرف المتمكن.

ويستكمل الحديث عن خلق الأرض وما في ذلك من دلائل القدرة فتوصف بأنّ الخالق قد جعل فيها ﴿ رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ وفي هذا الوصف استحضار للصورة الرّائعة لمناظر الجبال، وفي ذكر قوله تعالى ﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا ﴾ زيادة في المنة التي تقوي خطاب الحجاج، فضلا عن قوله ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ الذي يوحي بهذه النّعم العظيمة، وجمع الأقوات مضافا غالى ضمير الأرض يفيد العموم، فهي أقوات جميع البشر وأرزاقهم أضيفت إليها من حيث هي فيها وعنها، وقيل هي أقوات الأرض من الجبال والأنهار والأشجار والصّخور والمعادن والأشياء التي بها قوام الأرض ومصالحها[٤]، وكلّ شيء بقدر وفي ذلك فضل ونعمة تستوجب الشّكر والطّاعة لا الحجاج والجدل.

ويستمر النّظم القرآني بأسلوب التّرقي في الحجاج، فبعد أنْ بدأ بذكر خلق الأرض وما فيها وعليها، انتقل إلى ذكر خلق السّماء في الآية الأخرى، فابتدأ بـ(ثمّ)

---

(١) =: نحو المعاني: ٩٧.

(٢) =: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: ٣١٥.

(٣) =: الفروق في اللغة: ١٤٧.

(٤) =: المحرر الوجيز: ٨٣/١٣.

لتدل على أنّ مضمون الجملة المعطوفة أهم مرتبة من مضمون الجملة المعطوف عليها، فخلق السّماء أعظم من خلق الأرض وعوالمها أكثر وأعظم[١]. فمتى أراد القرآن الارتقاء في المعنى بأنّ يجعله أشد استغرابا عمد إلى الربط بـ(ثمّ)[٢]. والاستواء هنا القصد، والقصد من جانب الله تعالى هو توجه الإرادة[٣]، والاستواء هنا بمعنى (علا وارتفع) حقيقة بما يناسب ذاته سبحانه وتعالى. وقوله ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ أي مثل الدّخان، على سبيل التّشبيه البليغ، وتفسير الإتيان على وجهين:

**الأوّل**: أنْ يكون مستعارا لقبول التّكوين، فمعنى (ائتيا) امتثلا أمر التّكوين وهذا الامتثال مستعار للقبول وهو من بناء المجاز على المجاز.

**الثّاني**: أنْ تكون الجملة تمثيلا لهيئة تعلق قدرة الله لتكوين السّماء والأرض بهيئة صدور الأمر من أمر مطاع، والمقصود من كلا الوجهين تصوير عظمة القدرة الإلهية[٤].

وممّا يتناسب وسياق بيان دلائل القدرة قوله ﴿ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ والذي جاء كناية عن حتمية قبول الأمر أو تمثيلا لتمكن القدرة من إيجادهما على وفق إرادة الله فضلا عمّا بينهما من الطباق. ويأتي امتثالهما في ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ على سبيل الاستعارة المكنية للإيحاء بسرعة امتثال المأمور المطيع دون تردد. وجمع ﴿ طَآئِعِينَ ﴾ لأنّ لفظ السّماء يشتمل على سبع سماوات، فالامتثال صادر عن جمع وأوثر جمع العقلاء ترشيحا للاستعارة المكنية ولأنّه أراد: ائتيا بمن فيكم من الخلائق طائعين، وجاء مذكرا لأن تأنيثهما ليس حقيقيا[٥].

وهكذا شخص التعبير القرآني دعوة السماء والأرض في الاستجابة طائعة لله بهذا التصوير الذي أضفى عليها سمات الحياة، فكان التّشخيص إحدى الوسائل البارزة في القرآن، والمهمة في إيصال المعاني بغية تحقيق أهدافه وأغراضه الدّينية.

وتتجلى في ذلك سمة أخرى من سمات الاستعارة القرآنية حيث أضفت الحياة

---

(١) =: التحرير والتنوير: ٢٤٥/٢٤.

(٢) =: قضايا اللغة في كتب التفسير: ٥٢٥.

(٣) =: في ظلال القرآن: ٣١١٤/٥.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤٧/٢٤.

(٥) =: م. ن: ٢٤٨/٢٤.

على الجماد الأصم، فجعلتنا نراه يتكلم ويجيب بالطاعة لله، فالتّشخيص في الصّورة الاستعارية له أثره في المخاطب فكرا وشعورا في توصيل الدّلالة الفكرية التي يتوخاها القرآن والتي تتمثل في ملمحين: **الأوّل**: تصوير عظمة الله وسلطانه على الكون، ودعوة الإنسان ليستشعر هذه العظمة التي تحثه على الطّاعة لله كما استشعرها الكون فانقاد مطيعا. **والثّاني**: إيحاء الصّورة على فكرة التّآلف والانسجام بين الكون والإنسان من حيث الطاعة والاستجابة لله فإذا كان الكون منقادا مطيعا فأولى بالإنسان أنْ يستجيب ويطيع لأنّه قد تحمل الأمانة التي أبت حملها السّماوات والأرض وأشفقت[(١)]. ويتجلى في كلّ ذلك إعجاز البيان القرآني، إذ لا يكتفي بأنْ ينطق الجماد والأصم فحسب، بل يجرد منه كذلك شخصية حية، فاعلة ناطقة، مريدة مدركة[(٢)].

وتأتي الآية الأخرى لتستكمل عرض القدرة الإلهية في سياق خطاب الحجاج، فتبدأ بأسلوب التّضمين، حيث تضمن قوله: (قضاهن) معنى صيرهن، وقوله ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ أي: بث فيها مابه نظامها وشأنها وحالها فعدى الفعل بـ(في) الظرفية التي تدل على التّمكين[(٣)]، والذي ناسبه التّذييل في قوله: (ذلك تقدير العزيز العليم)، كما أوثر الفعل (أوحى) ليزيد من الإيحاء بهذا التّمكين والقدرة الإلهية العظيمة، إذ لم يكن هذا الخلق العظيم بالنسبة لقدرة الخالق إلاّ وحيا أوحى به فكان.

ومِن أوجه الإعجاز البلاغي في نظم الآية الالتفات من الغيبة إلى التّكلم في قوله ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ إذ حقق الالتفات دلالات كثيرة، منها أنّه جاء تجديداً لنشاط السامعين لطول استعمال طريق الغيبة، ومنها إظهار العناية بتخصيص هذا الصّنع الذي ينفع الناس دينا ودنيا وهو خلق النّجوم الدّقيقة والشّهب بتخصيصه بالذّكر من بين عموم ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ إذ إن السّماء الدّنيا من جملة السّماوات، والنّجوم والشّهب من جملة أمرها[(٤)]. ومنها أنّه أخبر عن نفسه تكذيباً لمَن أنكر ذلك، وقيل: أراد

---

(١) =: الاستعارة في القرآن الكريم: ١٣٧و٢٣١.

(٢) =: التفسير البياني للقرآن الكريم: ١/٨٣.

(٣) =: م. ن: ١/٨٦.

(٤) =: التحرير والتنوير: ٢٤/٢٤٩ - ٢٥٠.

الإخبار مطلقا من غير قصد مدة خلقه فهو لم يقصد بيان مدة التّزيين بخلاف ما قبله[١]، ومنها إنّ الالتفات تذكير للناس بأنّ الله تعالى هو خالق هذا الجمال وهو آية عملية على وحدانية الله الذي زين هذه السّماء[٢]. وفي هذا الالتفات لطيفة أخرى وهي «أنّ طائفة من النّاس غير المتشرعين يعتقدون أنّ النّجوم ليست في سماء الدّنيا وأنّها ليست حفظا ولا رجوماً، فلما صار الكلام إلى هاهنا عدل به عن خطاب الغائب إلى خطاب النّفس لأنّه مهم من مهمات الاعتقاد، وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه»[٣]، فضلا عن أنّ في الالتفات إلى نون العظمة إظهارا لمزيد العناية بالأمر، فكأنه لفت إلى الموضع الذي تؤخذ منه العبرة وتدنو به الحقيقة الدالة من القلوب المعتبرة[٤].

وأوثر الفعل (زيّنا) لتكتمل هذه الصّورة الجمالية الدّالة على بديع صنع الله وقدرته، وعبر عن النجوم بـ(مصابيح) على سبيل الاستعارة لما يبدو من نورها، ولم يكن ذلك للزينة فحسب وإنّما كانت (حفظا) للسماء من الشّياطين المسترقة للسمع[٥].

وفي هذه الصّورة الاستعارية التي ابتدأت بالالتفات محسن الاحتباك إذ «حذف فعل الحفظ بدلالة المصدر، ومصدر الزينة بما دل عليه من فعلها»[٦]. ولا يخفى ما في ذلك من الإيجاز البديع. وختمت الآيات بالتّذييل في قوله ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ فهو الذي وضع كلّ شيء على مقدار معين، لأنّه العليم بكلّ ما يحتاج هذا الكون من تقدير، والعزيز: المتمكن من كلّ ذلك، فهل بعد هذا جدال وحجاج؟

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وإذا كان القرآن الكريم في الآيات السّابقة قد جاء بخطاب الحجاج على سبيل التّرقي، فإنه في موضع آخر يأتي به مبتدئا بالحجة التي تلجم الخصم، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٩ ﴾[٧] إذ

---

(١) =: البرهان في علوم القرآن: ٣/٣٢١.
(٢) =: فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم: ١٤٨.
(٣) المعاني في ضوء أساليب القرآن: ٢٦٧.
(٤) =: خصائص التراكيب: ٢٠٠.
(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/٢٥١.
(٦) نظم الدرر: ١٧/١٥٧.
(٧) سورة الزّخرف: الآية ٩.

يبدأ الحجاج من اعترافهم ثمّ يخطو بهم إلى الخطوات التالية لهذا الاعتراف، وأي حجة أقوى من ذلك؟

ولا شكّ في أنّ توجيه الخطاب للرسول (ﷺ) والإعراض عن مخاطبتهم مباشرة فيه توبيخ لهم وزيادة إنكار لشركهم، كما أنّه يتضمن التّعجيب من حالهم، والاحتجاج هنا ينصب على بطلان الإشراك فيبدأ بإقرارهم الضمني: أنّ أصنامهم خالية عن صفة استحقاق أنْ تعبد[1]. وقد جاء الخبر مؤكداً بـ(اللام) الموطئة للقسم، ولام الجواب، ونون التّوكيد، لتحقيق أنّهم يجيبون بذلك، تنزيلا لغير المتردد في الخبر منزلة المتردد، فيكون هذا التّنزيل كناية عن استحقاق حالتهم بالتّعجيب، وقد تكرر الفعل (خلق) لتوكيد إقرارهم بخلقهن وخالقهن، وهذا أشد إنكارا لحالهم وادعى لزيادة عقوبتهم لأنّهم عبدوا بعض مخلوقات الله وجعلوها شريكة له. وعدل عن الاسم العلي إلى الصّفتين (العزيز العليم) زيادة في إفحامهم بأنّ الذي انصرفوا عن توحيده بالعبادة عزيز عليهم، وأوثرت هذه الثّنائية بالذّكر لأنّها مضادة لصفات الأصنام إذ لا عزة لها ولا علم[2]، بل ليس لها أي شيء، وذكر الصّفتين هو من كلام الله وليس من كلامهم، وفي ذلك زيادة إنكار لهم وتوبيخ، لأنّه يعلمهم أنّ الله الذي يعترفون بأنّه خالق السّموات والأرض هو (العزيز العليم).

❖❖❖❖❖

ويتوالى خطاب حجاج الكافرين فيما هم عليه من الشّرك، ويوجّه الرّسول (ﷺ) أنّ يجادلهم بحجة أخرى تفنّد ما يدعون، وذلك في قوله تعالى ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[3].

عندما ادعى الكافرون بنوة الملائكة لله تعالى، جاءت هذه الآية ردا على ذلك على سبيل الحجاج، وقد خرج الكلام هنا مخرج الشّك للمبالغة، والمعنى: قل يا محمد إنْ كان لله ولد فأنا أول مَن يعبد ولده، ولكنْ يستحيل ذلك، وهذا مبالغة في الاستبعاد، أي

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٦٧/٢٥.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٦٨/٢٥.

(٣) سورة الزخرف: الآيتان ٨١ و٨٢.

لا سبيل إلى اعتقاده، فضلا عن أنّه ترقيق في الكلام، وتلطف، وقيل: إنّ (إنْ) هنا بمعنى (ما) والمعنى، ما كان للرّحمن ولد، وقيل: هي للشرط وهو الأجود[١]، «والشّرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز»[٢] ولا سيّما أنّ الآية قد وردت على سبيل الفرض والتّمثيل، والهدف هو المبالغة في نفي الولد مع تمكن النّاطق بها على دحض أية شبهة بقدم ثابتة في باب التّوحيد[٣]، وأوثرت (إنْ) دون (إذا) لأنّها تستعمل في الشّرط غير المتوقع حصوله، ويرجح ابن جرير الطبري معنى الآية بقوله: «والصّواب: قل يا محمد لمشركي قومك الزاعمين أنّ الملائكة بنات الله إنْ كان للرحمن ولد فأنا أوّل عابديه وأولى بذلك منكم ولكنّه لا ولد له فأنا أعبده بأنّه لا ولد له ولا ينبغي أنْ يكون له»[٤]. ويذهب الرماني إلى أنّ نظم الآية جاء على سبيل إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل والمظاهرة في الحجاج[٥]. ولا يخفى أنّ فائدة الرّبط بالشّرط في الآية هو استلزام إحدى القضيتين للأخرى، فلو كان له ولد سبحانه لكان الرّسول (ﷺ) أول العابدين فلمّا لم يكن له ولد ولم يعبده الرّسول فعليكم أيّها المشركون أنْ تعبدوه وتتركوا عبادة الأصنام.

وجاءت الآية الثّانية على سبيل التّذييل لأنّها نزهت الله عن جميع ما يصفونه به، والتعبير عن صفات الله بـ (ربّ السّموات والأرض ربّ العرش) يوحي بعظمته وقدرته، فتدرك النّفس أنّ صانع هذا كلّه لا يكون له شبه بالخلق الذين يلدون وينسلون، فتفضح أقوالهم وتبدو لهوا ولعبا وخوضا وتقحما لا يستحق الجدل بل يستحق الإهمال والتّحذير[٦]، وهو ما جاءت به الآيات الأخرى.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويلجمهم القرآن مرة أخرى، ويبدأ بحجاجهم من اعترافهم بالخالق (ﷻ) وذلك

---

(١) =: الجامع لأحكام القرآن: ١١٩/١٦.
(٢) =: تفسير القرآن العظيم ١٣٦/٤.
(٣) =: الكشاف ٢٦٦/٤.
(٤) جامع البيان في تفسير القرآن: ٦١/٢٥.
(٥) =: النكت في إعجاز القرآن: ١٠٥.
(٦) =: في ظلال القرآن: ٣٢٠٣/٥.

في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[1].

فالتّعبير القرآني يواجههم بمنطق فطرتهم، وبما لا يجادلون فيه ولا يشكون، وهو أنّ الله خالقهم، فكيف يشركون معه أحدا في عبادته؟ وكيف يصرفون عن الحق الذي تشهد به فطرتهم ويحيدون عن مقتضاه المنطقي المحتوم؟ وقد أكد أنّهم يقرون بأنّه الخالق فقال: (ليقولن)، فهذا التّوكيد كاف في إثبات سفاهة رأيهم وما هم عليه من الشّرك، والخطاب هنا قد يكون للنبي (ﷺ) أو لغير معين. أمّا قوله: (فأنى يؤفكون) ففيه الإنكار والتّعجيب من انصرافهم عن عبادة الله إلى عبادة إلهة أخرى، فهو استفهام تعجبي وإنكاري، وبني الفعل للمجهول زيادة في هذا الإنكار واستجلابا للتوبيخ والذّم، إذ لم يصرفهم صارف وإنّما هم صرفوا أنفسهم عن عبادة الخالق[2]، فكان هذا الحجاج ملجما لهم بما فيه من الإنكار والتّعجيب والتّوبيخ.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويعرض التّعبير القرآني عن خطاب الكافرين في الحجاج ويتوجه إلى خطاب الرّسول (ﷺ) ليكون ذلك أشد توبيخا لهم وإنكارا لحالهم ويجمل ما تضمنته الآيات من حجج ودلائل قدرة عظيمة في إيجاز يشير إليها في قوله تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾[3].

فقد تضمنت الآيات من (٣ – ٥) ذكر بعض الآيات الكونية ودلائل القدرة العظيمة التي من شأنها أنْ توقظ العقول وتلمس القلوب، فهي آيات ظاهرة لهم يرونها بأعينهم، وهي آيات تتلى في القرآن حقا ويقينا ثابتا فما بال هؤلاء لا يوقنون.

وتشير الآية بـ (تلك) إلى ما سبق ذكره، أو إلى حاضر في الذّهن، والمعنى: تلك آيات الله المنزلة في القرآن. وإيثار (تلك) دون غيرها للتعظيم، وأضيفت (آيات) إلى اسم الجلالة لأنّه خالقها، وهو ما يناسب مقام الحجاج، ومعنى كون هذه الآيات متلوة، أنّ في ألفاظ القرآن المتلوة دلالة عليها، وإسناد التلاوة إلى الله مجاز عقلي لأنّ القرآن

---

(١) سورة الزّخرف: الآية ٨٧.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥ / ٢٧١.

(٣) سورة الجاثية: الآية ٦.

كلام الله الدال على تلك الآيات[١]. وقوله (بالحق) احتراس وإلجام لما في نفوسهم من شك فضلا عن تناسب هذا الاحتراس مع سياق الحجاج، والاستفهام (فبأي حديث) مستعمل في التأييس والتعجيب، وفيه حذف تقديره: بعد حديث الله أي بعد سماعه، وقدم اسم الجلالة (الله) على (آياته) للمبالغة والتعظيم[٢]، فكان هذا التّعجيب والإنكار الضّمني وجها من وجوه خطاب الحجاج بما فيه من توبيخ للمشركين.

❖❖❖❖❖

وفي سياق الحجاج الذي تضمنته سورة الجاثية، وبعد قول الكافرين ﴿ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[٣] يوجه القرآن خطابه إلى النّبي (ﷺ) ليذكرهم - على سبيل الحجاج - أنّ الله بيده الإحياء والإماتة وبيده جمع السّابقين واللاحقين في يوم القيامة، وليكون هذا الخطاب عاما وشاملا لكلّ النّاس في كلّ زمان ومكان وخالدا إلى يوم القيامة يتدبره النّاس فيتعظ من يتعظ ويعرض الخاسرون، وذلك في قوله تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[٤].

وفي توجيه النبي (ﷺ) ليقول ذلك لهم، رد وإلجام لمقالتهم التي طلبوا فيها أنْ يأتيهم بآبائهم قبل الموعد الذي قدره الله، لكي يقتنعوا بصدقه وبقدرة الله على إحياء الموتى في يوم الجزاء، ولا يخفى ما في مقالتهم من جهل، أليس الله ينشئ الحياة أمام أعينهم على وفق سنة إنشاء الحياة؟ فما طلبوه يتكرر كلّ يوم أمام أعينهم، هو الذي يحيي، وهو الذي يميت، فهو الذي يحييكم بعد كونكم نطفا أمواتا، ثمّ يميتكم بقدرته لا الدهر هو الذي يميتكم، ثمّ يحييكم ويجمعكم يوم القيامة كما أحياكم في الدّنيا. وتقدم لفظ الجلالة (الله) على المسند الفعلي ليفيد تخصيص الإحياء والإماتة به وقصرها عليه لإبطال قولهم: إنّ الدّهر هو الذي يميتهم[٥].

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥ / ٣٣٠.

(٢) =: محاسن التّأويل: ٥٣١٩/١٤.

(٣) سورة الجاثية: من الآية ٢٥.

(٤) سورة الجاثية: الآية ٢٦.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٣٦٥/٢٥.

وتقديم الإحياء على الإماتة يتناسب مع سياق الحجاج والرّد على ما قالوا من قبل. وإيثار صيغة المضارع تفيد التّجدد والاستمرار ممّا يزيد من بيان دلائل القدرة العظيمة ووضوحها أمامهم. ولا يخفى ما بين (يحييكم) وبين (يميتكم) من طباق، وقوله: (لا ريب فيه) احتراس أفاد التّوكيد في سياق الحجاج، وأوثر (الرّيب) على (الشّك) لأنّ الشّك أضعف منه ولو لم يكن كذلك لما وصف (الشّك) في ست آيات بـ(مريب)[١]، فاختيار الأقوى يتناسب مع سياق الحجاج.

ثمّ جاء قوله ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ على سبيل الوصل ليكون المعنى: ولكن ارتياب كثير من النّاس فيه لأنّهم لا يعلمون دلائل وقوعه[٢]. فكان ذلك توبيخا لهم ولأمثالهم ممّن لا يدركون حقيقة قدرة الله في الإحياء والإماتة، وقدرته على البعث، وممّا يلحظ أنّ خطاب الحجاج غالبا ما يقدم الحجة أو الدّليل الذي يلجم الخصم ويرد مقالته، ثمّ يسوق موطن العبرة والعظة لمَن تفكر وتدبر، ويضمن ذلك إنكارا وتعجيبا وتوبيخا ليستكمل بها قوة الحجاج في إلجام الكافرين.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ومع عناد الكافرين وإصرارهم على الشّرك ومحاربة الرّسول (ﷺ) يتوالى خطاب الحجاج، فها هم يقولون عن الحق الذي جاء أنّه (سحر مبين)، ثمّ يطلقون مقولة أخرى وادعاء قبيحا آخر لا يستند إلى شبهة أو دليل فيتهمون الرّسول (ﷺ) بأنّه افتراه. فينكر القرآن ذلك:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾[٣].

فلا يعرض التّعبير القرآني مقالتهم في صيغة الخبر بل في صيغة الاستفهام الإنكاري ليوحي بأنّ هذا القول لا يمكن أنْ يقال، ويلقن الرّسول (ﷺ) أنّ يرد عليهم بأدب النّبوة، وفي رده تحذير وترهيب، وإطماع وتخصيص، يأخذ على القلب مسالكه، ويلمس أوتاره، ويشعر السّامعين أنّ الأمر أجل من مقولاتهم الهازلة، وادعاءاتهم

(١) =: مَن بديع لغة التنزيل: ١١.
(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/ ٣٦٥.
(٣) سورة الأحقاف: الآية ٨.

العابثة[١].

وتبتدئ الآية بـ (أَمْ) للإضراب الانتقالي من حكايتهم السّابقة إلى ما هو أشنع منها، والاستفهام للإنكار على مقالتهم، بأنّه افتراه، أي اختلقه، وفي الإنكار تعجيب أيضا، فيأتي التلقين في سياق خطاب الحجاج على سبيل إرخاء العنان أو إخراجه مخرج الشّك للمبالغة في الحجاج، والتّمكن من إلجام الخصم، فيؤثر التّعبير القرآني (إنْ) على (إذا) لأنّها تستخدم في الشّرط الذي لا يتوقع حصوله، وقوله: (إنْ افتريته) جاء على وفق هذا الأسلوب على سبيل الفرض، وجواب الشّرط ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي لا تقدروا أنْ تردوا عني عذاب الله فكيف افتري على الله لأجلكم[٢]، وفي ذلك تهكم بهم إذ أسند فعل (الملك) لهم وهم لا يستطيعون أنْ يدفعوا عنه، ولكنّهم جزموا بأنّه افترى القرآن، فحالهم حال مَن يزعم أنّه يستطيع أنْ يرد مراد الله فاستحقوا هذا التّهكم بهم، فضلا عمّا في ذلك من التّهديد. وتنكير (شيئا) يفيد التّقليل، وتقديم (مِن الله) للتعظيم. وضمير الفصل (هو) أفاد قصر العلم الكامل بتكذيبهم على الله وهو ما يناسب سياق الحجاج. وعبّر عن كذبهم بـ (تفيضون) وهو الخوض في التّكذيب والاندفاع فيه، وصيغة المضارع تفيد التّجدد والاستمرار، وتعلو لغة الحجاج في قوله ﴿ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ ففي ذلك تحذير وترهيب وقوة في إلجام الخصم بعد عرض الحجة، فالله يشهد على كلّ شيء ويعلم الصّدق مِنَ الكذب.

وتختم الآية بقوله ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ يغفر لمَن تاب منكم وآمن، ويرحم عباده المؤمنين. وفي ذلك استدعاء إلى التّوبة ليكتمل الحجاج بذكر الغرض من سوق الأدلة والبراهين على صدق الرّسول (ﷺ) وإبطال كذب وادعاء الكافرين.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي حجاج آخر يتوجه التّعبير القرآني بالخطاب إلى الرّسول (ﷺ) ليتبع أسلوبا آخر في حجاجهم هو أسلوب التّشكيك لا أسلوب الجزم، على الرّغم من اليقين الجازم بأنّ هذا القرآن من عند الله. ويتضمن هذا الخطاب حجاجا آخر أخرج مخرج

---

(١) =: في ظلال القرآن: ٦/٣٢٥٦ - ٣٢٥٧.

(٢) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٦ / ١٨٤.

الشّك للمبالغة، فضلا عمّا فيه من توقيفهم على خطر ما هم فيه من الضّلال، وفيه تعريض بالكافرين وتوبيخ. وذلك في قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[١].

يعمد التّعبير القرآني إلى البدء في الحجاج على سبيل استدراجهم للوصول إلى الحق، فما أنكروه وادعوه أنه ليس من عند الله ليس بمحال، فلم يكن الرّسول (ﷺ) أوّل النّاس جاء برسالة من الله. فتبدأ الآية بالاستفهام التّقريري للتوبيخ، وفي هذا الاستفهام تنبيه لهم على خطل ما يدعون، وقد أوثر الاستفهام لزعزعة الإصرار والعناد في نفوسهم وإثارة الخوف فيها، والتّحرج من المضي في التّكذيب ولا سيّما بإيثار أسلوب الشّك الذي يدعو المخاطبين للنظر والتّثبت.

ويأتي بعد الاستفهام أسلوب الشّرط (إن كان من عند الله وكفرتم به) أي القرآن، وقد حذف جواب الشّرط الذي دلّ على الجدل والحجاج، وتقديره: أفترون أنفسكم في ضلال[٢]. ويأتي توبيخهم على ما هم فيه من الإنكار على سبيل جناس الاشتقاق في (وشهد شاهد)، فمعجزة القرآن لا يخفى أنّها من عند الله تعالى ولكنّكم كفرتم به على الرّغم من ذلك، وعلى الرّغم من شهادة شاهد من بني إسرائيل على صدق ما جئتكم به وأنتم الذين نزل القرآن فيكم فكان أولى بكم أن تؤمنوا قبل إيمان غيركم من الأمم الأخرى.

وقوله (على مثله) يجوز أنْ يكون كناية عمّا أضيف إليه لفظ (مثل) فيكون لفظ (مثل) بمنزلة المقحم على طريقة قول العرب: (مثلك لا يبخل) والمعنى: وشهد شاهد على صدق القرآن فيما حواه[٣]. ويزيد من توبيخهم في قوله: (آمن)، ولا يخفى ما بينها وبين (كفرتم) من طباق يظهر هذا التّوبيخ ويزيد من قوته فضلا عن قوله: (واستكبرتم) للإيحاء بأنّ الدّافع إلى الكفر هو الاستكبار ولا حجة لهم سواه. وفي الآية احتباك، إذ «ذكر الإيمان أوّلا دليلاً على ضده ثانيا، والاستكبار والظلم وعدم الهداية ثانيا دليلاً

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ١٠.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٩/٢٦.

(٣) =: م. ن: ٢٠/٢٦.

على أضدادها أوّلا، وسرّه أنّه ذكر سببي السّعادة ترغيبا وترهيبا»(١).

وبعد ذكر الاستكبار مقابل أيمان شاهد من بني إسرائيل يتبين ظلمهم وكأنّ جواب الشّرط هنا يعلن اعترافهم بالظلم، فيأتي تذييل الآية بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ على سبيل الفصل لتثبيت معنى جوابِ الشّرط وتوكيده(٢)، ويكون التّذييل حكما عامّا ومثلا ثابتا لهم ولأمثالهم، وقد وصفوا بالظّلم وكأنّه تعليل لذلك الاستكبار الفارغ، وفي هذا الوصف إشعار بعلة الحكم، فعلة الكفر الضّلال، وعلّة الضّلال الاستكبار، وعلّة الاستكبار الظّلم. وفي ذكر (قوم) إيحاء بأنّ الظّلم قد أصبح من مقوماتها لا يفارقهم أبدا لذلك استحقوا هذا الحكم الذي جاء بصيغة نفي المضارع (لا يهدي) للإيحاء باستمرار نفي الهداية وتجدده مدة بقائهم في الضّلال والظّلم.

وهكذا يشتمل الحجاج على الشّك وإرخاء العنان وسوق الدّليل والحجة الدّاحضة والتّوبيخ والتّعريض ثمّ بيان علّة الكفر والضّلال بالتّذييل الذي يقدم العبرة لكلّ معتبر.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويعود التّعبير القرآني إلى حجاجهم فيما هم عليه من الشّرك، فيعتمد أيضا على سوق الأسئلة لهم للتنبيه على خطل رأيهم ووهن عبادتهم، ويحاججهم على سبيل الاستفهام والتّعجيز بقوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾(٣).

فهو تلقين من الله (ﷻ) لرسوله الكريم ليواجه القوم في الحجاج بشهادة كتاب الكون المفتوح، فهو محسوس لا يقبل الجدل والمغالطة. فيبدأ التّلقين بـ(قُل) توبيخا لهم وتبكيتا، وبسؤالهم (أرأيتم) على سبيل الاستفهام التّقريري وهو كناية عن معنى (أخبروني) عمّا تدعون من دون الله، و﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ بأسلوب الأمر

---

(١) نظم الدرر: ١٣٩/١٨.

(٢) =: الفصل والوصل في القرآن الكريم: ٩٧.

(٣) سورة الأحقاف: الآية ٤.

الذي يفيد التّعجيز، وهو كناية عن النّفي لأنّهم إنْ لم يخلقوا من الأرض شيئا فلا تستطيعوا أنْ تروني شيئا[١]. والاستفهام في (ماذا خلقوا) استفهام إنكاري، وقوله: (مِن الأرض) يوحي بإرخاء العنان لهم ف (مِن) للتبعيض، أي: أي جزء أو شيء من الأرض، فنزل معهم في التّعجيز إلى أدنى درجات يأسهم عن تحقيق المطلوب ليبصروا ما هم عليه من الضّلال. ويكرر الإنكار في الاستفهام المقدر بعد (أم)، والمعنى: ليس لهم شرك مع الله في السّماوات، وقد جاء نظم الآية على سبيل الاحتباك، إذ «ذكر الخلق أوّلا دليلا على حذفه ثانيا والشّركة ثانيا دليلا على حذفها أوّلا»[٢]. فقد خصص الشّركة مع ذكر السّماوات مع أنّه لا شركة فيها وفي الأرض أيضا لأنّ القصد إلزامهم بما هو مسلم لهم وظاهر لكلّ احد، وأوثر انتفاء الخلق مع ذكر الأرض لأنّ مخلوقات الأرض مشاهدة للنّاس وأنّه ليس لما يدعونهم من دون الله أدنى عمل في إيجادها، وأمّا الموجودات السماوية فهي محجوبة عن العين لا عهد للناس بظهور وجودها ولا تطورها، فاتبع في حجاجهم هذا سبيل إرخاء العنان أيضا. ولكي لا يدع لانحراف نفوسهم أي سبيل أو حجة يأخذ عليها الطّريق فيطالبها بالحجة والدّليل وذلك بقوله: ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ ﴾ وهو أمر يراد منه التّعجيز، وقد جرى أيضا على طريقة إرخاء العنان والمعنى: إنْ كنتم في شكّ من هذا فقد أمهلتكم حتى تأتوني بعد الاستقراء[٣]. وزيد إرخاء العنان بالتّرديد الذي أوحت به (أو)، فإنْ لم تستطيعوا ذلك ف(إثارة من علم)، بقية من علم ثابت أو أثر ورواية تؤيدكم أو علامة من أسلافكم تعدونها علما في ذلك[٤]. وختم الآية بقوله ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ بإيثار (إنْ) للشرط الذي لا يتوقع حصوله، وليس هناك من كتاب يؤيد شركهم أو يقر بتعدد الآلهة وليس هناك من علم ثابت يؤيد ذلك.

وهكذا يواجههم القرآن بالشّهادة الجازمة، ويأخذ عليهم طريق الادعاء بلا بينة ويوجههم بأسلوب الحجاج إلى رؤية البحث الصّحيح، ليتدبروا في الإجابة عن هذه

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٩/٢٦.

(٢) نظم الدرر: ١٢٤/١٨.

(٣) =: تفسير غرائب القرآن: ٥/٢٦.

(٤) =: م. ن: ٢٦ / ٥.

الأسئلة لعلهم يقفون على علة ما هم فيه من الضّلال.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## ثالثاً: خطاب التّلطف:

يتلون الخطاب القرآني للناس ومِن خلال أمر الرّسول (ﷺ) وتوجيهه على سبيل التّلقين، فمثلما تضمنت بعض الآيات خطاب التّهديد والوعيد، وتضمنت أخرى خطاب الحجاج، نجد آيات أخرى تتضمن خطاب التّلطف ومهادنة المخاطبين ولا سيّما أنّ الدّعوة في عهدها المكي، من ذلك قوله تعالى ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[١]. فهو توجيه للرسول (ﷺ) بأنْ يتلطف في مخاطبة قومه ويبين لهم أنّه مرسل من عند الله لا يطلب منهم مغرما أو أجرا إلاّ أنْ يودوه بأنْ يدفعوا عنه أذاهم وشرهم، وإنْ لم يتبعوه لنبوته، فيتبعوه لصلة القرابة التي بينه وبينهم، والمعنى: لا أسألكم على القرآن جزاء إلاّ أنْ تودّوني وتكفوا أذاكم مراعاة للقرابة، وتعاملوني معاملة الود بدل العداوة، وتسمعوا وتلينوا لما أهديكم إليه فهذا هو الأجر لا سواه[٢].

وقد جاء نظم الآية على سبيل القصر بالنّفي والاستثناء، إذ قصر أجره على مودتهم له. و(في) للسببية، وعبر عن ترك أذيتهم له بـ(المودة) على سبيل الكناية وليتناسب ذلك مع سياق خطاب التّلطف. ولا يخفى ما في قوله ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ من المجاز المرسل بعلاقة المحلية، إذ جعلوا مكانا للمودة ومقرا لها[٣]. والتّعريف في (المودة) للإيحاء بالمودة الكاملة والظّاهرة البينة التي تعرفونها وتنكروها بتوجيه الأذى لي. والاستثناء في(إلاّ) منقطع، والمعنى: لا أسألكم عليه أجرا لكنّي أسألكم المودة في القربى[٤].

وهكذا وضح لهم الحقيقة الغائبة عن أذهانهم وهي أنّه في دعوته لا يريد أية مصلحة دنيوية لقاء دعوتهم إلى الحق، وهو ما أكد عليه بتنكير (أجرا) المفيد للتوكيد

(١) سورة الشّورى: من الآية ٢٣.

(٢) =: في ظلال القرآن: ٣١٥٤/٥.

(٣) =: الجدول في إعراب القرآن: ٣٧/٢٥.

(٤) =: جامع البيان في تفسير القرآن: ١٧/٢٥.

والتّعميم أو التّقليل: أي: أجرا ما[١]. فكان هذا الخطاب تلطفا في الدعوة وتوضيحا لحقائق قد غابت عنهم، وله بالغ الأثر في نفوس مَن يسمع الحق ويدرك غايته.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويمضي القرآن في خطابهم عن طريق توجيه الرّسول (ﷺ) وتلقينه ما يقوله لهم، فبعد أنْ اتهموه بالسّحر والافتراء، عمد التّعبير القرآني إلى تلقينه بعد الحجاج أنْ يخاطبهم خطاب التّلطف، وذلك قوله تعالى ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[٢].

فهو (ﷺ) ليس أوّل الرّسل، فقد سبقته الرّسل وأمره كأمرهم، اختاره الله من البشر لحمل الرّسالة وتبليغها. وقد جاءت الآية على سبيل التّرقي في الرّد عليهم، فبعد أنْ نفى ادعاءهم افتراءه، أوضح لهم أنّه ليس أوّل بشر يوحى إليه، وقوله ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ تتميم لقوله السابق وهو بمنزلة الاعتراض لأنّهم كانوا يسألونه عن مغيبات استهزاء فجاء هذا الرّد على سؤالاتهم تلك. وقدم نفسه عليهم (بي ولا بكم) توكيداً لنفي علمه بالغيب حتى فيما يخص نفسه، وهذا فيما يخص الحياة الدّنيا، وإلاّ فكان لهم أنْ يقولوا: وكيف تدعونا إلى ما لا تدري له عاقبة[٣]؟ لأنّه (ﷺ) يعلم أنّ الفوز للمؤمنين في يوم القيامة، وللكافرين العذاب الأليم.

ويأتي قوله ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ تتميما أيضا على سبيل الفصل، فكلّ ما يدريه هو اتباع الوحي من الله، وأوثرت صيغة القصر هنا بالنّفي والاستثناء بقصر أفعاله (ﷺ) على اتباع الوحي، وللتوكيد بأنّه لا يعلم شيئا من المغيبات التي يسألون عنها. وتتكرر صيغة القصر هذه في قوله ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ على سبيل القصر الإضافي وهو قصر قلب تأكيدا لذلك المعنى الذي توالت على توضيحه وتأكيده الجمل السّابقة أيضا، وقصر نفسه على صفة (نذير) أوحى بالمبالغة في الرّد على قولهم: (افتراه)،

---

(١) =: خطاب الأنبياء في القرآن الكريم: ٢٣.
(٢) سورة الأحقاف: الآية ٩.
(٣) =: المحرر الوجيز: ١٣/٣٣٧.

والمعنى: ما أنا إلاّ نذير مبين لا مفتر[1].

وقد أوحت هذه الآية بأدبه (ﷺ) مع ربّه، فهو لا يتطلع إلى السّر والغيب الذي استأثر به الخالق (ﷻ)، وفي هذا إيحاء باطمئنان قلبه، وقناعته بما فتح الله له، فيقف عند حدود الصفة التي بعثه الله فيها وهي صفة النّذير التي أوثرت هنا في خطاب التّلطف لكي لا يكون هذا الخطاب عندهم مظنة ضعف أو تردد، فختمت الآية بذكر الإنذار بعد التنبيه على حقيقة الرسالة أو المرسل وذكر منهجه الذي لا يحيد عنه لأنّه المنهج الذي رسمه له الخالق (ﷻ)، فلا يتلطف معهم لإرضائهم، وإنّما يتلطف من أجل تحقيق الهدف الذي بعث من أجله، ومَن لم يتأثر بذلك فسيلقى ما ينذر به.

❖❖❖❖❖

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٨/٢٦.

# الجدول البياني للفنون البلاغيّة الواردة في الفصل الرّابع

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٣٠٦ | الكناية | ٢٢٠ | ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ | ٦٦ | غافر |
| ٣٠٧ | الإظهار في مقام الإضمار | ٢٢١ | ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ | ٦٦ | غافر |
| ٣٠٨ | المقابلة والطّباق | ٢٢١ | ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ | ٦٦ | غافر |
| ٣٠٩ | الكناية | ٢٢٢ | ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ | ٦ | فصّلت |
| ٣١٠ | القصر | ٢٢٢ | ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ | ٦ | فصّلت |
| ٣١١ | الاحتراس | ٢٢٣ | ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ | ٦ | فصّلت |
| ٣١٢ | القصر | ٢٢٣ | ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ | ٦ | فصّلت |
| ٣١٣ | التّضمين | ٢٢٣ | ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ | ٦ | فصّلت |
| ٣١٤ | التّقديم | ٢٢٤ | ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ | ١٥ | الشّورى |
| ٣١٥ | التّنكير | ٢٢٥ | ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ | ١٥ | الشّورى |
| ٣١٦ | الكناية | ٢٢٦ | ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ | ١٥ | الشّورى |
| ٣١٧ | التّذييل | ٢٢٦ | ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ | ١٥ | الشّورى |
| ٣١٨ | التّقديم | ٢٢٦ | ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ | ١٥ | الشّورى |
| ٣١٩ | الاستعارة والتّنكير | ٢٢٧ | ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ | ٥٢ | الشّورى |
| ٣٢٠ | الاستعارة والتّنكير | ٢٢٧ | ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ﴾ | ٥٢ | الشّورى |
| ٣٢١ | المجاز المرسل | ٢٢٨ | ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ | ٥٢ | الشّورى |
| ٣٢٢ | الاستعارة والتّنكير | ٢٢٨ | ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ | ٥٢ | الشّورى |
| ٣٢٣ | التّفصيل بعد الإجمال | ٢٢٩ | ﴿صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ | ٥٢ - ٥٣ | الشّورى |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٣٢٤ | الفصل والتّذييل | ٢٢٩ | ﴿ألا إلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ | ٥٣ | الشّورى |
| ٣٢٥ | التّقديم | ٢٢٩ | ﴿ألا إلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ | ٥٣ | الشّورى |
| ٣٢٦ | الفصل | ٢٢٩ | ﴿إنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ | ٤٣ | الزّخرف |
| ٣٢٧ | الاستعارة والتّنكير | ٢٢٩ | ﴿إنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ | ٤٣ | الزّخرف |
| ٣٢٨ | إيجاز القصر | ٢٣١ | ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ | ٤٤ | الزّخرف |
| ٣٢٩ | إيجاز الحذف | ٢٣١ | ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ | ٤٤ | الزّخرف |
| ٣٣٠ | الكناية | ٢٣٣ | ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ | ٥٥ | غافر |
| ٣٣١ | التّقديم | ٢٣٤ | ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ | ٧٧ | غافر |
| ٣٣٢ | الاحتباك | ٢٣٤ | ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ | ١٤ | الجاثية |
| ٣٣٣ | التّنكير | ٢٣٥ | ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ | ١٤ | الجاثية |
| ٣٣٤ | الاستعارة | ٢٣٦ | ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ﴾ | ١٨ | الجاثية |
| ٣٣٥ | الطّباق | ٢٣٦ | ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ | ١٨ | الجاثية |
| ٣٣٦ | الاستفهام التّقريري | ٢٤٠ | ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ | ٥٣ | فصّلت |
| ٣٣٧ | التّنكير | ٢٤٠ | ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ | ٥٣ | فصّلت |
| ٣٣٨ | التّذييل | ٢٤١ | ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ | ٥٦ | غافر |
| ٣٣٩ | القصر | ٢٤٢ | ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ | ٥٦ | غافر |
| ٣٤٠ | الإيثار والتّناسب | ٢٤٢ | ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ | ٥٦ | غافر |
| ٣٤١ | التّنكير | ٢٤٣ | ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ | ١٩ | الجاثية |
| ٣٤٢ | إيجاز الحذف | ٢٤٣ | ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ | ١٩ | الجاثية |
| ٣٤٣ | التّنكير | ٢٤٤ | ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِنْ قَبْلِكَ﴾ | ٧٨ | غافر |
| ٣٤٤ | الوصل | ٢٤٤ | ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ | ٧٨ | غافر |
| ٣٤٥ | القصر | ٢٤٤ | ﴿وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ | ٧٨ | غافر |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٣٤٦ | الاستعارة | ٢٤٤ | ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ | ٧٨ | غافر |
| ٣٤٧ | القصر | ٢٤٦ | ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ | ٤٣ | فصّلت |
| ٣٤٨ | التّشبيه البليغ | ٢٤٦ | ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ | ٤٣ | فصّلت |
| ٣٤٩ | الجمع والتّقسيم | ٢٤٦ | ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ | ٤٣ | فصّلت |
| ٣٥٠ | الفصل | ٢٤٧ | ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ | ٤٣ | فصّلت |
| ٣٥١ | الطّباق | ٢٤٧ | ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ | ٤٣ | فصّلت |
| ٣٥٢ | الاستفهام الإنكاري | ٢٤٧ | ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَانِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ | ٤٥ | الزّخرف |
| ٣٥٣ | الجناس | ٢٤٧ | ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ | ٤٥ | الزّخرف |
| ٣٥٤ | التّنكير | ٢٤٨ | ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَانِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ | ٤٥ | الزّخرف |
| ٣٥٥ | الطّباق | ٢٤٩ | ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ | ٣٨ | فصّلت |
| ٣٥٦ | الاحتراس | ٢٤٩ | ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ | ٣٨ | فصّلت |
| ٣٥٧ | القصر | ٢٥٠ | ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ | ٣٨ | فصّلت |
| ٣٥٨ | الاحتباك | ٢٥٠ | ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ | ٣٨ | فصّلت |
| ٣٥٩ | الالتفات | ٢٥٠ | ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ | ٤٨ | الشّورى |
| ٣٦٠ | القصر | ٢٥٠ | ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ | ٤٨ | الشّورى |
| ٣٦١ | الجناس | ٢٥١ | ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ | ٤٨ | الشّورى |
| ٣٦٢ | الكناية | ٢٥٢ | ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ | ٢٤ | الشّورى |
| ٣٦٣ | إرخاء العنان | ٢٥٣ | ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ | ٢٤ | الشّورى |
| ٣٦٤ | الإظهار في مقام الإضمار | ٢٥٤ | ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ | ٢٤ | الشّورى |

| ت | الفن البلاغي | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٣٦٥ | المقابلة | ٢٥٤ | ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ | ٢٤ | الشورى |
| ٣٦٦ | التّذييل | ٢٥٤ | ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ | ٢٤ | الشّورى |
| ٣٦٧ | الكناية | ٢٥٤ | ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ | ٢٤ | الشّورى |
| ٣٦٨ | الاستفهام الإنكاري | ٢٥٥ | ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ | ٤٠ | الزّخرف |
| ٣٦٩ | التّقديم | ٢٥٦ | ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ | ٤٠ | الزّخرف |
| ٣٧٠ | الاستعارة | ٢٥٦ | ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ | ٤٠ | الزّخرف |
| ٣٧١ | التّذييل | ٢٥٦ | ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ | ٤٠ | الزّخرف |
| ٣٧٢ | الوصل | ٢٥٧ | ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ | ٤٠ | الزّخرف |
| ٣٧٣ | التّنكير | ٢٥٧ | ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ | ٤٠ | الزخرف |
| ٣٧٤ | الاستعارة | ٢٥٧ | ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ | ٤١ | الزخرف |
| ٣٧٥ | التّقديم | ٢٥٧ | ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ | ٤١ | الزّخرف |
| ٣٧٦ | التّقديم | ٢٥٧ | ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ | ٤٢ | الزّخرف |
| ٣٧٧ | الاستعارة | ٢٥٧ | ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ | ٨٣ | الزّخرف |
| ٣٧٨ | الالتفات | ٢٥٨ | ﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ | ٨٨ | الزّخرف |
| ٣٧٩ | المجاز العقلي | ٢٦٠ | ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ | ١٠ | الدخان |
| ٣٨٠ | الفصل | ٢٦٠ | ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ | ١١ | الدّخان |
| ٣٨١ | الاستعارة | ٢٦١ | ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ | ٥٩ | الدّخان |
| ٣٨٢ | الجناس | ٢٦١ | ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ | ٥٩ | الدّخان |
| ٣٨٣ | الفصل | ٢٦١ | ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ | ١٧ | الجاثية |
| ٣٨٤ | التّنكير | ٢٦٢ | ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ | ٣٥ | الأحقاف |
| ٣٨٥ | القصر | ٢٦٢ | ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ | ٣٥ | الأحقاف |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٣٨٦ | الاستفهام الإنكاري | ٢٦٢ | ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ | ٣٥ | الأحقاف |
| ٣٨٧ | التّعريف | ٢٦٣ | ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ | ٣٥ | الأحقاف |
| ٣٨٨ | الاندماج | ٢٦٤ | ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ | ٩ | فصّلت |
| ٣٨٩ | التّرقي | ٢٦٤ | ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ | ٩ | فصّلت |
| ٣٩٠ | الوصل | ٢٦٥ | ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ | ٩ | فصّلت |
| ٣٩١ | التّشبيه البليغ | ٢٦٦ | ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ | ١١ | فصّلت |
| ٣٩٢ | الكناية | ٢٦٦ | ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ | ١١ | فصّلت |
| ٣٩٣ | الاستعارة | ٢٦٦ | ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ | ١١ | فصلت |
| ٣٩٤ | التّضمين | ٢٦٧ | ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ | ١٢ | فصّلت |
| ٣٩٥ | التّذييل | ٢٦٧ | ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ | ١٢ | فصّلت |
| ٣٩٦ | الالتفات | ٢٦٧ | ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ | ١٢ | فصّلت |
| ٣٩٧ | الاستعارة | ٢٦٧ | ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ | ١٢ | فصّلت |
| ٣٩٨ | الاحتباك | ٢٦٨ | ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ | ١٢ | فصّلت |
| ٣٩٩ | التّذييل | ٢٦٩ | ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ | ٨٢ | الزّخرف |
| ٤٠٠ | الاستفهام الإنكاري | ٢٧١ | ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ | ٨٧ | الزّخرف |
| ٤٠١ | المجاز العقلي | ٢٧١ | ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ | ٦ | الجاثية |
| ٤٠٢ | الاحتراس | ٢٧٢ | ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ | ٦ | الجاثية |
| ٤٠٣ | القصر بالتّقديم | ٢٧٢ | ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ | ٢٦ | الجاثية |
| ٤٠٤ | الطّباق | ٢٧٢ | ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ | ٢٦ | الجاثية |
| ٤٠٥ | الاحتراس | ٢٧٣ | ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ | ٢٦ | الجاثية |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٤٠٦ | الوصل | ٢٧٣ | ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ | ٢٦ | الجاثية |
| ٤٠٧ | الاستفهام الإنكاري | ٢٧٣ | ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ | ٨ | الأحقاف |
| ٤٠٨ | إرخاء العنان | ٢٧٤ | ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ | ٨ | الأحقاف |
| ٤٠٩ | التّنكير | ٢٧٤ | ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ | ٨ | الأحقاف |
| ٤١٠ | التّقديم | ٢٧٤ | ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ | ٨ | الأحقاف |
| ٤١١ | القصر | ٢٧٤ | ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ | ٨ | الأحقاف |
| ٤١٢ | الاستفهام التّقريري | ٢٧٥ | ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ | ١٠ | الأحقاف |
| ٤١٣ | الجناس | ٢٧٥ | ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ | ١٠ | الأحقاف |
| ٤١٤ | الطّباق | ٢٧٦ | ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ... فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ | ١٠ | الأحقاف |
| ٤١٥ | الاحتباك | ٢٧٦ | ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ | ١٠ | الأحقاف |
| ٤١٦ | الفصل والتّذييل | ٢٧٦ | ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ | ١٠ | الأحقاف |
| ٤١٧ | الاستفهام التّقريري | ٢٧٦ | ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ | ٤ | الأحقاف |
| ٤١٨ | الاستفهام الإنكاري | ٢٧٧ | ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ | ٤ | الأحقاف |
| ٤١٩ | الاحتباك | ٢٧٧ | ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ | ٤ | الأحقاف |
| ٤٢٠ | إرخاء العنان | ٢٧٧ | ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ | ٤ | الأحقاف |
| ٤٢١ | القصر | ٢٧٨ | ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ | ٢٣ | الشّورى |
| ٤٢٢ | المجاز المرسل | ٢٧٨ | ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ | ٢٣ | الشّورى |
| ٤٢٣ | التّعريف | ٢٧٨ | ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ | ٢٣ | الشّورى |
| ٤٢٤ | التّنكير | ٢٧٨ | ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ | ٢٣ | الشّورى |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٤٢٥ | التّتميم | ٢٧٩ | ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ | ٩ | الأحقاف |
| ٤٢٦ | الفصل والتّتميم | ٢٧٩ | ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ | ٩ | الأحقاف |
| ٤٢٧ | القصر | ٢٧٩ | ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ | ٩ | الأحقاف |
| ٤٢٨ | القصر | ٢٧٩ | ﴿وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ | ٩ | الأحقاف |

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

# الفصل الخامس

# الإنسان، والإيمان والكفر

## توطئة

تضمنت سور الحواميم ذكر الكثير من الصفات الإنسانية، ولا سيّما ما يتعلق بموقف الإنسان من القرآن الكريم، فقد تناولت بعض الآيات ذكر المؤمنين والكافرين على سبيل التقابل بين مواقفهم إزاء الدّعوة، فشكل كلّ ذلك مادة المبحث الأوّل من هذا الفصل، وتناولت آيات أخرى ذكر المؤمنين وموقفهم من القرآن الكريم، ومنزلتهم عند الله تعالى، وما لهم من الثّواب في يوم الحساب، وهو ما تناولناه في المبحث الثّاني. أمّا المبحث الثّالث فقد تضمن ذكر الكافرين ومواقفهم من الدّعوة، ومنها الجدل والتّكذيب بالآيات، والاستكبار عن العبادة والإعراض عن الدّعوة، والإشراك والبغي، وإنكار البعث والحساب. ويلحظ أنّ عدد الآيات التي تناولت ذكر الكافرين كان كبيرا، لأنّ الدعوة آنذاك في عهدها المكي، فلا بدّ من ذلك ليتحقق الهدف القرآني في التّوجه إلى هؤلاء بذكر موقفهم وذمّ عبادة الإشراك التي كانوا عليها، والتّذكير بما سيؤول إليه حالهم يوم الحساب. وهكذا كانت سور الحواميم - كغيرها من سور القرآن - تتضمن ذكر الإنسان بغاية الحمد وغاية الذمّ، ولا يعني ذلك أنّه يحمد ويذم في آن واحد، وإنّما معناه أنّه أهل للكمال والنّقص بما فطر عليه من استعداد لكلّ منهما، فهو أهل للخير والشّر لأنّه أهل للتكليف(١).

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) =: الانسان في القرآن، عباس محمود العقاد: ١٢.

# المبحث الأوّل
# التّقابل بين ذكر المؤمنين والكافرين

ورد ذكر المؤمنين والكافرين على سبيل التّقابل في آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾[١].

ففي الآيات دعوة للمؤمنين إلى التّوحيد والإخلاص في الدّين بأنْ يكون غير مشوب بشيء من مقاصد الدّنيا، والخطاب هنا يمكن أنْ يعمّ المؤمن والكافر لسبق ذكرهما، أو هو للمؤمنين بشكل خاص بدليل قوله ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾. وابتدأت الآية بالأمر (فادعوا الله) والمعنى (فادعوه) فوضع الظّاهر موضع المضمر ليتمكن فضل تمكن، وليشعر بأنّ كونه تعالى هو المعبود بحق، وهو الذي يقتضي أنْ يعبد وحده[٢].

ويلون القرآن أسلوب الخطاب فيأتي باسم الفاعل بعد الأمر ليفيد الحدوث والثّبوت، فالمؤمنون قد أخلصوا الدّين لله أي قاموا بهذا الحدث، فقوله: (مخلصين) أي أنّكم قد أحدثتم هذا الفعل فالمطلوب هو الثّبوت والدّوام، فالتّعبير باسم الفاعل هو أدوم وأثبت من الصّيغة الفعلية[٣]، فالأمر الذي اتبع باسم الفاعل (مخلصين) مستعمل في طلب الدّوام لأنّهم قد دعوا الله مخلصين له، فالمعنى: دوموا على ذلك ولو كره الكافرون، والكراهية هنا كناية عن المقاومة والصد لأنّهما لا زمان للكراهية[٤]. ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[٥]. وهكذا يتقابل ذكر المؤمنين الذّين يوجه الخطاب إليهم بالدّعوة إلى الإخلاص ودوامه مقابل ذكر الكافرين وكراهيتهم ومقاومتهم لجمع الإيمان. ويوحي إيثار اسم الفاعل (مخلصين) في وصف المؤمنين بالغلبة والنّصر المنبثق من دلالته على الثّبوت، مقابل إيثار الماضي (كره) في وصف الكافرين والذي يوحي بالخسران ومضي الكراهية والمقاومة وهزيمة

---

(١) سورة غافر: الآيتان ١٤ – ١٥.

(٢) =: روح المعاني: ٢٤/٥٥.

(٣) =: معاني الأبنية في العربية: ٤٦ – ٤٧.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/١٠٥.

(٥) سورة النّساء: من الآية ١٣٦.

أهلها، فضلاً عن إيحاء الآية بأنّ الإخلاص في الدّين هو علّة النّصر في كلّ زمان ومكان وأنّ عزة المؤمنين تكمن في إخلاصهم للدّين وأنّ الخسارة والهزيمة هي في نقيض ذلك.

ولكي يستكمل التّعبير القرآني هذه المعاني العظيمة تأتي الآية الأخرى لتعرض بعض الصّفات الإلهية، ويذكر معها على سبيل الإدماج نعمته على المؤمنين وإنذاره للكافرين، فتبتدئ بـ (رفيع الدرجات) بعد حذف المبتدأ وهو ضمير اسم الجلالة في (فادعوا الله)، وقد استعيرت (الدرجات) للمجد والعظمة وجمعها يوحي بالكثرة، وأنّ الله حقيق بإخلاص الدّعاء إليه. ويجوز أنْ يكون (رفيع) من أمثلة المبالغة أي كثير رفع الدّرجات[1]، وفيه يقول الرّازي: «اعلم أنّ الرّفيع يحتمل أنْ يكون المراد منه الرّافع وأنْ يكون المراد منه المرتفع، فإذا حملناه على الأول فهو أنّه تعالى يرفع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة، أو أنّه رافع درجات الخلق في العلوم والأخلاق الفاضلة»[2]. ووصفه (ﷻ) بـ (رفيع الدرجات) للدلالة - على سبيل الإدماج - على عزته (ﷻ) وملكوته جلّ شأنه، ويجوز أنْ يكون كناية عن رفعة شأنه وسلطانه[3]. ويتناسب وصفه بـ (رفيع الدرجات) مع (ذو العرش) الدّال على عظمته (ﷻ).

ويأتي الوصف الثّالث في ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ في غاية التّناسب مع ما قبله، فمَن كان (رفيع الدرجات) كان (ذو العرش)، ومَن كان كذلك كان له أنْ يرفع بعض عباده إلى درجة النّبوة وذلك أعظم رفع الدّرجات بالنّسبة إلى عباده[4]. وقد أوثرت الصّيغة الفعلية في استعارة الإلقاء، وحقيقته رمي الشيء من اليد إلى الأرض، ويستعار للإعطاء إذا كان غير مترقب، فاستعير هنا للوحي لأنّه يأتي فجأة على غير ترقب. والاستمرار التّجددي المفهوم من الصّيغة الفعلية في (يلقي) ظاهر، فهو لم يزل من لدن آدم إلى انتهاء زمان نبينا محمد (ﷺ) وهو في حكم المتصل إلى قيام السّاعة بإقامة مَن يقوم بالدّعوة[5]. وتوحي هذه الاستعارة بقدرة الله وعظمته، لأنّ الملقي له

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٠٦/٢٤.

(٢) التّفسير الكبير: ٤٣/٢٧.

(٣) =: روح المعاني: ٥٥/٢٤.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٠٧/٢٤.

(٥) =: روح المعاني: ٥٦/٢٤.

القوة والتّمكن، وقد استكمل هذا المعنى بإيثار أداة الاستعلاء (على) ليشير إلى أنّ أمره عاليا على كلّ أمر. والملقى هنا هو (الرّوح) على سبيل الاستعارة، وحقيقتها: ما به حياة الحي من المخلوقات، فاستعيرت للشريعة أو الوحي لأنّ به حياة النّاس المعنوية[١]، وفي ذلك إيحاء بأنّ الحياة الحقة هي التي يحياها الفرد في ظلال الإيمان وإخلاص الدّين لله، وأنّ حياة الكافرين ليست بحياة، وقد يكون التّعبير عن الوحي بـ (الرّوح) مجازا مرسلا علاقته السّببية لأنّه يجري من القلوب مجرى الأرواح من الأجساد[٢]، فهو سبب حصول الحياة الرّوحانية.

وتختم الآية بذكر علّة الإلقاء بقوله ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾، والضّمير المستتر في الفعل لله، أو لـ (مِن) وهو الملقى إليه، أو للروح، أو للأمر، وعوده على الرّسول أقرب[٣]. وأوثر ذكر وصف يوم القيامة بـ (يوم التلاق) ليتناسب مع سياق الآيات والتّقابل في ذكر المؤمنين والكافرين، ففيه تتلاقى الأرواح والأجساد، وتتلاقى الخلائق، ويتلاقى العباد مع جزاء أعمالهم. وهكذا يرد العجز على الصّدر، بذكر الإنذار بـ (يوم التّلاق) الذي يتناسب مع بداية الآيات التي تضمنت الأمر بالدّعاء إلى الله والتّوحيد والإخلاص في الدّين، وكأنّ الإنذار بيوم التّلاقي هو وظيفة من وظائف كلّ مَن أخلص الدّين لله والتزم بأمره.

❖❖❖❖❖

ويتقابل ذكر المؤمنين والكافرين في آية أخرى، وفيها بيان منزلة المؤمنين عند الله ورحمته بهم وفضله عليهم إنه شاء أنْ يرحمهم بنعمة الهداية وهو القادر على أنْ يجعل البشر أمة واحدة مؤمنة أو كافرة، ولكنّه (ﷻ) خلق الإنسان للخلافة في الأرض، وجعل له استعدادات خاصة بجنسه تفرقه عن الملائكة والشّياطين وغيرهم، فيجنح بها ومعها فريق إلى الهدى وفريق إلى الضّلال، فجاء ذكر ذلك موجزا في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٠٧/٢٤.

(٢) =: الجدول في إعراب القرآن: ٢٣١/٢٤.

(٣) =: روح المعاني: ٥٦/٢٤.

لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ ﴾[١].

تبتدئ الآية بذكر قدرته تعالى ومشيئته بأنّه لو شاء لجعلهم أمّة واحدة مهتدين أو ضالين، «فلو شاء الله مشيئة قدرة لقسرهم على الإيمان ولكنّه شاء مشيئة حكمة وكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بقوله (يدخل مَن يشاء) وترك الظّالمين بغير ولي ولا نصير، وأنت خبير بأنّ فرض جعل الكل مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بإدخال بعضهم في رحمته إذ الكلّ حينئذ داخلون فيها فكان المناسب حينئذ تصديره بإخراج بعضهم من بينهم وإدخالهم في عذابه فالذي يقتضيه سياق النّظم الكريم أنْ يراد الاتحاد في الكفر كما في قوله تعالى ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[٢] ... فالمعنى: لو شاء لجعلهم أمّة واحدة متفقة على الكفر بأنْ لا يرسل إليهم رسولا لينذرهم ما ذكر من يوم الجمع»[٣].

وجاء ذكر التّقابل بين المؤمنين والكافرين على سبيل الفن البلاغي المسمى بالاحتباك، إذ «ذكر الرّحمة أوّلا دليلا على اللعنة ثانيا، والظّلم وما معه ثانيا دليلا على أضداده أوّلا، وسرّه أنّه ذكر السّبب الحقيقي في أهل السّعادة ليحملهم على مزيد الشّكر، والسّبب الظّاهري في أهل الشّقاوة لينهاهم عن الكفر»[٤]. وفي الآية إيجاز آخر شبيه بالاحتباك، إذ ذكر نفي الولي والنصير ثانيا دليلا على ثبوته أوّلا وهذا من قبيل الإيجاز بالاكتفاء، وكان مقتضى الظاهر أنْ يقال: (ويدخل مَن يشاء في عذابه ونقمته) ولكنّه عدل عنه للإيذان بأنّ الإدخال في العذاب من جهة الدّاخلين بموجب سوء اختيارهم لا من جهته (ﷻ) كما في الإدخال في الرّحمة، وسبب العدول هو أنّ الكلام في الإنذار فهو أبلغ في تخويفهم لإشعاره بأنّ كونهم في العذاب أمر مفروغ منه وإنّما الكلام في أنّه بعد تحتمه هل لهم مَن يخلصهم بالدّفع أو الرّفع فإذا نفي ذلك علم أنّهم في عذاب لا خلاص منه[٥]، ففيه مبالغة في الوعيد وهذا هو غرض الاحتباك وسرّه

---

(١) سورة الشّورى: الآية ٨.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٢١٣.

(٣) إرشاد العقل السّليم: ٣٠/٥.

(٤) نظم الدرر: ٢٥٣/١٧.

(٥) =: روح المعاني: ١٤/٢٥ - ١٥.

البلاغي، وفيه مزية أخرى، فوصفهم بالظّالمين يوحي بالإشارة إلى عدل المؤمنين وأنه تعالى يواليهم وينصرهم[١]. وقد زيد الاحتباك - مع هذه المعاني - معنى آخر بإيثار الصّيغة الفعلية مع المؤمنين والتي تدل على الاستمرار والتّجدد، وتقديم ذكرهم للاختصاص والتّشويق لبيان مصيرهم، ولم يذكر المؤمنين تصريحا، لإعلامهم أنّ الهداية والطّاعة كانت بمشيئة الله وهو ما يوجب الشّكر والحمد على نعمة الإيمان. وقد جاء قوله: (والظّالمون) على سبيل الإظهار في مقام الإضمار لأنّه متعلق بـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾[٢]. ليفيد أنّ ظلمهم علّة لما بعده، ونفي النّصير كناية عن كونهم في بؤس وضرّ بحيث يحتاجون إلى نصير لو كان لهم نصير[٣]. وهكذا يذكر المؤمنون والكافرون في آية واحدة تظهر ما لكلّ فريق من المنزلة عند الخالق (ﷻ)، فتدرك النّفس الإنسانية موطنها، ولها الخيار بين رحمة الله ونصرته وولايته، وبين الظّلم والخسارة والبعد عن ولاية الله ونصرته.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويذكر المؤمنون والكافرون في آية أخرى على سبيل التّقابل في موقفهم من السّاعة والإيمان بها، وذلك في قوله تعالى ﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨ ﴾[٤].

فالآية تعرض أوّلا موقف الكافرين من السّاعة إذ يطلبون من النّبي (ﷺ) أنْ يعجل الله بحلول السّاعة ليظهر صدقه، تهكما واستهزاءً، وكناية عن اتخاذهم تأخرها دليلا على عدم وقوعها، وعبر عن الكافرين بـ (الذين لا يؤمنون) ليتحقق طباق السّلب بينه وبين قوله: (الذين آمنوا).

وقد أوثر وصف المؤمنين بـ (مشفقون منها) أي من أهوالها، وجعل الإشفاق

---

(١) =: محاسن التأويل: ٥٢٢٣/١٤.

(٢) سورة الشّورى: من الآية ٦.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٣٩/٢٥.

(٤) سورة الشّورى: الآية ١٨.

من ذات السّاعة لتعظيم أهوالها على طريقة إسناد الحكم ونحوه إلى الأعيان[١].

والمؤمنون خائفون منها مع اعتناء بها، فالإشفاق عناية مختلطة بخوف، أمّا الاستعجال فيوحي بعدم العناية ونفي الخوف أيضاً فاستحقوا أنْ يكونوا في الضّلال البعيد. وفي الآية احتباك، إذ ذكر الاستعجال أوّلا دليلا على حذف ضده ثانيا، والإشفاق ثانيا دليلا على حذف ضده أوّلا[٢]. وإذا كان ذكر الكافرين قد تقدم على ذكر المؤمنين في نظم الآية، فإنّ التّعبير القرآني قد جبر تأخر ذكرهم بإيثار التّعبير عن موقفهم من السّاعة بالصّيغة الاسمية (مشفقون) ليفيد ثبوت الصّفة لهم، وزيد ذلك بذكر صفة أخرى بقوله: (ويعلمون أنّها الحق) بتعريف (الحق) تعريف الجنس وهو يفيد قصر المسند على المسند إليه قصر مبالغة لكمال الجنس في المسند إليه[٣]. وفي الآية احتباك آخر في قوله ﴿ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ ﴾ إذ ذكر أوّلا علمهم بأنّها الحق دليلا على حذفه ثانيا، وذكر ثانيا (يمارون في السّاعة) دليلا على حذفه أوّلا.

ويأتي قوله ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴾ على سبيل التّذييل لما قبله بما فيه من التّصريح أو الكناية، فالتّصريح إثبات الضّلال للذين يكذبون بالسّاعة، والكناية إثبات الهدى للذين يؤمنون بالسّاعة. وقد ناسب أنْ يتضمن التّذييل توكيدا للحقيقة التي تضمنتها الآية بـ (إنّ) و(اللام)، وافتتاح التّذييل بـ (ألا) التّنبيهية حقق تشويقا لمعرفة مصير هؤلاء، فذكر مصير الكافرين اكتفاء به عن ذكر مصير المؤمنين ليتحقق هدف الدّعوة القرآنية بما في الآية من التّرهيب والوعيد، فقد جعل الضّلال كالظّرف لهم تشبيها لتلبسهم بالضّلال بوقوع المظروف في ظرفه. وقد وصف الضّلال بـ (بعيد) على سبيل المجاز العقلي لأنّ البعد في الحقيقة للضال لأنّه هو الذي يتباعد عن الطّريق فوصف به فعله. ووصفوا بأنّهم (يمارون) للتعبير عن مجادلتهم في أمر السّاعة وإنكارهم مجيئها عنادا، وهو من (المرية) أي تداخلهم المرية والشّك فيؤدي ذلك إلى المجادلة، وقد يكون من مريتُ النّاقة إذا مسحت ضرعها بشدّة الحلب فيكون

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٦٩/٢٥.

(٢) =: نظم الدرر: ٢٨٣/١٧.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٧٠/٢٥.

تفسيره بـ (يجادلون) حملا على الاستعارة التّبعية بتشبيه المجادلة بمماراة الحالب للضرع، وقد يكون من المرية أي التّردد في الأمر وهو أخص من الشّك فيكون المعنى: إنّ الذّين يترددون في أمر السّاعة ويشكون فيه[١].

وهكذا يعرض التّعبير القرآني موقف كلّ من المؤمنين والكافرين من السّاعة على سبيل التّقابل في آية واحدة مع ذكر مصير الكافرين مراعاة لمقتضى الحال في زمن نزول الآية، والدّعوة في عهدها المكي.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

بعد عرض التّقابل في موقف المؤمنين والكافرين إزاء السّاعة، تعرض آية أخرى من سورة الشّورى تقابلا آخر بينهم يبين لهم طريق الخير والعمل الصّالح، وما عليهم أنْ يفعلوه في الدّنيا ليفوزوا برضا الله وما أعده لعباده من خير ونعيم في الآخرة، وذلك في قوله تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[٢].

وقد تواشجت في نظم الآية فنون بلاغية عديدة، منها التّمثيل، فالإقبال على كسب ما يعده الكاسب نفعا له يرجو منه فائدة، قد عبر عنه بالحرث على سبيل التّمثيل. ومِن فنون البلاغة أيضاً أنّ نظم الآية جاء على سبيل المقابلة بين (مَن كان يريد حرث الآخرة) وبين (مَن كان يريد حرث الدّنيا)، وكذلك بين (نزد له) وبين (نؤته منها)، ممّا حقق توافقا إيقاعيا في النّظم. والإرادة هنا إرادة عامل مستعد عارف لا إرادة متمن لم يدن نفسه.

ويأتي المجاز العقلي في تعليق الزّيادة بالحرث إذ حقها أنْ تعلق بسببه وهو الثّواب، فالمعنى على حذف مضاف، وقد تكون حقيقة، أي نقدر له العون على الازدياد من الأعمال الصّالحة ونيسر له ذلك فيزداد من الصّالحات، وهذا من استعمال المركب في حقيقته ومجازه[٣].

وأوثر في نظم الآية التّعبير عن العمل وثمرته بـ (الحرث) على سبيل الاستعارة

---

(١) =: تفسير روح البيان: ٣٠٢/٨.

(٢) سورة الشّورى: الآية ٢٠.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٧٥/٢٥.

التّمثيلية، إذ شبه العمل للآخرة بالزّارع يزرع الزّرع ليجني منه الثمرة والحب[١].

والدّلالة النّفسية التي توحي بها استعارة الحرث هي أنّ الثّواب لا يحصل إلاّ بتحمل المتاعب والمشاق والصّبر على ذلك.

ومِن فنون البلاغة في الآية فن الالتفات، فلمّا كانت أسباب الحروث وثمراتها لا يقدر على تعطيلها وإنجاحها إلاّ الله، وكان الإنسان يظن لنفسه في ذلك قدرة، نبه (ﷻ) بالالتفات إلى أسلوب العظمة أنْ أمره (ﷻ) في ذلك لا يستطاع دفاعه ولا ممانعته ونزاعه[٢]، إذ كان النّظم في الآية السّابقة على سبيل الغيبة[٣].

وفي الآية لطائف أخرى، منها أنّ المقابلة بين المؤمنين والكافرين قد جاءت بتقدم ذكر مريد حرث الآخرة على مريد حرث الدّنيا، وذلك يدل على التّفضيل، لأنّه وصفه بكونه آخرة ثمّ قدمه في الذّكر. ومنها أنّه قال في مُريد حرث الآخرة: (نزد له في حرثه) وقال في الآخر: (نؤته منها)، و(مِن) للتبعيض، والمعنى أنّه يعطيه بعض ما يطلبه ولا يؤتيه كلّه. ومنها أنّه قال في طالب حرث الآخرة: (نزد له في حرثه) ولم يذكر أنّه تعالى يعطيه الدّنيا أم لا، وأمّا طالب حرث الدّنيا فقد بين - تعالى - أنّه لا يعطيه شيئا من نصيب الآخرة على التّنصيص، وفي ذلك تفاوت عظيم، وكأنّه يقول: الآخرة أصل والدّنيا تبع، فواجد الأصل يكون واجدا للتبع بقدر الحاجة، ولم يذكر ذلك تنبيها على أنّ الدّنيا أخس من أنْ يقرن ذكرها بذكر الآخرة[٤].

والمقابلة بين (نزد له) وبين (نؤته منها) توحي بأنّ نظم الآية شبيه بالاحتباك، فذكر في الأولى زيادة الحرث دليلا على نقصانه ثانيا، وذكر ثانيا (نؤته منها) دليلا على حصول ذلك أوّلا. واقتران استعارة (الحرث) بالزّيادة مع حرث الآخرة فيه حث على الإقبال على الآخرة بالأعمال الصّالحة، فضلاً عن أنّ الاستعارة قد «توافرت على خصوبة في التّعبير وحيوية تمثلت بإخراج المعنى الذي يرمي إليه القرآن بالتّصوير الحسي من خلال تجسيد الأعمال في صورة (الحرث) القريبة إلى الحس والوجدان في

(١) =: صفوة التّفاسير: ١٤٧/٣.

(٢) =: نظم الدرر: ٢٨٧/١٧.

(٣) =: سورة الشّورى: الآية ١٩.

(٤) =: التّفسير الكبير: ١٦١/٢٧ - ١٦٢.

معانيها الموحية المؤثرة»[(١)]. وهكذا تعرض الآية بهذه المقابلة - على سبيل التّرابط بين حال المؤمنين والكافرين - من خلال الدلالة الإيحائية مصير الفريقين، فالزّيادة والنّماء لما قدمه المؤمنون في حرثهم الذي تحملوا فيه العناء لأجل الآخرة، والخسارة للكافرين الذين اشتغلوا بحرث الدّنيا فلم يبق لهم نصيب في الآخرة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وعلى سبيل التّقابل بين ذكر المؤمنين والكافرين، تتحدث آيات أخرى من سورة الشّورى عن قبول الله توبة عباده وعفوه عن السّيئات، وهو الذي يعلم ما يفعله عباده، وأنّه يستجيب دعاء المؤمنين مثلما استجابوا دعوته ويزيدهم من نعمه، أمّا الكافرون فلهم العذاب الشّديد، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾[(٢)].

تأتي هذه الآيات بعد ما سبق من مشهد الظّالمين مشفقين ممّا كسبوا وهو واقع بهم، ومشهد الذّين آمنوا في روضات الجنات، ونفي كلّ شبهة عن صدق رسول الله (ﷺ) فيما بلغهم به عن الله، وتقرير علمه بذوات الصّدور. وقد جاءت هذه الآيات للترغيب بالتّوبة، فالله يقبل التّوبة ويعفو عن السّيئات، فلا سبيل إلى القنوط واللجاج في المعصية والخوف ممّا قد سلف من الذّنوب، وهو يعلم التّوبة الصّادقة ويقبلها، ويعلم السّيئات ويغفرها. ومن أجل كلّ ذلك أوثر الفعل المضارع (يقبل) و(يعفو) ليتناسب مع باب التّوبة المفتوح دائما، وناسب ذلك أنْ تبتدئ الآيات بالاسمية لتفيد ثبوت الحكم ودوامه. وقد عدي الفعل (يقبل) بـ (عن) ليفيد معنى المجاوزة وهو أشد مبالغة في المعنى لأن فيه كناية عن احتباس الشيء المبذول عند المبذول إليه بحيث لا يرد على باذله[(٣)]، وفي تعديته بـ (عن) إحياء بتضمين التّوبة معنى العفو والصّفح[(٤)].

---

(١) الاستعارة في القرآن الكريم: ٩٢.

(٢) سورة الشّورى: الآيتان ٢٥ - ٢٦.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٨٩/٢٥.

(٤) =: البرهان في علوم القرآن: ٣٣٩/٣.

وقد أكد الخبر عن طريق المبالغات الأربع التي تضمنها وهي بناء الجملة على الاسمية، وعلى الموصولية، وعلى المضارعية، وعلى تعدية فعل الصلة بـ (عن) دون (مِن). وأوثر لفظ (عباده) دون غيره للإيحاء بأنّ الله رفيق بعباده لمقام العبودية، فالخالق والصانع يحب صلاح مصنوعه[١].

ويوحي البدء بـ (هو) بقصر قبول التّوبة عليه (ﷻ)، وأفاد الاسم الموصول (الذي) دلالة التّعظيم، وتعريف التّوبة يفيد الكمال أي أنّها التّوبة الصّادقة الخالصة، والتّعريف في (السّيئات) تعريف الجنس المراد به الاستغراق وهو عام مخصوص بغير الشّرك. وقوله: (ويعلم ما تفعلون) تذييل للكلام السّابق يؤكده ما ذكره من القبول والعفو، وفيه لطف وحثّ على لزوم الحذر منه تعالى والإخلاص له في امحاض التّوبة[٢]. وفي قوله: (ما تفعلون) التفات من الغيبة إلى الخطاب يتناسب مع مقام التّذييل الذي يتضمن المجازاة، فإذا علم العملين والعاملين جازى كلا بما فعل.

ويستكمل ذكر التّقابل بين الفريقين، فتبدأ الآية الأخرى بذكر المؤمنين على سبيل المبالغة في الإجابة (يستجيب)، ويمكن أنْ يكون فاعل (يستجيب) هو الله تعالى، ويجوز أنْ يكون (الذين آمنوا) هو الفاعل، أي يستجيبون لله. ولمّا كانت الاستجابة والزيادة كرامة للمؤمنين، أظهر اسم (الذين آمنوا) وجيء به موصولا للدّلالة على أنّ الإيمان هو وجه الاستجابة والزّيادة لهم[٣]. وقد أفاد تقديم (الكافرون) الاختصاص والتّرهيب، كما حقق تشويقا لمعرفة مصيرهم وما سيؤول إليه أمرهم. وجاء نظم الآية على سبيل الاحتباك إذ «ذكر الاستجابة أوّلا دليلا على ضدها ثانيا، والعذاب ثانيا دليلا على ضده أولا، وسرّه أنّه ذكر الحامل على الطّاعة، والصّاد عن المعصية»[٤]، وفي ذلك إظهار لشرف منزلة المؤمنين عند الله تعالى وحثّ لهم على مزيد الطّاعة لأجل نيل رضا الله، وفيه توبيخ للكافرين وعنادهم مع بيان مصيرهم المحتوم وهو العذاب الشّديد.

❖❖❖❖❖

ويتوالى التّقابل في ذكر المؤمنين والكافرين، ويظهر التّعبير القرآني فضل الله

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٩٠/٢٥.
(٢) =: روح المعاني: ٣٧/٢٥.
(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٩١/٢٥.
(٤) نظم الدرر: ٣٠٧/١٧.

على المؤمنين في إباحة الانتصار بعد الظّلم الواقع عليهم، وبيان أنّ سبيل الجزاء والمؤاخذة مقصور على الظّالمين الذين يبغون في الأرض بغير الحق، وأنّ الصّابرين والعافين هم أصحاب المنزلة العليا والمقربين، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣ ﴾[١].

تبتدئ الآية الأولى بـ (اللام) التي يتلقى بها القسم، وهو محذوف، وقد أفادت توكيد معنى الخبر. وفي التّعبير عن استعادة الحق بعد الظّلم بـ (الانتصار) حثّ على هذا الفعل في إباحته، والمراد بـ (السّبيل): موجب المؤاخذة باللائمة والتبعة في الآخرة على الفساد في الأرض بقتل المسالمين، وسمي ذلك سبيلا على وجه الاستعارة لأنّه أشبه الطّريق في إيصاله إلى المطلوب، وكثر إطلاق ذلك حتى ساوى الحقيقة[٢]. وتنكير (سبيل) للتقليل بعد (مِن) التي تفيد التّنصيص على العموم، أي ليس عليهم أيّ شيء من ذلك مهما كان قليلا.

وابتدأت الآية الثّانية بالقصر بـ (إنّما) وهو تأكيد مضمون جملة (فأولئك ما عليهم من سبيل) حيث حصل بذلك نفي السّبيل عن غيرهم مرة أخرى بمفاد القصر فتأكد حصوله الأوّل الذي حصل بالنّفي. وقد أعيد (السّبيل) معرفا باللام بعد تنكيره أوّلا فهو نفس السّبيل وهو الجزاء والتّبعة في الدّنيا والآخرة[٣].

وجاء قوله: (يظلمون) و(يبغون) بصيغة الفعل للدلالة على الاستمرار والتّجدد، وزيد معنى (يبغون في الأرض) قوة وشناعة لهذا الفعل بقوله: (بغير الحق) ليستحقوا ما ينالهم من عذاب الله الذي تضمنه التّذييل في قوله: (أولئك لهم عذاب أليم) والذي جاء بيانا لما سبقه ولا سيّما لفظة (السّبيل)، وقد جاء هذا التّذييل على سبيل الفصل استئنافا بيانيا وكأنّه جواب لسؤال سائل عن هذا السّبيل الذي قصر على الظّالمين الذين يبغون في الأرض بغير الحق فأجيب بأنّه: (عذاب أليم).

---

(١) سورة الشّورى: الآيات ٤١ - ٤٣.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١١٩/٢٥.

(٣) =: م. ن: ١٢٠/٢٥.

وتبتدئ الآية الثّالثة بلام القسم أيضاً (ولَمَن صبر) ويصح أنْ تكون لام الابتداء، واقترن ذكر الصّبر بالمغفرة وتقدم عليها لأنّه سببها وهي نتيجته، فمَن لا يمتلك الصّبر لا يستطيع أنْ يغفر ويعفو، وحذف الجواب تعظيما له ولمنزلة من استجاب لذلك، وأشير إلى علامة هذه المنزلة بقوله ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾، حيث وصفت (الأمور) بـ (العزم) وهو من الوصف بالمصدر للمبالغة في تحقق المعنى فيها، وهو مجاز عقلي بعلاقة السّببية، لأنّ الأمور لا تعزم على شيء وإنّما يعزم عليها أو أنّها هي المعزم عليها وهي المطلوبة شرعا، وهي المندوب إليها، وإنّما أسند العزم إلى الأمور إيجازا واختصارا لأنّه أبلغ وأقوى وأوكد(١).

وقد جاءت (اللام) في (لمِن عزم الأمور) في حين لم تذكر في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(٢)، وفي ذلك يقول الإسكافي «إنّ ما رغب الله فيه عبده من الصّبر على ما آلم قلبه من جناية جان عليه حتى يغفر لمَن ظلمه ويهب له من القصاص حقه ترغيب فيما يشق على الإنسان فعله، إلاّ أنّ الله حسنه بما وعد مَن عفا عمّا يجب له من الأجر الذي ضمنه، وإذا كان هذا من أصعب ما يتحمله الإنسان وجب من توكيد الكلام فيه ما لا يجب في غيره، فأدخلت اللام على معنى أنّه من الأمور التي تحتاج إلى توطين النّفس عليها وتخير أرفعها وأعلاها، وليس كذلك ما في سورة لقمان لأنّه قال ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ وليس يختص صبرا على ظلم يلحقه، فيرغب في العفو عن الظّالم.. فأمّا الموضوع الذي أبيح فيه الانتصاف فالصّبر فيه أحق، وكظم الغيظ معه أشد، والكلام فيه إلى التّوكيد فيه أحوج»(٣).

وهكذا عرضت لنا هذه الآيات التقابل بين المؤمنين والكافرين في صفات إنسانية توجب الاستجابة فيها لأمر الله (ﷻ) الثّواب والمغفرة، وتوجب مخالفتها العذاب الشّديد والخسران المبين.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وتختم مشاهد التّقابل في ذكر المؤمنين والكافرين بمشهد آخر نجد فيه

---

(١) =: أساليب المجاز في القرآن الكريم: ١٦٦.

(٢) سورة لقمان: من الآية ١٧.

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل: ٤٢٨.

التّفرقة الحاسمة بين حال الذين يجترحون السّيئات، وحال الذين يعملون الصّالحات وهم مؤمنون، فلا مساواة بينهم في الحكم، وهم مختلفون في ميزان الله وهو الذي أقام السّموات والأرض على أساس الحق والعدل، وذلك في قوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

يقول الرماني عن هذه الآية: «وهو بيان عجيب وقد كشفه التّشبيه بالإيمان الباطل والقياس الفاسد وفي ذلك دلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان وأنّه لا يساوى به مخلوق على صفته في القياس»[2]. فقد حسب هؤلاء - واهمين - أنّ لهم منزلة مع اكتساب السّيئات وفعل المعاصي مساوية لمنزلة المؤمنين، فجاءت الآية لتصور إنكار هذا الحسبان ونفيه وتقرر أنْ لا اقتراب في أي صفة من صفات الشّبه بين الطرفين. فتبدأ الآية بـ (أَمْ) المنقطعة التي تجمع بين الإضراب والاستفهام الإنكاري[3]، والذي يفيد بطلان هذا الحسبان، وقد آثر التّعبير القرآني (حسب) على (ظنّ) لأنّ «الظّن ضرب من الاعتقاد وقد يكون حسبان ليس باعتقاد»[4]، فتكون (حسب) هنا أبلغ لأنّها تحمل معنى الاعتقاد الذي بداخلهم فتعبر عن المعنى أدق تعبير، وهكذا لفظة (اجترحوا) فلم يقل (اكتسبوا) ذلك أنّ الاجتراع من جوارح الإنسان وهي أعضاؤه التي يكتسب بها[5]، فهم قد اكتسبوا السّيئات بكلّ جوارحهم، فالجرح يفيد من جهة اللفظ أنه فعل بجارحة والكسب لا يفيد ذلك[6]، فأداء اللفظة للمعنى لا يؤديه غيرها، فضلاً عن أنّ صيغة الافتعال فيه للمبالغة[7]، وقوله: (أنْ نجعلهم) أي نصيرهم[8]، وقد يكون بمعنى (الحكم) وهو أحد

---

(١) سورة الجاثية: الآيتان ٢١ - ٢٢.

(٢) النكت في إعجاز القرآن: ٨٥.

(٣) =: الكشاف: ٢٩٠/٤، والتحرير والتنوير: ٣٥١/٢٥.

(٤) الفروق في اللغة: ٩٢.

(٥) =: تاج اللغة وصحاح العربية: ٣٥٨/١ مادة (جرح).

(٦) =: الفروق في اللغة: ١٣٠.

(٧) =: التّحرير والتّنوير: ٣٥٣/٢٥.

(٨) =: الكشاف: ٢٩٠/٤.

معاني الجعل أيضاً[١]، ثمّ تأتي أداة التّشبيه التي تؤذن بأنّ المشبه به أعلى شأنا وأبعد منزلة من المشبه، ولا شكّ في أنّ الصّورة هنا قد ضمت مقابلة بلاغية، تمثلت في إنكار أنْ يستوي الفريقان[٢]، فقوبل بينهما، ثمّ بين حياتهم ومماتهم على سبيل الطّباق، وكذلك بين أحوالهم عند الموت إذ اليأس والعذاب للكافرين، والبشرى والرّحمة للمؤمنين، فضلاً عمّا يتضمنه ذلك من المقابلة في الأثر النّفسي في نفوس الفريقين، ولا سيّما بعد قوله تعالى ﴿ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ الذي جاء تذييلا لما قبله من إنكار حسبانهم وما اتصل بذلك الإنكار من المعاني، ويوحي هذا التّذييل بالفرحة التي تغمر قلوب المؤمنين، وبالخيبة التي تقطع أنفاس المشركين، وليس ذلك فحسب، فالأثر النّفسي لا يختص بهؤلاء، وإنّما يمتد ليشمل كلّ مَن يتلقى هذا البيان العجيب والحكم العادل، ففرحة المؤمنين في كلّ زمان ومكان لا تعادلها فرحة، لأنّ الله تعالى قد عظم من حال المؤمن ووضعه بمنزلة لا يساوى به مخلوق على صفته بالقياس، فضلاً عمّا كشفه التّشبيه من قياس الكافرين الفاسد، وتأييدا لهذا المعنى عمد التعبير القرآني إلى أسلوب الاكتفاء، إذ ذكر القسم الذي يظنونه ويزعمونه فأنكره عليهم وأظهره أنه ممّا لا ينبغي أنْ يكون، وترك ذكر القسم الآخر الذي لا يذهبون إليه، فتردد الكلام بين قسمين، فصرح بإنكار أحدهما وهو الذي سيق لإنكاره، واكتفى منه بذكر الآخر[٣].

وتأتي الآية الأخرى تتميما لمعنى سابقتها على سبيل التّناسب، فحكم الله العدل بين المؤمنين والكافرين قد ثبت بقوله: (ساء ما يحكمون)، فجاءت هذه الآية لتؤكد هذا العدل وأنّه أساس بني عليه الكون منذ أنْ خلق الله السّموات والأرض بالعدل، وخلقها بالحق يستدعي التّفاوت بين المسيء والمحسن والانتصاف للمعتدى عليه من المعتدي. وقوله ﴿ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ ﴾ أي ليستدل بها المكلف على قدرته تعالى ولتجزى[٤]. وقد عطفت الجملة على (بالحق) فحقق الوصل تفصيلا بعد إجمال، فالجزاء على الفعل بما يناسبه هو من الحق، وتعليل الخلق بعلة الجزاء هو من تفصيل معنى الحق وآثار كون الحق سببا لخلق السّموات والأرض، أو ملابسا

(١) =: الفروق في اللغة: ١٢٩.

(٢) =: الكشاف: ٤/٢٩٠.

(٣) =: بدائع الفوائد: ١/٢٠٨.

(٤) =: البرهان في علوم القرآن: ٣/٩٢.

لأحوال خلقهما[١]، فضلاً عن دلالة الآية على القدرة العظيمة للخالق، فمَن خلق السّموات والأرض بالحق قادر على إبطال ما يزعمون، وإحقاق الحق في الحكم بين الخلائق. وآثر التّعبير القرآني هنا لفظة (اكتسبت) ولم يقل: (اجترحت) لأنّ الكلام هنا عام للمؤمنين والكافرين، أمّا في الآية السّابقة فهو خاص بالمشركين.

وتتميما لمعنى العدل الذي عرضته الآيتان، ختمت الثّانية بقوله: (وهم لا يظلمون) توكيدا لعدله تعالى في الحكم والجزاء للجميع، فضلاً عمّا حققه هذا التّتميم من مشاكلة في الفواصل.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## المبحث الثّاني

## الإنسان والإيمان

تضمنت سور الحواميم ذكر المؤمنين وأحوالهم ومواقفهم في الحياة الدّنيا وفي الآخرة، فمنها ما عرضت منزلتهم عند الله تعالى والملائكة ودعاءهم لهم بالرّحمة والوقاية من العذاب، ومنها ما تضمن وعدهم بالأجر والثّواب الذي أعده الله لهم في الآخرة، ومنها ما جاء تثبيتا لهم وتأييدا لما هم عليه من اتباع الرّسول (ﷺ)، وذكر ولاية الله تعالى لهم في الدّنيا والآخرة، ومنها ما عرض لهم حقارة الدّنيا وخستها وأنّها ليس إلاّ متاع، وبين لهم طريق النّجاة والفوز، وغير ذلك كثير، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩ ﴾[٢].

تأتي هذه الآيات بعد ذكر المجادلين في آيات الله وتماثل حالهم مع المكذبين من الأمم السّابقة، وبيان مصيرهم وهلاكهم في الحياة الدّنيا، وأنّهم في الآخرة أصحاب

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٣٥٦.

(٢) سورة غافر: الآيات ٧ - ٩.

النّار، فيقابل ذلك بذكر المؤمنين وبيان منزلتهم، فلا يعرض حالهم الذي يقابل ما ذكر من حال الكافرين، وإنّما يظهر ما يدخل البشرى في نفوسهم ويدع الكافرين في حسرة وندم، وكيف لا، والملائكة من حملة العرش وغيرهم - وهم في هذه المنزلة من عرش الرّحمن - يوصلون التّسبيح بالاستغفار للمؤمنين، ويا له من استغفار! فهو دعاء جاء على سبيل التّفصيل بعد الإجمال، تضمن إمعانا في استقصاء التّفاصيل وتعداد النّعوت والأوصاف، فهو تلذذ واستمتاع بهذا المقام يوحي بالثّقة بإجابة السّؤال وقبول الرّجاء[1].

إمّا هذه الآيات من الوجهة البلاغية، فقد جاءت على سبيل الفصل عمّا قبلها استئنافا بيانيا ناشئا عن وعيد المجادلين في آيات الله أنْ يسأل سائل عن حال غير المجادلين، فكان الفصل إيذانا بذلك الفرق الكبير بين الفريقين، والبعد بين المنزلتين، واستكمالا لعلو شأن المؤمنين وبعد منزلتهم خص من أوصاف الملائكة ما يوحي برفعة شأنهم وقرب منزلتهم عند الله تعالى - وقد آثر التّعبير القرآني في هذا الخبر أسلوب التّرقي، فابتدأ بذكر منزلة الملائكة على سبيل الكناية عن قربهم من ذي العرش، ثمّ ذكر تسبيحهم بحمد الله، وأنّ هذا التّسبيح قد انبثق عن الإيمان الكامل المتجدد والمستمر والذي توحي به الصّيغة الفعلية، وكان كلّ ذلك تمهيدا وتوطئة للإخبار عنهم بأنّهم ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بتخصيص الاستغفار للمؤمنين، في حين قال في سورة الشّورى ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[2] وذلك لأسباب عدة، منها أنّ آية سورة غافر ذكرت جماعة مخصوصة من الملائكة، وآية سورة الشّورى ذكرت عموم الملائكة، فناسب أنْ تستغفر خاصة الملائكة للخاصة من النّاس، وأنْ تستغفر عامة الملائكة لعموم أهل الأرض. ومنها أيضاً التّناسب بين وصف الملائكة بالإيمان وبين مَن اتصف من أهل الأرض بهذه الصّفة. ومنها أنّ الدّعاء بالمغفرة للذين تابوا واتبعوا سبيل الله يفيد التّخصيص لا العموم، فلا تنطبق هذه الصّفة على عموم أهل الأرض، وكذلك سؤالهم أنْ يقيهم عذاب الجحيم وأنْ يدخلهم جنات عدن لا يكون

(١) =: نحو المعاني: ١٦٩.

(٢) سورة الشّورى: من الآية ٥.

إلاّ للمؤمنين فناسب ذلك التّخصيص، ولم يرد كلّ ذلك في آية سورة الشّورى(١).

وفي ذكر إيمان الملائكة وتسبيحهم تعريض بالمشركين إذ لم يكونوا مثل أشرف أجناس المخلوقات(٢)، وفي التّسبيح إشارة إلى الجلال، وفي التحميد إشارة إلى الإكرام(٣)، وقد وصفوا بالإيمان تنويها بقدرة الإيمان، وحضا للبشر على التّحلي به، فضلاً عمّا في ذلك من التنبيه على أنّ المشاركة في الإيمان توجب النّصح والشّفقة وإنْ تخالفت الأجناس(٤)، ولا يخفى ما في ذلك من تسلية للرسول (ﷺ) ببيان أنّ أشرف الملائكة مثابرون على ولاية مَن معه من المؤمنين ونصرتهم. وأوثر في دعاء الملائكة الافتتاح بالنّداء لأنّه أدخل في التضرع وأزجى للإجابة ولا سيّما أنّه جاء على سبيل الاستعطاف.

واستكمالا لأسلوب التّرقي توجهوا إلى الله بالثّناء بسعة رحمته وعلمه لأنّ سعة الرّحمة ممّا يوحي بالغفران، وذكر سعة العلم كناية عن يقينهم بصدق إيمان المؤمنين، وقد جاء ذلك على سبيل ما يسمى بتمييز النّسبة (رحمة وعلما)، فكان ذلك تفصيلا بعد الإجمال الذي في (وسعت كل شيء)، وقد حقق هذا التّفصيل تمكينا للصفة في النّفس، فاتساع رحمته وعلمه أمر لا يتصوره عقل، ولذلك عدل إلى أسلوب التّمييز تنبيها على ذلك، مع ما فيه من إثارة السّامع وتشويقه بالإبهام إلى الإعلام(٥)، فضلاً عن أنّ سياق هذا الدّعاء واقع في الدّنيا فاندفع ما عسى أنْ يقال: إنّ رحمة الله لا تسع المشركين يوم القيامة إذ هم في عذاب خالد فلا حاجة إلى تخصيص عموم كلّ شيء، وهذا شبيه بما يسمى بالاكتفاء، وفيه دقيقة أخرى وهي أنّ الملائكة قدموا ذكر الرّحمة على ذكر العلم، لأنّ مطلوبهم إيصال الرّحمة وأنْ يتجاوز عنهم، فالمطلوب بالذات هو الرّحمة، والمطلوب بالعرض أنْ يتجاوز عمّا علمه منهم، والمطلوب بالذات مقدم على المطلوب بالعرض(٦).

---

(١) =: التّعبير القرآني: ١٦٥.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/٩٠.

(٣) =: التّفسير الكبير: ٢٧/٣٣.

(٤) =: أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: ٦١٨.

(٥) =: نظم الدرر: ١٧/١٣ - ١٤.

(٦) =: التّفسير الكبير: ٢٧/٣٦.

ويصل أسلوب التّرقي إلى غرض الدّعاء في قولهم ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ﴾ على سبيل التّفريع بعد ذكر سعة الرّحمة وسعة العلم، ودلالة لفظ المغفرة على إسقاط عذاب الجحيم دلالة حاصلة على سبيل الرّمز والإشارة، ثمّ أردفوه بذكره على سبيل التّصريح بعد ذلك لأجل التّأكيد والمبالغة، ومثلما طلبوا إزالة العذاب عنهم فإنّهم أردفوه بطلب إيصال الثّواب إليهم أيضاً. وأوثر اتباع ذكر التّوبة بالعمل بما أمرهم واجتناب ما نهاهم عنه، وعبر عن ذلك باستعارة السّبيل، فهو الطريق الذي رسمه الله لهم فمشوا فيه.

ويستكمل الدّعاء بقولهم ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ توكيدا وتعضيدا لدلالة الالتزام بدلالة المطابقة إظهارا للحرص على المطلوب[١]، وهو تصريح بعد تلويح لأنّ الدّعاء بالمغفرة يستلزم ذلك.

ويستكمل دعاء الملائكة في الآية الأخرى بإعادة النّداء زيادة في التّضرع وعلى سبيل التّرقي من طلب الوقاية من العذاب إلى طلب إدخالهم الجنة، وقد جاء قولهم ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ ﴾ على سبيل ما يسمى بالأسجال بعد المغالطة، وهذا الفن البلاغي هو «أنْ يقصد المتكلم غرضا من ممدوح فيأتي بألفاظ تقرر بلوغه ذلك الغرض، أسجالا منه على الممدوح به، وبيان ذلك أنْ يشترط شرطا يلزم من وقوعه وقوع ذلك الغرض، ثمّ يخبر بوقوعه مغالطة، ويقع الأسجال لغير المغالطة أيضاً، وهذا النّوع هو الذي وقع في الكتاب العزيز»[٢]. وشمل الدّعاء من صلح من أهلهم على وجه التّرتيب الطبيعي، فالآباء أسبق علاقة بالأبناء، ثمّ الأزواج، ثمّ الذّريات، فقدموا أحق النّاس بالإجلال (الآباء) ثمّ اتبعوهم ألصقهم بالبال (الأزواج والذّرية)[٣]، وختمت الآية بقولهم ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ استقصاء للرغبة في الإجابة، وتعليلا لما قبلها، وأوثرت ثنائية (العزيز الحكيم) لأنّه لو لم يكن عزيزا لما صح وقوع المطلوب منه، ولو لم يكن حكيما لمّا حصل هذا المطلوب على وفق

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٩٢/٢٤.

(٢) الجدول في إعراب القرآن: ٢٢٥/٢٤.

(٣) =: نظم الدرر: ١٥/١٧.

الحكمة والمصلحة[١]. وقد تقدم ذكر (العزيز) لأنّ العزة متقدمة بالطبع على الحكمة[٢]، أو أنْ يكون التّقديم بالسّببية لأنّ مَن عزَّ حكم[٣]. وقد حقق ضمير الفصل (أنت) توكيدا سبق بتوكيد آخر بـ (إنّ) كما أفاد قصر الصّفتين على الله تعالى، ممّا يوحي بأنّ استجابة هذا الدّعاء مقصورة عليه جلّ وعلا لا على غيره.

واستكمالا للترقي في الدّعاء جاءت الآية الأخرى بطلب السّلامة من عموم ما يسوؤهم يوم القيامة بقولهم ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ وهو تعميم بعد التّخصيص الذي في قولهم ﴿ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ فهذا مقصور على إزالة الجحيم. وقولهم ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ يتناول عذاب الجحيم وعذاب موقف القيامة وعذاب السّؤال والحساب، فضلاً عن أنّه طلب بأنْ يصونهم الله في الدّنيا عن العقائد الفاسدة والأعمال القبيحة[٤]. وعلى هذا يكون (يومئذ) في قوله ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ ﴾ إشارة إلى الدّنيا لأنّ (إذ) تدل على المضي، وقوله: (فقد رحمته) يجوز أنْ يكون في الدّنيا وفي الآخرة[٥]. و(ذلك) إشارة إلى الرّحمة المفهومة من رحمته أو إليها وإلى الوقاية وما فيه من معنى البعد لما مرّ مرارا من الإشعار ببعد درجة المشار إليه[٦]. وفي الآية مع سابقتها احتباك، إذ «ذكر إدخال الجنات أوّلا دليلا على حذف النّجاة من النّار ثانيا، ووقاية السّيئات ثانيا دليلا على التّوفيق للصالحات أوّلا، وسرّ ذلك، التّشويق إلى المحبوب - وهو الجنان - بعمل المحبوب - وهو الصّالح - والتّنفير من النّيران باجتناب الممقوت من الأعمال - وهو السيئ - فذكر المسبب أوّلا وحذف السّبب لأنّه لا سبب في الحقيقة إلاّ الرّحمة وذكر السّبب ثانيا في إدخال النّار وحذف المسبب»[٧]. وهكذا تظهر لنا منزلة المؤمنين عند الله وملائكته، تلك المنزلة التي تستبشر بها النّفس فتثابر على العمل الصّالح والإخلاص لدين الله لتنال أعلى الدّرجات، وتشمل بدعاء الملائكة المقربين، أمّا مَن

(١) =: التّفسير الكبير: ٣٧/٢٧.
(٢) =: نتائج الفكر في النّحو، أبو القاسم السهيلي: ٢٧١.
(٣) =: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، عبد الواحد بن عبد الكريم الزّملكاني: ٢٩١.
(٤) =: التّفسير الكبير: ٣٧/٢٧.
(٥) =: تفسير غرائب القرآن: ٣٠/٢٤.
(٦) =: إرشاد العقل السليم: ٤/٥.
(٧) نظم الدرر: ١٧/١٧.

أصرّ على الكفر والضّلال فله الحسرة والنّدم وهو في الآخرة من الخاسرين.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

يعد الله المؤمنين في آية أخرى بالأجر الكامل والثّواب غير المنقوص جزاء إيمانهم المقترن بالعمل الصّالح، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ﴾[1].

وقد جاءت هذه الآية استئنافا بيانيا نشأ عن الوعيد في سابقتها للمشركين بقوله ﴿ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾[2]، فكأنّ سائلا يسأل: فإن اتعظوا وارتدعوا فما جزاؤهم؟ فجاء الجواب على سبيل الفصل والتّوكيد بـ (إنّ) وتعظيم منزلتهم بإيثار الاسم الموصول (الذين). واقترن ذكر الإيمان بالعمل ليستحق المؤمن هذا الوعد الثّابت الأكيد. وقد تقدم (لهم) للاهتمام به فكأنّه يقول: إنّ الأجر الكامل لهم لا لغيرهم، و(غير ممنون) أي غير منقوص أو غير مقطوع فهو من مننت الحبل إذا قطعته[3]. ولمّا كان الأجر من جهة الله تعالى فهو تشريف لا مَنَّ فيه[4]، وذلك كناية عن كونهم أعطوه شكرا لهم على ما أسلفوه من عمل صالح، فالإنعام عليهم في الجنة تصاحبه الكرامة والثّناء فلا يحسون بخجل العطاء[5]، وفي ذلك تشريف لهم وعظيم تكريم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويخاطب القرآن فئة الإيمان بأنّ تلتزم طريق الحق والاستقامة لتنال البشرى من الملائكة فلا خوف عليهم ولا حزن، والثّواب هو الجنة، فيها ما تشتهي الأنفس وما تطلبه، وفي الدّنيا لهم ولاية الله وملائكته، ثمّ يظهر منزلتهم عنده فلا أحسن ممّن دعا إلى الله وعمل صالحا وثبت قولا وعملا على الإسلام، وذلك في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ

---

(١) سورة فصلت: الآية ٨.

(٢) سورة فصلت: من الآية ٦و٧.

(٣) =: الجامع لأحكام القرآن: ٣٤١/١٥.

(٤) =: المحرر الوجيز: ٨١/١٣.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤١/٢٤.

بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

تستهل هذه الآيات بالتّوكيد بـ (إنّ) ردا على إنكار المشركين، ففي التّوكيد زيادة قمع لهم. وقوله: (ربنا الله) يفيد الحصر بتعريف المسند إليه والمسند، أي لا ربّ لنا إلاّ الله، وفي ذلك إشارة إلى رأس المعارف وهو معرفة الله، ثمّ تأتي الإشارة إلى رأس الأعمال الصّالحة وهو الاستقامة، فليس المراد من ذلك القول باللسان فقط لأنّ ذلك لا يفيد الاستقامة، فتعقيب القول بالاستقامة يوحي بأنّه مقرون باليقين التّام والمعرفة الحقيقية[2]. والسّين والتّاء فيها للمبالغة في التّقوم، وحقيقتها عدم الاعوجاج والميل، وتطلق على سبيل الاستعارة على ما فيه معنى حسن العمل والسّيرة على الحق والصّدق، وقد سبقت بـ (ثمّ) للتراخي الرّتبي لأنّها زائدة في المرتبة على الإقرار بالتّوحيد فهي تشمله وتشمل الثّبات عليه والعمل بما يستدعيه[3]. ثمّ قال: (تتنزل) وقد قال في موضع آخر ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾[4] وذلك لأنّ التّنزل في آية فصّلت أكثر ممّا في آية القدر ذلك أنّ المقصود بها إنّ الملائكة تنزل على المؤمنين عند الموت لتبشرهم بالجنة[5]، وهذا يحدث على مرار السّنة فأعطى الفعل كلّ صيغته ولم يحذف منه شيئا، أمّا آية القدر فإنّ تنزل الملائكة إنّما هو في ليلة واحدة في العام وهي ليلة القدر، فهو أقل من التّنزل الذي يحدث باستمرار على من يحضره الموت، فاقتطع من الحدث[6]، والتّعبير القرآني يحذف من الكلمة لغرض، فهو يقتطع من الفعل للدلالة على الاقتطاع من الحدث، أو يحذف مِنه في مقام الإيجاز والاختصار بخلاف مقام الإطالة والتّفصيل[7].

أمّا قوله ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ فهو كناية عن التأمين من جانب الله، وتسلية

---

(١) سورة فصلت: الآيات ٣٠ - ٣١.

(٢) =: التّفسير الكبير: ٢٨٢/٢٤ - ٢٨٣.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٨٢/٢٤ - ٢٨٣.

(٤) سورة القدر: من الآية ٤.

(٥) =: فتح القدير، محمد بن علي الشّوكاني: ٥١٥/٤.

(٦) =: بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني: ١٣.

(٧) =: م. ن: ١١.

تامة عن كلّ فائت ماض، وقد حذف القول، والتّقدير: يقولون للمؤمنين[١]. وتساق البشرى لهم بالجنة، والتّعبير بالمضارع (توعدون) يفيد أنّهم قد تكرر وعدهم بها بتكرر الأعمال الموعودة لأجلها.

والآية الأخرى استكمال لقول الملائكة لهم، وفيها بيان منزلة المؤمنين، وتشريفهم بولاية الملائكة لهم على سبيل المقابلة، فقوله ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ إشارة إلى مقابلة قوله في المشركين ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ ﴾[٢]، فكما قيّض للكفار قرناء، قيّض للمؤمنين ملائكة، وكما أنطق اتباعهم بالأئمة عليهم انطق الملائكة بالثّناء على المؤمنين[٣]، وزاد أن جعل ولاية الملائكة للمؤمنين لا تختص في الدنيا وإنّما تصحبهم ولاية الله والملائكة في الآخرة أيضاً زيادة في التسلية والتثبيت والاستقامة.

وفي قوله ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ذكر شهوات النّفس في الأولى، وذكر ما يطلبونه في الثّانية، على سبيل ذكر العام بعد الخاص، إذ لا يلزم أنْ يكون كل مطلوب مشتهى[٤]، وتقديم (لكم) في الجملتين للتخصيص والاهتمام به، وزاد هذا التّشريف والتّكريم بأنْ قال في الآية الأخرى ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾، والنُّزل: ما يهيئ للضيف من القرى وهو مشتق من النّزول لأنّه كرامة التّنزيل، وهو هنا مستعار لما يعطونه من الرّغائب، ووجه الشّبه سرعة إحضاره كأنّه مهيأ من قبل أنْ يشتهوه أو يتمنوه. وأوثرت ثنائية (الغفور الرّحيم) للإشارة إلى أنّ الله غفر لهم أو لأكثرهم اللّمم وما تابوا منه[٥]. وتقديم ذكر (المغفرة) على (الرّحمة) أولى في هذا المقام لأنّ المغفرة سلامة والرّحمة غنيمة، والسّلامة مطلوبة قبل الغنيمة[٦]، وذهب الزّركشي إلى أنّه من ذكر الخاص قبل العام[٧].

ويختم هذا التّشريف برسم صورة الدّاعية إلى الله، ووصف روحه ولفظه،

---

(١) =: المحرر الوجيز: ١١١/١٣.

(٢) سورة فصلت: من الآية ٢٥.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٨٦/٢٤.

(٤) =: فتح البيان في مقاصد القرآن: ٢٥٠/١٢.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٢٨٧/٢٤.

(٦) =: نتائج الفكر في النحو: ٢٧١.

(٧) =: البرهان في علوم القرآن: ٢٨٩/٣.

فالنهوض بواجب الدّعوة إلى الله في مواجهة أعداء الله أمر شاق ولكنّه شأن عظيم، ولذلك قال ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فجاء هذا الثّناء عليهم بحسن قولهم ليقابل ذكر مذمة المشركين على قولهم ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾[١] ليشعر بما بين الفريقين من بون بعيد، فتبدأ الآية بـ (مَن) وهو استفهام مستعمل في النّفي، أي لا أحد أحسن قولا من هذا الفريق، وفي الكلام حذف، والتّقدير: من قول مَن دعا إلى الله[٢]. ولا شكّ في أنّ لإيثار النّفي الاستفهامي على النّفي الخبري أسبابا ودلالات، منها أنّ النّفي الاستفهامي أقوى في دلالته النّفسية من النّفي الخبري، والنّفي الاستفهامي إنّما يكون لمطلق النّفي، والآية مثال على ذلك، والذي يتولى الإجابة هو السّامع، وهذا هو المقصود، فيصعب بعدئذ أنْ يتراجع أو أنْ ينسى ما قرره بنفسه لأنّه منه صدر بعد إعمال الفكر والتّأمل، فضلاً عن أنّ النّفي الاستفهامي مزيج من عدّة معان (نفي، وتعجب، وتهكم، وتمَن) وليس شرطا أنْ تحضر جميعها في آن واحد، أمّا في الخبر فالنّفي نفي ليس غير، ومنها أيضاً أنّ النّفي الاستفهامي يحمل الذّهن على التّفكير، والمشاعر على أنْ تتجاوب مع النّص حيث لا يكون صريحا إنّما يفهم ضمنا، فضلاً عن أنّه يستهدف الحث والحض على العمل ولا نجد ذلك في النّفي الخبري[٣].

وآثر التّعبير القرآني تقديم الدّعوة إلى الحق لكونها أشرف المراتب، وفي ذلك إشارة إلى ترغيبه (ﷺ) في الإعراض عن المشركين وقولهم، وإرشاده إلى المواظبة على التّبليغ والدّعوة، واقترنت الدعوة إلى الله بالعمل لأنّ إنسان القرآن إنسان عمل موصول وحركة دائبة، وهو لا يعمل مطلق عمل بل يطالبه ربّه بأنْ يكون عمله صالحا ولذلك كثيرا ما يتكرر ذكر اقتران الإيمان بالعمل الصّالح[٤].

وعلى الرّغم من أنّ الإيمان أو الدّعوة إلى الله والعمل الصّالح يدل على الإسلام، إلاّ أنّ الدّعاء لما كان بالقول والسّيف يكون للاعتقاد ويكون للحجة، والعمل يكون للرياء والإخلاص، دلّ على أنه لا بدّ من التّصريح بالاعتقاد لله في ذلك كلّه وأنّ

---

(١) سورة فصّلت: من الآية ٢٦.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٨٧/٢٤ - ٢٨٨.

(٣) =: أساليب النفي في القرآن: ٢٩٨ - ٣٠٤.

(٤) =: من أدب القرآن، أحمد الشرباصي: ١٢ - ١٣.

العمل لوجهه(١)، فقال ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ فكان ذلك تتميما لكلّ ما تقدم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي آية أخرى يعرض القرآن استغفار الملائكة بعد تسبيحهم بحمد ربهم، ولكنه هنا استغفار لمن في الأرض، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٢).

فقد جاءت الآية على سبيل الترقي أيضاً، إذ جاء التّسبيح أوّلا لأنّه يتعلق بحمد الله، وأسند لفظ (الرّب) إلى ضمير الملائكة للتشريف وإعلاء المنزلة، ثمّ جاء (يستغفرون) لأنّه يتعلق بالمؤمنين، ولأنّ طالب المغفرة عليه أنْ يقدم ما يثبت عبادته وصدقها قبل أنْ يطلب المغفرة وهكذا كان التّرتيب.

وجاءت الصّفات الإلهية مناسبة لما سبقها، فالغفور يتناسب مع طلب المغفرة للمؤمنين وفي ذلك تعريض بالمشركين وبشارة ضمنية للمؤمنين بقبول طلب المغفرة، وزيد ذلك بطلب رحمة الرّحيم لهم.

وقد أفادت صيغة المضارع في (يسبحون) و(يستغفرون) تجدد ذلك منهم واستمراره، وحذف مفعول (يسبحون) إذ دلّ عليه مصاحبته (بحمد ربّهم) والتقدير: يسبحون ربّهم، فكانت الباء للمصاحبة، أي تسبيحا مصاحبا للحمد، وفي ذلك تعريض بالمشركين إذ أعرضوا عن تسبيح ربّهم وحمده، وشغلوا بتحميد الأصنام. وفي تقديم التّسبيح على الحمد إشارة إلى أنّ تنزيه الله عمّا لا يليق به أهم من إثبات صفات الكمال له. والمراد بـ (مَن في الأرض) مَن يستحق استغفار الملائكة، فالعموم هنا مخصوص بدلالة آية سورة غافر السّابقة(٣). وقيل: إنّ قوله ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ مجاز مرسل بعلاقة العموم، وهي كون الشّيء بحيث يشمل الكثيرين، وباعتبارها يطلق اسم العام على الخاص(٤)، فظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص، إذ الكفار عليهم لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين، وقيل: بل هي على عمومها، لكنّ

---

(١) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٣٦٠.

(٢) سورة الشّورى: الآية ٥.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٣٣.

(٤) =: التّصوير البياني، حفني محمد شرف: ٩٣.

استغفار الملائكة ليس بطلب غفران الله للكفرة على أنْ يبقوا كفرة، وإنّما هو بمعنى طلب الهداية التي تؤدي إلى الغفران لهم[١]. ويرى صاحب الكشاف أنّ قوله تعالى (لِمن في الأرض) يدل على جنس أهل الأرض، وهذه الجنسية قائمة في كلّهم وفي بعضهم، فيجوز أنْ يراد به هذا وهذا، وقد دلّ الدّليل على أنّ الملائكة لا يستغفرون إلاّ لأولياء الله وهم المؤمنون[٢].

وجاءت جملة ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تذييلا لما قبلها لإبطال وهم المشركين بشفاعة شركائهم، ولذلك أوثر هنا أسلوب القصر بضمير الفصل مع التّوكيد بـ (إنّ) المسبوقة بـ (إلاّ) التّنبيهية للاهتمام بمضمون الجملة، وفي هذا التّذييل إشارة إلى سبب ترك معاجلة العذاب مع استحقاقهم له[٣]. والتّعريف في الصّفتين يفيد التّعظيم والتّكثير وهو ما تفيده صيغة (فعيل) أيضاً.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي آيات أخرى من سورة الشّورى يظهر التّعبير القرآني لنا خسة الدّنيا ودنو منزلتها بما فيها من الملذات، فما هي إلاّ متاع موقوت، وإنّ القيمة الباقية هي التي يدخرها الله في الآخرة للمؤمنين، وتتوالى الآيات لتعرض بعض صفات هؤلاء المؤمنين، وذلك في قوله تعالى ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[٤].

تبدأ هذه الآيات بتقليل شأن الدنيا، فكل ما فيها من الملذات متاع زائل، والحرف (مِن) للتنصيص على العموم، وتنكير (شيء) للعموم الذي نصت عليه (مِن) أي أيَّ شيء مهما كان، أمّا تنكير (خير) فهو للتكثير، وتقديم (على ربّهم) أفاد قصر التّوكل عليه تعالى لا على غيره، والتّعبير بأداة الاستعلاء تمثيل للإسناد والتّفويض إليه،

---

(١) =: المحرر الوجيز: ١٤٢/١٣.

(٢) =: الكشاف: ٢٠٩/٤.

(٣) =: روح المعاني: ١٣/٢٥.

(٤) سورة الشّورى: الآيات ٣٦ - ٣٩.

والتّعبير بالمضارع (يتوكلون) يفيد الاستمرار والتّجدد. وقد جاء نظم الآية على سبيل الاحتباك، والتقدير: فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدّنيا للنّاس جميعا وهو زائل، وما عند الله خير وأبقى ممّا لم تؤتوه وهو خالص للذين آمنوا. وقد قال هنا: (فما أوتيتم) وقال في موضع آخر ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ ﴾[١] لأنّه لم يتعلق في سورة القصص بما قبله كبير تعلق، فاقتصر على الواو لعطف جملة على جملة، وتعلق في سورة الشّورى بما قبلها أشد تعلق لأنّه عقب مالهم من المخافة وهي في قوله ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ ﴾[٢] بما أوتوا من الأمنة، والفاء حرف تعقيب[٣]. ثمّ قال هنا ﴿ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ وقال في سورة القصص ﴿ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾[٤] لأنّ في سورة القصص ذكر جميع ما بسط من الرّزق، وإعراض الدّنيا كلّها مستوعبة في هذين اللفظين وأمّا في سورة الشّورى فلم يقصد الاستيعاب، بل ما هو مطلوبهم في تلك الحالة من النّجاة والأمن في الحياة فلم يحتج إلى ذكر الزّينة[٥].

ولمّا كان الإيمان والتّوكل أمرا باطنا كان لا بدّ له من دلائل، وهي أعمال التّخلي عن الرّذائل والتّحلي بالفضائل، ولا بدّ من تقديم التّخلي على التّحلي لكون الأوّل درءا للمفاسد، ولذلك جاءت الآية الأخرى معطوفة على سابقتها بالواو فقال استكمالا للصفات المميزة لطابع الجماعة المسلمة ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[٦].

والتّعبير عنهم بالاسم الموصول للتعظيم والتّشريف، وإيثار المضارع (يجتنبون) لإفادة تجدد ذلك منهم، وبين صفتهم هذه التي تنبئ بقوة إيمانهم التي تمنحهم القدرة على مقاومة الشهوات، ومقاومة حالة الغضب، ولذلك قال: (إذا ما غضبوا هم يغفرون)، وأوثرت (إذا) لتوحي بتحقق الشّرط لأنّ الغضب طبيعة نفسية لا

---

(١) سورة القصص: من الآية ٦٠.
(٢) سورة الشّورى: من الآية ٣٠.
(٣) =: أسرار التكرار في القرآن: ٦١.
(٤) سورة القصص: من الآية ٦٠.
(٥) =: أسرار التّكرار في القرآن: ١٦١.
(٦) سورة الشّورى: الآية ٣٧.

تكاد تخلو عن نفس أحد مع التّفاوت[١].

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في (هم يغفرون) لإفادة التّقوى وقصر هذه الصّفة عليهم دون غيرهم في مثل هذه الحال، فضلاً عن إفادة الاختصاص لأنّه فاعل معنوي، وفيه إيماء إلى أنّهم يغفرون قبل الاستغفار[٢]، وقد حقق التّقديم مشاكلة في الفواصل أيضاً. أمّا ضمير الفصل فقد أظهر أنّ بواطنهم في غفرهم كظواهرهم، فكلمّا تجدد لهم الغضب جددوا الغفر مع القدرة على الانتقام[٣]، وتتجلى في ذلك سماحة الإسلام مع النّفس البشرية، فلا يكلف الإنسان فوق طاقته، فالله يعلم أنّ الغضب انفعال بشري ينبع من الفطرة وهو ليس شرا كلّه، فالغضب لله ولدينه مطلوب وهو خير، ولذلك لم يحرم الغضب في ذاته، ولم يقل (والذين لا يغضبون)، فوجه الإنسان إلى ما يقوده إلى الخير بأنْ يغلب غضبه ويغفر ويعفو[٤].

ثمّ تذكر الآية الأخرى صفة أخرى من صفات الفئة المؤمنة، والسّين والتّاء في (استجابوا) للمبالغة في الإجابة، وهي إجابة لا يخالطها كراهية ولا تردد، ودليل الاستجابة الأوّل هو إقامة الصّلاة، ثمّ قال: (وأمرهم شورى بينهم) على سبيل الإخبار بالمصدر للمبالغة، والإسناد مجاز عقلي لأنّ الشّورى تسند للمتشاورين، وأمّا الأمر فهو ظرف مجازي للشورى، والتّعبير بجعل أمرهم كلّه شورى ليصبغ الحياة كلّها بهذه الصّبغة، فالتّعبير بالاسمية أفاد أنّ ذلك كان خلقا ثابتا لهم. وقوله: (وممّا رزقناهم ينفقون) إدماج للامتنان في خلال المدح وإلاّ فليس الإنفاق من غير ما يرزقه المنفق[٥]، وصيغة المضارع تفيد الاستمرار التّجددي. وقد جاء التّرتيب بذكر الاستجابة أوّلا ثمّ إقامة الصّلاة ثمّ الشّورى ثمّ الإنفاق، ففصل الاستجابة وإقامة الصّلاة عن الإنفاق بذكر الشّورى، لأنّ الاستجابة وإقام الصلاة كانا من آثارها، أو لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات[٦].

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/١١١.

(٢) =: روح المعاني: ٢٥/٤٦.

(٣) =: نظم الدرر: ١٧/٣٣٠.

(٤) =: في ظلال القرآن: ٥/٣١٦٤.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/١١٣.

(٦) =: روح المعاني: ٢٥/٤٧.

ثمّ جاءت الآية الأخيرة لتعرض صفة أخرى من صفاتهم بقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ بإيثار الخبر الفعلي دون أنْ يقال: (منتصرون) لإفادة معنى تجدد الانتصار كلّما أصابهم البغي، والقصر المفهوم من تقديم (هم) قصر إضافي، وإيثار (إذا) بالذّكر لإفادة أنّهم ينتصرون ممّن بغى عليهم من غير أنْ يعتدوا، وفي ذلك مدح لهم من الخالق (ﷻ)، ولا سيّما أنّ الدّعوة آنذاك في عهدها المكي.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويصور القرآن جزاء المؤمنين، ويسوق لهم البشرى بشرطها وهو الاعتراف بربوبية الله وحده والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته، وذلك في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ ﴾[1].

فتوكيد الخبر بـ (إنّ)، وإيثار تعريفهم بطريق الموصولية وما تؤذن به من تعليل كرامتهم عند الله يوحي بالتعريض بالكافرين، وقولهم (ربنا الله) ليس مجرد قول، وإنّما هو منهج كامل للحياة، مما يوحي بحسن طاعتهم لربهم بتوحيده والخوف منه وعبادته. وعقب بقوله: (ثمّ استقاموا) للدلالة على حسن معاملتهم أنفسهم، وكلمة (استقاموا) بمفردها تفصح عن الطّاعات كلّها في الائتمار والانزجار[2]. والحرف (ثمّ) للتراخي الرّتبي على سبيل الارتقاء والتّدرج. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في (ولا هم يحزنون) لتخصيص المسند إليه بالخبر، أي إنّ الحزن منتف عنهم لا عن غيرهم[3] استكمالا للتعريض بالكافرين، فضلاً عن دلالة المضارع المنفي على استمرار انتفاء الحزن عنهم. وتماثل هذه الآية قوله تعالى في سورة فصلت ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾[4] إلاّ أنّه في سورة فصلت ذكر أنّ الملائكة ينزلون ويقولون ذلك، وفي سورة الأحقاف رفع الواسطة، فإذا جمعنا بين الآيتين حصل من مجموعهما

(١) سورة الأحقاف: الآيتان ١٣ - ١٤.

(٢) =: الإعجاز والإيجاز، أبو منصور الثّعالبي: ١٠، وجماليات المفردة القرآنية: ٢٧٣.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٦/٢٦ - ٢٧.

(٤) سورة فصلت: من الآية ٣٠.

أنّ الملائكة يبلغون إليهم هذه البشارة وأنّ الحق (ﷻ) يسمعهم هذه البشارة أيضاً من غير واسطة[١]. واسم الإشارة (أولئك) يوحي ببعد منزلتهم وعلو شأنهم، كما يوحي قوله (أصحاب الجنة) بالتّكريم والتّشريف، وكأنهم امتلكوا الجنة، مصداقا لقوله تعالى ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[٢]. وجاء قوله: (خالدين فيها) تتميما لهذا التّكريم والتّشريف وزيادة بشرى لهم، وفيه تعريض وتحسير للكافرين ولا سيّما أنّ الخبر جاء على سبيل الغيبة. وتوضح كلمة (يعملون) معنى (ربّنا الله) ومعنى الاستقامة على ذلك المنهج فهي تشير إلى أنّ هناك عملا كان الخلود في الجنة جزاءه.

وهكذا تظهر هذه الآيات حقيقة الإيمان وجزاء المؤمنين في يوم القيامة بتحقق وعد الله لهم بالجنة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويتوالى أسلوب التّرغيب بذكر الجنة وصفات مستحقيها بإذن الله ورحمته وهدايته، فتذكر في سورة الأحقاف بعض هذه الصّفات التي يستحق صاحبها الجنة بعد أنْ يتقبل الله عنه العمل الصّالح ويعفو عن سيئاته، فتعقب هذه الصّفات بقوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[٣].

وقد جاءت هذه الآية استئنافا بيانيا لأنّ ما قبلها يحدث ترقب السّامع لمعرفة فائدة ذلك، والإشارة في بداية الآية (أولئك) إلى الإنسان، وجمع لأنّ المراد به الجنس المتصف بالمعنى المحكي عنه، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلته وعلو درجته، أي أولئك المنعوتون بما ذكر من النّعوت الجليلة[٤]. وقوله: (نتقبل عنهم) أي نتقبل منهم الحسنات ونتجاوز عن السّيئات[٥]. وصيغة التّفعل في (نتقبل) تشير إلى أنّه تعالى يعمل في قبوله عمل المعتني[٦]. و(أحسن ما عملوا) عموم يكسب الجملة فائدة

---

(١) =: التّفسير الكبير: ١٣/٢٨.
(٢) سورة الأعراف: من الآية ٤٣.
(٣) سورة الأحقاف: الآية ١٦.
(٤) =: روح المعاني: ١٩/٢٦.
(٥) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٩٦/١٦.
(٦) =: نظم الدرر: ١٥٠/١٨.

التذييل لكل ما ذكر من تلك الأعمال والأوصاف. وقوله: (في أصحاب الجنة) أي (مع) أصحاب الجنة، وجاء المصدر (وعد الصدق) تأكيدا لما قبله وهو من باب إضافة الشّيء إلى نفسه لأنّ الصّدق هو الوعد الذي وعده الله على السّنة الرّسل، فالجزاء بحساب أحسن الأعمال مع العفو عن السيئات، والمآل إلى الجنة مع أصحابها الأصلاء ولن يخلف الله وعده.

❖❖❖❖❖

## المبحث الثّالث

## الإنسان والكفر

### أولاً: الجدل والتّكذيب بالآيات:

يتكرر ذكر الجدل والتّكذيب بآيات الله في سور الحواميم كثيرا وذلك إمّا لتعدد المجادل بأنّ يكون في أقوام مختلفة، أو المجادل فيه بأنْ يكون في آيات مختلفة، أو للتأكيد[1]، من ذلك قوله تعالى ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ ﴾[2].

تأتي هذه الآية بعد ذكر الصّفات العلوية، وتقرير الوحدانية، لتقرر أنّ هذه الحقائق المذكورة مسلمة من كلّ مَن في الوجود، وأنّ الجدال فيها شذوذ عن كلّ ما في الوجود. وقد جاءت الآية استئنافا بيانيا نشأ من أنّ كون القرآن منزلا من عند الله أمر لا ريب فيه، فينشأ في نفوس السّامعين أنْ يقولوا: فما بال هؤلاء المجادلين في صدق نسبة القرآن إلى الله لم تقنعهم دلائل نزول القرآن من الله؟ فجاءت هذه الآية جوابا يقرر حقيقة الجدل والمجادلين على سبيل القصر بالنّفي والاستثناء، والخبر هنا غير مستعمل في فائدة الخبر، فالإخبار عنهم بأنّهم كافرون لا يقصد منه إفادة ذلك، لكنْ مفهوم القصر يوحي بأنّ الذين آمنوا لا يجادلون في آيات الله، فضلاً عن أنّ وصفهم بالكفر قد جاء على سبيل التّعميم لكلّ مَن جادل في آيات الله من الأمم السّابقة أيضاً فيكون ذلك

---

(١) =: تفسير روح البيان: ٨/٢١٠.

(٢) سورة غافر: الآية ٤.

استدلالا بالأعم على الأخص[١].

وقوله: (في آيات الله) أي في صدقها، فتعين تقدير مضاف دلّ عليه المقام، وبلاغة الحذف ودخول (في) على (الآيات) تكمن في أنّ الظّرفية تحوي جميع أصناف الجدال بالباطل. ومجادلتهم - بعد ما تقدم من التّحدي - دالة على تمكن الكفر منهم ولذلك وصفوا بالكفر، وصيغة الفعل المضارع (يجادل) تفيد الاستمرار والتّجدد، فضلاً عن أنّ المجادلة على وزن (مفاعلة) تفيد المبالغة. وإظهار اسم الجلالة في (في آيات الله) ولم يقل (آياته) زاد من تفظيع هذا الأمر، وفيه زيادة تنويه بالقرآن، وقال: (في آيات الله) ولم يقل: (فيه) بالضّمير العائد إلى الكتاب دلالة على أنّ كلّ آية مِنه يكفي كفرا لمجادله فكيف ينكره كله[٢].

وهكذا كانت هذه الآية واسطة الانتقال بالحديث من تنزيل الكتاب الذي هو آية الله لخلقه إلى ذكر تكذيب الأمم والأحزاب السّابقة من خلال قصر المجادلة في هذه الآيات البينات على الذين كفروا، فكانت فاتحة الكلام عن قصصهم، فتعرض الحكمة ساطعة في قوله ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ فقد تقلب أمثالهم، وهاهي قصصهم تحكي نهايتهم وهلاكهم، ولذلك كان هذا النهي تهديدا لكلّ المجادلين في آيات الله، وأنّ صفتهم جميعا هي الكفر. ولا يخفى ما في الاستعارة التّمثيلية في (تقلبهم) من تعريض بهم فضلاً عن التّهديد والوعيد.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويعاد ذكر المجادلين في آيات الله في سورة غافر مرّة ثانية في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[٣].

تستهل الآية بالاسم الموصول (الذين) وهو في موضع نصب على البدل من (مَن) في قوله تعالى ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾[٤] أي كذلك يضِل الله الذين

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٨٢/٢٤.

(٢) =: روح المعاني: ٤٣/٢٤.

(٣) سورة غافر: الآية ٣٥.

(٤) سورة غافر: من الآية ٣٤.

يجادلون، وأوثرت صيغة المضارع لإفادة تجدد مجادلتهم وتكررها، وهو ما يتناسب مع الإسراف المذكور في الآية السّابقة لها (مسرف مرتاب).

وقوله (بغير سلطان) أي بلا برهان ولا حجة أتتهم من عند الله، والإتيان هنا مستعار للظهور والحصول، واستعير (كبر) للشدّة، أي مقت جدالهم مقتا شديدا، والمقت: شدّة الغضب، وهو هنا كناية عن شدّة العقاب، وكونه مقتا عند الله، تشنيع له وتفظيع[١]. وعطف عليه قوله: (وعند الذين آمنوا) تنويها بالمؤمنين وثناء عليهم بأنّهم يكرهون الباطل، فضلاً عمّا في ضمّ عنديتهم إلى عندية الله تعالى من تبجيل لمكانتهم وهو تلقين لهم بالإعراض عن مجادلة المشركين. ثمّ يأتي قوله: (كذلك) لتشبيه طبع القلوب المتكبرة بطبع قلوب هؤلاء المجادلين تهديدا لكلّ مَن يماثلهم في فعلتهم الشّنيعة، وأوثرت كلمة (يطبع) على (يختم) على سبيل الاستعارة لأنّ الطّبع أعمّ من الختم[٢]، ولأنّ الطّبع أثر يثبت في المطبوع ويلزمه فهو يفيد من معنى الثّبات واللزوم مالا يفيده الختم[٣]. ووصف القلب بـ (متكبر جبار) مجاز عقلي قصد منه صاحبه، والعلاقة سببية لأنّه سبب التّكبر والتّجبر ومركزهما ومنبعهما، وتقديم (كلّ) نصّ على استغراق أفراد القلوب ممّن اتصف بهذا الوصف[٤]. وفي ذلك تهديد للكافرين وبيان لأسباب الجدال والإصرار على الضّلال وهي التّكبر والتّجبر المنبثقان من تلك القلوب التي طبعت بالضّلال والكفر.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي موضع ثالث من سورة غافر يعاد ذكر المجادلين في آيات الله، ويظهر التّعبير القرآني سبب الجدال وقصره على الكبر في قلوبهم الخاوية التي لا تعي حقيقة قدرة الخالق العظيم، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝٥٦ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٤٢/٢٤ - ١٤٣.
(٢) =: المفردات في غريب القرآن: ٤٤٩، ولسان العرب: ٢٣٢/٨ مادة (طبع).
(٣) =: الفروق في اللغة: ٦٤.
(٤) =: نظم الدرر: ٦٨/١٧.

يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[١].

وهكذا يتكرر ذكر المجادلين في هذه السّورة، وهو تكرار تعداد للتوبيخ عند نهاية غرض الاستدلال، وسوق البراهين ودلائل القدرة. وأوثر التّوكيد هنا بـ (إنّ) ليتناسب مع تكرار ذكرهم في السّورة الواحدة، ووصف جدالهم بأنّه (بغير سلطان أتاهم) يزيد من تشنيع مجادلتهم.

ويظهر التّعبير القرآني سبب الجدال بأسلوب القصر بالنّفي والاستثناء ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ ﴾ بإطلاق (الصّدور) على (القلوب) على سبيل المجاز المرسل بعلاقة المحلية والمراد ضمائر أنفسهم، وقد أفاد القصر نفي أنْ يكون داعيهم إلى المجادلة شيئا آخر غير الكبر، فالقصر تأكيد على تأكيد لما يتضمنه من إثبات الشّيء بوجه مخصوص مؤكد ونفي ما عداه[٢].

وجاء تنكير (كبر) للتعظيم، أي كبر شديد بتعدد أنواعه وتمكنه من نفوسهم، ثمّ قال: (ما هم ببالغيه) فهم ليسوا أهلا له، بل هم أقلّ من أنْ يكون لهم الكبر، ونفيه عنهم هو نفي للوصول إلى شيء من آثاره، وقد أفاد ضمير الفصل (هم) توكيدا لنفي الكبر عنهم ونفي بلوغهم إليه أو إلى شيء من آثاره، وقوله: (ما هم ببالغيه) مجاز مرسل علاقته اللازمية لأنّ البلوغ في حقيقته الوصول، والمعنى ما هم ببالغي الكبر، أي ما هم بمحصليه ونائليه[٣]. وأوثر في نفي بلوغهم إليه التّعبير بالاسمية لإفادتهم الثّبوت والدّوام، ويوحي نفي بلوغهم الكبر بأنّ الله مذلهم فلا يصلون إليه[٤]. وقد تقدم الخبر (في صدورهم) على المبتدأ (كبر) للاهتمام به، وللفت أنظار المتلقين إلى سبب الجدال. وفي نفي بلوغهم تأنيس للرسول (ﷺ) ولذلك أمره بعد ذلك بالاستعاذة بالله لأنّه يسمع أقواله وأقوال مخالفيه، وهو بصير بمقاصدهم ونياتهم فقال ﴿ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ في حين قال في موضع آخر ﴿ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) سورة غافر: الآيتان ٥٦ - ٥٧.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٧٢/٢٤ - ١٧٣.

(٣) =: معترك الأقران، جلال الدين السيوطي: ١٧٩/١.

(٤) =: جامع البيان في تفسير القرآن: ٥٠/٢٤.

ﵟٱلۡعَلِيمُﵞ[١] فجاء في الاستعاذة ممّن يرى ويبصر من شياطين الإنس بـ (السّميع البصير) وفي الاستعاذة من الشّيطان الذي نعلمه ولا نراه بقوله: (السّميع العليم) فناسب كلّ تعبير موضعه[٢].

وتوحي الاستعاذة بالله في مواجهة الكبر بشدة بشاعته واستفظاعه، كما أنّ ثنائية (السّميع البصير) قد أوثرت هنا لأنّ الكبر الذّميم يتمثل في حركة ترى وفي كلام يسمع، ولذلك فهو يكل أمره إلى السّميع البصير ليتولاه[٣].

ولمّا كان أكثر جدالهم وأشده في الآيات المثبتة للبعث مع إقرارهم أنّ الله هو خالق السّموات والأرض، أقيمت عليهم الحجة على إثبات البعث بأنّ بعث الأموات ليس أكبر من خلق السّموات والأرض في قدرة الله تعالى، ولذلك قال (ﷻ) ﵟلَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِﵞ، وقد ابتدأت الآية بلام القسم المحذوف، والغاية تأكيد الخبر، وقد جاءت الآية على سبيل ما يسمى بـ (فن الإلجاء)[٤] إذ جاءت بما يسقط في أيديهم ويقطع عليهم طرق المكابرة والمعاندة وهو خلق السّموات والأرض، ومِن قدر على خلقها مع عظمها كان - ولا شكّ - على خلق الإنسان أقدر، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله[٥].

ثمّ يأتي التذييل الذي يجري مجرى الأمثال[٦] والذي تضمن إظهار لفظ (النّاس) في موضع الإضمار لتكون الجملة مستقلة بالدلالة، ويصلح التّذييل مثلا.

ولا شكّ في أنّ الآية - من جهة أخرى - تعد توبيخا للكفار المتكبرين، وكأنّه تعالى يقول: «مخلوقات الله أكبر وأجل قدرا من خلق البشر، فما لأحد منهم أنْ يتكبر على خالقه»[٧] فلا كبر ولا تكبر أمام عظمة الخالق وقدرته العظيمة، ولا تملك النّفس

---

(١) سورة فصلت: من الآية ٣٦.

(٢) =: التّفسير القيم: ٥٨٦، والتعبير القرآني: ٢٠٣.

(٣) =: في ظلال القرآن: ٥/٣٠٩٠.

(٤) «وهو أنْ يبادر المتكلم خصمه بما يلجئه إلى الاعتراف بصحته» الجدول في إعراب القرآن: ٢٤/ ٢٦٣.

(٥) =: م. ن: ٢٤/٢٦٣.

(٦) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/١٧٧.

(٧) المحرر الوجيز: ١٣/٥٧.

الإنسانية أمام آيات الله بعد تدبرها إلاّ الخشوع والطّاعة للخالق (ﷻ).

❖❖❖❖❖

ويعرض التّعبير القرآني تشابه حال الكافرين في إنكارهم وجحدهم الآيات بعد السّؤال عن سبب انصراف المشركين في زمن الرّسول (ﷺ) عن الإيمان على سبيل التعجيب، فتأتي الآية جوابا لذلك، وهي قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝ ﴾(١)، أي كما صرفتم عن الحق مع قيام الدّليل عليه فكذلك يصرف عن الحق مَن كان يجحد بآيات الله من الأمم السّابقة قبلكم، وفي هذا تسلية للرسول (ﷺ) ودعوة إلى عدم التعجيب من حالهم التي تماثل حال غيرهم من الكافرين.

وهكذا كانت هذه الآية تعليلا لسابقتها، وبني الفعل (يؤفك) للمجهول للتركيز على الحدث دون النّظر إلى محدثه ليتناسب ذلك مع مقام الإنكار والتّوبيخ في هذه الآية، ويجوز أنْ يكون المراد بالآية المخاطبين في (ذلكم الله ربكم) فيكون الموصول وصلته إظهارا في مقام الإضمار على سبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، ويكون التّشبيه مبالغة في أنّ أفكهم لا شبيه له سواه، ويجوز أنْ يكون المراد بها عاما لكلّ مَن جحد بآيات الله على سبيل التّعريض. وصيغة المضارع (يجحدون) للاستمرار التّجددي واستحضار الحالة(٢). وقد أوثر التّعبير عن فعلهم بالجحد دون الإنكار لأنّ الجحد أخص منه فهو إنكار الشّيء الظّاهر، وجعل الجحد ممّا تدل عليه الآيات ولا يكون ذلك إلاّ ظاهرا، ويجوز أنْ يقال: الجحد هو إنكار الشّيء مع العلم به بدليل قوله ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾(٣) والإنكار يكون مع العلم وغير العلم(٤). ويوحي كل ذلك بتشنيع فعلهم وإصرارهم على التّكذيب على الرّغم من وضوح الدّلائل والآيات.

❖❖❖❖❖

وفي موضع آخر من سورة غافر يعاد ذكر المجادلين في آيات الله بعد عرض مشهد الحياة والموت، والقدرة الإلهية في ذلك، يقول الله (ﷻ) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٣.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٨٨/٢٤.

(٣) سورة النّمل: من الآية ١٤.

(٤) =: الفروق في اللغة: ٣٧.

يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[١].

والبادي أنّ الآية في الكفار المجادلين في رسالة محمد (ﷺ) والكتاب الذي جاء به، إذ تعرض الآية جدالهم على سبيل التعجيب منه بعد كلّ هذه الآيات والدّلائل الواضحة، كما أنّها جاءت مقدمة لبيان ما ينتظرهم في يوم الحساب.

وتبدأ الآية بالاستفهام التّقريري الذي أريد به التّقرير على الإثبات، والرؤية هنا علمية، و(أنّى) بمعنى كيف وهي للتعجيب. وبني الفعل (يصرفون) للمجهول للتعجيب من الصّارف الذي يصرفهم وهو غير كائن في مكان غير نفوسهم[٢].

وأعيد ذكر صفتهم التي عرفوا بها في قوله ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ على سبيل التخصيص بعد العموم الذي في المجادلة في آيات الله، فهؤلاء قد كذبوا كتابا واحدا ورسولا واحدا، ولكنهم بذلك قد كذبوا كلّ ما جاء به الرّسل.

وأوثر الفصل في الآية لأنّها تفصيل لما سبق وبيان لشيء ممّا في سابقتها. وختمت الآية بالتّهديد بقوله: (فسوف يعلمون) بإيثار (سوف) على (السّين) إطماعا لهم وإمهالا على سبيل الاستدراج، وتقوية للتهديد، «وعبر عن وجدانهم العذاب بالعلم به بمناسبة استمرارهم على جهلهم بالبعث وتظاهرهم بعدم فهم ما يقوله الرّسول فأنذروا بأنّ ما جهلوه سيتحققونه يومئذ»[٣]. وقد جاء هذا التّهديد مجملا في ختام الآية، ليعرض تفصيله في الآيات الأخرى وما فيه من الإهانة والتّحقير في عذابهم يوم القيامة.

❖❖❖❖❖

ويعرض القرآن تهديدا آخر للمجادلين، إذ يبدأ بفضح إلحادهم وأنّه لا يخفى على الله، كما يظهر مصيرهم في النّار على سبيل الاستفهام التّقريري المتضمن للتقريع والتّهديد، ثمّ زيد تهديدا صريحا آخر، وأكّد علم الله بأعمالهم ورؤيته لها بيانا لاستحقاقهم العذاب، ثمّ أعقب تهديدهم على الإلحاد بالآيات - على وجه العموم -

---

(١) سورة غافر: الآيتان ٦٩ - ٧٠.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٠١/٢٤.

(٣) التّحرير والتّنوير: ٢٠٢/٢٤.

بالتّعرض إلى إلحادهم في آيات القرآن على سبيل ذكر الخاص بعد العام، وكان ذلك تهديدا شديدا آخر ولا سيّما بحذف جواب ذكر كفرهم بآيات القرآن. وكرر ذلك في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

ولمّا كان المقام مقام تهديد بدأت الآية بالتوكيد بـ (إنّ) وأوثرت صيغة المضارع (يلحدون) للتعبير عن استمرار ذلك وتجدده منهم، والإلحاد مستعار للعدول والانصراف والانحراف في تأويل الآيات. وقد قيل: إنّ الإلحاد هو الميل عن الحق أو التّكذيب، وقيل هو المكاء والصفير واللغو، أو هو أنْ يوضع الكلام غير موضعه، ولفظة الإلحاد تعم كلّ ذلك[2]. ويومئ نظم الآية في قوله: (يلحدون في آياتنا) بالتّهديد الصادر عن الغضب، وفي إضافة الآيات إليه جلّ جلاله ما يؤكد ذلك، وفي قوله: (لا يخفون علينا) قرع أعنف، يزداد فعله بمقدار هيمنة قائله، وقيمة التّهديد مستمدة من قيمة مَن يهدد. ويبدأ التّهديد مخيفا بقوله: (لا يخفون علينا) فهم مكشوفون ومأخوذون بما يلحدون مهما غالطوا والتووا، فقوله: (لا يخفون علينا) كناية عن الوعيد تذكيرا لهم بإحاطة علم الله بكلّ كائن.

ثمّ يأتي التّصريح بالتّهديد على سبيل التّعريض بهم بقوله ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ إذ جمعت الآية في هذا السّياق بين التّقرير والتّقريع والتّهديد، فالاستفهام يحمل معنى التّقرير، فالملحدون سيلقون في النّار، وسينال المؤمنون الأمن في ذلك اليوم[3]. وطريقة الاستفهام هذه من أشدّ ما يكون في التبعيد، بما يتضمنه من الاستجهال والتّهكم والاستخفاف والتّهديد. وقوله: (يأتي آمنا) كناية عن أنّ مصير المؤمنين الجنة، إذ لا غاية للأمن إلاّ أنّه في نعيم، وهي في الوقت ذاته كناية تعريضية بالملحدين[4]، وثمّة ملحظ بلاغي يتجلى فيه جانب من إعجاز البيان

---

(١) سورة فصّلت: ٤٠ - ٤١.

(٢) =: المحرر الوجيز: ١٢١/١٣.

(٣) =: التّفسير الكبير: ١٣١/٢٧.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٣٠٤/٢٤ - ٣٠٥.

القرآني بإيجازه وهو الاحتباك، إذ حذف ما يقابل (مَن يلقى في النّار) وهو: مَن يدخل الجنة، وحذف مقابل (مَن يأتي آمنا) وهو: مَن يأتي خائفا وهم أهل النّار[١]، ولا شكّ في أنّ ذلك يتضمن دلالة عظيمة يتجلى فيها التّرهيب والتّرغيب بهذا النّظم الذي يصور الكافر وهو (يلقى) في النّار كما يلقى الشّيء الذي لا قيمة له بعد ذلك، والبناء للمجهول فيه إشارة إلى أنّه يخطف من حيث لا يدري، وفي هذه اللفظة يكمن ذلّ الكافر وهو أنّه في ذلك اليوم، مقابل ما يناله المؤمن ممّا تتمناه النّفس دائما في الدّنيا والآخرة وهو (الأمن) فبوجوده تنعم البشرية بكلّ شيء وبزواله لا تلتذ بكلّ ما يتوفر لها.

وقد آثر التّعبير القرآني في رسم صورة العذاب في هذه الآية استخدام صيغة الفعل (يلقى) لتركيز الاهتمام على الحدث بصرف النّظر عن محدثه، وفي ذلك بيان للطواعية التي يتم بها الحدث تلقائيا أو على وجه التّسخير وكأنّه ليس في حاجة إلى الفاعل[٢]، كما دلت هذه الصيغة على القدرة العظيمة للفاعل فضلاً عن التّمكن.

وفي مقابل ذلك جاءت صيغة (آمنا) فصور الأمر وكأنّه قد تمّ وانتهى إذ تدل على الثّبوت والاستمرار، وأنّهم قد اتصفوا بهذه الصفة ونالوا هذا الوعد، وتمّ بذلك تجسيد ما سيحدث وكأنّه حاضر مشاهد. وكان مقتضى الظاهر أنْ يقابل الإلقاء في النّار بدخول الجنة، لكنّه عدل عنه إلى ذلك اعتناء بشأن المؤمنين لأنّ الأمن من العذاب أعمّ وأهمّ ولذا عبر في الأوّل بالإلقاء الدال على القسر والقهر، وفي الثّاني بالإتيان الدّال على أنّه بالاختيار والرّضا مع الأمن[٣].

وهكذا يعرض القرآن صورتين متقاربتين بنظم يباعد بين الفريقين كلّما أعيدت قراءته، لذلك قال الرّماني عن هذه الآية «وهذا أشدّ ما يكون في التبعيد»[٤] أي تبعيد استواء الفريقين. ولا يخفى ما في هذا النّظم الجليل من وصفهم بالغفلة والبله والبعد عمّا يفيد، حيث لا يميزون بعقولهم بين من يلقى في النّار ومِن يأتي آمنا يوم القيامة، وإذا كان أمرهم كذلك، فهذا الالتفات إليهم وأمرهم على سبيل التّهديد

---

(١) =: م. ن: ٢٤/٣٠٤ - ٣٠٥.

(٢) =: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٣) =: روح المعاني: ٢٤/١٢٧.

(٤) النكت في إعجاز القرآن: ١٠٨.

بـ(اعملوا ما شئتم) مناسب للمقام[١].

وهذا الالتفات يعطي هذا المقطع مزيدا من الاهتمام لأنّ الالتفات إيقاظ بمخالفة النّسق المألوف وتجديد وتطرية وتنشيط. وطبيعة الأمر في (اعملوا ما شئتم) هي التي انبثق منها التّهديد والوعيد، فقد أمرهم بذلك ليوقع بهم أفانين وضروب الإيذاء[٢]. ثمّ يتكرر الالتفات بكل عطائه في قوله: (إنه بما تعملون بصير) ففيه انصراف سريع عنهم بعد كفحهم بهذا التّهديد، فهو وعيد بالعقاب على أعمالهم على سبيل الكناية، وتوكيده بـ (إنّ) لتحقيق معنييه الكنائي والصريح[٣].

ومن ضمن ما يكتنزه نظم الآية من دلالة ما يشير إليه قوله (ﷺ): «**لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[٤]، فيكون هذا الالتفات مناسبا للإعراض عن الكافرين وتهديدهم إلى وعد المؤمنين بقوله: (اعملوا ما شئتم) كناية عن نهاية الرّضا والقبول عنهم، وليس معنى الأمر هنا أنّه تعالى يأمرهم بالشّر، وقوله (ﷺ): «**لعل الله اطلع**» فيه تشريف لهذه الجماعة وإقبال من الله عليها[٥].

ثمّ أعقب تهديدهم على الإلحاد في آيات الله بشكل عام بتهديدهم على إلحادهم في آيات القرآن بشكل خاص فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ ﴾ وحذف خبر (إنّ) لتذهب النفس فيه كلّ مذهب، ففي هذا الحذف توفير للمعاني وإيجاز في اللفظ يقوم مقام عدة جمل[٦]، فضلاً عن أنّ في الحذف مزيد تخويف من عاقبة فعلهم، وترهيب من مصيرهم الذي لم يذكر لشدة العذاب وأثر الخسران، وكأنّ فعلتهم لا يوجد وصف ينطبق عليها ويكافئها لشدة بشاعتها. وزيد هذا المعنى ترهيبا بقوله ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴾ بيانا لشناعة الكفر به، وتوكيدا بـ (إنّ) و(اللام) لوصف الكتاب بهذه الصفة، وإن كفرهم به وتكذيبهم آياته لا يؤثر فيه شيء، وإنّما وَبَال ذلك عائد عليهم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) =: المعاني الثّانية في الأسلوب القرآني: ٣٧٤.
(٢) =: دلالات التّراكيب: ٢٦٥.
(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٣٠٥/٢٤.
(٤) صحيح البخاري: ٧/٣.
(٥) =: دلالات التّراكيب: ٢٦٦.
(٦) =: التّحرير والتّنوير: ٣٠٧/٢٤.

ولتماثل أحوال مشركي قريش بأحوال الكافرين من الأمم السّابقة، ضرب الله تعالى أمر موسى (عليه السلام) مثلا للنبي (ﷺ) ولقريش، وذكر من خلاله بمصير المكذبين بموسى ليتعظ هؤلاء بهم، وأظهر لهم أنّ تأخيرهم هو من قضاء الله وحكمه، فقال تعالى ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾[1] والمعنى أن فعل أولئك كأفعال هؤلاء حين جاءهم مثل ما جاء هؤلاء، و(الكلمة السابقة) هي حتم الله تأخير العذاب إلى يوم القيامة[2]. والتعبير عن الجلالة بلفظ (ربك) لما في معنى الرّب من الرّأفة والانتصار له، ولمَا في الإضافة إلى ضمير الرّسول (ﷺ) من التّشريف، وكلا الأمرين تعزيز للتسلية، وأكد الخبر بـ (إنّ) و(اللام) لتثبيت الرّسول (ﷺ) وإظهار حقيقة ما في نفوس الكافرين من التّردد والشّك، وقد وصف هذا الشّك بأنّه (مريب) على سبيل الإسناد المجازي لقصد المبالغة[3]. وقد زيد نظم الآية في سورة الشّورى قوله ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[4] لأنّ قبله ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾[5] فأخبر بمبتدأ كفرهم وهو إنكارهم بعد مجيء العلم، أي القرآن والآيات الدّالة على صحة ما جاء به النّبي (ﷺ)، فـ (مِن) لابتداء الغاية وقد دلت على ابتداء كفرهم، ولذلك ذكرت النهاية التي أمهلوا إليها ليكون ابتداء عقابهم، فيكون الحد مذكورا مع الحد[6]. أمّا تنكير (شكّ) فللتكثير والتّعظيم، فهو شكّ يملأ نفوسهم الكافرة ويجلل قلوبهم بصدأ الضّلال فلا يهتدوا إلى الحق.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويذكر جمع الكفر والتّكذيب في سورة الشّورى بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ

(١) سورة فصّلت: الآية ٤٥.
(٢) =: المحرر الوجيز: ١٣/١٢٦ - ١٢٧.
(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/٣١٨.
(٤) سورة الشّورى: من الآية ١٤.
(٥) سورة الشّورى: من الآية ١٤.
(٦) =: درة التّنزيل وغرة التأويل: ٤٢١.

عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

أوّل الظّواهر البلاغية في هذه الآية حذف مفعول (يحاجون)، والتّقدير: يحاجون المستجيبين لله من بعد ما استجابوا له، وكذلك حذف فاعل (استجيب) إيجازا لأنّ المقصود، من بعد حصول الاستجابة المعروفة[2].

وتقدم ذكر هؤلاء وصفتهم مقارنة بذكر استجابة المؤمنين لله ورسوله، على وصف حجتهم التي يحاجون بها بالدّحض تشويقا لمعرفة مصيرهم ونتيجة محاجتهم. وتدلّ صيغة المضارع (يحاجون) على استمرار ذلك وتجدده.

وقوله ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ يزيد من التّوبيخ والتّقريع لهؤلاء، فقد أصروا على الضّلال على الرّغم من وضوح الدّلائل واستجابة النّاس للدّعوة. ثمّ قال: (حجتهم داحضة) على سبيل استعارة الدّحض للبطلان بجامع عدم الثّبوت كما لا تثبت القدم في المكان الدّحض، وحقيقة الادحاض الازلاق، ومكان دحض أي زلق[3]، وهكذا توحي هذه الكلمة بمنزلقهم الخطير واتباع طريق الضّلال والباطل، وكأنّ لا حجة لهم أصلا لأنّها باطلة، وإنّما عبر عنها بالحجة مجاراة معهم على زعمهم الباطل[4]. أمّا إسناد الدّحض إلى الحجة وهي في الحقيقة مدحوضة فهو مجاز عقلي بعلاقة المفعولية، إذ بني اللفظ للفاعل لينسب الزّوال والبطلان إليها، لأنّ داحضة بمعنى باطلة زائلة، فوصف الحجة بـ (داحضة) بالبناء للفاعل أوفق للمعنى وأبين وأبلغ[5].

ولا يقف التّعبير القرآني عند ذلك، وإنّما يأتي بالوعيد وذكر سوء عاقبة هؤلاء وفعلهم بقوله ﴿ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ ﴾ بتنكير (غضب) للدّلالة على شدته وكثرته، وتقديم المسند على المسند إليه في (وعليهم غضب) للاهتمام بوقوع الغضب عليهم كما هو

---

(١) سورة الشّورى: الآية ١٦.
(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٦٦/٢٥.
(٣) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/١٦ - ١٥.
(٤) =: روح المعاني: ٢٥/٢٥.
(٥) =: أساليب المجاز في القرآن: ١٦١.

مقتضى حرف الاستعلاء المجازي[١]. ثم قال ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ بهذا التّنكير الموحي بكثرة العذاب ووصف شدته، وتقديم (لهم) أفاد قصر هذا العذاب الشّديد عليهم وكأنّه مخصوص لهم لا لغيرهم.

❖❖❖❖❖

ويذكر المجادلون في آيات الله في سورة الشّورى بعد ذكر النّعم الإلهية وإظهار فضل الله تعالى على النّاس، ولكنّ الكافرين جحدوا نعمة الله وأصروا على الإشراك والإنكار، فجاءت هذه الآية لتعلن عاقبة كفرهم على سبيل التّهديد والوعيد، فقال (ﷻ) ﴿ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٣٥ ﴾[٢].

إذ تبدأ الآية بهذه الواو التي تسمى واو الصّرف والتي تأتي لعطف الفعل على الاسم فتقدر (أنْ) لتكون مع الفعل بتأويل المصدر[٣]، وذكر فعل (يعلم) للتخويف والتّهويل في التّهديد. ونفى عنهم المنجى والمهرب على سبيل النّفي بـ (ما)، وتقديم (لهم) للتخصيص، ممّا يوحي بنجاة المؤمنين في ذلك اليوم. أمّا (مِن) فتفيد التّنصيص على العموم، وأوثر المصدر الميمي (محيص) لأنّ المصدر غير الميمي حدث غير متلبس بشيء آخر، أمّا المصدر الميمي فإنّه متلبس بذات في الغالب، ويدل على نهاية الأمر ومنتهاه[٤]، فالنفي الواقع على (محيص) بعد (مِن) قد أفاد نفي ذلك عنهم من كلّ جهة، فلا فرار ولا مهرب مهما كان قليلا أو مهما كانت جهته، وهذا أدخل في التّهديد.

❖❖❖❖❖

ويرد التّعبير القرآني على افتراءات الكافرين وتخرصاتهم بحجة دامغة، ويظهر فساد قولهم بتقليد الآباء في العبادة، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ٢١ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٦٦/٢٥.

(٢) سورة الشّورى: الآية ٣٥.

(٣) =: المحرر الوجيز: ١٧٧/١٣.

(٤) =: معاني البانية في العربية: ٣٥.

مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[١].

ابتدأت الآية بـ (أمْ) لإفادة الإضراب عمّا سبق، ولتكون الآية معادلة لقوله ﴿ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ ﴾[٢]، والمعنى: احضروا خلقهم أمْ آتيناهم كتابا من قبل القرآن بما ادعوه[٣]. وقد أوثرت (أمْ) دون (بل) لما تؤذن به من استفهام إنكاري بعدها، فيكون المعنى: وما آتيناهم كتابا من قبله[٤]، وتقديم الجار والمجرور على (مستمسكون) للتخصيص أي استمسكوا به وثبتوا عليه دون غيره، ممّا يزيد الإنكار قوة ويجعله إنكارا مشوبا بالتّوبيخ على ما يدعون. وتوحي المبالغة في لفظة (مستمسكون) بهذه السّين والتاء بشدة إصرارهم على الكفر والتّقليد الأعمى، وهو ما يوحي به الحرف (على) في الآية الثّانية من الملابسة والتّمكن.

ويستكمل الإنكار المتضمن في الاستفهام بعد (أمْ) بإظهار علّة الشّرك والثّبات عليها، فلم يأتهم كتاب يدعوهم للشرك ليثبتوا عليه، وإنّما علّة الشّرك هي التّقليد الأعمى للآباء فلم يتأملوا في الحق الذي جاء به الرّسول، بل اتبعوا آباءهم الذين كانوا على (أمّة) وهي في هذه الآية بمعنى الدّين أو المذهب أو الطّريقة[٥]. ثمّ قالوا ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾ وفي الآية التي بعدها ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾، وقد خص التّعبير القرآني الآية الأولى بالاهتداء «لأنّه كلام العرب في محاجتهم رسول الله (ﷺ) وادعائهم أنّ آباءهم كانوا مهتدين، فنحن مهتدون، والثّانية حكاية عمّن كان قبلهم من الكفار وادعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء فاقتضت كلّ آية ما ختمت به»[٦]. ولا يخفى ما في (آثارهم) من استعارة تمثيلية.

وهكذا تظهر الآية فساد التّقليد الأعمى بلا تفكر ولا تدبر، وتظهر الكافرين كأنّهم قطيع يمضي حيث يساق دون أنْ يعلم معالم الطريق وما يؤدي إليه. وبتهافت

---

(١) سورة الزّخرف: الآيتان: ٢١ - ٢٢.

(٢) سورة الزّخرف: من الآية ١٩.

(٣) =: الجامع لأحكام القرآن: ٧٤/١٦.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٨٦/٢٥.

(٥) =: الجامع لأحكام القرآن: ٧٤/١٦.

(٦) أسرار التّكرار في القرآن الكريم: ١٩١ - ١٩٢.

هذا السّند الوحيد لهم في عبادتهم، تتهافت كلّ عبادتهم، فقد أخذ القرآن عليهم الطريق فلم يكن هناك من كتاب يدعوهم للشرك فيثبتوا عليه، ولا حجة لهم ولا دليل سوى هذا القول المتهافت، وهذا الادعاء الضّعيف الذي يؤدي بهم إلى العذاب.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويعرض الكافرون في صورة أخرى تظهر إصرارهم على الكفر وبحجة واهية أخرى وافتراء جديد يتمثل في ادعائهم أنّ القرآن سحر وأنّهم كافرون به لأجل ذلك ولأجل أنّه لم ينزل على رجل من سادة مكّة أو المدينة وعظمائها. وكلّ ذلك في قوله (ﷻ) ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

وقد جاء الخبر في هذه الآيات على سبيل التعجيب لأنّه معلوم لهم وللمسلمين، وفي مجيء هذه الآيات بعد الغاية التي في قوله ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ إيذان بأنّ تمتيعهم أصبح على وشك الانتهاء وهذا ما توحي به (لمَا) التّوقيتية وهي في قوة (حتى) الغائية[2].

ويخبر القرآن - على سبيل التقريع - أنّهم قالوا للقرآن: هذا سحر، وأنّهم كفروا به، وفي ذلك تعجيب من ادعائهم هذا ولا سيّما أنّه مبني على اعتقادهم أنّه يفرق بين المرء وولده وزوجه، ولذلك جعلوه كالسّحر، ممّا يدلّ على جهلهم إذ لم يدركوا الفرق بين السّحر والقرآن لأنّ المفارق بالقرآن إنّما يفارق عن بصيرة في الدّين والمفارق بالسّحر يفارق عن خلل في دينه[3]. وتقديم (به) للتخصيص أي به لا بغيره، وإيثار اسم الفاعل (كافرون) للدّلالة على الثّبوت على الكفر.

ثمّ يظهر القرآن الكريم حجة باطلة أخرى يدعونها، باستخدام (لولا) بمعنى (هلا)، وقد جاء ذلك على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الملازمة للتعبير عن معنى أبطال كونه رسولا[4]، والتّعريف في (القريتين) للعهد، واستعير (عظيم) لصاحب السّؤدد

---

(١) سورة الزّخرف: الآيتان ٣٠ - ٣١.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٩٩/٢٥.

(٣) =: المحرر الوجيز: ٢١٦/١٣.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٩٩/٢٥.

والمكانة في قومه. وفي الآية إيماء إلى جهلهم أيضاً، فقد جهلوا «أنّ رتبة الرّسالة إنّما تستدعي عظيم النّفس بالتّخلي عن الرّذائل الدّنيوية والتّحلي بالفضائل القدسية دون التّزخرف بالزخارف الدّنيوية»[1]، كما توحي الآية بأنهم قوم قد غلب عليهم المتاع ولم يدركوا طبيعة دعوة الله ورسوله وأنّ الله (ﷻ) هو الذي يختار ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾[2].

❖❖❖❖❖

ويستكمل عرض هذا الجهل الذي غرقوا فيه، فيعرض القرآن نظرة سطحية أخرى لهؤلاء، وهم لا يدركون حقيقة الخلق وأسراره وحكمة الله فيه، فلا يجدون أمام صدق الآيات الدالة على قدرته تعالى في الإحياء والبعث بعد الموت إلاّ أنْ يقترحوا اقتراحا ساذجا يحتجون به لينبئ عن ضعف موقفهم وخطل رأيهم فيطلبوا إعادة آبائهم الموتى دليلا على صدق وقوع البعث. وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[3].

فالآيات واضحة بينة لمَن تدبر فيها، وكفى بهم أنْ ينظروا إلى خلق أنفسهم وذريتهم، فمَن كان على البدء قادرا فهو على الإعادة أقدر، ولكنّه الجهل الذي أعمى بصائرهم فهرعوا إلى المجادلة وطلب هذا الدّليل على صدق وقوع البعث، وإسناد الآيات إلى نون العظمة يزيد من إظهار جهلهم وضعف بصيرتهم فضلاً عن وصفها بـ(بينات). وممّا ينبئ بضعف حيلتهم في المجادلة قوله: (ما كان حجتهم) أي لم يكن لهم ما يمكن أنْ يكون حجة إلاّ أنّهم استندوا إلى سلاح العاجز من المكابرة. وإطلاق اسم الحجة على كلامهم إمّا أنْ يكون على سبيل التّهكم أو أنّه جرى على اعتقادهم وتقديرهم دون قصد تهكم بهم، أي أتوا بما توهموه حجة، فيكون الإطلاق استعارة صورية والاستثناء على هذا متصل أيضاً، وإمّا أنْ يكون الإطلاق مجازا مرسلا بتنزيل التّضاد منزلة التّناسب على قصد التّهكم فيكون المعنى أنْ لا حجة لهم البتة إلاّ هذه،

---

(١) روح المعاني: ٧٨/٢٥.

(٢) سورة القصص: من الآية ٦٨.

(٣) سورة الجاثية: الآية ٢٥.

وهذه ليست بحجة بل هي عناد فيحصل أنْ لا حجة لهم بطريق التّلميح والكناية[١].

وقد آثر التّعبير القرآني وصف موقفهم هذا بأسلوب القصر بالنّفي والاستثناء ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ﴾ ممّا يوحي بقصر ضعف موقفهم على هذه الحجة أو الشّبهة الواهية التي تنبئ عن جهلهم وضعف بصيرتهم وكأنّهم يعترفون بهذا الجهل فينادوا أهل البينات بهذا الطلب ليكون شرطا في إثبات الصّدق على البعث فيقولوا ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أي عريقين في الكون في أهل الصدق، الرّاسخين فيه. وقد كان هذا القول استبعادا منهم لذلك وإنكارا دلّ على ضلالهم وكفرهم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي آية أخرى تماثل الآية السّابقة يعاد ذكر اتهام الكافرين القرآن بأنّه سحر، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾[٢].

ففي الآية ترذيل لمقالتهم هذه، واستنكار لموقفهم من الحق وهو آيات بينات لا لبس فيها ولا غموض، ولا شبهة فيها ولا ريبة، فهي الحق، وشتان ما بين الحق والسّحر. وقد جاء قوله ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ على سبيل الإظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بكمال الكفر، وبأنّه سبب مقالتهم هذه. كما أنّ قوله: (الحق) إظهار في مقام إضمار، وعدول عن ضمير الآيات إلى لفظ الحق، وذلك للتنبيه على أنّها حق وأنّ رميها بالسّحر بهتان عظيم. وذكر (لما جاءهم) توقيت لمقالتهم، أي كلّما سمعوا الآيات وكلّما جاءتهم دون أنْ يتدبروا فيها[٣]. فالضلال قد أعمى بصائرهم، وغشي الكفر قلوبهم المريضة، وعطل الجهل وحبّ الدّنيا عقولهم فصدوا عن سبيل الحق، وهكذا تنوعت أقوالهم وتعددت افتراءاتهم على القرآن والرّسول (ﷺ) فأوغلوا في السّير على طريق الضّلال والباطل فخسروا الدّنيا والآخرة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٣٦٤/٢٥.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٧.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ١٣/٢٦.

## ثانيا: الاستكبار عن العبادة والإعراض عن الدّعوة:

في آيات أخرى من سور الحواميم نجد صفة أخرى من صفات الكافرين يتمثل فيها جانبا من موقفهم من القرآن ودعوة الرّسول (ﷺ)، وهو جانب الاستكبار عن عبادة الله (ﷻ) حبا في الدّنيا وملذاتها واتباعا لوساوس الشّيطان وهوى النّفس، فيدعي هؤلاء أنّ قلوبهم في أكنّة وفي آذانهم وقر وبينهم وبين الرّسول (ﷺ) حجاب، إصرارا منهم على الضلال، وتظهر هذه الآيات صبر الرّسول (ﷺ) في دعوتهم إزاء إصرارهم هذا، كما تظهر حبهم للدنيا ومالهم من طول الأمل الذي جعلهم يستبعدون وقوع السّاعة وينكرونها، فلم يشكروا فضل الله ونعمه عليهم ولم يستجيبوا لمّا أمرهم به، فضلاً عمّا تضمنته الآيات من ترهيب لهم وتهديد وهو أسلوب شاع في السّور المكية ومنها الحواميم.

ونبدأ بعرض ما تضمنته هذه الآيات من سورة غافر ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

فهي دعوة الحق بأن يتوجه العباد إليه بـ (الدّعاء) وهو سؤال العبد من الله حاجته ويطلق على عبادة الله على طريق الكناية لأنّ العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتّضرع إليه. والبدء بإسناد (ربّ) إلى ضمير المخاطبين للإشعار باستحقاقه العبادة وحده والإشعار بفضله ونعمته عليهم.

ومِن لطائف نظم الآية ما يوحي به الجمع بين الفعلين (ادعوني استجب) على سبيل ما يشبه الاحتباك، فقوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ بعدهما يوحي بأنّ المراد الدّعاء والعبادة، وأنّ الاستجابة أريد بها قبول الدّعاء وحصول أثر العبادة[2]. ويجوز أنْ يكون قوله ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ مجازا مرسلا علاقته السّببية، لأنّ الدّعاء سبب العبادة، وفي قوله: (استجب لكم) مشاكلة، لأنّ الإثابة مترتبة عليها، ويؤيد هذا المجاز تفسير الدّعاء بالعبادة[3].

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٨٢/٢٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٣٢٦/١٥.

وثمة لطيفة أخرى في نظم الآية تدخل في باب التّناسب، فقوله: (ادعوني) أي مع العبادة الخالصة لي، وقوله: (عن عبادتي) يتناسب مع إدخالهم جهنم لأنّه قد يكون العبد يدعو الله ولا يؤدي حقه من العبادة، فضلاً عن أنّ الذي يستكبر عن عبادة الله فهو سيستكبر عن دعاء الله والتّضرع إليه. وهكذا يكون معنى الاحتباك: ادعوني وأنتم عابدون لي عبادة خالصة دون استكبار، والذين لا يدعوني وهم يستكبرون عن دعائي وعبادتي سيدخلون جهنم داخرين.

وقد حقق التّعبير بالاسم الموصول وصلته ما يسمى ببراعة الاستهلال، إذ إن من الأغراض التي يؤتى من أجلها الموصول الإيماء والإشارة إلى معرفة الخبر، إذ يذكر المتكلم شيئا في أوّل حديثه يستطيع الفطن أنْ يدرك ما سيأتي بعده، ويتمثل هذا في الآية بقوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ إذ ندرك من خلالها فحوى الخبر الذي لم يأت بعد، ذلك أنّ جزاء المستكبر الهوان والصّغار[1]، ولذا جاء الخبر دالا على هذا في قوله ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾. وقد أكد الخبر بـ (إنّ) للإيحاء بتحقق وقوعه، وتوحي صيغة المضارع (يستكبرون) بالتّجدد والاستمرار، وجاءت السّين لتؤكد دخولهم جهنم وتناسب هذا الوعيد، وكأنّ ما يتمتعون به في الحياة الدّنيا - مهما طال بهم العمر - قصير لا يعادل شيئا، وتصف الآية حالتهم وهم يدخلون جهنم بـ (داخرين) أي صاغرين أذلاء، وهي صفة تناسب فعلهم، فهي نهاية الكبر الذي تنتفخ به صدورهم متغافلين عن عظمة الله ومعرضين عن الآخرة وهي آتية لا ريب فيها.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويعرض القرآن نموذجا آخر من الاستكبار عن الدّعوة والإعراض عن عبادة الله، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ۝ ﴾[2] ولا سيّما أنّه قال قبل ذلك ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[3].

---

(١) =: البلاغة فنونها وأفنانها: ٢٣٧.

(٢) سورة فصّلت: الآية ٥.

(٣) سورة فصّلت: من الآية ٤.

وقد أعلن هؤلاء في مقولتهم هذه إصرارهم على الكفر والجفاء والعداء، والآية تفصيل للإعراض المذكور في سابقتها، وقد جاء هذا التّفصيل على سبيل التّدلي إذ ذكرت القلوب أوّلا ثمّ الأسماع ثمّ الأبصار، لأنّ الإيمان إيمان القلب أوّلا وهو المضغة التي تستمد النفس صلاحها وفسادها منه، ثمّ ذكروا الأسماع إيغالا في رفض سماع دعوة الحق، وذكروا الأبصار بعدها إعراضا عن الدّعوة وصاحبها، وجمعوا بين الحالات الثّلاث في التّمثيل للمبالغة في عدم قبول ما يدعوهم إليه، وقد جاء هذا التّدلي في ذكر الحالات الثّلاث على سبيل المقابلة مع ما ذكر قبله من صفات القرآن في قوله تعالى ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ ﴾[1]. فكونه كذلك يستدعي تدبره والانتفاع بما فيه فقوبل هذا بقولهم ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ ﴾ وكونه ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ﴾ يستدعي تلقيها والاستماع إليها فقوبل هذا بقولهم ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ فلا نسمع تفصيله، وكونه ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أشد إلزاما لهم بفهمه، فقوبل ذلك بما يقطع هذه الحجة وهو ﴿ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾[2] فجاءت هذه المقابلة على سبيل التّضاد. و(مِن) التي في قولهم ﴿ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ ﴾ أفادت «أنّ الحجاب ابتدأ مِنا وابتدأ مِنك فالمسافة الحاصلة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب، وما بقي جزء منها فارغا عن هذا الحجاب، فكانت هذه اللفظة دالة على قوة هذا الحجاب»[3]. وقد تواشجت هذه الكنايات الوصفية الثّلاث في إخراج المعنى المكنى عنه الذي يجلي العالم الداخلي والنّفسي للكافرين ويكشف عن موقفهم وسفاهتهم أزاء الدعوة، ورتبت هذه الكنايات بما يدل على تصميمهم على الكفر، إذ عطلوا القلوب عن الإدراك أوّلا، وإذا تعطلت القلوب صارت الآذان معطلة عن السمع وكذلك البصر. وفي ذكر ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ إيحاء بالسّخرية منهم ينبثق من (وقر) التي تستعمل أصلا في الدّواب - بكسر الواو ثمّ استعملت في ثقل السّمع - بفتح الواو[4]. ولا يخفى ما

---

(١) سورة فصّلت: الآيتان ٢ - ٣.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/٢٣٥.

(٣) التّفسير الكبير: ٢٧/٩٧.

(٤) =: أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمر الزّمخشري: ٥٠٦، مادة (وقر).

في الآية من إيحاء قوي دال على صبر الرّسول (ﷺ) على ما كان يلقاه من معاناة وآلام وهو يدعو هذه النّفوس الكافرة الكارهة للخير والهدى والإيمان[1]. وقد أثبتت الآية لقلوبهم أغطية على طريق التّخييل، وشبهت القلوب بالأشياء المغطاة على سبيل الاستعارة المكنية، ووجه الشبه امتناع وصول الدّعوة إليها كما يحول الغطاء والغلاف دون تناول ما تحته، وينبئ الحرف (في) بمعنى إحاطة الظّرف بالمظروف، كما جعل الوقر في القلوب لإفادة تغلغله في إدراكهم[2]. وقال (ﷻ) في موضع آخر ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ ﴾[3] لأنّ السّياق للعظمة وهو منسوب إلى الله تعالى فمعنى الاستعلاء والقهر أنسب، فآثر (على)، وهنا أوثرت (في) إبعادا لأنْ يسمعوا، فكان معنى الاحتواء أنسب. وتنبئ أقوالهم تلك باستثقالهم ما يسمعونه من قوارع القرآن وجوامع البيان، فكأنّهم من شدّة الكراهية له قد صمت أسماعهم عن فهمه، وقلوبهم عن عمله[4]، وأوغلوا في الإعراض والعناد، فجاء قولهم ﴿ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ تفريعا على تأييسهم الرّسول (ﷺ) من قبولهم دعوته، والتّعبير بالاسمية لتوكيد قطع الرّجاء في استجابتهم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ولم يكتف الكافرون بالإعراض عن القرآن الكريم، بل أوغلوا في العناد والمكابرة، وناصبوا الرّسول (ﷺ) العداء، ويظهر ذلك في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[5].

فالتّعبير القرآني يظهر فعلتهم الشّنيعة، ويورد وعيد الله لهم بالعذاب الشّديد جزاء بما كانوا يعملون. وإذا كانت الآيات السّابقة قد عرضت حججهم الواهية في العناد والمجادلة، فهذه الآية تعلن عجزهم عن المواجهة والمقارعة، فلا يجدوا أمام قوة الآيات وتأثيرها إلاّ المكاء والصّفير والصّياح وإنشاد الشّعر واختلاق الأصوات

(١) =: الكناية في القرآن الكريم: ٢٢٢ - ٢٢٤.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٣٣/٢٤ - ٢٣٤.

(٣) سورة الكهف: من الآية ٥٧.

(٤) =: صفوة التّفاسير: ١٢٩/٣.

(٥) سورة فصّلت: الآيتان ٢٦ - ٢٧.

خشية استمالة القلوب لسماع القرآن. وكأنّها وصية يوصي بها كبراء المشركين أنفسهم وأتباعهم، وقد آثر التّعبير القرآني ذكر (الذّين كفروا) على سبيل الإظهار في مقام الإضمار لقصد ما في الموصول من الإيماء إلى علّة إذاقة العذاب. وعدي الفعل (تسمعوا) باللام على سبيل التّضمين لمعنى تطمئنوا أو تركنوا، لأنّه الغاية من النّهي عن السّماع، فقد منعوا بعضهم بعضا من الاستماع للقرآن لأنّه يغلب القلوب ويسلب العقول، وكلّ مَن استمع له صبا إليه، ممّا يجلي جانبا من الإعجاز التأثيري للقرآن والذي يتمثل فيما يتركه القرآن من أثر ظاهر أو باطن على سامعه أو قارئه، فلا يستطيع مقاومته ودفعه، ولا يقتصر ذلك على المؤمنين به، فقد كان لسماع القرآن أثره في نفوس أعدائه، فهم يتشاغلون عنه، ويتلهون بغيره، ويتعاهدون فيما بينهم على عدم الاقتراب من تاليه، حتى لا يصل آذانهم(١)، وإذا وقع بعضهم في ذلك - قاصدا أو ناسيا - لاموه وعنفوه وقالوا له ﴿ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾(٢).

وتوحي لفظة (لعلّ) بوجود الشّك في نفوسهم وبأنّهم حتى مع هذه الطّريقة لا يغلبون تأثير القرآن فيهم وفي أتباعهم، فضلاً عن أنّ المانع من حصول التّأثير هو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، بدليل قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾(٣) و(اللّغو) هنا لا يشغل القلب عمّا يعرض هؤلاء عن سماعه، بل العكس، ولذلك ذكرت غفلة القلب بعد السّمع وإعراضه في قوله تعالى ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾(٤). وتنبئ توصية بعضهم لبعض باللّغو في القرآن باعترافهم بتأثيره، فقد جعلهم يعيشون في محيط القلق والأوهام، ولم يقولوا هذا القول إلاّ لأنّه روعهم وتغلغل في أعماقهم وتمكن منهم(٥).

وتأتي الآية الأخرى وعيدا ثابتا مؤكدا بلام القسم، والتّعبير بالإذاقة هنا

(١) =: الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، بحث من شبكة الانترنيت: ٣.

(٢) سورة الأنبياء: من الآية ٣.

(٣) سورة ق: الآية ٣٧.

(٤) سورة الأنبياء: من الآية ٢ و٣.

(٥) =: فكرة النّظم بين وجوه الإعجاز: ٢١.

استعارة مكنية، وتوحي هذه الاستعارة بألم العذاب وشدّته وهو ما يتناسب ومقام التّهديد والوعيد، فلفظ الذوق إنّما يذكر في القدر القليل الذي يؤتى به لأجل التّجربة، وقد ذكر التّعبير القرآني أنّ ذلك الذّوق هو عذاب شديد، فإذا كان القليل منه عذابا شديدا، فكيف يكون حال الكثير منه[١]. وذكر العذاب الشّديد جزاء عدم الإصغاء واللّغو عند قراءة القرآن تعريض بمَن لا يكون عند كلام الله المجيد خاضعا خاشعا متفكرا متدبرا، وهو أيضاً تهديد ووعيد لمَن يصدر عنه عند سماعه ما يشوش على القارئ ويخلط عليه القراءة، ممّا يوحي بعظمة القرآن وإكرام منزلة القارئ ووقت ومكان القراءة.

وقوله: (الذّين كفروا) إظهار في مقام الإضمار للإشعار بالعلّة، أو للتعميم، أي: جميع الكفار.

واستكمالا للوعيد في إذاقتهم العذاب، ولكي لا يظن هؤلاء أنّ عذابهم مجرد إذاقة، جاء ما بعده تتميما للمعنى بقوله ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ بإيثار اسم التّفضيل للمبالغة في سوئه، والمراد العمل السيئ. ويجوز أنْ يكون المراد بالإذاقة هو عذاب الدّنيا في بدر وغيرها، والجزاء بأسوأ الأعمال هو عذاب الآخرة[٢]. وفي ذلك إيحاء بخسارتهم الدّنيا والآخرة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويرسم التّعبير القرآني صورة أخرى للنفس البشرية التي لا تهتدي بهدى الله، يظهر فيها تقلبها وضعفها، وحبّها للخير، وجحودها للنعمة، واغترارها بالسّراء، وجزعها من الضّراء، وذلك في قوله تعالى ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾[٣].

---

(١) =: التّفسير الكبير: ١٢٠/٢٧.

(٢) =: المحرر الوجيز: ١٠٦/١٣.

(٣) سورة فصّلت: الآيات ٤٩ – ٥٢.

فالإنسان لا يسأم من دعاء الخير لنفسه ولا يمل طلبه، وإنْ مسّه الشّر مجرد مسّ فقد الأمل والرّجاء وتقطعت به الأسباب وضاق صدره وكبر همه ويئس من رحمة الله لقلة ثقته بربه وضعف رباطه به، وإذا أذاقه الله رحمة استخفته النّعمة فنسي الشّكر وغفل عن مصدرها وكأنّه نالها باستحقاقه، ونسي الآخرة بل أنكرها ولذلك استحق التّهديد بالعذاب الغليظ المناسب لغلظته تلك. ثمّ يخاطبه القرآن على سبيل الاستفهام عن فعله أزاء حقيقة كون القرآن من الله تعالى وحقيقة هذا الوعيد.

تبدأ الآية الأولى بعرض حقيقة الإنسان الكافر، فالتّعريف في (الإنسان) يمكن أنْ يكون تعريف الجنس العام عموما عرفيا بالقرينة، ويمكن أنْ يكون تعريف العهد، أي إنسانا معينا من هذا الصنف. وتوحي لفظة (الإنسان) في هذا السياق بتلك الإنسانية فيه، والتي تميزه عن غيره من الكائنات، وهذه الإنسانية هي ارتقاء إلى أهلية التّكليف وحمل الأمانة وما يلابس ذلك من تعرض للابتلاء بالخير والشّر(١). كما توحي هذه المفردة بنعمة الله على الإنسان أنْ جعله كذلك، وإنّ نعمة الإنسانية وحدها كفيلة بالشّكر والطّاعة لواهبها، ولكنّ الإنسان لا يسأم من دعاء غيرها من النّعم. ووصفه بأنّه لا يسأم جاء على سبيل الاستعارة إذ أطلق السّأم على الاكتفاء والاقتناع وهو الملل، وهذه الاستعارة قائمة على تشبيه استرسال الإنسان في طلب الخير بالعمل الدائم الذي شأنّه أنْ يسأم مِنه عامله، فنفي السّآمة عنه رمز للاستعارة(٢).

وتأتي الاستعارة الأخرى في (مِن دعاء الخير) وهي استعارة مكنية بتشبيه (الخير) بعاقل يسأله الإنسان أنْ يقبل عليه، وإضافة الدّعاء إليه من إضافة المصدر إلى مفعوله، وتوحي هذه الإضافة بعد نفي السّأم بكثرة حبّ الإنسان للخير والنّعمة الدّائمة والعيش بترف.

وينتقل التّعبير القرآني إلى صفة الإنسان إزاء الشّر فيبدأ بـ (إنّ) التي لا يعلق عليها إلاّ محتمل الوجود والعدم، ولا يعلق عليها محقق الوجود، مع التّذكير بأنّ «الخصائص الإلهية لا تدخل في الأوضاع العربية بل الأوضاع العربية مبنية على خصائص الخلق، والله تعالى أنزل القرآن بلغة العرب وعلى منوالهم ... فكل ما كان شأنّه أنْ يكون في العادة مشكوكا فيه بين النّاس حسن تعليقه بأنّ من قبل الله ومِن قبل غيره

(١) =: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: ٢١٦.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/١٠.

سواء كان معلوما للمتكلم أو للسامع أم لا»[١]، ولذلك أوثرت (إنّ) دون (إذا) هنا ولا سيّما أنّ مسّ الشّر هنا جاء مطلقا ولم يقيد كما في قوله ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ﴾[٢]، فضلاً عن أنّ إيثار (إنّ) مع مسّ الشر للإنسان يوحي بأنّ إصابة الشر الإنسان نادرة بالنسبة لما هو مغمور به من النّعم، كما يوحي قوله ﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ وقوله ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ بأنّ ذلك يمتد في الزّمن ولا تحده مرحلة زمنية لأنّ الآية جاءت وصفا لسمة من سمات الإنسان الكافر[٣]. ولا يخفى ما بين (الخير) و(الشّر) من الطباق الذي يوحي بتردد هذه النّفس وتقلبها.

ويأتي وصف الإنسان بـ (يئوس قنوط) بصيغة المبالغة، واتباع (يئوس) بـ(قنوط) يوحي بتجاوز إحساس اليأس إلى ظاهر البدن بالانكسار، والجمع بينهما للتأكيد، وإيثار صيغة المبالغة في هذا الوصف للدلالة على شدّة اليأس وعظمة القنوط، والمبالغة فيهما من طريقين: بناء (فعول)، والتّكرير[٤].

ويعود التّعبير القرآني إلى وصف الإنسان في حالة السّراء، فتبدأ الآية الأخرى باللام الموطئة للقسم للإيحاء بحصول الجواب لو حصل هذا الشّرط، فضلاً عن إفادة اللام و(إنّ) توكيد الجملة، وتوحي استعارة الإذاقة بقلة ما يصيب الإنسان من النّعمة، ويؤيد ذلك تنكير (رحمة) للتقليل، والقصد أنّ الرّحمة التي يذوقها الإنسان مهما كانت قليلة بعد رفع الضّراء عنه تجعله ينقلب إلى الاستكبار والجحود ونسيان فضل الله عليه ونعمته.

وفي الآية ملحظ آخر إذا ما نظرنا إلى قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ﴾[٥]، فلم يذكر في هذه الآية (مِنّا) ولا (مِن) وأوردها في آية سورة فصلت، ذلك أنّ قوله: (مِنّا) يحتاج إليه السّياق، واستغني عنها في آية سورة هود لتقدم ذكرها في الآية التي قبلها، وأمّا قوله ﴿ مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ غَلِيظ ۝ ﴾ فلأنّه

---

(١) بدائع الفوائد: ١/٤٦ - ٤٧.

(٢) سورة الإسراء: من الآية ٦٧.

(٣) =: الزّمن في القرآن الكريم: ٢٦١.

(٤) =: إرشاد العقل السّليم: ٥/٢٧.

(٥) سورة هود: من الآية ١٠.

لمّا حدّ الرّحمة والجهة الواقعة مِنها حدّ الطّرف الذي بعدها ليتشاكل المقترنان في التحقيق، ولم يكن في آية سورة هود من حدّ، لذلك لم يحتج إليه في الثّاني[١].

ويؤكد القرآن حقيقة النّفس الكافرة بعد أنْ تذوق شيئا من الرّحمة بعد الضّر، فتنقلب مستكبرة جاحدة، سرعان ما تعلن حبها للدّنيا وما فيها وتنسى الآخرة والحساب وتنسى شكر الرّحمن المنعم، وتحدث هذه النّفس صاحبها أو تحدث غيرها على احتمال ضعيف في قيام السّاعة وأنّها لو جاءت فإنّها ستجد عند الله المعاملة الحسنى وكأنّ الثّراء والرّفاهية تنفعها في يوم الحساب. ويجوز أنْ يكون قوله: (إنّ لي عنده للحسنى) قد جاء على سبيل الاستهزاء، لإنكارهم قيام السّاعة، وقد جاء ذكر إنكار السّاعة على سبيل الإدماج بذكر أحوال الإنسان المشرك في عموم أحوال الإنسان، وقد أوثر الفعل (رجعت) هنا، في حين قال في موضع آخر ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى ﴾[٢] وذلك لأنّ لفظ (الرّد) ورد في الكهف ثلاث مرات[٣] ولم يرد في فصّلت إلاّ مرّة واحدة[٤] أمّا (الرّجع) فلم يرد في الكهف وقد ورد في فصّلت مرتين[٥]. فوضع كلّ فعل في مكانه الذي هو أليق به[٦]، فضلاً عن أنّ «الرّد عن الشّيء يتضمن كراهة المردود، ولمّا كان في الكهف تقديره: ولئن رددت عن جنتي هذه التي أظن إلاّ تبيد أبدا إلى ربّي، كان لفظ الرّد الذي يتضمن الكراهة أولى، وليس في فصّلت ما يدل على الكراهة فذكر بلفظ الرجع ليقع في كلّ سورة ما يليق بها»[٧].

ويوحي تقديم (لي) و(عنده) على اسم أنّ بحب الإنسان لنفسه، ولذلك أكدت الجملة بـ (إنّ) و(اللام) فضلاً عن إفادة هذا التّقديم قصر (الحسنى) عليه دون غيره، ليعلن بهذا القصر عن أنانيته، كما ينبئ ذلك بفساد اعتقاده وعظيم غفلته.

ويقابل هذا التّوكيد بتهديد ووعيد مؤكدين باللام الموطئة للقسم، ونون

(١) =: درة التّنزيل وغرة التأويل: ٤٢٢.
(٢) سورة الكهف: من الآية ٣٦.
(٣) الآيات: ٣٦ و٦٤ و٨٧.
(٤) الآية: ٤٧.
(٥) الآيتان: ٢١ و٥٠.
(٦) =: التّعبير القرآني: ٢١٦.
(٧) أسرار التّكرار في القرآن الكريم: ١٣٣.

التّوكيد في (فلننبئن). وناسب مقام التّهديد إظهار (الذين كفروا) في مقام الإضمار مع إيثار الموصول وصلته للإيحاء بعلّة استحقاقهم هذا العذاب، وذكر (بما عملوا) يوحي بالعدل في الجزاء والتّذكير بأنّ أعمالكم التي تقومون بفعلها الآن ستكون علّة إذاقتكم العذاب. ويوحي تقديم الإخبار بالأعمال على إذاقة العذاب بمشهد الذّل والهوان في ذلك الموقف الذي يرون فيه أعمالهم ولا يستطيعون إنكارها فيساقون إلى العذاب وقد ذلت نفوسهم المستكبرة. والاستعارة في الإذاقة تنبئ بشدة هذا العذاب الذي أكّد وقوعه باللام والنّون الثّقيلة، وغاية هذه الاستعارة إطماعهم أنّها إصابة خفيفة كإصابة الذوق باللسان، وتتواشج هذه الاستعارة مع استعارة (غليظ) للقوي في نوعه، الشّديد في إيلامه، فيحصل من كلتا الاستعارتين ابتداء مطمع وانتهاء مؤيس أليم[١].

أمّا التّنكير في (عذاب) فيدل على التّكثير بعد التّقليل الذي تنبئ به (الإذاقة). ولا يخفى ما لا يثار لفظة (غليظ) من أثر نفسي، فهي لفظة حسية عبرت عن معنى (عظيم) أو (قوي) وكأنّ هذا العذاب بصورته الحسية يكاد يلمس بالحواس، وهكذا نجد أنّ حسية التّجسيم لا تطلب لذاتها بل لما وراءها من إيحاءات نفسية. وقد بدأ هذا الأثر النّفسي من لفظة (فلننبئن) و(لنذيقنهم) وما فيهما من جرس يمس الأسماع في الأولى، وفي الثّانية يمس النّفوس[٢].

ويستكمل التّعبير القرآني رسم صورة الإنسان الكافر ووصف حالته التي تجتزأ من عموم أحوال الإنسان، فتبدأ الآية بـ (إذا) للإيحاء بأنّ الإنعام حاصل متحقق الوقوع وإسناد الإنعام إلى نون العظمة يوحي بالتّذكير بمصدر النّعمة التي يجحدها الإنسان الكافر ولا يشكر المنعم بل يعرض عن طاعته، وإيثار (على) للإيحاء بكثرة النّعم التي تغطي هذا الإنسان وتحيط به من كلّ جانب، كما توحي بعلو المنعم المتفضل الذي يتوجه الإنسان إليه بالدّعاء عند الضّراء. والإعراض هنا مستعار لتعمد ترك الشّكر، وحقيقته الانصراف عن الشّيء، ومتعلق الإعراض محذوف تقديره: اعرض عن دعائنا، وزيد هذا الوصف بوصف آخر في (نأى بجانبه) كناية عن تكبره وإعجابه بنفسه وزهوه[٣]. فالكناية تكشف عن صفة من صفات النفس المستكبرة في وقت

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٣/٢٥.

(٢) =: الإعجاز الفني في القرآن: ٨٦.

(٣) =: نظم الدرر: ٢٢١/١٧.

السّراء فتتصور هذه النّفس أنّها مستغنية عن الله مستبدة بنفسها، فهي معرضة لا تذكر ولا تشكر بل تطغى وتستكبر[١].

ويعاد ذكر مسّ الإنسان الكافر، فبعد وصفه باليأس والقنوط، يوصف هنا بأنه ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ ولا منافاة بينهما، فهو يئوس قنوط بالقلب دعاء باللسان[٢]، والتّعبير هنا بـ (المس) يوحي بالقلة، فهو مجرد مس، لكن الكافر ينقلب فيه إلى حالة أخرى، فهو (ذو دعاء عريض) ولم يقل: (داع) لمَا تشعر به كلمة (ذو) من ملازمة الدّعاء له وتملكه مِنه، وتنكير (دعاء) للتكثير، وهو ما يوحي به السّياق، ووصف الدّعاء بالعريض على سبيل الاستعارة وهو ما يسمى بالتّجسيم، إذ شبه الدّعاء المتكرر الملازم للداعي بالمكان العريض[٣]، والاكتفاء بذكر (عريض) ينبئ بعظمة طوله فيكون ذلك كناية عن النّهاية في الكثرة، فإذا كان عرضه كذلك فما الظّن بطوله، وتنكير (عريض) يوحي بالاتساع أيضاً، وقد جاء هذا الوصف على سبيل الاستعارة المكنية إذ استعير ممّا له عرض متسع وأصله مما توصف به الأجسام، وصيغة المبالغة فيه وتنوين التّكثير يقويان الإيحاء بالامتداد والاتساع، فضلاً عن أنّ استعارة (عريض) قد أخرجت الدّعاء في صورة حسية مجسمة للدلالة على الكثرة في الدّعاء، وأكملت هذه الاستعارة صورة حقيقة النّفس الإنسانية في تقلبها بين الخير والشّر، فهي معرضة عن الله نائية مستغنية في خيرها، ومقبلة على الله مضطرة داعية[٤].

وقد جاء نظم الآية على سبيل الاحتباك، إذ «ذكر الإنعام أوّلا دليلا على الانتقام ثانيا، وذكر الشّر ثانيا دليلا على الخير أوّلا، وسرّه تعليم الأدب بنسبة الإنعام دون الشّر إليه، وإنْ كان الكلّ مِنه»[٥].

ويتجه التّعبير القرآني إلى الكافرين فيوجه الرّسول بأنْ يقول لهم ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾، فقد جاء هذا النّظم على سبيل ما يسمى بـ (إرخاء العنان) لذلك استخدم (إنْ) التي شأنّها أنْ

---

(١) =: الكناية في القرآن الكريم: ١٨١.
(٢) =: بصائر ذوي التّمييز: ٤١٦/١.
(٣) =: التّحرير والتّنوير: ١٥/٢٥.
(٤) =: الاستعارة في القرآن الكريم: ١٢٩.
(٥) نظم الدرر: ٢٢٢/١٧.

تدخل على الشّرط المشكوك فيه، وفي ذلك دعوة لهم للتأمل في دلائل صدق القرآن بعد دعوتهم بـ (أرأيتم) أي أخبروني إنْ كان من عند الله، ألستم ضالين وفي جدال باطل[١]، والرّؤية هنا بمعنى العلم أو الإبصار واستعملت للتعبير عن الإخبار، والاستفهام هنا تقريري.

وقد أوثر في الآية الحرف (ثمّ) ولم يذكر في قوله تعالى ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾[٢] «لأنّ المعنى في فصلت: كان عاقبة أمركم بعد الإمهال للنظر والتّدبر: الكفر، فحسن دخول (ثمّ)، وفي الأحقاف عطف عليه (وشهد شاهد) فلم يكن عاقبة أمرهم، فكان من مواضع الواو»[٣].

أمّا قوله ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ ﴾ كناية عن كونهم أشدّ الخلق عقوبة لما هو معلوم من أن الضلال سبب الخسران، وقوله ﴿ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ جاء على سبيل وضع الظّاهر موضع المضمر وهو (منكم) بيانا لبعد شوطهم في الشّقاق والخلاف[٤]. ووصف (شقاق) بـ (بعيد) على سبيل الاستعارة بمعنى (شديد) وناسب هذا الوصف موصوفه لأنّ المنشق قد فارق المنشق عنه فكان فراقه بعيدا لا رجاء معه للدنو[٥].

وفي الآية احتباك إذ «ذكر الكفر أوّلا دليلا على الإيمان ثانيا، والضّلال ثانيا دليلا على الهدى أوّلا، وسرّه أنْ ذكر المضار أصدع للقلب فهو أنفع في الوعظ»[٦] فضلاً عن أنّ الآية جاءت بداية لختم السّورة بما تلتفت لفت بدئها وفي ذلك حثّ على التّأمل، واستدراج للإقرار بصدق الرّسول (ﷺ) وما جاء به.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويوجه القرآن الكريم دعوته للمستكبرين المعرضين بأنْ يستجيبوا من قبل أنْ يدركهم الموت، ويذكرهم بأنّ لا فرصة بعده للتوبة، كما يعيد وصف النّفس الكافرة وتقلبها فهي فرحة في السّراء، كافرة جاحدة منكرة في الضّراء، وذلك في قوله تعالى

---

(١) =: روائع الإعجاز في القصص القرآني: ٣٢٢.

(٢) سورة الأحقاف: من الآية ١٠.

(٣) أسرار التّكرار في القرآن الكريم: ١٩٠.

(٤) =: تفسير غرائب القرآن: ١٧/٢٥.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ١٧/٢٥.

(٦) نظم الدرر: ٢٢٤/١٧.

﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ٤٧ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ٤٨ ﴾[١].

ويؤثر هنا أسلوب الخطاب وهو ما يناسب مقام الأمر بالاستجابة، وإسناد لفظ (الرّب) إلى ضمير المخاطبين للإيحاء بأنّ الله هو المستحق لأنّ يستجيبوا له لا غيره، ويذكرهم بأنّ هذه الحياة زائلة وأنّ الفرصة ما زالت قائمة للاستجابة وذلك بقوله ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أي لا يرده الله بعد ما حكم به، ف (مِن) صلة (مرد) أو هي صلة (يأتي) أي من قبل أنْ يأتي يوم من الله لا يمكن ردّه[٢]. وقد وصف اليوم بأنّه (يأتي) على سبيل المجاز العقلي بعلاقة السّببية، فاليوم لا يأتي وإنّما يأتي به الله تعالى، وقد أسند الإتيان إلى اليوم بسبب حلوله وحضوره، فالإسناد إلى السّبب أخصر وأبلغ وأفخم[٣].

وتنكير (يوم) للتعظيم، فإذا جاء ذلك اليوم الذي لا يرد ف ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ ﴾ وهو المكان الذي يصير إليه المرء للتوقي فيه، ويطلق مجازا على النّاصر وهو المراد هنا[٤]، فلا وقاية لكم من العذاب. وقوله ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴾ أي إنكار لأعمالكم، أو نكير ينكر على الله مؤاخذتكم[٥]، والغالب في المصدر على (فعيل) أنْ يدل على صوت نحو (صريخ - عويل - هديل) وغير ذلك[٦]، وهكذا منحت هذه الكلمة إيحاء بعدم وجود أي صوت للإنكار.

وتبدأ الآية الأخرى - التي تصف الإنسان بالبطر بالنّعمة والكفر عند الشّدة -

(١) سورة الشّورى: الآيتان ٤٧ - ٤٨.
(٢) =: محاسن التأويل: ٥٢٥٣/١٤.
(٣) =: أساليب المجاز في القرآن: ١٦٩.
(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٣٢/٢٥.
(٥) =: محاسن التأويل: ٥٢٥٣/١٤.
(٦) =: من بديع لغة التنزيل: ٢٧٧.

بضمير الجلالة المنفصل (وإنا) لأنّ المقصود هو تسلية الرّسول (ﷺ) عن جفاء قومه وإعراضهم.

والمراد بتعريف (الإنسان) الجنس وهو ما يناسب الحال في وقت نزول الآية، ولا ينفي ذلك عموم حكمها، وقد عدل عن التّعبير بـ (النّاس) إلى (الإنسان) للإيماء إلى أنّ هذا الخلق هو من أخلاق النّوع لا يزيله إلاّ التّخلق بأخلاق الإسلام، وقد عبر عن هذا الجنس بالجمع في (تصبهم) وهو شبيه بالالتفات من المفرد إلى الجمع. وأوثرت (إذا) لأنّ شأنّها أنْ تدل على تحقق كثرة وقوع شرطها[1]، وعبر عن الإنعام بالإذاقة لأنّ نعم الله في الدّنيا - وإنْ كانت عظيمة - بالنّسبة إلى سعادات الآخرة كالقطرة إلى البحر، فناسب أنْ يعبر عنها بالإذاقة التي توحي بهذه القلّة، وقد أوحى تنكير (رحمة) بهذه القلّة، فضلاً عمّا في ذلك من التّعريض بهذا الإنسان الذي يفرح عند إذاقة هذا القدر الضئيل من النّعمة ويقع في العجب والاستكبار، فما باله ينسى وعد الله له في الآخرة وما فيه من النّعيم والتّكريم!.

أمّا تنكير (سيئة) فقد أفاد التّقليل أيضاً، وذكرت الأيدي لمباشرة أكثر الإعمال بها وجاء ذلك على سبيل التّغليب، وقد كان تصدير النّعمة بـ (إذا) مع إسناد الإذاقة بصيغة الماضي إلى نون العظمة للتنبيه على أنّ إيصال النّعمة محقق الوجود كثير الوقوع، وجاء تصدير البلاء بـ (إنّ) وإسناد الإصابة بصيغة المضارع إلى السّيئة وتعليلها بأعمالهم للإيحاء بندرة وقوعها[2].

وأوثر في جانب السّيئة باء السّببية مضافة إلى كسب أيديهم، في حين أتى من جانب الرّحمة بحرف ابتداء الغاية فقال: (مِنّا) كما أنّ الجملة الأولى جاءت مؤكدة بـ(إنّ) ولم تؤكد الجملة الثّانية.

واستكمالا للتعريض بهم ختمت الآية بقوله ﴿ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴾ على سبيل وضع الظّاهر موضع المضمر بقصد العموم وللإشعار بتصميمهم على الكفر والإيحاء بأنّهم لا يرعوون مما هم فيه.

وفي الآية محسن الاحتباك، فإنّ «ذكر الفرح أوّلا دالّ على حذف الحزن ثانيا

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥ / ١٣٣ - ١٣٥.

(٢) =: تنوير الأذهان: ٣/٤٩٤.

وذكر الكفران ثانيا دالّ على حذفه أوّلا»[1]، وفي ذلك إشارة إلى أنّ إذاقة الرّحمة ليست للفرح والبطر بل للشكر لموليها، وإصابة المحنة ليست للكفران والجزع بل للرجوع إلى الله وإلى طريق الحق.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سورة الدّخان ينقل القرآن الكافرين إلى هول العذاب الأليم ويذكرهم بسوء حالهم فيه وأنّهم ينادون ربّهم أنْ يكشف عنهم العذاب ليؤمنوا فلا يجابون، وفي ظلّ هذا المشهد ومِن خلاله يذكرهم بأنّ الفرصة لم تضع، فيدعوهم إلى الإيمان قبل أنْ تأتي البطشة الكبرى وكلّ ذلك في قوله (ﷻ) ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ﴾[2].

وقد جاء هذا النّداء على سبيل حذف قول يقدر بفعل أمر، أي (قولوا)، لتلقين المسلمين أنْ يستعيذوا بالله من أنْ يصيبهم ذلك العذاب، ويوحي قولهم (اكشف عنا) بشمولية العذاب وعمومه ممّا يشير إلى شدته، والتي جعلتهم يسارعون إلى توكيد إيمانهم بـ (إنّ) والصيغة الاسمية (مؤمنون).

والاستفهام في ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ للإنكار والاستبعاد، فكيف يتذكرون وهم في شكّ يلعبون، وقد تولوا عن الرّسول وأعرضوا عن طاعته، فتستبعد عنهم الذكرى بعد أنْ جاءهم الرّسول ثمّ تولوا عنه[3] ويوحي هذا الاستفهام ونفي التّذكر عنهم بدوام مصابهم، كما يوحي بكذبهم في ادعائهم الإيمان. وقد وصف الرّسول بـ (مبين) ليفيد معنى (مبين) و(مبين). وجاءت (ثمّ) للتراخي الرّتبي على سبيل الترقي في ذكر أحوالهم تلك، فقد قابلوا دعوته بالإعراض واتهامه بشتى الاتهامات فقالوا ﴿ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴾.

ويعود التّعبير القرآني إلى دعوتهم تلك، ويذكرهم بفرصتهم للاستجابة له ولرسوله، وصيغة اسم الفاعل في (كاشفوا) للدّلالة على تحقق ذلك، ويكون هذا كناية

---

(١) نظم الدرر: ١٧/٣٥١.

(٢) سورة الدّخان: الآيات ١٢ - ١٦.

(٣) =: البرهان في علوم القرآن: ٢/٣٤٤.

عن الإمهال[1]، وفائدة التّقييد بقولة: (قليلا) للدلالة على زيادة خبثهم، وقوله: (إنّكم عائدون) التفات يفيد الإهانة لهم، واسم الفاعل يفيد تحقق الوقوع لا محالة، ولذلك أكد بـ (إنّ) أيضاً.

وتأتي الآية الأخرى استئنافا بيانيا - على سبيل الفصل - لما يثار في نفس السّامع من سؤال عن جزائهم حيث يعودون إلى الكفر، فكان الجواب بأنّ الانتقام منهم هو البطشة الكبرى، وتقديم ذكرها على قوله: (إنّا منتقمون) للاهتمام به لتهويله، فضلا عن مشاكلة الفواصل.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سورة الجاثية يرسم التّعبير القرآني جانبا من صورة استقبال المشركين لهذه الدّعوة في مكة، إذ يصرون على الباطل، ويستكبرون عن سماع كلمة الحق فيستحقون التهديد بالعذاب الأليم، وإذ يقابلون دعوة الرّسول بالاستهزاء والسّخرية فإنّهم استحقوا العذاب المهين، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ ﴾[2].

تبدأ الآية الأولى بتهديد شامل لكلّ مَن يحمل هذه الصّفات، وهو تهديد صادر من الله القادر الصّادق الوعد والوعيد، وافتتح التّهديد بالويل قبل ذكر الحال تعجيلا للإنذار، وقد قدم آلافك لأنّه سبب الإثم[3]، ثمّ يذكر حال هذا الأثيم ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ بإسناد الآيات إلى الله للتعظيم الذي يستوجب الطّاعة وتدبر الآيات، لكن هذا الأثيم حين ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾، ﴿ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ﴾ أي يقيم على كفره، بهذه الاستعارة التي توحي بتحقيره وتوبيخه لأنّ الأصل في (يصر) «مِن إصرار الحمار على العانة وهو أنْ ينحى عليها صارا أذنيه»[4]، وزيد ذلك بقوله (مستكبرا) للإيحاء

(١) =: تفسير القرآن العظيم: ٤/١٣٦.
(٢) سورة الجاثية: ٧ - ٩.
(٣) =: أسرار التّقديم والتّأخير في القرآن: ٨٢.
(٤) الكشاف: ٤/٢٨٦.

بتعمد هذا الصرّ ومصاحبته للاستكبار، وفائدة (ثمّ) أنّها أفادت أنّه على الرّغم من سماعه لآيات الله وهي تتلى عليه لكنّه يصر مستكبرا، وأنّ الأولى به أنْ يستجيب لها ولا يقدم على هذا الإصرار والاستكبار، فالاستكبار بعد السّماع هو جزء من الأثر النّفسي في هؤلاء، وهو استجابة عكسية لهذا المثير الذي يدعوهم إلى الحق، وتأبى نفوسهم الخاوية إلاّ الاستكبار المتكلف الذي يجهدون أنفسهم فيه لمقاومة الإعجاز التأثيري لآيات القرآن، وهكذا السّخرية والاستهزاء يظهرونهما بعد سماع الآيات، ما هي إلاّ جزء يسير يدل على التّأثر النّفسي بآيات القرآن، فالاستكبار والاستهزاء والسّخرية هي من الموانع التي يحاول هؤلاء وأتباعهم استخدامها لمنع تأثرهم بالقرآن.

وقد شبه حال المستكبر من حيث عدم الانتفاع بالآيات بحال من لم يسمع الآيات على سبيل التّشبيه المرسل[1]. ثمّ يعاد التّهديد والوعيد في قوله: (فبشره بعذاب أليم) على سبيل الاستعارة التّهكمية في (فبشره)، وتنكير (عذاب) للتعظيم والتّهويل، ونظير الآية قوله تعالى ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2]، ولم يذكر قوله ﴿ كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ في آية سورة الجاثية وذلك لأنّه وصف حال الكافر بقوله ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ والوقر مانع للسماع فلم يناسب الإعلام بالسّماع ذكر الوقر، أمّا في سورة لقمان فلم يذكر سماع الآيات فناسب أنْ يذكر هناك الوقر[3]، فضلاً عن أنّ الإصرار عزم لا يشوبه إقلاع فإذا أصرّ على التّصام فهو كمن في أذنيه وقر، فصار أحد اللفظين يغني عن الآخر ويؤدي معناه[4]، وبذلك تحقق الإيجاز بهذا الاكتفاء.

وتأتي الآية الأخرى لتستكمل وصف حال الكافر فمهما أصرّ واستكبر عن سماع الآيات فإنّه يعلم صدقها ويعلم مصدرها الحق ولكنّه على الرّغم من علمه بذلك يتخذ ما يعلمه منها مادة للسخرية والاستهزاء، وتنكير (شيئا) للتقليل الذي أعقبه التّعبير القرآني بما يوحي بشمولية الآيات المستهزأ بها وهو قوله: (اتخذها) فلم يقل: (اتخذه) بعودة الضّمير إلى (شيئا) ولكنْ بعودته إلى الآيات، والمعنى أنّه يخوض في الاستهزاء

(١) =: صفوة التّفاسير: ٣/١٩٠.

(٢) سورة لقمان: من الآية ٧.

(٣) =: ملاك التّأويل: ٢/٧٨٩ – ٧٩٠.

(٤) =: درة التّنزيل وغرة التّأويل: ٤٣٨.

بجميع الآيات ولا يقتصر على الاستهزاء بما علّمه منها أو ما بلغه[١].

وناسب هذا الجمع أنْ يأتي التّهديد والوعيد بعده على سبيل الجمع أيضاً ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ فجمع بعد الإفراد ردا للكلام على معنى الكلّ[٢]. وإيثار اسم الإشارة للبعيد (أولئك) للإشارة إلى بعد منزلتهم في الشّر، ووصف العذاب بالإهانة يتناسب مع استكبارهم واستهزائهم وهو أدخل في الوعيد.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وعلى الرّغم من تكرار الإنذار والوعيد، وذكر دلائل القدرة الإلهية إلاّ أنّ فئة الكفر تعرض دوما عن الإنذار ولا تذعن، يقول الله (ﷻ) ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾[٣].

فالكون وما فيه من دلائل القدرة هو دليل صدق الكتاب المتلو، ولكن الكافرين يعرضون! وهذا هو العجب المستنكر. وقد أوثر في نظم الآية أسلوب القصر بالنّفي والاستثناء لتوكيد أنّ خلق الكون - وأعظم ما فيه خلق السّموات والأرض وما بينهما - هو حق وصدق ودليل ثابت على قدرة الله تعالى. وقد عطف ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ على (بالحق) عطف الخاص على العام للاهتمام به[٤].

وتقديم ﴿ عَمَّآ أُنذِرُواْ ﴾ على متعلقه (معرضون) للاهتمام بما أنذروا، فضلاً عن رعاية الفاصلة. ويوحي إيثار اسم الفاعل في وصفهم بالإعراض بثباتهم على ذلك وبإصرارهم عليه، ويوحي حذف العائد من الصّلة وهو الضّمير في (أنذروه) بالتّهويل ولتذهب النّفس فيه كلّ مذهب.

وهكذا جمعت الآية بين الموعظة والزّجر، بين التّذكير من غاية الخلق، والتّذكير بنهاية الأجل المسمى وهو يوم القيامة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وتعرض سورة الأحقاف نوعا آخر من الكافرين أصروا على عدم الاستجابة،

---

(١) =: الكشاف: ٢٨٦/٤.

(٢) =: جامع البيان في تفسير القرآن: ٨٥/٢٥.

(٣) سورة الأحقاف: الآية ٣.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٨/٢٦.

أنّهم كفار الجنّ، فها هم يستمعون إلى إنذار ممّن سمعوا شيئا من القرآن بعد أنْ صرفهم الله إلى الرّسول (ﷺ) فأنصتوا إلى سماع آيات الله، ثم جاؤوا ينذرون قومهم ويقولون ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

وهكذا يتكرر نداؤهم قومهم وكأنّهم أحسّوا أنّ عليهم واجبا في النذارة لا بدّ منه، فنادوا قومهم بأنْ (أجيبوا) أي اعملوا بإجابة النّداء على سبيل الاستعارة، و(داعي الله) هو الرّسول (ﷺ) أو القرآن، ولا يخفى ما بين (أجيبوا) و(داعي) من التّناسب، وكان أسلوب دعوتهم هذه على سبيل التّرغيب الذي يوحي به ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، واتبعوا ذلك بالتّرهيب بقولهم ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، وإظهار (داعي الله) بدلا من الاكتفاء بأحد الضميرين بأنْ يقال: (يجبه) أو: (يجب داعيه) للمبالغة في الإيجاب بزيادة التّقرير وتربية المهابة وإدخال الرّوعة[2]. وقوله ﴿ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ كناية عن المؤاخذة بالعقاب، وقيد بقوله (في الأرض) لتوسيع الدائرة، أي فليس بمعجز له تعالى بالهرب، وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل في أعماقها، واستكمل ذلك بقوله ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ لبيان استحالة النّجاة بواسطة الغير، أثر بيان استحالة النجاة بالنّفس[3]. وإيثار (أولئك) للإشارة إلى بعد منزلتهم في الضّلال، وحرف الظرفية يوحي بانغماسهم الكامل في الضّلال، فهو يحيط بهم من كلّ جانب.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## ثالثا: الإشراك والبغي:

تضمنت الكثير من الآيات في سور الحواميم ذكر صفة الإشراك والبغي، وقد

(١) سورة الأحقاف: الآيتان ٣١ - ٣٢.

(٢) =: روح المعاني: ٣٣/٢٦.

(٣) =: روح المعاني: ٣٣/٢٦.

أنكر القرآن عليهم ذلك، وذكرهم بما أعده لهم من عذاب أليم، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾[١].

وتبدو في هذه الآية صورة المشركين التّعساء، وهم يتخذون من دون الله أولياء، فيصور التّعبير القرآني ضالتهم وضالة أوليائهم مِّن دون الله، والله حفيظ عليهم، فهم في قبضته ضعاف صغار، وفي هذا التّصوير تسلية للنبي (ﷺ) والمؤمنين. وآثر النظم القرآني وصف إشراكهم بقوله (اتخذوا) لأنّ الاتخاذ أخذ الشّيء لأمر يستمر فيه مثل الدّار يتخذها مسكنا، فضلاً عن أنّ الاتخاذ يكون بمعنى التّسمية والحكم[٢]. وتقديم (مِن دونه) لتهويل فعلتهم وتشنيع جرمهم. وتجمع الآية بين تسلية النبي (ﷺ) ووعيد الكفار، فالحفيظ بصيغة (فعيل) بمعنى فاعل أي حافظ، وهو كناية عن مراقبة أحوال الموكل عليه وأعماله، وأوثر وصف (حفيظ) هنا بالإسناد إلى اسم الجلالة لأنّ الله جلّ عن أنْ يكلفه غيره حفظ شيء فهو فاعل الحفظ، وأوثر وصف (وكيل) بالإسناد إلى ضمير النّبي (ﷺ) لأنّ المقصود أنّ الله لم يكلفه بأكثر من التّبليغ[٣]. وفي ذلك زيادة تهويل بالحساب وترهيب بالعقاب.

❖❖❖❖❖

وينكر القرآن على المشركين إشراكهم ويقرر لهم على سبيل التّذكير بأنّ الله هو الولي، ويذكرهم بقدرته على البعث، ومَن قدر على ذلك فهو على كلّ شيء قدير، وذلك في قوله تعالى ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[٤].

فالآية تبدأ بـ (أمْ) التي تقدر بعدها همزة الاستفهام الإنكاري، إذ ينكر عليهم اتخاذهم أولياء من دون الله، فلا يستحق الولاية إلاّ الله، وتعريف المسند (الولي) بعد ضمير الفصل (هو) أفاد التّعظيم، وقد أفاد الضمير (هو) قصر هذا الوصف على الله وتحقيقه واختصاص الولاية بالله تعالى، وقد جاء ذلك جوابا لشرط محذوف كأنّه قيل

(١) سورة الشّورى: الآية ٦.
(٢) =: الفروق في اللغة: ١٣١.
(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٣٢/٢٥.
(٤) سورة الشّورى: الآية ٩.

بعد إبطال ولاية ما اتخذوه أولياء: إنْ أرادوا وليا حقا فالله هو الولي لا ولي سواه[١].

وبعد تقرير هذه الحقيقة بالقصر عطف عليها (وهو يحيي الموتى) على سبيل الإدماج لإثبات البعث إبلاغا للمنكرين، حيث كان إنكارهم البعث سببا من أسباب اتخاذهم أولياء من دون الله، فغاية الخبر التّعريض بهم وبأوليائهم[٢]. وآكد ذلك بـ (هو) لإنكارهم ذلك، وأعيد في قوله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ على سبيل تعميم مجال القدرة وإظهار حقيقتها الشاملة لكلّ شيء والتي لا تنحصر في حدود.

❖❖❖❖❖

بعد نفي الولاية عن شركاء المشركين وتأكيد الولاية الحقة لله وحده وهو القادر على كل شيء، ينكر التعبير القرآني ما عليه هؤلاء من الضّلال، ويسوق لهم تهديدا آخر ينبههم إلى أنّ كلمة الفصل قد أخرت القضاء بينهم ومن بقي منهم على الضّلال فقد ظلم نفسه وما للظالمين إلاّ العذاب الأليم، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾[٣].

ولا يخفى ما في (أمْ) من معنى الاستفهام الإنكاري المشوب بالتعجيب والذي يوحي في هذا السّياق بالتّقريع والتّهكم، فالأصنام التي عكفوا على عبادتها لمْ ولن تشرع لهم شيئا ممّا هم عليه، ونفي ذلك عنها وعن جميع ما كانوا يعبدون تنبيه إلى فساد هذه العبادة التي لم يأذن بها الله وتنبيه إلى أنّ آلهتهم هذه لا تضر ولا تنفع، وأنّ الشّرع الحق هو الذي شرعه الله لعباده وأرسل الرّسل من أجله. وقد أوحى تنكير (شركاء) بتحقيرهم وساعد على معنى التّهكم بهم، ولا يخفى ما توحي به لفظة (شرعوا) من التّهكم أيضاً، فضلاً عن التّنبيه إلى الفرق الكبير بين هذه اللفظة هنا بإسنادها إلى ما لا قدرة له على التّشريع وإسنادها في قوله تعالى ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾[٤] ففي ذلك تنبيه على أحقية الشّرع الذي سارت عليه الأمم

---

(١) =: إرشاد العقل السليم: ٣٠/٥.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٣٩/٢٥ - ٤١.

(٣) سورة الشّورى: الآية ٢١.

(٤) سورة الشّورى: من الآية ١٣.

السّالفة والذي توالت على تبليغه الرّسل، وعلى أحقية المشرع (ﷻ) بالعبادة، وإسناد الشّرع إلى الشّركاء مجاز مرسل بعلاقة السّببية لأنّها سبب ضلالهم[١]. وقوله: (مِن الدين) أي ما حسبوه دينا لهم وهو ما لم يأذن به الله.

وبعد الإنكار والتعجيب والتقريع والتهكم، يأتي الوعيد في قوله (ﷻ) ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ وهو إمهال لهم، ويزيد هذا الوعيد تهويلا إيثار صيغة المبني للمجهول (قضي) للتأكيد على الحدث دون فاعله مما يوحي بتحقق وقوعه، ويماثل نظم الآية قوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾[٢] ثمّ تختم الآية بالتّذييل في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ على سبيل الوصل، والتّأكيد بـ (إنّ) لأنّ الخبر موجه إليهم، فهم يسمعون هذا الكلام ويعلمون أنّهم المقصودون به. وأوثر لفظ (الظّالمين) ليفيد التّعميم والشّمول لكلّ من كانت هذه صفته، ولتأكيد حقيقة هؤلاء وما كانوا عليه من الشّرك ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٣]. وتقديم (لهم) أفاد قصر العذاب عليهم وتخصيصه لهم دون غيرهم، وتنكير (عذاب) أفاد التّهويل والتّكثير مع وصفه بـ (أليم) للدّلالة على شدّة ألمه عليهم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويعرض القرآن صفة أخرى من صفات الكافرين وهي البغي، ويأتي ذلك في وسط تمتع هؤلاء بنعم الله وعظيم فضله ويسوق مع ذلك وعلى سبيل الإدماج حكمته تعالى في تقدير الرّزق حسب مشيئته وعلمه وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[٤].

ولا تختص الآية بعرض صفة الكافرين لأنّها وردت موردا كليا، فلفظ العباد يعم الجميع وهي حكمة عامة، فضلاً عن أنّها جاءت استدراكا واحتراسا لمَا عطفت عليه وهو قوله: (ويزيدهم من فضله) فجاءت تشير إلى جواب عن سؤال سائل بعد سماعه أنّ الله يستجيب للذين آمنوا وأنّه يزيدهم من فضله فيسأل: إنّ ممّا يسأل

(١) =: محاسن التّأويل: ١٤/٥٢٣٧.
(٢) سورة الشّورى: من الآية ١٤.
(٣) سورة لقمان: من الآية ١٣.
(٤) سورة الشّورى: الآية ٢٧.

المؤمنون ربهم سعة الرّزق والبسطة فيه، فيجاب بهذه الآية[١]. وهكذا تشمل الآية جميع العباد، ولكنْ تبقى صفة البغي هي صفة الكافرين الذين يجحدون نعمة الله ويبغون في الأرض بدلا من أنْ يشكروا الله على فضله. وقد أطلق فعل التّنزيل على إعطاء الرّزق على سبيل الاستعارة للإيحاء بأنّه عطاء من رفيع الشّأن، فشبه بالنازل من علوّ، وتنكير (قدر) للتعظيم إذ يوحي بحكمته تعالى في ذلك.

واستكمالا للعموم الذي تضمنته الآية يمكن القول إنّ قوله تعالى فيها (ولو بسط) يشمل جميع العباد في كلّ الأزمنة.

وذيلت الآية بقوله ﴿ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ لتوكيد معنى الآية بشكل عام، وإيثار ثنائية (خبير بصير) يتناسب مع سياق الآية، فالخبير دال على العلم بمصالح العباد وأحوالهم قبل تقديرها وتقدير أسبابها، أي العلم بما سيكون، ووصف (بصير) دال على العلم بأحوالهم التي حصلت[٢]. وقد قال تعالى في موضع آخر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾[٣] وذلك لأن الآية التي سبقتها لم يكن فيها ذكر الله فصرح باسمه (ﷻ)، بخلاف ما في آية سورة الشّورى، «وأدخل اللام في الخبر موافقة لقوله ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[٤] ولم تدخل اللام في الخبر في آية سورة الشّورى موافقة لقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[٥]»[٦].

ويوحي نظم الآية - من جهة أخرى - بتحقير أمر الدّنيا وما فيها من الملذات، وتشير إلى أنّ الله قد جعل رزقه للعباد في الدنيا مقدرا محدودا واستبقى فيضه المبسوط للمؤمنين، وفي ذلك حثّ للعباد على طاعته، وهكذا تكون الآية أسلوبا آخر من أساليب الدعوة القرآنية بما أوحت به من دلالات ومعان عظيمة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٩٢.
(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٩٤.
(٣) سورة فاطر: من الآية ٣١.
(٤) سورة فاطر: من الآية ٣٤.
(٥) سورة الشّورى: من الآية ٢٣.
(٦) أسرار التّكرار في القرآن: ١٧٦.

وفي آية أخرى من سورة الشّورى يظهر التّعبير القرآني ضعف الإنسان، فبعد أنْ وعد الله عباده التّائبين بقوله: (ويعف عن كثير) جاءت هذه الآية على سبيل الاحتراس لتؤكد أنه يعفو عن قدرة، فهم لا يعجزونه وإنّما يعفو تفضلا، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ۝ ﴾[1].

فالخطاب هنا للمشركين[2]، وأوثر أسلوب الخطاب لأنّه أدخل في مثل هذا السّياق، وقد جاء الخبر جملة اسمية للدلالة على ثبات الخبر ودوامه، فنفي إعجازهم ثابت لا يتخلف، وقيد النفي بـ (في الأرض) لإرادة التّعميم، أي: في أي مكان من الأرض لئلا يحسبوا أنهم في منعة بحلولهم في مكة التي أمنها الله[3].

ويستكمل معنى الآية بإدخال اليأس في قلوبهم، فإنْ أرادوا أنْ يستنصروا فلا ناصر لهم، وتقديم (لكم) و(مِن دون الله) للاهتمام بالخبر ولتعجيل يأسهم من ذلك، كما أفاد تقديم (لكم) تخصيص النفي، وإذا كانت ولاية الله ونصرته منفية عنهم فهي خاصة للمؤمنين، ويوحي نظم الآية ولا سيّما قوله: (مِن دون) أنّ كلّ ما تعبدون من دونه لا يعد وليّا ولا نصيرا، ولا سيّما أنّ تكرار (مِن) قد أوحى بمعنى الاستغراق وهي التي ترد في سياق النّفي كثيرا[4]. وهكذا تنفى صفة القوة عنهم وعن شركائهم كما تنفى صفة الولاية والنصرة عن كلّ ما كانوا يعبدون.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سورة الزّخرف يعرض القرآن الكريم صورة أخرى من صور فساد عبادة الكافرين، يتجلى فيها جزء آخر من إشراكهم باتخاذهم الملائكة آلهة وزعمهم أنّها بنات الله، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ۝١٥ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ۝١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ۝١٨ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ

---

(١) سورة الشّورى: الآية ٣١.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٠٣/٢٥.

(٣) =: م. ن: ١٠٤/٢٥.

(٤) =: نحو المعاني: ١٢٨.

شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[1].

فقد آثر النّظم القرآني وصف فعلهم هذا بـ (جعلوا) وذلك أنّ من معاني (الجعل) الإحداث والاتصال، فدل ذلك على أنّهم أحدثوا هذا الأمر وعلى الدوام أي بصورة مستمرة فضلاً عن دلالة (الجعل) على الحكم، وكذلك على ممارسة الفعل[2]. وهكذا جمعت هذه الكلمة معاني (الإحداث والاتصال والحكم وممارسة فعل الإشراك)، فقد أثبتوا للملائكة صفة الإناث واعتقدوا وجودها فيهم، وعن هذا الاعتقاد صدر عنهم ما صدر من الاسم، ولو كان ما قالوه لا يصدر عن اعتقاد لما استحقوا إلاّ اليسير من الذّم[3]. وقد جاء الخبر متضمنا معنى الحال الذي يفيد تعجيبا منهم في تناقض آرائهم وأقوالهم وقلبهم الحقائق، والجزء هو البنات، يقال: أجزأت المرأة إذا ولدت أنثى، ويؤيد تفسير الجزء بالبنات قوله ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٍ﴾ وقوله ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ﴾ وقوله ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾[4]. وقدم قوله: (مِن عباده) للاهتمام به ولتأكيد أنّ ما اتخذوه آلهة هو من عباد الرّحمن فهو من تقديم الأهم، ثمّ جاء قوله ﴿ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴾ تذييلا يدل على استنكار ما زعموه بأنّه كفر شديد، والمراد بالإنسان هؤلاء النّاس خاصة[5].

وبعد التعجيب الذي تضمنته الآية السّابقة، تأتي الآية الأخرى لتنكر عليهم فعلتهم الشنيعة، فتبتدئ بـ (أمْ) والتي توحي بالاستفهام الإنكاري، فالتّعبير القرآني هنا ينكر عليهم ذلك، إذ إن الإناث مكروهة عندهم فكيف يجعلون لله أبناء إناثا وهلا جعلوها ذكورا، وتسلط الإنكار على اتخاذ البنات لكون المعلوم من (جزءا) هو الملائكة وإنّهم جعلوها إناثا، وأوثر الفعل (اتخذ) ليشمل الاتخاذ بالولادة وبالتّبني، وهكذا يتوجه الإنكار إلى كلّ أشكال الاتخاذ، فضلاً عمّا في ذلك من توبيخ لهم

(١) سورة الزّخرف: الآيات ١٥ - ٢٠.
(٢) =: الفروق في اللغة: ٢٨.
(٣) =: دلائل الإعجاز: ٣٤٠.
(٤) =: فتح البيان في مقاصد القرآن: ١٢/٣٣٤.
(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/١٧٧.

وتقريع، وذلك بإنكار أنْ يكون ما هو لله أدون ممّا هو لهم، وهكذا جاء إبطال معتقدهم على سبيل التّرقي وذلك بإبطال أنْ يكون الله تبنى ملائكة[١]، ولا سيّما أنّ السّياق قد قابل الفعل (اتخذ) بالفعل (أصفاكم) والذي جاء على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ليكون ذلك أدخل في الإنكار والتّوبيخ لمواجهتهم به، فضلاً عمّا في (أصفاكم) من التّهكم بهم لأنّه يعني إعطاء الصّفوة لهم. وناسب سياق الإنكار والتّوبيخ أنْ تأتي لفظة (بنات) على سبيل التّنكير في حين جاءت لفظة (البنين) معرفة باللام وهو تعريف الجنس للإشارة إلى المعروف عندهم، المتنافس في وجوده لديهم.

وقدم ذكر البنات على البنين لأنّ الغرض المسوق له الكلام هو ذكرهن، ولأنّ المنكر عليهم نسبتهن إلى الله، فضلاً عما في التّقديم من ردّ على المشركين في تحقيرهم البنات وتطيرهم منهن[٢]، وهكذا جبر تنكير (بنات) بالتّقديم وجبر تأخير (البنين) بالتّعريف.

ويستكمل التّعبير القرآني تقريعهم وتوبيخهم فيلتفت عنهم من الخطاب إلى الغيبة في قوله ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ودلالة هذا الالتفات هي أنّ ذكر قبائحهم اقتضى أنْ يعرض عنهم ويحكى لغيرهم تعجبا منهم وفضحا لفساد ما يدعون، وآثر النّظم القرآني (بشر) على سبيل التّهكم بهم لأنّ البشارة إعلام بحصول أمر مسر[٣].

وعدل عن ذكر الأنثى إلى قوله ﴿ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾ استكمالا لمعنى الإنكار والتّوبيخ وتعريضا بهم وبفعلتهم تلك. ويصور السّياق صورة الذي يبشر بالأنثى على سبيل الكناية ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ وعلى سبيل الاستعارة التّصريحية (كظيم) إذ تواشجت الكناية والاستعارة في تصوير المعنى على نحو عميق[٤]، فاسوداد الوجه كناية عن الغم والحزن، والعرب تقول لكلّ مَن لقي مكروها قد اسود وجهه[٥]، فالكناية

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٧٨/٢٥.

(٢) =: م. ن: ١٧٩/٢٥.

(٣) =: م. ن: ١٨٠/٢٥.

(٤) =: الكناية في القرآن الكريم: ١٠٩.

(٥) =: الجامع لأحكام القرآن: ١١٦/١٠.

باللون الأسود تكثيف للحالة النّفسية له، وفي هذه الكناية سخرية لاذعة وهي تصور هذا الشّخص مسود الوجه مغالبا لصراع رهيب في نفسه لمجرد أنْ يبشر بولادة أنثى له[١]. وبنيت الاستعارة (كظيم) على تشبيه امتلاء قلبه بالغم والحزن بامتلاء القربة بالماء وتشبيه كتمانه وضيقه بما يصر به فم القربة المملوءة بالماء حتى لا يخرج منها شيء[٢]، ولا شكّ في أنّ لفظة (كظيم) بمحتواها الحسي واللغوي تعبر عن حالة النّفس وهي متألمة مغمومة ومكروبة وقد بشرت بأنثى، وتنطق عن طبيعة هذه النفس التي تحمل نزعة الكره الشّديد للإناث، فهذه اللفظة تصور ظلال هذه النّفس، حية متحركة تكاد تلمس وترى بالعين الباصرة[٣].

ويعود النّظم القرآني إلى الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ ﴾ والذي جاء كناية عن المرأة وعن ضعفها عن مزاولة الصعاب، إذ تتخذ البنت حليتها من أوّل عمرها إلى سائر أطوارها، وهذا احتجاج إقناعي خطابي إذ لا فائدة في اتخاذ الله البنات، وفي هذه الكناية إشارة إلى أنّ النّعومة والرّخاوة ليست من أوصاف الرّجال، وفيها بيان لتجاوزهم وغبنهم حين جعلوا الإناث جزءا من الرّحمن - تعالى عمّا يقولون علوا كبيرا -، وقوله (ينشأ) بالبناء للمجهول إمعان في نفي الفاعلية والتّأثير، وفي ذلك تنويه آخر بعجز وقلّة حول الجنس في حياة القوم، وقوله: (في الحلية) فيه إشارة إلى أنّها تنشأ في هذا المحيط مشغولة بظواهر الأمور وحلاها[٤]. كما أن في هذه الكناية تعريضا بما كانوا يدعون، إذ تظهر الكناية الفرق الشاسع ما بين البنات وبين الملائكة، فهنّ يقطعن في الزّينة معظم أوقاتهن، وهؤلاء لا يعصون الله أمرا، تشغلهم عبادة الله وطاعة أمره. وهكذا نجد أنّ النّظم القرآني لو أتى صريحا بلفظ (النّساء) لم يشعر بشيء من ذلك، وتحقق من خلال النّظم نفي أنوثة الملائكة ونفي كونهم بنات الله[٥]. وثمّة لطيفة أخرى تتجلى في هذه الكناية، ذلك أنّ الله تعالى لو نفى أنْ يكون الملائكة إناثا على غير هذه الطّريقة لشعر

(١) =: الكناية في القرآن الكريم: ١١٠.

(٢) =: التّفسير الكبير: ١٩٦/١٨، والقرآن والصورة البيانية، د. عبد القادر حسين: ١٥٢.

(٣) =: الإعجاز الفني في القرآن: ١٠٣.

(٤) =: التّصوير البياني، محمد أبو موسى: ٤١٩.

(٥) =: فكرة النّظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم: ١٦١.

هذا الجنس بأنّه أقلّ منزلة عن الجنس الآخر، لكنّه (ﷺ) جاء بالنّفي من خلال سياق يهدد نفس الأنثى ويدخل السّرور عليها، فهي في الحلية منذ طفولتها، وتكتمل صورة الأنثى بعدم قدرتها على الاستمرار في الخصومة[١]. فالخصام هو المجادلة والمنازعة والمحاجة، فالمرأة لا تبلغ المقدرة على إبانة حجتها، وقوله: (غير مبين) أي غير قادر على تقرير دعواه وإقامة حجته[٢].

ويعود التّعبير القرآني ليكرر إنكار ما ادعوه في بداية الآيات، ويصرح بذلك في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾ على سبيل الإنكار المشوب بالتعجيب، وكرر ذلك ليبني عليه الإنكار بعده وليكتمل إبطال ما يدعون، وإضافة (عباد) إلى (الرحمن) تفيد تشريفهم، ويأتي الاستفهام الإنكاري ليزيد توبيخ المشركين، وينكر عليهم مشاهدة خلق الملائكة، إذ يدعون أنّها (إناثا)، ولمّا لم يكن ذلك منهم قال تعالى ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ كناية عن تحقق العقاب على كذبهم، والبناء للمجهول يناسب مقام التّهديد والوعيد.

ثمّ يذكر القرآن إيغالهم في الضّلال وقول الباطل ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ﴾ ثم قال تعالى ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ وفي سورة الحج ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[٣]، ذلك أنّ الكلام في سورة الحج على مَن يعبد غير الله، والتّمييز بين عبادة الله وغيره لا يحتاج إلى قدر كبير من العلم، أمّا في سورة الزّخرف فالكلام فيها يتعلق بالقدر، وهو يحتاج إلى قدر كبير من العلم ورسوخ قدم في المعرفة، فنفى عنهم أقل العلم وهم يخوضون في هذه المسألة، ثمّ أكّد هذا المعنى بقوله ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ بخلاف آية سورة الحج التي ختمها بما ليس له علاقة بالعلم[٤]. وقال في سورة الجاثية ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ لأنّهم في سورة الزّخرف قالوا: الملائكة بنات الله وإنّ الله شاء منّا عبادتنا إياها، وهذا جهل منهم وكذب، فقال تعالى ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ

---

(١) =: فنون التّصوير البياني: ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) =: إرشاد العقل السليم: ٤١/٥.

(٣) سورة الحج: من الآية ٧١.

(٤) =: التّعبير القرآني: ١٢٦.

عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ وفي الجاثية خلطوا الصّدق بالكذب ولهذا قال: (إنْ هم إلاّ يظنون) أي هم شاكون فيما يقولون[1]. ولا يخفى ما في أسلوب القصر بالنّفي والاستثناء من زيادة توبيخ لهم وتقريع.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ويعرض القرآن إمهال الله تعالى للكافرين واستدراجهم بالكثير من متاع الدّنيا الفانية مقابل وعد المؤمنين بنعيم الآخرة، وقد سميت السّورة بالزّخرف لدلالة آيته على أنّ الدّنيا في غاية الخسة في نفسها. كما يظهر ما للكافرين من قرناء يصدونهم عن سبيل الحق، وذلك في قوله ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[2].

ففي هذه الآيات تعريضٌ بالكافرين الذين اتبعوا أهواءهم وأصرّوا على طغيانهم وضلالهم بما كان لهم من المال والغنى، فجاءت الآية الأولى تنبئ بحقيقة (النّاس) - بهذا التّعريف الذي يفيد الاستغراق - وهي حبّ المال، كما تنبئ الآية بمشيئة الله في الخلق وفضله في هدايتهم، وقد تقدم ذكر (الفضة) لأنّها أكثر في التّحليات وأجمل في اللون، وتأخر ذكر (الذّهب) لأنّه أندر في الحلي[3]، وكرر ذكر (بيوتهم) لزيادة التّقرير. ولا يخفى أنّ هذه الآيات المكية تنصرف إلى البحث النّفسي في أعماق المؤمنين، ورسم صفات الكافرين، وتنتهي بخطاب الرّسول العظيم (ﷺ)، وفي هذه الآيات تسلية للمؤمنين، فكلّ ما يتمتع به الكافر في الدّنيا ليس إلاّ متاع الحياة الدّنيا ولهو الأيام القصيرة، ففيه يتبين حبّ الكافرين للمال، ويتبين حبّ المؤمنين لله ورسوله فيستحقون بذلك ما أعده الله لهم في الآخرة، ولا يخفى ما حملته فواصل الآيات من اللّحن

---

(١) =: بصائر ذوي التّمييز: ١/٤٢٢.

(٢) سورة الزّخرف: ٣٣ - ٣٧.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٠٣ - ٢٠٦.

المنسجم والنّغم المصور والإيقاع الرّتيب(١).

ثمّ يعود التعبير القرآني إلى ذكر عواقب صرفهم عقولهم عن التّدبر في الدعوة القرآنية، ويأتي ذلك على سبيل التّمثيل لحالهم - في عدم فهم القرآن - بحال مَن يعشو عن الشّيء الظّاهر للبصر، وعدي فعل (يعشو) بـ (عن) التي تفيد المجاوزة لأنّه ضمن معنى الإعراض عن ذكر الرّحمن، وأضيف (ذكر) وهو القرآن إلى (الرّحمن) للتشريف وللإيذان بنزوله رحمةً للعالمين، وقوله: (نقيّض) أي نهيئ، وجاءت لفظة (شيطاناً) نكرةً في سياق الشّرط ليفيد العموم، حيث أراد عموم الشّياطين لا واحداً، فقد أعاد عليه الضمير مجموعاً في الآية التي بعدها في قوله: (وإنهم)(٢). وجيء بالجملة المفرعة اسمية للدّلالة على الدّوام، والمعنى: فكان قريناً مقارنةً ثابتة دائمة. وتقدم الجار والمجرور على متعلقه (له قرين) للاهتمام بضمير (مَن يعشُ عن ذكر الرّحمن) أي قرين له مقارنةً تامة(٣). ومناسبة الآية لما قبلها ينبئ بها السّياق وهي أنْ يكون المال سبباً من أسباب النأي عن طريق الله ويعمي بصائر الكافرين فيصيبهم العشو ولا يرون سبيل الحق، ومَن كان كذلك فقد هيأ الله له دعاة الغواية والضلال يلازمونه ويزينون له طريق الضّلال.

وتأتي الآية الأخرى لتعمّ كلّ هؤلاء القرناء على اختلافهم، ويؤكد الخبر بـ (إنّ) و(اللام) لتوكيد فعل القرناء بصد الكافرين عن السّبيل، وصيغة المضارع (يصدون) تنبئ بالاستمرار والتّجدد، والتّعريف في (السّبيل) للتعظيم فهو السّبيل المعروف الذي ينبغي ألاّ يحيد عنه أحد. ثمّ قال: (ويحسبون) ولم يقل: (يظنون) ليوحي بما في داخلهم من الشك إذ إن «الظّن ضرب من الاعتقاد وقد يكون حسبانٌ ليس باعتقاد»(٤)، والصّيغة الفعلية في (يحسبون) تفيد استمرار ذلك منهم وتجدده، وهكذا مثلت حالهم وحال مقارنة الشيطان لهم بحال مَن استهدى قوماً ليدلوه فضللوه وصرفوه عن السبيل وهو يحسب أنّه على الهدى.

❖❖❖❖❖

---

(١) =: البناء الصوتي في البيان القرآني، د. محمد حسن شرشر: ٧٦.

(٢) =: الجدول في إعراب القرآن: ٨٧/٢٥.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢١٠/٢٥ - ٢١١.

(٤) =: الفروق في اللغة: ٩٢.

وفي آيات أخرى من سورة الزّخرف يظهر القرآن صورة أخرى من صور جدل المشركين، فعندما خاطبهم بالقول ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾[١] وكان القصد أصنامهم التي عبدوها، ضرب بعضهم المثل بعيسى ابن مريم (عليه السلام) إذ عبده بعض أهل الكتاب، فسأل هؤلاء على سبيل الجدل: أهو في النّار أيضا؟ فجاءت هذه الآيات تظهر حقيقة نبي الله ورسوله عيسى ابن مريم (عليه السلام) وحقيقة دعوته، وتنكر على المشركين في زمن الرسول (ﷺ) مراءهم وجدلهم وتبطل ما كانوا يدعون، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾[٢].

وأوّل وجه بلاغي في نظم الآية هو إيثار كلمة (قومك) للتعبير عن قريش على سبيل التعجيب منهم إذ فرحوا من تغلب ابن الزّبعري على النّبي (ﷺ) بزعمهم في أمر عيسى (عليه السلام)، وإضافتها إلى الكاف للإيحاء بأنّ الأولى لهم أنْ ينصروك ويتبعوك لا أنْ يجادلوك فيما جئت به. وتقديم (منه) على (يصدون) هو من تقديم السبب على المسبب ويوحي هذا التقديم بقصر صدهم عليه دون التّدبر بما كانوا يدعون إليه من التّوحيد، وصيغة المضارع (يصدون) توحي باستمرار صدهم منه وتجدده بهتاناً وإثما مبيناً، وزيد ذلك بذكر قولهم في الآية الأخرى حيث قدموا ذكر آلهتهم على ذكر ضمير عيسى (عليه السلام) استكمالاً لصدهم عنه وإيهاما لأنفسهم المريضة بأنّهم على حق في عبادة الملائكة، وقد جاء قولهم على سبيل الاستفهام التّقريري لعلمهم أنّ النّبي (ﷺ) يفضل عيسى (عليه السلام) على آلهتهم، ويؤثر السّياق صيغة القصر بالنّفي والاستثناء في وصف ما جاؤوا به من المثل ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ﴾ فهم لا يعتقدون أنّ عيسى (عليه السلام) خير

(١) سورة الأنبياء: من الآية ٩٨.

(٢) سورة الزّخرف: الآيات ٥٧ – ٦٢.

من آلهتهم ولكنّهم أرادوا مجاراة النّبي (ﷺ) في جدل باطل.

ويستكمل التّعبير القرآني ذلك فيصفهم بحب الخصام والمجادلة، فيبدأ بـ (بل) للإضراب الانتقالي، وتوكيد الخبر بضمير الفصل (هم) وقوله: (قوم خصمون) يشير إلى أنّ الخصام قد صار من مقوماتهم، وفي ذلك توبيخٌ لهم.

وتعاد صيغة القصر بالنّفي والاستثناء في وصف حقيقة نبي الله عيسى (عليه السلام) إذ قصر على العبودية على طريقة قصر القلب للرّد على الذّين زعموه إلها. وأظهر القرآن فضل الله عليه في (أنعمنا عليه) وتقديم (مثلاً) للاهتمام به وللإيحاء بالتّشريف والمنزلة العظيمة. وفي هذا الخبر تعريضٌ بمكان عبادة قريش غيره (ﷺ).

ويستكمل التّعبير القرآني إنكار جدلهم وبيان فساد عبادتهم الملائكة وهم لم يروها ولم يشهدوا خلقها. وقد قدّم قوله: (منكم) على مفعول (جعلنا) للاهتمام بمعنى هذه البدلية لتتعمق أفهام السّامعين في تدبرها. وجملة ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ بيان لمضمون قوله: (منكم)، وحذف مفعول (يخلفون) لدلالة منكم عليه[١]. والآية تذييل لوجه الدّلالة على القدرة، وتضمين للإنكار على من اتخذ الملائكة آلهة[٢].

وأمام هذا الجدل والخصام، يذكرهم القرآن بالسّاعة، وذلك في قوله ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ على سبيل التوكيد بـ (إنّ) و(اللام)، والضمير في (إنه) يراد به القرآن، أو نبي الله عيسى (عليه السلام) فإذا أريد به القرآن فيكون إسناد (علم السّاعة) إلى ضمير القرآن إسناد مجازي لأنّه سبب العلم بوقوع السّاعة لما فيه من الدّلائل على إمكان البعث ووقوعه، وإذا أريد به عيسى (عليه السلام) فهو علامة من علامات السّاعة وقربها[٣]، وهو سبب للعلم بها فالآية مجاز مرسل بعلاقة السّببية إذ أطلق المسبب وهو العلم وأريد السّبب وهو عيسى (عليه السلام)[٤]. وقد أثر النّظم القرآني تقديم ذكر السّاعة على النّهي عن تكذيب وقوعها تناسباً مع مقام التّهديد والوعيد بها، ثمّ قال ﴿ وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ على سبيل التّمثيل إذ شبه حال الممتثلين أمر الله بحال السّالكين صراطاً دلهم عليه

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤٢/٢٥.

(٢) =: روح المعاني: ٩٣/٢٥.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤٣/٢٥.

(٤) =: محاسن التّأويل: ٥٢٨٠/١٤.

دليل. وتنكير (صراط) للتعظيم، والإشارة إليه بـ (هذا) للقريب، فيه توبيخ لهم لأنّه القريب الواضح لهم لكنّهم يعرضون وينكرون ويصدون، لذلك نهاهم في الآية الأخرى عن اتباع الشّيطان لأنّه عدو لهم فقال: ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ فكنى بنهي الشيطان عن صدهم عن نهيهم عن الطاعة له[1].

وأكد الخبر بـ (إنّ) تناسباً مع مقام الإنكار، وقدم (لكم) لقصر عداوة الشّيطان عليهم وكأنّها مخصصة لهم لا لغيرهم، وتنكير (عدو) للتكثير وبيان شدّة عداوته لهم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وبعد إنكار جدلهم وفضح فساد عقيدتهم وما كانوا يدعون، يظهر التّعبير القرآني ما اعد لهم من الخزي في الحياة الدّنيا بعد ما ذكر ما أعده الله لهم من العذاب يوم القيامة، وذلك في قوله تعالى ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[2].

فقد بدأت الآية بـ (أمْ) للإضراب الانتقالي من ذكر عذاب الآخرة إلى ذكر عذاب الدّنيا النّفسي، والاستفهام بعد (أمْ) تقريري يوحي بالتّهديد والوعيد، فإنْ كانوا قد أعدوا أمراً فإنّ الله قد أعد لهم أمراً من نقض الكيد وإلحاق الأذى بهم، وحقيقة الإبرام: الفتل المحكم، فاستعير لإحكام التّدبير والعزم على ما دبروه[3]. وتنكير (أمرا) للتعظيم وتشنيع ما أرادوا فعله، والصّيغة الاسمية (مبرمون) توحي بالثّبات والتّمكن وحذف مفعوله لدلالة ما قبله عليه ولزيادة التّهديد تهويلاً. وقد جاءت الآية على سبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إذ سبقها قوله ﴿ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[4] وقد أوحى هذا الالتفات بمنزلتهم إذ أنزلوا منزلة العبيد الذين لا يلتفت إليهم، وكان نظم الآية جاء معادلا لما تقديره: ارجعوا لمَا ظهر لهم من الحق الظّاهر (أمْ ابرموا أمرا)[5].

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٤٥.

(٢) سورة الزّخرف: ٧٩ - ٨٠.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٦١ - ٢٦٢.

(٤) سورة الزّخرف: الآية ٧٨.

(٥) =: نظم الدرر: ١٧/٤٨٥.

والآية الأخرى توحي بأنّ ما أبرموه كان أمرا قد أخفوه لذلك قال: (سرهم ونجواهم) فيناسب الكيد دون تكذيب الحق لأنّ الكفرة مجاهرون فيه، والمراد بالسّر ما أسروه في أنفسهم، وبالنّجوى ما تساروا به[١].

ثمّ جاء قوله: (بلى) أي نسمع سرهم ونجواهم، وعطف عليه ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ليعلموا أنّ علم الله بما يسرون علم يترتب عليه مؤاخذتهم لأنّ كتابة الأعمال تؤذن بالحساب والجزاء[٢]. وتوحي صيغة (يكتبون) بالاستمرار التّجددي.

وهكذا قابل التعبير القرآني إصرارهم على الباطل، بأمر الله الجازم وإرادته بتمكين الحث وتثبيته، وقابل تدبيرهم ومكرهم في الظّلام بعلم الله بالسّر والنّجوى، ثمّ أوحى ببيان العاقبة في ذكر إحصاء الأعمال وحفظها، ولا يخفى ما في ذلك من الوعيد والتهديد.

❖❖❖❖❖

وفي سياق ذكر الصفات الإلهية يأتي تهديد آخر بعد أنْ يمضي التّعبير القرآني في تمجيد الخالق وتوحيده بما يليق بربوبيته للسموات والأرض والعرش العظيم، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[٣].

فالتفرد بهذه الصفة التي لا يشاركه فيها احد يناسب مقام التّهديد، وقد جاءت الآية الأولى على سبيل الوصل لتفيد نفي الشّريك في الألوهية مطلقاً بعد نفيه فيها بالبنوة، وعبر بالسّماء والأرض عن عوالم التّدبير والخلق على سبيل الإحاطة لأنّهم جعلوا لله شركاء في الأرض وهي الأصنام، وفي السّماء الملائكة بقولهم عنها: (بنات الله) وأفاد ضمير الفصل (هو) قصر صفة الألوهية على الله، ونفيها عمّن سواه، وجاء قوله: (وهو الحكيم العليم) تتميماً للدليل واستدلالاً عليه وهو ما يسمى بالتّدقيق

(١) =: المعاني الثّانية في الأسلوب القرآني: ٤٣٧.
(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/١٠٤.
(٣) سورة الزّخرف: الآيتان ٨٤ – ٨٥.

وهو ذكر الشّيء بدليل دليله[١].

وتأتي الآية الأخرى تؤكد إنكار شركهم وقولهم إنّهم عبدوا الملائكة لأنّها بنات الله، وقد تمثل هذا الإنكار بإيثار صيغة (تبارك) للدلالة على أنّ البركة ذاتية لله تعالى، ويوحي ذلك باستغنائه عن اتخاذ الولد واتخاذ الشّريك[٢]، فمَن كان له ملك السّموات والأرض وما بينهما لا يحتاج للشريك أو الولد.

وجاء قوله ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ تمهيداً للتهديد في قوله: (واليه ترجعون) وإدماجا لإثبات البعث الذي كانوا ينكرونه، وفي تقديم (إليه) تقوية لإثبات البعث فهم ينكرون البعث أصلا ولا يؤمنون به، وفي هذا التّقديم توكيد وقصر للرّجوع إليه لا إلى غيره من الآلهة التي كانوا يعبدون. وقد منح الالتفات في (إليه ترجعون) من الغيبة إلى الخطاب قوة للتهديد وتهويلاً في الوعيد. وهكذا نجد أنّ التّهديد يقترن أحيانا بذكر الصّفات الإلهية ودلائل القدرة فيكون في مثل هذا السّياق أدخل في تحقيق هدف الدّعوة القرآنية.

❖❖❖❖❖

ويعرض القرآن نموذجاً آخر من الإشراك، نجد فيه النّفس الكافرة تتبع الهوى المتقلب، وتتعبد هواها وتخضع له، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها، وتتخذ منه إلها قاهراً لها مستولياً عليها، ولذلك يسوق النّظم القرآني هذه الصّورة على سبيل الاستنكار والتعجيب، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[٣].

فالاستفهام مستعمل في التعجيب، وفي إيثار فعل الرّؤية إيحاء بأنّ حالهم قد بلغ من الظهور بحيث أصبح مرئياً، ولذلك جاء الخطاب لغير معين ليوحي بأنّ حالهم في الظّهور بمكان لا يختص بها مخاطب، وهو ما يسمى بـ (اللائق بالخطاب)[٤] وعبر

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٦٧ - ٢٦٨.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٦٩.

(٣) سورة الجاثية: الآية ٢٣.

(٤) هو توجيه الكلام نحو الحاضر أنْ يكون لمعين، وقد يعدل عن الأصل فلا يراد به مخاطب معين بل يعم كل من يمكن خطابه. =: معجم البلاغة العربية، ٢/٨٢٤ - ٨٢٥.

عن إشراكهم باتخاذهم الهوى إلها على سبيل التّشبيه البليغ، وقلب التّشبيه عن (هواه إلهه) أفاد خضوعه التّام وكان لا اله له إلاّ هواه، أي اتخذ هواه كإله له لا يخالف له أمرا[١]، وأصرّ على الضّلال (على علم) فالحرف (على) للمصاحبة بمعنى (مع). وقوله ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ يوحي بعدم انتفاعهم بالمواعظ والبراهين، وعدم نفوذ النّصائح ودلائل الأدلة إلى قلوبهم، وعدم الانتفاع بمشاهدة دلائل القدرة. ولا يخفى ما في لفظة (ختم) من قدرة على تصوير امتناع دخول الحق قلوب هؤلاء النّاس[٢]. وقد أوحى ترتيب (السّمع والقلب والبصر) بأنّه «لا فهم له في الآيات المسموعة، ولما كان الأصم قد يفهم بالشارة قال (وقلبه) فهو لا يعي ما من حقه وعيه، ولما كان المجنون الأصم قد يبصر مضاره ومنافعه فيباشرها مباشرة البهائم قال ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ فصار لا يبصر الآيات المرئية[٣]. وتنكير (غشاوة) للتنويع والتعظيم[٤]. وقد جاء نظم الآية بتقديم السّمع على القلب بخلاف آية سورة البقرة ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾[٥] لأنّ المخبر عنهم في آية سورة الجاثية اتخذوا إلههم هواهم فعقدوا قلوبهم على الهوى وصرفوا السّمع عن تلقي الآيات فقدم لإفادة أنّهم كالمختوم على سمعهم ثمّ عطف عليه (قلبه) تكميلاً، أمّا في آية سورة البقرة فالعناية بذم المتصامين عن السّماع، فالتّقديم والتّأخير لغرض شرف الإدراك[٦]، فضلا عن أنّ النّظم القرآني في سورة الجاثية كان قد ذكر الأسماع المعطلة فقال ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾[٧]، ولذلك قدم السّمع، أمّا في سورة البقرة فقد ذكر القلوب المريضة فقال ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[٨]

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٣٥٧/٢٥.

(٢) =: من بلاغة القرآن: ٣٠٨.

(٣) =: نظم الدرر: ٩٧/١٨.

(٤) =: تنوير الأذهان: ٥٠/٤.

(٥) سورة البقرة: من الآية ٧.

(٦) =: البرهان في علوم القرآن: ٢٥٤/٣.

(٧) سورة الجاثية: من الآية ٨.

(٨) سورة البقرة: من الآية ١٠.

ولذلك قدم القلوب، فوضع كلّ لفظة في المكان الذي يناسبها[١].

وبعد هذا التعجيب يأتي الاستفهام الإنكاري ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ وفي ذلك تسلية للنبي (ﷺ) وتأييس للمشركين، وقوله: (أفلا تذكرون) استفهام عن عدم تذكر المخاطبين لهذه الحقيقة، وهو استفهام إنكاري أيضا.

وقد جاء هذا الاستفهام للإيحاء بأنّ الإجابة عن الاستفهام الأول هي النّفي بـ(لا أحد يهديه) ولو كان في ذلك أدنى شكّ لما كان للثاني ضرورة البتة، فضلاً عن أنّ الاستفهام الأخير للحث على تذكر قدرة الله وعظيم نعمائه[٢].

فتلك إذن صورة أخرى من صور الشّرك أصرّ أصحابها على الضّلال فاستحقوا الخسارة والهلاك في الدّنيا والآخرة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سابعة الحواميم يظهر التّعبير القرآني بعد ضلال المشركين الذين عبدوا مَن لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة، وسيكونوا لهم أعداءً هناك، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦ ﴾[٣].

وقد جاء نظم الآية مبتدءاً بالاستفهام الإنكاري المشوب بالتعجيب، فلا أحد أشدّ ضلالاً وأعجب حالا من هؤلاء، وعبر عن آلهتهم التي يعبدونها بـ (مَن لا يستجيب له) للتّذكير بعدم فائدتها في الاستجابة التي يرجونها منها، وجعل يوم القيامة غاية لانتفاء الاستجابة، كنايةً عن استغراق مدة بقاء الدّنيا، ولا ينتهي ذلك بانتهاء هذه الغاية، فهم في يوم الحشر أعداء، ولذلك قال ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦ ﴾ على سبيل التّشبيه البليغ لمشابهتها للأعداء والمنكرين للعبادة[٤]. وأوثر (إذا) للإيحاء بتحقق وقوع يوم الحشر وتأكيده، وصيغة البناء للمجهول في (حشر) تؤكد ذلك أيضا وتظهره كأنّه قد وقع وتحقق، فضلاً عن دلالتها في التّركيز على

(١) =: التّعبير القرآني: ٦١.

(٢) =: أساليب النفي في القرآن: ٣٠٨.

(٣) سورة الأحقاف: الآيتان ٥ - ٦.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٢/٢٦.

الحدث وصرف النّظر عن محدثه مما يوحي بالقدرة العظيمة للخالق، كما توحي بتأكيد وقوع ما كان ينكره هؤلاء من البعث. ولا يخفى ما بين (يدعو) و(دعائهم) من جناس الاشتقاق، والغفلة مجاز عن عدم الفائدة فيها، أو هو تغليب لمن يتصور منه الغفلة على غيره[١]، ووصفها بهذه الأوصاف من ترك الاستجابة والغفلة مع أنّ حالها ظاهر، للتهكم بها وبعبدتها. وقد جاءت الضمائر في هذه الآيات على سبيل الجمع مع التفريق، وأوثرت ضمائر من يعقل للتعبير عن الأصنام لأنّ الكفار قد أنزلوها منزلة الآلهة وبالمحل الذي دونه البشر فخوطبوا على نحو معتقدهم فيها[٢]. وتنكير (أعداءً) لتعظيم ما يقع بينهم من العداوة، وتقديم (بعبادتهم) للتّخصيص، فالعبادة التي عكفوا عليها في الحياة الدنيا وأصرّوا على المضي فيها ستكون محل كفرهم وموقعه في الآخرة، وصيغة (كافرين) توحي بثبات هذه الصفة فيهم وبخلودهم على هذه الحال مع العذاب.

❖❖❖❖❖

## رابعاً: إنكار البعث والحساب:

بعد الجدل والتّكذيب بالآيات، والاستكبار عن العبادة والإعراض عن الدعوة، والإشراك والبغي، يسجل القرآن صفةً أخرى من صفات الكافرين تتمثل في إنكار البعث والحساب، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝ ﴾[٣].

فبعد ذكر التّهديد بالويل للمشركين، جاءت الآية الأخرى بيانا لحال هؤلاء وصفتهم، فهم ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ بإيثار (الإيتاء) على (الإعطاء) لمَا في (الإيتاء) من قوة وخصوصية أقوى من (الإعطاء) ذلك أنّ الإيتاء يدل على يسر الإعطاء وسماحة البذل، فنفيه عنهم يوحي بخلو أنفسهم من هذه الصفات، فضلاً عن أنّ (أتوا) يقال إذا أوتي ولم يكن منه قبول و(آتيناهم) يقال فيمَن كان مِنه قبول[٤]، فأوحى استخدام (لا يؤتون) برفضهم التّام لإيتاء الزّكاة وعدم قبولهم لهذا الأمر.

(١) =: محاسن التّأويل: ٥٣٣٨/١٤.

(٢) =: المحرر الوجيز: ٣٣٣/١٣.

(٣) سورة فصلت: من الآيتان ٦ و٧.

(٤) =: ظاهرة التّرادف في ضوء التّفسير البياني للقرآن: ٢٥.

وقد اختلف في تفسير (الزّكاة) في هذه الآية ذلك أنّها مكية، والزّكاة لم تفرض إلاّ في السّنة الثّانية من الهجرة في المدينة، فقد قيل إنّها تعني التّوحيد، أي: الذين لا يقولون (لا إله إلاّ الله) فهي اسم لما تزكو به النّفس[١]. ويرجح أنّ جرير الطّبري معنى الزّكاة بأنّه: لا يؤدون زكاة أموالهم وهو الأشهر من معنى الزّكاة وأنّ قوله ﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ دليل على ذلك لأنّ الكفار كانوا لا يشهدون أنْ لا إله إلاّ الله فلو كانت الزّكاة بمعنى التّوحيد لم يكن لقوله ﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ معنى، لأنّه معلوم أنّ مَن لا يشهد لا يؤمن بالآخرة، فالزّكاة زكاة الأموال[٢].

وقد خص التّعبير القرآني من بين أوصاف المشركين منع الزّكاة مقروناً بالكفر بالآخرة لأنّ أحبّ شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته، وفي هذا التّناسب البلاغي إيحاء آخر وهو بعث المؤمنين على أداء الزّكاة وتخويف شديد من منعها حيث جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة. وجاء ذكر إنكارهم البعث على سبيل الوصل وتقديم ضمير الفصل لتخصيص هذه الصّفة لهم وقصرها عليهم، وتقديم بـ (الآخرة) على متعلقه (كافرون) لإفادة الاهتمام، وضمير الفصل (هم) أفاد توكيد الحكم توكيداً لفظياً[٣]، وصيغة اسم الفاعل الجمع (كافرون) توحي بثبوت هذه الصفة فيهم وملازمتها لهم وتوحي بإصرارهم على هذا الإنكار.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وتختم سورة فصّلت بفذلكتين أعلنتا انتهاء الكلام على سبيل براعة الختام وذلك قوله (ﷻ) ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ۝٥٤ ﴾[٤].

فهم منكرون للبعث والحساب على الرّغم من وضوح الدّلائل ولا سيّما ما تضمنته السّورة من ذكر دلائل القدرة في ذلك، وقد وصفهم القرآن هنا بأنّهم (في مِرية) فكان هذا التّذييل جامعاً لكل ما تضمنته السّورة من أحوال المشركين، وقد ابتدأ التّذييل

---

(١) =: محاسن التّأويل: ٢٥١/١.

(٢) =: جامع البيان في تفسير القرآن: ٦٠/٢٤.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤٠/٢٤.

(٤) سورة فصلت: الآية ٥٤.

بـ (إلاّ) للتنبيه، ثمّ أكد الخبر بـ (إنّهم) واستعير حرف الظرفية لتمكن الشّك منهم حتى كأنّهم مظروفون فيه، فكان ذلك تعريضاً بهم ولا سيّما في إيثار لفظة (مرية) على (شكّ) ذلك أنّ الامتراء هو استخراج الشبه المشكلة، وأصله المري وهو استخراج اللبن من الضّرع، يقال: مرى النّاقة يمريها مرياً، وامترى امتراءً إذا استخرج الشّبه المشكلة من غير حل لها[1]. وتنكير (مرية) للتكثير، وأسند لفظ (ربّ) إلى ضميرهم استكمالاً للتعريض بهم، ثمّ جاء التّذييل الثّاني وهو جامع لكلّ ما تضمنته السّورة من أبطال لأقوالهم وتقويم لاعوجاجهم[2]، فابتدأ بـ (إلاّ) التنبيهية وأكد الخبر بـ (إنّ)، وتقديم (بكلّ شيء) من تقديم الأليق بالسّياق، ويتناسب هذا مع وصفهم بأنّهم (في مرية)، ووصف الله بـ (محيط) يكون من قبيل العلم وقبيل القدرة، فكل شيء في مقدوره، أو أنّ معناه أنه يعلم بالأشياء من جميع وجوهها[3]، فيكون الوصف بـ (محيط) مجازاً عقلياً لأنّ المحيط هو علمه فأسندت الإحاطة إلى اسم الله لأنّ (محيط) صفة من أوصافه وهو العلم[4].

وهكذا أظهر التعبير القرآني بهذا الإيجاز صفة من صفات الكافرين وهي إنكار البعث والحساب، وقابلها بوصف قدرة الله تعالى وسعة علمه.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سورة الدّخان يعلن المشركون إنكارهم البعث والحساب، ويطلبون - على سبيل المجادلة - أنْ يؤتى بآبائهم ليصدقوا الرّسول (ﷺ) فيما يقوله عن البعث والحساب، وينكر التعبير القرآني عليهم ذلك ويذكرهم بمَن سبقهم من الأمم الكافرة، ويؤكد حقيقة خلق السموات والأرض بالحق وكل ذلك في قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ

(١) =: الفروق في اللغة: ٩٢.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٢.

(٣) =: الفروق في اللغة: ٨٧.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٢.

لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[١].

وقد أكّد الخبر بـ (إنّ) و(اللام) تحقيقاً لقولهم ذلك، وصيغة الفعل (يقولون) توحي باستمرار هذا القول منهم وتجدده، فقد قصروا ما يتتابهم بعد الحياة على الموتة الأولى بطريقة النّفي والاستثناء، وزادوا ذلك تأكيداً بقولهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ على سبيل الوصل للاهتمام به، وهو غرض مقصود أيضا، ويوحي تقديم (نحن) بما في نفوسهم من اليأس من البعث وعدم إيمانهم به، وتوحي صيغة اسم المفعول (منشرين) - بعد النّفي - بإصرارهم على إنكار البعث مهما قدم لهم الرّسول (ﷺ) من دلائل على ذلك، فضلاً عن دلائل القدرة الظّاهرة لهم في كلّ حين، ولذلك طلبوا إحياء آبائهم - على سبيل التّعجيز - دليلاً على صدق وقوع البعث، وينبئ ذلك عن جهلهم وعن إصرارهم على الكفر. وفي الآية إيحاء من وجه آخر وهو أنّ الإيمان بالبعث يقترن بالشّهادة بالغيب على هذه القضية التي يخبر بها الرّسل، ويقتضيها التدبر في الحياة وفي خلق هذا الكون. وقبل أنْ يعرض التّعبير القرآني لهم شيئاً من ذلك يوجه إليهم توبيخاً وتهديداً بقوله ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَـٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ فافتتح ذلك بالاستفهام التّقريري لينبههم إلى مضمونه، ولا يسعهم أمام هذا التّقرير إلاّ أنْ يعترفوا بأن قوم تبع والذين من قبلهم خير منهم لأنّهم كانوا يضربون بهم الأمثال[٢]. وقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ تعميم بعد تخصيص للإيحاء بدلائل القدرة العظيمة. وقد جاء قوله: (أهلكناهم) استئنافاً بيانياً - على سبيل الفصل - لما أثاره الاستفهام التّقريري من السّؤال عن إبهامه ماذا أريد به. ثمّ يؤكد صفة الإجرام فيهم بقوله ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ وقد أوحى الإخبار بـ (كانوا) عن هذه الصّفة بوجودها وأنّها لم تفارق ذاتهم فهي فيهم غريزة وطبيعة مركبة في نفوسهم[٣].

ويذكر السّياق شيئاً من دلائل القدرة وتأكيد حقيقة غاية الخلق، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ لينفي ما بداخلهم من

---

(١) سورة الدّخان: الآيات ٣٤ - ٣٩.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٣٠٨/٢٥.

(٣) =: البرهان في علوم القرآن: ١٢٣/٤ - ١٢٤.

أسباب ودوافع دفعتهم إلى قولهم ذلك، فهذا الخلق العظيم لم يكن للهو واللّعب، وإنّما لحكمة أرادها الخالق (ﷻ)، وتدبر ما في هذا الكون الفسيح يوقع في النفس هذه الحكمة أو الغاية، فلا عبث فيه، ويوصل النّفس إلى أنّ أمر الآخرة والجزاء حتم ولا بدّ مِنه لكي تتحقق النهاية الطبيعية للصلاح والفساد في الحياة الدّنيا، وهذه هي مناسبة ذكر هذه الآيات بعد إنكار المشركين للبعث والحساب. ثمّ يؤكد هذه الحقيقة في الآية الأخرى ﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ على سبيل قصر خلقهما على الحق لتأكيد نفي العبث واللّعب في خلقهما وما بينهما، ثمّ يأتي التّذييل الذي يبدأ بالاستدراك ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تجهيلاً لمنكري البعث والجزاء وتوبيخاً لهم على جهلهم وعدم إدراكهم لآيات الله في الكون.

❖❖❖❖❖

ويعاد قولهم الذي قالوه في الآية السّابقة وأنكروا فيه البعث والحساب، إذ يقول الله (ﷻ) ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾(١).

هذه هي نظرتهم، فالحياة فيها ما يرونه في الدّنيا رأي العين، يموت جيل ويحيا آخر، وفي ظنّهم أنّ الدّهر هو الذي ينهي آجالهم فيموتون، فهي نظرة سطحية لا تتأمل في هذا الكون، ولا تسأل عن مصدر الحياة، وهي نظرة تنبئ بما فيهم من جهل، أفلا يرون الأطفال يموتون كالشّيوخ، والأصحاء كالمرضى، والأقوياء كالضّعاف؟ فلا يصلح الدّهر إذن تفسيراً للموت.

وإذا كانوا في آية سورة الدّخان قد قصروا ما يتتابهم بعد الحياة على الموتة الأولى وعلى سبيل القصر بالنّفي والاستثناء، فنجدهم في هذه الآيات يقصرون الحياة على الدّنيا وينكرون الحياة الآخرة، فضلا عن قصرهم سبب الموت والهلاك على الدّهر، وهم بذلك ينكرون البعث لأنّهم قد أنكروا أنّ الله بيده الموت والحياة.

---

(١) سورة الجاثية: الآيتان ٢٤ - ٢٥.

ولا يخفى ما في (نموت ونحيا) من الطباق وهو بيان لجملة ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾ والمعنى: يموت بعضنا ويحيا بعض أي يبقى حيا أو يولد بعد مَن ماتوا، وقد حقق الطباق إيجازا لكلّ ذلك، وصيغة المضارع (نموت ونحيا) توحي بالاستمرار والتّجدد. وقدّم ذكر (نموت) على (نحيا) للاهتمام بالموت في هذا السّياق لأنّهم بصدد تقرير أنّ الموت لا حياة بعده[1].

ولأنّهم لم ينظروا إلى هذا الأمر نظرة فاحصة، ولم يحاولوا تدبر الأسباب ومعرفة حقيقتها قال عنهم ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ فنفى العلم عنهم وقدم (لهم) لتخصيص النّفي عنهم لا عن غيرهم، فمَن تدبر وآمن عرف أنّ الله بيده الإحياء والإماتة، وأنّ البعث والحساب حق لا ريب فيه، والحرف (مِن) قد أفاد التّنصيص على العموم لأنّه جاء بعد النفي، وبعده النكرة (علم) التي تفيد التّقليل، فأوحى هذا النّظم القرآني بأنّهم لم يكن لهم أيّ شيء من العلم مهما كان قليلاً.

وجاء قوله ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ على سبيل الفصل لأنّه استئناف بياني كان سائلاً يسأل عن مستندهم في ادعائهم ذلك فأجيب بأنّه الظّن المبني على التّخيل. وصيغة المضارع (يظنون) توحي بأنّهم يجددون هذا الظّن ويتلقاه صغيرهم عن كبيرهم، وهم مستمرون عليه. وقد قصر التّعبير القرآني سبب مقالتهم تلك على الظّن لأنّه يستعمل فيما يدرك وفيما لا يدرك، كما أنّه يوحي برجحان أحد طرفي التّجويز، وينبئ بقوة المعنى في النفس من غير بلوغ حال الثّقة الثّابتة[2].

ويعاد ذكر ما طلبوه سابقاً على سبيل الجدل والمراء، وقد وصف ذلك بأنّه حجتهم الوحيدة، ويا لها من حجة باطلة واهية، فقد سمي كلامهم حجةً وهو ليس بحجة إذ هو بالبهتان أشبه، ولكنْ أطلق عليه اسم الحجة تهكماً بهم، أو أنْ يكون قد جرى على اعتقادهم وتقديرهم على سبيل الاستعارة الصّورية[3].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي مقالةٍ أخرى من مقالات الشّرك تتمثل فيها صورة من صور إنكار البعث

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٣٦٢/٢٥.

(٢) =: الفروق في اللغة: ٩٠ - ٩١.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٣٦٤/٢٥.

والحساب، تعرض سورة الأحقاف إصرار الكافرين الذي عرضته الآيات السّابقة وبنظمٍ مختلف يظهر مقالتهم وحجتهم الواهية، ثم يتوعدهم بالعذاب، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[١].

ويتمثل إنكار البعث والحساب في هذه الآيات بما يظهره التّعبير القرآني من ضجر الكافر، وقوله: (أفٍ) على سبيل الكناية عن أقل الأذى، ممّا يوحي بأنّ الذين يؤذون والديهم بأكثر من هذا أوغل في العقوق، وأحرى بالحكم بدلالة فحوى الخطاب[٢]، وقد ضمّ هؤلاء الكفرة عقوق الوالدين إلى إنكار البعث والحساب فاستحقوا العذاب.

وتأتي مقالة الكافرين على سبيل الاستفهام الإنكاري المشوب بالتّعجب في ﴿ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾ والخروج هنا البعث بعد الموت، وكأنّه يكرر مقالة الكافرين ﴿ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[٣]، ولكن النظم القرآني أثر هنا صيغة الاستفهام الإنكاري التي جاءت على سبيل التّناسب ومقام الحوار في المغالطة والجدل. ويصف السياق حالة أبويه ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ له ويطلبان الغوث منه تعالى، وجاء قوله: (ويلك آمن) تهديداً وتخويفاً له، فضلاً عن أنّه بيان لمعنى الاستغاثة، وهو أيضا «دعاء بالثّبور يقام مقام الحث على الفعل أو تركه إشعارا بأنّه ما هو مرتكب له حقيق بأن يهلك مرتكبه وأنْ يطلب له الهلاك، وأضاف الوعد إليه تعالى تحقيقاً للحق وتنبيهاً على خطئه في إسناد الوعد إليهما»[٤] ولكنّ الكافر يجيبهما ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ على سبيل القصر بالنّفي والاستثناء ممّا يوحي بالإصرار على

---

(١) سورة الأحقاف: الآيات ١٧ - ١٩.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٣٨/٢٦.

(٣) سورة الجاثية: من الآية ٢٥.

(٤) روح المعاني: ٢١/٢٦.

الكفر وإنكار أمر البعث والحساب، وقد ورد ذلك في موضع آخر بقوله تعالى ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[١]، فجاءت (إنّ) لما هو أكد، إذ إن درجة التّكذيب في سياق سورة الأنعام أشد ممّا في الأحقاف لأنّ الصّفات التي تستدعي قوة التّكذيب والإنكار كانت في المكذبين الأولين أشدّ وأكثر، ولذلك أكد النّفي فيها بـ (إنّ) بخلاف آية الأحقاف[٢].

ويشير التّعبير القرآني إلى الكافرين على وجه العموم سواءً الذين صدر منهم هذا القول والجدل أو (الأولين) فقد أصبح العذاب لهم حق إذ يحشرون مع غيرهم من كفار الجن والإنس، وتعريف (القول) للعهد، إذ إن هذا القول معهود عند المسلمين لتكرار ذكره في القرآن، وتنكير (أمم) للتّكثير، وتقدم ذكر الجن على الإنس لأنّ«لفظ الإنس أخف لمكان النون الخفيفة والسّين المهموسة فكان الأثقل أولى بأوّل الكلام من الأخف لنشاط المتكلم»[٣]، ثمّ أكّد الخبر بـ (إنّ) وقال: (كانوا خاسرين) للإشارة إلى أنّ خسرانهم محقق، فكني عن ذلك بجعلهم كائنين فيه[٤].

وفي الآية الأخرى جاء الخبر على سبيل التّعميم، ففي قوله: (ولكلّ درجات) استعيرت الدّرجات للمراتب، للسعداء والأشقياء، وجاء ذلك على سبيل التّغليب تعريضاً بالكافرين، فالدّرجات توحي بعلو المراتب وهي للمؤمنين، وأمّا المرتبة السّفلى فهي الدركة وهي للكافرين. وقوله: (وهم لا يظلمون) احتراس عن التّوهم من أنْ يظنوا أنّ الجزاء أشدّ ممّا تقتضيه أعمالهم[٥]. فكان ذلك إثبات لحقيقة وقوع البعث والحساب أمام إنكار المنكرين، وتهديد لهم بأنّهم سيجمعون مع أمثالهم من الجن والإنس، وسيلتقون بمَن أنكروا عودتهم وبعثهم وعندها سيكونوا خاسرين بعد الجزاء الحق الذي لا يشوبه ظلم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سياق آخر من سورة الأحقاف يظهر القرآن حقيقة البعث للاستدلال على إبطال ضلالهم في شركهم وهو الضّلال الذي جرأهم على إنكار البعث ويؤكد لهم

---

(١) سورة الأنعام: من الآية ٢٥.

(٢) =: التّعبير القرآني: ١٣٧.

(٣) بدائع الفوائد: ١/٦٢.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٦/٤١.

(٥) =: م. ن: ٢٦/٤١.

أنّ الله وحده هو القادر على الإحياء والإماتة في قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

ابتدأت الآية بالاستفهام الإنكاري إذ شهد هؤلاء بأنّ الخالق هو الله، والرّؤية هنا قلبية بمعنى: ألم يتفكروا أو ألم يعلموا[2]، وقوله ﴿ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ تكايد يتناسب مع بيان القدرة على الإحياء والإماتة، وقد جاء هذا على سبيل المجاز المرسل بعلاقة السّببية، فالتعب هو سبب الانقطاع عن العمل أو النّقص فيه والتّأخر في إنجازه[3]، ثمّ قال: (بقادر) وقال في سورة الإسراء ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ ﴾[4] لأنّ ما في سورة الإسراء خبر (أنّ) وما في سورة الأحقاف تكرار النفي قام مقام (ليس) أي صار قوله: (بقادر) في مقام خبر (ليس)[5]. والحرف (على) أفاد الاستعلاء والتّمكن، ثمّ جاء تذييل الآية بقوله ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ مؤكداً بـ (أنّ) وتقديم (على كلّ شيء) من تقديم الأليق بالسّياق لإثبات القدرة العظيمة في سياق الإنكار، فكلّ شيء في مقدوره، وصيغة فعيل في (قدير) تفيد الثّبوت واللّزوم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣٣.

(٢) =: روح المعاني: ٢٦/٣٣.

(٣) =: الجدول في إعراب القرآن: ٢٦/٢٠١.

(٤) سورة الإسراء: من الآية ٩٩.

(٥) =: أسرار التّكرار في القرآن: ١٣١.

# الجدول البياني للفنون البلاغيّة الواردة في الفصل الخامس

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٤٢٩ | وضع الظّاهر موضع المضمر | ٢٨٩ | ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ | ١٤ | غافر |
| ٤٣٠ | الكناية | ٢٨٩ | ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ | ١٤ | غافر |
| ٤٣١ | الإيثار | ٢٩٠ | ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ | ١٤ | غافر |
| ٤٣٢ | الإدماج | ٢٩٠ | ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ | ١٥ | غافر |
| ٤٣٣ | الاستعارة | ٢٩٠ | ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ | ١٥ | غافر |
| ٤٣٤ | الكناية | ٢٩٠ | ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ | ١٥ | غافر |
| ٤٣٥ | التّناسب | ٢٩٠ | ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ | ١٥ | غافر |
| ٤٣٦ | الاستعارة والإيثار | ٢٩١ | ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ | ١٥ | غافر |
| ٤٣٧ | المجاز المرسل | ٢٩١ | ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ | ١٥ | غافر |
| ٤٣٨ | الإيثار | ٢٩١ | ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ | ١٥ | غافر |
| ٤٣٩ | الاحتباك | ٢٩١ | ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ | ٨ | الشّورى |
| ٤٤٠ | الاكتفاء | ٢٩١ | ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ | ٨ | الشورى |
| ٤٤١ | الإظهار في موضع الإضمار | ٢٩٣ | ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ | ٨ | الشّورى |
| ٤٤٢ | الكناية | ٢٩٣ | ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ | ٨ | الشّورى |
| ٤٤٣ | طباق السّلب | ٢٩٣ | ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ | ١٨ | الشّورى |
| ٤٤٤ | الاحتباك | ٢٩٤ | ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ | ١٨ | الشّورى |
| ٤٤٥ | القصر بالتّعريف | ٢٩٤ | ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ | ١٨ | الشّورى |
| ٤٤٦ | الإيثار | ٢٩٤ | ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ | ١٨ | الشّورى |
| ٤٤٧ | الاحتباك | ٢٩٤ | ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ | ١٨ | الشّورى |
| ٤٤٨ | التّذييل | ٢٩٤ | ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ | ١٨ | الشّورى |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٤٤٩ | الكناية والاكتفاء | ٢٩٤ | ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ | ١٨ | الشّورى |
| ٤٥٠ | المجاز العقلي | ٢٩٤ | ﴿لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ | ١٨ | الشّورى |
| ٤٥١ | الاستعارة | ٢٩٤ | ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ | ١٨ | الشّورى |
| ٤٥٢ | التّمثيل | ٢٩٥ | ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ | ٢٠ | الشّورى |
| ٤٥٣ | المقابلة | ٢٩٥ | ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ ﴿وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا﴾ | ٢٠ | الشّورى |
| ٤٥٤ | المقابلة | ٢٩٥ | ﴿نَزِدْ لَهُ﴾ ﴿نُؤْتِهِ مِنْها﴾ | ٢٠ | الشّورى |
| ٤٥٥ | المجاز العقلي | ٢٩٥ | ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ | ٢٠ | الشّورى |
| ٤٥٦ | الاستعارة | ٢٩٥ | ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ | ٢٠ | الشّورى |
| ٤٥٧ | الالتفات | ٢٩٦ | ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها﴾ | ٢٠ | الشّورى |
| ٤٥٨ | الاحتباك | ٢٩٦ | ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها﴾ | ٢٠ | الشّورى |
| ٤٥٩ | الإيثار | ٢٩٧ | ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ﴾ | ٢٥ | الشّورى |
| ٤٦٠ | القصر | ٢٩٨ | ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ﴾ | ٢٥ | الشّورى |
| ٤٦١ | التّعريف | ٢٩٨ | ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ﴾ | ٢٥ | الشّورى |
| ٤٦٢ | التّذييل | ٢٩٨ | ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ | ٢٥ | الشّورى |
| ٤٦٣ | الالتفات | ٢٩٨ | ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ | ٢٥ | الشّورى |
| ٤٦٤ | التّقديم | ٢٩٨ | ﴿وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ | ٢٦ | الشّورى |
| ٤٦٥ | الاحتباك | ٢٩٨ | ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ... وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ | ٢٦ | الشّورى |
| ٤٦٦ | الاستعارة | ٢٩٩ | ﴿فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ | ٤١ | الشّورى |
| ٤٦٧ | التّنكير | ٢٩٩ | ﴿فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ | ٤١ | الشّورى |
| ٤٦٨ | القصر | ٢٩٩ | ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ | ٤٢ | الشّورى |
| ٤٦٩ | التّذييل | ٢٩٩ | ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ | ٤٢ | الشّورى |
| ٤٧٠ | الفصل | ٢٩٩ | ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ | ٤٢ | الشّورى |
| ٤٧١ | المجاز العقلي | ٣٠٠ | ﴿إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ | ٤٣ | الشّورى |
| ٤٧٢ | الإيثار | ٣٠١ | ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ﴾ | ٢١ | الجاثية |
| ٤٧٣ | التّشبيه | ٣٠١ | ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ | ٢١ | الجاثية |
| ٤٧٤ | الطّباق | ٣٠١ | ﴿مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ﴾ | ٢١ | الجاثية |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٤٧٥ | التّذييل | ٣٠٢ | ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ | ٢١ | الجاثية |
| ٤٧٦ | الوصل | ٣٠٢ | ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ | ٢٢ | الجاثية |
| ٤٧٧ | التّفصيل بعد الإجمال | ٣٠٢ | ﴿بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ | ٢٢ | الجاثية |
| ٤٧٨ | التّتميم | ٣٠٣ | ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ | ٢٢ | الجاثية |
| ٤٧٩ | التّفصيل بعد الإجمال | ٣٠٣ | ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ ...﴾ | ٧ | غافر |
| ٤٨٠ | الفصل | ٣٠٤ | ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ﴾ | ٧ | غافر |
| ٤٨١ | التّرقي | ٣٠٤ | ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ | ٧ | غافر |
| ٤٨٢ | الكناية | ٣٠٤ | ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ | ٧ | غافر |
| ٤٨٣ | التّعريض | ٣٠٤ | ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ | ٧ | غافر |
| ٤٨٤ | الكناية | ٣٠٥ | ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ | ٧ | غافر |
| ٤٨٥ | التّفصيل بعد الإجمال | ٣٠٥ | ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ | ٧ | غافر |
| ٤٨٦ | التّفريع | ٣٠٦ | ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ | ٧ | غافر |
| ٤٨٧ | الاستعارة | ٣٠٦ | ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ | ٧ | غافر |
| ٤٨٨ | التّرقي | ٣٠٦ | ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ... وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ ... وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ | ٧ - ٩ | غافر |
| ٤٨٩ | التّرتيب | ٣٠٦ | ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ | ٨ | غافر |
| ٤٩٠ | القصر | ٣٠٦ | ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ | ٨ | غافر |
| ٤٩١ | التّعميم بعد التّخصيص | ٣٠٧ | ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(٧)... وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ | ٧ - ٩ | غافر |
| ٤٩٢ | الاحتباك | ٣٠٧ | ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ... وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ | ٨ - ٩ | غافر |
| ٤٩٣ | الفصل | ٣٠٨ | ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ | ٨ | فصّلت |
| ٤٩٤ | الكناية | ٣٠٨ | ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ | ٨ | فصّلت |
| ٤٩٥ | الحصر | ٣٠٩ | ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ | ٣٠ | فصّلت |
| ٤٩٦ | الاستعارة | ٣٠٩ | ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ | ٣٠ | فصّلت |
| ٤٩٧ | الكناية | ٣٠٩ | ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ | ٣٠ | فصّلت |
| ٤٩٨ | التّعميم بعد التخصيص | ٣١٠ | ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ | ٣١ | فصّلت |

| ت | الفن البلاغي | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٤٩٩ | التّقديم | ٣١٠ | ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ | ٣١ | فصّلت |
| ٥٠٠ | الاستعارة | ٣١٠ | ﴿نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ | ٣٢ | فصّلت |
| ٥٠١ | الاستفهام الإنكاري | ٣١١ | ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ | ٣٣ | فصّلت |
| ٥٠٢ | التّتميم | ٣١١ | ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ | ٣٣ | فصّلت |
| ٥٠٣ | التّرقي | ٣١٢ | ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ | ٥ | الشّورى |
| ٥٠٤ | المجاز المرسل | ٣١٢ | ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ | ٥ | الشّورى |
| ٥٠٥ | التّذييل | ٣١٣ | ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ | ٥ | الشورى |
| ٥٠٦ | القصر | ٣١٣ | ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ | ٥ | الشّورى |
| ٥٠٧ | التّنكير | ٣١٣ | ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ | ٣٦ | الشّورى |
| ٥٠٨ | القصر بالتّقديم | ٣١٣ | ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ | ٣٦ | الشّورى |
| ٥٠٩ | الاحتباك | ٣١٤ | ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ | ٣٦ | الشّورى |
| ٥١٠ | الوصل | ٣١٤ | ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ | ٣٧ | الشّورى |
| ٥١١ | القصر بالتّقديم | ٣١٤ | ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ | ٣٧ | الشّورى |
| ٥١٢ | المجاز العقلي | ٣١٥ | ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ | ٣٨ | الشّورى |
| ٥١٣ | الإدماج | ٣١٥ | ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ | ٣٨ | الشّورى |
| ٥١٤ | التّرتيب | ٣١٥ | ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ | ٣٨ | الشّورى |
| ٥١٥ | القصر | ٣١٦ | ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ | ٣٩ | الشّورى |
| ٥١٦ | الإيثار | ٣١٦ | ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ | ٣٩ | الشّورى |
| ٥١٧ | التّقديم | ٣١٦ | ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ | ١٣ | الأحقاف |
| ٥١٨ | التّتميم | ٣١٧ | ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ | ١٤ | الأحقاف |
| ٥١٩ | القصر | ٣١٨ | ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ | ٤ | غافر |
| ٥٢٠ | الاستعارة | ٣١٩ | ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ | ٤ | غافر |
| ٥٢١ | الاستعارة | ٣١٩ | ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ | ٣٥ | غافر |
| ٥٢٢ | الكناية | ٣٢٠ | ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ | ٣٥ | غافر |
| ٥٢٣ | التّشبيه | ٣٢٠ | ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ | ٣٥ | غافر |
| ٥٢٤ | الاستعارة | ٣٢٠ | ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ | ٣٥ | غافر |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٥٢٥ | المجاز العقلي | ٣٢٠ | ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ | ٣٥ | غافر |
| ٥٢٦ | القصر | ٣٢٠ | ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ﴾ | ٥٦ | غافر |
| ٥٢٧ | المجاز المرسل | ٣٢١ | ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ﴾ | ٥٦ | غافر |
| ٥٢٨ | التّنكير | ٣٢١ | ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ﴾ | ٥٦ | غافر |
| ٥٢٩ | المجاز المرسل | ٣٢١ | ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ | ٥٦ | غافر |
| ٥٣٠ | التّقديم | ٣٢١ | ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ | ٥٦ | غافر |
| ٥٣١ | الإلجاء | ٣٢٢ | ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ | ٥٧ | غافر |
| ٥٣٢ | التّذييل | ٣٢٢ | ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ | ٥٧ | غافر |
| ٥٣٣ | الإظهار في موضع الإضمار | ٣٢٢ | ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ | ٥٧ | غافر |
| ٥٣٤ | التّشبيه | ٣٢٣ | ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ | ٦٣ | غافر |
| ٥٣٥ | الالتفات | ٣٢٣ | ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ | ٦٣ | غافر |
| ٥٣٦ | الاستفهام التقريري | ٣٢٤ | ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ | ٦٩ | غافر |
| ٥٣٧ | التّخصيص بعد التّعميم | ٣٢٤ | ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ | ٧٠ | غافر |
| ٥٣٨ | الفصل | ٣٢٤ | ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ | ٧٠ | غافر |
| ٥٣٩ | الاستعارة | ٣٢٥ | ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ | ٤٠ | فصّلت |
| ٥٤٠ | الكناية | ٣٢٥ | ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ | ٤٠ | فصّلت |
| ٥٤١ | الاستفهام التقريري | ٣٢٥ | ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ | ٤٠ | فصّلت |
| ٥٤٢ | الكناية | ٣٢٥ | ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ | ٤٠ | فصّلت |
| ٥٤٣ | الاحتباك | ٣٢٦ | ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ | ٤٠ | فصّلت |
| ٥٤٤ | الإيثار | ٣٢٦ | ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ | ٤٠ | فصّلت |
| ٥٤٥ | الالتفات والكناية | ٣٢٦ | ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ | ٤٠ | فصّلت |
| ٥٤٦ | إيجاز الحذف | ٣٢٧ | ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ | ٤١ | فصّلت |
| ٥٤٧ | التنكير | ٣٢٧ | ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ | ٤٥ | فصّلت |
| ٥٤٨ | إيجاز الحذف | ٣٢٨ | ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ | ١٦ | الشّورى |
| ٥٤٩ | الاستعارة | ٣٢٩ | ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ | ١٦ | الشّورى |
| ٥٥٠ | المجاز العقلي | ٣٢٩ | ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ | ١٦ | الشّورى |
| ٥٥١ | التنكير | ٣٢٩ | ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ | ١٦ | الشّورى |

| ت | الفن البلاغي | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٥٥٢ | القصر بالتّقديم | ٣٣٠ | ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ | ١٦ | الشّورى |
| ٥٥٣ | التّقديم | ٣٣٠ | ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ | ٣٥ | الشّورى |
| ٥٥٤ | الإيثار والتّنكير | ٣٣٠ | ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ | ٣٥ | الشّورى |
| ٥٥٥ | الاستفهام الإنكاري | ٣٣٠ | ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ | ٢١ | الزّخرف |
| ٥٥٦ | التّقديم | ٣٣١ | ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ | ٢١ | الزخرف |
| ٥٥٧ | الاستعارة | ٣٣١ | ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ | ٢٢ | الزّخرف |
| ٥٥٨ | التّقديم | ٣٣٢ | ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ | ٣٠ | الزّخرف |
| ٥٥٩ | الاستعارة | ٣٣٢ | ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ | ٣١ | الزّخرف |
| ٥٦٠ | التّعريف | ٣٣٢ | ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ | ٣١ | الزّخرف |
| ٥٦١ | الاستعارة | ٣٣٣ | ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ | ٢٥ | الجاثية |
| ٥٦٢ | القصر | ٣٣٤ | ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ | ٢٥ | الجاثية |
| ٥٦٣ | الإظهار في موضع الإضمار | ٣٣٤ | ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ | ٧ | الأحقاف |
| ٥٦٤ | الكناية | ٣٣٥ | ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ | ٦٠ | غافر |
| ٥٦٥ | الاحتباك | ٣٣٥ | ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ | ٦٠ | غافر |
| ٥٦٦ | المجاز المرسل | ٣٣٥ | ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ | ٦٠ | غافر |
| ٥٦٧ | التّفصيل والتّدلي والكناية | ٣٣٦ | ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ | ٥ | فصّلت |
| ٥٦٨ | الاستعارة | ٣٣٧ | ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ | ٥ | فصّلت |
| ٥٦٩ | الإظهار في موضع الإضمار | ٣٣٨ | ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ | ٢٧ | فصّلت |
| ٥٧٠ | التّضمين | ٣٣٨ | ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ | ٢٦ | فصّلت |
| ٥٧١ | الاستعارة | ٣٣٨ | ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ | ٢٧ | فصّلت |
| ٥٧٢ | الاستعارة | ٣٤٠ | ﴿لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ | ٤٩ | فصّلت |
| ٥٧٣ | الطّباق | ٣٤١ | ﴿لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ | ٤٩ | فصّلت |
| ٥٧٤ | التنكير | ٣٤٢ | ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ | ٥٠ | فصّلت |
| ٥٧٥ | الاستعارة | ٣٤٢ | ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ | ٥٠ | فصّلت |
| ٥٧٦ | الإدماج | ٣٤٢ | ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ | ٥٠ | فصّلت |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٥٧٧ | القصر بالتّقديم | ٣٤٣ | ﴿إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ | ٥٠ | فصّلت |
| ٥٧٨ | الاستعارة | ٣٤٤ | ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ | ٥٠ | فصّلت |
| ٥٧٩ | التّنكير | ٣٤٤ | ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ | ٥٠ | فصّلت |
| ٥٨٠ | الاستعارة | ٣٤٤ | ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ | ٥١ | فصّلت |
| ٥٨١ | الكناية | ٣٤٤ | ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ | ٥١ | فصّلت |
| ٥٨٢ | التّنكير | ٣٤٥ | ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ | ٥١ | فصّلت |
| ٥٨٣ | الاستعارة | ٣٤٥ | ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ | ٥١ | فصّلت |
| ٥٨٤ | الاحتباك | ٣٤٥ | ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ...﴾ | ٥١ | فصّلت |
| ٥٨٥ | إرخاء العنان | ٣٤٥ | ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ | ٥٢ | فصّلت |
| ٥٨٦ | الاستفهام التّقريري | ٣٤٦ | ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ | ٥٢ | فصّلت |
| ٥٨٧ | الكناية | ٣٤٦ | ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ | ٥٢ | فصلت |
| ٥٨٨ | وضع الظّاهر موضع المضمر | ٣٤٦ | ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ | ٥٢ | فصّلت |
| ٥٨٩ | الاستعارة | ٣٤٦ | ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ | ٥٢ | فصّلت |
| ٥٩٠ | الاحتباك | ٣٤٦ | ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ | ٥٢ | فصّلت |
| ٥٩١ | المجاز العقلي | ٣٤٧ | ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ | ٤٧ | الشّورى |
| ٥٩٢ | التّنكير | ٣٤٧ | ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ | ٤٧ | الشّورى |
| ٥٩٣ | الالتفات | ٣٤٨ | ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ | ٤٨ | الشّورى |
| ٥٩٤ | التّنكير | ٣٤٨ | ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ | ٤٨ | الشّورى |
| ٥٩٥ | التّنكير | ٣٤٨ | ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ | ٤٨ | الشّورى |
| ٥٩٦ | التغليب | ٣٤٨ | ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ | ٤٨ | الشّورى |
| ٥٩٧ | وضع الظّاهر موضع المضمر | ٣٤٨ | ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ | ٤٨ | الشّورى |
| ٥٩٨ | الاحتباك | ٣٤٩ | ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ... فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ | ٤٨ | الشّورى |
| ٥٩٩ | الاستفهام الإنكاري | ٣٤٩ | ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ | ١٣ | الدّخان |
| ٦٠٠ | الكناية | ٣٤٩ | ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ | ١٥ | الدّخان |
| ٦٠١ | الالتفات | ٣٤٩ | ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ | ١٥ | الدّخان |
| ٦٠٢ | الفصل | ٣٥٠ | ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ | ١٦ | الدّخان |

| ت | الفن البلاغي | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٦٠٣ | الاستعارة | ٣٥٠ | ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ | ٨ | الجاثية |
| ٦٠٤ | التّشبيه | ٣٥١ | ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ | ٨ | الجاثية |
| ٦٠٥ | الاستعارة | ٣٥١ | ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ | ٨ | الجاثية |
| ٦٠٦ | التّنكير | ٣٥١ | ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ | ٨ | الجاثية |
| ٦٠٧ | التّنكير | ٣٥١ | ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ | ٩ | الجاثية |
| ٦٠٨ | القصر | ٣٥٢ | ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ | ٣ | الأحقاف |
| ٦٠٩ | التّقديم | ٣٥٢ | ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ | ٣ | الأحقاف |
| ٦١٠ | الإظهار في موضع الإضمار | ٣٥٢ | ﴿وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ | ٣٢ | الأحقاف |
| ٦١١ | الكناية | ٣٥٣ | ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ﴾ | ٣٢ | الأحقاف |
| ٦١٢ | التّقديم | ٣٥٤ | ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ | ٦ | الشّورى |
| ٦١٣ | الاستفهام الإنكاري | ٣٥٤ | ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ | ٩ | الشّورى |
| ٦١٤ | القصر | ٣٥٤ | ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ | ٩ | الشّورى |
| ٦١٥ | التّعريف | ٣٥٤ | ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ | ٩ | الشّورى |
| ٦١٦ | الإدماج | ٣٥٥ | ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ | ٩ | الشّورى |
| ٦١٧ | الاستفهام الإنكاري | ٣٥٥ | ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ | ٢١ | الشّورى |
| ٦١٨ | التّنكير | ٣٥٥ | ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ | ٢١ | الشّورى |
| ٦١٩ | المجاز المرسل | ٣٥٥ | ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ | ٢١ | الشّورى |
| ٦٢٠ | التّذييل | ٣٥٦ | ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ | ٢١ | الشّورى |
| ٦٢١ | الوصل | ٣٥٦ | ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ | ٢١ | الشّورى |
| ٦٢٢ | التّقديم | ٣٥٦ | ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ | ٢١ | الشّورى |
| ٦٢٣ | الاستعارة | ٣٥٦ | ﴿وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ | ٢٧ | الشّورى |
| ٦٢٤ | التّنكير | ٣٥٦ | ﴿وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ | ٢٧ | الشّورى |
| ٦٢٥ | التّذييل | ٣٥٧ | ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ | ٢٧ | الشّورى |
| ٦٢٦ | التّقديم | ٣٥٨ | ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ | ٣١ | الشّورى |
| ٦٢٧ | التّذييل | ٣٥٩ | ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ | ١٥ | الزّخرف |
| ٦٢٨ | الاستفهام الإنكاري | ٣٥٩ | ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ | ١٦ | الزّخرف |
| ٦٢٩ | الالتفات | ٣٦٠ | ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ | ١٦ | الزّخرف |
| ٦٣٠ | التنكير والتعريف | ٣٦٠ | ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ | ١٦ | الزّخرف |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٦٣١ | الالتفات | ٣٦٠ | ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلا...﴾ | ١٧ | الزّخرف |
| ٦٣٢ | الكناية | ٣٦٠ | ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ | ١٧ | الزّخرف |
| ٦٣٣ | الاستعارة | ٣٦٠ | ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ | ١٧ | الزّخرف |
| ٦٣٤ | الاستفهام الإنكاري | ٣٦١ | ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ | ١٨ | الزّخرف |
| ٦٣٥ | الكناية | ٣٦١ | ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ | ١٨ | الزّخرف |
| ٦٣٦ | الاستفهام الإنكاري | ٣٦٢ | ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ | ١٩ | الزّخرف |
| ٦٣٧ | الكناية | ٣٦٢ | ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ | ١٩ | الزّخرف |
| ٦٣٨ | القصر | ٣٦٢ | ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ | ٢٠ | الزّخرف |
| ٦٣٩ | التّمثيل | ٣٦٣ | ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ﴾ | ٣٦ | الزّخرف |
| ٦٤٠ | التّضمين | ٣٦٤ | ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ﴾ | ٣٦ | الزّخرف |
| ٦٤١ | التّنكير | ٣٦٤ | ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ | ٣٦ | الزّخرف |
| ٦٤٢ | التّقديم | ٣٦٤ | ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ | ٣٦ | الزّخرف |
| ٦٤٣ | التّعريف | ٣٦٤ | ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ | ٣٧ | الزّخرف |
| ٦٤٤ | التّقديم | ٣٦٥ | ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ | ٥٧ | الزّخرف |
| ٦٤٥ | الاستفهام الإنكاري | ٣٦٥ | ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ | ٥٨ | الزّخرف |
| ٦٤٦ | القصر | ٣٦٥ | ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلا﴾ | ٥٨ | الزّخرف |
| ٦٤٧ | القصر | ٣٦٥ | ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ | ٥٩ | الزّخرف |
| ٦٤٨ | التّقديم | ٣٦٦ | ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ | ٦٠ | الزّخرف |
| ٦٤٩ | المجاز المرسل | ٣٦٦ | ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ | ٦١ | الزّخرف |
| ٦٥٠ | التّمثيل | ٣٦٦ | ﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ | ٦١ | الزّخرف |
| ٦٥١ | التّنكير | ٣٦٦ | ﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ | ٦١ | الزّخرف |
| ٦٥٢ | القصر بالتّقديم | ٣٦٦ | ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ | ٦٢ | الزّخرف |
| ٦٥٣ | التّنكير | ٣٦٦ | ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ | ٦٢ | الزّخرف |
| ٦٥٤ | الاستفهام التّقريري | ٣٦٦ | ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ | ٧٩ | الزّخرف |
| ٦٥٥ | الاستعارة | ٣٦٦ | ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ | ٧٩ | الزّخرف |
| ٦٥٦ | التّنكير | ٣٦٦ | ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ | ٧٩ | الزّخرف |
| ٦٥٧ | الالتفات | ٣٦٧ | ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ ... (٧٨)أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ | ٧٨ - ٧٩ | الزّخرف |
| ٦٥٨ | الوصل | ٣٦٨ | ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ | ٨٤ | الزّخرف |
| ٦٥٩ | القصر | ٣٦٨ | ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ | ٨٤ | الزّخرف |

| ت | الفن البلاغي | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٦٦٠ | التّتميم | ٣٦٨ | ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ | ٨٤ | الزخرف |
| ٦٦١ | الإدماج | ٣٦٩ | ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ | ٨٥ | الزخرف |
| ٦٦٢ | التّقديم | ٣٦٩ | ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ | ٨٥ | الزّخرف |
| ٦٦٣ | الالتفات | ٣٦٩ | ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ | ٨٥ | الزّخرف |
| ٦٦٤ | اللاّئق بالخطاب | ٣٦٩ | ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ | ٢٣ | الجاثية |
| ٦٦٥ | التّشبيه البليغ | ٣٦٩ | ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ | ٢٣ | الجاثية |
| ٦٦٦ | التّرتيب | ٣٧٠ | ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ | ٢٣ | الجاثية |
| ٦٦٧ | التّنكير | ٣٧٠ | ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ | ٢٣ | الجاثية |
| ٦٦٨ | الاستفهام الإنكاري | ٣٧٠ | ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ | ٢٣ | الجاثية |
| ٦٦٩ | الاستفهام الإنكاري | ٣٧٠ | ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ | ٢٣ | الجاثية |
| ٦٧٠ | الاستفهام الإنكاري | ٣٧٠ | ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ | ٥ | الأحقاف |
| ٦٧١ | التّشبيه البليغ | ٣٧٠ | ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ | ٦ | الأحقاف |
| ٦٧٢ | الجناس | ٣٧٠ | ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ ... وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ | ٥ | الأحقاف |
| ٦٧٣ | التّنكير | ٣٧٠ | ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ | ٦ | الأحقاف |
| ٦٧٤ | التّقديم | ٣٧٠ | ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ | ٦ | الأحقاف |
| ٦٧٥ | الوصل | ٣٧٢ | ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ | ٧ | فصلت |
| ٦٧٦ | القصر | ٣٧٣ | ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ | ٧ | فصلت |
| ٦٧٧ | التّقديم | ٣٧٣ | ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ | ٧ | فصّلت |
| ٦٧٨ | التّذييل | ٣٧٣ | ﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ | ٥٤ | فصّلت |
| ٦٧٩ | التّنكير | ٣٧٣ | ﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ | ٥٤ | فصّلت |
| ٦٨٠ | التّقديم | ٣٧٤ | ﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ | ٥٤ | فصّلت |
| ٦٨١ | المجاز العقلي | ٣٧٤ | ﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ | ٥٤ | فصّلت |
| ٦٨٢ | القصر | ٣٧٤ | ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾ | ٣٥ | الدّخان |
| ٦٨٣ | الاستفهام التّقريري | ٣٧٥ | ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ | ٣٧ | الدّخان |
| ٦٨٤ | الفصل | ٣٧٥ | ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ | ٣٧ | الدّخان |
| ٦٨٥ | القصر | ٣٧٥ | ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ | ٣٩ | الدّخان |
| ٦٨٦ | التّذييل | ٣٧٦ | ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ | ٣٩ | الدّخان |
| ٦٨٧ | الطّباق والقصر | ٣٧٧ | ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ | ٢٤ | الجاثية |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٦٨٨ | التّقديم | ٣٧٧ | ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ | ٢٤ | الجاثية |
| ٦٨٩ | الفصل والقصر | ٣٧٧ | ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ | ٢٤ | الجاثية |
| ٦٩٠ | الاستعارة والقصر | ٣٧٧ | ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا﴾ | ٢٥ | الجاثية |
| ٦٩١ | الكناية | ٣٧٨ | ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾ | ١٧ | الأحقاف |
| ٦٩٢ | الاستفهام الإنكاري | ٣٧٨ | ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ | ١٧ | الأحقاف |
| ٦٩٣ | القصر | ٣٧٨ | ﴿مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ | ١٧ | الأحقاف |
| ٦٩٤ | التّعريف | ٣٧٩ | ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ﴾ | ١٨ | الأحقاف |
| ٦٩٥ | التّنكير | ٣٧٩ | ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ | ١٨ | الأحقاف |
| ٦٩٦ | الاستعارة والتّغليب | ٣٧٩ | ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ | ١٩ | الأحقاف |
| ٦٩٧ | الاحتراس | ٣٧٩ | ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ | ١٩ | الأحقاف |
| ٦٩٨ | الاستفهام الإنكاري | ٣٨٠ | ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ...﴾ | ٣٣ | الأحقاف |
| ٦٩٩ | المجاز المرسل | ٣٨٠ | ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ | ٣٣ | الأحقاف |
| ٧٠٠ | التّذييل | ٣٨٠ | ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ | ٣٣ | الأحقاف |
| ٧٠١ | التّقديم | ٣٨٠ | ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ | ٣٣ | الأحقاف |

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

# الفصل السّادس

# مشاهد القيامة

## توطئة

مِن الموضوعات التي تضمنتها سور الحواميم ذكر السّاعة ومشاهد القيامة بدءا بعالم البرزخ الذي جاء ذكره في سورة غافر عند إعلان نهاية آل فرعون وهلاكهم وعذابهم(١). وتعرض بعض الآيات الأخرى مواقف الحساب، والتي تعد جزءا من أسلوب التّرهيب لتحقيق هدف الدّعوة القرآنية، فكان كلّ ذلك مادة للمبحث الأول من هذا الفصل. أمّا المبحث الثّاني فقد تضمن الآيات التي جمعت بين ذكر أصحاب الجنة وأصحاب النّار على سبيل التّقابل في مشاهد القيامة، ثمّ أفرد ذكر أصحاب الجنة وما فيها من النّعيم الذي يعد جزءا من أسلوب التّرغيب ليشكل مادة المبحث الثّالث. أمّا المبحث الرّابع فقد ضمّ ذكر أهل النّار وما فيها من ألوان العذاب للكافرين، ويلحظ أنّ الآيات التي ذكرت فيها النّار وألوان عذابها وحال الكافرين فيها كان أكثر من ذكر الجنة وأصحابها ونعيمها، ذلك أنّ الدّعوة آنذاك في عهدها المكي، ويتناسب هذا مع مقتضى الحال عند نزول هذه السّور، كما يتناسب مع النّتيجة التي ذكرناها في الفصل السّابق وهي أنّ عدد الآيات التي تضمنت ذكر الكافرين وصفاتهم كانت أكثر من عدد الآيات التي تضمنت ذكر المؤمنين، فناسب هذه الكثرة أنْ يأتي ذكر النّار والتّرهيب بعذابها - في سور الحواميم - مناسبا لواقع الحال ولواقع كثرة آيات ذكر الكافرين.

❖❖❖❖❖

(١) ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

# المبحث الأوّل
# البرزخ وموقف الحساب

في سورة غافر ذكر عالم البرزخ الذي تؤيد وجود حقيقته الكثير من الأحاديث النّبوية الشّريفة والتي تؤكد على عذاب القبر وحال الإنسان فيه إلى يوم البعث والحساب[١]، ويقول الله تبارك وتعالى ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾[٢].

فالآية تثبت هول المشهد بشكلّ مباشر وذلك بذكر كلمة (النّار)، بهذا التّعريف الذي يوحي بالتّعظيم والتّهويل ويفيد التّوكيد أيضاً، كما تثير في النّفس صورة هذا العذاب، وأنّ الحكم فيه قد تجسد وتمثل في المحكوم عليه[٣]، فالآية ابتدأت بانتقاله مباشرة من مشهد هلاكهم بـ (سوء العذاب) إلى مشهد حالهم في البرزخ إذ يعرضون على هذه (النّار) غدوا وعشيا، أي في الفترة من بعد الموت إلى قيام السّاعة بدليل قوله بعده ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ فعرضهم على النّار هو قبل قيام السّاعة، وهو عذاب أليم يوحي بالذّل والمهانة، ويوحي قوله: (يعرضون عليها) بالاستمرار التّجددي وتكرار العذاب إمّا برؤيتها وتوقع لذعها وحرها وإمّا بمزاولتها فعلا فكثيرا ما يستعمل لفظ العرض للمسّ والمزاولة[٤]. وقد زيد هذا المشهد تهويلا بإيثار المبني للمجهول (يعرضون) للتّعبير عن تعذيبهم بها على سبيل «الاستعارة التّمثيلية بتشبيه حالهم بحال متاع يبرز لمَن يريد أخذه، وفي ذلك جعل النّار كالطّالب الرّاغب فيهم لشدة استحقاقهم الهلاك»[٥]. وزيد التّهويل في هذه الصّورة بالطّباق بين (غدوا) وبين (عشيا) فأصبح كناية عن الدّوام[٦]، وفي ذلك يقول الرّسول (ﷺ): «**إنّ الكافر إذا مات عرض على النّار بالغداة والعشي**»[٧]. فهذا هو عذاب البرزخ الذي يسبق

(١) =: صحيح مسلم: ٢/٥٤٤ - ٥٤٥.
(٢) سورة غافر: الآية ٤٦.
(٣) =: الأسس النّفسية لأساليب البلاغة العربية: ١٢٢.
(٤) =: في ظلال القرآن: ٥/٣٠٨٤.
(٥) روح المعاني: ٢٤/٧٣.
(٦) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/١٥٩.
(٧) =: صحيح مسلم: ٢/٥٤٤.

يوم البعث والحساب.

ويستكمل مشهد عذاب آل فرعون بقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾، وقد طوي هنا ذكر الحساب ومواقفه المتعددة ليتناسب مع الانتقالات السّابقة التي جاءت متعاقبة بشكل مباشر، وذلك من قوله تعالى ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾[١] إلى قوله تعالى ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾[٢] فبعد الهلاك بالغرق عذاب دائم في البرزخ قبل البعث والعذاب الشّديد الدائم.

❖❖❖❖❖

وفي موقف من مواقف يوم الحساب الذي تلتقي فيه الأرواح بالأجساد، ويلتقي فيه المؤمنون والكافرون، ويلتقي فيه الملائكة بالبشر، ويلتقي فيه البشر بأعمالهم، ويبرزون فيه دون خفاء، يتجلى الحق تعالى وتجزى في ذلك الموقف كلّ نفس بما كسبت دون ظلم، وترى أحوال النّاس في هذا اليوم متقلبة، فهم بارزون وقد بلغت قلوبهم الحناجر كاظمين إذ لا خلّة هناك ولا شفاعة للظّالمين، ولا خفاء للأعمال ولا ستر، ولا فائدة للشركاء ولا للآلهة الحجرية، كلّ ذلك يصوره لنا قوله تعالى في سورة غافر ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾[٣].

فهذه الآيات تصور لنا جانبا من موقف الحساب قبل أنْ يقضي الله بين النّاس،

---

(١) سورة غافر: الآية ٤٥.

(٢) سورة غافر: الآية ٤٦.

(٣) سورة غافر: الآيات ١٥ - ٢٠.

فهو يوم التّلاقي الذي يلتقي فيه الرّسل (صلوات الله وسلامه عليهم) بالنّاس، فجاء ذكر (يوم التلاق) على سبيل حسن التّخلص من ذكر النّبوة في قوله ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾(١) إلى ذكر الإنذار بهذا اليوم، وفي ذلك تناسب بين ذكر الرّسل وبين ذكر مهمتهم الأساس في الإنذار. وقد جاء قوله: (يوم هم بارزون) على سبيل التّفصيل بعد الإجمال الذي في قوله: (يوم التّلاق) وبيانا لجانب من أحداث ذلك اليوم العظيم، وتقديم (هم) أفاد التّوكيد ومهد للتّعبير عن حالهم بـ (بارزون) على سبيل الاسمية التي تفيد التّوكيد أيضاً، كما توحي بطواعية الحدث إذ لا قدرة لهم على فعل أي شيء ولذلك لم يقل: (يبرزون) بالصيغة الفعلية، ويتناسب إيثار الاسمية مع قوله بعد ذلك ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾ أي من أحوالهم وشؤونهم، وأوثر لفظ (شيء) لتوغله في العموم، وتنكيره أفاد التّقليل أي لا شيء يخفى مهما كان قليلا. وأكد عدم خفاء أي شيء على الله في هذا اليوم - وهو لا يخفى عليه منهم شيء في كلّ وقت - لأنّهم في غير هذا اليوم قد حسبوا أنّهم مستورون وأنّ أعمالهم خافية، ولكنّهم اليوم ليس كذلك. وقد جاءت جملة ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ على سبيل الفصل عمّا قبلها لأنّها بيان موضح لها والعطف يقتضي المغايرة.

وفي هذا المشهد حيث هم ﴿ بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾ وحيث يقف الوجود كلّه خاشعا خاضعا، ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسّلطان - وهو المتفرد به في كلّ حين - ينطلق صوت جليل رهيب يسأل ويجيب ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(٢)، وهذا السّؤال إمّا أنْ يكون مقول قول محذوف تقديره: يقول الله. أو أنّه استئناف بياني - على سبيل الفصل - جوابا عن سائل يسأل عمّا إذا يقع بعد بروزهم بين يدي الله. والاستفهام إمّا تقريري ليشهد الطّغاة على أنفسهم أنّهم كانوا في الدّنيا خاطئين فيما يزعمونه لأنفسهم من الملك. أو أنّ الاستفهام كناية عن التّشويق إلى ما يرد بعده من الجواب، والذي يمكن أنْ يكون من الله تعالى أو يكون مقول قول

---

(١) سورة غافر: من الآية ١٥.

(٢) سورة غافر: من الآية ١٦.

آخر محذوف أي فيقول المسؤولون: ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ إقرارا منهم بذلك[١]. فالمؤمنون يقولون ذلك سرورا وتلذذا ويقوله الكافرون غمّا وانقيادا وخضوعا، وأوثرت ثنائية (الواحد القهار) للتناسب، حيث شوهدت دلائل الوحدانية لله وقهره جميع الطغاة والجبارين، كما يتناسب ذكر (الواحد) مع ذكر (يوم التّلاق) إذ أدرك الكافرون فساد عبادتهم الآلهة وظهرت دلائل الوحدانية التي أنكروها في الحياة الدّنيا، ويوحي وصف (القهار) بالغلبة والعلو، فالقهر يتناول المستعصي من الأمور، والمانع لغيره عن فعل ما لا يريده أو من منع غيره من الجري على وفق إرادته[٢].

وتأتي الآية الأخرى - بعد إعلان الوحدانية والتّفرد في الملك في ذلك الموقف - لتعرض بدء الحساب، ويعرض المشهد حاضرا ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾[٣] وقد ضمّ هذا المشهد ترتيب آثار التّصرف بذلك الملك وهي الحكم على العباد، وأنّه حكم عادل لا يشوبه ظلم وأنّه عاجل لا يبطئ[٤]. وأوثرت صيغة البناء للمجهول في (تجزى) للتركيز على الحدث والاهتمام به، وفي ذلك زيادة تهويل وترهيب ولا سيّما أنّه جاء بعد ذكر إذعان كلّ نفس بانقطاع الأسباب، وتنكير (نفس) بهذا الإفراد للتعميم إذ لا تترك نفس واحدة لأنّ العلم قد شملهم والقدرة قد أحاطت بهم والحكمة قد منعت من إهمال أحد منهم[٥]. ولما في ذلك من التّعميم والشّمول جاء قوله: (لا ظلم اليوم) احتراسا يؤكد غاية الحساب والعدل الذي يقتضيه على الرّغم من كثرة الخلائق والأنفس التي تدخل في الجزاء، فضلاً عن أنّ تنكير (ظلم) قد أفاد التّقليل، فلا ظلم في هذا اليوم مهما كان قليلا. ولمّا كانت كثرة الخلائق تقتضي طول وقت الحساب على ما يعهده النّاس، جاء التّذييل ينفي ذلك بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ ولا يشغله حساب أحد عن

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١١٠/٢٤ - ١١١.
(٢) =: الفروق في اللغة: ٩٨ - ٩٩.
(٣) سورة غافر: الآية ١٧.
(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١١١/٢٤.
(٥) =: نظم الدرر: ٢٨/١٧.

حساب غيره[١]. وقد جاء التّذييل مؤكدا بـ (إنّ) مراعاة لمقتضى حال المخاطبين الشّاكين المترددين في الحساب وسرعته. وقد قال في بداية الآية: (اليوم تجزى) وقال بعد ذلك: (لا ظلم اليوم) تلوينا في النّظم، ويوحي تقدم ذكر (اليوم) في بداية الآية بقصر الجزاء على هذا اليوم لا على غيره، أمّا تأخر ذكر اليوم مع نفي الظلم فيتناسب مع مقام التوكيد، فجزاء النفس بما كسبت هو غاية في العدل، ولكنه أكد أيضاً بنفي الظّلم في هذا اليوم للتعميم، كما أنّ نفي الظّلم عمّا في هذا اليوم هو نفي لكلّ ما كانوا يزعمونه في الدّنيا من أوهام أصروا بها على الكفر والضّلال.

ويستكمل الإنذار بعد أنْ بدأ بقوله ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾، وتعرض الآية الأخرى جانبا من مشهد الكافرين في ذلك اليوم ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾[٢].

وقد زيدت الآية تهويلا وترهيبا بعدول النّظم القرآني عن التّصريح بلفظ (القيامة) إلى الكناية عنها بـ (الآزفة) «تعظيما لشأنها وتفخيما من خلال إثبات المعنى الذي تحمله الآزفة ليوم القيامة والذي من شأنه إحداث الأثر النّفسي المتمثل بتخويف المتلقي وترهيبه من شأنها، إذ الكناية تصور القيامة وكأنّها قد أزفت بالعذاب والهلاك»[٣]. واتبعت هذه الكناية بكناية أخرى في بيان صفة الكافرين وحالهم آنذاك وهي قوله ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ كناية عن شدّة الخوف «فإذا انتفخت الرّئة من شدّة الفزع أو الغضب أو الغم الشّديد ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة»[٤]. والتّعبير الكنائي يشير إلى الحالة النّفسية للظّالمين وما ينتابهم من هلع وخوف من شدّة الموقف وهم في هذا المشهد قد بلغت قلوبهم الحناجر، ثمّ هم (كاظمين) على قلوبهم لدى حناجرهم أو قلوبهم كاظمة على غمّ وكرب فيها مع بلوغها الحناجر، وفي ذلك تصعيد للعذاب والغم والضّيق، ثمّ إنّهم ليس لهم صديق يبثون له وينفسون عن صدورهم بالبثّ ما تضيق به، وليس لهم من شفيع ذي كلمة

(١) =: م. ن: ١٧/٢٩.

(٢) سورة غافر: الآية ١٨.

(٣) الكناية في القرآن الكريم: ٢٨٦.

(٤) الكشاف: ٣/٤١٧.

مسموعة، فهم في ضيق وانفراد وإهمال[1]، فالقلوب كاظمة على الغمّ والكرب، وهم (كاظمين) عليها لئلا تخرج مع النّفس فإنّ كاظم القربة على الماء ممسكها عليه لئلا يخرج، وفيه مبالغة عظيمة[2]، فقلوبهم في الحناجر معترضة مترددة، وتوحي لفظة (لدى) بالاستقرار وكأنّ القلوب استقرت وثبتت عند موضع الحناجر، وهي حالة يتمثلها كلّ مَن وقع في حالة هلع ورهبة فلاهي تخرج فيموتون، ولا هي ترجع إلى مواضعها فيتنفسون ويتروحون[3].

ولا يخفى أنّ قوله ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ يحمل على سلب العموم، أي أنّ مجموع الظّالمين ليس لهم حميم ولا شفيع، والتّعريف في (الظّالمين) للاستغراق أي يعمّ كلّ ظالم، وقد أوثر وصفهم بـ (الظّالمين) للتسجيل عليهم بالظّلم وتعليل الحكم. والتّخصيص في (الظّالمين) لا ينفي العموم إذ المراد بالتّخصيص من خلال التّعريف: الكاملون في الظلم. و(مِن) تفيد التّنصيص على العموم ولا سيّما أنّها جاءت بعد النّفي وعقبت بنكرة تدل على نفي وجود أي حميم مهما كان، وليس المراد نفي الشّفيع بقيد الطّاعة بل نفيه مطلقا (أي نفي الصّفة والموصوف) وهو ما يتناسب مع نفي الحميم مطلقا أيضاً، وإنّما قيده بذلك تنكيلا بالكفار لأنّ نفي الشّفيع المطاع جاء تنبيها على حصوله لأضدادهم، وهذا شبيه بالاحتباك. وقد نفى الله عن الظّالمين في ذلك اليوم المعذرة وأثبت لهم اللّعنة وسوء الدّار، وذلك في آية أخرى من سورة غافر وهي قوله ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾[4] وقد جاء قوله ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ على سبيل الفصل عمّا قبله لأنّ كون قلوبهم وجلة يشتمل تطلعهم في ذلك المقام إلى مَن يظنون فيه أنّه معينهم أو شفيع لهم، فردوا بذلك خائبين استكمالا لمشهد الذّل والخوف والمهانة.

ويستكمل المشهد، ويزاد الموقف خوفا وهلعا بقوله ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا

---

(١) =: مشاهد القيامة في القرآن: ١٤١.

(٢) =: روح المعاني: ٥٨/٢٤.

(٣) =: التّشبيهات القرآنية والبيئة العربية: ٢٥٠.

(٤) الآية ٥٢.

تَخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ وقد جاء هذا الوصف على سبيل التّناسب مع الآية السّابقة، إذ إن صفة كظم القلوب التي بلغت الحناجر توحي بأنّهم في هذا الكظم يحاولون إخفاء أسرارهم في أنفسهم وقلوبهم، فناسب ذلك أنْ تأتي هذه الصّفات للتّعريض بحالتهم تلك، فضلاً عن أنّها استكمال لذكر الصفات الإلهية التي ذكرت من قبل وهي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ و ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ﴾، فالآية استكمال للمبالغة في الإنذار لأنّهم إذا ذكروا بأنّ الله يعلم الخفايا كان إنذارا بالغا يقتضي الحذر ولا سيّما أنّها جاءت بعد أنْ أيأسهم من الشّفيع والحميم. والتّعبير بـ (خائنة الأعين) عن استراق النّظر إلى الحرام استعارة مكنية تفظيعا لذلك الأمر، وقد يكون ذلك مجازا مرسلا بوصف البعض بصفة الكلّ لأنّ الخيانة هي صفة الأشخاص ذوي الأعين، وقد وصفت العين بالخيانة لاختصاصها بمسارقة النّظر إلى المحرمات، ولمّا كانت مملوكة لصاحبها وهو الذي يجعلها تسارق النّظر وصفت بما يمكن أنْ يوصف به صاحبها، فوصفها بصفة صاحبها وصف للجزء بصفة الكلّ[١]، ولا يخفى ما في صيغة اسم الفاعل من جمال يوحي بالحركة ويفيد الكثرة في استمرارها، وجاء قوله: (وما تخفى الصّدور) على سبيل المجاز المرسل أيضاً لأنّ الإخفاء صفة للقلوب وليس للصدور وإنّما عبر بالصّدر مجازا تعبيرا بالمحل عن الحال فيه[٢]. وهكذا وصف الله نفسه بكمال العلم ففي قوله: (يعلم خائنة الأعين) إشارة إلى علمه بجميع أفعال الجوارح، وفي قوله: (وما تخفي الصّدور) إشارة إلى علمه بجميع أفعال القلوب[٣]، ويتناسب قوله ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ مع قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ ومع قوله ﴿ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ فالذي يعلم السّر والعلانية ولا يسمح بالشفاعة لهؤلاء لا بدّ أنْ يكون حسابه سريعا مع العدل الكامل، ولذلك جاء بعده ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ ﴾ على سبيل الإظهار في مقام الإضمار، وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي لتقوية المعنى أو للحصر، وقوبل ذلك بنفي قضاء آلهتهم بشيء على سبيل التّهكم بهم وبآلهتهم، ثمّ ذيلت الآيات

(١) =: أساليب المجاز في القرآن: ٣١١.

(٢) =: أساليب المجاز في القرآن: ٣٥٨.

(٣) =: تفسير غرائب القرآن: ٣٧/٢٤.

بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ بالتّوكيد بـ (إنّ) وبضمير الفصل (هو) وليفيد القصر أيضاً تعريضا بآلهتهم التي لا تسمع ولا تبصر، وصيغة فعيل في (السّميع البصير) تفيد المبالغة في الوصف وتقرر معنى (يقضي بالحق)، كما أنّ التّذييل قرر مضمون ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ فالله يسمع ما يقولون ويبصر ما يفعلون.

❖❖❖❖❖

وتعرض سورة الزّخرف مشهدا آخر من مشاهد الحساب إذ تنقلب خلّة الكافرين عداوة بينهم، أمّا المؤمنون فلا يصيبهم خوف ولا حزن حيث الجنة مأوى لهم ولأزواجهم، وذلك في قوله تعالى ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[١].

يبدأ المشهد بوقوع السّاعة فجأة وهم غافلون عنها، وجاء ذكر السّاعة استئنافا بيانيا لسؤال سائل: متى يحل هذا اليوم الأليم الذي ذكر في الآية السّابقة؟ وقد جرى الجواب على طريقة الأسلوب الحكيم[٢]، والمعنى إنّ هذا العذاب واقع لا محالة سواء قرب زمان وقوعه أم بعد، وقد أشعر بهذا تقييد إتيان السّاعة بـ (بغتة)، والاستفهام إنكاري، والمعنى: لا ينتظرون بعد إشراكهم إلاّ السّاعة فقد قصر حالهم بالنّفي والاستثناء على انتظار السّاعة. ومجيء السّاعة بغتة يحدث شيئا غريبا لم يألفوا مثله في الدّنيا، فيسوق النّظم القرآني هذه الآية للتنفير، إذ يعرض هنا جانبا من أحوال الكافرين في يوم القيامة، حيث تنقطع كلّ خلّة بين المتخالين في غير ذات الله، وتنقلب عداوة ومقتا، أمّا الخلة الباقية الدائمة فهي خلّة المتخالين في الله[٣]، وتصرح الآية بأنّ المودة

---

(١) سورة الزّخرف: الآيات ٦٦ - ٧٠.

(٢) «وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد، أو السّائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له». معجم البلاغة العربية: ٣٣٨/١.

(٣) =: الكشاف: ٢٦٣/٤.

والتّكريم سينقلبان عداوة، «وإنّ عداء الكافرين لينبع من معين ودادهم»[١]، فقد اجتمعوا في الدّنيا على الشّر والضّلال، واليوم ينقلبون إلى خصوم يتلاومون بعد أنْ كانوا أخلاء يتناجون، وفي الطّرف الآخر تبقى مودة المؤمنين بينهم إذ اجتمعوا في الدّنيا على الهدى وتناصحوا على الخير فنالوا ثواب الآخرة، ولما كان المشركون متحدين متناصرين فيما بينهم ضد الرّسول (ﷺ) أوثر هنا من ذكر أهوال يوم القيامة ما يناسب حالتهم تلك[٢]. وقد بدأت الآية بلفظ الأخلاء وهو «جمع خليل وهو الصّاحب الملازم وقيل إنه مشتق من التّخلل لأنّه كالمتخلل لصاحبه والممتزج به»[٣]، ولا شكّ في أنّ للخلة معنى أسمى من الصّداقة ولذلك أوثر ذكرها هنا، فالخلّة: الاختصاص بالتّكريم، أمّا الصداقة فهي اتفاق الضّمائر على المودة[٤]، ففي اللفظة سخرية وتقريع لهؤلاء، وتعريف (الأخلاء) هو تعريف الجنس الذي يفيد استغراقا عرفيا إذ يستوي في الخلّة المذكر والمؤنث[٥]، ولا شكّ في أنّ الآية تتضمن معنى الوعيد، والذي يكمن في لفظة (يومئذ) أي في ذلك اليوم القريب الواقع لا محالة، وجاءت لفظة (عدو) نكرة بصيغة المصدر للدّلالة على أنّ الخلّة التي بينهم ستنقلب إلى الغاية في العداوة كثرة وثبوتا[٦]. ويأتي بعد ذلك الاستثناء، فالمتقون الذين كانت الخلّة بينهم في الله ستزداد وتقوى لذلك جاء النّداء بعدها ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ وهكذا تكون الآية تنفيرا من الخلّة في غير الله وترغيبا بالمودة والمحبة وصلة ما أمر الله به أنْ يوصل ابتغاء مرضاته. وجملة (يا عباد) مقول قول محذوف دلت عليه صيغة الخطاب، أي نقول لهم، أو يقول الله لهم، أو يقال لهم[٧]. وفي إضافة العباد إليه تعالى تشريف لهم، ونفي الخوف عنهم تأنيس لهم، وتقديم (أنتم) لتأكيد نفي الحزن عنهم، ويوحي ذلك بخوف الكافرين وحزنهم آنذاك، ثمّ وصفهم بما كان لهم في الدّنيا فاستحقوا به

---

(١) في ظلال القرآن: ٣٢٠١/١٥.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥٢/٢٥.

(٣) م. ن: ٢٥٢/٢٥.

(٤) =: الفروق في اللغة: ٢٧٨.

(٥) =: تاج اللغة وصحاح العربية: ١٦٨٧/٤، مادة (خلل).

(٦) =: معاني الأبنية في العربية: ١١٤.

(٧) =: جامع البيان في تفسير القرآن: ٥٧/٢٥.

هذا الجزاء ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٦٩ ﴾ وكأنّ نفي الخوف قد قوبل بإيمانهم بالآيات وقوبل نفي الحزن بوصفهم بأنهم كانوا مسلمين. وأوثر فعل (كانوا) للإيحاء بأنّ ذلك كان من قوام كيانهم. واستكمل سياق نفي الخلّة عن الكافرين وبقائها في المؤمنين بتأكيد دخولهم الجنة مع أزواجهم لتكتمل نعمة التّمتع بالخلّة التي كانت بينهم وبين أزواجهم في الدّنيا، وأوثر وصف حالهم بـ (تحبرون) للإيحاء بالتّكريم وأثره فيهم، ممّا يشيع الفرح والسّرور في قلوبهم وظهور أثر ذلك في أبدانهم فيبدو عليهم الحبور من أثر النّعيم والتّكريم، فالله تعالى قد خاطبهم بنفسه، ووصفهم بالعبودية على سبيل التّشريف وأزال الخوف عنهم في يوم القيامة ونفى الحزن عنهم بسبب فوت الدّنيا الماضية. فكانت هذه الآية تذكيرا للنّاس جميعا بالسّاعة وبموقف الحساب لتبادر النّفس إلى اختيار فريق الهدى وتتعاهد معه على الخلّة الباقية، وتعمل من أجل نوال نفي الخوف والحزن والفوز بالجنان.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

بعد أنْ وصف يوم القيامة في سورة غافر بـ (يوم التلاق) و(يوم الآزفة) يذكر في سورة الدّخان بوصف آخر يجمع فيه المؤمنون والكافرون، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٠ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٢ ﴾[1].

جاءت هذه الآيات في سياق يصور المشركين في جانب من عذابهم يوم القيامة، وغرض الخبر المؤكد هنا الوعد والوعيد، ويصور هذا السّياق في الجانب الآخر المؤمنين وهم يرفلون بنعيم الله في الجنة، لذلك استخدم التّعبير القرآني (يوم الفصل) من بين أسماء يوم القيامة ليلاءم الفصل بين الخلائق، وتدخل هذه الآية في الوعيد لأنّ الضمير (هم) يعود على كفار مكّة في زمن الرّسول (ﷺ) وعلى قوم تبع ومَن سبقهم، فهو توعد للكافرين بهذا اليوم الذي سيكون فيه الفصل، فلا شراكة بعده في نعم الله كما كان الحال في الدّنيا، فسيلقى الكافرون شجرة الزّقوم وأنواع العذاب. وإذا كانت الآيات تعرض حال أحد الكفار فإنّها عامّة في وعيدها لكلّ كافر، فالعبرة بعموم

(١) سورة الدّخان: الآيات ٤٠ - ٤٢.

اللفظ لا بخصوص السّبب، والآية قد بدأت بـ (إنّ) لتوكيد هذا الوعيد بيوم الفصل، ولا سيّما أنّ الكافرين قد أنكروا ذلك، أمّا (يوم الفصل) فقد جاء دون غيره من أسماء يوم القيامة للتّعبير عن الفصل بين النّاس فيعذب الكافرون ويثاب المؤمنون وهو يوم يفصل فيه الحق من الباطل(١). والميقات: هو اسم زمان التّوقيت وقد حذف متعلق الميقات لظهوره من المقام، أي: ميقات جزائهم. والضمير (هم) جاء ليخصص هذا الوعيد على هؤلاء وإلاّ فإنّ يوم الفصل ميقات جميع الخلائق، وقد زيد الخبر والتّخصيص تأكيدا آخر بلفظة (أجمعين) للتنصيص على الإحاطة والشّمول إذ لا ينجو من هذا الوعيد أحد، وبذلك يكون هذا التّوكيد تقوية للوعيد وتأييسا من الاستثناء(٢).

وجاءت الآية الأخرى تفصيل للإجمال الذي في قوله: (يوم الفصل) وبيان لجانب مما يقع فيه، وتنكير (مولى) يفيد العموم، أي لا يغني أحد من الموالي كائنا مَن كان عن أحد من مواليه كائنا مَن كان، إذ إن النّكرة في سياق النّفي تدل على كلّ فرد، ولذلك قال: (هم)(٣). وتنكير (شيئا) للتقليل، ووقوعه في سياق النّفي للعموم أيضاً، وزيد هذا المعنى قوة بنفي نصرتهم بقوله: (ولا هم ينصرون) بتقديم ذكر (هم) للتوكيد وقصر عدم النّصرة عليهم، ممّا يوحي بنصرة المؤمنين. وبني الفعل (ينصرون) للمجهول ليعم نفي كلّ ناصر، فضلاً عمّا يحققه من الإيجاز، ثمّ جاء قوله ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ على سبيل الفصل والتّوكيد بـ (إنّ) وبضمير الفصل (هو) الذي أفاد قصر العزة والرّحمة عليه تعالى. فالله عزيز لا يكرهه أحد على العدول عن مراده، فهو يرحم مَن يرحمه بمحض مشيئته، وهو رحيم، أي: واسع الرّحمة لمَن يشاء من عباده على وفق ما جرى به علمه وحكمته ووعده(٤). وقد تقدم ذكر (العزّة) على (الرّحمة) لئلا يتوهم أنّه لم يعذبهم لعجزه عن عقوبتهم، فأزيل هذا الوهم بذكر صفة عزه قبل صفة رحمته، فضلاً عن أنّ الرّحمة إذا كانت عن قدرة كانت أعظم وقعا(٥). ولا يخفى ما في الآية من التناسب بين ثنائية (العزيز الرّحيم) وبين نفي الإغناء بينهم ونفي النّصرة

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٣١/٢٥.

(٢) =: م. ن: ٣١١/٢٥ - ٣١٢.

(٣) =: روح المعاني: ١٣١/٢٥.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٣١٣/٢٥.

(٥) =: التّفسير الكبير: ١٢٠/٢٤.

والذي يوحي بثبوتها للمؤمنين.

❖❖❖❖❖

وفي سورة الجاثية تعرض مواقف أخرى من يوم القيامة، نجد فيها ساحة العرض وقد تجمعت فيها الأجيال الحاشدة، وقد جثوا على الرّكب متميزين أمّة أمّة يرتقبون الحساب، ويجابهون بالجزاء وكلّ شيء قد كتب، فالأعمال مستنسخة، فأمّا الذين آمنوا فإلى الجنة، وأمّا الكافرون فتوبيخ وتأنيب وسؤال ثمّ عذاب شديد، وكلّ ذلك في قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[١].

تبدأ الآية الأولى بذكر يوم قيام السّاعة للتنبيه إلى ما سيقع في ذلك اليوم، فتعلن خسارة الكافرين في ذلك اليوم، فقد كانوا ينكرون وقوع السّاعة، وتقديم الظّرف على الفعل للحصر لأنّ كلّ خسران عند الخسران في ذلك اليوم كلا خسران. والخطاب في (ترى) في الآية الأخرى يمكن أنْ يكون عاما لكلّ مَن يصلح له الخطاب بالقرآن، فلم يقصد مخاطبا معينا، ويمكن أنْ يكون خطابا للرّسول (ﷺ). وقد استمدت السّورة اسمها من كلمة (جاثية) في هذه الآية، ويوحي هذا المشهد بالخشوع التّام والصّمت الذي يعم المشهد وذلك التّرقب الذي يسود النّفوس، فالكلمة تعبر عن حال الأمم وهي بين يدي خالقها يوم الحساب، ملتصقة بالأرض على ركبها، خائفة ذليلة، وهي بهذا الجثو تشير إلى الرّغبة في شق الأرض من هول ذلك اليوم لكنّها لا تجد من نفسها قوة فتزداد انكسارا وخنوعا وتدرك عند ذاك شريعة خالقها[٢]، ويثير مشهد الجثو سؤال سائل عما بعد ذلك الجثو؟ فيأتي الجواب استئنافا بيانيا بقوله ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ ﴾

---

(١) سورة الجاثية: الآيات ٢٧ - ٣٢.

(٢) =: الإعجاز الفني في القرآن: ٩٧.

بتكرار ذكر (كلّ أمّة) للتهويل، والذي زيد قوة بإيثار صيغة المبني للمجهول في (تدعى) ثمّ يقال للجموع الجاثية المتطلعة إلى كلّ لحظة بريق جاف ونفس مخنوق، يقال لهم ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فهو مقول قول محذوف. ثمّ تأتي الآية الأخرى بيانا لهذا الجزاء، فتبدأ بعرض الدّليل الذي لا يستطيعون له إنكارا ﴿ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾، بإضافة صحائف أعمالهم إلى نفسه تعالى لأنّه أمَر الكتبة أنْ يكتبوا فيها أعمالهم، وأسند النّطق إلى الكتاب على طريقة المجاز العقلي، وإنّما تنطق بما في الكتاب ملائكة الحساب، أو على سبيل الاستعارة المكنية في النّطق للتعبير عن الدّلالة، حيث شبه الكتاب بشاهد يدلي بشهادته ويشهد بالحق، وقد حذف المشبه به واستعير له شيئا من لوازمه وهو النّطق بالشهادة[1]. والمعنى إنّ فيه شهادة عليهم ممّا يؤكد تضمين (ينطق) معنى (يشهد) ولذلك عدي بحرف (على) وليتناسب مع مقام التّهديد[2]. وقد جاء قوله ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ على سبيل الفصل استئنافا بيانيا للسؤال: كيف شهد عليهم الكتاب؟ فأجيب بأنّ الله كان يأمر بنسخ ما يعملونه في الصّحف، والسّين والتّاء في (نستنسخ) للمبالغة في الفعل[3]، وهذه اللفظة توحي بالمراقبة الإلهية الخفية في السّر والعلانية، فلا بدّ أنْ يعتبر العبد بذلك، فالذي يشعر بالمراقبة الإلهية في نفسه وهي تستنسخ كلّ أعماله يفني جسمه وروحه في العمل المتواصل إحقاقا لحق خالقه.

ولمّا كان جثوّ الأمم عامّا شاملا للمؤمنين والكافرين، وكان الجزاء كذلك، ونطق الكتاب واستنساخ الأعمال كذلك أيضاً، جاءت الآيات الأخرى على سبيل التّفصيل لبيان مصير كلّ فريق في يوم الحساب ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ ﴾، فابتدأ الآية بالفاء لعطف المفصل على المجمل، وابتدأ التفصيل بوصف حال المؤمنين تنويها بهم وتعجيلا لمسرتهم وتعجيلا لمساءة المبطلين، لأنّ وصف حال المؤمنين يؤذن بمخالفة حال الآخرين لحالهم، والتعبير بـ (يدخلهم في رحمته) شامل لما تتصوره النّفس من أنواع

---

(١) =: الجدول في إعراب القرآن: ١٦٣/٢٥.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٣٦٦/٢٥ - ٣٦٨.

(٣) =: م. ن: ٣٦٩/٢٥.

الكرامة والنّعيم، وقد جاء ذلك على سبيل المجاز المرسل بإطلاق الحال وإرادة المحل، حيث عبر بالرّحمة عن الجنة، وجعلت رحمة الله بمنزلة المكان يدخلونه.

وقد أوجز النّظم القرآني في ذكر المؤمنين في هذا الموقف إذ انتهى أمرهم بسرعة ويسر، فألقى النّظم بهذا الإيجاز ظلال الرّاحة من طول الارتقاب والقلق والاضطراب الذي صاحب الجثو، وأشار إلى حالهم بـ (ذلك) للتعظيم والتّشريف وعلو المنزلة، وقصر (الفوز المبين) عليه بضمير الفصل (هو)، أمّا الفريق الآخر فنجده في تأنيب طويل وتشهير مخجل وتذكير بشر الأقوال والأعمال على سبيل الإطناب بخلاف الإيجاز في ذكر حال المؤمنين، فافتتح بيان حال الكافرين بما يقال لهم من التّوبيخ والتّقريع، فقوله ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى ﴾ مقول قول محذوف، وفي الاستفهام توبيخ وتقريع ويلحظ أنّ حذف القول يتكرر في الغالب مع ذكر الكفار مصداقا لقوله تعالى ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[1] وفي التّذكير بتلاوة الآيات في الدّنيا وحال استكبارهم عليها مزيد توبيخ لهم ولا سيّما أنّ «التّكبر شعور خفي بالحاجة إلى أنْ تتفوق الشّخصية على الآخرين، أو أنْ تبسط نفوذها عليهم، أو تصبح متميزة منهم بشكل أو بآخر. ويأتي شعور المرء بالتّكبر أو العلو نتيجة إحساسه الدّاخلي بالنقص أو الذّل فيقوم بتعويض ذلك بتكلف التّعالي على الآخرين»[2]. واستحق الكافرون أنْ يوصفوا بقوله تعالى ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أي كان الإجرام من مقوماتكم وكنتم متميزين به.

ثم يزاد هذا التبكيت والتوبيخ بقوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ فيذكرهم بإنكار وعد الله ووعيده وإنكارهم مجيء السّاعة ووقوعها واستهزاءهم بها. والتّعريف في (السّاعة) للعهد، وهي ساعة البعث أي زمانه، وجاء قولهم: (ما ندري ما الساعة) كناية عن جحد وقوعها، والمعنى: علمنا أنّها لا وقوع لها، استنادا إلى أوهامهم

(١) سورة آل عمران: من الآية ٧٧.

(٢) دراسات في علم النفس الإسلامي، محمود البستاني: ٢٣٥/١ و=: الألفاظ النّفسية في القرآن الكريم دراسة دلالية، أيمن توفيق الوتاري: ١٥٢، (رسالة ماجستير).

وتخيلاتهم التي ظنوها. وتنكير (ظنّا) للتحقير، أي: إلاّ ظنّا ضعيفا، مع ملاحظة صيغة القصر بالنّفي والاستثناء التي توحي باستهزائهم بأمر السّاعة وإنكارهم لها، وزيد ذلك المعنى بالنّفي في ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾، وذكر (نحن) متقدما على (مستيقنين) يوحي بإنكارهم على الرّغم من يقين غيرهم بوقوعها، والسّين والتّاء في (مستيقنين) للمبالغة في حصول الفعل، وفي الآية مع سابقتها احتباك حيث «ذكر الإدخال في الرّحمة أولا دليلا على الإدخال في اللّعنة ثانيا، وذكر التّبكيت ثانيا دليلا على التّشريف أولا، وسرّه أنّ ما ذكره أدل على شرف الولي وحقارة العدو»[١]. وقد أوجز في ذكر حال المؤمنين وأطنب في ذكر حال الكافرين مع أنّ الأصل (فيدخلهم في عذابه) للدلالة على أنّ المؤمنين يدخلون الجنة، والكافرون بعد في الموقف معذبون بالتّوبيخ[٢].

وهكذا عرضت الآيات موقفا من مواقف يوم الحساب اقترن بذكر السّاعة وتأكيد وقوعها لتتدبر النّفس هذه المشاهد وتسارع إلى التّوبة قبل أنْ يأتي ذلك اليوم الذي تجثو فيه الخلائق للحساب ففريق في الجنة وفريق في السّعير.

❖❖❖❖❖

## المبحث الثّاني

## التّقابل بين أصحاب الجنة وأصحاب النّار

يقترن في الكثير من مشاهد القيامة عرض حال المؤمنين وهم في جنة الخلد التي وعدهم الله إياها، بعرض حال الكافرين وهم في العذاب الشّديد، ويعد هذا التّقابل من الأسلوب التّصويري المطرد في القرآن الكريم لتحقيق هدف الدّعوة القرآنية إذ تجد النّفس أمام هذه المشاهد مصيرها الذي ينتظرها جزاء ما تعمل، فتدرك من خلال ذلك حسن الاختيار، فإمّا إلى طريق الخير والصّلاح الذي يفضي بها إلى النّعيم، وإمّا إلى طريق الضّلال الذي يوصلها إلى النّار، من ذلك قوله تعالى ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ

(١) نظم الدرر: ١٨/١٠٩.

(٢) =: روح المعاني: ٢٥/١٥٧.

ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾[١].

ويبدأ المشهد بعرض حال الظّالمين لأنّ التّعبير القرآني ختم الآية السّابقة بوعيدهم بالعذاب في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٢] فجاءت الآية تعرض هؤلاء مشفقين خائفين من العذاب وقد كانوا في الدّنيا لا يشفقون بل يستعجلون ويستهزئون، ويظهر السّياق إشفاقهم (ممّا كسبوا) وكأنّما هو غول مفزع، وهو هو الذي كسبوه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين، ولكنّهم اليوم يشفقون منه ويفزعون ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ وكأنّه هو بذاته انقلب عذابا لا مخلص منه.

وفي مقابل ذلك صورة أخرى من هذا المشهد، صورة المؤمنين الذي كانوا يشفقون من هذا اليوم ويخافون، فهم اليوم في أمن وعافية ورخاء، وترسم الصّورة في هذا المشهد بألوان الرّخاء والنّعيم والإرضاء بلا قيود ولا حدود[٣].

ويلحظ في هذا التّقابل فضل آخر من نعم الله (ﷻ)، ففي عرض حال المؤمنين بقوله ﴿ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ﴾ دلالة على أنّهم قد استقروا فيها من قبل عرض الظّالمين على الحساب، أمّا بداية الآية فهو بيان للتّذييل في سابقتها، والخطاب بالرّؤية لغير معين على سبيل العموم وهو ما يسمى بـ (اللائق بالخطاب)[٤] وفي ذلك استحضار لصورة حال الظالمين يوم القيامة في ذهن المخاطب. ويؤكد التعبير القرآني سوء حالهم بالقول ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي الجزاء الذي هم مشفقون منه، وقد عبرت الباء في (بهم) عن الاستعلاء والإلصاق للإيحاء بمضي أثر العقاب فيهم، فضلاً عن إيثار (واقع) على (يقع) ممّا يشير إلى تحققه وأنّه لا بدّ منه، وجاء ذكر حال الظّالمين موجزا بخلاف ذكر حال المؤمنين للتلذذ بمشهد النّعيم الذي هم فيه وبيان حال الفائزين وما هم فيه من الفضل الكبير.

وبينما الظّالمون ما زالوا في موقف الحساب، يعرض السّياق صورة المؤمنين

(١) سورة الشّورى: الآية ٢٢.

(٢) سورة الشّورى: من الآية ٢١.

(٣) =: في ظلال القرآن: ٣١٥٣/٥.

(٤) =: معجم البلاغة العربية: ٨٢٤/٢ - ٨٢٥.

وهم قد استقروا في روضات الجنات، وقوله ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ ﴾ يوحي بالتّكريم المستمر المتجدد، فضلاً عن الاختصاص، أي (لهم) لا لغيرهم. والعندية في (عند ربّهم) تشريف لمعنى هذا الاختصاص، وآخر قوله: (عند ربهم) توخيا لسلوك طريق المبالغة في التّرقي من الأدنى إلى الأعلى ومراعاة لترتيب الوجود فإن الوافد والضّيف ينزل في أحسن موضع ثمّ يحضر بين يديه الذي يشتهيه[١]. وذيلت الآية بـ ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ بإيثار اسم الإشارة للبعيد للإيحاء ببعد منزلة المشار إليه، وقد أفاد ضمير الفصل قصر الفضل الكبير على ما يرفل به المؤمنون وللمبالغة في عظمة هذا الفضل. وفي نظم الآية محسن الاحتباك حيث «أثبت الإشفاق أولا دليلا على حذف الأمن ثانيا، والجنات ثانيا دليلا على حذف النيران أولا»[٢].

وهكذا يدرك كلّ مخاطب طريقه، فاستحضار هذا التّقابل في مصير الفريقين له أثره في النّفس البشرية «فالصّورة تحرك مشاعرنا وتمنحنا بهجة جمالية، وتروق ليس فقط لعقولنا وإنّما لعواطفنا»[٣] ولا شكّ في أنّ إدراك المعنى في الصّورة المشاهدة يزيد النّفس أنسا به وقبولا له، ولذلك يعد الأسلوب التّصويري من أبرز أساليب الدّعوة القرآنية.

❖❖❖❖❖

وفي مشهد آخر يذكر الفريقان على سبيل التّقابل، لنشاهد ذل الكافرين وهم يعرضون على النّار، يملأ نفوسهم الشّعور بخسارة الدّنيا والآخرة، وخسارة أنفسهم وأهليهم، وفي مقابل ذلك يظهر الذين آمنوا وهم ينطقون بتأكيد خسران الكافرين ممّا يوحي بمزيد من الذّل والهوان للكافرين ويوحي بمنزلة المؤمنين الشّريفة العالية، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾[٤].

---

(١) =: روح المعاني: ٢٥/٢٩.

(٢) نظم الدرر: ١٧/٢٩٤.

(٣) جماليات الصورة الفنية، ميخائيل أوفيانيكوف، ترجمة رضا الظاهر: ٢٣.

(٤) سورة الشّورى: الآية ٤٥.

يبدأ هذا المشهد بإعادة فعل الرّؤية للاهتمام بها وتهويلها، وهو خطاب لكلّ مَن تتأتى مِنه الرّؤية ويعتبر بحالهم، ثمّ يذكر عرضهم على النّار، على سبيل استعارة (يعرضون) لمعنى يمر بهم مرا عاقبته التمكن منهم والحكم فيهم، إذ إن العرض أصله إظهار الشّيء وإراءته للغير، وأوثر البناء للمجهول للتركيز على الحدث دون فاعله(١)، ويظهر المشهد حالهم عند هذا العرض (خاشعين) لا من التقوى ولا من الحياء، ولكن (مِن الذل) والهوان، فهم حينئذ منكسي رؤوسهم لا يرفعون أبصارهم من الذّل والعار، فقوله: (مِن الذل) احتراس لأنّ الخشوع قد يكون محمودا.

واستكمل وصفهم بقوله ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ وهي صورة شاخصة ذليلة، أي: من طرف قد خفي من ذلّه، وقد وصفه الله بالخفاء للذلّة التي قد ركبتهم حتى كادت أعينهم تغور فتذهب(٢). ويوحي هذا التّعبير بهول ما يرونه من العذاب إذ يحجمون عن مشاهدته للرّوع الذي يصيبهم مِنه، ويؤكد ذلك حذف مفعول (ينظرون) لتعميم العذاب، وأهوال الحشر، وينظرون نعيم المؤمنين من طرف خفي أيضاً، إذ يبعثهم ما في الإنسان من حب الاطلاع على أنْ يتطلعوا لما يساقون إليه(٣). وتوحي كلمة (خفي) بالمعاني النّفسية التي يتسم بها ذلك الذّليل، وهي منتزعة من صورة بصرية، وتوحي بكلّ تأوهاته وحقده على مَن أضله وقد رأى العذاب، كما توحي بإيجاز بديع بخجلته من خالقه وانكساره(٤).

وننظر إلى جانب آخر من هذا المشهد لنجد فريق الإيمان وقد حلّ دار السّعادة والرّضوان، ينظرون إلى مشهد الكافرين الذّليل ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ وقد سيق هذا الخبر لإظهار المسرة والبهجة التي يشعر بها المؤمنون لسلامتهم ممّا لحق بالكافرين. ويؤكد قولهم بـ (إنّ)، والتّعريف في (الخاسرين) للجنس، أي هم لا غيرهم الأكملون في الخسران، وأنْ لا خسران يشبه خسرانهم، والتّعبير بالخسران هنا

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٢٦/٢٥.

(٢) =: جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٦/٢٥.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ١٢٧/٢٥ - ١٢٨.

(٤) =: جماليات المفردة القرآنية: ٢٧٨.

جاء على سبيل الاستعارة لانتفاء الانتفاع بما كان صاحبه يعده للنفع[١].

وقد جاء نظم الآية في تناسب بديع، فقد أوثر في الرّؤية الفعل المضارع (تراهم) استحضارا لعذابهم الكائن في الآخرة تهويلا، وجعل المؤمنين كأنهم حضور يعاينون عذاب الكافرين ويقولون بخسرانهم، وأوثر في الرّؤية الخطاب، وفي القول الغيبة، لتهويل العذاب وجعله قريبا مشاهدا، وتناسبت الغيبة مع ذكر الخسران لأنّه أمر معقول، وأوثر في القول الفعل الماضي لأنّه قول صادر عن مقتضى الحال قد حق ووقع، وليوحي بنجاة المؤمنين وابتهاجهم بذلك[٢].

وختمت الآية بالتّذييل ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ ردا على حال تلهفهم على أنْ يردوا إلى الدّنيا ﴿ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾[٣]، وأعيد لفظ (الظّالمين) على سبيل الإظهار في مقام الإضمار ليكون التّذييل مستقل الدّلالة على معناه، فضلاً عن أنّه ليس من قول المؤمنين. ووصف العذاب بـ (مقيم) على سبيل الاستعارة حيث شبه المستمر الدّائم بالذي اتخذ دار إقامة لا يبرحها[٤]، فقد صورت الاستعارة الظّالمين وقد صار العذاب دار إقامة لهم لا يغادرونه، فكان ذلك إلجاما لطلبهم النّجاة في ﴿ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ وتأييسا من النّجاة أو العودة إلى الدّنيا، فهو عذاب الخلود.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## المبحث الثّالث

## الجنّـــة

تتعدد أساليب الدّعوة القرآنية وتتلون مشاهد القيامة فيها بين التّرغيب والتّرهيب، فنجد في الكثير من الآيات وصفا لبعض ما أعده الله لعباده المتقين في الجنة من النّعيم ترغيبا لهم فيها وحثا للعباد إلى السّعي من أجلها، ويعمد النظم القرآني في ذلك إلى الأسلوب التصويري ليؤثر في الأعماق الباطنة للإنسان فيعمل على

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٢٩/٢٥.

(٢) =: روح المعاني: ٥١/٢٥.

(٣) سورة الشّورى: من الآية ٤٤.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ١٢٩/٢٥.

تغييرها وإصلاحها وهدايتها من خلال أثر الصّورة القرآنية.

فالصّورة القرآنية تتمثل فيها الدّقة والحركة والزّمن والألوان، وهي بجرسها العميق والظاهر تضفي جمالا صوتيا يتناسق مع جمال الصّورة لا نجده في أية لوحة أخرى. وقد وردت في سور الحواميم آيات تصور بعض ما أعده الله للمؤمنين في الجنة، وتصور حالهم فيها، من ذلك قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[1].

تبدأ الآية الأولى بالالتفات من الخطاب الذي كان في الآية السّابقة إلى الغيبة، وأوثر البناء للمجهول في (يطاف) للاهتمام بالفعل دون فاعله وفي ذلك إيحاء بمزيد تكريم لهم، وقدم (عليهم) للاهتمام وإفادة العموم والشّمول من كلّ جانب، ويتناسب إيثار (عليهم) مع مقام التّكريم والإنعام، وتنكير (صحاف) للتكثير، ومِن عظيم التّناسب «أنّه لمّا كانت أواني المأكولات أكثر بالنسبة لأواني المشروب عادة جمع الأول جمع كثرة، والثّاني جمع قلة»[2]. وقد ذكر الذهب في الصحاف واستغنى به عن الإعادة في الأكواب كقوله تعالى ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾[3] فهو من إيجاز الحذف لدلالة السّابق عليه. وجاء قوله ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ على سبيل الوصل إتماما للنعمة وإكمالا للسرور، فعرض نعيم الجنة - الذي جاء على طريقة ذكر العام بعد الخاص - جزء من أسلوب التّرغيب، وفيه إيحاء بسعة هذا النّعيم وتنوعه، فكل ما يمكن أنْ تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين برؤيته سيكون في الجنة يتنعم به المؤمنون، ولن يكون هذا النعيم مؤقتا، ولن يكون التمتع به لأيام وليال وإنّما هو الخلود، ولا شكّ في أنّ لأسلوب الالتفات في ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ من الغيبة إلى الخطاب أثرا واضحا في زيادة هذا التّرغيب قوة وجذبا وامتزاجا بالوعد ممّا يجلي الدقة الرّائعة للبيان القرآني. ومما يكمل التّرغيب أيضاً التكريم وزيادة الفضل بتشريف

---

(١) سورة الزّخرف: الآيات ٧١ - ٧٣.

(٢) محاسن التّأويل: ٥٢٨٥/١٤.

(٣) سورة الأحزاب: من الآية ٣٥.

المؤمنين في خطابهم من العلي القدير، ووعدهم بالخلود في الجنة.

ويتجلى في قوله ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ إيجاز القصر، فهذه الكلمات تختزن معاني كثيرة ورغائب وفيرة، وصيغة التعميم تدل على إفساح المجال للخيال، وتصور ما قد يخطر على النّفس، وما ترتاح إليه العين، فالتّعبير القرآني قد «ألمح إلى كل ما تميل النّفوس إليه من الشهوات، وتلذ الأعين من المرئيات، لتعلم أنّ هذا اللفظ القليل جدا عبر عن معان كثيرة لا تنحصر عدا»(١).

واستكمالا لمعنى الخلود والتكريم، أشير إلى الجنة باسم الإشارة للبعيد تعظيما لشأنها، ومعنى الخلود ينبثق هنا من استعارة (أورثتموها) لمعنى أعطيتموها دون غيركم بتشبيه ذلك بإعطاء الحاكم المال للوارث دون غيره لأنّه أولى به(٢). وناسب ذلك أنْ أفرد الكاف ولم يقل (وتلكم) ليعم الخطاب كلّ واحد من أهل الجنة.

ويتوالى وصف نعيم الجنة بقوله ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ وقال في موضع آخر ﴿ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾(٣) مراعاة للفظ الجنة حيث قال في سورة المؤمنون (جنات) بالجمع، فقال (فواكه)، وفي الزّخرف (الجنة) فقال: (فاكهة)، وقال في سورة المؤمنون (ومنها تأكلون) بزيادة الواو لأنّ تقدير الآية: منها تدخرون ومنها تبيعون، وليس كذلك فاكهة الجنة فإنّها للأكل فحسب، ولذلك قال في الزّخرف (منها تأكلون)(٤). وقوله: (منها تأكلون) أي لا تأكلون إلاّ بعضها وإعقابها باقية في أشجارها، فـ (مِن) تبعيضية، والتّقديم للحصر مع رعاية الفاصلة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وإذا كانت الآيات السابقة في سورة الزّخرف قد عرضت بعض نعيم الجنة من آنية الطعام والشراب، وذكرت - على سبيل التعميم - كلّ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين برؤيته، وذكرت كثرة فاكهة الجنة، فإنّ سورة الدّخان تستكمل ذكر بعض هذا النّعيم، حيث الأمن الذي تسعد به نفوس المؤمنين، وحيث الجنات والعيون، وتعرض

---

(١) تحرير التّحبير: ٢٠٢.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٥٦.

(٣) سورة المؤمنون: من الآية ١٩.

(٤) =: أسرار التّكرار في القرآن: ١٤٧.

ما يلبسه أهل الجنة من سندس واستبرق، وهم في أنس دائم متقابلين لا تصيبهم وحشة العزلة، وزيد كلّ هذا الفضل والإنس بذكر أزواجهم من الحور العين، وهم فيها خالدون إذ وقاهم الله عذاب الجحيم فضلاً مِنه ورحمة، وكلّ ذلك في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾[(١)].

إنّه مشهد أهل الجنة، يسوده جوّ الأمن والطمأنينة لأنّهم كانوا يخشون هذا اليوم ويخافونه، فاليوم هم في (مقام أمين) لا خوف فيه ولا فزع، يأمَن فيه ساكنه، فقد جاء وصف المقام بـ (أمين) على سبيل المجاز العقلي، وقد بدأ بذكر الأمن لأنّه أوّل شروط حسن المكان، فالساكن أوّل ما يطلبه الأمن، فلا لذة لأي شيء دون الأمن، وتنكير (جنات وعيون) للتكثير والتعظيم.

ثمّ ينتقل التّعبير القرآني إلى رسم صورة أهل الجنة بأبهى ما يلبسون، فيصف نعيم أجسادهم بذكر لباس التّرف والنّعيم، فهو كناية عن توفر أسباب نعيم الأجساد فلا يلبس هذا اللباس إلاّ من استكمل ما قبله من ملائمات الجسد باطنه وظاهره، ثمّ يصف نعيم نفوسهم بقوله: (متقابلين) لأنّ الحديث مع الأصحاب والأحبة نعيم للنّفس، وأغنت هذه اللفظة عن ذكر اجتماعهم وتحابهم وحديثهم على وجه إيجاز القصر[(٢)].

وبعد كل ذلك يذكر فضل آخر من هذا النّعيم: ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ والزّوج هنا كناية عن القرين، فالصّورة هنا تظهر هذا المقام عالما اجتماعيا يضم جميع مقومات المجتمع الظّاهر السّليم، فيه ألفة واجتماع واستمتاع، يأنس المرء فيه بزوجه وأهله الصالحين. وذكر الحور العين جزء من هذا التّرغيب، والقرآن بهذا يخاطب النّفس التي تجد في ذلك صورة عالية تتوق إليها فيحقق الترغيب هدف الدّعوة القرآنية.

---

(١) سورة الدّخان: الآيات ٥١ – ٥٧.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٣١٧/٢٥ – ٣١٨.

ثمّ هم في الجنة ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ على سبيل الكثرة والتّعميم أو على سبيل الإحاطة بكلّ صنف من أصناف الفاكهة، واستكمل جانب الأمن بقوله: (آمنين) بعد أنْ وصف المقام بالأمين، ثمّ استكمل ذلك بقوله ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ لأنّ أخوف ما يخاف أهل الدّنيا الموت. والأمن في (آمنين) هو أمن من الآلام من تلك الفواكه على خلاف حال الإكثار من الطعام في الدّنيا، أو أنّ المعنى آمنين من نفاذ ذلك وانقطاعه[1]. وفي ذكر الأمن من الموت في ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ بشارة بخلودهم في النعمة، والاستثناء للتأكيد وتحقيق انتفاء ذوق الموت، ويذكر الطبري أنّ (إلاّ) جاز أنْ توضع موضع (بعد) لتقارب معنييهما في هذا الموضع[2]. وتوحي استعارة (الذوق) هنا بانتفاء وجود أي لون من ألوان إذاقة آلام الموت وسكراته. وزيد هذا الفضل - وهو خلودهم في الجنة - بأنّ وقاهم الله عذاب الجحيم، ليستكمل انتفاء الآلام عنهم، وكأنّ قوله ﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ هو استجابة لدعاء الملائكة لهم ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾[3].

وختمت الآية بقوله ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾ للإيحاء بأنّ ذلك هو فضل من الله ورحمة، فلا يدخل المرء جنته بعمله فحسب وإنّما بفضل الله ورحمته، وذكر (الرب) هنا إظهار في مقام الإضمار لتشريف مقام النبي (ﷺ) والإيحاء إلى أنّ ذلك إكرام له لإيمانهم به. ثمّ جاء التّذييل مبدوءا بالإشارة في (ذلك) لتعظيم الفضل ببعد المرتبة، وضمير الفصل (هو) لتخصيص الفوز بالفضل وهو قصر يفيد معنى الكمال لأنّه لا فوز غيره[4].

وهكذا عرضت لنا هذه الآيات جانبا من نعيم الجنة وحال أهلها ترغيبا فيها وحثا على العمل من أجل ذلك الفوز العظيم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٣١٩/٢٥.
(٢) =: جامع البيان في تفسير القرآن: ٨٣/٢٥.
(٣) سورة غافر: من الآية ٧.
(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٣٢٠/٢٥.

# المبحث الرابع
# النـار

يتجلى التّرهيب القرآني في الآيات التي تذكر فيها النّار وألوان عذاب الكافرين، وهو الجزء الآخر من مشاهد القيامة، ويلحظ أنّ الآيات التي تناولت ذلك في سور الحواميم كانت كثيرة، وتتناسب هذه الكثرة مع ما ذكرناه سابقا من كثرة الآيات التي تضمنت ذكر الكافرين وصفاتهم ومواقفهم من الدعوة - في الفصل الخامس - كما يتناسب كلّ ذلك مع مقام الدعوة وهي في عهدها المكي. وأوّل صورة للكافرين في النّار نجدها في مشهد تعرضه لنا سورة غافر في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾[1].

هذا هو مشهد الكافرين في يوم القيامة، ينادون من كلّ مكان بالتّرذيل والمقت والتأنيب، هذا هو موقف الذل بعد الاستكبار، إنه مشهد مليء بالتوبيخ والتّنديم والحسرة، وفيه موعظة لأهل الشّرك ولمَن أراد أنْ يتعظ.

ابتدأت الآية بالتّوكيد بـ (إنّ) وجاءت على طريقة الأسلوب الحكيم، فهي استئناف بياني كأن سائلا يسأل عن تقبل دعاء الملائكة للمؤمنين فأجيب بأنّ الأهم أنْ يسأل عن ضد ذلك[2]، وبني الفعل (ينادون) للمجهول للتركيز على الحدث دون فاعله، وحذف الفاعل في ذكر العذاب والانتقام والغضب أسلوب مطرد في القرآن لأنّ الله تعالى لا يختص بالغضب بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه، فضلاً عن أنّ في حذف فاعل الغضب إشعارا إهانة المغضوب عليه وتحقيره، وتصغير شأنه[3]، وصيغته الفعلية توحي بتكرر المناداة وتجددها ممّا ينبئ بتكرر الألم والإهانة، واللام في (لمقت الله) لام القسم، و(مقت الله) بغضه إياهم وهو مجاز مرسل أطلق على

---

(١) سورة غافر: الآيات ١٠ - ١٢.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٩٤/٢٤.

(٣) =: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن: ٩٦.

المعاملة بآثار البغض من التّحقير والعقاب والخبر هنا مستعمل في التّوبيخ، وإطلاق الكبر عليه مجاز لأنّ الكبر من أوصاف الأجسام فجاء ذلك على سبيل التّجسيم، وقد يكون مقته لهم حاصلا في الآخرة أو أنّه في الدّنيا عند كفرهم بالدّعوة وعدم استجابتهم. ومعنى (مقتكم أنفسكم) أنّهم فعلوا لأنفسهم ما يشبه المقت إذ حرموها من فضيلة الإيمان فكان فعلهم هذا شبيها بفعل المرء لبغيضه من الضّر والكيد، فالمقت مستعار لقلة التّدبر فيما يضر، ويشير إلى وجه هذه الاستعارة قوله ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ [١] وقد يكون (مقتكم أنفسكم) أنّهم إذا شاهدوا النّار مقتوا أنفسهم على إصرارهم على الكفر.

وأوثر المضارع في (تدعون) و(تكفرون) للإيحاء بتكرر دعوتهم وكفرهم وتجددها. وذكر الرّازي إنّ في الآية حذفا وتقديما وتأخيرا، أمّا الحذف فتقديره: لمقت الله إياكم، وأمّا التّقديم والتّأخير فهو أنّ التّقدير أنّ يقال لمقت الله لكم حال ما تدعون إلى الأيمان فتكفرون أكبر من مقتكم نافسكم[٢].

وتنبثق روعة التّعبير الأخرى هنا من المقابلة التي تفيد أنّ الكافرين عندما كثر نداء الأنبياء لهم وتكرر وتجدد في الدّنيا ليرفعوهم بالإيمان ما كان منهم إلاّ الإصرار على الكفر، بيد أنّ نداء الملائكة لهم يوم القيامة بتكرره وتجدده لم يكن لذلك بل لإذلالهم وتحقيرهم، وهذا من إيحاءات التّعبير بالصّيغة الفعلية.

وتنطق السّنة الكافرين بمنطق الذّل والهوان والحسرة ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾ فقد أنطقهم ألم العذاب وذلّ الموقف بكلمة (ربنا) وقد كانوا من قبل يكفرون وينكرون، ويوحي جمع الموتتين والأحياءتين - على سبيل الطباق - بما يعتريهم من ألم العذاب ولهفة للخلاص مِنه، وقد أطلق الموت على حالة انعدام الحياة قبل حصولها للجنين على سبيل الاستعارة، والموتة الثّانية هي الموتة المعروفة عند انتهاء حياة الإنسان، والأحياءة الأولى عند نفخ الرّوح في الجسد، والثّانية عند البعث، وقولهم ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ إقرار بالذّنوب[٣].

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٩٥/٢٤ - ٩٦.
(٢) =: التّفسير الكبير: ٣٨/٢٧.
(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٩٨/٢٤.

ويوحي الوصل بالفاء في (فاعترفنا) بالتسبيب والتّعقيب[١]، وأوثر التّعبير بالماضي عن المضارع (نعترف) للإيحاء بأنّ ذلك قد وقع الفراغ من كونه وحدوثه، كما يوحي ذلك بلهفتهم في الخلاص من العذاب، هذه اللّهفة التي دفعتهم إلى طلب النّجاة على سبيل الاستفهام المستعمل في التّمني والاستعطاف ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ فهم يطلبون خروجا مهما كان طريقه أو نوعه، فهو تنكير يوحي باللهفة واليأس المرير. والحرف (مِن) لتوكيد العموم الذي في النّكرة ليفيد تطلبهم كلّ سبيل للخروج، كما أنّها تفيد التّنصيص على العموم. وتنكير (سبيل) للنوعية، أي مهما كان بحق أو بعفو أو تخفيف أو غير ذلك، ويوحي هذا التّعبير بما في دواخلهم من الحسرة والألم، كما يدل على أنهم يستبعدون حصول الخروج[٢].

وتأتي الآية الأخرى وقد عدل النّظم القرآني عن جوابهم بالحرمان من الخروج إلى ذكر سبب وقوع العذاب، فقد بلغ ترك الحال التي هم فيها ونسيانهم وعدم الاستجابة إلى ما يقولون إلى الحد الذي لا يذكر جواب طلبهم في السّياق، فكان التّعبير كناية عن استدامة العذاب على وجه يشعر بتحقيرهم. والإشارة في (ذلكم) إلى العذاب الذي هم فيه، والباء للسّببية، أي بسبب كفركم بالوحدانية وإيمانكم بالشّرك، وآثر التّعبير القرآني (إذا) - التي الغالب في شرطها تحقق وقوعه - إشارة إلى أنّ دعاء الله وحده أمر محقق بين المؤمنين مع ما تفيده (إذا) من الرّغبة في حصول مضمون شرطها، وجيء بحرف (إنّ) التي أصلها عدم الجزم بوقوع شرطها أو أنّ شرطها أمر مفروض فذكرت مع الإشراك بالله للإيحاء بامتناع تحقق ذلك[٣]. وجاء (دعي) بالماضي و(يشرك) و(تؤمنوا) بالمضارع لدلالتهما على تكرار ذلك منهم في الحياة الدّنيا، وإنّ لهذا التّكرار أثرا في مضاعفة العذاب لهم. وقوبل الماضي (دعي) بالماضي (كفرتم)، والمضارع (يشرك به) بالمضارع (تؤمنوا)، وقد حقق ذلك تناسبا إيقاعيا ومعنويا بديعا، ولا يخفى ما في النّظم الجليل من المقابلة بين التّوحيد والإشراك، والكفر والإيمان. وفي الآية إيجاز حذف، والتّقدير: كفرتم بتوحيده وتؤمنوا

(١) =: الفصل والوصل في القرآن الكريم: ١١٠.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٩٩/٢٤.

(٣) =: م. ن: ١٠١/٢٤.

بالشّركاء. ثمّ ذيلت الآية بقوله ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ بقصر هذا الجنس من الحكم على الكون لله إذ لا حكم في يوم القيامة لغيره. وأوثرت صفتا (العلي الكبير) لأنّ معناهما مناسب لحرمانهم من الخروج من النّار، فالصفتان تناسبان موقف الحكم: العلي على كلّ شيء، والكبير فوق كلّ شيء.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي مشهد آخر من مشاهد أهل النّار نسمع حوارا بين الاتباع والمتبوعين يلوم بعضهم بعضا ويطلب مساعدته، كما نسمع فيه حوارا بين أهل النّار وخزنة جهنم يطلبون فيه تخفيف العذاب فلا يجابون إلاّ بتذكيرهم بكفرهم وإشراكهم الذي كانوا عليه في الحياة الدّنيا ويعترفون به فيعودون يائسين من النّجاة أو التّخفيف، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾[1].

إنّه مشهد الضّعفاء الذين لم تكن لهم في الدّنيا حرية الفكر والإرادة، فكانوا تبعا لغيرهم على طريق الكفر والضّلال، فجمعوا معهم في النّار وأنطقهم عذابها وكانوا من قبل لا ينطقون أمام أسيادهم، ولكنّه ألم العذاب الذي جعلهم يتحاجون.

وقد وصفهم التّعبير القرآني بصفاتهم التي كانوا عليها في الدّنيا (الضّعفاء) و(الذين استكبروا) وفي ذلك توبيخ لهم وتقريع، ولم يقل: (للمستكبرين) بل قال: (للذين استكبروا) للإيحاء بأنّ صفة الاستكبار قد انتهت ومضت بعد أنْ كانت ملازمة لهم.

ويؤثر السّياق القرآني في ذكر قول الضّعفاء تقديم ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ على ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا ﴾ تمهيدا ومقدمة للطلب لتعليله بتذكيرهم بالولاء الذي بينهم

---

(١) سورة غافر: الآيات ٤٧ – ٥٠.

في الدّنيا. وقد يكون قول الضعفاء ليس مستعملا في حقيقة الحث على التّخفيف عنهم ولكنّه مستعمل في التوبيخ[١]. والاستفهام في ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ ﴾ يوحي أيضاً باللوم على خذلانهم وترك الاهتمام بما هم فيه من عذاب، وأوثر التّعبير بالاسمية للدّلالة على الثّبوت، وفي ذلك إيحاء بتوبيخهم على أنّهم لا يمتلكون أي شيء من شأنه أنْ يغنيهم عمّا هم فيه، فضلاً عن تضمين (مغنون) معنى دافعون ورادون[٢]. وقولهم ﴿ نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ يوحي بطلب أي غناء ما، ولو كان قليلا، وهي دلالة تنكير (نصيبا) ودلالة (مِن) أيضاً.

ويأتي جواب ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ ﴾ على سبيل إظهار وصفهم في مقام الإضمار للتعريض بهم، وهو جواب الذّليل اليائس الذي فقد ذلك الاستكبار: ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ فلم نعد أولئك المتبعون. وقولهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ بمنزلة التّذييل، وفيه شعورهم بالخسران، وأن الله حكم بين العباد بجزاء أعمالهم فكان نصيبهم من الحكم هذا العذاب، وأكد قولهم بـ (إنّ) و(قد) للإيحاء بشدة يأسهم وعظيم ما هم فيه من ألم العذاب.

ثمّ يعرض التّعبير القرآني حوارا آخر يتوجه فيه أهل النّار إلى خزنة جهنم بعد أنْ أصبح لا فرق فيها بين الاتباع والمتبوعين. وآثر السّياق إظهار لفظ (جهنم) في موضع الإضمار بقصد تربية المهابة وإدخال الرّوع في ضمير السّامع[٣]. فها هم يتوجهون إلى خزنة جهنم بالقول ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾، (يوما) واحدا، ممّا يوحي بالكرب والألم الشّديد، فالتّنكير كناية عن القلة، أي يخفف عنا ولو زمنا قليلا. ويأتي جواب الخزنة على سبيل الاستفهام التّقريري الذي أريد به إظهار سوء صنيعهم بأنفسهم وتنديمهم على ما مضى منهم في الحياة الدّنيا، وذلك ادعى في إظهار النّدم فضلاً عمّا فيه من التّوبيخ والتّنديم والتّحسير. وقد جاء جواب الخزنة معطوفا بالواو عطف تلقين، وهو ما يناسب مقام التّوبيخ، وزيد هذا التّوبيخ بإسناد لفظ

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٦١/٢٤.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ١٦٢/٢٤.

(٣) =: البرهان في علوم القرآن: ١٣/٣.

الرسل إلى المخاطبين، وذلك أدخل في التّأنيب، وإيثار المضارع (تأتيكم) للإيحاء بتكرار ذلك وتجدده. وناسب هذا السّياق لفظ (البينات) فكانت دلائل صدق الرّسل واضحة بينة. وهكذا ما كان من أهل النّار إلاّ الاعتراف ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ وكفى بذلك جوابا لمَا كانوا يطلبون. ويقول لهم الخزنة: (فادعوا) فدعاؤكم لا يسمع ولا يستجاب كما لم تستجيبوا لدعوة الرسل من قبل، وهذه اللفظة جاءت كناية عن التنصل من أنْ يدعوا لهم لأنّهم قد عطلوا الأسباب التي يستجيب الله بها الدّعوات، وخلفوا وراءهم أوقات التّضرع والدّعاء في الدّنيا. وجملة ﴿ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ ﴾ يمكن أنْ تكون من كلام الخزنة ويمكن أنْ تكون من كلام الله، وقد أوثر فيه القصر بالنّفي والاستثناء زيادة نكاية بهم وبحالهم التي هم فيها، فالصّورة بهذا الحوار تظهر لنا جانبين: **الأوّل:** هذه الضّراعة البائسة الذّليلة الملهوفة لأخذ الأنفاس في يوم واحد فقط. **والثّاني:** هذه القوة وهذا التمكن والالتزام من الملائكة بتنفيذ أمر الله جل وعلا، والنّتيجة بين الجانبين هذا الذّل والازدراء والهوان لأهل النّار وبقاؤهم في العذاب.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وتعرض سورة غافر مشهدا آخر لأهل النّار من الذين كذبوا بالكتاب واختاروا طريق الضّلال وعطلوا ما وهبهم الله من نعمة الفكر وإعمال العقل، فاستحبوا العمى ولم ينظروا إلى آيات الله في كتابه، وعطلوا السّمع عنها وأبعدوه، فاستحقوا عذاب النّار بكلّ ما فيه من الإهانة والتّحقير والتّوبيخ. يقول الله (ﷻ) ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَـٰلُ فِيٓ أَعۡنَـٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[1].

إنّها صورة غاية في التّنفير والتّرهيب، مليئة بالخزي والمهانة، ولو كان

(١) سورة غافر: الآيات ٧٠ - ٧٦.

السحب سهلا لينا لكان أهون عليهم، ولكنّ الله (ﷻ) يقول ﴿ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ﴾[1] بهذه القوة والإهانة وهذا العنف والجفاء، يسحب أهل النّار، فلا كرامة ولا هوادة، والسلاسل والأغلال لن تفارقهم.

وقد جاءت الآية الثانية تفصيلا للإجمال الذي في قوله: (فسوف يعلمون) ويبدأ التّفصيل بـ (إذ) أي يعلمون في ذلك الزّمن، فقد عبر عن ظرف الاستقبال بظرف لا يقال إلاّ في الماضي وهو (إذ) لأنّ الأمر متيقن وقوعه، فحسن تأكيده بالخراج في صيغة الماضي[2].

ويعرض مشهد الكافرين وهم يسحبون إلى النّار والأغلال في أعناقهم والسّلاسل، يسحبون بكلّ هذه المهانة كما تسحب الأنعام، وتوحي صيغة المبني للمجهول (يسحبون) باستحضار الصورة وتقريبها لإدخال الرّعب في النّفوس والتّركيز على هذا الحدث بصرف النّظر عن فاعله. وينتهي بهم المطاف إلى ماء حار وإلى النار ﴿ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ ﴾، وقد أفادت (ثمّ) التّراخي الرّتبي فدلت على أنّ احتراقهم بالنّار أشد في تعذيبهم من سحبهم عليها، فجاء ذلك على سبيل التّرقي في وصف التّعذيب المجمل في قوله: (فسوف يعلمون). وقوله (يسجرون) من سجر التّنور إذا ملأه بالوقود، ومنه السّجور وهو ما يسجر به التّنور[3]، فأوحت هذه اللفظة بأنهم أصبحوا سجورا للنار، وتكون النّار سجورا لهم تملأ أجوافهم على سبيل الاستعارة التّبعية بتشبيههم بالتّنور في استقرار النّار بباطنهم.

ويستمر أسلوب التّرقي بإيثار العطف بـ (ثمّ) فيقال لهم قبل دخول النّار ﴿ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴾ على سبيل الاستفهام المستعمل في التّنبيه على الغلط، ولفضحهم في ذلك الموقف وتوبيخهم، فهي إهانة بالقول بعد الإهانة بالسحب والأغلال في الأعناق، فضلاً عمّا في هذا الاستفهام من إعلان خطل آرائهم وفساد

---

(١) سورة الدّخان: الآيتان ٤٧ و٤٨.

(٢) =: المحرر الوجيز: ٦٦/١٣.

(٣) =: مختار الصحاح، الفخر الرازي: ٢٨٧ مادة (سجر).

عبادتهم بين أهل المحشر وهو أشد على النّفس من ألم الجسد، وفي هذا أيضاً ارتقاء من جزائهم على إشراكهم إلى وصف تحقيرهم آلهتهم وهو أشد دلالة على بطلان تلك العبادة، وصيغة المبني للمجهول (قيل) لتحقق الوقوع وكأنّه وقع ومضى.

ويجيبون على هذا الاستفهام: ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي هلكوا وذهبوا عنا وتركونا في العذاب، وهو من ضلّ الماء في اللبن أي خفي، وقيل: أي صاروا بحيث لا نجدهم[1]، أو أنه بمعنى غيبتهم، من ضلّت دابته إذا لم يعرف مكانها[2]، فضلالهم استعارة لعدم نفعها لهم، فحضورهم كالعدم[3]، وفي كل ذلك تحقيرهم لآلهتهم.

ثمّ اعترفوا بأنّ عبادتهم الأصنام كانت باطلة فقالوا ﴿ بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗا ﴾ فقد كانت كلّها أوهاما وأباطيل، وبهذا القول يكتمل الاحتباك في نظم الآية إذ «ذكر الإشراك أوّلا دليلا على نفيهم له ثانيا، والدّعاء ثانيا دليلا على تقديره أوّلا»[4]. وعلى إثر هذا الجواب البائس يأتي التّذييل: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ على سبيل الاعتراض بين أجزاء القول. ويتواشج التشبيه والتذييل ليفيد أنّ إضلال جميع الكافرين يشبه إضلال هؤلاء المجادلين.

ويوجه إليهم التّأنيب الأخير ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ٧٥ ﴾، أي فالذي أنتم فيه من العذاب هو جزاء أعمالكم التي كنتم تفرحون بفعلها في الدّنيا بغير الحق وكنتم بها تمرحون، ولا يخفى ما بين (تفرحون) و(تمرحون) من الجناس غير التّام مما يسمى بالرجع[5].

والالتفات هنا للمبالغة في التّوبيخ لأنّ ذمّ المرء في وجهه، على سبيل

---

(١) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٣٣٣.

(٢) =: روح المعاني: ٢٤/٨٦.

(٣) =: محاسن التّأويل: ١٤/٥١٨١.

(٤) نظم الدرر: ١٧/١١٧.

(٥) الرّجع: «وهو من الجناس، وهو نوعان: المجتمع والمفرق: فالمجتمع: كلّ كلمتين جاءتا في الكلام المنثور على صنيعة واحدة في اللفظ والخط لا تخالف إحداهما الأخرى إلاّ بأوّل الحروف ثمّ يعود ما في كلّ واحدة من الكلمتين في الأخرى بغير زيادة ولا نقص مثل (تفرحون وتمرحون)»، معجم المصطلحات البلاغية: ٣/١٧.

الخطاب تشهير له. ثم تأتي الآية الأخرى لتعلن أنّ كلّ هذا التّوبيخ والتّحقير والإهانة كان قبل دخولهم النّار، إذ يقول الله (ﷻ) في هذه الآية ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾، هذا هو المصير والمنتهى، الخلود في جهنم، إنّها (مثوى المتكبرين) فبئس المثوى، وقد جاء هذا الذّم على سبيل البيان بعد الإجمال، وأوثر لفظ (مثوى) دون (مدخل) - والذي يقتضيه النظم الجليل حيث صدر بـ (ادخلوا) - لأنّ المثوى أدل على الخلود فهو أولى بمساءتهم، وعدل عن ضميرهم إلى الاسم الظّاهر (المتكبرين) للإشارة إلى أنّ من أسباب وقوعهم في النّار تكبرهم على الرسل[1]، فقد نشأت هذه المهانة عن ذلك التّكبر، وكان هذا التّحقير جزاء على ذلك الاستكبار.

❖❖❖❖❖

ولأهل النّار حوار آخر، ولكنّه حوار من نمط خاص، حوار مع أعضاء أجسادهم التي شهدت عليهم في يوم القيامة، وذكرتهم بأن الله الذي أنطقها بالشهادة عليهم هو الذي خلقهم أوّل مرّة وأنّه إليه يرجعون، ويذكرهم التّعبير القرآني بأنّهم كانوا يستترون من الله ويظنون أنّه لا يراهم وهم يتخفون بجرائمهم، وهذا ظنّ الجاهل الأثيم والذي قادهم إلى الجحيم وهي مثواهم الأخير خالدين فيه وقد خسروا كلّ شيء. يقول الله (ﷻ) ﴿ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[2].

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/٢٠٧.

(٢) سورة فصّلت: الآيات: ١٩ - ٢٥.

تأتي هذه الآيات بعد سياق تضمن موعظة المشركين بحال الأمم المكذبة من قبلهم وإنذارهم بعذاب الدّنيا الذي حلّ بها، وهنا انتقل إلى إنذارهم بما سيحل بهم في الآخرة.

وقد ابتدأت الآية الأولى بتضمين (يحشر) معنى يرسل ولذلك عدّي بـ (إلى)، ويوحي البناء للمجهول بطواعية الحدث والاهتمام به دون محدثه، ويتناسب إيثار (يحشر) مع وصف الكافرين بـ (أعداء الله) للتعميم، ولذمهم والإيذان بعلة ما يحيق بهم من ألوان العذاب، ويتناسب هذا مع قوله: (فهم يوزعون) أي يحجز أولهم حتى يجتمع عليهم آخرهم[١]، فيساقون ويدفعون إلى جهنم، وفي ذلك إيحاء بكثرة المحشورين على سبيل الكناية، ويستمر هذا السّوق المهين ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ بزيادة (ما)[٢] لتأكيد حصول الشّهادة عند المجيء، وهنا ينتهي السّوق بـ (حتى) التي تعلن انتهاء السّوق وابتداء مرحلة جديدة، يسأل عنها كلّ مَن يسمع هذه الجملة: ماذا حصل آنذاك؟ فيأتي الاستئناف البياني جوابا على سبيل الفصل ﴿ شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ ويتضمن ذلك أنّهم حوسبوا على أعمالهم وأنكروها فشهدت عليهم جوارحهم وأجسادهم[٣]. وهكذا يتواشج الفصل وإيجاز الحذف، وفي ذكر شهادة الجوارح زيادة خزي لهم ومهانة وتحسير وتنديم على سوء ظنهم في سعة علم الله.

ويتواشج في نظم الآية الإيثار والتّناسب والتّدلي، إذ يتمثل الإيثار بتخصيص (السّمع والأبصار والجلود) بالشّهادة، فللسّمع اختصاص بتلقي الدّعوة وآيات القرآن، فهو يشهد عليهم بصرفهم إياه عن سماع ذلك، وللإبصار اختصاص برؤية دلائل

---

(١) =: المحرر الوجيز: ٩٦/١٣.

(٢) «لم تأت (ما) في الآية ٣٨ من سورة الزّخرف والآية ٧١ و٧٣ من سورة الزمر، والسّبب أنّه إذا قصد توكيد معنى الشّرط الذي تضمنته (إذا) لقوة معنى الجزاء استعملت (ما) بعدها، وإذا لم يقصد ذلك لقرب معنى الجزاء من الشّرط لم يستعمل (ما) بعدها. وفي آية سورة فصلت شهادة السّمع وسائر الجوارح من المعاني القوية التي لا يقتضيها الشّرط الذي هو المجيء وليس كذلك الآيات الأخرى لأنّ المجيء يقتضي فتح الأبواب فضلاً عن أنّ المكان مكان اختصار وحذف لمَا لا بدّ للكلام مِنه فكيف يزاد فيه ما يستغنى عنه!» درة التّنزيل وغرة التّأويل: ٤١٨.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٦٦/٢٤.

القدرة، ولأنّ الجلد يحوي جميع الجسد، ولذلك اقتصرت ملامتهم على الجلود ولأنّها مواجهة لهم[١]. ولم يذكر (الذّوق والشّم) لأنّ الذّوق داخل في اللمس، والشّم حسّ ضعيف في الإنسان وليس لله فيه تكليف ولا أمر ولا نهي[٢]. وقد يكون التّعبير بالجلود كناية عما لا يحسن ذكره أدبا، وفي ذلك إضاءة مشرقة للتعبير المهذب بمَا يدل على المعنى المراد دون الدّخول بنبو الألفاظ وعنت الكلام، والكناية عن الموصوف هنا تربي الذّوق وتعلم الإنسان كيف يضع الكلمة في موضعها ليرق إحساسه ويخصب شعوره ويتقرب إلى العالم المثالي، وهذا هدف من أهداف التّعبير الكنائي، والذي لم يكن هنا مجرد إثراء لفنية التّعبير، وإنّما كان ضرورة يتطلبها الموقف لأنّ اللفظ الصّريح تشمئز مِنه النّفس ويعافه الذّوق لمجافاته الآداب والقيم الاجتماعية. والذي يرجح القول بالكناية أنّ الجوارح كلّها قد ذكرت في القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ما عدا الفرج، فكان حمل الجلد عليه أولى ليستكمل ذكر الجميع، وكذلك ليس في الجوارح ما يكره التصريح بذكره إلاّ الفرج، فكنى عنه بالجلد لأنّه موضع يكره التّصريح فيه بالمسمى على حقيقته[٣].

وللتّعبير الكنائي أبعاده النّفسية ولا سيّما في الخفاء والسّتر الذي يسدل على المعنى المراد مع التلويح له والإشارة إليه ممّا يجعل المعنى أوقع في النّفس، والصّورة أقدر على إحداث الاستجابة المناسبة لأنّ المتلقي يحتاج إلى شيء من الرّؤية وإعمال العقل للوصول إلى المعنى المراد، والمعاناة والتّفكير في سبيل هذا الوصول يشعر المتلقي بالمتعة والسّعادة لأنّ النّفس بطبيعتها تشعر بذلك حينما تظفر بشيء بعد طول معاناة[٤].

وقد توجهوا بالسّؤال إلى الجلود ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ وهو كناية عن التّعجب إذ شهدت بما يوجب إيلامها. ومعاتبتهم لها معاتبة لكلّ الجوارح - على تفسير أنّ الجلود هي الجلد الذي يغطي سائر الجسد - أمّا ذكر السّمع والبصر فربّما لأنّهما ممّا يدعوان النّفس إلى ارتكاب الخطأ، فلو عدم الإنسان السّمع والبصر فسيعدم كثيرا ممّا

(١) =: م. ن: ٢٦٧/٢٤ - ٢٦٨.

(٢) =: التّفسير الكبير: ١١٦/٢٧.

(٣) =: المعاني الثّانية في الأسلوب القرآني: ٧٣.

(٤) =: الأسس النّفسية لأساليب البلاغة العربية: ٢٣٠.

يدعوه إلى الخطيئة، والله أعلم.

ويستأنف الحوار مع الجلود ﴿ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي أنطقنا بهذه الشهادة، فهو الذي جعل الألسنة هي النّاطقة، وهو القادر على أنْ يجعل سواها كذلك، وهو الذي خلقكم أوّل مرّة وإليه ترجعون، ويوحي كلّ ذلك بإلجامهم وردّ مقالتهم وتعجبهم على ما فيه من التّقريع والتّوبيخ، ويستكمل كلّ ذلك في الآية الأخرى ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ بالالتفات إلى خطابهم بشكل مباشر على أنّ هذا يمكن أنْ يكون من قول الجوارح أو من قول الله تعالى أو الملائكة، والمعنى: ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذرا من شهادة الجوارح عليكم، والاستخفاء هنا التّرك والاتقاء[1]، وأوثر (السّتر) على (الحجاب) وغيره لما في (السّتر) من الإيحاء بالوهن، و(الحجاب) يدل على المنع والحجز ولا ترادف بينهما[2].

ثمّ يلزمهم الكفر والجهل بإلزامه إياهم الظن بأنّ الله لا يعلم: ﴿ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾، ثم يشير إلى هذا الظن باسم الإشارة (ذلكم) لتمييزه أكمل تمييز وتشهير شناعته، وللإيذان بغاية بعد منزلته في الشّر والسّوء. والعدول عن اسم الله إلى (ربّكم) للتنبيه على ضلال ظنهم إذ ظنوا خفاء بعض إعمالهم عن علمه وهو خالقهم، فكيف يخلقهم وتخفى عنه أعمالهم! واستعير الإرداء للإهلاك والإيقاع في سوء الحالة، وإيثار الصيغة الفعلية في المسند (أرداكم) أفاد قصرا إضافيا، أي ما أرداكم إلاّ ظنّكم ذلك وليست شهادة جوارحكم[3]، وقد نسب الإرداء إلى الظّن على سبيل المجاز العقلي[4]. وقوله ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ تمثيل لحالهم إذ شبه حالهم بحال التّاجر الذي استعد للربح - في ظنه - فوقع في الخسارة[5].

ويلتفت النظم القرآني عن خطابهم إلى عرض حالهم لغيرهم على سبيل

---

(١) =: الجامع لأحكام القرآن: ٣٥٢/١٥.
(٢) =: ظاهرة التّرادف في ضوء التّفسير البياني للقرآن: ٥٧.
(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٧٢/٢٤.
(٤) =: المعاني الثّانية في الأسلوب القرآني: ١٢٥.
(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٢٧٢/٢٤.

الغيبة للإشعار بإبعادهم عن حيز الخطاب والإبقاء في غاية دركات النّار، وذلك في قوله تعالى ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ وأوثر في الشرط (إنْ) لأنّها تأتي للشّرط غير متحقق الوقوع، فينتفي بذلك الصّبر والاستعتاب. وتنكير (مثوى) للتهويل، فهي محل ثواء وإقامة لا خلاص لهم منها، ويا له من صبر لا يعقبه إلاّ العذاب والألم، وليس لهم فيه وبعده عتاب أو صفح ورضا، فاليوم يغلق الباب في وجه العتاب، فالله لا يقبل العتبى منهم.

ويستكمل المشهد بذكر سبب ضلالهم الذي نشأت عنه أحوالهم تلك بقوله تعالى ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ فهو كشف لسلطان الله في القلوب وهي ما زالت بعد في الأرض تستكبر عن الإيمان بالله، ويوحي التّقييض بكلّ ما يوجب التّآلف والتّحاب بين الجماعات من الطرفين، وهؤلاء القرناء - بفعل التقييض - يستولون عليهم استيلاء القيض على البيض وهو القشر[(١)].

وقوله ﴿ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ كناية عن الأمور المشاهدة والأمور الغيبية، فالمصير السّيئ هو نتيجة لتأثرهم بهؤلاء، والعبرة من ذلك أنّ الشّر كثيرا ما يصيب الإنسان من تأثير البيئة الفاسدة المحيطة به، ولا سيّما أنّ لفظ (القرناء) يشمل الجن والإنس بدليل قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾[(٢)]، أمّا تنكير (أمم) في الآية فللتكثير، وقدم ذكر (الجن) على ذكر (الإنس) لأنّه الأقوى «لتفهم القدرة عليه القدرة على ما دونه من باب الأولى فإنّ الإنس كانوا يعدون أنفسهم دون الجن فيعوذون بهم»[(٣)]، فاستقروا في هذا المصير مع القرناء فخسروا الدّنيا والآخرة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي آيات أخرى من سورة فصلت تنبئنا بأنّ النّار دار خلد لأعداء الله جزاء

---

(١) =: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٦٣٣.

(٢) سورة فصّلت: من الآية ٢٩.

(٣) نظم الدرر: ١٧٦/١٧.

كفرهم وضلالهم وفي هذه الدّار نسمع صوت هؤلاء لا يطلبون نجاة أو تخفيف عذاب، ولكنْ يريدون قرناءهم الذين أضلوهم من الجن والإنس ليجعلوهم تحت أقدامهم وأسفل مِنهم وهم جميعا في العذاب وذلك في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

تأتي هذه الآيات في سياق التّهديد والوعيد للكافرين ورداً على مقولتهم المنكرة وقد بدأ التّهديد بقوله تعالى ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ فهذه الآيات بيان لهذا الجزاء، وهو (النّار) وصفة النّار هنا تجمع بين المكان والزّمان، فمعنى قوله ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ﴾ إنّ النّار بعينها دار الخلد كقوله تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[2] فالحرف (في) للتجريد «وهو أنْ ينتزع من أمر ذي صفة آخر مثله مبالغة فيها»[3]، فلفظ (الدّار) هو للدلالة المكانية، ولفظ (الخلد) للدلالة الزّمانية، فالنّار هي مكانهم الدائم يخلدون فيها وفي عذابها، وفي لفظ (الدّار) دلالة تهكمية وسخرية لاذعة لأنّ هذه الدّار لا راحة فيها ولا استقرار. وتقديم (بآياتنا) للاهتمام ولرعاية الفاصلة، وأوثرت صيغة المضارع في (يجحدون) للدّلالة على تجدد الجحود وتكرره وعدي (يجحدون) بالباء على سبيل التّضمين لمعنى (يكذبون)[4].

وتطلعنا الآية الأخرى على هول المشهد إذ نسمع قول المخدوعين يملؤه الحقد والغضب على القرناء ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ وقد وصف هذا القول بصيغة الماضي (قال) للدلالة على تحقق الوقوع، وطلب الرّؤية في (أرنا) كناية عن إرادة الانتقام منهم بعد أنْ كانوا تبعا لهم وكان القرناء مثلا لهم في الاقتداء، ولكنّهم اليوم يريدون جعلهم (مِن الأسفلين) ليكونوا أحقر منهم،

(١) سورة فصّلت: الآيتان ٢٨و٢٩.

(٢) سورة الأحزاب: من الآية ٢١.

(٣) روح المعاني: ١١٩/٢٤.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٨٠/٢٤.

فالسفالة هنا مستعارة للإهانة والحقارة، وهم جميعا في دار الخلد نار جهنم.

❖❖❖❖❖

وفي سياق آخر من سورة فصّلت يشير التّعبير القرآني إلى أنّ أمر السّاعة وعلمها عند الله وحده، ويصور علم الله بصورة موحية تمس أعماق القلوب وذلك في الطّريق إلى عرض مشهد من مشاهد القيامة يتخلله حوار آخر، وذلك في قوله تعالى ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾[1].

فكلّ ما ذكره الله تعالى هو في علمه، وعلمه به محيط، وتذهب النّفس تتأمل في كلّ ذلك، فالسّاعة غيب، والثّمرات في أكمامها سرّ غير منظور، والحمل في الأرحام مستور، فترتسم في الضّمير صورة لعلم الله لا تحدها حدود. وقد بدأ النّظم القرآني بذكر السّاعة لأنّهم كانوا ينكرونها، وتقديم المجرور على متعلقه لإفادة الحصر، أي إلى الله وحده لا إلى غيره، ويستكمل هذا المعنى بإيثار صيغة المبني للمجهول (يرد) دون ذكر أي فاعل لعدم وجود فاعل يعلم علمها فيرده إلى الله، ولا يخفى ما بين (تحمل) وبين (تضع) من طباق أوحى بإيجاز بليغ بسعة علمه تعالى في كلّ ذلك، و(من) الأولى لتأكيد الاستغراق والنّص عليه، و(مِن) الثّانية ابتدائية[2]، فبينهما جناس تام.

وفي كلّ ما ذكر ليس له تعالى شريك، ولكن الكافرين قد ندوا عن إدراك حقائق القدرة الإلهية، فكانوا قطيعا ضل فاستحق النّداء يوم القيامة ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى ﴾ على سبيل التّهكم بهم والتّقريع لهم إذ زعموا له شركاء. فيجيبون: (آذناك)، أي أعلمناك، واعترفنا أنّ ليس مِنا اليوم من يشهد أنّك لك شريك. وتنكير (شهيد) لنفي وجود أي شهيد ولا سيّما بعد (مِن) التي تفيد التّنصيص على العموم. ونفي الشّهادة على لسانهم كناية عن التّبرؤ عن كلّ ما كانوا يعبدون من الشركاء، وقد

---

(١) سورة فصّلت: الآيتان ٤٧و٤٨.

(٢) =: روح المعاني: ٢/٢٥.

يكون المعنى: ليس مِنا أحد يشاهدهم، فشهيد من الشّهود بمعنى الحضور والمشاهدة[١]. وهذا يتناسب مع قولهم السّابق في الآية الكريمة ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾[٢]، ويتناسب أيضاً مع ما بعده وهو قوله تعالى ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾[٣]، فقد غاب عنهم ما كانوا يدعون من قبل وأيقنوا أنْ لا محيص لهم من العذاب بعد أنْ كانوا يظنون - واهمين - أنّ الشّركاء سيدفعون عنهم ذلك.

❖❖❖❖❖

وتطالعنا سورة الشّورى بمشهد من مشاهد القيامة وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾[٤].

يصور هذا المشهد موقفا من مواقف الظّالمين في ذلك اليوم، وهم في مشهد الذّل والانكسار إذ كانوا في الدّنيا طغاة متكبرين، وتبدأ الآية بالخطاب (وترى) والخطاب قد يكون للنبي (ﷺ) تسلية له على ما لاقاه منهم، وقد يكون لغير معين فقد تناهت حالهم في الظّهور فلا يختص به مخاطب، والمراد الإخبار بحالهم أولا والتّعجب مِنه ثانيا، فبدأت الآية بالخطاب للاعتبار بحالهم[٥]، فضلاً عن دلالة المضارع (ترى) وأثره في استحضار مشهدهم.

وبعد الخطاب يعلن عن أصحاب هذا المشهد (الظّالمين)، وليجسد ذلك الحال حاضرا يبدأ المشهد بـ (لما) لينتقل المخاطب إلى زمان الحدث أو ينقل الحدث إلى المخاطب، فهي ظرف بمعنى (حين)[٦]، وجاء بعدها قوله: (رأوا العذاب) «بصيغة الماضي للتنبيه على تحقق وقوعه، فالمضي مستعار للاستقبال تشبيها للمستقبل بالماضي في التحقق، والقرينة فعل (ترى) الذي هو مستقبل، إذ ليست الرّؤية المذكورة

(١) =: م. ن: ٣/٢٥.
(٢) سورة غافر: من الآيتان ٧٣ و٧٤.
(٣) سورة فصّلت: من الآية ٤٨.
(٤) سورة الشّورى: الآية ٤٤.
(٥) =: التّحرير والتّنوير: ١٢٥/٢٥.
(٦) =: الجنى الداني: ٥٣٨.

بحاصلة في الحال فكأنّه قيل: لمّا يرون العذاب»[١] ورؤيتهم العذاب هنا رؤية عين[٢].

وزاد المشهد حيوية وحضورا الفعل (يقولون) وهو أيضاً ممّا يؤكد أنّ الفعل (رأوا) بمعنى (يرون) ليعبر عن الحال الذي هم فيه من الذّل والحيرة والشّدة التي لم يفكروا أثناءها بشيء سوى النّجاة من العذاب. ويأتي بعد ذلك التّحسير، فيطلقون صرختهم ﴿ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ «وهذه الصيغة موحية باليأس مع اللهفة، والانهيار مع التطلع إلى أي بارقة للخلاص»[٣]. وجاء القول مبتدأ بـ (هل) وهو استفهام إنكاري في معنى النّفي، ثمّ قولهم: (إلى مرد) والذي عبر عن الغاية التي يريدون الوصول إليها بعد رؤيتهم العذاب وهي تمني الرّجعة إلى الدّنيا كما في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[٤].

وقد اختير (المرد) هنا وهو مصدر ميمي دون بقية المصادر وذلك لأنّ المصدر الميمي - في الغالب - يحمل مَعه عنصر الذّات بخلاف بقية المصادر، فضلاً عن أنّ المصدر الميمي يحمل معنى لا يحمله المصدر الآخر وهو الغاية أو النّهاية أو المنتهى[٥]، فالمرد هو منتهى الرّد الذي أراد هؤلاء الوصول إليه بذاتهم.

وهكذا جاء التّعبير القرآني دقيقا في التّعبير عن اللّهفة والتّطلع الذي بداخلهم، فقد تمنى الظّالمون الخلاص مما هم فيه إلى نهاية لا يعودون بعدها لرؤية العذاب، وقد أرادوا الانصراف أو الصرف الذي لا رجعة بعده، لأنّ (المرد) مصدر (رده) أي صرفه[٦]، «ويجوز أنْ يكون (مرد) بمعنى الدفع، أي هل إلى ردّ العذاب عنا الذي يبدو لنا سبيل حتى لا نقع فيه»[٧].

ويصعد يأسهم وتزداد حسرتهم بتمنيهم لأي سبيل مهما كان، بدخول (مِن) على لفظة (سبيل) وهي نكرة، فأفادت التّنصيص على العموم وأكدت أنّ الاستفهام قد

---

(١) التّحرير والتّنوير: ١٢٥/٢٥.
(٢) =: المحرر الوجيز: ١٨٥/١٣.
(٣) في ظلال القرآن: ٣١٦٨/٥.
(٤) سورة الأنعام: الآية ٢٧.
(٥) =: معاني الأبنية في العربية: ٣٤ - ٣٥.
(٦) =: تاج اللغة وصحاح العربية: ٤٧٣/٢ مادة (ردد).
(٧) التّحرير والتّنوير: ١٢٥/٢٥.

خرج إلى التّمني، ولا شكّ في أنّ تنكير (سبيل) أفاد التّقليل إلى حد الغاية[١]، فلا سبيل إلى ما يتمناه هؤلاء.

وهكذا نستحضر سياق الحال الذي هم فيه فنجدهم نفوسا مملوءة بالانهيار واليأس الممتزج باللهفة والتمني لشيء لا يمكن أنْ ينال، ومِن كلّ ذلك تكون العبرة والموعظة لكلّ مَن يقرأ الآية أو يسمعها فليس له إلاّ الامتثال لأمر الله وتجنب نواهيه من قبل أنْ يأتي يوم لا نفع فيه للتّمني والنّدم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سورة الزّخرف نرى مشهدا آخر يجمع بين الكافر وقرينه، الكافر الذي كان يعشو عن ذكر الرّحمن فقيض له الله قرينا يصده عن السّبيل ويزين له طرق الضّلال ويلازمه ويصاحبه على سبيل الاستمرار والتّجدد يشغله عن ذكر الله حتى تكون المفاجأة. يقول الله (ﷻ) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ۝٣٨ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ۝٣٩ ﴾[٢].

هذه هي المفاجأة، تبدأ بـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾ فتعلن نهاية الحياة ويبدأ مشهد جديد من مشاهد الآخرة تؤثر فيه صيغة الماضي (جاءنا) و(قال) للإيحاء بتحقق وقوعه، ويبدأ قول الكافر وهو في هذا المشهد المفزع أمام العذاب بالنّداء بـ (يا ليت)، وفيها نجد تلهفا وندما وظمأ لا يروى، وفي استطالة صوت النّداء بها تعبير عن الآمال الحبيسة والرّغائب التي لا سبيل إلى تحقيقها ممّا يزيد النّفس بها تحرقا واستعارا، وفي تمني ما لا سبيل إليه استعطاف واعتذار وقد يكون لمجرد موافقة الخاطر والتّرويح عن النّفس ممّا ألم بها[٣].

ويتناسب مع كلّ ذلك إيثار لفظة (بعد) لأنّها «ضد القرب وليس لها حدود وإنّما ذلك بحسب اعتبار المكان بغيره، يقال ذلك في المحسوس وفي المعقول»[٤]. والتّعبير بـ (المشرقين) جاء على سبيل التّغليب، فإنّه يتمنى أنْ يكون ما بينه وبين قرينه

---

(١) =: لغة القرآن الكريم: ٣٤١.

(٢) سورة الزّخرف: الآيتان ٣٨ و٣٩.

(٣) =: دلالات التّراكيب: ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ٥٠ و٥١.

من البعد ما بين المشرق والمغرب، «فغلب المشرق لشهرته ولأنّ الشّرق دال على الوجود والغرب دال على العدم، والوجود أشرف لا محالة»[١]، فضلاً عمّا أفاده التّغليب من الإيجاز وجاء قول الكافر (فبئس القرين) على سبيل الإيغال بعد أنْ أتمّ ما أراد من قول.

ويأتي الخطاب لهؤلاء ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ وقد طوي من الكلام ما تقديره: «لا تلقوا التّبعة على القرناء فأنتم مؤاخذون بطاعتهم وهم مؤاخذون بإضلالكم»[٢]. وقد اجتمع في الآية دوال ثلاثة على أزمنة، فـ (لن) لنفي المستقبل، و(اليوم) لنفي الحال، و(إذ) لزمن المضي، وكأنّه أراد أنّ تقرير عدم النّفع إنّما بدأ من بدء ظلمهم[٣].

وهكذا يسدل السّتار على الجميع بكلمة التّيئيس، فالعذاب كامل لا تخففه الشّركة ولا يتقاسمه الشّركاء، ومثلما كانوا يشتركون في الضلال فهم يشتركون اليوم في العذاب وقد انقلبت تلك المصاحبة والملازمة إلى كراهية وذم وتمني البعد فيما بينهم في وقت لا تتحقق فيه أماني الكافرين.

❖❖❖❖❖

تتجسد الحالة النّفسية لأهل النّار في مشهد آخر من مشاهد العذاب حيث الخلود في جهنم واستمرار عذابها لهم دون تخفيف أو فتور، وقد غشي نفوسهم اليأس وأنهكت قواهم النّار، ليدخلوا في حوار جديد مع خزنة جهنم، ولكنّهم هنا لا يطلبون تخفيف العذاب أو دفعه ولا يطلبون أي سبيل للخروج، وإنّما يطلبون الموت، وقد فات أوان الإجابة مثلما لم يستجيبوا لدعوة الرّسل، وكلّ ذلك في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[٤].

---

(١) فن البلاغة: ١٩٣.

(٢) التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢١٤.

(٣) =: أساليب النفي في القرآن الكريم: ١٢٤.

(٤) سورة الزّخرف: الآيات ٧٤ - ٧٨.

جاءت هذه الصّورة على سبيل التّقابل مع ذكر صورة المؤمنين في الجنة[١]، وكأنّ سائلا يسأل عن وصف أحوال المشركين بعد وصف أحوال المؤمنين في الآيات السّابقة، فكانت هذه الآيات استئنافا بيانيا لذلك على سبيل الفصل.

وقد بدأت بالتوكيد بـ (إنّ) لتقوية الخبر وتحقق وقوعه، ووصفهم بـ(المجرمين) يوحي باستحقاقهم ما سيأتي ذكره من العذاب، وقدم قوله ﴿ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ ﴾ على (خالدون) للاهتمام بذكره، ولأنّ النّفس تشتاق إلى معرفة مصير هؤلاء المجرمين، فضلاً عن المشاكلة في الفواصل - والتّعبير بالاسمية (خالدون) يفيد ثبوت الحكم وتوكيده.

وجاءت الآية الأخرى لتصف هذا العذاب مع وصف حالتهم النّفسية فيه، فهو عذاب دائم، لا يفتر لحظة ولا يبرد هنيهة ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص، فهم فيه يائسون قانطون[٢]. وضمير الفصل (هم) أفاد قصر اليأس عليهم، وقد أفاد حرف الظّرفية (فيه) أنهم منغمسون في اليأس وكأنّه ظرف لهم وهم مظروفون فيه.

ولمّا كانت حالتهم هذه تستدعي التّأثر والرّقة لمَن يسمعها ويشاهد صورتها اللفظية من خلال النظم القرآني، فقد جاءت الآية الأخرى لنفي استعظام خلودهم في العذاب ونفي الرّقة لحالهم المحكية، فهو الجزاء العدل الذي لا يشوبه ظلم، وإذا كان ثمة ظلم فهو مقصور عليهم وهو ما أفاده ضمير الفصل (هم) فضلاً عن إفادته التّوكيد والتّخصيص[٣].

وفي الآية الأخرى تتحرك ألسنة النّفوس اليائسة بنداء يتصاعد من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم، لا يطلب النجاة ولا الغوث ولا يطلب تخفيف العذاب، لأنّ اليأس قد ملأ النّفوس التي أيقنت بأنّها خالدة في النّار، ولكنّه النّداء بطلب الهلاك السّريع علّه يريحهم من شدة العذاب، ولكنْ هيهات، إذ هم في نار جهنم ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾[٤]، وهكذا أصبح الموت أمنية، وحسب

---

(١) =: سورة الزّخرف: الآيات ٧٠ - ٧٣.

(٢) =: في ظلال القرآن: ٣٢٠٢/٥.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥٨/٢٥ - ٢٥٩.

(٤) سورة فاطر: من الآية ٣٦.

المنايا أنْ يكن امانيا.

والنّداء هنا لمالك خازن النّار، وأوثرت فيه صيغة الماضي (ونادوا) للإيحاء بتحقيق وقوعه، وقرئ نداؤهم لمالك بحذف الكاف على سبيل التّرخيم (يا مال)[(١)]، والحذف المعلل بكثرة الاستعمال يعتري الأسماء فترخم بحذف آخرها في النّداء، ولذلك فإنّ أهل النّار لمّا كثر دعاؤهم ونداؤهم لمالك، فكأنه كثر استعمالهم لهذه الكلمة فعمدوا إلى التّرخيم لكثرة الاستعمال، فضلاً عن أنّ الترخيم يدل على ضعفهم وهلاكهم الذي ألجأهم إلى الإيجاز بالتّرخيم نتيجة عجزهم عن لفظ الكلمة كاملة، وهكذا تمتزج كثرة الاستعمال مع الرّغبة في التّحقيق بالحذف، فلم يكن التّرخيم مِنهم تفننا في الكلام وتصرفا فيه بل للعجز وضيق المجال عن الإتمام[(٢)]، وفيه يتجلى بعد نفسي ينبئ عمّا بداخلهم من العجز واليأس والضّعف.

ويجيبهم مالك بكلام مؤكد بـ (إنّ) وبصيغة اسم الفاعل (ماكثون) التي تدل على ثبوت الوصف، أي أنّ الأمر قد تمّ وانتهى[(٣)].

وفي ظل هذا المشهد يخاطب هؤلاء الكارهون للحق، المعرضون عن الهدى، الصّائرون إلى هذا المصير ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ فكراهة الحق هي التي كانت تحول بينهم وبين اتباعه، ونسبت كراهته إلى أكثرهم لأنّ من الأتباع مَن يكفر تقليدا[(٤)]، وأوثر تقديم (للحق) على (كارهون) للاهتمام به وتنويها به، فضلاً عن المشاكلة في الفواصل.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سورة الدّخان ننظر إلى مشهد آخر يعرض طعام أهل النّار، ويعرض ما هم فيه من الإهانة والذلّ والتّحقير حيث الأخذ والعتل وصبّ العذاب فوقهم، وتذكيرهم بأنّ هذا العذاب هو جزاء ما كانوا يفعلون، وكلّ ذلك في قوله (ﷻ) ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾

(١) =: الجامع لأحكام القرآن: ١١٦/١٦.

(٢) =: روح المعاني: ١٠٢/٢٥.

(٣) =: معاني الأبنية في العربية: ٤٧.

(٤) =: محاسن التّأويل: ٥٢٨٧/١٤.

خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[١].

أوّل لوحة في هذا المشهد تظهر فيها شجرة الزّقوم التي خصصت طعاما للأثيم، فيبدأ المشهد بهذا العرض المفزع والمخيف وقد أكد بـ (إنّ)، وينبثق الفزع من صورة هذه الشجرة التي رسمها النّظم القرآني في قوله تعالى ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾[٢] وهذا التّصوير يثير الفزع والرّعب، فكيف بهم وهم يأكلون طلعها ويملؤون منه البطون؟ ولكنّه الطعام الذي لا يذهب الجوع ولا يريح البدن، لأنّه يغلي في البطون كالمهل - على سبيل التّشبيه المرسل - والمهل هو النّحاس المذاب، يغلي كما يغلي الماء الحار، فهذا التشبيه قد جعل المشهد مصدرا للخوف والفزع والقلق النفسي. هذا هو طعام أبي جهل[٣] وأصحابه وطعام أهل النّار ذلك أنّه قال: يعدنا محمد أنّ في جهنم الزّقوم، وإنّما هو الثّريد بالزبد والتّمر، فبين الله له خلاف ما قاله[٤].

وفي الآية الأخرى تتحرك شخوص المشهد حركة تنبئ بالذّل والمهانة، فجملة (خذوه) مقول قول محذوف، أي يقال لملائكة العذاب (خذوه) وفي هذه اللفظة تهوين من شأنه بسلب كلّ إرادة أو كيان معنوي مِنه فهو مجرد شيء ينقل من مكان إلى آخر[٥]، ولا سيّما أنّ الأمر صدر إلى جمع (خذوه) والمأخوذ واحد فكيف سيكون حاله بينهم؟

وفي الآية الأخرى زيد المشهد عنفا باستعارة (الصبّ) للتقوية والإسراع بقصد التّرويع حيث شبه العذاب بالحميم الآني الشّديد الحرارة ثمّ حذف المستعار منه ودلّ عليه رادفه فعل (صبّوا) فالاستعارة المكنية توحي بلذع العذاب الشّديد، فضلاً عن دلالة اللفظ على الحركة السّريعة والانقضاض من فوق بتحدر وغمرة طاغية، ويوحي جرسه

(١) سورة الدّخان: الآيات ٤٣ - ٥٠.

(٢) سورة الصّافات: الآيتان ٦٤ و٦٥.

(٣) =: لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السّيوطي، ٦٥٩.

(٤) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/١٥٠.

(٥) =: الكناية في القرآن الكريم: ٢٠٢.

الصّوتي بالشّدة والقوة معا، وإيحاءاته تهدف لإثارة الشّعور والوجدان وتمهد لإحداث الاستجابة النّفسية تأكيدا للمعنى في النّفس لتجتنب ما يسخط الله[1]. وقد حدد القرآن جهة الصّب (فوق رأسه) ليفيد الشّمول المبتدأ من مركز الرّأس ويصيب جميع أجزاء الجسد. وقد زيدت (من) للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع، وقوله ﴿ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ دون أنْ يقول: (مِن الحميم) تهويل وسلوك لطريق الاستعارة لأنّه إذا صب عليه الحميم فقد صبّ عليه عذابه وشدته[2]، وكأنّ ذكر لفظ (عذاب) يوحي باستمرار الألم لأنّ الحميم إذا صبّ زال ألمه بعد حين، ولكنْ صبّ العذاب يوحي بالاستمرار لهذا الألم. وفي صبّ العذاب من فوق تذكير بما كان لهم من البركة بما ينزل من السّماء من المطر ولم يشكروا الله على تلك النّعم، فضلاً عن أنّ صورة العذاب هنا قد اجتمع لهم فيها حر الظّاهر بالحميم والباطن بالزّقوم[3].

ومع الشد والجذب والدّفع والعتل والكي والصّب يأتي عذاب آخر وهو العذاب المعنوي من تأنيب وسخرية وترذيل، تصوره لنا الكناية القرآنية ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾، وتتواشج في هذا النّظم الاستعارة التهكمية في الذّوق والكناية القائمة على عكس ما يؤلف استعمال اللفظ فيها إذ يدل على ضده، ليظهر هذا التّواشج صورة أبي جهل بهذه السّخرية اللاذعة وهي جزاء سخريته بدعوة الرّسول (ﷺ) وتتجلى هذه السّخرية في أنّ نار جهنم ليس لها طعم ليتذوقه الكافر فيكون ذلك أغيظ للمستهزأ به وأشد إيلاما له، فضلاً عمّا في صيغة الأمر (ذق) من الإهانة ولا سيّما أنّه لم يطلب شيئا ليذوقه وأنّه ليس مما تشتهيه نفسه، وضمير الفصل (أنت) أفاد القصر، وقد جاءت هذه الكناية مقول قول محذوف أي قولوا له أو يقال له. وفي ذكر (العزيز الكريم) تهكم بعلاقة الضّدية والقصد (الذّليل المهان)، فقد كان يتعزز ويتكرم على قومه معتقدا أنّه لم يخلق من هو أعز مِنه وأشرف، فإعادة كلمات العزة والكرامة والكبرياء على مسامعه طعنة له على سبيل التّهكم والسّخرية، فضلاً عن أنّ هذا المشهد يوحي بأنّ الإيمان يكسب أصحابه التّواضع وشرف المنزلة. والكفر يزيد أصحابه عتوا وفسادا ويوصلهم

(١) =: البنى والدّلالات في القصص القرآني، دراسة فنية، عماد عبد يحيى: ٢٦٨، (أطروحة دكتوراه).

(٢) =: تفسير غرائب القرآن: ٢٥/٨٧.

(٣) =: نظم الدرر: ١٨/٤٦.

إلى الهلاك[١].

ثمّ يختم المشهد باستكمال القول ﴿ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝ ﴾ للإيحاء بالتّنديم والتّوبيخ، واسم الإشارة أشير به إلى العذاب الذي هم فيه، فقد كانوا يشكون في هذا اليوم ويسخرون ويستهزئون.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي مشهد آخر من مشاهد العذاب ينفى عن أهل النّار فائدة ما كانوا يكسبون كما تنفى عنهم فائدة شركائهم الذين اتخذوهم أولياء من دون الله، وذلك في قوله تعالى ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾[٢].

فالعذاب المهين الذي يهدد به الكافرون حاضر قريب، وتوحي بقربه الاستعارة التّمثيلية في (مِن ورائهم)، وتوحي هذه الاستعارة بأنّهم لا يرونه لأنّه من ورائهم ولا يتقونه لأنّهم في غفلة عنه، ولا يفوتهم فهم واقعون فيه لا محالة[٣]. وقد فسر الوراء بالأمام على سبيل المشترك بين المعنيين فيستعمل في الشّيء وضده[٤]. ومِن جملة هذا العذاب المهين أنْ لا فداء حينئذ ولا نصرة لولي من أولياء الكافرين، وهذا ما يزيد العذاب شدّة ويكسب المعاقب إهانة، وجاء نفي الغنى على سبيل التّضمين ولذلك عدي بـ (عن) فتضمن معنى (يدفع) وفي ذلك زيادة تأييس لهم، وتنكير (شيئا) للتقليل، أي لا يغني عنهم أي شيء مهما كان قليلا، ومع انتفاء كلّ ذلك يأتي وعيد آخر ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يتناسب مع جرمهم في الاستهزاء بآيات الله، وهو العذاب المؤلم الدائم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وتستحضر صورة أخرى من مشاهد القيامة، حيث يحيط العذاب بالكافرين جزاء ما عملوا ويتركون في العذاب ويخاطبون بهذا التّرك - على وجه التّقريع والتّوبيخ

(١) =: المعاني الثّانية في الأسلوب القرآني: ٣٧٨.

(٢) سورة الجاثية: الآية ١٠.

(٣) =: في ظلال القرآن: ٥/٣٢٢٥.

(٤) =: المحرر الوجيز: ١٣/٣٠٠، والجدول في إعراب القرآن: ٢٥/٤٣.

والإهانة - وهم الذين قد تركوا العمل من أجل هذا اليوم، فيستقر بهم الحال في النّار، لا مأوى لهم غيرها، ولا ناصر لهم ينصرهم من عذابها، ذلك أنّهم استهزئوا بآيات الله وانشغلوا بالدّنيا، ولكنّهم اليوم في النّار لا خروج لهم منها، وكلّ ذلك في قوله تعالى ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[١].

وقد آثر النّظم القرآني التّعبير عمّا سيكون عليه حالهم بصيغة الماضي للإيحاء بتحقق وقوعه وكأنّ الأمر قد تمّ وانتهى ولذلك قيل: (وبدا لهم)، وقد جاءت الآية على سبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم وإيذانا بشديد الغضب لأنّهم وصلوا إلى حدّ عظيم من العناد بإنكارهم السّاعة[٢] في قولهم ﴿ السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾[٣]. وآثر السّياق القرآني (ما عملوا)، وفي موضع آخر قال ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾[٤] ذلك أنّ العمل أعمّ من الكسب، فضلاً عن أنّ (ما كسبوا) قد وقع بين ألفاظ الكسب، وفي سورة الجاثية وقع بين ألفاظ العمل فخصت كلّ سورة بما اقتضاه نظمها[٥]. وقد أفاد هذا الإيثار شمول الظّهور لكلّ الأعمال دون استثناء، وقد عبر بالسّيئات عن جزائها للمعادلة بين العمل وجزائه، وقوله: (حاق بهم) يوحي بشمول العذاب لهم من كل جانب، وأوثر التّعبير عن العذاب بذكر ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ للمعادلة أيضاً بين العمل وجزائه، ولأنّ في الصّلة تغليظا لهم وتنديما على ما فرطوا.

وفي الآية الأخرى يخاطب هؤلاء خطاب توبيخ وتحقير، وتبدأ الآية بـ (قيل)

---

(١) سورة الجاثية: الآيات ٣٣ - ٣٧.

(٢) =: نظم الدرر: ١٨/١١١.

(٣) سورة الجاثية: من الآية ٣٢.

(٤) سورة الزّمر: من الآية ٤٨.

(٥) =: أسرار التّكرار في القرآن: ١٨٣ و١٨٥.

المبني للمجهول «حطا لهم عن رتبة أنْ يصرح باسم الله في حكاية الكلام الذي واجههم به»[١]، ثمّ عبر عن التّرك المؤبد بالنّسيان على سبيل المجاز المرسل بعلاقة السّببية لأنّ النّسيان هو سبب التّرك - على وجه التّهكم - أي أطلق السّبب على المسبب، ويجوز عد النّسيان مستعارا للتّرك وعدم المبالاة، والمراد نعاملكم معاملة النّاسي لأنّ الله تعالى لا ينسى ولا يعرض عليه النّسيان[٢].

ويتكرر أسلوب المجاز المرسل في إطلاق اليوم على ما فيه من الأحداث في قوله ﴿ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ﴾ لأنّه أوجز من تعداد أهواله وأحداثه، وفي ذكر اسم الإشارة تمييز لهذا اليوم[٣]، وقد أوثر التماثل في نظم الآية ولا سيّما في (ننساكم) و(نسيتم) على سبيل المشاكلة وذلك أدخل في التّوبيخ والتّقريع والإشعار بالعدل، وقد عبر عن فعله بالمضارع ليدل على الاستمرار وفي فعلهم بالماضي ليدل على أنّ مَن وقع مِنه ذلك وقتا ما - وإنْ قلّ - كان على خطر عظيم بتعريض نفسه لاستمرار الإعراض عنه[٤]. وكون الرّد من الفعل نفسه يحدث في النّفس إيقاعا يعتمد فيه على المعنى ومغزى الرّد فيكون أشدّ وقعا ووخزا.

وممّا يلحظ في هذه الآية والتي بعدها تكرار الضمير المتصل (كم) سبع مرات، مما يمد النظم قوة في الجرس والإيحاء، وتأكيدا للمعنى الوارد بها في حق الكافرين، إذ إنه ينفح بالاحتقار والمهانة واللامبالاة، فضلاً عمّا يحمله هذا الضّمير في إيقاعه من نغمة مشوبة بالدّمدمة والزّمجرة، والتي تنعكس على النّفس فتهزها وتبكتها[٥].

ولم يترك هؤلاء تركا يمنحهم شيئا من الحرية أو النّجاة، وإنّما تركوا في مأوى قد خصص لهم ﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ بكلّ ما فيها من العذاب الأليم، وحين تكون النّار مأوى لهم، فإنّهم يسارعون إلى طلب النّصرة، ولذلك عقب على ذلك بنفي وجود مَن

(١) التّحرير والتّنوير: ٣٧٤/٢٥.
(٢) =: صفوة التّفاسير: ١٩٠/٣.
(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٣٧٥/٢٥.
(٤) =: نظم الدرر: ١١٣/١٨.
(٥) =: الإعجاز الفني في القرآن: ٢٣١.

ينصرهم بقوله ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ و(مِن) هنا أفادت التّنصيص على العموم، أي لا ناصر لكم أبدا. وبين لهم سبب ما هم فيه من العذاب في هذا المأوى بقوله ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ وكان يمكن أنْ تأتي (ذلكم) مفردة: (ذلك) ولكن جمعها أكمل إيقاع نظم الآيتين، وحقق غرضا فنيا فيه التّناسق في الصّيغة التّعبيرية وغرضا نفسيا فيه الإسهام مع تكرار (كم) للتأكيد والتّأثير[١]، وقد غرهم ما كانوا عليه من العزة والمنعة، وأسند التّغرير إلى الحياة على سبيل المجاز العقلي لأن ذلك أجمع لأسباب الغرور ولا سيّما أنّ هذه المغررات حاصلة في الحياة الدنيا[٢].

وعدل النّظم القرآني عن الخطاب إلى الغيبة على سبيل الالتفات إعراضا عنهم وتحقيرا لهم بعد التّوبيخ التأييس.

فالالتفات قد أوثر للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة بهم أو بنقلهم من مقام الخطاب إلى غيابة النار[٣].

وصيغتا المبني للمجهول (لا يخرجون) و(لا يستعتبون) جاءتا تأكيدا لمعنى قوله ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ وضمير الفصل (هم) أفاد قصر نفي الاستعتاب عليهم وهو تعريض بأنّ الله يعتب غيرهم، أي يرضى المؤمنين ويغفر لهم[٤]. وهكذا توصد الأبواب إيصادا أبديا لا تغيير فيه لينطلق صوت التّحميد لله والتّمجيد، يختم السّورة بأحسن ختام ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ بتقديم لفظ الجلالة لإفادة الاختصاص وتأكيد الخبر، وقال في فاتحة الكتاب ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وقد أوثر هنا تقديم لفظ الجلالة (الله) على (الحمد) على تقدير الجواب، فكأنّه قيل عند وقوع الأمر: لمَن الحمد؟ ومَن أهله؟ فجاء الجواب على ذلك[٥]. وتعريف (الحمد) يفيد الكمال والاستغراق، وتكرير لفظ (الرّب) للتنويه بشأن الرّبوبية.

ولمّا استدعت الآية الخلق لحمد الله حق حمده، جاءت الآية الأخرى بالقول

---

(١) =: البناء الصوتي في البيان القرآني: ٨٨.
(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٣٧٦.
(٣) =: إرشاد العقل السليم: ٥/٦٢.
(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٣٧٧.
(٥) =: أسرار التقديم والتأخير في القرآن الكريم: ١١٧.

﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ للإيحاء بأنّ هذا الحمد هو لنفعهم وتزكية نفوسهم والله غني عنهم[١]. وتقديم (له) أفاد الاختصاص أيضاً، وذكر (السّموات والأرض) إظهار في مقام الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء[٢]. وفي تقديم ذكر (الحمد) على ذكر (الكبرياء) إشارة إلى أنّ الحامدين إذا حمدوه وجب أنْ يعرفوا أنّه أعلى وأكبر من أنْ يكون الحمد الذي ذكروه لائقا بإنعامه، بل هو أكبر من حمد الحامدين[٣]. ثمّ جاء ضمير الفصل (هو) لقصر ثنائية (العزيز الحكيم) عليه، وهكذا ختمت السّورة بهذه الثّنائية التي ابتدأت بها أيضاً على سبيل ردّ العجز على الصدر أو براعة حسن الختام.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي موقف من مواقف يوم الحساب، يعرض الكافرون على النّار، ويعلن لهم سبب هذا العرض والسوق إليها، فقد أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدّنيا واستمتعوا بها ولم يدخروا للآخرة شيئا، ولم يشكروا الله على نعمه واستكبروا في الأرض بغير الحق فاستحقوا عذاب الهون جزاء لذلك الاستكبار وجزاء بما كانوا يفسقون، وهذا الموقف يتجلى في قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[٤].

فقد أوثر في نظم الآية بناء الفعل (يعرض) للمجهول اهتماما بالحدث وصرف النّظر عن محدثه، والعرض هنا تعذيب وإحراق بالنّار، والتّعبير عن التّعذيب بالعرض على النّار فيه مزيد من السّخرية، فهم متاع للنار يقدم إليها ويعرض عليها، وهم مددها وحطبها[٥]. وأوثر وصفهم على سبيل الموصولية (الذّين كفروا) تعريضا بهم، ثمّ جاء الكلام مقول قول محذوف تقديره: ويقال للذين كفروا (أذهبتم طيباتكم) وفي ذلك إيحاء بالعدل وتقرير لمعنى (لا ظلم اليوم) فضلاً عما يحققه الحذف من الإيجاز.

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٣٧٨/٢٥.
(٢) =: روح المعاني: ٣/٢٦.
(٣) =: تنوير الأذهان: ٥٦/٤.
(٤) سورة الأحقاف: الآية ٢٠.
(٥) =: خصائص التّراكيب: ٢٢٦.

وإذهاب الطّيبات مستعار لمفارقتها، وذكر ذلك يستدعي النّدم والتّحسير، ولم يذهبوها فقط وإنّما استمتعوا بها في ذلك الإذهاب، فاستحقوا الجزاء (عذاب الهون)، وأوثر هذا التّعبير ليتناسب مع الاستكبار عن قبول الحق وهو ذنب القلب، ومع الفسق وهو عمل الجوارح، ولذلك تقدم ذكر ذنب القلب لأنّه أولى بالتّقديم لعظم موقعه[١]، فضلاً عن أنّ أعمال الجوارح ناشئة عن مراد القلب، ولذلك تقدم ذكر الاستكبار. ولا يخفى ما في الآية الكريمة من دلالة فكرية تتمثل في الحثّ على التقلل من الدّنيا وترك التّنعم فيها والعمل لأجل الآخرة. وصيغة المضارع (تستكبرون) و(تفسقون) تفيد الاستمرار والتّجدد. وهكذا أذهبوا طيباتهم بين الاستكبار والفسق واستمتعوا بها في الدّنيا غير حاسبين فيها للآخرة حسابا فاستحقوا عذاب الهون.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي موقف آخر من مواقف عرض الكافرين على النّار نجدهم يخاطبون خطابا آخر يسوقهم إلى الاعتراف باستحقاقهم العذاب، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[٢].

يبدأ هذا المشهد حكاية أو مقدمة لحكاية، وبينما السّامع في انتظار وصف ما سيكون، فإذا المشهد يشخص بذاته، وإذا الحوار قائم في المشهد المعروض: ﴿ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾؟ إنه سؤال وقارعة لهم[٣]، وهو مقول قول محذوف تقديره: ويقال لهم ذلك، والإشارة بـ (هذا) إلى ما يرونه حين العرض، وفي ذلك تهكم بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده.

وقد جاء هذا الاستفهام تقريريا مشوبا بتنديمهم على ما كانوا يزعمون. ويأتي جوابهم سريعا: ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ بهذا القسم الموحي بالنّدامة والتّغليظ لأنفسهم، وأوثر القسم بـ (الرّب) تحننا منهم وتخضعا[٤]، وأكدوا الجواب بالقسم لأنّهم يطمعون

---

(١) =: التّفسير الكبير: ٢٥/٢٨.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٣٤.

(٣) =: في ظلال القرآن: ٣٢٧٥/٦.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٦٦/٢٦.

بالخلاص، وأسندوا اللفظ إلى ضميرهم من بعد ما كانوا لا يستجيبون لداعيه ولا يعترفون له بربوبية. ولكنْ لا تحنن حينئذ ولا تخفيف لهذا العذاب، ولذلك عطف ما بعده بالفاء (فذوقوا) على سبيل استعارة الذوق للإحساس استعارة تهكمية توحي بالإهانة والذّل والتّحقير.

❖❖❖❖❖

هكذا كانت رؤية مشاهد القيامة في سور الحواميم، رؤية في هذا النّظم الجليل الذي لم يغفل أدقّ التفاصيل بما فيها النّفسية، ولم يترك أية كلمة من شأنها أنْ تذكر بأهوال السّاعة الرّهيبة. وهو حين يعرض مشاهد عذاب النّار يعرضها مادية حينا ومعنوية حينا آخر، ومزجا بين الاثنين أحيانا أخرى، وفي كلّ صورة من صور النّار وألوان العذاب تهويل وزجر للنفس البشرية عن أنْ تقدم إلى ما يوصلها إلى هذا المصير.

أمّا صورة الجنة وألوان نعيمها وحال أهلها فهي صورة لا تمل العين من رؤيتها وقراءة وصفها، صورة تستميل النّفس إليها حيث تجد من اللذائذ ما يجمع بين الواقعية والمثالية، وفي كلّ ذلك ترغيب للنفس وحث لها على العمل من أجل نيل رضا الله والفوز بالجنة، فضلاً عن صور التقابل في ذكر أصحاب الجنة وأصحاب النّار، ليكون التّصوير الفني في كل ذلك أسلوبا من أساليب الدّعوة القرآنية بجانبيه التّرغيب والتّرهيب.

❖❖❖❖❖

# الجدول البياني للفنون البلاغيّة الواردة في الفصل السّادس

| ت | الفن البلاغي | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٧٠٢ | التّعريف | ٣٩٣ | ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ | ٤٦ | غافر |
| ٧٠٣ | الاستعارة | ٣٩٣ | ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ | ٤٦ | غافر |
| ٧٠٤ | الطّباق والكناية | ٣٩٣ | ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ | ٤٦ | غافر |
| ٧٠٥ | حسن التّخلص | ٣٩٤ | ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ | ١٥ | غافر |
| ٧٠٦ | التّفصيل بعد الإجمال | ٣٩٤ | ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ(١٥)يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ | ١٥ - ١٦ | غافر |
| ٧٠٧ | التّقديم | ٣٩٥ | ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ | ١٦ | غافر |
| ٧٠٨ | الإيثار | ٣٩٥ | ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ | ١٦ | غافر |
| ٧٠٩ | التّنكير | ٣٩٥ | ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ | ١٦ | غافر |
| ٧١٠ | الفصل | ٣٩٥ | ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ | ١٦ | غافر |
| ٧١١ | الفصل | ٣٩٥ | ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ | ١٦ | غافر |
| ٧١٢ | الاستفهام التقريري | ٣٩٥ | ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ | ١٦ | غافر |
| ٧١٣ | الإيثار | ٢٩٦ | ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ | ١٦ | غافر |
| ٧١٤ | التّرتيب | ٢٩٦ | ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ | ١٧ | غافر |
| ٧١٥ | التّنكير | ٢٩٦ | ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ | ١٧ | غافر |
| ٧١٦ | الاحتراس | ٣٩٧ | ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ | ١٧ | غافر |
| ٧١٧ | التّذييل | ٣٩٧ | ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ | ١٧ | غافر |
| ٧١٨ | القصر بالتّقديم | ٣٩٧ | ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ | ١٧ | غافر |
| ٧١٩ | الكناية | ٣٩٧ | ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ | ١٨ | غافر |
| ٧٢٠ | الكناية | ٣٩٧ | ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ | ١٨ | غافر |
| ٧٢١ | الاستعارة | ٣٩٧ | ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ | ١٨ | غافر |
| ٧٢٢ | سلب العموم | ٣٩٨ | ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ | ١٨ | غافر |
| ٧٢٣ | التّعريف | ٣٩٨ | ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ | ١٨ | غافر |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٧٢٤ | الفصل | ٣٩٨ | ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ | ١٨ | غافر |
| ٧٢٥ | الاستعارة أو المجاز المرسل | ٣٩٨ | ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ | ١٩ | غافر |
| ٧٢٦ | المجاز المرسل | ٣٩٩ | ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ | ١٩ | غافر |
| ٧٢٧ | الإظهار في موضع الإضمار | ٣٩٩ | ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ | ٢٠ | غافر |
| ٧٢٨ | التّقديم | ٣٩٩ | ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ | ٢٠ | غافر |
| ٧٢٩ | التّذييل | ٤٠٠ | ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ | ٢٠ | غافر |
| ٧٣٠ | القصر | ٤٠٠ | ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ | ٢٠ | غافر |
| ٧٣١ | الأسلوب الحكيم | ٤٠٠ | ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ | ٦٦ | الزّخرف |
| ٧٣٢ | الاستفهام الإنكاري | ٤٠٠ | ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ | ٦٦ | الزّخرف |
| ٧٣٣ | القصر | ٤٠٠ | ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ | ٦٦ | الزّخرف |
| ٧٣٤ | التّعريف بالتّنكير | ٤٠١ | ﴿الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ﴾ | ٦٧ | الزّخرف |
| ٧٣٥ | إيجاز الحذف | ٤٠١ | ﴿يَاعِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ | ٦٨ | الزّخرف |
| ٧٣٦ | التّقديم | ٤٠١ | ﴿وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ | ٦٨ | الزّخرف |
| ٧٣٧ | الإيثار | ٤٠٢ | ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ | ٤٠ | الدّخان |
| ٧٣٨ | التفصيل بعد الإجمال | ٤٠٣ | ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ | ٤١ | الدّخان |
| ٧٣٩ | التّنكير | ٤٠٣ | ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ | ٤١ | الدّخان |
| ٧٤٠ | القصر | ٤٠٣ | ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ | ٤١ | الدّخان |
| ٧٤١ | الفصل | ٤٠٣ | ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ | ٤٢ | الدّخان |
| ٧٤٢ | القصر | ٤٠٣ | ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ | ٤٢ | الدّخان |
| ٧٤٣ | إيجاز الحذف | ٤٠٤ | ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ | ٢٨ | الجاثية |
| ٧٤٤ | المجاز العقلي أو الاستعارة المكنية | ٤٠٤ | ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ | ٢٩ | الجاثية |
| ٧٤٥ | التّضمين | ٤٠٥ | ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ | ٢٩ | الجاثية |
| ٧٤٦ | الفصل | ٤٠٥ | ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ | ٢٩ | الجاثية |
| ٧٤٧ | التّفصيل بعد الإجمال | ٤٠٥ | ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨)...فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ... وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ | ٢٨ - ٣١ | الجاثية |
| ٧٤٨ | المجاز المرسل | ٤٠٥ | ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي | ٣٠ | الجاثية |

| ت | الفن البلاغي | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| | | | رَحْمَتِهِ﴾ | | |
| ٧٤٩ | القصر | ٤٠٦ | ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ | ٣٠ | الجاثية |
| ٧٥٠ | إيجاز الحذف | ٤٠٦ | ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ | ٣١ | الجاثية |
| ٧٥١ | التعريف | ٤٠٦ | ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ | ٣٢ | الجاثية |
| ٧٥٢ | الكناية | ٤٠٦ | ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ | ٣٢ | الجاثية |
| ٧٥٣ | التّنكير | ٤٠٦ | ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ | ٣٢ | الجاثية |
| ٧٥٤ | القصر | ٤٠٦ | ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ | ٣٢ | الجاثية |
| ٧٥٥ | الاحتباك | ٤٠٦ | ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ... أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ...﴾ | ٣٠ - ٣١ | الجاثية |
| ٧٥٦ | اللائق بالخطاب | ٤٠٧ | ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ | ٢٢ | الشّورى |
| ٧٥٧ | الإيثار | ٤٠٧ | ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ | ٢٢ | الشّورى |
| ٧٥٨ | التّذييل | ٤٠٨ | ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ | ٢٢ | الشّورى |
| ٧٥٩ | القصر | ٤٠٨ | ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ | ٢٢ | الشّورى |
| ٧٦٠ | الاحتباك | ٤٠٩ | ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ...وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ | ٢٢ | الشّورى |
| ٧٦١ | الاستعارة | ٤٠٩ | ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ | ٤٥ | الشّورى |
| ٧٦٢ | الاحتراس | ٤٠٩ | ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ | ٤٥ | الشّورى |
| ٧٦٣ | التّعريف والاستعارة | ٤١٠ | ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ | ٤٥ | الشّورى |
| ٧٦٤ | التّذييل | ٤١١ | ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ | ٤٥ | الشّورى |
| ٧٦٥ | الإظهار في موضع الإضمار | ٤١١ | ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ | ٤٥ | الشّورى |
| ٧٦٦ | الاستعارة | ٤١١ | ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ | ٤٥ | الشّورى |
| ٧٦٧ | الالتفات | ٤١٢ | ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ | ٧١ | الزّخرف |
| ٧٦٨ | التّنكير | ٤١٢ | ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ | ٧١ | الزّخرف |
| ٧٦٩ | إيجاز الحذف | ٤١٢ | ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ | ٧١ | الزّخرف |
| ٧٧٠ | الوصل | ٤١٣ | ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ | ٧١ | الزّخرف |
| ٧٧١ | الالتفات | ٤١٣ | ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ | ٧١ | الزّخرف |
| ٧٧٢ | إيجاز القصر | ٤١٣ | ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ | ٧١ | الزّخرف |
| ٧٧٣ | الاستعارة | ٤١٤ | ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ | ٧٢ | الزّخرف |
| ٧٧٤ | التقديم | ٤١٤ | ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ | ٧٣ | الزّخرف |
| ٧٧٥ | المجاز العقلي | ٤١٤ | ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ | ٥١ | الدّخان |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٧٧٦ | التّنكير | ٤١٤ | ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ | ٥٢ | الدّخان |
| ٧٧٧ | الكناية | ٤١٤ | ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ | ٥٣ | الدّخان |
| ٧٧٨ | إيجاز القصر | ٤١٤ | ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ | ٥٣ | الدّخان |
| ٧٧٩ | الكناية | ٤١٤ | ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ | ٥٤ | الدّخان |
| ٧٨٠ | الاستعارة | ٤١٥ | ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلا الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾ | ٥٦ | الدّخان |
| ٧٨١ | التّذييل | ٤١٥ | ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ | ٥٧ | الدّخان |
| ٧٨٢ | القصر | ٤١٥ | ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ | ٥٧ | الدّخان |
| ٧٨٣ | الأسلوب الحكيم | ٤١٦ | ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ﴾ | ١٠ | غافر |
| ٧٨٤ | المجاز المرسل | ٤١٦ | ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ﴾ | ١٠ | غافر |
| ٧٨٥ | إيجاز الحذف | ٤١٦ | ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ﴾ | ١٠ | غافر |
| ٧٨٦ | الطّباق | ٤١٧ | ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ | ١١ | غافر |
| ٧٨٧ | الوصل | ٤١٧ | ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ | ١١ | غافر |
| ٧٨٨ | التّنكير | ٤١٨ | ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ | ١١ | غافر |
| ٧٨٩ | إيجاز الحذف | ٤١٨ | ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ | ١٢ | غافر |
| ٧٩٠ | التّذييل | ٤١٩ | ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ | ١٢ | غافر |
| ٧٩١ | التّضمين | ٤٢٠ | ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ | ٤٧ | غافر |
| ٧٩٢ | التّنكير | ٤٢٠ | ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ | ٤٧ | غافر |
| ٧٩٣ | الإظهار في موضع الإضمار | ٤٢٠ | ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ | ٤٨ | غافر |
| ٧٩٤ | الإظهار في موضع الإضمار | ٤٢٠ | ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ | ٤٩ | غافر |
| ٧٩٥ | التّنكير والكناية | ٤٢٠ | ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ | ٤٩ | غافر |
| ٧٩٦ | الاستفهام التّقريري | ٤٢١ | ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ | ٥٠ | غافر |
| ٧٩٧ | الكناية | ٤٢١ | ﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ | ٥٠ | غافر |
| ٧٩٨ | القصر | ٤٢١ | ﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ | ٥٠ | غافر |
| ٧٩٩ | التّفصيل بعد الإجمال | ٤٢٢ | ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٧٠)إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ | ٧٠ - ٧١ | غافر |
| ٨٠٠ | الاستعارة | ٤٢٢ | ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ | ٧٢ | غافر |
| ٨٠١ | الاحتباك | ٤٢٢ | ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ(٧٣) ... بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ | ٧٣ - ٧٤ | غافر |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٨٠٢ | التّذييل والتّشبيه | ٤٢٣ | ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ | ٧٤ | غافر |
| ٨٠٣ | الجناس | ٤٢٣ | ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ | ٧٥ | غافر |
| ٨٠٤ | الالتفات | ٤٢٣ | ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ | ٧٥ | غافر |
| ٨٠٥ | التّضمين | ٤٢٥ | ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ | ١٩ | فصّلت |
| ٨٠٦ | الكناية | ٤٢٥ | ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ | ١٩ | فصّلت |
| ٨٠٧ | الفصل | ٤٢٥ | ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ | ٢٠ | فصّلت |
| ٨٠٨ | الإيثار | ٤٢٥ | ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ | ٢٠ | فصّلت |
| ٨٠٩ | الكناية | ٤٢٥ | ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ | ٢٠ | فصّلت |
| ٨١٠ | الالتفات | ٤٢٧ | ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ﴾ | ٢٢ | فصّلت |
| ٨١١ | الاستعارة | ٤٢٧ | ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ | ٢٣ | فصّلت |
| ٨١٢ | المجاز العقلي | ٤٢٧ | ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ | ٢٣ | فصّلت |
| ٨١٣ | التّمثيل | ٤٢٧ | ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ | ٢٣ | فصّلت |
| ٨١٤ | الالتفات | ٤٢٨ | ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ | ٢٤ | فصّلت |
| ٨١٥ | التّنكير | ٤٢٨ | ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ | ٢٤ | فصّلت |
| ٨١٦ | الكناية | ٤٢٨ | ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ | ٢٥ | فصّلت |
| ٨١٧ | التّنكير | ٤٢٨ | ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ | ٢٥ | فصّلت |
| ٨١٨ | التّقديم | ٤٢٩ | ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ | ٢٨ | فصّلت |
| ٨١٩ | التّضمين | ٤٢٩ | ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ | ٢٨ | فصّلت |
| ٨٢٠ | الكناية | ٤٢٩ | ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ | ٢٩ | فصّلت |
| ٨٢١ | الاستعارة | ٤٢٩ | ﴿لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ | ٢٩ | فصّلت |
| ٨٢٢ | التّقديم | ٤٣٠ | ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ | ٤٧ | فصّلت |
| ٨٢٣ | الطّباق | ٤٣٠ | ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ | ٤٧ | فصّلت |
| ٨٢٤ | الجناس | ٤٣٠ | ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ | ٤٧ | فصّلت |
| ٨٢٥ | التّنكير | ٤٣٠ | ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ | ٤٧ | فصّلت |
| ٨٢٦ | الكناية | ٤٣٠ | ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ | ٤٧ | فصّلت |
| ٨٢٧ | الاستفهام الإنكاري | ٤٣٠ | ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ | ٤٤ | الشّورى |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٨٢٨ | التّنكير | ٤٣١ | ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ | ٤٤ | الشّورى |
| ٨٢٩ | التّغليب | ٤٣٣ | ﴿يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ | ٣٨ | الزّخرف |
| ٨٣٠ | الإيغال | ٤٣٣ | ﴿يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ | ٣٨ | الزّخرف |
| ٨٣١ | الفصل | ٤٣٥ | ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ | ٧٤ | الزّخرف |
| ٨٣٢ | التّقديم | ٤٣٥ | ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ | ٧٤ | الزّخرف |
| ٨٣٣ | القصر | ٤٣٥ | ﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ | ٧٥ | الزّخرف |
| ٨٣٤ | التّقديم | ٤٣٦ | ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ | ٧٨ | الزّخرف |
| ٨٣٥ | التّشبيه | ٤٣٦ | ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ(٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ | ٤٥ - ٤٦ | الدّخان |
| ٨٣٦ | إيجاز الحذف | ٤٣٧ | ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ | ٤٧ | الدّخان |
| ٨٣٧ | الاستعارة | ٤٣٧ | ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ | ٤٨ | الدّخان |
| ٨٣٨ | الكناية | ٤٣٧ | ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ | ٤٩ | الدّخان |
| ٨٣٩ | الاستعارة | ٤٣٧ | ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ | ٤٩ | الدّخان |
| ٨٤٠ | القصر | ٤٣٧ | ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ | ٤٩ | الدّخان |
| ٨٤١ | الاستعارة | ٤٣٩ | ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا﴾ | ١٠ | الجاثية |
| ٨٤٢ | التّضمين | ٤٣٩ | ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا﴾ | ١٠ | الجاثية |
| ٨٤٣ | التّنكير | ٤٣٩ | ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ | ١٠ | الجاثية |
| ٨٤٤ | الالتفات | ٤٤٠ | ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ | ٣٣ | الجاثية |
| ٨٤٥ | الإيثار | ٤٤٠ | ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ | ٣٣ | الجاثية |
| ٨٤٦ | المجاز المرسل | ٤٤١ | ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ | ٣٤ | الجاثية |
| ٨٤٧ | المشاكلة | ٤٤١ | ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ | ٣٤ | الجاثية |
| ٨٤٨ | المجاز العقلي | ٤٤٢ | ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ | ٣٥ | الجاثية |
| ٨٤٩ | الالتفات | ٤٤٢ | ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ | ٣٥ | الجاثية |
| ٨٥٠ | القصر | ٤٤٢ | ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ | ٣٥ | الجاثية |
| ٨٥١ | التّقديم | ٤٤٢ | ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ | ٣٦ | الجاثية |
| ٨٥٢ | التّعريف | ٤٤٢ | ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ | ٣٦ | الجاثية |
| ٨٥٣ | التّقديم | ٤٤٣ | ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ | ٣٧ | الجاثية |
| ٨٥٤ | الإظهار في | ٤٤٣ | ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ | ٣٧ | الجاثية |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| | موضع الإضمار | | | | |
| ٨٥٥ | القصر | ٤٤٣ | ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ | ٣٧ | الجاثية |
| ٨٥٦ | إيجاز الحذف | ٤٤٣ | ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ | ٢٠ | الأحقاف |
| ٨٥٧ | إيجاز الحذف | ٤٤٤ | ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ | ٣٤ | الأحقاف |
| ٨٥٨ | الاستفهام التقريري | ٤٤٤ | ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ | ٣٤ | الأحقاف |
| ٨٥٩ | الاستعارة | ٤٤٤ | ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ | ٣٤ | الأحقاف |

# الفصل السّابع

# قواعد إيمانية

## توطئة

تضمّنت سور الحواميم - في سياقات مختلفة - بعض القواعد الإيمانية التي تبنى عليها النفس المؤمنة، ويبنى عليها المجتمع الإسلامي، وتمثّل هذه القواعد أسسا ثابتة لهذا البناء الذي أراده الله تعالى أنْ يكون مثالا وأنموذجا للحياة البشرية الحقة التي تعي حقيقة الدّنيا وغايتها وأنّها مجاز إلى الآخرة. وقد توزعت هذه القواعد بين شعب ثلاث، فمنها ما يتعلق بالحياة الدّنيا، يقف الفرد أمامها بالتّأمل والتّدبر ليجد فيها طريقا واضحا مستقيما يسير فيه نحو النجاة بحياة حرة كريمة ينعم فيها بما وهبه الله (ﷻ) له من كلّ شيء، وهو في ذلك يجتاز الدّنيا آمنا مطمئنا لأنّه يسعى إلى رضا الله ورحمته، إذ يلتزم بدفع السّيئة بالحسنة، ويستعيذ بالله من وساوس الشيطان، ويرجع إلى حكم الله في كل شيء، ويعلم أنّ ما يصيبه من المصائب هي من كسب يديه، وإنّ الله يجازيه على أعماله، ويعفو عن كثير مِنها، ويعلم أنّ جزاء السّيئة سيئة مثلها، ولكنّ العفو والصّفح خير، وأجره عند الله كثير. ويسير في حياته مؤمنا قد هداه الله وهو وليه، وأمّا مَن أضله الله فما له من ولي من بعده وما له من سبيل، كما أنّه يجد فيها الأمر بالإحسان إلى الوالدين وشكر نعمة الله عليه وعليهما وأنْ يعمل ذلك ليجازى من جنس عمله حين تكون له ذرية صالحة، وكلّ ذلك من القواعد الإيمانية الدّنيوية.

أمّا القواعد الأخروية فهي التي تتعلق بالآخرة ومواقف الحساب، إذ نجد فيها بعض قواعد هذا الحساب الذي يتجلى فيه - من خلالها - عدل الله تعالى وفضله ورحمته، فجزاء السّيئة مثلها، وجزاء العمل الصّالح دخول الجنة، والرّزق فيها لا يحسب ولا يتصور، وفي هذا الحساب الأخروي لا يستوي الأعمى والبصير، ولا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصّالحات ولا المسيء، فمَن عمل صالحا فلنفسه ومَن عمل السّوء فقد ظلم نفسه، والله لا يظلم أحدا، وإذا كان جزاء السّيئة سيئة مثلها دون

مضاعفة، فإنّ مَن يقترف حسنة يزيد الله له فيها حسنا ويضاعفها له، وهو غفور يغفر الذّنوب ويشكر عباده على طاعتهم بأنْ يجازيهم خير الجزاء.

ومِن القواعد الإيمانية ما يجمع بين الدّنيوية والأخروية، وهي القواعد المشتركة، إذ نجد فيها تأكيد أمر وقوع السّاعة ونفي الرّيب عنه وهو أمر أخروي، ولكنّ أكثر النّاس وهم المشركون المنكرون لذلك لا يؤمنون. ونجد فيها ردا على إنكار المشركين تخصيص الرسالة للنبي (ﷺ) واعتراضهم على ذلك، فالله هو الذي يقسم الرّحمة بين عباده بمشيئته وقدرته وهو الذي يرفع بعضهم فوق بعض درجات لتستمر الحياة ويتخذ النّاس بعضهم بعضا سخريا، ولكنّ رحمته تعالى خير من الدّنيا وما فيها وممّا يجمعون، كما نجد قاعدة أخرى تبين أنّ مَن لا يجب داعي الله ويسارع إلى الرّجوع والإنابة إليه تعالى فليس له مهرب لأنّه لا يعجز الله تعالى وليس له من دونه من ينصره، وكلّ مَن أعرض عن دعوته وأصرّ على الكفر فهو في ضلال مبين.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

# المبحث الأوّل
# من القواعد الدّنيوية

تتجلى في الآيات التي تضمنت بعض هذه القواعد الإيمانية صفة التّعميم والشّمول خالدة بخلود آيات الذكر الحكيم، تصدق على المجتمع الإسلامي في كلّ زمان ومكان، ولا تختص بالسّبب الذي نزلت من أجله، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾[(١)].

جاءت هذه الآيات لتمثل نتيجة المقابلة بين المؤمنين والكافرين في آيات سابقة، ولا سيّما أنّها عطفت على الآيات التي تضمنت الثناء على المؤمنين أثر وعيد المشركين وذمهم، فجاءت لتلخص التفاوت في المرتبة بين الفريقين، فالحسنة حال المؤمنين والسّيئة حال المشركين ولا شكّ في أنّها توجيه - بقاعدة ثابتة - للنبي (ﷺ)

---

(١) سورة فصّلت: الآيات ٣٤ - ٣٦.

الذي أثار موقف الكافرين منه وإصرارهم على الكفر ضجرا في نفسه، فهو بحال مَن تضيق طاقة صبره على سفاهة المشركين، فجاءت الآية توجهه إلى ما يدفع هذا الضّيق عن نفسه[(١)]، ولم يختص نظمها بخطابه (ﷺ) بل جاء قاعدة ثابتة على سبيل التّعميم والشّمول، خالدة أبد الدّهر، قاعدة ما إنْ تمسك بها المسلم في حياته فاز برضا الله أوّلا، وكان التزامه بها بذرة لنشر السّلام والمحبة بين أبناء المجتمع الإسلامي، فضلاً عن أنّ هذا الالتزام هو لطمة على وجه الشّيطان الذي ينزغ الفرد ويحرضه على عدم الالتزام بأمر الله، وعلى بث العداوة والبغضاء بين النّاس.

أمّا الآية من الوجهة البلاغية فأول ما نلحظه فيها تكرار الحرف (لا) وكان مقتضى الظّاهر أنْ يقال: ولا تستوي الحسنة والسّيئة دون تكرار (لا) الثّانية، ولكنّها جاءت تأكيدا لأختها السّابقة وكأنّما تكرارها يفيد أنّ شتان ما بينهما، فضلاً عن أنّها أوحت أنّ في الكلام إيجاز حذف شبيه بالاحتباك، والتّقدير: وما تستوي الحسنة والسّيئة ولا السّيئة والحسنة، فالمراد بالأوّل نفي أنْ تلتحق فضائل الحسنة بمساوئ السّيئة، والمراد بالثّاني نفي أنْ تلتحق السّيئة بشرف الحسنة[(٢)].

والتّعريف في (الحسنة) للجنس، أي يعم جميع أفراد جنسها وأولها حسنة الدّعوة إلى الإسلام لما فيها من المنافع في الدّنيا والآخرة، وقد آثر النّظم القرآني الوصف بالمصدر فعبر بالحسنة والسّيئة دون المحسن والمسيء، لأنّ التّعبير بالمصدر يشير إلى أنّ كلّ فريق قد بلغ الغاية في جنس وصفه فضلاً عن أنّ هذا الإيثار جاء توطئة للانتقال إلى قاعدة تهذيب الأخلاق في قوله تعالى ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾. ولا يخفى ما في هذا الإيثار من الطباق بين (الحسنة) و(السّيئة) والذي آذن بحذف مفعول (ادفع) لأنّ المعنى قد حصر بينهما، ولمّا كانت الحسنة مدفوعا بها عرف أنّ المدفوع هو السّيئة[(٣)].

ولمّا كان الغضب من سوء المعاملة من طباع النّفس وهو يبعث على حب الانتقام، والأمر في هذه القاعدة شاق على النّفس، جاء التّعبير عن (الحسنة) بصيغة

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٩٠/٢٤.

(٢) =: م. ن: ٢٩١/٢٤.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٩٢/٢٤.

التّفضيل ﴿ بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ ﴾ ترغيبا في دفع السّيئة بها، وعدولا إلى ما يشير إلى أنّ مَن دفع بالأحسن هان عليه الدّفع بما دونه. وهكذا جمعت هذه الآية - على سبيل إيجاز القصر - مكارم الأخلاق، والمعنى: «ادفع أمورك وما يعرض لك مع النّاس ومخالطتك لهم بالفعلة أو بالسّيرة التي هي أحسن الفعلات والسّير، فمِن ذلك بذل السّلام، وحسن الأدب وكظم الغيظ، والسّماحة في القضاء والاقتضاء وغير ذلك»[(١)].

ومِن الأوجه البلاغية في نظم الآية أنّ قوله ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ ﴾ جاء على سبيل الفصل، فقد أخرج مخرج الجواب عن سؤال سائل: كيف أصنع؟ فقيل له ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ ﴾ للإشارة إلى أنّه مهم وينبغي الاعتناء به والسّؤال عنه[(٢)]. فبعد نفي الاستواء بين الحسنة والسّيئة جاء إثبات أفضلية (الحسنة) والأمر بالدّفع بها، بل بالأحسن الزائد مطلقا أو بأحسن الحسنات.

ولم تترك القاعدة بهذا الأمر فحسب، وإنّما عمد التّعبير القرآني إلى بيان ما في ذلك الأمر من الصّلاح حثّا على التّخلق بذلك الخلق الكريم، لذلك أردف الأمر بذكر بعض محاسنه وهو أنْ يصير العدو كالصديق ﴿ ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٞ ﴾ وقد عمد السّياق إلى ابتداء التّفريع بـ (إذا) الفجائية والتي تدل على المفاجأة في الزّمن الحالي[(٣)]، فهي كناية عن سرعة ظهور أثر الدّفع بالتي هي أحسن في انقلاب العدو صديقا.

وثمّة وجه بلاغي آخر يتمثل في عدول النّظم القرآني عن ذكر العدو معرفا بلام الجنس إلى ذكره باسم الموصول ليتأتى تنكير عداوة للنوعية، أي كلّ أنواع العداوة.

ثمّ يأتي التشبيه المرسل المجمل في ﴿ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٞ ﴾ حيث ذكرت أداة التّشبيه وحذف وجه الشّبه وهو المصافاة والمقاربة، ووجه الجمع بين (ولي حميم) أنّه جمع خصلتين كلتاهما لا تجتمع مع العداوة وهما خصلتا الولاية والقرابة[(٤)].

---

(١) المحرر الوجيز: ١٣/١١٤.

(٢) =: روح المعاني: ٢٤/١٢٣.

(٣) =: موسوعة الحروف في اللغة العربية: ٨١.

(٤) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/٢٩٤.

وقد عمد التّعبير القرآني إلى بيان ما في الأمر ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ من الصلاح على سبيل التشبيه ﴿ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ لأنّ العدو لا يعود وليا حميما وإنّما يحسن ظاهره فيشبه بذلك الولي الحميم «ولعلّ ذلك من باب الاكتفاء بأقل اللازم، وهذا بالنّظر إلى الغالب، وإلاّ فقد تزول العداوة بالكلية بذلك»[(١)].

هكذا هي القاعدة، وهكذا هو الأمر، دفع السّيئة بالحسنة، إنّها درجة عظيمة تحتاج إلى الصّبر، بل هي نعمة يمن بها الله على مَن يشاء من عباده، وقد جاءت الآية الأخرى لتؤكد ذلك بقوله تعالى ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ ﴾ فهو حث على الالتزام بهذا الأمر وهذه الخصلة التي تحتاج إلى الصّبر وقوة العزم والإرادة، والقدرة على ترك هوى النّفس في حبّ الانتقام.

ويتواشج في نظم هذه الآية أسلوب القصر بالنّفي والاستثناء مع الاستعارة، لبيان منزلة مَن التزم بالأمر ومنزلة أهمية هذه القاعدة إلى قصر استحقاقها على الصّابرين فقط، وأوثر التّعبير عنهم بالاسم الموصول للتّعظيم، كما آثر الماضي (صبروا) للإيحاء بأنّهم قد جبلوا على الصّبر ومضى فيهم فأصبح سجية متأصلة فيهم. أمّا قوله: (يلقاها) أي «يجعل لاقيا لها، فهو مستعار للسعي لتحصيلها لأنّ التّحصيل على الشّيء بعد المعالجة والتّخلق يشبه السّعي لملاقاة أحد فيلقاه»[(٢)]. والتّعبير بالمضارع في (يلقاها) في الموضعين يفيد الاستمرار والتّجدد، وأنّ المسلم مأمور بتحصيل هذا الخلق دائما. وتكرر الفعل (يلقاها) لإظهار مزيد الاهتمام بهذا الخبر بحيث لا يستتر من صريحه شيء تحت العاطف[(٣)]، فضلاً عن أنّ هذا التّكرار قد أفاد تأكيدا لمدح تلك الفعلة الجليلة، واللّطيفة في الآية أنّ كلّ صابر هو الذي يلقاها وكلّ مَن يلقاها فهو ذو حظ عظيم، فينتج أنّ كلّ صابر هو ذو حظ عظيم[(٤)]، وفي ذلك حثّ عظيم على الصّبر.

وتأتي قاعدة أخرى يخاطب بها الرّسول (ﷺ) على أثر بيان تلك الدّرجة العالية

(١) روح المعاني: ١٢٣/٢٤.

(٢) التّحرير والتّنوير: ٢٩٥/٢٤.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٢٩٥/٢٤.

(٤) =: روح المعاني: ١٢٤/٢٤.

التي تتمثل بالالتزام بالقاعدة الأولى وما تحتاج إليه من الصّبر إلى حد أنّ رسول الله (ﷺ) - وهو الذي لم يغضب لنفسه قط - قيل له في هذه القاعدة الأخرى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾. فقد عبر القرآن الكريم عن وسوسة الشّيطان ومخالطة شروره بخواطر الإنسان تأمره بالشّر وتصرفه عن الخير، عبر عنها بالنزغ على سبيل الاستعارة، فحقيقة النزغ: مسّ الشّيء للجلد بطرف عود أو أصبع[١]، فضلاً عن أنّ النزغ كلمة تدل على إفساد بين اثنين[٢]، وهو ما يناسب إيثارها في هذا المقام لأنّ القاعدة الأولى تأمر بالإصلاح بين المأمور وعدوه، والنزغ يدعو إلى الفساد بينهما، ومِن ثمّ أوحت هذه اللفظة للمتدبر ما في الالتزام بالأمر في القاعدة الأولى من صلاح وفائدة.

ولمّا كان الخطاب أوّلا للنبي (ﷺ) جيء في هذا الشّرط بـ (إنّ) التي الأصل فيها عدم الجزم بوقوع الشّرط ترفيعا لقدره (ﷺ) فإن نزغ الشّيطان له يفرض كما يفرض المحال، فضلاً عمّا في ذلك من الإيحاء إلى عموم الخطاب وشموله للمؤمنين جميعا، وهو ما جعل مضمون الآية يكون قاعدة من القواعد الإيمانية. وقد أسند (ينزغنك) إلى (نزغ) على سبيل المجاز العقلي، والمعنى: وإنْ صرفك الشّيطان عن شيء ممّا شرعه الله لك أو عن الدّفع بالتي هي أحسن ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ من شره[٣]. وقد عمد التّعبير القرآني إلى إظهار أنّ ترك الدّفع بالتي هي أحسن هو من آثار نزغات الشّيطان، وفي ذلك مزيد تحذير منه وتنفير، لذلك جاء الأمر ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾. ولأنّ الاستعاذة هنا من الشّيطان، ولأنّ نزغه ممّا يعلم لا ممّا يرى، وصفة السّمع تعم ما يرى وما لا يرى جاء قوله ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي «الذي يسمع كلّ مسموع من استعاذتك وغيرها ويعلم كلّ معلوم من نزغه وغيره»[٤]. ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[٥]، فضمير الفصل

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/٢٩٧.

(٢) =: معجم مقاييس اللغة: ٩٨٥.

(٣) =: فتح البيان في مقاصد القرآن: ١٢/٢٥٤.

(٤) نظم الدّرر: ١٧/١٩٠.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٠٠.

في آية سورة فصلت أفاد قصر السّمع والعلم بهذه الأمور عليه تعالى، وإنّ ما عداه لا يسمع ولا يعلم إذا ما قيس بعلمه وسمعه، فضلاً عن أنّه أفاد تقوية الحكم «وهو هنا حكم كنائي لأنّ المقصود لازم وصف السميع العليم وهو مؤاخذة من تصدر منهم أعمال وأقوال في أذى النبي (ﷺ)»[١]، فلا يقدر على ذلك إلاّ الله تعالى، وقد ترك ضمير الفصل في آية سورة الأعراف كما ترك التّعريف بأل أيضاً، ذلك أنّ الآية في سورة فصّلت جاءت بعد دعاء إلى ما يشق على الإنسان فعله وهو أنْ يدفع السّيئة بالحسنة، ولمّا كان الأمر شاقا عظيما كانت وسوسة الشّيطان كذلك، وكان التّرغيب في مدافعته أبلغ، وتقدير علم الله بما يلاقي من ذلك أوكد، فجاء قوله ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي لا سميعا عليما قديما إلاّ هو، فهذا وجه التوكيد والتّعريف[٢]، بخلاف الأمر في سورة الأعراف فإنّه أمره أنْ يعرض عن الجاهلين، وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان، بل الإعراض، وهذا سهل على النّفوس غير مستعص عليها، فليس حرص الشّيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان[٣]، وأمّا التّعريف والتنكير في (السّميع العليم)، فقد وصف الله نفسه بالسّمع والعلم في مقابل آلهتهم التي لا تسمع ولا تعي، وذلك في سورة الأعراف، أمّا في سورة فصّلت فقد تقدم قبلها قوله ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٤]، فأثبتوا لله سبحانه قليل العلم ونفوا عنه كثيرة فاقتضى ذلك أنْ يبين لهم أنّه هو المختص بالعلم الكامل والسّمع الكامل، فجاء بالصّفتين معرفتين للدّلالة على الكمال في الوصف[٥].

وهكذا تضمنت هذه الآيات بعض القواعد الإيمانية الدّنيوية، فلا استواء بين الحسنة والسّيئة، ولا بين المحسن والمسيء، وأنّ من صفات المسلمين الالتزام بأمر الله بدفع السّيئة بالحسنة، وأنّ هذا الالتزام يحتاج إلى الصّبر، ولا يتمكن المسلم مِنه إلاّ بالسّعي لتحصيله وكبت جماح النّفس وهواها، فإذا ما تمكن فهو ذو حظ عظيم، وإن لم يتمكن وشعر بنزغ الشيطان في دفعه إلى الشر وعدم الالتزام بأمر الله، فليلجأ إلى

---

(١) التّحرير والتّنوير: ٢٤/٢٩٧.
(٢) =: درة التّنزيل وغرة التّأويل: ٤٢٠.
(٣) =: ابن القيم وحسه البلاغي: ٢١٤.
(٤) سورة فصّلت: من الآية ٢٢.
(٥) =: التّعبير القرآني: ١٧٥.

الاستعاذة بالله فهو السميع العليم، فهي قواعد ثابتة خالدة إلى أنْ يرث الله الأرض وما عليها، قواعد تمثل أسس البيت الإسلامي الكبير، تجعل كلّ فرد فيه أنموذجا يحتذى، ومثالا للمحبة والسّلام المصاحب للقوة والاقتدار.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سورة الشّورى نجد قاعدة أخرى من القواعد الإيمانية التي يبنى عليها المجتمع الإسلامي الذي تحكمه الشّريعة الإسلامية المتمثلة بكتاب الله وسنة نبيه (ﷺ) فما من شيء إلاّ ونجد له حكما فيهما، فدستور المجتمع الإسلامي واضح وثابت، ومَن التزم به وحكم بما فيه عز نفسه وأمته وأرضى الله ورسوله. إنّها قاعدة توجه السّائرين نحو طريق واحد، هو طريق الهدى، لا اختلاف بينهم فيه لأنّهم حين يختلفون في شيء يردوه إلى الله فيجدون الحكم في كتابه، فهو الذي أقام لهم فيه المنهج الذي اختاره لهم في حياتهم الفردية والجماعية، وجعلهم دستورا شاملا لحياة البشر، لذلك جاءت هذه القاعدة في قوله تعالى ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ ﴾[1].

يوحي سياق الآية بحذف فعل الأمر بالقول، أي: قل يا محمد[2]، وقد عمد إلى أسلوب البيان بعد الإبهام لذلك جاء قوله: (مِن شيء) بيانا لإبهام (ما) وليفيد معنى التّعميم والشّمول، أيْ أيّ شيء اختلفتم فيه من تكذيب وتصديق وإيمان وكفر وغير ذلك، فتنكير (شيء) للتّكثير والتّعميم والنّوعية، و(مِن) للتنصيص على العموم.

هذه هي القاعدة الثّابتة، وزيدت ثباتا ورسوخا بتقريرها بذكر قول الرّسول (ﷺ) مسلما أمره كلّه لله، منيبا إلى ربّه بكليته: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ فها هو ذا رسول الله (ﷺ) يشهد أنّ الله هو ربّه، وأنّه يتوكل عليه وحده، وينيب إليه دون سواه، فلا يجدر بالنّاس أنْ يتحاكموا إلى غيره عند اختلافهم في شيء من الأمر.

إنّ استقرار هذه الحقيقة الثّابتة في ضمير المسلم لينير له الطّريق ويحدد معالمه، فلا يتشكك ولا يتردد ولا يحتار، ويشعره أنّ الله راعيه وحاميه ومسدد خطاه،

---

(١) سورة الشّورى: الآية ١٠.

(٢) =: المحرر الوجيز: ١٣/١٤٥.

فلا حكم غير قول الله، وحكمه يرجع إليه عند الاختلاف في شيء[١].

وقد أوثر في الآية اسم الإشارة الذي يستعمل للبعيد لقصد التّعظيم بالبعد الاعتباري اللازم للسّمو وشرف القدر، أي ذلكم الله العظيم، ويتوصل من ذلك إلى تعظيم حكمه. والتّوكل هو التّفويض في العمل، والإنابة هي الرّجوع، والمراد بها الكناية عن ترك الاعتماد على الغير لأنّ الرّجوع إلى الشّيء يستلزم عدم وجود المطلوب عند غيره[٢].

ويتواشج في نظم الآية التّقديم مع الإيثار، فقد تقدم ذكر (عليه) و(إليه) لإفادة الاختصاص، أي لا أتوكل إلاّ عليه ولا أنيب إلاّ إليه، وأوثر في التّوكل صيغة الماضي وفي الإنابة صيغة المضارع للإيحاء بأنّ التّوكل كان سابقا من قبل أنْ يظهر له تنكر قومه له، وإذا كان ذلك كذلك فاستمرار التّوكل بعد إنكارهم له محقق. أمّا صيغة المضارع في الإنابة فتوحي بتجددها، ويعلم تحققها في الماضي بمقارنتها بفعل التّوكل لأنّ المتوكل منيب، فيكون ذلك من قبيل الاحتباك، والتّقدير: عليه توكلت وأتوكل، وإليه أنبت وأنيب[٣].

وهكذا كان الرّسول (ﷺ) أسوة حسنة في الالتزام بهذه القاعدة الإيمانية التي أمر الله تعالى بها لتكون واحدة من أسس بناء المجتمع الإسلامي.

❖❖❖❖❖

وتتجلى قاعدة أخرى من القواعد الإيمانية الدّنيوية في آية من آيات سورة الشّورى وهي قوله (ﷻ) ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠ ﴾[٤].

ففي هذه الآية يتجلى عدل الله، وتتجلى رحمته بهذا الإنسان الضّعيف، فكلّ ما يصيبه من المصائب لها سبب ممّا كسبت يداه، ومِن فضل الله أنّه لا يؤاخذه بكلّ ما يقترف، فيعفو عن كثير، يؤكد ذلك قول النّبي (ﷺ): «**لا يصيب ابن ادم خدش عود أو**

---

(١) =: في ظلال القرآن: ٣١٤٦/٥.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٤٢/٢٥.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٤٣/٢٥.

(٤) الآية: ٣٠.

**عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلاّ بذنب، وما يعفو عنه أكثر»**[١]. فالمصائب والرّزايا التي تصيب الإنسان في دنياه إنّما هي مجازاة له على ذنوبه، والله يعفو عن كثير. وقيل: إنّ معنى الآية في الحدود، أي: ما أصابكم من حد من حدود الله فإنّما هي بكسب أيديكم، ويعفو عن كثير فيستره على العبد حتى لا يحد عليه[٢]. و(مِن) تفيد التّنصيص على العموم، وتنكير (مصيبة) للتنويع، ولا يخفى ما بين (أصابكم) و(مصيبة) من جناس الاشتقاق، والذي منح نظم الآية جمالا، إذ إن سرّ قوة الجمال في الجناس هو الانسجام، ومِن أقوى عوامل إحداث الانسجام التّشابه في الوزن والصّوت، «وسرّ قوته كامِن في كونه يقرب بين مدلول اللفظ وصوته من جهة، وبين الوزن الموضوع فيه اللفظ من جهة أخرى»[٣]، ولا شكّ في أنّ التّجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلا كاملا أو ناقصا تطرب له الأذن وتهتز له أوتار القلوب، فضلا عن أنّه يكسب النّص جمالا وقدرة أكبر على التّأثير بما لَه من انتظام في الإيقاع ودلالة إيحائية تصويرية بشرط أنْ يكون المعنى هو الذي استدعاه، وهو ما أكده الشّيخ عبد القاهر الجرجاني بقوله «إنّ ما يعطي التّجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلاّ بنصرة المعنى إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن»[٤]، ويعد ذلك من المزايا الفنية للنظم القرآني إذ «تأتي اللفظة لتؤدي معنى في السّياق وتؤدي تناسبا في الإيقاع دون أنْ يطغى هذا على ذاك أو يخضع النّظم للضرورات»[٥].

وقد أطلق كسب الأيدي على الأفعال والأقوال المنكرة على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الجزئية، إذ أطلق البعض وأراد الكل، وعبر بالأيدي لأنّ أكثر الأفعال تزاول بها، وجاء الوصل بالفاء ليفيد التّسبيب والتّعقيب[٦].

وأوثرت صيغة المضارع في (يعفو) للاستمرار التجددي، وتنكير (كثير) للشمول، أي عن خلق أو ناس أو أفعال أو أقوال أو غير ذلك. وقد تجلت في هذه

---

(١) صحيح مسلم: ٤٢٨/٢، و=: المحرر الوجيز: ١٧٣/١٣.
(٢) =: المحرر الوجيز: ١٧٤/١٣.
(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب، عبد الله الطيب المجذوب: ٢٣٤/٢.
(٤) أسرار البلاغة: ١٢.
(٥) التّصوير الفني في القرآن: ٨٨.
(٦) =: الفصل والوصل في القرآن الكريم: ١١٠.

الآية صفة أخرى من صفات لغة التّشريع حيث وضوح البيان ودقته، والوصول إلى المعاني من أقرب الألفاظ المنتقاة والتّراكيب الموجزة التي تحقق هدف الدّعوة القرآنية وتشير إلى ضرورة الالتزام بهذه القواعد الإيمانية لتستقيم حياة المسلمين في الدّنيا وينالوا رضا الله في الآخرة.

وهكذا جاءت هذه القاعدة تنبه النّاس إلى أنّ ما يصيبهم من المصائب هو جزاء لهم على ما يقترفونه من السّيئات، ممّا يبعثهم على أنْ يراجعوا أحوالهم ويحاسبوا أنفسهم، كما أنّها تنبيه إلى أنّ الجزاء على الأعمال ليس ما أوعدوا به في الآخرة فحسب بل مِنه ما يصيبهم في الدّنيا ومِنه ما يعفو الله عنه.

❖❖❖❖❖

وتعرض سورة الشورى قاعدة أخرى من القواعد الإيمانية الدّنيوية يتمثل فيها الأصل في الجزاء وهو مقابلة السيئة بالسيئة كي لا يطغى الشر حين لا يجد رادعا يكفه عن الإفساد في الأرض، ويتصاحب هذا الأصل مع ذكر استحباب العفو عند المقدرة ابتغاء أجر الله، وإصلاحا للنفس والجماعة من الأحقاد، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ﴾[1].

وقد عمد النّظم القرآني في بناء هذه القاعدة إلى جناس المزاوجة أو ما يسمى بـ(المشاكلة) ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾، فأطلق لفظ (سيئة) على كلتا الفعلتين لأنّها تسوء مَن تنزل به، وقد سميت الثّانية باسمها لقصد المزاوجة[2]. وفي ذلك ما يؤدي إلى التّنفير من فعل السّيئة، حيث إنّ الجزاء على السّيئة سيكون شديدا لا تقل شدّته عن الأثر السّيئ الذي يترتب على اقتراف المعاصي والسيئات.

واستخدام السّيئة في الجزاء عليها من قبيل المجاز المرسل بعلاقة السّببية، إذ يستحيل أنْ يكون القصاص من الجاني ظلما وعدوانا، وهكذا تواشجت المشاكلة مع المجاز المرسل لإظهار جمال الأسلوب وسمو بلاغته. وتنبثق بلاغة المشاكلة من أنّ النّاظر يتوهم أنّ المعنى الثّاني هو عين الأوّل، فيديم النّظر ويعمل الفكر حتى يعلم أنّه غيره، فيكون ذلك سببا لاستقراره في الذّهن، ورسوخه في الفهم، فيكون أدعى للثبوت

---

(١) الآية: ٤٠.

(٢) =: الجداول في إعراب القرآن: ٥٢/٢٥.

وعدم التّفلت[١]. وهكذا سمى العقوبة باسم الذّنب لتتحقق القيمة الجمالية من هذا النّظم والتي تتمثل في التّرغيب في فضيلة العفو والحلم، والتّنفير من العقوبة، فضلا عن أنّ القرآن بعد أنْ سمّى العقوبة سيئة اشترط أنْ تكون مساوية ومماثلة للاعتداء دون تجاوز.

ثمّ جاء الحثّ على العفو والذي لا يكون إلاّ مع المقدرة على الجزاء، وقد عمد النّظم في الآية: ﴿ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ إلى «إبهام الأجر وجعله حقا على العظيم جلّ شأنه زيادة في التّرغيب، وجيء بالفاء ليفرعه عن السّابق، أي: إذ كان سلوك الانتصار غير مأمون العثار فمَن عفا وأصلح فهو سالك الطريق المأمون العثار المحمود في الدارين»[٢]، ثمّ ختم الآية بقوله ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ على سبيل الاكتفاء، والتّقدير: إنّه يحب العافين، أي: فيؤجر الذين عفوا وينتصر لهم على الباغين لأنّه لا يحب الظّالمين، فكان ذلك تتميما لمعنى الآية وتصريحا بما ضمّن من عسر رعاية طريق المماثلة وأنّه قلّما تخلو من الاعتداء والتّجاوز[٣]. وقد جاءت الآية على سبيل إيجاز القصر حيث شملت أصول الإرشاد إلى ما في الانتصار من الظّالم وما في العفو عنه من صلاح الأمة، ففي السّماح للمظلوم أنْ ينتصر من ظالمه ردع للظالمين عن الإقدام على الظّلم خوفا من أنْ يأخذ المظلوم بحقه، فضلا عمّا فيها من التّرغيب في عفو المظلوم عن ظالمه وما في ذلك من حفظ آصرة الأخوة الإسلامية مع مراعاة ذكر ردع الظّالم بقوله ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ولا ينحصر ما في طي هذا من هول الوعيد[٤].

وهكذا كانت هذه القاعدة ميزانا يحفظ للمظلوم حقه، وكانت وقاية تقي المتدبر فيها والعامل بها مهالك طريق الشّر، وتوجه المسلم إلى خطوة أخرى نحو بناء المجتمع الإسلامي الذي يسوده الأمن والسّلام.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) =: البديع في ضوء أساليب القرآن: ٧٦ - ٧٧.
(٢) روح المعاني: ٤٨/٢٥.
(٣) =: التّحرير والتّنوير: ١١٦/٢٥.
(٤) =: م. ن: ١١٦/٢٥ - ١١٧.

واقتضت سنة الله في خلقه أنْ تصرف الهداية إليه، فلا هادي إلاّ الله، لذلك نجد هذه القاعدة الإيمانية في قوله تعالى ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾[١].

فقضاء الله لا يرد، ومشيئته لا معقب عليها، فإذا علم من حقيقة العبد أنّه مستحق للضلال، حقت عليه كلمته أنْ يكون من أهل الضّلال، ولم يكن له بعد ذلك من ولي يهديه من ضلاله أو ينصره من جزاء الضّلال الذي قدره له[٢].

وقد أثر التّعبير القرآني ذكر جانب الضّلال دون ذكر الهداية مراعاة لمقتضى حال المخاطبين، ولا سيّما أنّهم كثر في بداية الدّعوة، وقد تمثل في إيثار ذكر الضّلال تحقير أمر الكفرة لكي لا يبالي بهم أحد من المؤمنين، «فقد أصارهم كفرهم وإضلال الله تعالى إياهم إلى ما لا فلاح لهم معه»[٣]. فضلا عن أنّ إيثار ذكر هذا الجانب أوحى بالمعنى الآخر وهو أنّ الولاية الحقة هي ولاية الله، وهي التي لا ينالها إلاّ مَن هداه الله، كما توحي الآية بمعنى آية أخرى هي قوله (ﷻ) ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾[٤].

وقد كنى السّياق بـ(مَن) عن الظّالم الباغي تسجيلا بأنّه ضال مخذول، أو أتى به مبهما ليشمله شمولا أوّليا[٥]، ونفي الولي كناية عن نفي أسباب النّجاة من الضّلال وعاقبته في الدّنيا والآخرة، وقد استعير لفظ (بعد) لمعنى (دون) أو (غير) «لأنّ (بعد) موضوع لمَن يخلف غائبا في مكانه أو في عمله، فشبه ترك الله الضال في ضلاله بغيبة الولي الذي يترك مولاه دون وصي ولا وكيل لمولاه»[٦]، وقد أفادت (مِن) الأولى التّنصيص على العموم، وتنكير (ولي) للنوعية والتقليل، أي أي نوع من الولاية مهما كان قليلا. وهكذا تكون الآية قاعدة إيمانية ثابتة تنذر الكافرين وتتوعدهم بنفي الولاية عنهم في الدّنيا والآخرة ليعيشوا في ضلال دائم في الدّنيا، ويلاقوا جزاءه في الآخرة،

(١) سورة الشّورى: من الآية ٤٤.
(٢) =: في ظلال القرآن: ٥/٣١٦٨.
(٣) المحرر الوجيز: ١٣/١٨٥.
(٤) سورة الزمر: من الآية ٣٧.
(٥) =: روح المعاني: ٢٥/٥٠.
(٦) التّحرير والتّنوير: ٢٥/١٢٤.

وقد أكّد التّعبير القرآني هذه القاعدة بعد ذلك بقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[١] ثم نفى عنهم أي سبيل للنجاة من الضلال وعاقبته ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾[٢] وقد جاءت الآية تذييلا لما سبقها، وتنكير (سبيل) - في سياق النّفي وبعد (مِن) التي أفادت التّنصيص على العموم - يعم كلّ سبيل ينجي من الضّلال وعاقبته، فقد نفي السّبيل لذلك مهما كان نوعه.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سورة الأحقاف تأتي قاعدة إيمانية أخرى تتمثل فيها الفطرة الإنسانية في استقامتها، وفيما تنتهي إليه حين تستقيم، إنّها الوصية بالوالدين، والتي كثيرا ما ترد لاحقة للكلام عن العقيدة في الله أو مصاحبة لهذا الحديث، ذلك أنّ وشيجة الأبوة والبنوة هي أوّل وشيجة بعد وشيجة الإيمان في القوة والأهمية وأولاها بالرّعاية والتّشريف، قال تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[٣].

فهي وصية لجنس (الإنسان) كلّه، وهي الوصية بالإحسان مطلقة من كلّ شرط ومِن كلّ قيد، وهذه القاعدة من أهم قواعد بناء المجتمع الإسلامي، لأنّ الأسرة هي اللبنة الأولى في بنائه، فلا بدّ من الحبّ والتّعاون والتّكافل.

وقد أظهر التّعبير القرآني ذكر عناء الأم في فترة الحمل والوضع ليذكر الإنسان بعلّة هذه الوصية، فضلا عن أنّ حق الأب ظاهر لمَا له من الكسب والإنفاق والذّب والتّأديب ولذلك لم يذكره وذكر ما للام لأنّ أمده يسير فربما استهين به[٤].

ومِن بديع معنى الآية جمع مدّة الحمل إلى الفصال في ثلاثين شهرا لتطابق

---

(١) سورة الشّورى: من الآية ٤٦.

(٢) سورة الشّورى: من الآية ٤٦.

(٣) سورة الأحقاف: الآية ١٥.

(٤) =: نظم الدرر: ١٨/١٤٥.

مختلف مدد الحمل[١]، وقد ذكر الله تعالى الأم في هذه الآية في أربع مراتب، والأب في مرتبة واحدة، وجمعهما في لفظة (بوالديه)، فقد ذكر الحمل للأم ثمّ الوضع لها ثمّ الرّضاع الذي عبر عنه بالفصال، وهذا يناسب ما قاله رسول الله (ﷺ) «**إذ قال له رجل: يا رسول الله مَن أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمّك، قال: ثمّ مَن؟ قال: أمّك، قال: ثمّ مَن؟ قال: أمّك، قال: ثمّ مَن؟ قال: أبوك**»[٢] وقد جاء تفصيل ما يتعلق بالأم بعد قوله: (بوالديه) على سبيل ذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية والاهتمام بشأن الأم لحقها العظيم.

وتتجلى دقة التّعبير القرآني في اختيار ألفاظ الآية ولا سيّما في إيثار لفظة (كرها) دون (بغضا) ذلك أنّ (الكره): المشقة التي تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بإكراه، أمّا البغض فهو نفار النّفس عن الشّيء الذي ترغب عنه وهو ضدّ الحب[٣]. ويدل (الكره) في الآية على معنى الأمر الذي تصحبه مشقة، أي تتحمل المشقة في حمله ووضعه، وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضّنى والكلال، وكأنّنا نسمع آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد ويلهث بالأنفاس. إنّها صورة الحمل في أيامه الأخيرة وصورة الوضع وطلقه وآلامه[٤]. ولا يخفى ما بين (حملته) و(وضعته) من الطباق الذي يعمق في الحس والوجدان ذلك العناء وتلك المشقة.

ويتجلى الإيجاز بأبهى صوره في قوله ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ إذ جمعت هذه الألفاظ اختلاف كلّ فترات الحمل والرّضاع، والتّعبير عن مدة الرضاع بـ(الفصال) مجاز مرسل بعلاقة المجاورة[٥].

وانتقل النّظم في الآية انتقاله مباشرة إلى مرحلة أخرى أذنت ببدئها (إذا) التي وقعت بعد (حتى)، والفعل الماضي بعد (إذا) أفاد الاستقبال، وإنّما صيغ بصيغة الماضي تشبيها للمؤكد تحصيله بالواقع، والمعنى الذي أوحى به نظم الآية هنا هو

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٣٠/٢٦.

(٢) صحيح مسلم: ٤١٧/٢.

(٣) =: المفردات في غريب القرآن: ٤٢٩ و٥٥.

(٤) =: في ظلال القرآن: ٣٢٦٢/٦.

(٥) =: الجدول في إعراب القرآن: ١٨١/٢٦.

استمرار الإحسان إليهما إلى أنْ يبلغ أشدّه فيطلب العون من الله على زيادة الإحسان إليهما بأنْ يلهمه الشّكر على نعمه عليه وعلى والديه[1].

وقد جاء الدّعاء على سبيل التناسب مع مراتب السّعادة الثّلاث (النّفسانية والبدنية والخارجية) فالأولى هي اشتغال القلب بالشّكر ولذلك ذكر أوّلا في ﴿ أَوْزِعْنِيَ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾، والبدنية هي اشتغال البدن بالطّاعة فذكرت ثانيا في ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾، والخارجية هي سعادة الأهل والولد فذكرت ثالثا في ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ﴾ فضلا عن أنّ إعمال القلب أشرف من إعمال الجوارح، والأشرف يجب تقديمه في الذّكر[2]، واقترن صلاح العمل برضا الله كي يكون العمل مرضيا عند الله لا أنْ يكون صالحا عند العبد فقط، وقيل: المراد بالرضا هنا ثمرته على طريق الكناية[3]، وتنكير (صالحا) للتفخيم والتّكثير، أو أنّه أراد نوعا من الجنس يستجلب رضا الله، ففي التّنكير إشارة إلى العجز عن بلوغ الغاية فإنّه لن يقدر الله حق قدره أحد[4]. فضلا عن تقديم ما يتعلق بحق الله تعالى أوّلا، وهو شكر النّعمة، ثمّ جاء ما فيه مصلحة العبد وهو العمل الصّالح، ثمّ ذكر بعدها إصلاح الذّرية وختمها بالتّوبة، لأنّ الدّعاء لا يصح إلاّ مع التّوبة وإلاّ مع كونه من المسلمين. وأوثر في الدّعاء لصلاح الذرية الحرف (في) ليفيد أنّ ذريته نزلت منزلة الظّرف يستقر فيه ما هو به الإصلاح ويحتوي عليه، ويفيد تمكن الإصلاح من الذّرية وتغلغله فيهم[5]. وقد جاء الدّعاء بإصلاح الذرية مع الكلام عن الإحسان إلى الوالدين على سبيل الإدماج وفي ذلك إيماء إلى قاعدة أخرى وهي أنْ يكون الجزاء من جنس العمل، أي أنّ المرء يلقى من إحسان أبنائه إليه مثل ما لقي أبواه من إحسانه إليهما.

وهكذا تتجسد في الآية قاعدة إيمانية دنيوية ترشد العبد إلى طريق الخير وإلى خطوات بناء الأسرة الصّالحة في المجتمع الإسلامي ولا سيّما أنّ هذه الخطوات هي

---

(١) =: التّحرير والتّنوير: ٣١/٢٦.

(٢) =: التّفسير الكبير: ٢٠/٢٨.

(٣) =: روح المعاني: ١٩/٢٦.

(٤) =: نظم الدرر: ١٤٩/١٨.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٣٤/٢٦.

سنة الله التي ارتضاها لعباده فأمرهم بها، ومن زاغ عنها وخالف أمر الله فقد ظلم نفسه وكان من الخاسرين.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## المبحث الثّاني
## من القواعد الأخروية

يمثل ذكر هذه القواعد التي تتعلق بيوم الحساب جانبا من التّرغيب والتّرهيب في القرآن الكريم، كما أنّه أسلوب من أساليب الدّعوة القرآنية يتمثل فيه بيان مصير المؤمنين وما أعده الله لهم في الآخرة ومصير الكافرين وما ينتظرهم من العذاب، فضلا عمّا تتضمنه هذه القواعد من إبطال وهم الكافرين وزعمهم أنّ إشراكهم وضلالهم هو العبادة الحقة، وتضمنت هذه القواعد تأكيد عدل الله في حسابه ونفي الظّلم عنه، وبيان عظيم رحمته وفضله ومغفرته في الحساب، وأنّ كفر الكافرين لا ينقص من عظمته وملكه شيء، وأنّ إعمال الصّالحين لا تزيد في ملكه شيء، وإنّما كلّ يعمل لنفسه ويجزى بما يعمل، ومن هذه القواعد قوله تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠ ﴾[1].

جاءت هذه الآية على لسان مؤمن آل فرعون في سياق نصحه لبني إسرائيل في اتباع موسى (عليه السلام)، والآية بيان لجملة ﴿ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾[2]. وغاية هذا الخبر الإرشاد وتحريك الهمة، فهو يعرض لهم قاعدة الحساب والجزاء في دار القرار، فقد اقتضى فضل الله تعالى أنْ تضاعف الحسنات ولا تضاعف السّيئات رحمة منه بعباده.

وقد أثر نظم الآية تنكير (سيئة) للنوعية أو للتقليل، أي مهما كانت هذه السّيئة، ثمّ أوثر أسلوب القصر بالنّفي والاستثناء ﴿ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ إذ قصر الجزاء على المثل، وفي ذلك نفي للجزاء عن عمل السّوء بجزاء الخير.

---

(١) سورة غافر: الآية ٤٠.

(٢) سورة غافر: من الآية ٣٩.

ثمّ قوبل جزاء أهل السّيئات بجزاء أهل الصّالحات، وأضاف هنا قوله ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ بيانا لما في (مِن) من الإبهام، والمراد عموم النّاس بذكر صنفيهم تنصيصا على إرادة العموم[١]. وجاء قوله ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ على سبيل الاحتراس من دخول بعض الأعمال الصّالحة التي لا تقترن بالإيمان بل بالشّرك الأصغر (الرّياء)، وكثيرا ما يقترن ذكر العمل بالإيمان، وجيء باسم الإشارة (أولئك) للتعظيم، فقد «جعل الجزاء في جزاء أعمالهم جملة اسمية مصدرة باسم الإشارة مع تفضيل الثّواب وتفصيله تغليبا للرّحمة وترغيبا فيما عند الله (ﷻ) وجعل العمل عمدة وركنا من القضية الشّرطية والإيمان حالا للدلالة على أنّ الإيمان شرط في اعتبار العمل والاعتداد به والثّواب عليه»[٢].

أمّا قوله ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فهو كناية عن سعة الرّزق ووفرته[٣]، وقد جاء على سبيل المقابلة مع قوله ﴿ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ ليفيد «أنّ جزاء السّيئة له حساب وتقدير لئلا يزيد على الاستحقاق، فأمّا جزاء العمل الصّالح فبغير تقدير وحساب، بل ما شئت من الزّيادة على الحق والكثرة والسّعة»[٤]، وبناء الأفعال (يجزى) و(يرزقون) للمجهول اهتماما بالحدث والمصير، وهو في جانب جزاء الكافرين يفيد التّهويل والتّرهيب، وفي جانب الإنعام على المؤمنين يفيد التّرغيب والإكرام. وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في جملة جواب الشّرط لإفادة الحصر، والمعنى: إنّكم إنْ متم على الشرك والعمل السّيئ لا تدخلونها[٥]. وهو ما يفيده نظم الآية إلى جانب وفرة دلالة الاحتباك على معاني أخرى إذ إن «ذكر المساواة أوّلا عدلا يدل على المضاعفة ثانيا فضلا، وذكر إدخال الجنة ثانيا يدل على إدخال النّار أوّلا، وسرّه أنه ذكر فضله في كلّ من الشّقين»[٦].

(١) =: التّحرير والتّنوير: ١٥١/٢٤.

(٢) روح المعاني: ٧٠/٢٤ - ٧١.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ١٥١/٢٤.

(٤) الكشاف: ١٦٨/٤.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ١٥١/٢٤.

(٦) نظم الدرر: ٧٥/١٧.

وهكذا جاءت هذه القاعدة من قواعد الحساب والجزاء خالدة إلى يوم الجزاء ترشد النّاس إلى طريق الخير وتدعوهم إلى العمل الصّالح وتحرك الهمم إلى نيل رضا الله وفضله ونعيمه في جنته، وتحذر من عقابه.

❖❖❖❖❖

وقبل ذكر السّاعة وتأكيد مجيئها الذي لا ريب فيه، تذكر قاعدة أخرى في سورة غافر تنفي استواء الكافرين والمؤمنين، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾(١).

يتواشج في نظم هذه الآية الكريمة الطباق بين (الأعمى) و(البصير) مع التّقابل بين ﴿ ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ و﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾، وكذلك مع الاستعارة التّصريحية في (الأعمى والبصير) حيث استعير (الأعمى) للكافر و(البصير) للمؤمن، «وفي هذا التّعبير الاستعاري تصوير حسي موح على حقيقة كلّ منهما يخرجه القرآن لتملي الدّلالات التي يعنيها الكفر الذي يؤثر في الكافر فيصيبه بالعمى الذي يجعل من الكافر يتخبط في ضلال مبين، وكذلك لتملي الدّلالات التي يعنيها الإيمان الذي يؤثر في المؤمن فيصيبه بالحياة التي تجعل مِنه إنسانا يمشي على بصيرة في النّاس وهدى»(٢)، وقد أثر التّعبير القرآني تقديم الوصف الاستعاري للفريقين ثمّ ذكر بعده الوصف الصريح، لمَا للوصف الاستعاري من تأثير في المتلقي، فضلا عن أنّ التّعبير الاستعاري في مثل هذه الصّور يجسد لنا حقيقة الاستعارة لنجدها «مشاعر وأفكار يقترض بعضها من البعض الآخر بصورة متعمقة وتعانق صميم في سياقات متآلفة وليست شكلا إضافيا أو ثوبا تزيينيا للغة»(٣)، فقد جسدت الاستعارة صورة الكافر وهو يتخبط في ظلام الكفر والعصيان وقد فقد نور البصيرة، كما جسدت المؤمن وهو متمكن من السّير على طريق الحق والهدى بفضل الله ونعمته، والاستعارة أوجزت كلّ هذه المعاني بكلمتين: (الأعمى والبصير)، فهي التي تعطي المعاني الكثيرة باليسير من

---

(١) سورة غافر: الآية ٥٨.

(٢) الاستعارة في القرآن الكريم: ٨٩.

(٣) فلسفة البلاغة بين التقنية والتّطور، رجاء عيد: ١٥٨.

الألفاظ، وهو ما يدعى بـ(التّكثيف)[١].

وبعد التّركيب الاستعاري الذي تواشج مع الطباق، يأتي ذكر الطّرف الآخر من المقابلة في ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ ﴾ وهو زيادة بيان لفضيلة الإيمان بذكر فضيلتهم في أعمالهم بعد ذكر فضلهم في إدراك أدلة إمكان البعث ونحوه من أدلة الإيمان[٢]، فيكون معنى المقابلة: وما يستوي الضّال والمهتدي، والذين آمنوا وعملوا الصّالحات لا يستوون مع المسيء فينحطون لدركته، ولا المسيء يستوي معهم فيرتفع لدرجتهم[٣]. ولا يخفى ما في النّظم الجليل من تلون أسلوب الكلام، ولا سيّما في التّرتيب أو التّقديم والتّأخير، حيث قدم (الأعمى) لمناسبة العمى مع ما قبله من نفي العلم في قوله ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٤] وقدم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ لمجاورة البصير ولشرفهم، فجاور كلّ ما يناسبه، وتقدم ما يقابل الأوّل وتأخر ما يقابل الآخر[٥]. وفي الآية احتباك لا تخفى بلاغته إذ «ذكر عمل الصّالحات أوّلا دليلا على ضدّها ثانيا، والمسيء ثانيا دليلا على المحسنين أوّلا، وسرّه أنه ذكر الصّلاح ترغيبا والإساءة ترهيبا»[٦] وفي العدول عن التّصريح بإحسان المؤمنين إلى ما في النظم الجليل إشارة إلى أنّ المؤمنين علم في الإحسان[٧]، وأعيدت (لا) النافية لتأكيد نفي المساواة، ولا سيّما أنّ مقام التّوبيخ يقتضي الإطناب.

وبعد أنْ عرض التّعبير القرآني نفي استواء الفريقين بهذه الصورة الواضحة التي توحي بأنّهما لا يستويان في الجزاء يوم القيامة الذي لا ريب فيه، أكد أنّ ذلك قاعدة ثابتة واضحة لا تحتاج مِنا إلاّ التّذكر والتّذكير، ولذلك قال ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وفائدة هذا الالتفات في مقام التّوبيخ هي إظهار العنف الشّديد والإنكار البليغ، والمعنى: تذكرا قليلا تتذكرون أيّها الكفار المجادلون،

---

(١) =: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر أحمد عصفور: ٢٥٤.
(٢) =: التّحرير والتّنوير ١٧٧/٢٤.
(٣) =: روائع الإعجاز في القصص القرآني: ٣١٤.
(٤) سورة غافر: من الآية ٥٧.
(٥) =: الجدول في إعراب القرآن: ٢٦٣/٢٤.
(٦) نظم الدرر: ٩٧/١٧.
(٧) =: روح المعاني: ٨٠/٢٤.

وقد يعبر بقلّة الشّيء عن عدمه[١].

وفي آية مماثلة نقرأ ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[٢]، فقد حذف (التّاء) من الفعل للدّلالة على أنّ هذا لا يحتاج إلى طول تأمل وتذكر، أمّا في سورة غافر فهم يحتاجون إلى طول تذكر وتفكر ليعلموا أنّ المؤمنين أفضل من الكافرين[٣]، ولا سيّما أنّ الكافرين كانوا لا يقرون بذلك.

وهكذا مثلت الآية قاعدة إيمانية، خالدة بخلود الكتاب العزيز، ترشد المتدبرين المتذكرين إلى طريق النّجاة، ومَن لم يتدبر فهو كالأعمى في ضلال دائم إلى يوم الجزاء.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سياق وعيد الله للكافرين وتأجيل القضاء بينهم إلى يوم الحساب، تأتي قاعدة أخرى تضع على كاهل البشرية عبء الاختيار بين طريق الخير وطريق الضّلال، وتعلن أنّ الجزاء مقرون بالعمل وموقوف عليه، وأنّ الله ليس بظلام للعبيد، وذلك في قوله تعالى ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾[٤].

مِن التّناسب أنْ تأتي هذه الآية مبدوءة بـ(مَن) لتفيد معنى العموم سواء أكانت شرطية أم موصولة، والآية في موضع الاعتراض التذييلي لسياق ذكر الأجل المسمى[٥]. وقد أوثرت صيغة الماضي (عمل) للإيحاء بأنّ عمل النّاس ذاهب ومنقض بانقضاء الدّنيا، فضلا عن أنّها تلقي في النّفس سرعة انقضاء الدّنيا وزاولها وكان على النّفس أنْ تسارع إلى اختيار العمل الصّالح قبل فوات الأوان، وتنكير (صالحا) للنوعية والتّقليل، أي مهما كان نوع عمله الصّالح ومهما كان قليلا فإن الله يضاعفه له، ولا يخفى حذف المسند إليه بعد الفاء المقترنة بجواب الشّرط لتحقيق الإيجاز، والتّقدير: فعمله لنفسه

(١) =: تفسير روح البيان: ١٩٩/٨.

(٢) سورة هود: الآية ٢٤.

(٣) =: بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني: ٢٠ - ٢١.

(٤) سورة فصّلت: الآية ٤٦.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٣١٨/٢٤.

وإساءته عليها[١].

وثمّة لطيفة أخرى تتجلى فيها دقّة النّظم في الآية، حيث أثر في جانب جزاء العمل الصالح (اللام) في قوله: (فلنفسه) للإيحاء بالتّكريم والتّشريف بفضل الله ونعمته، في حين أثر في جانب جزاء السّيئ من العمل (على) في قوله: (فعليها) للإيحاء بالذّل والهوان الذي ينغمس فيه الكافر إذ يتمكن مِنه الجزاء تمكن استعلاء وشمول فيعود وبال عمله السّيئ عليه.

وثمّة لطيفة أخرى إذ استعمل في جانب الخير قوله: (عمل صالحا) في حين استعمل في جانب السّوء (أساء) للإيحاء بأنّ الهداية فضل من الله لمَن يشاء، وأنّ عمل السّوء هو اختيار الفرد بنفسه، لذلك نسب السّوء إليه فقال: (أساء) في حين نسب الصّلاح للعمل فقال: (عمل صالحا) أي بعد أنْ هداه الله لذلك، وهذا من إيحاء إيجاز القصر الذي بنيت عليه الآية الكريمة.

وتأكيدا لذلك المعنى واستكمالا للقاعدة في هذه الآية فقد نفى الظّلم عن نفسه (ﷻ)، قليله وكثيره، فإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها[٢]، فلا يعذب أحدا إلاّ بذنبه ولا يقع مِنه الظّلم لأحد. ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[٣]، وسرّ الاختلاف بين الآيتين أنّ آية سورة الجاثية جاء قبلها حديث عن منكري البعث فناسب ختم الآية بالحديث عنه، أمّا آية سورة فصّلت فناسب ختمها معناها: من جزاء كلّ بما يستحق[٤]. فالآية نصيحة بينة وتحذير وصدع بأنّ الله لا يضع شيئا من عقوبات عباده في غير موضعها، بل هو العادل المتفضل الذي يجازي كلّ عبد بما كسبت يداه، وهي قاعدة من القواعد الأخروية تبشر المؤمنين بالتّكريم والفضل، وتنذر الكافرين بالذّل والعذاب.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سورة الشّورى تعرض قاعدة أخرى تبشر المؤمنين بفضل الله تعالى

(١) =: البلاغة فنونها وأفنانها: ٢٠١.

(٢) =: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٣٧٠.

(٣) سورة الجاثية: الآية ١٥.

(٤) =: من بلاغة القرآن: ٨٤.

عليهم يوم الحساب، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[1].

وقد جاءت هذه الآية تذييلا لقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ﴾ فالله تعالى يضاعف الحسنات بفضله ورحمته، والتضعيف في الفعل (يبشر) يوحي بالتكثير في هذا الفضل.

وقد أثر التّعبير القرآني (مَن) للدّلالة على العموم، وآثر الفعل (يقترف) بصيغة المضارع ليفيد الاستمرار التّجددي وثبات فاعل الحسنات على فعلها والاستزادة منها، وقد أوثر الاقتراف دون الاكتساب لأنّه مبالغة فيه، فضلا عن أنّ (القرف) «يدل على مخالطة الشّيء والالتباس به وادراعه»[2]، مما يوحي بمعنى مخالطة فاعل الحسنة للعمل الصالح والالتباس به وادراعه على سبيل الاستمرار والتّجدد، لينال رضا الله ورحمته، أمّا الكسب فهو «الفعل العائد على فاعله بنفع أو ضر»[3] وهو لا يحقق تلك المعاني التي أفادها لفظ (يقترف)، ولا يخفى أنّ هذه الكلمة أوثرت هنا على سبيل الاستعارة، فأصل القرف والاقتراف قشر اللّحاء عن الشّجرة، والجليدة عن الجذع[4]. وتنكير (حسنة) للنوعية والتّقليل، أي مهما يكن نوعها أو مهما تكن قليلة.

ولمّا كانت الحسنة مأخوذة من الحسن جعلت الزّيادة فيها من الزّيادة في الحسن مراعاة لأصل الاشتقاق[5]، فكان ذكر (الحسن) من الجناس المعبر عنه بجناس الاشتقاق، وزيادة الحسن هو التّضعيف الذي وعد الله تعالى به مؤمني عباده، وفي إسناد الزّيادة إلى نون العظمة تشريف للمؤمنين، وتنكير (حسنا) للتكثير والتّعظيم. وختمت الآية بالتّذييل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ وهو تعليل للزّيادة لقصد تحقيقها، فالله كثيرة مغفرته لمَن يستحقها، وهو ساتر عيوب عبيده ومجاز على الدّقيقة من الخير، لا يضيع عنده عمل العامل.

---

(١) سورة الشّورى: من الآية ٢٣.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ٨٥١.

(٣) الفروق في اللغة: ١٣٠.

(٤) =: تنوير الأذهان: ٤٨٥/٣.

(٥) =: التّحرير والتّنوير: ٨٥/٢٥.

هكذا هو الحساب، قواعد ثابتة واضحة، فيها فضل الله الذي لا يحاسب العباد حساب التّجارة، بل حساب السماحة والفضل، وحساب المغفرة والرّحمة، وهو الشّكور لعباده الذين وهبهم - بفضله ورحمته - التّوفيق إلى الإحسان، ويزيد لهم في الحسنات، ويغفر لهم السّيئات، إنّه فيض يعجز الإنسان عن شكره وتوفيته.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سورة الجاثية، قاعدة أخرى من قواعد الحساب الأخروي كتلك التي ذكرت في سورة فصّلت، لكنّها هنا تختم بالرّجوع إلى الله وحده، فالأمر له في النّهاية، وإليه المرجع والمآب، يقول الله تبارك وتعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

وقد جاءت الآية تأكيدا لسابقتها التي تضمنت جزاء الله للعباد بما كانوا يكسبون فيعاقب المذنبين بذنوبهم، ويثيب المؤمنين ويزيدهم من فضله جزاء طاعتهم له، كما أنّها جاءت تفصيلا للإجمال السّابق لها، وقد اختلفت فاصلة هذه الآية عمّا ورد في سورة فصّلت من قوله تعالى ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾[2]. فالفاصلة في آية سورة الجاثية ناسبت ما سبقها إذ كان حديثا عن منكري البعث، والفاصلة في آية سورة فصّلت ناسبت نتيجة الحساب وهي جزاء كلّ بما يستحق[3]، وقد يكون هذا التّنوع في الفواصل مع تماثل السّياق السّابق لها له دلالة أخرى وهي «تعدد الأوصاف وإثباتها حتى تستقر بالنّفس»[4] ولا يخفى ما لهذه الفواصل واختلافها من أثر في إيقاع التّعبير القرآني، ويبقى فيه شيء يلحظ ولا يشرح وهو كامن في نسيج اللفظة المفردة وتركيب الجملة الواحدة وهو يدرك بحاسة خفية[5]، وهذا جزء من الإعجاز التّأثيري للقرآن الكريم، وتبقى بعد كلّ ذلك أسرار كثيرة لا يعلمها إلاّ الله (ﷻ).

---

(١) سورة الجاثية: الآية ١٥.

(٢) سورة فصّلت: الآية ٤٦.

(٣) =: البديع في ضوء أساليب القرآن: ٥٣.

(٤) م. ن: ٥٣.

(٥) =: التّصوير الفني في القرآن الكريم: ٨٨.

وقد أشرنا في تحليل آية سورة فصّلت إلى ما يتعلق بإيثار (اللام) و(على) فاللام هي لام الحظ، لأنّ الحظوظ والمحاب إنّما تستعمل فيها اللام التي هي كلام الملك، ويستعمل في ضد ذلك (على)[1]، ولذلك تناسبت (اللام) مع العمل الصّالح، وتناسبت (على) مع الإساءة.

وقد أطلق على المصير إلى حكم الله أنه رجوع إليه على طريقة التّمثيل[2]، وأوثر الحرف (ثمّ) للإشعار بمدة الحياة الدّنيا وأنّها مهما طالت فلا بد من هذا الرّجوع، وتقديم ﴿ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أفاد قصر الرّجوع إليه لا إلى غيره، وبني الفعل للمجهول للتّركيز على الحدث والاهتمام به.

وأمام هذه القاعدة الإيمانية يتسع صدر المؤمن، ويرتفع شعوره، ويتحمل المساءات الفردية والنّزوات الحمقاء من الآخرين، في غير ضعف أو ضيق، لأنّه يعلم أنّه مجزي بعمله وصبره، لا يصيبه من وزر المسيء شيء، فضلا عن أنّ فاصلة الآية تعريض بمنكري البعث والحساب.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## المبحث الثّالث
## مِن القواعد المشتركة

مِن ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[3]. لقد واجه الرّسول (ﷺ) عنتا شديدا من المشركين وإصرارا على الكفر والضّلال، ومِن أشد ذلك إنكارهم للبعث والحساب وقيام السّاعة، لذلك نجد أنّ القرآن الكريم قد تضمن الكثير من الآيات التي تؤكد وقوع السّاعة والحساب إبطالا لإنكار هؤلاء المنكرين، وهذه الآية واحدة مِنها، وهي قاعدة من القواعد الإيمانية المشتركة بين الدّنيوية والأخروية، فتأكيد وقوع السّاعة ونفي الرّيب عنها أمر أخروي، ونفي إيمان الكثير من النّاس بوقوعها أمر دنيوي. وقد بدأت الآية بالتّوكيد بـ(إنّ) لأنّ

---

(١) =: المحرر الوجيز: ١٣/٣٠٦.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٣٤٣.

(٣) سورة غافر: الآية ٥٩.

المقام يقتضي التوكيد ولا سيّما أنّ المخاطبين منكرون، فضلا عن التّوكيد بـ(اللام) في قوله: (لآتية)، كما أكدها باسمية الجملة في أصلها، وكلّ ذلك لشدّة إنكار المنكرين، وعقب على مضمونها بجملة نفي جنس الارتياب أيًّا كان بقوله: (لا ريب فيها) أي في ذاتها ونفسها[1]، ويثير نفي الريب عن وقوعها سؤال سائل: كيف ينفي الرّيب عنها والرّيب حاصل لكثير من النّاس؟ فيأتي الاستدراك جوابا عن ذلك على سبيل الوصل استئنافا بيانيا لوقوع (لكنْ) بعد واو العطف في الغالب[2]. و ﴿ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾ هم المشركون وهم يومئذ أكثر من المؤمنين، والمعنى: إنّ أكثر النّاس يمرون بالأدلة والآيات وهم معرضون عن دلالتها غير مؤمنين، ولو تأملوها بعقولهم لظهر لهم من الأدلة ما يؤمنون بعده، ولذلك نفي عنهم هنا وصف الإيمان[3]، ونظير الآية قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا ﴾[4] دون توكيد باللام لأنّ المخاطب هنا موسى (عليه السلام) أمّا المخاطب في آية سورة غافر فهم المشركون وهم شاكون ومنكرون للسّاعة والبعث والحساب، فضلا عن أنّ السّياق في سورة غافر تضمن ذكر خلق السّماوات والأرض، فمَن قدر على ذلك قدر على خلق النّاس، ومَن قدر على خلقهم أوّلا قدر على خلقهم ثانيا، فكان الموضع من مواضع التّوكيد، أمّا موسى (عليه السلام) فلم ينكر ذلك[5].

وهكذا كانت هذه القاعدة ترغيبا وحثا للمؤمنين على العمل الصّالح والاستزادة منه والثّبات على الإيمان، وكانت ترهيبا للمنكرين وتعريضا، وتهديدا لهم ووعيدا.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وفي سورة الزّخرف قاعدة أخرى من القواعد المشتركة، فقد خلق الله الحياة وأراد لها البقاء والنّمو إلى أجل هو يعلمه، وخلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة بين بني البشر تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها، وعلى وفق هذا التّفاوت في الأدوار يتفاوت

---

(١) =: المحرر الوجيز: ١٣/٥٨.

(٢) =: التّحرير والتّنوير: ٢٤/١٨٠.

(٣) =: م. ن: ٢٤/١٨٠.

(٤) سورة طه: من الآية ١٥.

(٥) =: درة التّنزيل وغرة التّأويل: ٤١٢.

الرّزق، فهي قاعدة فطرية متناسقة لنمو الحياة، وذلك في قوله (ﷻ) ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

جاءت هذه الآية ردا على مقالة الكافرين التي ذكرتها رابعة الحواميم في قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[2]. فأنكر عليهم ذلك وعرض عليهم هذه القاعدة، فلا تنقسم الفضائل والدّرجات عند الله على حسب اختيارهم وإرادتهم، و(الرّحمة) اسم عام يشمل كلّ ذلك، والله تعالى هو وحده قاسم المعايش والدّرجات في الدّنيا ليسخر بعض النّاس بعضا، وإذا كان الله يقسم هذا الحظ من الدّنيا وهو زائل فانٍ، فمِن الأولى أنْ يقسم الأهم الخطير[3].

وقد بدأ النّظم القرآني لهذه الآية بالاستفهام الإنكاري، فهذه الهمزة للإنكار المستقل بالتّجهيل والتّعجيب من اعتراضهم وتحكمهم[4]. ويتواشج الاستفهام مع تقديم الضمير (هم) على المسند الفعلي ليفيد معنى الاختصاص، فسلط الإنكار على هذا الحصر إبطالا لقولهم وتخطئة لهم في تحكمهم وإنكار أنْ يكونوا هم الفاعلين[5]. فالمنكر كونهم القاسمين للرّحمة، لا نفي القسمة، لأنّ القاسم هو الله، فإذا ثبت عجزهم عن القسمة وانتفاء القسمة عنهم ثبت نفي الفعل عنهم من أصله، فقد عبر عن إنكار الفعل في صورة إنكار الفاعل[6].

ولا يخفى ما في إيثار لفظة (رحمة) وإسناد لفظ الرّب إلى ضمير النّبي (ﷺ) من تأنيس في الخطاب له (ﷺ) وذلك لأنّهم قصدوا الاستخفاف به، فرفع الله شأنه بأنْ سلّط الإنكار عليهم ووجه خطاب التّأنيس إليه (ﷺ)[7]، وقوله ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم

---

(١) سورة الزّخرف: الآية ٣٢.

(٢) سورة الزّخرف: الآية ٣١.

(٣) =: المحرر الوجيز: ١٣/٢١٨.

(٤) =: الكشاف: ٣/٤٨٦، وأساليب الطلب عن النّحويين والبلاغيين، قيس إسماعيل الأوسي: ٤٣٧.

(٥) =: دلائل الإعجاز: ١٤٧ والتّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٠٠.

(٦) =: دراسات في البلاغة العربية، عبد العاطي غريب: ٥٣

(٧) =: التّحرير والتّنوير: ٢٥/٢٠١.

مَّعِيشَتَهُمْ ﴾ تزهيد في السّعايات وعون على التّوكل على الله تعالى[1].

ولا يخفى ما بين ﴿ يَقْسِمُونَ ﴾ و﴿ قَسَمْنَا ﴾ من الجناس الاشتقاقي، وقد أوثرت هنا صيغة الماضي للدّلالة على مضي الحكم وتحقق نفاذه وأنّه تمّ بمشيئة الله وقدرته، فرزق المعاش في الحياة الدّنيا يتبع مواهب الإفراد، ويتأثر بظروف الحياة وعلاقات المجتمع ولا يتساوى جميع الإفراد في الرّزق أبداً، فهي ارادة الله ومشيئته، يرفع بعض النّاس فوق بعض لتستمر الحياة، فهي قاعدة ثابتة تسير عليها خطى البشرية، والغاية هي ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ أي ليسخر بعضهم بعضا، وليس التّسخير هو الاستعلاء، وإنّما كلّ البشر مسخر بعضهم لبعض، فالمقدر عليه في الرّزق مسخر للمبسوط له في الرّزق، والعكس صحيح، والتّفاوت في الرّزق هو الذي يسخر هذا لذاك ويسخر ذاك لهذا، فالتّفاوت في المواهب والقدرات والأعمال ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة في هذه الأرض، ولو كان الجميع مترفين لما أمكن أنْ تقوم الحياة ولبقيت أعمال كثيرة لا تجد مَن يقوم بها[2]. فالقاعدة التي أرادها الله هي رفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، ذلك شأن الرّزق والمعاش في الحياة الدّنيا، أمّا في الآخرة، وهو الجزء الآخر المهم من القاعدة الإيمانية المشتركة التي تضمنتها الآية فهو رحمة الله التي يختار لها مَن يشاء، وهي مخصوصة للمؤمنين، فإذا كانت رحمته في الدّنيا تشمل الأبرار والفجار بأنْ يتنعموا في متاع الدّنيا الزّائل، فإنّ رحمته في الآخرة لا ينالها إلاّ الصّالحون، وهي خير من كلّ ما في الدّنيا، لذلك ختمت الآية بالتّذييل ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ للرّد عليهم بأنّ المال الذي جعلوه عماد الاصطفاء للرسالة هو أقل من رحمة الله تعالى، وفي ذلك تحقير للدّنيا وما فيها وحث على السّعي من أجل الآخرة.

❖❖❖❖❖

وفي سورة الأحقاف نجد قاعدة أخرى تأتي في سياق إنذار نفر من الجن لقومهم بعد سماعهم لآيات من الذّكر الحكيم، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَمَن لَّا

---

(١) =: المحرر الوجيز: ١٣/٢١٨.

(٢) =: في ظلال القرآن: ٥/٣١٨٧.

يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[١]. ويحتمل أنْ يكون هذا من كلام المنذرين، أو أنْ يكون من كلام الله تعالى لمحمد (ﷺ) والمراد به إسماع الكفار[٢].

وتبين الآية أنّ عدم الاستجابة للرّسول (ﷺ) أو للقرآن، وخيم العاقبة، وأنّ مَن لا يستجيب لا يعجز الله أنْ يأتي به، ويوقع عليه الجزاء، فلا يجد له من دون الله أولياء ينصرونه أو يعينونه، وأنّ هؤلاء المعرضين عن داعي الله ضالون ضلالا بينا.

فالآية تهديد ووعيد لكلّ مَن لا يجب داعي الله، وأوثرت (مَن) للعموم، وحذف مفعول (يعجز) لدلالة (داعي الله) عليه، أي فليس بمعجز الله. والكلام كناية عن المؤاخذة بالعقاب[٣].

وقوله ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ يفيد تعميم الجهات لأنّه حيث كان فهو في سلطانه وقبضته، ثمّ نفى أنْ يكون له سبيل إلى النّجاة أو الاحتماء بمَن يستطيع حمايته من عقاب الله بقوله ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ وهذا تعريض بالمشركين.

وختم الآية بقوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ للتنبيه على أنّ مَن هذه حالهم جديرون بما يرد بعد اسم الإشارة من الحكم لتسبب ما قبل اسم الإشارة فيه، والظّرفية المستفادة من ﴿ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ تفيد قوة تلبسهم بالضّلال حتى كأنهم في وعاء هو الضّلال، وهو ضلال (مبين)، لأنّه قد قامت الحجج والأدلة على بطلانه[٤].

وأمام هذه القاعدة لا تملك النّفس إلاّ الرّجوع إلى الله والاستجابة لداعيه في الحياة الدّنيا لتنال رضاه وفضله في الآخرة.

❖❖❖❖❖

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣٢.

(٢) =: المحرر الوجيز: ٣٧٣/١٣.

(٣) =: التّحرير والتّنوير: ٦٢/٢٦.

(٤) =: م. ن: ٢٦ / ٦٣.

# الجدول البياني للفنون البلاغيّة الواردة في الفصل السّابع

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٨٦٠ | إيجاز الحذف | ٤٥٤ | ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ | ٣٤ | فصّلت |
| ٨٦١ | التّعريف | ٤٥٥ | ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ | ٣٤ | فصّلت |
| ٨٦٢ | الطّباق | ٤٥٥ | ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ | ٣٤ | فصّلت |
| ٨٦٣ | إيجاز القصر | ٤٥٥ | ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ | ٣٤ | فصّلت |
| ٨٦٤ | الفصل | ٤٥٦ | ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ | ٣٤ | فصّلت |
| ٨٦٥ | الكناية | ٤٥٦ | ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ | ٣٤ | فصّلت |
| ٨٦٦ | التّنكير | ٤٥٧ | ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ | ٣٤ | فصّلت |
| ٨٦٧ | التّشبيه | ٤٥٧ | ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ | ٣٤ | فصّلت |
| ٨٦٨ | القصر | ٤٥٧ | ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ | ٣٥ | فصّلت |
| ٨٦٩ | الاستعارة | ٤٥٧ | ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ | ٣٥ | فصّلت |
| ٨٧٠ | الاستعارة | ٤٥٨ | ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ | ٣٦ | فصّلت |
| ٨٧١ | المجاز العقلي | ٤٥٨ | ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ | ٣٦ | فصّلت |
| ٨٧٢ | القصر | ٤٥٩ | ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ | ٣٦ | فصّلت |
| ٨٧٣ | التّعريف | ٤٥٩ | ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ | ٣٦ | فصّلت |
| ٨٧٤ | إيجاز الحذف | ٤٦٠ | ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ | ١٠ | الشّورى |
| ٨٧٥ | البيان بعد الإبهام | ٤٦٠ | ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ | ١٠ | الشّورى |
| ٨٧٦ | التّنكير | ٤٦٠ | ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ | ١٠ | الشّورى |
| ٨٧٧ | الكناية | ٤٦٠ | ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ | ١٠ | الشّورى |
| ٨٧٨ | التّقديم والإيثار | ٤٦١ | ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ | ١٠ | الشّورى |
| ٨٧٩ | الاحتباك | ٤٦١ | ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ | ١٠ | الشّورى |
| ٨٨٠ | التّنكير | ٤٦١ | ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ | ٣٠ | الشّورى |
| ٨٨١ | الجناس | ٤٦٢ | ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ | ٣٠ | الشّورى |
| ٨٨٢ | المجاز المرسل | ٤٦٢ | ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ | ٣٠ | الشّورى |
| ٨٨٣ | الوصل | ٤٦٢ | ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ | ٣٠ | الشّورى |
| ٨٨٤ | التّنكير | ٤٦٢ | ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ | ٣٠ | الشّورى |
| ٨٨٥ | المشاكلة | ٤٦٣ | ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ | ٤٠ | الشّورى |
| ٨٨٦ | المجاز المرسل | ٤٦٣ | ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ | ٤٠ | الشّورى |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٨٨٧ | الاكتفاء | ٤٦٣ | ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ | ٤٠ | الشّورى |
| ٨٨٨ | إيجاز القصر | ٤٦٤ | ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ | ٤٠ | الشّورى |
| ٨٨٩ | الكناية | ٤٦٥ | ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ | ٤٤ | الشّورى |
| ٨٩٠ | الاستعارة | ٤٦٥ | ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ | ٤٤ | الشّورى |
| ٨٩١ | التّنكير | ٤٦٥ | ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ | ٤٤ | الشّورى |
| ٨٩٢ | التّذييل | ٤٦٦ | ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ | ٤٦ | الشّورى |
| ٨٩٣ | التّنكير | ٤٦٦ | ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ | ٤٦ | الشّورى |
| ٨٩٤ | الإيثار | ٤٦٧ | ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ | ١٥ | الأحقاف |
| ٨٩٥ | الطّباق | ٤٦٧ | ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ | ١٥ | الأحقاف |
| ٨٩٦ | المجاز المرسل | ٤٦٧ | ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ | ١٥ | الأحقاف |
| ٨٩٧ | الكناية | ٤٦٨ | ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ | ١٥ | الأحقاف |
| ٨٩٨ | التّنكير | ٤٦٨ | ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ | ١٥ | الأحقاف |
| ٨٩٩ | الإدماج | ٤٦٨ | ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ | ١٥ | الأحقاف |
| ٩٠٠ | التّنكير | ٤٦٩ | ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ | ٤٠ | غافر |
| ٩٠١ | القصر | ٤٦٩ | ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ | ٤٠ | غافر |
| ٩٠٢ | الاحتراس | ٤٦٩ | ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ | ٤٠ | غافر |
| ٩٠٣ | الكناية | ٤٦٩ | ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ | ٤٠ | غافر |
| ٩٠٤ | التّقديم | ٤٧٠ | ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ | ٤٠ | غافر |
| ٩٠٥ | الاحتباك | ٤٧٠ | ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إلا مِثْلَهَا ... فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ...﴾ | ٤٠ | غافر |
| ٩٠٦ | الطّباق | ٤٧١ | ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ | ٥٨ | غافر |
| ٩٠٧ | المقابلة | ٤٧١ | ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ﴾ | ٥٨ | غافر |
| ٩٠٨ | الاستعارة | ٤٧١ | ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ | ٥٨ | غافر |
| ٩٠٩ | الاحتباك | ٤٧١ | ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ﴾ | ٥٨ | غافر |
| ٩١٠ | الالتفات | ٤٧٢ | ﴿قَلِيلا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ | ٥٨ | غافر |
| ٩١١ | التّنكير | ٤٧٣ | ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ | ٤٦ | فصّلت |
| ٩١٢ | إيجاز القصر | ٤٧٣ | ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ | ٤٦ | فصّلت |
| ٩١٣ | الاستعارة | ٤٧٥ | ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ | ٢٣ | الشّورى |
| ٩١٤ | التّنكير | ٤٧٥ | ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ | ٢٣ | الشّورى |

| ت | الفن البلاغيّ | رقم الصّفحة | الآية وموضع الشّاهد | رقم الآية | اسم السّورة |
|---|---|---|---|---|---|
| ٩١٥ | التّذييل | ٤٧٦ | ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ | ٢٣ | الشّورى |
| ٩١٦ | التّمثيل | ٤٧٦ | ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ | ١٥ | الجاثية |
| ٩١٧ | القصر بالتّقديم | ٤٧٦ | ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ | ١٥ | الجاثية |
| ٩١٨ | الوصل | ٤٧٦ | ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ | ٥٩ | غافر |
| ٩١٩ | الاستفهام الإنكاري | ٤٧٩ | ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ | ٣٢ | الزّخرف |
| ٩٢٠ | التقديم | ٤٧٩ | ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ | ٣٢ | الزّخرف |
| ٩٢١ | الإيثار | ٤٧٩ | ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ | ٣٢ | الزّخرف |
| ٩٢٢ | الجناس | ٤٧٩ | ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ | ٣٢ | الزّخرف |
| ٩٢٣ | التّذييل | ٤٨٠ | ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ | ٣٢ | الزّخرف |
| ٩٢٤ | الكناية | ٤٨١ | ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ﴾ | ٣٢ | الأحقاف |

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

# الخاتمة

سبحان الله الذي لا نهاية لفضله ولا خاتمة، وطوبى لمَن كانت توبته هي الخاتمة، والحمد لله الذي مَنّ علينا بإكمال مسيرة البحث حتى الخاتمة.

وبعد:

فإن أساليب العبارة القرآنية ومعانيها ودلالاتها المختلفة ذخيرة لا يمكن أنْ يحيط بها مثل هذا البحث أو يستقصيها استقصاء، وحسبه أنْ يلم بأطراف منها ويدل عليها، وهي معين ثرٍّ غدق يفتح لذي الذّوق والحس اللغوي آفاقاً في فهم الأساليب وذوقها رحيبة مشرقة.

وإذا كانت حصيلة مسيرتنا في هذا البحث كحصيلة مَن يعبر صحراء مقفرة باحثاً عن ظل فإنّا ندعو الله أنْ يلهمنا كيف نغرس الشجرة، أو نلقي على الأقل بذرتها في وادي حياتنا المقفر، فإنّه من يهدي الله فلا مضل له.

وقد خلصت مسيرة البحث إلى جملة نتائج نوجزها فيما يأتي:

- أظهر البحث تشاكل الحواميم في موضوعاتها إذا ابتدأت بالحرفين (حم) ثمّ ذكر الكتاب وصفاته مع ذكر بعض الصّفات الإلهية ودلائل القدرة، وتضمنت ذكر الكثير من النّعم الإلهية، وتوجهت في الكثير من آياتها إلى خطاب الرّسول (ﷺ)، وذكرت شيئا من القصص القرآني، كما عرضت الكثير من مشاهد القيامة ترغيباً في الجنة وترهيباً من النّار، وكان لذكر المؤمنين وصفاتهم والكافرين ومواقفهم من القرآن العدد الأكبر من آيات الحواميم، وتخللت هذه الموضوعات بعض القواعد الإيمانية، فكانت الحواميم بهذا التّشاكل - مع تفاوت المقادير في الطول والقصر وتنوع الكلام في النّظام - روضات دمثات تتوق النّفوس للتفيؤ في ظلالها والاستزادة من منهلها العذب.
- بدا للبحث أنّ الوصول إلى فهم جوانب من الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم لا يكون بكثرة التّقسيمات والمصطلحات البلاغيّة وإنّما يجعل هذه المصطلحات أداة للوصول إلى ذلك من خلال اعتماد التّحليل البلاغيّ المعتمد على النّظر العميق والشّعور والتّذوق الفني للنّص، لذلك عمد البحث إلى التّحليل البلاغيّ الذي ينظر إلى الفنون البلاغيّة على أنّها وحدة واحدة كما تأتي في النّص ولم يعمد إلى تجزئتها حسب شعب البلاغة الثّلاث، كما لم يجزئ

الفنّ الواحد إلى أقسام وفروع بغية إظهار ما في النّص من تواشج الفنون البلاغيّة والوصول من خلالها إلى ظلال المعاني وما يرمي إليه النّص من أهداف وغايات.

- أظهر البحث تماثل مطالع الحواميم في ذكر الكتاب وصفاته التي يستند بعضها إلى المنزل جلّ وعلا، وينفرد البعض الآخر بوصفه لذاته، ويستند بعضها إلى صفة المخاطبين وأحوالهم، ولا شكّ في أنّ اختلاف النّظم في مطالع الحواميم المتماثلة في ذكر الكتاب وصفاته يؤكد الحقيقة الخالدة إلى الأبد وهي الإعجاز البلاغيّ للقرآن الكريم، وغالباً ما يقترن الوصف المستند إلى المرسل بذكر الصّفات الإلهية ودلائل القدرة.
- بدا للبحث أنّ التّعبير القرآني غالباً ما يؤثر صيغة (نزّل) واشتقاقاتها في ذكر الكتاب وصفاته لمَا لهذه الصّيغة من إيحاء إلى التّدرج والتّكثير والمبالغة والاهتمام وكذلك التّوكيد، ومِن أهم الفنون البلاغيّة التي آثرها القرآن الكريم في ذكر تنزيل الكتاب وصفاته الإيثار والتّناسب.
- أظهر البحث ما للتّقديم والتّأخير من أثر في النّفس عندما ينسجم مع مقتضى الحال فضلاً عن أنّه يكسب الكلام جمالاً وتأثيراً لأنّه سبيل إلى نقل المعاني في ألفاظها إلى المخاطبين كما هي مرتبة ومتناسبة مع واقع الحال تحقيقاً لإشباع الرّغبة في نفوسهم.
- أظهر البحث الوحدة الموضوعية بين الحواميم والتي تمثل جزءاً من الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، وقد بنيت خطة البحث على وفق ذلك مع بيان اختلاف النّظم القرآني في عرض هذه الموضوعات تأكيداً للإعجاز الفنّي والبلاغيّ في القرآن الكريم.
- في الوجهة البلاغيّة أظهر البحث تواشج المجاز العقلي مع التّشبيه البليغ في إظهار وصف القرآن بالبصائر، فضلاً عن إيثار صيغة الجمع في الوصف وما توحي به هذه الصّيغة من دلالات كثيرة. وأظهر البحث دقّة السّياق القرآني في اختيار ألفاظه التي تؤدي المعنى المراد أدق أداء وأوفاه، فضلاً عن اعتماد التّعبير القرآني أسلوب التّرقي في ترتيب الألفاظ والتّراكيب من النّاحية الصّوتية والمعنوية.
- حاول البحث في الفصل الثّاني إظهار غرض القرآن الكريم من ذكر ما ورد في سور الحواميم من النّعم الإلهية وكيف كان ذلك أسلوباً من أساليب الدّعوة ولا سيّما أنّها في عهدها المكي، وقد تضمنت الحواميم ذكر الكثير من النّعم، منها ما يتعلق بالخلق والإيجاد - وفي ذلك جانب عظيم من دلائل القدرة الإلهية - ومنها ما يخص نعمة التّسخير - وفيها إكرام للنفس البشرية وبيان لفضل الخالق في ذلك - ومنها ما يتعلق بنعمة الهداية - وهي من

أهم النّعم التي يمتزج فيها حبّ الخالق الكريم بالنّفس الإنسانية لتخرج من الظّلمات إلى النّور، وإذا كان ذكر هذه النّعم حثاً للعباد على الشّكر والطّاعة فهو في الوقت ذاته تعريض بالكافرين وتوبيخ لهم على كفرهم وجحدهم لها، وقد ضمت سور الحواميم في ذكر نعمة الخلق والإيجاد الحديث عن جعل الله الأرض قراراً والسّماء بناء، وذكر خلق الإنسان وتصويره بأحسن الصّور، ورزقه الكثير من الرّزق والطّيبات، والحديث عن مراحل خلقه وحياته ودلائل القدرة الإلهية في ذلك، ثمّ ذكر نعمة أخرى تمثلت في أنْ وهبه زوجة تشاركه حياته إذ خلقها من نفسه، وذكره بأنّه هو وحده الذي يبسط الرّزق ويقدر، ثمّ عرض عليه نعمته الأخرى وهي الذّرية من الذّكور والإناث وبين له قدرته في ذلك وحكمته، وفي نعمة التّسخير ذكر له تسخير الليل لتسكن الخلائق فيه وتسخير النّهار ليبصروا فيه ويطلبوا الرّزق، وتسخير الأنعام ليركبوا منها ومنها يأكلون، وعليها وعلى الفلك يحملون، وتسخير الماء ليحيي الأرض والنّبات والحيوان والإنسان، وتسخير السّفن والبحر وما فيه والرّياح، وتسخير الأرض وجعلها ممهدة للسير والزّرع والحياة وتسخير ما في السّماوات وما في الأرض وكلّ ذلك مِنه تعالى وبفضله لعلّ الإنسان يتفكر ويتدبر ويشكر الخالق المنعم على فضله ويديم طاعته له بالعمل الصّالح. وفي نعمة الهداية نجد أنّ كلّ آيات النعم الإلهية هي سبب من أسباب الهداية لِمَن تدبر فيها وآمن، وعاد إلى ربّه بالشّكر والطّاعة، فتنزيل الماء من السّماء نعمة تستوجب من العبد الشّكر والطّاعة وهي دليل قدرة يسبب الهداية، وتذكر نعمة الهداية عن طريق سوق دلائل القدرة الإلهية أيضاً وآيات الله التي لا ينكرها منكر، سواء ما تعلق منها بالأحوال السّماوية أو الأحوال الأرضية، وتمثل آيات الله التي جاء بها المرسلون نعمة هداية أخرى للناس.

- أظهر البحث تواشج فن الاحتراس مع التّذييل وتعالقهما مع الإيثار والتّناسب ولا سيّما في دقة اختيار التّعبير القرآني للصّفات الإلهية والأسماء الحسنى في خواتيم الآيات القرآنية. كما أظهر البحث تواشج التّقديم والتّأخير مع التّعريف والتّنكير وكيف يكون أحدهما مكملاً للآخر، وقد ظهر ذلك جلياً في ذكر نعمة الذرية وهبة الله لعباده منها ذكوراً وإناثا أو أحداهما، فضلاً عن تواشج ذلك مع أسلوب التّرقي والتّدرج من الأدنى إلى الأعلى في ترتيب النّعم وعلى وفق السّياق القرآني.
- أكد البحث على أنّ النّظم القرآني يتخير الألفاظ تخيراً يقوم على أساس من تحقيق الموسيقى المتسقة مع جوّ الآية، فهو يختار الألفاظ الرّقيقة ذات الجرس الرّخي السّلس في المواضع التي يشيع فيها جو الحياة الهانئة الجميلة، فضلاً عن أدائها المعنى أداء دقيقاً لا

يؤديه غيرها.

- حاول البحث إظهار ما للفنون البلاغيّة من أثر نفسي في المتلقي، فالمجاز العقلي مثلاً يجعلنا نرى الأحداث والأفعال مضافة إلى غير فاعليها المألوفين في الوجود، ونرى الأسلوب معه أعذب لفظاً وأحسن موقعاً وأملأ بالفائدة، ومثل ذلك ما للاستعارة والاحتباك والاحتراس والمجاز المرسل.
- أظهر البحث تحقق الإيجاز الاحتباكي من تواشج المقابلة مع المجاز العقلي ولا سيّما في وصف الليل بالسّكون والنّهار بالإبصار، وقد أوحى هذا الاحتباك بدلالات كثيرة لها أثرها في النّفس البشرية حيث تتأمل السّكون الذي يلي العمل في النّهار الطّويل، وهو صورة للسكون بعد الموت الذي لا ينفع النّفس بعده إلاّ ما قدمت من عمل في نهار حياتها الطّويل، ففي ذلك حثّ على العمل بالطّاعات قبل أنْ تسكن النّفس ظلمة القبر بدلاً من ظلمة الليل الطّويل.
- حاول البحث في تحليل الصّورة الفنية بكل مكوناتها البلاغيّة عرض الهدف الدّيني والغرض الفكري الذي رسمت من أجله، إيماناً مِنه بأنّ الصّورة البلاغيّة مهما كانت جميلة في ذاتها تغدو كجسد بلا روح إذا كانت خالية من غرض فكري.
- أكد البحث على أنّ التّشبيه في القرآن الكريم وسيلة لتوضيح طريق الهداية والإرشاد بإثارة المقارنة والحثّ على التّأمل لتقوم النّفوس الطّيعة النّقية بوعدها بالثّواب، والعنيدة العصية بوعدها بالعقاب. وغالباً ما يتخذ القرآن الطّبيعة ميداناً يأخذ منها صور تشبيهاته، ولهذه التّشبيهات أثرها النّفسي الذي يحقق هدف التّعبير القرآني لأنّها تأتي في صورة تقع دلالاتها في القلوب في سرعة وقوة.
- أظهر البحث تواشج أسلوب القصر مع التّذييل ولا سيّما في خواتيم الآيات التي تتضمن تعريضاً بالمشركين، فضلاً عمّا فيها من الإيماء بنعم الله الكثيرة وأوّلها الهداية.
- كثيراً ما يؤثر التعبير القرآني في سور الحواميم أسلوب الخطاب المباشر، والخطاب إما أن يكون للنبي (ﷺ) أو لغير معين لكي يصلح لكل من يتلقى البيان القرآني في أي زمان ومكان، ولا شك في أن لإيثار الخطاب أثرا كبيراً في تحقيق هدف الدعوة القرآنية.
- أظهر البحث إيثار القرآن الكريم لأسلوب التّصوير وصولاً إلى الغاية والهدف، فحين يريد السّياق الاستدلال على قدرته تعالى على إحياء الموتى وبعثهم - وهو ما ينكره المشركون في عهد الدّعوة المكي - نجده يصور لنا قدرة الله تعالى على إحياء الأرض

الخاشعة بإنزال المطر فيحييها من جديد إذ تدب الحياة فيها، ومِن هنا تنبثق العبرة والعظة، فضلاً عمّا في هذا التّصوير من تشخيص وتمثيل، ولا شكّ في أنّ سبب إيثار جانب التّصوير واقتباس عناصر التّشبيه من الطّبيعة هو أنّ مشهد إحياء الأرض قريب من كلّ قلب ومتكرر أمامهم باستمرار ولكلّ الأجيال، فضلاً عن أنّ إدراك المعاني في الصّور المشاهدة يزيد النّفس أنسا به وقبولاً له.

- أظهر البحث تواشج فن الالتفات مع الاستعارة ولا سيّما في أثناء العناية بإظهار المعنى المراد، وقد ظهر ذلك واضحاً في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾(١) وقوله ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾(٢) ممّا يؤكد أنّ الفن الاستعاري ليس فناً تجريدياً يراد لذاته بل هو جزء من بناء إبداعي له أهدافه الفكرية والتّوجيهية.

- أكّد البحث في الفصل الثّالث مِنه على أنّ القصة القرآنية أنموذجا مهماً من أساليب الدّعوة القرآنية بما تتضمنه من الفنون البلاغيّة الرّفيعة وفي نظمها المميز، إذ تسهم في تحقيق ما يرمي إليه القرآن من الوعظ والنّصح والإرشاد، وقد تضمنت سور الحواميم جوانب من بعض القصص حيث تذكر القصة على النّحو الذي يقع للرّسول (ﷺ) مثله لتكون تسلية له وتثبيتاً، فمِنها ما عرض لنا أخبار الأنبياء والأمم السّابقة بشكل عام، ومِنها ما تحدثت عن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) ودعوته بشكل موجز، ومِنها ما عرض لنا أخبار عاد وثمود ودعوة الرّسل لهم وموقفهم من الدّعوة وذكر مصيرهم الذي استحقوه جزاء إنكارهم ورفضهم الدّعوة. ومنها ما أفاض في ذكر جوانب من قصة موسى (عليه السلام) مع فرعون والحديث عن مؤمن آل فرعون، وتضمنت بعض الآيات ذكر عيسى (عليه السلام) وجوانب من قصته، وفي كلّ ذلك تذكر أحوال الكافرين من تلك الأمم وصفاتهم وحججهم الواهية في معارضة الرّسل ولا سيّما ما تشابه منها مع أقوال وأحوال المشركين في زمن الرّسول (ﷺ)، وفي ذكر عذاب الكافرين وهلاكهم تهديد ووعيد لهؤلاء بالهلاك أيضا.

- بدا للبحث أنّ التّعبير القرآني كثيراً ما يؤثر أسلوب الاقتران أو تراسل الحواس في الدّعوة إلى أخذ العبرة من القصص القرآني، ذلك أنّ الاقتران أو التّرابط طريقة من طرق

(١) سورة الزّخرف: الآية ١١.

(٢) سورة فصّلت: من الآية ١٢.

التّذكر، وهو سبيل لتحريك العقل، وإذا تحرك العقل بالنّظر أو الاستقراء أو القياس فقد يتحرك القلب بالإيمان، فضلاً عن أنّ العقل يعتمد على الرّؤية كثيراً، فالنّظر في عاقبة الأقوام البائدة بالهلاك يورث التّفكر وأخذ العبرة وتغيير مسار الحياة.

- أظهر البحث تواشج الفصل مع التّذييل ممّا يضفي على الأسلوب القرآني جزالة وفخامة وحسناً وقوة تأثير، فضلاً عن إفادته تثبيت المعنى وتوكيده.
- أكد البحث على وحدة شعب البلاغة وفنونها ووحدة نسيج لحمتها وذلك من خلال التّأكيد على تواشج الفنون البلاغيّة مع بعضها، فقد أظهر البحث أيضاً تواشج القصر مع الاحتراس والمجاز العقلي في قوله تعالى ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ ﴾[1].
- بدا للبحث أنّ القرآن الكريم ينتقي من القصة أبرز حوادثها وأشدها صلّة بالعبرة المقصودة، ويطوي التّفاصيل والجزئيات، ويجعل الأفكار التي يريد تلقينها متضمنة في ثنايا حوار أو جدل أو خطاب أو دعاء أو غير ذلك. ولم يكتف السّياق بعرض مصارع الغابرين وهلاكهم وإنما ذكر - في كثير من المواضع - ما آل إليه حال من آمَن مِنهم واتبع الرّسل إذ نجاهم الله من العذاب الذي حلّ بأممهم.
- أكّد البحث في تناوله لقصة موسى (عليه السلام) في السّور (غافر والزّخرف والدّخان) على أنّ إعادة القصة القرآنية في أكثر من موضع وبنظم مختلف وإحداث يكمل بعضها البعض يحقق غرضين في آنٍ واحد: **الأوّل**: فني يتمثل في تجدد الأسلوب والتّفنن في العرض والتّنوع في الأداء، **والثّاني**: نفسي لأنّ المكرر ينطبع في النّفس لمَا له من تأثير فيها، فضلاً عمّا في تكرر ذكرها من الإعجاز القرآني.
- أظهر البحث بعض سمات القصة القرآنية ولا سيّما الإعجاز في نقل حكاية الشّخصيات، ودقة التّعبير عن مشاعرها وصدق الترجمة عن خواطرها، فضلاً عن تنوع طريقة العرض، فهي حيناً موجزة مكثفة، وحيناً مفصلة على وفق السّياق والهدف الذي ترمي إلى تحقيقه. أمّا من حيث البناء الفني فقد فاقت كلّ بناء إذ استكملت عناصرها من شخصية وحوار وصراع ومفاجأة ونهاية متضمنة مواعظ وعبر وأحكاما، فضلاً عمّا فيها من تأثير في

---

(١) سورة الشّورى: من الآية ١٤.

النّفوس من خلال مخاطبتها الوجدان والمشاعر ومخاطبة العقل، وهكذا كانت إحدى طرق القرآن لتحقيق أهدافه في هداية النّاس إلى الطريق المستقيم.

- خوطب الرسول (ﷺ) في سور الحواميم بعدد من أنواع الخطاب منها التّشريف والتّحبيب والتّشجيع والتّنفير والتّأنيس والاعتبار، وقد جاء هذا الخطاب توجيهاً له (ﷺ) وتثبيتاً وتسلية، وخوطب الناس جميعاً عن طريق الرّسول وكان هذا الخطاب على ثلاثة أقسام هي: خطاب التّهديد والوعيد وخطاب الحجاج وخطاب التّلطف، ففي القسم الأوّل جاء التّهديد والوعيد للكافرين المعرضين بإنذارهم بالصّاعقة، والتّهديد بمحو الباطل وإحقاق الحق، والتّهديد بالانتقام من الكافرين سواءً في حياة الرّسول (ﷺ) أو بعد وفاته، كما توعدهم القرآن بما سيحل بهم في يوم القيامة. وفي القسم الثّاني يخاطب الرّسول (ﷺ) تلقيناً له وتعليماً لمواجهة الكافرين في الحجاج بأدلة دامغة وحجج واضحة وقد امتلأ خطاب الحجاج توبيخاً لهم وتقريعاً ودحضاً للحجج الباطلة. أمّا القسم الثّالث فقد تضمن خطاب التّلطف ومهادنة المخاطبين ولا سيّما أنّ الدّعوة في عهدها المكي.

- أظهر البحث تواشج الكناية مع التعريض إذ لا يراد بالتّعبير القرآني معناه الذي يدل عليه ظاهره فحسب وإنّما يراد به معنى آخر يرتبط به ويلازمه، وأساس هذا التّلازم في الكناية العرف والعادة، وفي التّعريض ينبع من الموقف الخاص الذي يقال به الكلام، ولذلك عمد النّظم القرآني إلى إظهار نهي الرّسول (ﷺ) عن عبادة غير الله فكان ذلك إثباتا لما يدعو إليه بالبينة.

- في التّكرار التّركيبي الذي نجده في بعض الآيات يعمد الأسلوب القرآني إلى التّرقي، وقد بدا ذلك جلياً في سورة غافر الآيات (٦٤ - ٦٦) ولا يخفى ما لهذا التّكرار من أثر نفسي يوجه النّفس إلى العمل الصّالح، فالتّكرار مصدر توطيد المعنى في النّفس.

- أكّد البحث على تواشج الكناية مع أسلوب القصر لتأكيد المعنى الثّاني للكناية، فقد أظهر القرآن الكريم أنّ تفويض الأمر في جزاء الكافرين إلى الله قد تأكد بقصر الرّسول (ﷺ) نفسه على البشرية وذلك في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾(١).

- آثر البحث إظهار دقائق التّعبير القرآني في كلّ صفحات الأطروحة، فقد أكّد على أنّ المعاني التي تدخل عليها (إنّما) هي معان مأنوسة قريبة من النّفوس، فضلاً عن أنّ النّفي الذي

---

(١) سورة فصّلت: من الآية ٦.

يتضمنه القصر بها هو نفي متضمن مخبوء، كما أنّ القصر بها يناسب مقام التّعريض بالكافرين وأقوالهم وما هم عليه من الشّرك.

- أظهر البحث تواشج أسلوب التّقديم والتّأخير مع الإيثار في قوله تعالى ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ ﴾[1]، كما أكّد البحث على اقتران الفصل بالتّذييل واقتران التّذييل بالإيثار والتّناسب ولا سيّما في الأسماء الحسنى والصّفات الإلهية.
- بدا للبحث أن القرآن الكريم يؤثر في خطاب الرّسول (ﷺ) صيغة الأمر كثيراً وهو ما يناسب غرض الخطاب القرآني في التّبليغ.
- حاول البحث إظهار كثرة ورود الخبر القرآني مؤكداً مهما كان متقبله، ولا سيّما أنّ الدّعوة في عهدها المكي، والنّاس بحاجة إلى الإقناع الذي يثني المشركين عمّا هم فيه ويثبت أقدام المؤمنين، فكان لتأكيد الخبر القرآني في الحواميم أهمية بالغة حيث أضحى أسلوبا من أساليب النّظم المطردة.
- بدا للبحث - عند عرض الخطاب الخاص والخطاب العام في الفصل الرابع - أنّ التّعميم والتّخصيص ظاهرة - وإنْ تعلقت باللفظ المفرد - تركيبية تقوم على التّوسع والتّضييق في الدلالة حيث يدل البعض على الكلّ توسعاً والكلّ على الجزء تقليصاً للمعنى، فما خوطب به الرّسول (ﷺ) وأمر به يشمل الأمة الإسلامية أيضاً فهو الأسوة الحسنة لنا جميعاً.
- لقد عمد النظم القرآني في الحواميم إلى الإيجاز بكلّ أنواعه فكثيرا ما نجد فيه الاحتباك والحذف والاكتفاء والتّغليب وإيجاز القصر، ويتناسب ذلك مع طابع الدّعوة وهي في عهدها المكي.
- كثيرا ما يعتمد السّياق القرآني أسلوب الاستفهام الإنكاري مراعاة لمقتضى الحال مع مخالفة مقتضى الظّاهر ولا سيّما عندما يخاطب غير المنكر مخاطبة المنكر، ولا يخفى ما يتضمنه الاستفهام الإنكاري من معنى النّفي فضلاً عمّا فيه من دلالات أخرى لا نجدها في النّفي الصّريح.
- حاول البحث التّأكيد على إيثار بعض الفنون البلاغيّة وإظهار إسرار التّعبير بها دون غيرها، فقد أكّد على أنّ التّقديم يأتي ملازماً للتخصيص، وهو طريقة من طرق القصر، وفائدته

---

(١) سورة الشّورى: من الآية ١٥.

لفت النّظر وتأكيد المعنى والتّأثير في النّفس فضلاً عن الجمال التّعبيري.

- لمّا كانت الحواميم من السور المكية فقد تناولت الكثير من آياتها ذكر المؤمنين والكافرين على سبيل التّقابل بين مواقفهم إزاء الدّعوة، وتناولت بعض الآيات ذكر المؤمنين وموقفهم من القرآن والدّعوة، ومنزلتهم عند الله تعالى وما لهم من الثواب في يوم الحساب ترغيباً في الإنابة إلى الله وحثاً على الثّبات على طريق الهدى، وتناولت آيات أخرى ذكر الكافرين ومواقفهم من الدّعوة، ومِنها الجدل والتّكذيب بالآيات - والذي تكرر كثيراً في الحواميم - والاستكبار عن العبادة والإعراض عن الدعوة، والإشراك والبغي، وانكسار البعث والحساب. وبدا للبحث أنّ عدد الآيات التي تناولت ذكر الكافرين وصفاتهم ومواقفهم كان كثيراً لأنّ الدّعوة آنذاك في عهدها المكي، فكان لا بدّ من ذلك ليتحقق هدف القرآن في التوجه إلى هؤلاء بذكر مواقفهم وذم عبادة الإشراك التي كانوا عليها، والتّذكير بما سيؤول إليه حالهم يوم الحساب.

- أظهر البحث اقتران ذكر الصّفات الإلهية مع ذكر المؤمنين والكافرين في الكثير من الآيات لتكون هذه الصّفات ودلائل القدرة سبيلاً يوصل مَن يتدبر فيها ويتأمل إلى طريق الهدى، وتكون للمنكرين المعاندين تهديداً ووعيداً وتوبيخاً لأنّها تؤكد بوضوح على صدق ما يدعوهم إليه الرّسول (ﷺ) وتؤكد أنّ ما هم عليه ضلال مبين وأنّ العبادة الحقة لا تكون إلا لله تعالى.

- يؤثر التّعبير القرآني - في كثير من المواضع - النفي الاستفهامي على النّفي الخبري، ذلك أنّ النّفي الاستفهامي أقوى في دلالته النّفسية من النّفي الخبري، والنّفي الاستفهامي إنّما يكون لمطلق النفي، فضلاً عن أنه مزيج من عدّة معان هي (النّفي والتّعجب والتّهكم والتّمني)، أمّا في الخبر فالنّفي نفي ليس غير، والنّفي الاستفهامي يحمل الذّهن على التفكير، والمشاعر على أنْ تتجاوب مع النّص حيث لا يكون صريحاً، إنّما يفهم ضمنا، وهو يستهدف الحث والحض على العمل ولا نجد ذلك في النّفي الخبري.

- حاول البحث في فصله السّادس أظهار ما تضمنته الحواميم من التّرغيب والتّرهيب، إذ عرضت الآيات ذكر السّاعة ومشاهد القيامة بدءاً بعالم البرزخ، كما عرضت مواقف الحساب، وجمعت بعض الآيات بين ذكر أصحاب الجنة وأصحاب النّار على سبيل التّقابل، ويعد هذا التّقابل من الأسلوب التّصويري المطرد في القرآن الكريم لتحقيق هدف الدّعوة القرآنية إذ تجد النّفس أمام هذه المشاهد مصيرها الذي ينتظرها جزاء ما تعمل، فتدرك حسن الاختيار،

فإمّا إلى طريق الهدى الذي يفضي بها إلى النّعيم، وإمّا إلى طريق الضّلال الذي يوصلها إلى النّار، وأفرد ذكر أصحاب الجنة وما فيها من النّعيم في آيات أخرى ترغيباً فيها وحثاً للعباد إلى السّعي من أجلها، ويعمد النّظم القرآني في ذلك إلى الأسلوب التّصويري ليؤثر في الأعماق الباطنة للإنسان فيعمل على تغييرها وإصلاحها وهدايتها من خلال أثر الصورة القرآنية. وقد أكّد البحث على عناصر تكوين الصّورة القرآنية ولا سيّما الدّقة والحركة والزّمن والألوان، فضلاً عن أنّها بجرسها العميق والظّاهر تضفي جمالاً صوتياً يتناسق مع جمال الصّورة لا نجده في أية لوحة أخرى، وقد أفرد ذكر أصحاب النّار وما فيها من ألوان العذاب في آيات أخرى.

- أكّد البحث على أنّ الآيات التي ذكرت فيها النّار وألوان عذابها وحال الكافرين فيها كان أكثر من ذكر الجنة وأصحابها ونعيمها، ذلك أنّ الدّعوة آنذاك في عهدها المكي ويتناسب هذا مع مقتضى الحال عند نزول هذه السّور، كما يتناسب مع النتيجة التي أظهرها البحث في الفصل الخامس وهي أنّ عدد الآيات التي تضمنت ذكر الكافرين وصفاتهم كانت أكثر من عدد الآيات التي تضمنت ذكر المؤمنين، فناسب هذه الكثرة أنْ يأتي ذكر النّار والتّرهيب بعذابها - في سور الحواميم - مناسباً الحال ولواقع كثرة آيات ذكر الكافرين.
- أكّد البحث على إظهار سر التّعبير ببعض الفنون البلاغيّة وفائدته إذ لم تكن الفنون البلاغيّة في السّياق القرآني مجرد إثراء لفنية التّعبير وإنّما كانت ضرورة يتطلبها الموقف والمعنى المراد التّعبير عنه والمعاني الثّواني، فضلاً عمّا لها من الأثر الكبير في نفس المتلقي، كما أكّد البحث على أنّ التّعبير عن المعاني بالأسلوب التّصويري هو أسلوب من أساليب الدّعوة القرآنية، ذلك أنّ الصّورة أقدر على إحداث الاستجابة المناسبة لأنّ المتلقي يحتاج إلى شيء من الرّؤية وإعمال العقل للوصول إلى المعنى المراد، ولا شكّ في أنّ المعاناة والتّفكير في سبيل هذا الوصول يشعر المتلقي بالمتعة والسّعادة لأنّ النّفس بطبيعتها تشعر بذلك حينما تظفر بشيء بعد طول معاناة، وأكثر ذلك نجده في الأسلوب الكنائي وبعض الفنون البلاغيّة الأخرى.
- بدا للبحث أنّ النّظم القرآني حين يعرض مشاهد عذاب النّار فهو يعرضها مادية حيناً ومعنوية حيناً آخر، ومزجاً بين الاثنين أحيانا أخرى، وفي كلّ صورة من صور النّار وألوان العذاب تهويل وزجر للنفس البشرية عن أنْ تقدم إلى ما يوصلها إلى هذا المصير، أمّا صورة الجنة وألوان نعيمها وحال أهلها فهي صورة لا تمل العين من رؤيتها وقراءة وصفها، صورة

تستميل النّفس إليها حيث تجد من اللذائذ ما يجمع بين الواقعية والمثالية، وفي ذلك ترغيب للنفس وحثّ لها على العمل من أجل رضا الله والفوز بالجنة، وقد كان التّصوير الفني في كلّ ذلك أسلوبا من أساليب الدّعوة القرآنية بجانبيه التّرغيبي والتّرهيبي.

- أظهر البحث ما تميز به النّظم القرآني من التّناسب، حيث أكّد على التّناسب بين المفردات، والتّناسب بين المعاني، والتّناسب بحسن التّذييل، والتّناسب بين الصّور، والتّناسب في الصّيغ التّعبيرية، والتّناسب في النّغم والإيقاع.
- جلى البحث ما تضمنته الحواميم من القواعد الإيمانية التي جاءت في سياقات مختلفة، منها القواعد الدّنيوية ومنها القواعد الأخروية ومنها المشتركة، فمِن هذه القواعد ما جاء خطاباً عاماً من الله تعالى للبشر، ومنها ما جاء على لسان الرّسول (ﷺ) ومِنها ما جاء على لسان الجن، ومنها ما جاء على لسان مؤمن آل فرعون، فالقواعد الدّنيوية يقف المتلقي إمامها بالتأمل والتّدبر ليجد فيها طريقا واضحاً يسير فيه نحو النّجاة بحياة حرة كريمة، وهو في ذلك يجتاز الدّنيا آمناً مطمئناً لأنه يسعى إلى رضا الله ورحمته، إذ يلتزم بدفع السّيئة بالحسنة ويستعيذ بالله من وساوس الشّيطان ويرجع إلى حكم الله في كلّ شيء إلى غير ذلك من القواعد الإيمانية الدّنيوية، أمّا القواعد الأخروية فهي التي تتعلق بالآخرة ومواقف الحساب إذ نجد فيها بعض قواعد هذا الحساب، فجزاء السّيئة مثلها، وجزاء العمل الصّالح دخول الجنة، ولا يستوي هناك المؤمن والكافر، وغير ذلك من قواعد الحساب الأخروي. أمّا القواعد المشتركة فهي التي تجمع بين الدّنيوية والأخروية ففيها تأكيد أمر وقوع السّاعة ونفي الرّيب عنه، وفيها ردّ على إنكار المشركين تخصيص الرّسالة للنبي (ﷺ) وبيان أنّ الله هو الذي يقسم الرّحمة بين عباده بمشيئته وقدرته، وغير ذلك من القواعد الإيمانية المشتركة. وقد تجلت في الآيات التي احتضنت هذه القواعد صفة التّعميم والشّمول لتصدق على النّاس جميعاً في كلّ زمان ومكان.
- أظهر البحث تواشج أسلوب القصر مع الاستعارة والذي منح بعض القواعد الإيمانية صفة الإيجاز ولا سيّما إيجاز القصر، كما أوضح البحث تواشج التّقديم مع الإيثار في كثير من المواضع ممّا يؤكد ضرورة النّظر إلى علوم البلاغة نظرة واحدة وأنْ ينصب التّحليل البلاغي على ما في نسيج النّص من الفنون البلاغيّة وأنْ تواشجها داخل النّص هو الذي يمنحه تلك الدّرجة من الإمتاع بالجمال والوفاء بالمعنى.
- أكّد البحث على أنّ سرّ قوة الجناس هو الانسجام وأنّ من أقوى عوامل أحداث الانسجام التشاكل في الوزن والصّوت، فسر قوته أيضا يكمن في أنّه يقرب بين مدلول اللفظ

وصوته من جهة وبين الوزن الموضوع فيه اللفظ من جهة أخرى، فضلاً عن أنّه يكسب النّص جمالاً وقدرة أكبر على التأثير ولا سيّما أنّ المعنى هو الذي يستدعيه.

- أكّد البحث على تواشج المشاكلة مع المجاز المرسل والذي منح النّظم جمالاً في الأسلوب وسموا في البلاغة، كما أكّد البحث على تواشج الطباق مع الاستعارة والذي منح النّظم دلالات كثيرة ولا سيّما ما يتعلق بتأثير الاستعارة في المتلقي من خلال تجسيد الوصف الاستعاري للمعاني بصورة مرئية.
- حاول البحث إحصاء الفنون البلاغيّة الواردة في الحواميم، والتي توالت في فصول البحث السّبعة على سبيل التّكرار، فقد تضمن الفصل الأوّل سبعة وثلاثين فناً بلاغياً، وتضمن الفصل الثّاني ثلاثين فناً، وفي الفصل الثّالث أحصى البحث خمسة وثلاثين فناً، وفي الفصل الرّابع ثلاثة وثلاثين فناً، واحتوى الفصل الخامس على خمسة وأربعين فناً، وتضمن الفصل السّادس ثلاثة وثلاثين فناً، فيما تضمن الفصل السّابع سبعة وعشرين فناً.
- بعد دراسة وإحصاء ما تضمنته الحواميم من الفنون البلاغيّة بدا واضحاً أنّ بعض هذه الفنون تستحق أنْ تكون دراسة مستقلة على مستوى القرآن الكريم، من ذلك (الاحتراس في القرآن الكريم) و(الإدماج في القرآن الكريم) و(التّغليب في القرآن الكريم) و(الاكتفاء في القرآن الكريم) وغيرها من الفنون التي تتطلب جهداً علمياً كبيراً وصبراً وأناة من أجل خدمة الكتاب الخالد ولغته العزيزة.

هذا ما يمكن قوله في خاتمة هذا البحث المتواضع الذي لا ندعي فيه الكمال لأنّ الكمال لله تعالى وحده، وحسبنا أنْ نبذل الجهد ونرنو بعين خاشعة ذليلة إلى الله (ﷻ) أنْ يتقبله مِنا وأنْ يجعله في كفة حسناتنا وأنْ يجعله جزءاً من العلم النّافع لنكفر به عن سيئاتنا، إنّه نعم المولى ونعم المجيب ...

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. .

# ثبت المصادر والمراجع


- ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار الرائد العربي، بيروت - ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السّيوطي، المكتبة الثقافية - بيروت، ١٩٧٣م.
- أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى أواخر القرن الرابع الهجري، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، د. ت.
- أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبد القادر حسين، دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة، د. ت.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده - مصر، إشراف محمد عبد اللطيف، د. ت.
- أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمر الزّمخشري، إشراف عبد الرحيم محمود، مطبعة أولاد اورفاند، ط١، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.
- أساليب التوكيد في القرآن، كاظم فتحي الراوي، مستل من مجلة آداب المستنصرية، العدد الأول ١٩٧٥ - ١٩٧٦، مطبعة المعارف - بغداد.
- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، د. قيس إسماعيل الأوسي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، ١٩٨٨م.
- أساليب النفي في القرآن، د. أحمد ماهر البقري، دار المعارف - القاهرة، ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.
- الاستثناء في القرآن الكريم، نوعه، حكمه، إعرابه، حسن طه الحسن، مطبعة الزهراء - الموصل، ١٤١٠هـ - ١٩٩٩م.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، علق حواشيه أحمد مصطفى المراغي بك، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ط١، ١٩٤٨م.
- أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم، د. محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- أسرار التكرار في القرآن، تاج القراء محمد بن حمزة الكرماني، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار بو سلامة للطباعة والنشر - تونس، ١٩٨٣م.
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، د. مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
- الأسلوبية، بيير جارو، ترجمة د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري - سورية - حلب، د. ت.
- اشتقاق أسماء الله، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق د. عبد الحسين مبارك، مطبعة النعمان - النجف، ١٩٧٤م.

- أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة، د. محمد حسين علي الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ١٩٨٦م.
- الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة - مصر، ط١، ١٩٨٤م.
- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف بمصر - القاهرة، ١٩٧١م.
- الإعجاز الفني في القرآن، د. عمر السلامي، مؤسسات عبد الكريم عبد الله - تونس، ١٩٨٠ م.
- إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط٣، د. ت.
- إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف، مطابع الأهرام التجارية - القاهرة، ١٩٧٠م.
- الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، د. محمود السيد حسن مصطفى، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، ط١، ١٩٨١م.
- الإعجاز والإيجاز، أبو منصور الثعالبي، دار الرائد العربي - بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م.
- إلى القرآن الكريم، محمود شلتوت، دار الشروق - بيروت، ١٩٧٧م.
- أمثال القرآن وأمثال الحديث، ابن قيم الجوزية، دراسة وتحقيق د. موسى بناي العليلي، منشورات مكتبة الشطري، مطبعة الجاحظ - بغداد، ١٩٩١م.
- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، أحمد بن منير الاسكندري (بذيل كشاف الزمخشري)، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.
- الإنسان في القرآن، عباس محمود العقاد، دار الهلال - مصر، د. ت.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضاوي، ناصر الدين بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار الجيل - المطبعة العثمانية، ١٣٢٩هـ.
- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، عني بتصحيحه إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتاب العربي - بيروت، د. ت.
- البديع في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٧٩م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط٢، د. ت.
- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني، تحقيق د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، بغداد، ١٩٧٤م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق محمد علي النجار، لجنة إحياء التراث - القاهرة، ١٩٦٥م.
- البلاغة التطبيقية، دراسة تحليلية لعلم البيان، د. محمد رمضان الجربي، منشورات جامعة ناصر الخمس، مسلاته، ط١، ١٩٩٥م.
- البلاغة العربية، المعاني والبيان والبديع، د. أحمد مطلوب، وزارة التعليم العالي والبحث

العلمي، بغداد، ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- البلاغة عرض وتوجيه وتفسير، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع - عمان، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- البلاغة فنونها وأفنانها، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع - الأردن، ط١، ١٩٨٧م.
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر - عمان، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- بلاغة الكلمة والجملة والجمل، د. منير سلطان، منشأة المعارف بالإسكندرية، د. ت.
- البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، هنريش بليث، ترجمة وتعليق د. محمد العمري، مطبعة فضالة، ط ١، ١٩٨٩م.
- البناء الصوتي في البيان القرآني، د. محمد حسن شرشر، دار الطباعة المحمدية - القاهرة، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- البيان القصصي في القرآن الكريم، د. إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة - القاهرة، ط١، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق د. حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة، ١٩٦٣م.
- التّحرير والتّنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، دار الجماهير للنشر والتوزيع، د. ت.
- التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، د. واجدة الاطرقجي، منشورات وزارة الثقافة والفنون - العراق، ١٩٧٨م.
- التصوير البياني، د. حفني محمد شرف، مكتبة الشباب - القاهرة، ط٢، ١٩٧٢م.
- التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة - القاهرة، ط٢، ١٩٨٠م.
- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، د. م، د. ت.
- التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة، د. ابتسام مرهون الصفار، مطبعة الآداب في النجف الاشرف، ط١، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- التعبير البياني، رؤية بلاغية نقدية، د. شفيع السيد، مكتبة الشباب - مصر، ١٩٧٧م.
- التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين، دار الشروق - القاهرة، ط٣، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م.
- التّعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، دار الكتب للطباعة والنشر - جامعة الموصل، ١٩٨٧م.
- التعريف والتنكير في النحو العربي، دراسة في الدلالة والوظائف النحوية، د. أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق - القاهرة، د. ت.
- التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٦م.

- تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البروسوي، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين بن الحسين القمي النيسابوري (بهامش تفسير الطبري)، دار المعرفة - بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- التفسير القيم، ابن قيم الجوزية، جمعه: محمد أويس الندوي، حققه محمد حامد الفقي، لجنة إحياء التراث العربي - بيروت، ١٩٤٨م.
- التفسير الكبير المسمى بـ (البحر المحيط)، أثير الدين أبي عبد الله بن حيان الأندلسي الشهير بأبي حيان، مكتبة ومطابع النصر الحديثة - الرياض، د. ت.
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية - طهران، ط٢، د. ت.
- تفسير النّسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، دار الفكر، د. ت.
- التّقابل والتّماثل في القرآن الكريم، د. فايز عارف القرعان، المركز الإعلامي للنشر - اربد - الأردن، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي - القاهرة، ط١، ١٩٥٥م.
- تناسق الدّرر في تناسب السور، جلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار النصر للطباعة الإسلامية - القاهرة، ١٩٧٦م.
- التّنغيم اللغوي في القرآن الكريم، سمير إبراهيم وحيد العزاوي، دار الضياء للنشر والتوزيع - الأردن، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البروسوي، اختصار وتحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، الدار الوطنية للنشر والتوزيع - بغداد، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة - بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، عن طبعة دار الكتب المصرية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٧م.
- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة، محمود صافي، انتشارات مدين، مطبعة النهضة - قم، ط١، ١٩٩١م.
- جماليات الصورة الفنية، ميخائيل اوفيانيكوف - ميخائيل خرابشنكو، ترجمة رضا الظاهر، دار الهمداني للطباعة والنشر - عدن، ط١، ١٩٨٤م.
- جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، أحمد ياسوف، تقديم د. نور الدين عتر، دار المكتبي - دمشق، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن القاسم المرادي، تحقيق طه محسن، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٧٦م.
- حسن التوسل إلى صناعة الترسل، شهاب الدين محمود الحلبي، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م.

- خصائص التراكيب - دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، دار التضامن للطباعة - القاهرة، ط٢، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- خطاب الأنبياء في القرآن الكريم، خصائصه التركيبية وصوره البيانية، د. عبد الصمد عبد الله محمد، مكتبة الزهراء - القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- دراسات في البلاغة العربية، د. عبد العاطي غريب علام، منشورات جامعة قار يونس - بنغازي، ط١، ١٩٩٧م.
- دراسات في علم النفس الإسلامي، د. محمود البستاني، دار البلاغة - بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- دراسة أدبية لنصوص من القرآن، محمد المبارك، دار الفكر - دمشق، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.
- درّة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الاسكافي، برواية ابن أبي الفرج الاردستاني، منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة - القاهرة، ١٩٤٥م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق د. محمد رضوان الداية، د. فايز الداية، مكتبة سعد الدين - دمشق، ط٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- دلالات التراكيب - دراسة بلاغية، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة - القاهرة، ط١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- روائع الإعجاز في القصص القرآني، محمود السيد حسن، المكتب الجامعي الحديث - الإسكندرية، د. ت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، دار الفكر، د. ت.
- الزمن في القرآن الكريم - دراسة دلالية للأفعال الواردة فيه، د. بكري عبد الكريم، دار الفجر للنشر والتوزيع - القاهرة، ط٢، ١٩٩٩م.
- سيكولوجية القصة في القرآن، د. التهامي نقرة، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧١م.
- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر - بيروت، مكتبة دار التربية، بغداد، ١٩٨٦م.
- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، دار الكتب العلمية - بيروت، د. ت.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصّابوني، دار القرآن الكريم - بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م.
- الصّورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، الولي محمد، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٠م.
- الصّورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د. جابر أحمد عصفور، دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة، ١٩٧٤م.
- ظاهرة التّرادف في ضوء التفسير البياني للقرآن الكريم، د. طالب محمد الزوبعي، منشورات جامعة قار يونس - بنغازي، ط١، ١٩٩٥م.

- الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، نذير حمدان، دار المنايرة - جدة - السعودية، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- ظاهرة الحذف في الدّرس اللغوي، د. طاهر سليمان حمودة، الدار الجامعية للطباعة والنشر - الإسكندرية، ١٩٩٩م.
- علم البديع، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية - بيروت، ١٩٧٤م.
- علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية - بيروت، ١٩٧٤م.
- الفاصلة في القرآن، د. محمد الحسناوي، دار عمار - عمان، ط٢، ١٩٨٦م.
- فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب صديق بن حسن القنوجي، تقديم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، إدارة إحياء التراث الإسلامي - قطر، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر للطباعة والنشر، د. ت.
- الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، ضبطه وحققه حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية - بيروت، د. ت.
- الفصل والوصل في القرآن الكريم، دراسة في الأسلوب، د. منير سلطان، منشأة المعارف - الإسكندرية، ط٢، ١٩٩٧م.
- فصول في البلاغة، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع - عمان، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، د. فتحي أحمد عامر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة، ١٩٧٥م.
- فلسفة البلاغة بين التّقنية والتّطور، د. رجاء عيد، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٩م.
- فنّ الاستعارة، دراسة تحليلية في البلاغة والنقد، د. أحمد عبد السيد الصاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية، ١٩٧٩م.
- فنّ البلاغة، د. عبد القادر حسين، دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣ م.
- فنون التصوير البياني، د. توفيق الفيل، منشورات ذات السلاسل - الكويت، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت، د. ت.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٧، ١٩٧١م.
- القرآن إعجاز يتعاظم، شاكر عبد الجبار، مطبعة الحوادث - بغداد، ط١، ١٩٨٥م.
- القرآن والصورة البيانية، د. عبد القادر حسين، عالم الكتب - بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان - عمان، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- قضايا اللغة في كتب التفسير، د. الهادي الجطلاوي، دار محمد علي الحامي - تونس - سوسة، ط١، ١٩٩٨م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود بن

عمر الزّمخشري، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.
📖 الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء الحسيني الكفوي، إعداد د. عدنان درويش، ومحمد المصري، إحياء التراث العربي - دمشق، ١٩٧٥م.
📖 لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، دار احياء العلوم - بيروت، ط٤، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
📖 لسان العرب، أبو الفضل محمد بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
📖 لغة القرآن الكريم، د. عبد الجليل عبد الرحيم، مكتبة الرسالة الحديثة - عمان، ط١، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.
📖 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة، ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م.
📖 مجاز القرآن، خصائصه الفنية وبلاغته العربية، د. محمد حسين علي الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ط١، ١٩٩٤م.
📖 محاسن التّأويل، محمد جمال الدين القاسمي، خرج آياته وأحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط١، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧ م.
📖 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، قطر - الدوحة، ط١، ١٩٨٨م.
📖 مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
📖 المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د. عبد الله الطيب المجذوب، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط١، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
📖 المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الفكر - بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
📖 المشاهد في القرآن الكريم، دراسة تحليلية وصفية، د. حامد صادق قنيبي، مكتبة المنار - الزرقاء - الأردن، ط١، ١٩٨٤م.
📖 مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار الكتاب الإسلامي - غيران، د. ت.
📖 معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
📖 المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، د. فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٦م.
📖 المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف - مصر، ط٣، ١٩٧٨م.
📖 معترك الإقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، ضبطه وصححه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
📖 المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين - بيروت، ط١، ١٩٧٩م.
📖 معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة، منشورات جامعة طرابلس، ط١، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

📖 معجم المصطلحات البلاغية، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
📖 المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث - القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
📖 معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، جديدة ومنقحة، اعتنى به د. محمد عوض مرعب، وفاطمة محمد حاصلان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
📖 مغني اللبيب عن كتب الاعاريب، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني - القاهرة، الناشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر، د. ت.
📖 مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م.
📖 المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني، أعده للنشر د. محمد أحمد خلف الله، مكتبة الانجلو المصرية، د. ت.
📖 مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري، د. أحمد جمال العمري، دار المعارف - القاهرة، ١٩٨٢م.
📖 مقالات في الأسلوبية، د. منذر عياشي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٠م.
📖 مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، مطبعة لجنة البيان العربي، ط١، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢م.
📖 مَلاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من آي التنزيل، أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق د. محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
📖 مِن أدب القرآن، د. أحمد الشرباصي، دار المعارف بمصر - القاهرة، ١٩٧٦م.
📖 مِن أسرار اللغة، ابراهيم انبس، مكتبة الانجلو المصرية، ط٢، ١٩٦٦م.
📖 مِن الأشباه والنّظائر في القرآن، عبد العزيز سيد الأهل، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
📖 مناهج وآراء في لغة القرآن، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع - عمان، ١٩٨٤م.
📖 مِن بديع لغة التنزيل، د. إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، دار الفرقان، عمان - الأردن، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
📖 مِن بلاغة القرآن، د. أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، ط٣، د. ت.
📖 المنهج الصوتي للبنية العربية، د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
📖 من وحي القرآن، د. ابراهيم السامرائي، مؤسسة المطبوعات العربية - بيروت، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
📖 موسوعة الحروف في اللغة العربية، إعداد د. إميل بديع يعقوب، دار الجيل - بيروت، ط١،

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- نتائج الفكر في النّحو، أبو القاسم السهيلي، تحقيق محمد ابراهيم البنا - بيروت، ١٩٧٨م.
- نحو القرآن، د. أحمد عبد الستار الجواري، مطبعة المجمع العلمي العراقي - بغداد، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م.
- نحو المعاني، د. أحمد عبد الستار الجواري، مطبعة المجمع العلمي العراقي - بغداد، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
- النّص القرآني من الجملة إلى العالم، وليد منير، المعهد العالمي للفكر الاسلامي - القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- نظرات في القرآن، محمد الغزالي السقا، دار الكتب الحديثة - القاهرة، د. ت.
- نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، برهان الدين أبي الحسن ابراهيم بن عمر البقاعي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- النظم الفني في القرآن، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية - مصر، د. ت.
- النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط٣، د. ت.
- نهاية الإيجاز في دراية الاعجاز، فخر الدين الرازي، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، ومحمد بركات حمدي، دار الفكر للنشر والتوزيع - عمان، ١٩٨٥م.
- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، د. محمد محمود حجازي، دار الكتب الحديثة، مطبعة المدني - القاهرة، ط١، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## البحوث المنشورة في الكتب الجامعة والدّوريات

- الإعجاز التّأثيري للقرآن الكريم، دراسة تاريخية وتطبيقية من القرآن والسيرة النبوية، بحث من شبكة الانترنيت - الموقع على الانترنيت:
http: //www. qudsway. com/links/Islamyiat/٢html_islamyiat٢/٢his/٢. htm.
- الجرس والإيقاع في تعبير القرآن، د. قاصد ياسر الزّيدي، مجلة آداب الرافدين - جامعة الموصل، عدد ٩، ١٩٧٨م.
- رسالة الرّماني (النّكت في إعجاز القرآن) تحليل ونقد، د. فضل حسن عباس، مجلة دراسات (الشريعة والقانون)، الجامعة الأردنية - عمان، المجلد ١٦، العدد ١٠، ١٩٨٩م.
- مقتضى الحال مفهومه وزواياه في ضوء أسلوب القرآن الكريم، د. سميرة عدلي محمد رزق، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، عدد ١٩، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م. (شبكة الانترنيت).
- نظر الجاحظ في فهم وذوق النص القرآني والحديثي، د. مصطفى الصاوي الجويني، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، المجلد ٢٧، ١٩٧١م.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

## الرّسائل الجامعيـة


📖 أساليب المجاز في القرآن الكريم، أحمد حمد محسن الجبوري، أطروحة دكتوراه، مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة بغداد، بإشراف د. أحمد مطلوب، ١٩٨٩م.

📖 الاستعارة في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، رسالة ماجستير، مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة الموصل، بإشراف د. جليل رشيد فالح، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

📖 الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، محمد كريم الكواز، أطروحة دكتوراه، مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة بغداد، بإشراف د. ماهر مهدي هلال، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

📖 الاقتران الثّنائي بين أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم، ألفاظه ودلالاته، فخري أحمد سليمان الجريسي، رسالة ماجستير، مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة الموصل، بإشراف د. عبد الوهاب محمد علي العدواني، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

📖 الألفاظ النّفسية في القرآن الكريم، دراسة دلالية، أيمن توفيق الوتاري، رسالة ماجستير، مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة الموصل، بإشراف د. قاصد ياسر الزيدي، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

📖 آيات التّسلية في القرآن الكريم، دراسة بلاغيّة، أحمد بشير نذير، رسالة ماجستير، مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة الموصل، بإشراف د. أحمد فتحي رمضان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

📖 البنى والدّلالات في القصص القرآني، دراسة فنية، عماد عبد يحيى، أطروحة دكتوراه، مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة الموصل، بإشراف د. عبد الوهاب محمد علي العدواني، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

📖 سورة المؤمن، دراسة لغوية تحليلية، فيصل مرعي حسن الحريثي، رسالة ماجستير، مقدمة إلى كلية التربية - جامعة الموصل، بأشراف د. عبد الوهاب محمد علي العدواني، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

📖 الكناية في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، أطروحة دكتوراه، مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة الموصل، بإشراف د. مناهل فخر الدين فليح، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

📖 المجاز المرسل في القرآن الكريم، ياسر محمد أمين جميل، رسالة ماجستير، مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة الموصل، بإشراف د. أحمد فتحي رمضان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.


❖ ❖ ❖ ❖ ❖

# فهرس المحتويات


المقدمة........................................................ ٣

التمهيد ........................................................ ٩

**الفصل الأوّل: تنزيل القرآن وصفاته** ........................................ ١٨

توطئة ........................................................ ١٨

المبحث الأوّل: تنزيل القرآن وصفاته باعتبار المرسل ........................ ١٨

المبحث الثّاني: تنزيل القرآن وصفاته لذاته........................................ ٤٦

المبحث الثّالث: تنزيل القرآن وصفاته باعتبار المخاطبين........................ ٥١

الجدول البياني للفنون البلاغيّة الواردة في الفصل الأوّل........................ ٧١

**الفصل الثّاني: النِّعم الإلهية** ........................................ ٧٥

توطئة ........................................................ ٧٥

المبحث الأوّل: نعمة الخلق والإيجاد........................................ ٧٥

المبحث الثّاني: نعمة التّسخير ........................................ ٩١

المبحث الثّالث: نعمة الهداية........................................ ١١٣

الجدول البياني للفنون البلاغيّة الواردة في الفصل الثّاني........................ ١٣٤

**الفصل الثّالث: قصص الأنبياء والأمم السّابقة**........................................ ١٣٨

توطئة........................................................ ١٣٨

المبحث الأوّل: الأنبياء والأمم السّابقة بشكل عامّ ........................ ١٣٩

المبحث الثّاني: قوم عاد وثمود ........................................ ١٥٨

المبحث الثّالث: قوم إبراهيم عليه السلام........................................ ١٦٩

المبحث الرّابع: قوم موسى وعيسى (عليهما السّلام) ........................ ١٧٣

أوّلا : موسى عليه السلام وفرعون ........................................ ١٧٣

ثانيا : موسى ﷺ وبني إسرائيل ........ ٢٠٢
ثالثاً : قوم عيسى ﷺ ........ ٢٠٨
الجدول البياني للفنون البلاغيّة الواردة في الفصل الثّالث ........ ٢١٢
**الفصل الرّابع: خطاب الرّسول ﷺ** ........ ٢١٩
توطئة ........ ٢١٩
المبحث الأوّل: الخطاب الخاص ........ ٢١٩
أوّلا : خطاب التّشريف ........ ٢١٩
ثانيا : خطاب التّحبيب ........ ٢٣٢
ثالثا : خطاب التّشجيع ........ ٢٣٩
رابعا : خطاب التّنفير ........ ٢٤١
خامسا : خطاب التّأنيس ........ ٢٤٤
سادسا : خطاب الاعتبار ........ ٢٤٩
المبحث الثّاني: الخطاب العام ........ ٢٥٢
أوّلا : خطاب التّهديد والوعيد ........ ٢٥٢
ثانياً : خطاب الحجاج ........ ٢٦٣
ثالثاً : خطاب التّلطف ........ ٢٧٨
الجدول البياني للفنون البلاغيّة الواردة في الفصل الرّابع ........ ٢٨١
**الفصل الخامس: الإنسان، والإيمان والكفر** ........ ٢٨٨
توطئة ........ ٢٨٨
المبحث الأوّل: التّقابل بين ذكر المؤمنين والكافرين ........ ٢٨٩
المبحث الثّاني: الإنسان والإيمان ........ ٣٠٣
المبحث الثّالث: الإنسان والكفر ........ ٣١٨
أولاً : الجدل والتّكذيب بالآيات ........ ٣١٨
ثانيا : الاستكبار عن العبادة والإعراض عن الدّعوة ........ ٣٣٥
ثالثا : الإشراك والبغي ........ ٣٥٣

رابعاً : إنكار البعث والحساب ........................ ٣٧٢
الجدول البياني للفنون البلاغيّة الواردة في الفصل الخامس ........................ ٣٨١
**الفصل السّادس: مشاهد القيامة** ........................ ٣٩٢
توطئة ........................ ٣٩٢
المبحث الأوّل: البرزخ وموقف الحساب ........................ ٣٩٣
المبحث الثّاني: التّقابل بين أصحاب الجنة وأصحاب النّار ........................ ٤٠٧
المبحث الثّالث: الجنـة ........................ ٤١١
المبحث الرابع: النار ........................ ٤١٦
الجدول البياني للفنون البلاغيّة الواردة في الفصل السّادس ........................ ٤٤٦
**الفصل السّابع: قواعد إيمانية** ........................ ٤٥٣
توطئة ........................ ٤٥٣
المبحث الأوّل: من القواعد الدّنيوية ........................ ٤٥٤
المبحث الثّاني: مِن القواعد الأخروية ........................ ٤٦٩
المبحث الثّالث: مِن القواعد المشتركة ........................ ٤٧٧
الجدول البياني للفنون البلاغيّة الواردة في الفصل السّابع ........................ ٤٨٢
الخاتمة ........................ ٤٨٥
ثبت المصادر والمراجع ........................ ٤٩٧
فهرس المحتويات ........................ ٥٠٧

# VERSES OF ḤA-MĪM

## RHETORICAL AND ANALYTICAL STUDY

by

ʿAbd al-Qādir al-Ḥamadāni

دار الكتب العلمية®
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban